

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية

ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية

بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي

والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان

ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد الرابع

المائدة والأنعام


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ (٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- سورة المائدة هي السورة الخامسة في ترتيب المصحف، والحادية والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الفتح على الأرجح.

وهي مئة وعشرون آية في العدد الكوفي[1].

وهي ألفان وثمان مئة وأربع كلمات، وأحد عشر ألفًا وسبع مئة وثلاثة وثلاثون حرفًا.

٢- وتسمى (سورة المائدة) و(سورة العقود) و(المنقذة)؛ لأنها تنقذ العبد من ملائكة العذاب، ويقال لها: (سورة الأخيار)، أي: الذين يوفون بالعهد، فهذه أربعة أسماء لها.

وسميت سورة المائدة؛ لذِكْر قصة نزول المائدة فيها، وقد طلبها الحواريون من عيسى ﷺ للدلالة على صدق نبوته، وجاء ذكرها في أربع آيات من آخر السورة [١١٢- ١١٥].

والأوْلَى أن تُسمَّى سورة العقود؛ لأنها افتتحت بذكر العقود، واشتملت على عدد منها صراحة أو ضمنًا؛ فالصريح منها: عقود الأنكحة، وعقد الصداق، وعقد الحلف، وعقد المعاهدة والأمان.

ومن الضمني: عقد الوصية، والوديعة، والوكالة، والعارية، والإجارة، وغير ذلك.

وفي السورة ستة عشر نداء للمؤمنين؛ كل نداء يتضمن أمرًا، أو نهيًا، أو توجيهًا، أو حُكمًا، وفيها خمس نداءات لأهل الكتاب، ونداء خاصٌّ بالنبي ﷺ.

٣- وسورة المائدة سورة مدنية باتفاق، نزل كثير منها بعد العام السادس من الهجرة بعد سورة الممتحنة، وبعد نزول سورة الفتح التي نزلت بعد صلح الحديبية، وبعد عَقْد شروط الصلح التي وقَّع عليها النبي ﷺ بينه وبين المشركين، ونزل ضمن الآية الثالثة من هذه السورة قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ في يوم عرفة في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة.

(١) ومئة واثنتان وعشرون آية في العدد المكي والمدني والشامي، ومئة وثلاث وعشرون آية في العدد البصري.

٤- وسورة المائدة - كالسور الثلاث التي قبلها- تهدف إلى إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع يقيم منهج الله، ويتحاكم إليه في جميع شؤونه، وتُبيِّن علاقة المسلم بغيره، وعلاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم.

٥- والسورة كلها تشريع، وكلها حلال وحرام، فقد اشتملت على كثير من أحكام التشريع، كما ذكرتُ: أحكام الصيد، والذبائح، والإحرام، ونكاح الكتابيات، والردة، والطهارة، وحد الحرابة، والسرقة، والحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وكفارة اليمين، وقتل الصيد في الحرم، وفي أثناء الإحرام، وذكرت حكم الخمر، والميسر، والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، والوصية عند الموت.

وخُتِمت السورة بذكر الموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر، وهي تتحدث كثيرًا عن أهل الكتاب. لا سِيَّمَا اليهود وتَخاذُلِهم عن دخول الأرض المقدسة، وتتحدث عن عقيدة الولاء والبراء في الإسلام.

وسورة المائدة من آخر ما نزل على الرسول ﷺ، وقد نزل بعدها سورة التوبة، وسورة النصر.

عن جبير بن نفير قال: حججتُ فدخلتُ عليَّ عائشة ﵂ فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، قالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلُّوه، وما وجدتم من حرام فحرموه(١).

وعن أسماء بنت يزيد ﵂ قالت: إني لآخذة بزمام العضباء - ناقة رسول الله ﷺ - إذ نزلت عليه المائدة كلها، فكادت من ثقلها تدق عنق الناقة(٢).

وكل سُوَر القرآن يجب أن يُحَلَّ حلالها ويحرمَ حرامُها، وإنما خُصت سورة المائدة

---

(١) الحديث سنده حسن، وفيه معاوية بن صالح، صدوق، له أوهام، وقد رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/٣١١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي،ورواهأحمد في «المسند» (٦/ ١٨٨) برقم (٢٥٥٤٧) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه النسائي في التفسير رقم (١٥٨) وفي «السنن الكبرى» برقم (١١١٣٨) والبيهقي في «السنن» (٧/ ١٧٢).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٧٥، ٢٧٥٩٢) فيه ليْث بن أبي سليم، وشهر بن حوشب، ضعيفان، وباقي رجاله ثقات، والطبري (٨/ ٨٩) والطبراني في الكبير (٤٤٨) والبيهقي في الشعب (٢٤٣٠) قال محققو المسند: حسن لغيره، وجاءت أحاديث أخرى بنحو هذا المعنى في المسند (٢٧٥٩٢) وعن عبدالله بن عمرو (٦٦٤٣).

بالذكر؛ لزيادة الاعتناء بها، ولأن فيها كثيرًا من أحكام التشريع لم تنزل في غيرها، ولم ينزل ناسخ ينسخ هذا التحليل أو هذا التحريم، فهي آخر ما نزل في التشريع والحلال والحرام.

والصحيح أنها لم تنزل جملة، وإنما نزلت متفرقة بعد صلح الحديبية، وبعد غزوة ذات الرقاع، والمريسيع، وفي حجة الوداع، وغير ذلك.

فقد نزلت آية التيمم بالبيداء عند دخول الصحابة المدينة بعد انتهائهم من غزوة المريْسِيع، ونزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [١١] ببطن نخلة.

ونزل ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [٦٧] في غزوة ذات الرقاع.

وكان بعض السورة معروفًا لدى الصحابة قبل غزوة بدر، فقد قال المقداد بن الأسود: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فوالله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك ومن خلفك(١).

ومن المعلوم أن قوة اليهود، ونفوذهم في المدينة قد انتهى بعد فتح خيبر في أوائل السنة السابعة من الهجرة، وقد ذكرت السورة ألوانًا من تعنت اليهود وتحاكمهم إلى النبي ﷺ لا لأجل الوصول إلى الحق، وإنما من أجل إظهاره بمظهر الجاهل بأحكام التوراة، ومن ذلك أنهم كانوا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾ [٤١]. ومع هذا فإن جانبًا كبيرًا من السورة نزل بعد صلح الحديبية وبعد فتح مكة، وفي حجة الوداع.

٦- وقد نزلت هذه السورة ولم يبق معاند للإسلام سوى اليهود المستوطنين في المدينة وما حولها، والنصارى المتاخمين لحدود الشام؛ حيث بلغ الفتح الإسلامي.

ولأن نزول السورة كان في آخر عهد اليهود بالمدينة، فقد كان نطاق المجادلة معهم قليلًا، ولأن الاختلاط مع النصارى أصبح أشد من اليهود، فقد اتسع نطاق المجادلة معهم في السورة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥/ ٩٢) برقم (٤٦٠٩) من حديث عبد الله بن مسعود وانظر: (٣٩٥٢).

وقد جاء في السورة خمس نداءات لأهل الكتاب: اثنين منها مباشرين وهما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [١٥].

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [١٩]

وثلاث نداءات بواسطة النبي ﷺ، وهي:

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ [٥٩].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ [٦٨].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [٧٧].

وذكرت السورة تاريخًا موجزًا لموقف أهل الكتاب من شرائع الدماء والأعراض، فبينتْ أنها أحكام نزلت في التوراة ليلتزم بها اليهود، وتأكدتْ هذه الشرائع في الإنجيل؛ ليحكم بها النصارى، فمن ترك هذه الأحكام جحودًا أو جورًا أو فسقًا؛ فهو داخل في الكفر؛ أو الظلم؛ أو الفسق.

وهذه الأحكام كانت صالحة للعمل مدة صلاحية التوراة، ثم انتقل الأمر إلى الإنجيل، وبعد مجيء القرآن وجب على اليهود والنصارى وغيرهم الانتقال إلى الوحي الجديد، والرسالة الخاتمة ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [٤٨]. ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [٤٩].

فالدين الأخير قد اكتملت فيه العقيدة والشريعة، وقد ارتضاه الله لعباده إلى يوم القيامة، ناسخًا لجميع الشرائع التي سبقته.

وقد ذكرت السورة فئتيْن من اليهود والنصارى، ونهتْنا عن موالاتهم ومودتهم:

الفئة الأولى: فئة تكره الإسلام وتفضِّل عليه أيَّ شَرْع آخر، وقد امتلأت قلوبهم بالضغائن، حتى قال بعضهم أخيرًا: نحن نقبل تشريعات استراليا أو أمريكا، ولا نقبل شريعة محمد، وفيهم وفي أمثالهم يقول تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [٤٩].

الفئة الثانية: فئة تسخَر من شعائر الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقد ذكرت السورة في نحو أربع صفحات منها، تناقض أهل الكتاب في أقوالهم وأفعالهم، وضرورة استنكار ما يفعلون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

هذا فضلًا عما نعتتْهُ السورة عليهم بسبب نقضهم العهود والمواثيق، وفي ذلك يقول تعالى عن اليهود: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ﴾.

ويقول عن النصارى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [١٤].

ولن يدخل أهل الكتاب ساحة الإسلام إلا إذا ضمُّوا إلى التوراة والإنجيل ما جاء به النبي الخاتم، فآمنوا وعَمِلوا بما جاء به، واعترفوا بأن رسالته تؤمن برسالة موسى وعيسى في زمانهما ومكانهما، ولكنها رسالات لا تصلح بعد بعثة خاتم المرسلين والنبيين..

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ [٦٨].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ﴾ [٦٥، ٦٦].

إن تراث أهل الكتاب السابق يشبه دواء محدد الصلاحية، بمدة معينة لا يصلح بعدها للاستشفاء، بل يكون ضارًّا ومضاعِفًا للآلام بعد انتهاء تاريخ صلاحيته، وشريعة الإسلام تضمنت أسباب بقائها إلى آخر الدهر، فهي تُوائم طِباع البشر، وتتجاوب مع نداء الفطرة، وبها يصلُح كل زمان ومكان.

وقد ذكرت السورة قصَّتين في سياق الحديث عن أهل الكتاب:

القصة الأولى: قصة بني إسرائيل عندما كُلِّفوا بمُقاتلة الجبارين ودخول الأرض المقدسة، بعد أن أثار موسى حماسهم وذكَّرهم بنعم الله تعالى عليهم، ثم دعاهم للجهاد فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾ ولكنهم جَبُنوا وتخاذلوا، وظنوا أنهم مقبولون عند الله تعالى مهما كانت أقوالهم وأفعالهم، وعندئذ تَقَرَّرَ طردُهم وتشتيتهم في أرجاء الأرض دون أن يكون لهم وطن خاص يجمعهم إلى يوم القيامة؛ حيث حُرِّم عليهم دخول الأرض المقدسة إلى الأبد، وحُرِّم عليهم إقامة وطن لهم فيها كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ [٢٦].

وقد جعل الله تعالى أرض سيناء مصيدة لهم، يتيهون فيها ويحتبسون داخلها أربعين عامًا، فقال تعالى: ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [٢٦]. فلم يعرفوا طريقًا للخروج منها، حتى هلك أكثرهم داخلها، عقوبة لهم على جُرأتهم على الله تعالى، وعلى عدم إجابتهم أمر نبيهم، وعلى جُبنهم عن قتال أعدائهم.

القصة الثانية: قصة ابني آدم اللذيْن قتل أحدهما الآخر حسدًا له؛ لأنه رأى أنه أفضل منه، وبعد أن تخلص منه لم يعرف كيف يدفنه بعد مماته ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ [٣١].

ولقد عدَّ الله سبحانه هذه الجريمة ضد الإنسانية كلها، بدْءًا ببني إسرائيل فقال تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [٣٢].

٧- **هذا:** وتقوم سورة المائدة على **أصلين كبيرين:**

الأصل الأول: تقرير وحدانية الله تعالى، ونفْي كل شرك عنه سبحانه، جاء ذلك في مثل قوله تعالى:

١- ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [٧٢].

٢- وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ [٧٣].

٣- وقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [١٥].

٤- وقوله أيضًا ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ [١٩].

الأصل الثاني: التعدي على خصائص الألوهية والعبودية، وما دام الله سبحانه واحدًا في ذاته وصفاته، فلا يجوز لكائن من كان أن يتعدى على خصائص الألوهية والعبودية على الإطلاق، فالله تعالى هو الخالق، وهو المالك، فهو الذي يشرِّع، وهو الذي يحلل ويحرم، وهو وحده الذي يطاع فيما أمر ونهى، وهو وحده الذي يَتوجَّه إليه الناس بالعبادة، ومنها الوفاء بالعقود والعهود، والذبح لله، والنذر لله.

ومن خصائص الألوهية ما يتعلق بتحقيق العدل بين الناس؛ كإقامة الحدود على المجرمين من السارقين، وشاربي الخمر، وأمثالهم... إلخ.

ومن التعدي على خصائص الألوهية الحكم بغير ما أنزل الله؛ لإقامة المنهج غير الرباني بين الناس، وعدم تقرير أن الذين يحكمون بغير ما أنزل الله هم الكافرون والظالمون والفاسقون، وهم الذين يبغون حكم الجاهلية، وقد تعرضت السورة لهذا الجانب بما لا يوجد في سورة أخرى.

والآيات التي تقرر ذلك وإن جاءت في سياق الحديث عن أهل الكتاب، إلا أنها تعني المسلمين أساسًا؛ لأنها موجَّهة إليهم في كتابهم، ولذلك فإن الآيات التي بعدها وجَّهت الأمر المباشر إلى النبي ﷺ؛ لتقرير هذه القضية، فقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [٤٩]. وقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [٥٠].

وفي جانب التشريع الذي هو من خصائص الألوهية يقول القرطبي:

قال أبو ميسرة: المائدة من آخر ما نزل، ليس فيها منسوخ، وفيها ثماني عشرة فريضة، ليست في غيرها، وهي: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِ﴾ ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ وإتمام الطهور: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إتمام ما لم يُذْكَر في سورة النساء ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ و﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ إلى قوله: ﴿عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ و﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾

وقوله تعالى: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

ثم قال القرطبي: قلت: وفريضة تاسعة عشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إذ ليس للأذان ذكر في القرآن إلا في هذه السورة، أما ما جاء في سورة الجمعة فمخصوص بالجمعة، وهو في هذه السورة عام لجميع الصلوات[1].

أقول: وفي السورة أحكام تشريعية أخرى؛ كتحريم الخمر والميسر، والأنصاب والأزلام، وأحكام التيمم والغسل، والسرقة وقطع الطريق والإفساد في الأرض، وكفارة اليمين، وحفظ شعائر الله في الحج، والأشهر الحرم، وأحكام القصاص في النفس والجوارح، وأصول التعامل بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب وسائر المشركين والمنافقين، والولاء والبراء، والتنويه بالكعبة وبكرامتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوصية عند الموت.

أما حظ المؤمنين في سورة المائدة فقد وجِّهت إليهم ستة عشر نداء، وهي تفوق النداءات التي وُجِّهت للمؤمنين في سورة البقرة، وقد تضمن كل نداء فيها: تشريعًا، أو توجيهًا، أو أمرًا، أو نهيًان لتربية المؤمنين على منهج الله تعالى، وهذه النداءات هي قوله تعالى:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [١].

٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [٢].

٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [٦].

٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [٨].

٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [١١].

٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [٣٥].

٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [٥١].

٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [٥٤].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٦/ ٣٠).

٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [٥٧].

١٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [٨٧].

١١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾ [٩٠].

١٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ [٩٤].

١٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [٩٥].

١٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [١٠١].

١٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [١٠٥].

١٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [١٠٦].

ووجهت السورة نداءيْن بوصف الرسالة للنبي ﷺ خاصة، وهما قوله تعالى:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [٤١].

٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [٦٧].

وبعد ذكر قصة المائدة، تأتي دعوة للنصارى أن يُخْلصوا دينهم لله، وأن يُنَقُّوا التوحيد من الأوهام والأباطيل التي ألصقوها به.

وخُتمت السورة بتذكير القارئين لها بكل ما حوتْه من عقود وعهود، هل حفظوها ووفَّوْا بها، أم ضيَّعوها وفرَّطوا فيها؟ ففي يوم القيامة تشهد الرسل على الأمم، ويشهد عيسى على النصارى، ويجمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، وهو يوم ينفع فيه الصادقين صدقهم في جنات تجري من تحتها الأنهار، والمُلك يومئذ لله، كما كان الحال في الدنيا ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

وقد اشتمل الربع الأول من السورة على خمس نداءات موجهة للمؤمنين، تتناول:

١- وجوب الوفاء بالعقود.

٢- وتعظيم شعائر الله.

٣- وأحكام الطهارة.

٤- وواجبات المسلم وغير المسلم.

٥- والتذكير بنعمة الله تعالى الذي كف أيدي الأعداء عن الفتك بالمسلمين في مواطن عدة.

هذا: وفي السورة موضوعات ثلاث، تستغرق آيات السورة كلها:

الموضوع الأول: أحكام التشريع، وهي تأتي في الثمن الأول من السورة، إلى جوار الآيات (٣٨،٣٩) ومن الآية (٨٩-١٠٩).

الموضوع الثاني: الكلام عن أهل الكتاب، وذلك من الآية (١٢-٢٦) ومن الآية (٤١-٨٦) والثمن الأخير يتحدث عن النصارى.

الموضوع الثالث: قصة ابني آدم، وهي في الثمن الثالث من السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

النِّدَاءُ الأَوَّلُ لِلمُؤْمِنِينَ: وُجُوبُ الوَفَاءِ بِالعُقُودِ وَالعُهُودِ

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ(١) أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾

في هذه الآية ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول يأمر بالوفا ء بالعقود ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾

في هذا الجزء من الآية أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يقوموا بما يقتضيه الإيمان من الوفاء بالعقود، أي بإتمامها وإكمالها وعدم نقضها أو نقصها، وهذا يشمل ما بين العبد وربه من عقود التوحيد وإخلاص العبادة، وما بينه وبين الرسول ﷺ من طاعته واتباع أمره.

ويشمل ما بين العبد ووالديه وأقاربه ببرهم وصلتهم، وما بينه وبين أصدقائه وأصحابه بمواساتهم ومؤزارتهم والقيام بحقوق الصحبة في المنشط والمكره والعسر واليسر.

ويشمل ما بين العبد وبين الخلق بوجوب الوفاء بعقود المعاملات كالبيع والعمل والإجارة.

كما يشمل القيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم من التناصر والتعارف والتآلف والتعاون وعدم التقاطع ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠].

فهذه الآية شاملة لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله تعالى بالقيام بها.

هذا: وكان المشركون قبل نزول آية التوبة، التي تحرم عليهم دخول منطقة الحرم بمقتضى قوله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨]. كان المشركون حتى نزول هذه الآية يُحْرِمون بالبيت ويعظمونه ويسوقون الهدي إليه، وكانوا يقلِّدون الهدي، أي: يضعون في عنقها

(١) لفظ (بالعقود) ليس معدودًا آية لدى العدد الكوفي، وهو معود آية عند غيره من علماء العدد.

قلادة؛ علامة على أنها مسوقة لبيت الله الحرام، فلا يتعرض لها أحد بالغصْب أو المنع، ولا يقربها أحد إذا وجدها سائمة ترعى، وليس معها صاحبها، ويفهمون من هذه القلادة المشدودة في عنقها أنها لقوْم قصدوا البيت الحرام؛ لأدائهم نسك الحج أو العمرة.

وبعد عقد الصلح الذي أُبرِم بين رسول الله ﷺ وبين المشركين في الحديبية، أراد بعض المسلمين أن يُغِيرُوا على بعضِ المشركين وهم يسوقون هديهم المقلَّدة، وهي في طريقها إلى الحرم، وأن يَسْلُبوا ما معهم من بهيمة الأنعام؛ لأنهم قد صدوهم عنه من قَبْلُ، ومنعوهم يوم الحديبية أن يَصِلوا إليه حين قدموا للعمرة، ومعهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى أمرًا عامًّا للمؤمنين يأمرهم فيه بالوفاء بالعقود والعهود، وينهاهم أن يتعرضوا بالأذى لكل من قصد البيت الحرام مؤمنًا كان أو كافرًا، وكان ذلك قبل أن يحرِّم الله على المشركين دخول المسجد الحرام وحدوده، في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. ويجب على أهل الكتاب أن يتعاملوا بالمثل، ويوفوا بعقدهم مع رسول الله ﷺ.

ولذا فقد قال (ابن جريج): إن الخِطاب في الآية لأهل الكتاب، والذي عليه الجمهور أنه للمؤمنين من هذه الأمة، ولكل مخاطب بالدعوة إلى الله تعالى.

قال ابن عطية: ولفظ المؤمنين يشمل مؤمني أهل الكتاب؛ إذ بينهم وبين الله عقد أداء الأمانة فيما في كتابهم من أمر محمد ﷺ.

ولفظ العقود يعم عقود الجاهلية المبنيَّة على بِرٍّ، مثل دفع الظلم ونحوه، وأما في سائر تعاقدهم على الظلم والغارات فقد هدمه الإسلام، وأمر الله المؤمنين بالوفاء بالعقود التي أجازها الإسلام.

وشيمة المسلم أن لا ينقض عهده مع غيره، وأن يُنْجزه حتى ولو كان مع غير المسلم ما دام عقدًا مشروعًا يجيزه الإسلام.

والآية عامة لا تختص بحادثة معينة، وإنما تشمل كل عقد بين العبد وربه، مثلُ: عقد الإيمان والتوحيد الذي أخذه الله ± على ذرية آدم وهم في أصلاب آبائهم، وأخذه بصفة

خاصة على بني إسرائيل كما ذكر القرآن الكريم في كثير من الآيات منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣].

ومثل: عقود العبادات، والتشريع، والحلال والحرام الذي جاء في كتاب الله، وما صح من سنة رسول الله ﷺ، ومثل: عقود المعاملات؛ كالبيع والشراء، والإيجار، والعمل، والمضاربة، والمرابحة، وغير ذلك مما يحدث بين الناس، وكذا العقود التي بين الدولة المسلمة وغيرها من الدول.

والوفاء بالعقد يدخل فيه أن يتعاقد الإنسان مع عامل على أداء عمل معين، ثم يزيده في العمل عن المدة المتفق عليها، أو يتعاقد معه على أجر معين، ثم ينقصه من هذا الأجر ويبخسه، أو يأكل عرقه وأجره.

وينطبق العقد على من يشتري سلعة لشركة أو للحكومة، ثم يكتب في الفاتورة أنها بستة، وقد اشتراها بأربعة؛ فإن هذا غلول وسرقة، وعدم وفاء بالعقود والعهود، وهو خيانة وسرقة من المال العام، أو من المال الخاص، ومال الدولة أشد وأعظم، فهو أموال الناس جميعًا، وكل الناس تأخذ بتلابيب العبد يوم القيامة؛ لأن كل واحد منهم له فيه حق، والمال الخاص يخص شخصًا أو أشخاصًا معدودين، فهو حق خاص.

وليس من باب العقود: الاتفاق على شيء محرم؛ كصفقات خمور، أو مخدرات، أو لحم خنزير. ولا يدخل في العقد ما فيه شرط باطل، ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ.

قال زيد بن أسلم: العقود ستة: عقد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين[١].

وهذا يعني أن المقصود بالعقود: ما يشمل ضوابط الحياة التي قررها الله تعالى، بدءًا من الإيمان به سبحانه، وانتهاء بعقد العمل وما هو أدنى منه.

المقطع الثاني من الآية قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

---

(١) رواه الطبراني (٩/ ٤٥٣).

ثم تُفصِّل الآيات هذه العقود، وهذا التحليل والتحريم، فتمهِّد هذه الآية لما بعدها من المنهيات كأن الله تعالى يقول: إن كنتُ قد حرمت عليكم أشياء فقد أبحت لكم أكثر منها، فقد ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

والبهيمة: اسم لكل ذي أربع من الحيوانات، وخُص بما عدا السباع والوحوش الضارية.

وسُمِّيت بهيمة؛ لأنها أُبهمت عن العقل والتمييز، وهي تشمل كل ما يحل وما يحرم، وأضيفت إلى الأنعام؛ ليُعرف جنس ما أُحل لنا، ومنها الجنين في بطن أمه، وفي الحديث عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: **«ذكاة الجنين بذكاة أمه»**[1].

وفي حديث أبي سعيد قال: قلنا: يا رسول الله، ننحر الناقة، ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقيه أمْ نأكله؟ فقال: **«كلوا إن شئتم، فإن ذكاته ذكاة أمه»**[2].

أي: أحل الله لنا الإبل، والبقر، والغنم الإنسي منها والوحشي، وهي الأزواج الثمانية التي ذكرت في سورة الأنعام في الآيتين (١٤٣، ١٤٤).

ولا يدخل فيها كل ذي مخلب من الطير ولا ذي ناب من السباع، ونحوها؛ لقول النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«كل ذي ناب من السباع فأكله حرام»**[3].

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:: نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير[4].

---

(١) أبو داود من حديث جابر (٣/ ٢٥٣) برقم (٢٨٢٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٥٢) والحاكم (٤/ ١١٤) والدارمي (٢/ ١١) والدارقطني (٤/ ٢٧٣) وغيرهم من طرق متعددة.

(٢) أبو داود برقم (٢٨٢٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٥١) والإرواء (٢٥٣٩) والحديث في سنن الترمذي برقم (١٥٧٦) وابن ماجه برقم (٣١٩٩) وعند أحمد (٣/ ٣١) والبيهقي (٩/ ٣٣٥) والدارقطني (٤/ ٢٧٢) وهو حديث حسن لغيره، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩٣٣) و«المسند» (٧٢٢٤) عن أبي هريرة بإسناد صحيح على شرط مسلم و«سنن النسائي الكبرى» (٤٨١٧) والموطأ (٢/ ٤٩٦) وابن ماجه (٣٢٣٣) وابن حبان (٥٢٧٨)

(٤) رواه مسلم في الصيد (١٩٣٤) وأبو داود في الأطعمة (٢٣٨/٦/١٠٥) برقم (٣٨٠٣) وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤) وفي مصنف عبدالرزاق (٨٧٠٧) والمسند (٢١٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما هو حديث صحيح، بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات رجال الشيخين غير ميمون بن مهران فمن رجال مسلم. (محققوه).

ثم استثنى الله سبحانه من بهيمة الأنعام، فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: مما حرم الله عليكم، وما يتلى عليكم جاء ذكره في الآية الثالثة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ وهذه الآية ذُكر فيها عشر محرمات، وتُلي علينا بعض منها في سورة النحل (الآية: ١١٥)، وسورة البقرة (الآية: ١٧٣)، وهي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. وأكملت هذه السورة ما زاد على هذه الأربع، ففيها التفصيل والبيان.

المقطع الثالث من الآية قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾

فقد استثنى الله سبحانه في هذا المقطع، مما أحله لعباده في كل وقت، وحرَّمه عليهم وقت الإحرام، فذكر جلَّ شأنه أن صيد بهيمة الأنعام وغيرها الإنسي منها؛ كالإبل والبقر والغنم،والوحشي؛ كالظباء، وحمير الوحش،تحرُم على المحرم حال إحرامه فلايجوز لكم أن تصطادوا وأنتم حرم.

ولا يحل الصيد أيضًا لغير المحرم في أرض الحرم؛ فالحرم له خصائص وحرمات لا ينبغي انتهاكها، فقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ معناه وأنتم محرمون، ويراد به: تحريم الصيد على المحرم، سواء أكان في الحلِّ أم الحرم، وثبت من السُّنَّة تحريم صيد الحرم على غير المحرم، فصيد الحرم محرَّم على المحرم وعلى غير المحرم، وصيد الحلِّ محرم على المحرم فقط. قال الربيع بن أنس في الآية: الأنعام كلها حِلٌّ إلا ما كان منها وحشيًّا فإنه صيد، فلا يحل إذا كان محرمًا[1].

والحرم محدد من الجهات الأربع بحدود أربعة معروفة وهي:

١- التنعيم من جهة المدينة، والتنعيم نفسه من الحل وليس من الحرم، وهو في حدود ستة أميال.

٢- ومن جهة الطائف تسعة أميال تنتهي إلى الجعِرَّانة.

٣- ومن جهة اليمن سبعة أميال تنتهي إلى أضاةِ لبنْ.

٤- ومن جهة جُدة عشرة أميال، تنتهي بآخر الحديبية، والحديبية ذاتها داخلة في الحرم.

---

(١) الطبري (٨/ ١٣).

وهذه الحدود حددها النبي ﷺ، وكانت قبل ذلك محددة من عهد خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وجددها قُصيٌّ، ووضع لها عمر رضي الله عنه علامات في خلافته سنة سبع عشرة هجرية.

ذكر ابن عطية عن النقاش أن أصحاب الكندي قالوا له: أيها الحكيم، اعمل لنا قرآنًا مثل هذا القرآن، قال: نعم، فاحتجب عنهم أيَّامًا، ثم خرج فقال: والله ما أقدر عليه، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف، فخرجتْ سورة المائدة، فنظرت فيها، فإذا هو قد أمر بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلَّل تحليلًا عامًّا، ثم استثنى استثناء بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يستطيع أحد أن يأتي بهذا في أجلاده، أي: أسفاره.

أما إخبار الله تعالى عن كمال قدرته وحكمته، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل وتحريم بمقتضى حكمته البالغة.

قال قتادة: إن الله حكم ما أراد في خلقه، وبيَّن ما أراد في عباده، وفرض فرائضه، وحدَّ حدوده، وأمر بطاعته، ونهى عن معصيته[١].

ومجمل المعنى: يأيها الذين آمنوا وأقرُّوا بوحدانية الله، وصدقوا رسوله، وعملوا بسنته، وأتمُّوا عهود الله الموثقة، من الإيمان بشرائع الدين والانقياد لها، أدُّوا العهود لبعضكم على بعض من الأمانات والبيوع وغيرها، مما لم يخالف كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

وقد أحل الله لكم البهيمة من الأنعام، وهي: الإبل، والبقر، والغنم، إلا ما بيَّنه لكم من تحريم الميتة والدم وغيرهما، ومن تحريم الصيد وأنتم محرمون، إن الله يحكم ما يشاء وفق حكمته وعدله.

النِّدَاءُ الثَّانِي: وُجُوبُ تَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللهِ تَعَالَى

٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا[٢] وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ[٣] قَوْمٍ أَن[٤]

(١) «تفسير الطبري» (٨/ ٢١)

(٢) قرأ شعبة (ورُضوانًا) بضم الراء، وقرأ الباقون (ورِضوانًا) بكسر الراء وهما لغتان.

(٣) قرأ ابن عامر وشعبة وأبو جعفر بخلف عن ابن جماز (شَنْآنُ) بسكون النون، وقرأ الباقون (شنَآن) بفتح النون.

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (إن صدوكم) بكسر همزة (إن)، وقرأ الباقون (أن صدوكم) بفتح الهمزة.

صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا[١] تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

وبعد أن أمر الله سبحانه المؤمنين بالوفاء بالعقود؛ يأتي النداء الثاني لينهاهم عن انتهاك حرمات الله المتعلقة بإحرام الحاج أو المعتمر حتى ينتهي من نسُكه بنحر الهدْي الذي ساقه إلى البيت الحرام، وهي شعائر ست ذكرتْها هذه الآية، وهي تشير إلى وجوب تأمين طريق الحج والعمرة؛ حتى يأمن الناس على أنفسهم وأموالهم؛ ولذا كان أمن الطريق من شروط الاستطاعة.

سبب النزول:

ولهذه الآية سبب نزول؛ فقد ورد أن شريح بن ضُبيْعة الملقب بالحُطَم، والمكنَّى بابن هند، نسبة إلى أمه هند بنت حسان بن عمرو بن مرثد، وكان من نزلاء اليمامة، ثم أتى المدينة وحده، وترك خيله خارج المدينة، ودخل على النبي ﷺ، فقال: إلام تدعو الناس؟ فقال: «**إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة**»، فقال: حسن ما تدعو إليه، وسأنظر؛ فإن لي أمراء لا أقطع أمرًا دونهم، ولعلي أُسلم وآتي بهم، فخرج من عنده، فقال النبي ﷺ: «**دخل بوجه كافر، وخرج بقفا غادر، وما الرجل بمسلم**» فمر ابن هند بسرح من سرح المدينة فاستاقه وانطلق به، وأخذ يرتجز أبياتًا يترنَّم بها، ولحقه المسلمون فلم يدركوه، فلما كان العام القابل خرج الحطم حاجًّا ومعه تجارة، وقد قلَّد هديه، فقال المسلمون: يا رسول الله، هذا (الحُطَم)، يعنون: (شريح) فَخُلْ بيننا وبينه؛ يريدون أن يُغيروا عليه كما أغار عليهم، فقال النبي ﷺ: «**إنه قد قلَّد الهدي**»، فقالوا: يا رسول الله، هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية، فأبى النبي ﷺ وأنزل الله هذه الآية، وهي تشتمل على تعظيم شعائر ثمان، قال ابن عباس: كان المشركون يحُجون البيت الحرام، ويُهدون الهدايا، ويعظِّمون حُرمة المشاعر، وينْحرون في حجهم، فأراد المسلمون أن يُغيروا عليهم فقال الله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ ولا تستحلوا القتال في الأشهر

---

(١) قرأ البزي (ولا تَّعاونوا) بتشديد التاء مع المد ست حركات، بخلف عنه؛ لأن أصلها ولا تتعاونوا، فأدغمت التاء في التاء، وإذا وقف القارئ على (ولا) اختيارًا، فيبدأ بتاء واحدة مفتوحة، وقرأ الباقون بعدم التشديد والقصر على حذف إحدى التائين.

الحرم، ولا تستحلوا قتال من توجَّه إلى البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون البيت جميعًا، ثم نهى الله المشركين عن دخول المسجد الحرام[١].

وهذه هي الشعائر الثمان:

الشعيرة الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[٢]

المراد بشعائر الله: محرماته التي أمركم بتعظيمها ونهاكم عن عن فعلها واعتقاد حلها، ومن ذلك: مناسك الحج، وما حرَّمه الإسلام على المحرِم من محظورات الإحرام؛ كالتطيُّب، وتقليم الأظافر، والصيد، وأخذ شيء من الشعر، وهي تشمل بوجه عام، منهج الإسلام وأحكامه، أي: لا تستحلوا شرائع الله ومعالم دينه، فلا تحلُّوا شيئًا من فرائضه، واجتنبوا ما نهى عنه، من كل ما حرمه عليكم، فلا تنقضوه، ولا تغيروه ولا تبدلوه، ومن ذلك ما يتعلق بالمحرم وهو حاج أو معتمر، فقد حرم الإسلام عليه محظورات، وهو متلبس بنية الإحرام، يجب عليه أن لا يستحلها، ومنها شعائر الله في مناسك الحج أو العمرة، ومنها الصيد في الحرم، وكذا الهدايا المشعَرة.

والآية عامة تشمل هذا وغيره، فقد كانوا يطعنون سنام البعير بحديدة حتى يسيل دمه، فيكون هذا علامة على أنه هدْي، وكذا البقر.

وفي الصحيحين عن عائشة ﵂ قالت: فتلْتُ قلائد بُدْنِ النبي ﷺ ثم أشعَرها وقلَّدها، ثم بعث بها إلى البيت، فما حرُم عليه شيء كان أُحل له[٣].

وفي الحديث عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: صلى الظهر بذي الحليفة، ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن، وسلَتَ الدم عنها، وقلَّدها نعلين، ثم ركب راحلته، فلما استوت به على البيداء أَهَلَّ بالحج[٤]

---

(١) يُنظَر: النحاس في ناسخه ص(٣٥٩) والطبري في تفسيره (٨/ ٢٢) وما بعدها بتصرف.

(٢) من تفسير الخازن (١/ ٤٣١) وانظر: «زاد المسير» (٢/ ٢٧٠) والقرطبي (٦/ ٣٧) وهو في «أسباب النزول» للواحدي عن ابن عباس ص(١٠٧) وفي الطبري برواية السدي (٩/ ٤٧٢) ورواه ابن المنذر عن عكرمة.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٦٩٦، ١٦٩٩) و«صحيح مسلم» (١٣٢١).

(٤) ويُنظَر: البخاري برقم (١٦٩٤، ١٦٩٥) والحديث في المسند (٢٥٢٨، ٣١٤٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير مسلم الأعرج فمن رجال مسلم، وانظر في المسند (١٨٥٥).

فلا تُحِلّو ذوات القلائد، ولا تتعرضوا لها بسوء، وهي الإبل، والبقر، والغنم.

الشعيرة الثانية: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾

أي، ولا تستحلوا القتال في الشهر الحرام، ولا تستحلوا غيره من أنواع الظلم، وقد كانوا في الجاهلية يعظمون الأشهر الحرم فلا يقاتلون فيها، ولما جاء الإسلام أقر هذا، ولكن العرب كانوا يتلاعبون فيها فكانوا يؤخرون حرمة شهر محرم إلى شهر صفر إذا أرادوا القتال في محرم، أو يؤخرون حرمة شهر رجب إلى شهر شعبان، إذا أرادوا القتال في شهر رجب، فلما جاء الإسلام منع هذا، وأكد على وجوب عدم التغيير والتبديل فيها.

والأشهر الحرم هي: شهر رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، فلا تستحلوا القتال فيها، ولا تقدموا وتؤخروا في حرمتها حسب أهوائكم.

وقد كان جنادة بن عوف يقوم في سوق عكاظ فيقول: إني أحللت كذا، وحرمت كذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

وفي إبطال النسيء وتحريمه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧].

وفي حديث أبي بكرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم** . . .»[١] فإن اعتدوا فيه فإنه يُرَدُّ عليهم العدوان، ولو كان في الشهر الحرام، ثم لما نزلت الآية: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] بيَّنت أنه يجوز ابتداء قتال المشركين الوثنيين في جزيرة العرب على وجه الخصوص وتعقُّبهم في أي زمان ومكان، أما بالنسبة لغيرهم فلا تستحلوا بدء القتال في الشهر الحرام كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أما استدامة القتال وتكميله إذا كان أوله في غيرها فإنه يجوز، حيث بدأ النبي ﷺ قتال أهل الطائف في حنين في شهر شوال واستمر ذلك إلى شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم.

---

(١) من حديث طويل في البخاري عن أبي بكرة (١/ ١٥٧) برقم (٤٤٠٦) ومسلم برقم (١٦٧٩) وغيرهما.

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ قال: منسوخ، وكان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج، تقلَّد من السمُر، فلم يَعْرِض له أحد، وإذا رجع تقلَّد قلائد من شعر، فلم يعرض له أحد، وكان المشرك يومئذ لا يُصدُّ عن البيت، فأُمروا ألا يقاتلوا المشركين في الشهر الحرام، ولا عند البيت، فنسخها قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[١] [التوبة: ٥]. والآية لم تستثن شهرًا حرامًا ولا غيره.

على أن من أهل العلم من يقول: إن المراد بالشهر الحرام شهر رجب وحده؛ لأن تحريم القتال فيه لم يكن أمرًا مجمعًا عليه عند العرب، فخُص بالنهي ليتأكد تحريمه؛ حيث كانت قبيلة (مُضَر) وحدها هي التي تختص بتحريمه، ولذا أضيف إليها، فقيل: (رجب مضر)؛ حيث كانت تُبعِدُ فيه السلاح، وتنزع فيه الرماح من الأسنة، وتسميه (الشهر الأصم) أي: الذي لا يُسمع فيه صوت سلاح، أما الأشهر الثلاثة الأخرى فكانت العرب مجمعة على تحريمها.

قال ابن عطية: والأظهر عندي أن الشهر الحرام أريد به شهر رجب؛ ليشتد أمره، لأنه إنما كان مختصًّا بقريش، ثم نشأ في مضر، وبهذا قال أبوعبيدة[٢].

وأقول: إن جمهور أهل العلم على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم الأربعة منسوخ بقوله تعالى ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وبالآيات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقًا، ويتأكد هذا في جهاد الدفع، وفي حالة ما إذا ابتدأ المسلمون قتالهم قبل الشهر الحرام، ثم امتد إلى الشهر الحرام فإنه ينبغي تكميله واستدامته كما ابتدأ النبي ﷺ قتال يوم حنين في شوال ثم امتد إلى ذي القعدة.

ومن أهل العلم من قال بعدم النسخ، وقد منع المشركون من دخول حدود الحرم في السنة التاسعة للهجرة؛ حيث نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٨٢) والطبري في تفسيره (٨/ ٢٥) والنحاس في ناسخه ص(٣٥٩).
(٢) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٢/ ١٤٦).

ولو فُرض - لا قدَّر الله - أن وطئت قدم مشرك أرض الحرم، فلا خلاف في أن قتاله فرض عين على كل مسلم، فيقاتل ولو في جوف الكعبة.

وإذا ابتدأ الكفار قتال المسلمين في الشهر الحرام فإنه يجوز لهم أن يدفعوا عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع أهل العلم، ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

الشعيرة الثالثة: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾.

أيْ ولا تستحلوا الهدْي الذي يهدي إلى بيت الله تعالى، والهدْي هو الذبائح التي في طريقها إلى الحرم، يسوقها الحاج أو المعتمر ليذبحها هناك، فلا تُنحر قبل يوم النحر بالنسبة للحاج، وتُنحر بعد انتهاء العمرة بالنسبة لها، ولا يتعرض لها أحد بسوء، كالسرقة أو تحميلها ما لا تطيق، ولا يُنتفع بشيء من أشعارها، وأوبارها، وجلودها، بل تُجعل كلها لفقراء الحرم، وكان هذا يحدث من غير المسلمين قبل أن يَحْرُم دخول الحرم عليهم؛ حيث كانوا يسوقون الهدي معهم، فمنع الإسلام الاقتراب منها إلا لرد عدوان أو صدّ يمنعها عن الوصول إلى محلها كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ﴾ [البقرة١٩٤].

الشعيرة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾.

القلائد نوع خاص من أنواع الهدْي، وهو الهدْي الذي يُفْتل له قلائد أو عُرى فيجعل في أعناقه إظهارًا لشعائر الله، وحملًا للناس على الاقتداء، وتعليمًا لهم للسنة، وليُعلم أنه هدْى فيُحترم.

أي: ولا تستحلوا على وجه الخصوص: الأنعام المقلّدة المسوقة للحرم لتذبح للفقراء في مكة، سواء أكانت هدْي تمتع أم قران، أم أضحية، أم فدية نسك، أم وفاء بالنذر ونحوه، وكانوا يعلِّمونها بشيء من شجر الحرم؛ ليأمنوا عليها. فلا تتعرضوا لها بسوء، ولا تنزعوا شيئًا من شجر الحرم أو غيره، مما عُلِّمت به، وكان الناس يسوقونها مسافات طويلة على أرجلهم، من المدينة مثلًا نحو خمس مئة كيلو، يقلدها الرجل، فيضع قلادة في عنقها من وبر أو صوف تجعل على هيئة ضفيرة، ويربط بها نعل، أو شيء تُعلَّق فيه؛ ليُعلم أنها هدْي فلا يقربها أحد، وإن وجدها في الطريق فلا يتعرض لها بسوء، وقد ينذر الرجل نذرًا فيضع في عنق هذا النذر علامة على أن هذه البهيمة متروكة حتى يأتي وقت

حلول النذر فتذبح، فتكون هذه البهيمة آمنة على نفسها في الطريق، أو في العراء، تسرح وترعى، فلا يقربها أحد.

والله سبحانه يأمر عباده أن يحترموا هذه القلائد، وأن لا يتعرضوا لهذه الشعائر، فيقول: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج]. أي: ولا تُحلُّوا حرمة ما يُهدَى إلى البيت من الأنعام تقربًا إلى الله تعالى، بأن تتعرضوا لها بالغصب أو السرقة، أو الحبس عن الوصول إلى أرض الحرم أو غيرها.

ولا تتعرضوا بسوء؛ لما يُقلَّد من الهدي بوضع علامة له تدل على أنه مُهدَى إلى الحرم.

وخُصَّت القلائد بالذكر؛ لأن العلامة فيها ظاهرة أنه لأهل الحرم، فكأن الله تعالى يقول: لا تتعرضوا لهدْي الحرم بأذى وخصوصًا ذوات القلائد منه.

ولهذا فإن النبي ﷺ لما حج بات بذي الحليفة، فلما أصبح طاف على نسائه، وكُنَّ تسعًا، ثم اغتسل وتطيَّب وصلى ركعتين، ثم أشعر هديه وقلَّده، وأهلَّ بالحج والعمرة، وكان هديه إبلًا كثيرة تزيد على الستين من أحسن الإبل.

وأقول: مع كثرة الناس، وتيسير المواصلات، وقيام الحضارة المعاصرة، أصبح للهدْي سوق في منى يتوافر فيه الغنم والبقر والإبل، يأخذ منه الحجاج ما يلزمهم من الهدْي، إلى جوار ما يقوم به بنك التنمية الإسلامي بالذبح عن طريق الوكالة عمن يريد من الحجاج أن يدفع القيمة نقدًا، و تقوم هذه الجهة المختصة بذبح الهدْي وتوزيعه على فقراء المسلمين في العالم.

الشعيرة الخامسة: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾

أي: ولا تتعرضوا لكل قاصد بيت الله الحرام، لأداء نسك، أو التجارة ومكاسب مباحة، فلا تتعرضوا له بسوء ولا تُهينوه بل أكرموه، وعظموا الوافدين لزيارة بيت ربكم، ابتغاء رضوانه، وما عنده من فضل دنيوي وأخروي.

والكافر ممنوع من قصد البيت الحرام لحج، أو عمرة، أو غيرهما؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة:٢٨]. وهو العام التاسع للهجرة، كما جاء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ أرسل ينادي سنة تسع:

«ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»[1].

فلا تستحلوا قاصدي البيت الحرام لأداء النسك، أو للتجارة، أو الزيارة، وأعطوهم الأمن والأمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. لأنهم (أي: قاصدي البيت الحرام) ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ في التجارة ﴿وَرِضْوَٰنًاۚ﴾ سواء أكانوا حجاجًا أم غير حجاج، معتمرين أم غير معتمرين، فالكل يبتغي فضل الله ورضوانه، ويريد أن يأمن الطريق على نفسه، أما من قصد البيت الحرام ليُلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صدّه عن الإفساد ببيت الله ، كما قال تعالى ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]

والمعنى: وحرم عليكم صيد البرمادمتم حرما،أي لا تتعرضوا بالأذى لمن قصد البيت حاجًّا أو معتمرًا؛ فإن حرمة المتوجه إلى البيت الحرام من حرمة البيت الحرام.

الشعيرة السادسة: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ﴾.

أي: إذا تحللتم من الإحرام، فقد أبيح لكم الصيد، والأمر إذا جاء بعد النهي فهو للإباحة، وليس للوجوب ولا للندب، بل يرجع إلى أصله قبل التحريم، أي: أن صيد الحرم كان قبل الإحرام بالحج أو العمرة حلالًا، ثم أصبح حرامًا بسبب الإحرام، فإذا انتهى وقت الإحرام، فإن الحكم يرجع إلى وضعه الأول، أي: يعود إلى الإباحة، فَيَحِلّ الصيد للمحرم بعد انتهاء إحرامه، كما كان حلالًا عليه من قبل، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]. أي: أبيح لكم الانتشار في الأرض بعد الصلاة؛ فالأمر يعود إلى ما كان عليه قبل الإحرام، وقبل الصلاة، أي: من نوع التكليف السابق.

قال عطاء: خمس من كتاب الله رخصة وليست بعزيمة:

---

(١) جزء من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (١/ ٤٧٧١) برقم (٣٦٩، ١٦٢٢، ٣١٧٧، ٤٣٦٣) ومسلم (٢/ ٩٨٢) برقم (١٣٤٧) وأبو داود (٢/ ٤٨٣) برقم (١٩٤٦) والنسائي (٥/ ٢٣٤)، وفي المسند عن أبي بكر برقم (٤) وعن أبي هريرة بنحوه برقم (٧٩٧٧) بإسناد حسن ورجال ثقات، وعن عليّ برقم (٥٩٤) بنحوه، وهو حديث صحيح، رجاله ثقات، كما قال محققو المسند عن هذه الطرق.

١- ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]. فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل.

٢- ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [٢]. من شاء فعل، ومن شاء لم يفعل.

٣- ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فمن شاء صام، ومن شاء أفطر.

٤- ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]. إن شاء كَاتَبَ، وإن شاء لم يفعل.

٥- ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] إن شاء انتشر، وإن شاء لم ينتشر[١].

الشعيرة السابعة: عدم العدوان على أحد

ثم يُعلِّم الإسلام أبناءه ألا ينتقموا من أعدائهم، وألا تكون فيهم نزعة العداوة والبغضاء لغيرهم، يعلِّم الإسلام العرب خاصة، وهم الذين نزل عليهم هذا القرآن أوَّلًا، وكان فيهم قسوة وغلظة وجفاء، ويعلِّم غيرهم هذه الآداب السامية من سائر الأمم إلى قيام الساعة، فلا يكذبوا على من كذب، ولا يخونوا من خان، ولا يظلموا من ظلم، وهكذا يعلِّمهم هذه الأخلاق، وهذه التربية الفاضلة، فيقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ أي: لا يحملنكم بغضكم لقوم، هم الذين كانوا قد منعوكم بالأمس، وصدوكم عن الوصول إلى البيت الحرام، لا يحملنكم ذلك على أن تعتدوا عليهم، أو أن تنتقموا منهم، أو أن تقابلوا السيئة بمثلها، وقد ربَّى الإسلام أبناءه على هذه الأخلاق، فمن الإجحاف والجهل وصْفهم بالإرهاب والتطرف.

عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله بالحديبية ومعه أصحابه حين صدهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين، من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: نَصُدُّ هؤلاء كما صدُّنا أصحابنا، فأنزل الله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾[٢].

أي: لا يحملنكم بغض قوم بسبب أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم.

الشعيرة الثامنة: التعاون على البر والتقوى

ثم يضع الإسلام قاعدة عامة للتعاون بين الناس، وهي ألا يكون هذا التعاون على الإثم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٦) و«تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠).

والفجور، ولا يكون على الظلم والعدوان، وإنما التعاون يكون على البر والتقوى.

والبر: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى: اسم جامع لكل ما أمر الله بفعله أو نهى عن تركه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

١- في صحيح مسلم وغيره عن النواس بن سمعان ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ: عن البر والإثم، فقال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»(١)

فلا يُعِنْ بعضكم بعضًا على الإثم، وهذا يشمل: الكفر، والعدوان، والظلم، والبدع، وسائر المعاصي، وكل ما فيه ضرر للنفس وللغير.

٢- وفي حديث أبي أمامة أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الإثم، فقال: «**ما حَكَّ في نفسك فدعْه**»، قال: فما الإيمان؟ قال: «**من ساءته سيِّئتُه، وسرَّتْه حسنتُه فهو مؤمن**»(٢)

٣- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، قيل: يا رسول الله، هذا نُصْرتُه مظلومًا، فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: «**تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه**»(٣)

٤- وفي حديث أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من ردَّ عن عرض أخيه، ردَّ الله عن**

---

(١) ابن أبي شيبة (٥٣٨٧) وأحمد (٤/ ١٨٢) برقم (١٧٦٣١، ١٧٦٣٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٥، ٣٠٢) ومسلم (٢٥٥٣) والترمذي (٢٣٨٩) والحاكم (٢/ ١٤) والبيهقي في «الشعب» (٧٩٩٤) والحاكم (٢/ ١٤)، والدارمي (٢٧٩٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٢١٥٩) قال محققوه: حديث صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح وانظر (٢٢١٩٩) وأخرجه ابن حبان (١٧٦) والطبراني في الكبير (٧٥٣٩) وفي الأوسط (٣٠١٧) والحاكم (١/ ١٤) والبيهقي (٥٧٤٦) و عبدالرزاق في المصنف (٢٠١٠٤).

(٣) حديث صحيح، أخرجه البخاري برقم (٢٤٤٣، ٢٤٤٤، ٦٩٥٢) وأبو يعلى (٣٨٣٨) وابن حبان (٥١٦٧) وأحمد في «المسند» (١٣٠٧٩، ١١٩٤٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«صحيح مسلم» (٢/ ٨٢) بشرح النووي، والترمذي (٢٢٥٥) وعبد بن حميد (١٤٠١).

وجهه النار يوم القيامة»[١].

وإعانة الظالم تعاون على الإثم

عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**»[٢].

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[٣].

فالآية تُحَرِّم التعدي على حدود الله تعالى ومعالمه، وتُحَرِّم التعدي على شعائر الله، ومنها الهدْي وما قُلِّد منه، بوضع ضفائر من صوف، أو وَبَر في عنقه، وتُحَرِّم الصيد في الحَرم، وتُحرِّم قتال قاصدي البيت الحرام من المسلمين لأي سبب، وتُحلُّ الصيد بعد الإحرام، وتَنْهَى عن ترك العدل ولو مع العدو، وتأمر بالتعاون على الخير، وتنهى عن الشر وتجاوز الحد فيه، وتحذر من مخالفة أمر الله تعالى، وتأمر بتقواه وتعظيم شعائره.

أَحَدَ عَشَرَ نَوْعًا مِنَ اللُّحُومِ الْمُحَرَّمَةِ:

٣- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ[٤] وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ[٥] وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾

ثم فَصّلت الآية الثالثة من سورة المائدة المحرمات من المطعومات المستثناة في قوله

(١) «سنن الترمذي» برقم (١٩٣١) قال الترمذي: حديث حسن، وحسنه المنذري، والألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦١٣٨) ومحققو المسند برقم (٢٧٥٤٣).

(٢) «صحيح مسلم» (١٨٩٣) وبلفظ (الدال) في مسند البزار، «كشف الأستار» برقم (١٥٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/١٦٦) فيه عيسى بن المختار تفرد عنه بكر بن عبد الرحمن وهو في مسند أحمد (١٧٠٨٤، ٢٢٣٥١، ٢٢٣٣٩) والطحاوي (١٥٤٦) والطبراني (٦٢٥).

(٣) «صحيح مسلم» (٤/٢٠٦٠) برقم (٢٦٧٤) و المسند (٩١٦٠) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وأبو داود (٤٦٠٩) والترمذي (٢٦٧٤) والدارمي (٥١٣).

(٤) قرأ أبو جعفر (الميِّتة) بتشديد الياء المكسورة، وقرأ الباقون (الميْتَة) بسكون الياء وفتح التاء.

(٥) قرأ أبو جعفر (والمنخنقة) بإخفاء النون في الخاء وإظهارها، والباقون بالإظهار.

سبحانه ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فيما يتعلق بالذبائح وهي **محرمات أحد عشر**:

حرمها الله تعالى صيانة لعباده، وحماية لهم من الأضرار الموجودة بها، سواء علمنا هذه الأضرار أم لا.

الأولى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾.

وهي بهيمة الأنعام التي ماتت حتف أنفها، دون أن تذبح، لأن الدم قد بقي في العروق، محتقنًا في جوفها ولحمها، وبقيت فيها الجراثيم، وهي ضارة، ولذا حرمها الإسلام.

والميتة: وهي كل ما لَهُ نَفْس سائلة من دواب البر وطيره، مما أباح الله أكلها، وفارقتْها روحها بغير تذكية شرعية، الأهلي منها والوحشي، وقد أجمع العلماء على حرمة أكل لحمها.

وحرم الشافعية الانتفاع بعظمها وشعرها لنجاسته، وأجاز ذلك الأحناف وقالوا بطهارتهما، ويستثنى من الميتة السمك والجراد فإنه حلال.

ويستثنى من الميتة: السمك فإنه حلال، سواء مات بتذكية أم لا؛ لقول النبي ﷺ لَمَّا سُئل عن ماء البحر: **«هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»**[1].

---

(١) مالك في «الموطأ» (١/ ٢٢) والشافعي في مسنده (١/ ٢١) رقم (٢٥) وأحمد في «المسند» (٢/ ٢٣٧، ٣٦١) برقم (٧٢٣٣، ٨٧٣٥) حديث صحيح ورجال ثقات، وأبو داود برقم (٨٣) والترمذي برقم (٦٩) وقال: حسن صحيح، والنسائي (١/ ٥٠) وابن أبي شيبة (١/ ١٣١) والدارمي (٧٢٩) وابن ماجه (٣٨٦) وابن خزيمة (١١١) وابن حبان (١١٩) وكلهم عن أبي هريرة.

الثانية: ﴿وَٱلدَّمُ﴾

أي: وقد حرم الإسلام شُرب الدم السائل، وكانوا في الجاهلية يشربون الدم المسفوح، أي: الدم السائل، يضعونه في إناء ويشربونه، وكانوا يخلطون الدم بالوبر، ويأكلونه ويسمونه (العِلْهز)، وكانوا أيضًا يجعلون الدم في المصارين ويَشْوُونَها ويأكلونها، والدم فيه ضرر فتَّاك، ففيه من الفضلات التي تحمل الجراثيم من الجسم وتضر بالبدن، وفيه قذارة ورائحة كريهة عندما يلتقي بالهواء، وقال كثير من الفقهاء: إنه نجس العين، ولذا حرمه الإسلام، فقال تعالى عطفًا على الميتة: ﴿وَٱلدَّمُ﴾ أي: الدم المسفوح السائل.

وقد أحل لنا الإسلام من الدماء: الدم المتجمد في الكبد والطحال، كما جاء ذلك على لسان المصطفى ﷺ فيما رواه ابن عمر ﵄ «**أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال**»[1].

والمحرَّم هو الدم المسفوح كما في الآية الأخرى ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

الثالثة: ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾

أي: وحرم عليكم أكل لحم الخنزير وشحمه بجميع أجزائه ومشتقاته، سواء في ذلك الخنزير الإنسي أو الوحشي، تَرَبَّى في بيت، أو في العراء، فهو محرم في ذاته؛ لأنه يشتمل على جراثيم ضارة لا تقتلها حرارة النار عند الطبخ، وليس المراد تحريم اللحم فحسب، بل كل ما يخرج منه، من الدهن، أو من الشحم، أو العظم، أو الجلد، وغير

---

(١) «مسند الشافعي» (٢/١٧٣) برقم (١٧٣٤) وأحمد (٨/١٠٣) برقم (٥٧٢٣) بإسناد حسن، وابن ماجه (٣٣١٤) والبغوي في شرح السنة (٢٨٠٣) والدارقطني (٤/ ٢٧١) والبيهقي في «السنن الكبرى» برقم (١/ ٢٥٤) قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: والراجح أنه من قول ابن عمر، ثم قال: وإن كان كذلك فهو في حكم المرفوع؛ لأن المحلل والمحرم هو الشرع.

ذلك، فلا يُنتفَع بشيء منه مطلقًا، والأضرار فيه معلومة طبيًا وعلميًا، وخُص اللحم بالذكر؛ لأنه الذي يؤكل، من أي جزء منه، وقد نفَّر الإسلام من لمس الخنزير، فكيف بأكله أو الانتفاع بشيء منه؟!

في حديث بريدة بن الخصيب الأسلمي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من لعب بالنردَشير، فكأنما صبَغ يده في لحم الخنزير ودمه»**(١).

وقال داود الظاهري وأبو يوسف بطهارة جلده إذا دُبغ؛ لعموم قوله ﷺ في حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«أيما إهاب دبغ فقد طهر»**(٢).

وفي حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»**، فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها تُطلى بها السفن وتُدهن بها الجلود، ويَسْتَصْبح بها الناس؟ فقال: **«لا، هو حرام»**(٣)

الرابعة: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

أي: وحرم عليكم أيضًا ما ذُبح على غير اسم الله تعالى؛ لأنه يناقض الإيمان ومقتضى التوحيد. قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وكان العرب يذكرون أسماء أصنامهم على الذبح، فحرم الإسلام ما ذُكِر عليه غير اسم الله، ومن ذلك ما ذبح لغير الله؛ كالنذور، والعوائد، والقرابين التي تُذبَح في مكان يذبح فيه لغير الله، كما كان أهل الجاهلية يذبحون للّات والعزَّى، وفي وقتنا يذبح لفلان الولي، أو النبي، أو صاحب الضريح أو القبر، وكما يَذبح السحرة للجن، وكل ذلك مما أُهلَّ لغير الله، أي: ذبح على غير اسمه تعالى، فالذبح عبادة، وهذه العبادة لا تكون إلا لله، فما ذبح لغير الله، أو ذكر عليه اسم الصليب ونحو ذلك فإنه محرم قطعًا.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦٠) ومسند أحمد (٢٢٩٧٩،٢٣٠٢٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات.

(٢) من حديث ابن عباس، رواه الترمذي (١٧٢٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٦٠٩) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٩٠٧) وغاية المرام (٢٨) والروض النضير (٤١٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٣٦، ٤٢٩٦، ٤٦٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٨١).

الخامسة: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾

أي: وحرم الله عليكم لحم المنخنقة، وهي التي ماتت خنقًا؛ فالميتة هي التي ماتت بنفسها أو حتف أنفها، والمنخنقة هي التي خنقها غيرها بسد مجاري النفَس، أو انخنقت بشبكة ونحوها، فاحتبس الدم فيها وفسد، وكانوا يخنقون الشاة فإذا ماتت أكلوها، والفرق بينها وبين الميتة أن المنخنقة ماتت بسبب؛ كعدوان أحد عليها ولم يَسِلْ منها دم، والميتة ماتت بغير عدوان عليها.

السادسة: ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾

وهي التي وُقِذتْ، أي: رُميت بشيء، مثل: حجَر، أو سهم، أو ضُربت بعصا، ونحو ذلك، فماتت دون أن تُذكَّى، ولذا حرمها الإسلام.

قال الشوكاني: وقد سألني جماعة من أهل العلم عن الصيد بالبنادق الحديدية التي يُجعل فيها البارود والرصاص، إذا مات الصيد ولم يتمكن الصائد من تذكيته حيًّا، والذي يظهر لي أنه حلال؛ لأنها تخزق، وتدخل في الغالب، من جانب منه، وتخرج من الجانب الآخر، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن عدي بن حاتم ﷺ: **«إذا رَميْتَ بالمعراض فَخزَق فَكُلْه، وإن أصَبْتَه بعَرْضه فإنما هو وقيذٌ فلا تأكله»** فاعتُبر الخزْق في تحليل الصيد[1]

ومفهومه أن آلة الصيد إذا لم تخزق، بأن لم تدخل من جانب، وتخرج من الآخر، فإنه لا يؤكل.

وجاء هذا مصرَّحًا به في حديث (عدي) في الصحيحين وغيرهما.

وكانوا يضربون الشاة بعصا حتى تموت ثم يأكلوها، فحرَّم الإسلام ذلك.

السابعة: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾

وهي التي تردَّت، أي: سقطت من أعلى إلى أسفل، أو وقعت في بئر فماتت.

---

(١) فتح القدير (٢/ ١٠)ن والحديث في إرواء الغليل وهو في صحيح مسلم (١٩٢٩) والبخاري (٥٤٧٧، ٧٣٩٧).

الثامنة: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾

وهي التي نطحتْها دابة أخرى فماتت، وكانت العرب تأكل ذلك، فحرَّمه الإسلام.

والهاء في الميتة والمنخنقة وما بعدها، دخلتْ عليها؛ لأنها صفة لموصوف محذوف تقديره الشاة.

التاسعة: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾

أي: وحرم عليكم ما أكله السبع المفترس دون تذكية؛ كالأسد، والفهد، والنمر، والذئب، والكلب، إذا افترس حيوانًا يؤكل لحمه، فأكل بعضه، ومات هذا الحيوان بسبب افتراس السبع له دون تذكية؛ فإنه لا يجوز أكله، ولا أكل ما بقى منه، وقد كانوا في الجاهلية يستحلون ذلك.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي: إلا ما أدركتم فيه حياة، وذكيتموه قبل أن يموت فكلوه.

والاستثناء يعود على كل ما سبق في الآية من الميتة والمنخنقة إلى هنا، وقيل: يرجع إلى الأخير فقط، والجمهور على الأول، وعلامة الحياة أن يتحرك المذبوح بعد ذبحه.

أخرج البخاري وغيره بسنده عن عدي بن حاتم ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن المعراض، فقال: **«إذا أصبْتَ بحدِّه فكُلْ، فإذا أصاب بعرْضه فقَتل، فإنه وقيذٌ فلا تأكل»**. فقلت: أُرسل كلْبي؟ قال: **«إذا أرسلت كلبك وسمّيْت فكُلْ»**. قلت: فإن أكل؟ قال: **«فلا تأكل، فإنه لم يُمْسك عليك، إنما أمسك على نفسه»**. قلت: أُرسل كلبي فأجد معه كلبًا آخر؟ قال: **«لا تأكل، فإنك إنما سَمَّيْتَ على كلبك، ولم تُسمِّ على الآخر»**[1]

وسأل أبوثعلبة الخُشَني ﷺ رسول الله ﷺ أنه يرسِل كلْبه المعلَّم، فمنه ما يُدْرَك ذكاته، ومنه ما لا يُدرك، قال: وأرمي بسهمي، فمنه ما يدرك ذكاته، ومنه ما لا يُدْرَك، فقال ﷺ: **«كل ما ردَّتْ عليك يدك وقوسك وكلبك المعلَّم، ذكيًّا وغير ذكي»**[2].

---

(١) يُنظَر: البخاري في الذبائح والصيد برقم (١٧٥، ٤٥٧٥) ومسلم في الصيد والذبائح برقم (١٩٢٩).

(٢) «المسند» (٤/ ١٩٥) برقم (١٧٧٤٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وأبو داود برقم (٢٨٥٦) كلاهما من طريق الزبيدي وسنن النسائي (٧/ ١٨١) من طريق ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني، قال ابن كثير: وهذان إسنادان جيدان، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ (٥٧٠).

ورد عن علي وابن عباس، والحسن، وقتادة، أنهم قالوا: ما أُدرِكَتْ ذكاتُه بأن توجد له عين تطرف، أو ذَنَب يتحرك، فأكْلُه حلال[١].

وفي حديث جارية كعب بن مالك أنها كانت ترعى غنمًا بسلْع، فأصيبت شاة من غنمها، فأدركتْها فذبحتها بحجَر، فسئل النبي ﷺ، فقال: **«كلوها»**[٢].

فإن أدركها المرء وفيها حياة مستقرة بحيث يمكنه ذبحها حلَّت؛ لعموم الآية والخبرَ، فإن عَلِم أنها ستموت، فلا تؤكل وإن ذكَّاها[٣].

أما ما يجب قطعه في الذكاة فأكمل حالاته قطع الحلقوم، والمريء، والوَدجين: وهما عِرْقان بينهما الحلقوم والمريء، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد، والرواية الأخرى عنه قطع أَحد الودجين معهما، وبه قال مالك وأبو حنيفة، وقال الشافعي: يعتبر قطع الحلقوم والمريء[٤] وهو أقل الذبح.

عن رافع بن خديج قال: قلت: يا رسول الله إنا نَلْقى العدو غدًا وليس معنا مُدًى، فقال النبي ﷺ: **«ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا، ما لم يكن سنًّا أو ظفرًا، وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظْم، وأما الظفر فَمُدَى الحبشة»**[٥].

العاشرة: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾

أي: وحرم الإسلام عليكم لحم ما ذبح على النصب، والنُّصُب: حجارة كانوا ينصبونها حول الكعبة، ويعتبرون الذبح عندها أكثر قربى إلى معبوداتهم، وهذه الآية تحرم أكل لحوم ما ذبح على هذه النصب؛ لأنه ذبح لغير الله تعالى، وكان ذلك موجودًا في الشرائع القديمة يَنْصِبون صخورًا لذبح القرابين عليها، وكانوا يلتمسون فيها التداوي وغيره، قال تعالى مشبهًا حال الكفار عند القيام من قبورهم يوم القيامة بحال المشركين وهم يسرعون

---

(١) «زاد المسير» (٢/ ٢٨٠) وأخرجه الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد والبخاري برقم (٥٥٠٥).

(٣) يُنظَر: «المغني» لابن قدامة (١١/ ٦١).

(٤) يُنظَر: «المغني» (١١/ ٤٤).

(٥) رواه البخاري برقم (٥٠٧، ٢٤٨٨، ٣٠٧٥، ٥٥٤٣) ومسلم (٣/ ١٥٥٨) برقم (١٩٦٨) وأبو داود (٣/ ١٣٤) وغيرهم.

نحو هذه الأنصاب: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣)﴾ [المعارج].

وقبل فتح مكة كان يوجد حول الكعبة ثلاث مئة وستون حجرًا منصوبة، وكان الناس يعظمونها ويذبحون عليها، وتسمى أنصابًا، وكانوا ينضحونها بدماء الذبيحة، ويشَرِّحون اللحم ويضعونه عليها، فلما جاء الإسلام حرم ذلك؛ لأن الذبح لا يكون إلا لله تعالى، ويشبه ذلك من يأخذ ذبيحة ويذبحها عند ضريح من الأضرحة؛ لبركة صاحب القبر، أو لأنه نذر أن يذبح في هذا المكان لله، وهذا النذر يُعَدُّ باطلًا، لا ينبغي الوفاء به.

ويدخل في ذلك ما ذبح على اسم المسيح ونحوه، وكذا ذبائح الوثنيين والشيوعيين ونحوهم، وكان أهل الجاهلية يذبحون عند هذه النُّصب، فهي شرك وإن ذكر عليها اسم الله؛ لأنه ذَبَحَهَا في مكان يذبح فيه لغير الله، وهي حرام بنص قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾.

والمُحَرَّم الحادي عشر: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾

أي: وحرم الإسلام عليكم أكل اللحوم التي يُستقسم عليها بالأزلام، والأزلام: جمع زَلَم بفتح الزاي واللام، وهي قداح المَيْسر، والقِدْح بكسر القاف وسكون الدال: عُودُ سَهْمٍ ليس فيه حديدة. فكان من يريد معرفة حظه، وما سينزل به من خير أو شر، أو أن سفره سيكون ضارًّا أو نافعًا ونحو ذلك، فإنه يذهب إلى سادن الصنم، وهو كاهن من الكهان؛ ليُجري له هذا الحظ، وكانوا يتوهمون أن الأصنام أو الجن يأتون بالأمور الغيبيَّة، وهذا النوع من الدجل عن طريق العرَّافين والمشعوذين منتشر وموجود في عالمنا المعاصر في الشرق والغرب عند المسلمين وغيرهم، وكذلك المقامرة التي نهت عنها الآية، وجاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وفي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [٩٠].

والآية التي نحن بصددها تشير إلى تحريم أكل اللحوم التي تؤول إلى بعض المقامرين عن طريق المقامرة، كما حرم الإسلام الاستقسام بالأزلام في حد ذاته؛ لأنه ضرْب من الشرك، وقد كانوا ينحرون الجَزور أو الناقة، ويقسمونها عشرة أسهم، ويضربون القداح عليها.

وقد وصف القرآن هذا العمل بأنه فسق؛ لأنه يجمع بين الشرك والمقامرة، وفيهما خروج عن طاعة الله عزَّ وجلَّ، وكانوا يستشيرون الأزلام في الإقدام على العمل أو تركه،

ويستخدمونها في الميسر، فيقسمون لحم الناقة التي يتقامرون عليها، وقد حرم الإسلام ما يشبه ذلك، مثل: أمور الكهنة، والعرافين، والمنجمين، وضاربي الودع، وقراءة الفنجان، وقراءة الكف، ونحو ذلك، مما يتفاءل به الناس أو يتشاءمون، فيقدمون أو يُحْجمون عن هذا الشيء، بِناءً على ما يقوله السحرة والمنجمون والكهنة إذا أراد أحدكم أن يُقدم على أمر، هل يترشح للرئاسة أم لا؟ هل يخوض هذه الحرب أم لا؟ هل يتزوج فلانة، أو يسافر أو يتاجر، أو يشارك فلانًا على تجارة أم لا؟ تمامًا كما كان أهل الجاهلية يفعلون إذا اختلفوا في نسب، أو قتيل، أو تحمُّل دية، ونحو ذلك من الأمور الكبيرة، فإنهم يحْتكمون إلى الأزلام فيأتون إلى هبل، أعظم صنم لقريش، وكان داخل الكعبة منصوبًا على بئر توضع فيها الهدايا وأموال الكعبة، وكانت الأقداح سبعة أو ثلاثة يُستقسم بها، وكان مكتوبًا على أحدها: افعل، أو أمرني ربي. وعلى الثاني: لا تفعل، أو نهاني ربي. والثالث: لا يكتب عليه شيء.

فإن خرج أمرني ربي، فإنه يمضي في طريقه، وينفِّذ هذا الشيء الذي استقسم عليه.

وإن خرج نهاني ربي، يمتنع عن الخروج، وإن خرج الثالث، أعاد الاستقسام مرة ثانية، وهذه أشهر طرق الاستقسام بالأزلام، وكانت لهم طرق أخرى عديدة.

عن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لن يلج الدرجات العلا من تكهَّن، أو استقسم، أو رَجَع من سفر تطيُّرًا»**[1].

وقد حرم الإسلام هذه الأنواع من الميسر والمقامرة والاستقسام بالأزلام.

وفرَّق القرآن بين الأزلام والقمار في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [٩٠].

ولما دخل النبي ﷺ الكعبة وجد المشركين قد صَوَّرُوا إبراهيم وإسماعيل صُورتيْن في جوف الكعبة، وفي أيديهما هذه الأقداح فقال ﷺ: **«قاتلهم الله، لقد علموا أنهما لم يستقسما بالأزلام أبدًا»** ثم دخل البيت فكبره في نواحيه، وخرج ولم يُصلِّ فيه[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦٦٣) وابن مردويه بإسناد حسن كما في «صحيح الجامع» (٥١٠٢).

(٢) الحديث في البخاري (٣/ ٤٦٨) برقم (٤٢٨٨) وأبي داود (٢/ ٥٢٥) وغيرهما.

أي: أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لم يفعلا هذا الشيء، فكيف يُصَوِّرون خليل الرحمن وابنه إسماعيل بأنهما كانا يستقسمان بالأزلام؟

ولما خرج سراقة في طلب النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ في يوم الهجرة، استقسم بالأزلام ثلاث مرات، فخرج الذي يكره: لا تضرهم، وكان الأمر كذلك، وقد أسلم سراقة بعد ذلك[١].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام، أو إلى جميع المحرمات المذكورة في الآية، وهو أقوى.

وقد جاء الإسلام، فشرع لنا مكان الاستقسام بالأزلام وما يشبهه، صلاة الاستخارة، ودُعاءها، فإذا انشرح صدرُ المسلم إلى هذا الشيء بعد صلاة الاستخارة، فليتوكل على الله، وإذا انقبض صدره فلْيُحجم.

دعاء الاستخارة: عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إذا كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خيرًا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقْدُرْه لي، ويسره لي، وبارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شرًّا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفني عنه، واصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به**»[٢].

---

(١) النص بطوله في البخاري (٧/ ٢٣٨) برقم (٣٩٠٦).

(٢) الحديث أخرجه البخاري (١٣/ ٣٧٥) برقم (١١٦٢) وأبو داود (٢/ ١٨٧) برقم (١٥٣٨) وصحيح سنن الترمذي (٣٩٧) وصحيح سنن ابن ماجه (١٣٨٣) وهو في سنن الترمذي (٢/ ٣٤٥) برقم (٤٨٠) والنسائي (٦/ ٨٠) وابن ماجه برقم (١٣٨٣) وأحمد (٣/ ٣٤٤) وهذا لفظ أحمد برقم (١٤٧٠٧).

قَطْعُ طَمَعِ الْكُفَّارِ فِي أَنْ تَعْبُدُوا غَيْرَ اللهِ

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ[(١)]﴾

المراد باليوم: يوم عرفة، حيث أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل الشرك وأهله، بعد ما كانوا حريصين على ردّ المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك، فلما رأوا عز الإسلام وظهوره يئسوا كل اليأس أن يرجع المؤمنون إلى دينهم، فلا تخشوا غير المسلمين واخشوا الله الذي نصركم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

هذا: ولما حرَّم الإسلام ألوانًا من الشرك، وهي: ما أُهِلَّ لغير الله تعالى، وما ذُبح على النُّصُب، والاستقسام بالأزلام، وكان في هذا تضييق على أهل الشرك بمفارقة ما ألفوه، أعقب ذلك ببيان أن ذلك من كمال الدين، وأنه إخراج للناس مما كانوا عليه من ضلال، وأن الله تعالى قد أنعم عليهم بدين عظيم فيه سعادتهم وصلاحهم، ومنافعهم البدنية والدينية، ولهذه المعاني كانت هذه الجمل الثلاث معترضة بين المحرمات المذكورة في الآية، وبين الرخصة المذكورة في نهاية الآية ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ . . .إلخ.

وقد كان الكفار - ولا يزالون- يطمعون في أن يرجع المسلمون عن دينهم، فلما قوي الإسلام أيسوا من ذلك، وكان هذا بعد أن فتح الرسول ﷺ مكة المكرمة، ويئس الكفار من بُطلان دين الإسلام، ويئس أهل مكة أن ترجعوا إلى دينهم، كما جاء في حديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم**»[(٢)] وقد نزلت هذه الجملة من الآية؛ لتقرر أنه كما يئس الكفار من أن تعبدوا غير الله تعالى، يئسوا من تحريف دينكم ومن تغييره وتبديله، ومن النقصان منه أو الزيادة فيه، فقد كتب الله البقاء لهذا الدين وحفظه من التحريف والتبديل.

وليس المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يومًا بعينه، وإنما المعنى: الآن صرتم بحيث لا يطمع فيكم عدوكم، فقد انقطع رجاؤهم في التغلُّب عليكم، وصرْفكم عن دينكم ﴿فَلَا

---

(١) وقف يعقوب على (واخشوني) بإثبات الياء، والباقون بحذفها.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨١٢).

﴿تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ لا تخشوا إلا الله، ولا تخافوا من الكفار أن يظهروا عليكم، أو يُبطلوا دينكم، وهو وحده ينصركم، وهو وحده يتولاكم، فلا تخالفوا أمره ونهيه.

كَمَالُ الدِّينِ وَتَمَامُ النِّعْمَةِ

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

في هذا المقطع من الآية ثلاث منن امتنّ الله بها على عباده المسلمين، وهي:

أولًا: كمال الدين:

ثم امتنَّ الله على عباده بكمال الدين، فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بتمام النصر وكمال الشريعة والعقيدة في الأصول والفروع كما تضمنهما الكتاب والسنة.

وقد نزلت هذه الجملة من الآية بعد عصر يوم عرفة، في حجة الوداع، في السنة العاشرة من الهجرة على رسول الله ﷺ وهو بعرفة على ناقته العضباء، فكادت عضد الناقة أن تندق، وبَركت الناقة؛ لِثِقَل الوحي عليها.

ولما نزلت هذه الآية بكى عمر ﷺ فسأله النبي ﷺ: «**ما يبكيك يا عمر؟**»، فقال: أبكاني أنَّا كُنَّا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، قال: «**صدقت**»[(١)].

وعن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: وأي آية؟ قال: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ نزلت عشية عرفة في يوم جمعة[(٢)].

وقول اليهودي: لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا؛ لكمال الدين فيه بالحلال والحرام، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام.

---

(١) تفسير «البغوي» و«الخازن» و«ابن كثير» (٢/ ٢٦) وابن جرير (٩/ ٥١٩) عن أسماء بنت عميس.

(٢) البخاري في الإيمان (١/ ١٠٥) برقم (٤٥) وفي المغازي والتفسير برقم (٤٦٠٦) والاعتصام (٧٢٦٨) ومسلم (٤/ ٢٣١٢) برقم (٣٠١٧) والترمذي (٥/ ٢٥٠) برقم (٣٠٤٣) والنسائي في الحج (٨/ ١١٤، ٣٠٠٢) وأحمد (١/ ٢٨) وهذا لفظه ورقمه في «المسند» (١٨٨، ٢٧٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن حبان (١٨٥) وعبد بن حميد (٣٠).

وعن عيسى بن حارثة الأنصاري قال: كنا جلوسًا في الديوان، فقال لنا نصراني: يا أهل الإسلام، لقد أُنزِلَتْ عليكم آية لو أُنزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم وتلك الساعة عيدًا ما بقي منا اثنان ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فلم يجبه أحد منا، فلقيتُ محمد بن كعب القرظي فسألته عن ذلك فقال: ألا رددْتم عليه؟ فقال: قال عمر بن الخطاب: أُنزِلَتْ على النبي ﷺ وهو واقف على الجبل يوم عرفة، فلا يزال ذلك اليوم عيدًا للمسلمين ما بقي منهم أحد[١].

وقال عليٌّ: أُنزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ قائم عشية عرفة[٢].

وقد أكمل الله الدين بالفرائض والسنن والحدود والأحكام، وبإظهار الدين، وقطْع دابر المشركين عن أرض الحرم، وبالنصر على العدو، وتأمين الخوف منه، وبقاء الدين وعدم نسخه، وبتصديق الرسل السابقين، فهو كمال إلى يوم القيامة.

ثانيًا: تمام النعمة: ثم قال تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ وأعظم نعمة هي نعمة الإسلام، وقد أتم الله تعالى فيه العقيدة والشريعة، وختم به النبوة والرسالة، وأخرج به الناس من ظلمات الجهل إلى نور الهدى، فأخرجهم من سفاح الجاهلية، وأساطير الخرافات، وسلطان الكهانة إلى القمة الشامخة، والمبادئ العليا في الإيمان والتوحيد، وليس هناك دين غيره، وليس هناك نبي غير محمد ﷺ إلى قيام الساعة، وليس هناك نسخ ولا تغيير.

أخرج الطبري بسند حسن عن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: كان المسلمون والمشركون يحجُّون جميعًا، فلما نزلت براءة مُنع المشركون عن البيت، وحَجَّ المسلمون، لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين، فكان ذلك من تمام النعمة.

وهذا هو الدين الذي ارتضاه رب العالمين لعباده في قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وهو نهاية الكمال، وأعلى المراتب فالزموه ولا تفارقوه، ولن يَصْلُحَ حال الأمة إلا بالتمسك بعُراه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وقد عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية واحدًا وثمانين يومًا، ونزل بعدها من القرآن (سورة النصر) في منى، وفيها نعْي للنبي ﷺ بالإشارة إلى الفتح والنصر وتمام الدين.

وآخر ما نزل من القرآن مطلقًا، كان قبل وفاة النبي ﷺ بتسع ليالٍ، وهو قوله تعالى:

---

(١)، (٢) «تفسير الطبري» (٨/ ٨٨).

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

المُسْتَثْنَى مِنَ اللُّحُومِ المُحَرَّمَةِ:

﴿فَمَنِ[١] ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ثم استثنى سبحانه من الذبائح الأحد عشر السابقة حالة المضطر:

أي: فمن ألجأته الضرورة إلى شيء من هذه المحرمات في مجاعة شديدة، فلا ذنب عليه إذا تناول ما يدفع الضرورة من غير زيادة، وهذا المعنى يعود على الذبائح المحرمة في الآية، أي: أن من أصابه جوع شديد وألجأته الضرورة إلى أن يأخذ شيئًا من المحرمات بمقدار ما يسدُّ رمقه، وبمقدار ما يقُيم ويحفظ عليه حياته، وهو غير معتدٍ ولا متجاوزٍ في التناول بعد زوال الضرورة، فلا حرج عليه، على ألا يكون سفره لمعصية.

وقد استدل بهذه الآية من يقول: إن العاصي بسفره، لا يترخَّص بشيء مِنْ رُخص السفر؛ لأن الرخَص لا تُنال بالمعصية.

وعن ابن عمر ﷺ مرفوعًا أن النبي ﷺ قال: **«إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»**[٢].

وعن أبي واقد الليثي أنهم قالوا: يا رسول الله، إنَّا بأرض تُصيبنا بها المخمصة، فمتى تحلّ لنا بها الميتة؟ فقال: **«إذا لم تصْطبحوا، ولم تغتبقُوا، ولم تحتفئوا بقْلًا، فشأنكم بها»**[٣].

والمراد بقوله: **«تصطبحوا»** وقت تناول وجبة الإفطار، أي: إذا جُعْتُم ولم تجدوا ما تأكلوه.

---

(١) قرأ أبو جعفر (فَمَنُ اضْطِرَّ) بضم النون وكسر الطاء، وقرأ الباقون (فَمَنِ اضْطُرَّ) بكسر النون وضم الطاء، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر بضم النون وصلًا من (فمن اضطر) تبعًا لضم ثالث الفعل، والباقون بالكسر على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين.

(٢) حديث صحيح: «المسند» (٨/ ١٧٠) برقم (٥٨٦٦، ٥٨٧٣) و«صحيح ابن حبان» برقم (٥٤٥) (موارد) و«مجمع الزوائد» (٣/ ١٦٢) عن البزار والطبراني في «الأوسط» وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (٩/ ٥٩) والبيهقي في السنن (٣/ ١٤٠)

(٣) حديث حسن بطرقه وشواهده أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨) برقم (٢١٨٩٨، ٢١٩٠١) وابن جرير (٩/ ٥٣٨) وأبو داود (٢٨١٧) والدارمي (١٩٩٦) والحاكم (٤/ ١٢٥) والبغوي في شرح السنة (٣٠٠٧) والطبراني في الكبير (٣٣١٦).

ومعنى «تغْتبقوا»: وقت تناول وجبة العشاء، أي: وإذا لم يكن معكم بقلًا من البقول تتناولونه.

والمعنى: أنه يحل لكم أن تأكلوا من الميتة حال اضطراركم، ما لم تتناولوا هذه الوجبات الثابتة، أو تأكلوا شيئًا يُقِيتُكُم كالبقل. والخمص: هو ضمور البطن.

جاء في الصحيحين عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ بعث سريَّة تتكوَّن من ثلاث مئة رجل، وأمَّر عليهم أبوعبيدة، وأعطاهم جرابًا من تمر، فكان أبوعبيدة يُعطي كل واحد تمرة، فيمصُّها مصًا ويشرب عليها الماء، فتكفيهم يومهم، وكانوا يضربون ورق الشجر بالعصا ليقع الورق، فيبلُّوه بالماء ويأكلوه، ثم إنهم وجدوا دابة ميِّتة اسمها (العنبر) فترددوا في الأكل منها، فقال أبوعبيدة: لقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهرًا، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك، فقال: **«هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعموه لنا»**، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله[1].

وخلاصة معنى الآية: أن الله تعالى حرم فيها أحد عشر أمرًا على كل مسلم إلى قيام الساعة وهي:

١ - أكل لحم الحيوان الذي فارق الحياة دون ذبح.

٢ - شرب الدم السائل المراق.

٣ - أكل لحم الخنزير ومشتقاته.

٤ - أكل لحم ما لم يذكر عليه اسم الله تعالى عند الذبح.

٥ - أكل البهيمة التي ماتت بسبب حبس أنفاسها.

٦ - أكل لحم البهيمة التي ضُربت بعصًا، أو حجر، أو غيرهما، فماتت دون تذكية.

٧ - أكل لحم الحيوان الذي سقط من مكان عالٍ، أو هَوَى في بئر فمات دون تذكية.

٨ - أكل لحم البهيمة التي ضربتْها بهيمة أخرى بقرنها فماتت دون أن تُذَكى.

٩ - أكل لحم البهيمة التي أكلها السبع؛ كالأسد، والنمر، والذئب.

واستثنى الله سبحانه من هذه الحيوانات ما تم ذبحه قبل الموت فهو حلال.

---

(١) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٩٣٥) و«صحيح البخاري» برقم (٢٤٨٣، ٥٤٩٤).

١٠- وحرم الله تعالى ما ذُبح على ما ينصب للعبادة، من حجر أو قبر، ونحوه فهو من أبواب الشرك.

١١- وحرم الله عليكم اللحم والطعام الذي يحصل لكم عن طريق المقامرة، ومنه ما يُذبح للجن والسحرة، وكذا التحاكم إلى القداح، عند إرادة فعل أمر من الأمور أو تركه، وقد شرع الإسلام لنا الاستخارة بدلًا من ذلك.

وإذا ارتكب العبد شيئًا من ذلك، فهو معصية لله تعالى، وخروج عن طاعته؛ فإن هذا من شأن الكفار، وقد انقطع طمعهم في أن ترتدوا عن دينكم إلى ما هم عليه من الكفر والشرك، فلا تخافوا أحدًا غير الله، فقد أكمل الله لكم الدين، وحقق لكم النصر، وأتم لكم الشريعة، وأخرجكم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، ورضى لكم هذا الدين، فالزموه ولا تفارقوه.

هذا: وقد تضمنت الجملة قبل الأخيرة من الآية أربعَ بشارات وهي:

الأولى: ظهور هذا الدين، ويأس الكفار من ردة المسلمين عن دينهم.

والثانية: إكمال هذا الدين بكل ما يحتاجه البشر.

والثالثة: تمام النعمة عليهم بإخراجهم من الشرك إلى التوحيد.

والرابعة: أن الله تعالى اختار لنا هذا الدين وارتضاه لعباده إلى قيام الساعة.

وفي آخر الآية بيان أن من اضطر إلى تناول شيء مما حرمته الآية في مجاعة ونحوها، غير متعمِّد لذلك فله أن يتناوله، والله غفور له، رحيم به.

حِلُّ الطَّيِّبَاتِ وَمِنْهَا: صَيْدُ السِّبَاعِ المُعَلَّمَةِ

٤- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

أي أن الله تعالى أحل لكم كل ما فيه نفع وفائدة من غير ضرر بالعقل ولا بالبدن، ويدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار، وجميع حيوانات البر والبحر إلا ما حرمه الشرع كالسباع والخبائث ونحو ذلك.

أسباب النزول:

١- عن أبان بن صالح، عن القعقاع بن الحكيم، عن سلمى أم رافع، عن أبي رافع قال: أمرني رسول الله ﷺ بقتل الكلاب، فقال الناس: يا رسول الله، ما أُحل لنا من هذه الأمة، التي أمرْتَ بقتلها - أي: أمة الكلاب - فأنزل الله هذه الآية(١)

٢- وعن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ أمر بقتل الكلاب حتى قتلنا كلب امرأة جاءت من البادية. (٢)

٢- وعن سعيد بن جبير، عن عَديٍّ بن حاتم، وزيد بن المهلهل، أنهما سألا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، قد حرم الله الميتة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت الآية(٣).

٤- ولمَّا كان النبي ﷺ مع أصحابه في غزوة، شَرَدَ منهم بعير، فرماه رجل بسهم فحبسه، فقال رسول الله ﷺ: **«إن لهذه الإبل أوابد كأوابد الوحش، فإذا غلبتكم منها شيء، فاصنعوا به هكذا»**(٤).

اقتناء الكلاب لا يجوز إلا لحاجة:

وقد ثبت أن جبريل ﷺ استأذن في الدخول على النبي ﷺ، فأذن له الرسول ﷺ، ثم وقف جبريل على الباب وامتنع من الدخول، فسأله النبي ﷺ عن سبب امتناعه، فقال:

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١١) والطبري (٩/ ٥٤٥) والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٩٢٧) (١/ ٣٢٦) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٢٣٥) وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٢٩٠) والقرطبي (٦/ ٦٥) وغيرهم وفيه موسى بن عبيدة الربذي، ضعيف، والحديث في المسند برقم (٢٧١٨٨) بمعناه، وليس فيه ذكر للآية، وإسناده صحيح وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٦٦٨) وهو في المسند أيضا برقم (٢٣٨٦٥) وفي تفسير الطبري (٦/ ٨٨) واللفظ المذكور للحاكم (٢/ ٣١١) وعنه البيهقي (٩/ ٢٣٥) وفيه محمد بن إسحاق.

(٢) مسند أحمد (٤٧٤٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير أبي داود الحضري فمن رجال مسلم (محققوه)، وأخرجه مسلم (١٥٧٠) وابن أبي شيبة (٥/ ٤٠٥).

(٣) سنن أبي داود برقم (٢٨١٧) بنحوه ورواه ابن أبي حاتم وفي سنده ابن لهيعة وشيخه عطاء بن دينار، متكلم فيهما.

(٤) انظر الحديث في «صحيح مسلم» برقم (١٩٦٨) و«صحيح البخاري» برقم (٢٤٨٨، ٥٥٠٣، ٥٥٤٣، ٥٥٤٤).

«إنا لا ندخل بيتًا فيه كلب ولا صورة»[١].

ولفظه عند مسلم: عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: أخبرتني ميمونة أن رسول الله ﷺ أصبح يومًا واجمًا، فقالت ميمونة: يا رسول الله، لقد استنكرتُ هيئتك منذ اليوم! قال رسول الله ﷺ: **«إن جبريل كان واعدني أن يلقاني الليلة، فلم يلقني، أمَا والله ما أخلفني»** قال: فظل رسول الله ﷺ يومه على ذلك، ثم وقع في نفسه، جرْو كلب تحت فسطاط لنا، فأمر به فأُخرج، ثم أخذ بيده ماء، فنضح مكانه، فلما أمسى لقيه جبريل، فقال له: **«قد كنت وعدتني أن تلقاني البارحة؟»** قال: أجل، لكنا لا ندخل بيتًا فيه كلب ولا صورة، فأصبح رسول الله ﷺ يومئذ فأمر بقتل الكلاب، حتى إنه يأمر بقتل كلب الحائط الصغير، ويترك كلب الحائط الكبير[٢] والحائط هو البستان.

والحديث يشير إلى أن النبي ﷺ فتش البيت، فوجد تحت السرير جروًا صغيرًا فأخرجوه منه، فدل ذلك على أن اقتناء الكلاب في البيوت لا يجوز في الإسلام، وأنها تمنع الملائكة من الدخول إلى المكان الذي هي فيه، إلا ما استثناه الرسول ﷺ: من كلاب الصيد، وكلاب حراسة الماشية، أو حراسة المزارع، أو حراسة البيت.

واستثناء كلب الحراسة والماشية؛ لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من أمسك كلبًا فإنه ينقص في كل يوم من عمله قيراط إلا كلب حرث أو ماشية»**[٣].

وفي صحيح مسلم: **«من اقتنى كلبًا، ليس بكلب صيد، ولا ماشية، ولا أرض، فإنه ينقُص من أجره قيراطان كل يوم»**[٤]، ثم نهى النبي ﷺ عن قتل الكلاب إلا الكلب الأسود في قوله: **«ما بالهم وبال الكلاب؟! اقتلوا منها كل أسود بهيم»**[٥].

---

(١) رواه مسلم عن عائشة (٢٠٤) والبخاري (٣٠٥٥) وعن عبدالله بن عمر برقم (٥٦١٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٣/ ١٦٦٤)برقم (٢١٠٥) وعن طلحة برقم (٢١٠٦) والبخاري بأرقام: (٣٢٢٥، ٣٣٢٢، ٤٠٠٢، ٥٩٤٩) وأبو داود في الصلاة (٣/ ٢٦٧) والترمذي (٤/ ٨٠) برقم (٢٨٠٤) والنسائي (٧/ ١٨٥) وأحمد (٣/ ٣٣٣) برقم (١٦٣٤٦) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٥٧٥) و«صحيح البخاري» برقم (٢٣٢٢، ٣٣٢٤).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٥٧٥).

(٥) أبو داود برقم (٧٤) ومسلم برقم (٢٨٠، ١٥٧٣) والنسائي (١/ ١٧٧) وابن ماجه برقم (٣٦٥).

وفي الحديث عن أبي طلحة ﷺ: «**إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ولا صورة تماثيل**»[1] أي: مجسمة، وهي صور منحوتة، ويلحق بها الصور المعلقة على الجدار على وجه التعظيم، إلا ما امْتُهِن من الصور، فَدِيسَ تحت الأقدام، أو جُعل وسادة ونحوها، وإلا ما كانت الضرورة تحتاجه في إثبات الشخصية والوثائق، ونحو ذلك مما يأخذ حكم الضرورة.

وقد اشتملت هذه الآية على حكمين:

أحدهما: حِلُّ الطيبات: والمعنى: يسألك أصحابك - يا محمد: ما الذي أحله الله لهم من المطاعم والمآكل بعد أن عرفوا ما حُرّم منها؟ قل لهم - يا محمد: أحل الله لكم الأطعمة الطيبة التي تستلذها الطباع السليمة، ولا يمنع الشرع من تناولها، ومفهوم المخالفة: أن الله تعالى حرم على عباده المستقذرات والخبائث، مثل: الخنافس والفئران والحشرات ونحوها، وذلك أنه بعد نزول الآية السابقة وفيها المحرمات الأحد عشر من الذبائح، أخذ أصحاب رسول الله ﷺ يتحرجون ويتوجسون من كل ما ألفوه واعتادوه في الجاهلية، فراحوا يسألون النبي ﷺ في استجابة وأريحيَّة؛ للتوقِّي مما كان في الجاهلية، والتثبت مما يقره المنهج الجديد، للحذَر من مخالفته، بعد ما سمعوا هذه المحرمات التي تُليت عليهم في الآية السابقة، فأخذوا يسألونه: ماذا أُحل لهم أكلُه من الطعام ومن الذبائح؟ ليكونوا على يقين وبينة مما يؤكل، فكان الجواب: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي: أُحل لكم كل طيب شرعًا وعرفًا، وكل ما ذبح على اسم الله تعالى، وفيه إشارة إلى تحريم كل خبيث، ومنه ما ذكر في الآية السابقة، من كل خبيث مستقذر تأباه الفطرة السليمة حسًّا وذوقًا؛ كالميتة، والدم، ولحم الخنزير، والتبغ والتدخين، ونحوه كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والجسم الذي اعتاد شيئًا خبيثًا يحسبه المتناول له طيبًا؛ لإلْفه له، كمدمن الخمر، وكذا من تسمم جسده بمواد التدخين والتبغ والمخدرات، والعبرة بالجسم الذي لا يألف شيئًا من ذلك، فهو يستقذره في أول تعاطيه له، ثم يتعوده بعد ذلك.

وعلى المسلم أن يسأل نفسه دائما: إذا ميز الله يوم القيامة بين الطيبات والخبائث،

---

(١) من حديث أبي طلحة في «البخاري» (٣٢٢٥) و«مسلم» (٢١٠٦).

فمن أي الفريقين يكون هذا الذي يتناوله؟ قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

والحكم الثاني: حكم ما اصطادته السباع المدربة: قال تعالى عطفًا على ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

أي: وكما أحل الله لكم الطيبات، أحل لكم صيد ما علَّمتموه من الجوارح حال كونها معتادة للصيد ومدرَّبة عليه بتعليمكم لها بعض ما علَّمكم الله من طرق الصيد، بالانقياد لأمركم عند الإرسال وعند الطلب، وعدم الأكل مما يصطاده، وفي هذا رخصة من الله تعالى، وتفضل على عباده؛ حيث سخر لهم من خلْق الله ما ينفعهم، فكلوا مما أمسكت هذه الجوارح، واذكروا اسم الله عند إرسالها للصيد؛ فإن هذه التسمية كالتسمية عند الذبح، وكان النبي ﷺ قد أمر أبا رافع بقتل الكلاب، ثم سأل النبي ﷺ: ماذا يحل لنا من هذه الكلاب؟ فنزلت الآية.

ولما سأل عدي بن حاتم وزيد الخير رسول الله ﷺ قالا: يا رسول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فمنه ما ندرك ذكاته، ومنه ما لا ندرك ذكاته، وقد حرم الله الميتة؟[1] والبزاة: نوع من الطيور، وهذا سؤال يحتاج إلى جواب، وجوابه في الآية.

وكذا لما سأل عدي بن حاتم الطائي رسول الله ﷺ قائلًا: إنا نصطاد بالكلاب، فماذا يحل لنا منها؟ فأنزل الله سبحانه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي: يسئلونك بعد تحريم الميتة والمنخنقة... ماذا أحل لهم؟ إلخ. قال سبحانه لرسوله ﷺ في جواب ذلك: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ومنها: ذبائح الأنعام، من الإبل والبقر والغنم، وأحل لكم صيد البحر وطعامه، كما أحل لكم صيد البر إلا ما استثنى في هذه الآية من كل ما لم يذكر اسم الله عليه.

وأحل لكم كذلك صيد الكلاب المعلمة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ أي: وأحل لكم صيد ما علمتم من كلاب الصيد، وهي سباع البهائم؛ كالصقر، والسبع، والفهد، والأسد، والذئب، وغير ذلك من ذوات المخالب والأنياب، وكلها يقال لها:

(١) انظر الأحاديث (١٧٥، ٥٤٨٣، ٥٤٨٧) في البخاري و(١٩٢٩) في مسلم.

كلاب الصيد؛ لأن إرسال كلب الصيد يقوم مقام نية الذبح.

وسميت جوارح؛ لأنها تجرح الصيد عند إمساكه، فهو صيد جارح، ولأنها تكتسب الصيد لأهله، فمعنى اجْتَرح: اكتسب، وهي الكلاب المدربة، أي: المعلمة للصيد، وهذا معنى مكلِّبين، أي: معلمين، وقد أباح الإسلام ما تمسكه وما تصطاده كلاب الصيد المعلمة في قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ أي: تعلمون الجوارح طلب الاصطياد لكم ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: من العلم الذي علمكم الله، فلا يجوز صيد جارحة غير معلمة، وهذا التعليم لجارحة الصيد ينبغي أن يتوافر فيه أمور، وهذه الأمور مأخوذة من الآية الكريمة، ومن أحاديث المصطفى ﷺ وهي **شروط أربعة**:

الشرط الأول: أن يكون الذي يطلقها ويصطادها مسلمًا، فغير المسلم لا يجوز له ذلك.

الشرط الثاني: أن يذكر اسم الله عليها حين إطلاقها؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وفي الحديث عن عدي بن حاتم أن النبي ﷺ قال: «**إذا أرسلت كلبك، فاذكر اسم الله، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله**»[1] والمراد التسمية عند الإرسال.

وقال بعضهم: تكون التسمية عند الأكل، واستدلوا بحديث عائشة ﵂ أنها قالت: يا رسول الله، إن قومًا يأتوننا - حديثو عهدهم بكفر - بلُحمان لا ندري أذُكِر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: «**سموا أنتم وكلوا**»[2].

ويشهد للقول الأول ظاهر الآية؛ فإن الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على الجوارح على الأرجح، ويشهد له أيضًا ما جاء في الصحيحين:

عن عَديِّ بن حاتم ﵁ قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: إنا قوم نصيد بهذه الكلاب، فقال: «**إذا أرسلت كلابك المعلمة، وذكرْت اسم الله عليها، فكُلْ مما أمسكن عليك وإن قتلْن، إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على**

---

(١) من حديث عدي بن حاتم في البخاري (٥٤٨٤) ومسلم (١٩٢٩).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٠٥٧، ٧٣٩٨).

نفسه، وإن خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل»[١].

ويجمع بينهما بأن حديث عائشة ليس نصًا في الصيد، بل هو نص في الأكل مطلقًا، وعند الجهل بمصدر الذبيحة بالنسبة لغير المسلم، وقد جاء عن علي وعائشة وابن عمر ﷺ: **«إذا سمعت الكتابي يسمي غير الله فلا تأكل»**[٢].

فالتسمية شرط عند إرسال كلب الصيد على الصحيح، ويشهد لذلك حديث عدي بن حاتم السابق ذكره.

قال في المغني: فإن ترك التسمية عمدًا أو سهوًا لم يبح، هذا تحقيق المذهب، أي: مذهب أحمد.

وتكون التسمية عند بدء الطعام والشراب وفي كل أمر له شأن:

١- ففي صحيح مسلم وغيره عن حذيفة ﷺ قال: كنا إذا حضرنا مع النبي ﷺ طعامًا لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده، وإنَّا حضرنا معه مرة طعامًا، فجاءت جارية كأنها تُدفع، فذهبتْ لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، ثم جاء أعرابي كأنما يُدفع، فأخذ بيده، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الشيطان يستحل الطعام إلَّا يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها، فأخذتُ بيدها، فجاء بهذا الأعرابي ليستحل به، فأخذت بيده، والذي نفسي بيده: إن يده في يدي مع يدهما»**[٣].

٢- وفي حديث عمر بن أبي سلمة ﷺ أن النبي ﷺ قال له: **«سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكل مما يليك»**[٤].

٣- وفي حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر اسم**

---

(١) «صحيح مسلم» (٣/ ١٥٢٩) برقم (١٩٢٩) و«صحيح البخاري» برقم (٥٤٧٥) وانظر: (١٧٥).

(٢) فتح القدير (٢/ ١٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٠١٧) و«المسند» (٥/ ٣٨٢) برقم (٢٣٢٤٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم وأبو داود (٣٧٦٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٦٧٥٤٠) والبيهقي في الشعب (٥٨٣٠) والطحاوي (١٠٧٩)

(٤) البخاري (٥٣٧٦، ٥٣٧٧، ٥٣٨٧) ومسلم (٢٠٢٢).

الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء»[١].

الشرط الثالث: ألا يأكل كلب الصيد مما اصطاده، فإن أكل منه، فمعنى ذلك أنه اصطاد لنفسه وليس لمعلِّمه أو مدرِّبه، وذلك لحديث ابن عباس ﷺ **«إذا أرسلت الكلب فأكل من الصيد فلا تأكل، فإنما أمسك على نفسه، وإذا أرسلته فقتل ولم يأكل، فكل، فإنما أمسك على صاحبه»**[٢]

١- وجمهور أهل العلم على أنه إذا أكل الكلب مما اصطاده، فإن صيده يحرم أكله مطلقًا، ومما يستدل به أن عدي بن حاتم سأل النبي ﷺ عن صيد الكلاب فقال: **«إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها، فكل مما أمسكن عليك وإن قتل، إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل. . .»**[٣]

٢- وحُكي عن طائفة من السلف أنه لا يحرم، واستدلوا بما قاله أبو هريرة **«لو أرسلت كلبك فأكل منه، فإن أكل ثلثيه وبقي ثلثه فكُلْ»**[٤].

وفي حديث أبي ثعلبة أن النبي ﷺ قال: **«إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكُلْ وإن أكل منه»**[٥].

والعمل على ما عليه الجمهور، ويحمل هذا القول على ألا يكون الأكل عادة له مستمرة.

الشرط الرابع: أن يكون كلب الصيد مدرَّبًا معلَّمًا مطيعًا، فإذا أطلقه صاحبه انطلق،

---

(١) هذا لفظ أبي داود (٣٧٦٤) ورواه مسلم (٣/ ١٥٩٨) برقم (٢٠١٨) وابن ماجه (٢/ ١٢٧٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٣٥) والتعليق الرغيب (٣/ ١١١٦).

(٢) مسند أحمد (٢٠٤٩) صحيح لغيره، والطبراني (١٢٣١٣)

(٣) أبو داود (٢٨٤٩) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٧٥) وهو في صحيح مسلم (١٩٢٩) والبخاري (٥٤٨٣، ٥٤٨٧).

(٤) «تفسير الطبري» (٩/ ٥٦٢) ورواته ثقات، وجاء مثله عن سعد بن أبي وقاص وسلمان وابن عمر.

(٥) سنن أبي داود برقم (٢٨٥٢)، وهو حديث ضعيف، وانظر المسند (١٧٧٥، ١٧٧٣٧).

وإذا زجره انزجر، وإذا طلب منه أن يثبت ثبت، وهكذا.

واستثنى الإمام أحمد من كلاب الصيد المعلَّمة الكلب الأسود؛ لأنه يجب قتله عنده، ولا يحل اقتناؤه؛ لحديث أبي ذر: «**يقطع الصلاة: الحمار، والمرأة، والكلب الأسود**»، فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: «**الكلب الأسود شيطان**»[١].

وفي رواية عن جابر: «**عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين؛ فإنه شيطان**»[٢].

وفي ختام الآية أمر سبحانه بتقوى الله تعالى والخوف منه، وامتثال أمره ونهيه، فإنه سبحانه المجازي على الأقوال والأفعال في يوم يشتد فيه الحساب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

وفي هذه الآية أمور منها:

١- لُطف الله تعالى بعباده ورحمته بهم، حيث وسّع عليهم أبواب الحلال، ومن ذلك صيد الكلاب المعلَّمة التي إذا أرْسلها صاحبها أُرسلت، وإذا زجرها انزجرت.

٢- جواز اقتناء كلب الصيد، أما اقتناء الكلاب فهو محرم.

٣- طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد لأن الله تعالى أباح أكله.

٤- الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير ونحوهما كالفهد والصقر ليس مذمومًا ولا عبثًا أو لهوًا.

٥- جواز بيع كلاب الصيد المعلمة.

٦- اشتراط التسمية عند إرسال الجارح.

٧- جواز أكل ما صاده الجارح.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥١٠) وأبو داود (١/ ٤٥٠) برقم (٧٠٢) وصحيح سنن أبي داود (٦٥٠) والترمذي (٢/ ١٦١) والنسائي (٢/ ٦٢) وابن ماجه (٢/ ١٠٦٩) و«المسند» (٥/ ١٤٩) برقم (٢١٤٢٤، ٢١٤٣٠) وجاء من طرق أخرى كثيرة.

(٢) يُنظَر: حديث أنس في البخاري (٥/ ٢٢٠) وجابر في مسلم (٤/ ١٧٢١) برقم (١٥٧٢) وأبو داود (٤/ ٦٤٧).

حِلُّ طَعَامِ أَهْلِ الكِتَابِ وَالتَّزَوُّجِ مِنْهُمْ

٥- ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ[1] مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أنه قد أباح لعباده كل ما هو طيب وشهيٌّ مما أحله الله تعالى، من كل ما لذَّ وطاب، ولم يَرِدْ نص في تحريمه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. وقد ذكر سبحانه إحلال الطيبات لبيان الامتنان، لكي يشكر العباد ربهم ويكثروا من ذكره حيث أحلَّ لهم الطيبات وأباح لهم كل ما تدعو الحاجة إليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ يراد باليوم: الزمان الحاضر، مع ما يتصل به من الماضي والمستقبل، ويصح أن يراد باليوم: يوم نزول الآية، في يوم عرفة من عام حجة الوداع، وقد اشتملت هذه الآية على **ثلاثة أحكام**:

الحكم الأول: إباحة الأطعمة الطيبة: كالخبز، واللحم، والسمن، والزيت، والفاكهة، وكل ما ليس فيه مضرة للإنسان، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢].

الحكم الثاني: ذبائح أهل الكتاب: وقد أعادت هذه الآية لفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ المذكور في الآية السابقة؛ لتبْني عليه ما يتعلق بطعام أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فقد أحل الله لنا طعامهم كله بما فيه ذبائحهم؛ نظرًا لأن ديانتهم في الأصل ديانة توحيد، فهم ينتسبون إلى الأنبياء والكتب، بغض النظر عما طرأ عليها من الشرك والتحريف، وقد اتفق الرسل جميعًا على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذا أبيحت ذبائحهم دون غيرهم، والدليل على أن المراد بالطعام في الآية هو الذبائح؛ أن الحبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية.

ومن دخل في دين أهل الكتاب بعد بعثة النبي ﷺ فإن ذبيحته لا تحل؛ لأنه لا يُقبل من

---

(١) قرأ الكسائي (والْمُحصِنات) بكسر الصاد في الكلمتين، وقرأ الباقون (والمحصَنَاتَ) بفتح الصاد فيهما معًا.

أحد غير الإسلام بعد مجيء خاتم الرسل ﷺ.

ومَنْ ليس من أهل الكتاب لا تؤكل ذبائحهم؛ كعبدة النار والبقر والأوثان والجن والكواكب، ونحوهم؛ فهم ليسوا أهل كتاب.

وعلى هذا: فالذبائح التي تَرِد إلى المسلمين من بلاد أهل الكتاب يجوز أكلها، والذبائح التي تَرِد من البلاد الأخرى لا يحل أكلها، وهذا معنى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ وبالتالي فإن طعام المسلمين يحل لهم ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ وإذا ثبت لدينا أن ذبائحهم قد صُعقت بالكهرباء، أو رُميت بالرصاص، أو خُنقت، أو سُحب منها الأوكسجين، فماتت، فإنه لا يجوز أكلها، ومما يدل على جواز أكل ذبائح أهل الكتاب من السُّنَّة أن أهل خيبر أهدَوْا إلى النبي ﷺ شاة مشوية، وكانوا قد سمَّموا ذراعها، لعلمهم أن النبي ﷺ يعجبه لحم الذراع، فتناول منها نهشة، فأخبرته الذراع أنها مسمومة، فلفظها[1].

الحكم الثالث: الزواج من أهل الكتاب: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾

أي: وأحل الله لكم أن تتزوجوا النساء المسلمات العفيفات الطاهرات المحصنات من المؤمنات، وقدَّمت الآية هذا على نكاح الكتابيات؛ لبيان الأفضلية، ولبيان الأولى، فإذا أراد المسلم أن يتزوج وأمامه المسلمة وغير المسلمة، فالأوْلى له أن يقدِّم المسلمة؛ لأن الكتابية لا يخلو حالها من اعتياد شرب الخمر، وذكر الصليب، ونحو ذلك، وكما قال ابن عمر: إنها تشرك بالله، وتؤمن أن عيسى إلهًا أو ابنًا، أو ثالث ثلاثة، فلو فُرِض وأن المسلم تزوج الكتابية، فعليه أن يتخير العفيفة التي تصون نفسها عن التبذل وسفاسف الأمور، ثم عطف سبحانه على ذلك فقال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: ويجوز لكم التزوج من الكتابية ولو بقيت على ديانتها يهودية أو نصرانية.

وقد تزوج عثمان ﷺ (نائلة) وهي نصرانية، وتزوج طلحة بن عبيد الله يهودية، وقد أجاز الإسلام ذلك؛ لأن ذريتها ستكون مسلمة، ولأن الإسلام يطمع في إسلامها، فيحل

---

(١) عند أحمد، في المسند (٢٧٨٤، ٣٥٤٧) عن ابن عباس وكذا (٩٨٢٧، ١٣٢٨٥) والبخاري عن أبي هريرة (٣١٦٩) وانظر سنن البيهقي (٨/٤٦) وفتح الباري (٧/٤٩) والنسائي في الكبرى (١١٣٥٥) وأبوداود (٤٥٠٩) والدارمي (٦٩).

لكم أن تتزوجوا المحصنة الحرة العفيفة غير المجاهرة بالزنى، وغير الخليلات العاشقات سرًّا، إذا أعطيتموهن المهر الذي يبذُلُه الزوج للمرأة، وكنتم متعففين بهن غير زناة، سرًّا لا علنًا، منفردين لا مجتمعين، على وجه السفاح أو الخلَّة والصداقة، ولا متخذي أخدان.

والسفاح: هو الزنى المعلن، بحيث لا تبالي المرأة أن يأتيها أيُّ رجل، فهي مسفحة، أي: كاشفة عن وجهها، معلنة للدعارة، والرجل كذلك قد يكون مسافحًا.

والمتخذة للأخدان هي: ذات الصديق أو العشيق، تتخذه سرًّا صديقًا أو عشيقًا لها، وهي غير معلنة أو غير سافرة.

فالسفاح: أن تكون المرأة لأيِّ رجل، والمخادنة: أن تكون المرأة لرجل خاص بغير زواج.

وقد أباح الإسلام لنا أن نتزوج الكتابية (يهودية كانت أو نصرانية)؛ لأن الأصل في ديانتها هو التوحيد.

وفرْق بينها وبين الوثنية التي لا تعرف رَبًّا، ولا نبيًّا، ولا كتابًا، وقد نهانا الله تعالى عن الزواج منها، فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]. وفي هذا تخصيص لها، والمراد عابدة الوثن.

أما الكتابية فيجوز زواجها بشرط أن ندفع لها مهرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ويجوز أن نتزوجها بعقد صحيح مستوفٍ لشروط الزواج، ويشترط أن تأمن على نفسك -أيها الزوج - من التأثُّر بدينها، وكما شرَط الإسلام الإحصان والتعفف في النساء كما جاء في سورة النساء ﴿مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَ ٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]. شرطه أيضًا في الرجل في سورة المائدة فقال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾

ويؤخذ من الآية أن الفاجرة غيرالعفيفة عن ا لزنى لا يباح نكاحها، سواء أكانت مسلمة أم كتابيّة حتى تتوب ، لقوه تعالى ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَ ٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]

وفي سورة النساء أن المسلمة الرقيقة لا يجوز للحر نكاحها إلا بشرطين، هما: عدم الطول، اي عدم الاستطاعة، وخوف العنت، أي الزنى، لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ

مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى أن قال: ﴿. . ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

المسلمة لا تتزوج الكتابي: وهذه الصورة لا تنعكس، أي: لا يجوز للمسْلمة أن يتزوجها غير المسلم، وقد فرّق الإسلام بين الأمرين؛ لأن المسلم لا ينكر النصرانية، ولا ينكر اليهودية، بل يعترف بهاتين الديانتين وغيرهما على أنها شرائع سبقت محمدًا ﷺ، وكان لها وقتها وزمانها، فالمسلم يؤمن بما أُنزل على محمد، وما أنزل على مَن قبلَه من الرسل، وأن هذه الشرائع قد نُسخت وأدَّتْ مهمتها في زمان معين، وأما المرأة النصرانية أو اليهودية فهي لا تؤمن بمحمد ﷺ، ولا بما أُنزل عليه.

ومن هنا فلا تأمَن المسْلمة على دينها إذا كانت في عصمة الكتابي؛ لأن الزواج فيه ولاية، والرجل له الولاية على المرأة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. وولاية غير المسلم على المسلمة يتعارض مع هذه الآية، ويتعارض مع القوامة عليها، فإذا كان الزوج غير مسلم، فلا يجوز له أن يكون قيِّمًا، أو وليًّا على المرأة المسلمة، ثم إن المرأة المسلمة لا تقبل أن أبناءها يخرجون لأبيهم على غير الإسلام، وحين يتزوج المسلم من غير المسلمة فإن الأبناء يكونون مسلمين إلى أبيهم، مع أن الأم غير مسلمة، والعكس غير صحيح، ولذلك فقد أباح الإسلام هذا ومنع هذا.

ثم قال ﷻ في ختام الآية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: ومن يجحد ما أمر الله به، ويكفر بشرائع الله وبما أحل وحرم ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي: بطل ثواب عمله، فكأن العمل الباطل انتفخ كانتفاخ الدابة المسمومة، ثم ذهب أدراج الرياح، كما ماتت الدابة المسمومة، فالحبوط مأخوذ من انتفاخ بطن الدابة وموتها مسمومة ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذا مات على ذلك.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَحْكَامٍ فِي الطَّهَارَةِ

٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ[1] إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾

في الآية السادسة من سورة المائدة أحكام هامة؛ هذه الأحكام تتعلق بالطهارة: أحكام الوضوء، وأحكام الغسل، وأحكام التيمم، وهي آية جامعة، ذكر الله ﷻ فيها هذه الأحكام الثلاثة وفصَّلها؛ وبيّن أن امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان، لأن من مقتضيات الإيمان؛ العمل بما شرعه الله لنا في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

الْحُكْمُ الأَوَّلُ: رَفْعُ الْحَدَثِ الأَصْغَرِ

بيَّنت الآية حكم الوضوء وأعضائه التي تُغسل عند إرادة الصلاة، وحددت أعضاء الوضوء الأربعة، بالإضافة إلى ما تضمنته من وجوب النية عند إرادة الوضوء.

والنية: مأخوذة من لفظ ﴿قُمۡتُمۡ﴾ أى (أردتم)؛ فالإرادة تعني: العزم والتصميم، والنية عند الوضوء وعند الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وإخلاص الدين: يعني النية الخالصة في جميع الأعمال التي تُقرِّب العبد من ربه، ولمَا جاء في الصحيحين وغيرهما عن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»[2] والوضوء من الأعمال.

والمراد: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وأنتم مُحْدِثون على غير طهارة، فاغسلوا وجوهكم. . . إلخ.

وقيل: كان الوضوء واجبًا لكل صلاة في بدء الإسلام للمحدث والمتطهر معًا، حتى

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وحفص والكسائي ويعقوب بنصب لام (وأرجلَكم) عطفًا على (وجوهَكم) فيكون حكم الرجلين الغسل كالوجه، وقرأ الباقون بخفضها عطفًا على (برءوسِكم) إشارة إلى المسح على الخفين في بعض الأحوال، أو إشارة إلى عدم الإسراف في استعمال الماء؛ لأن غسل الرجلين مظنة كثرة صب الماء، فالمراد بالمسح: الغسل الخفيف.

(٢) جزء من حديث البخاري رقم (١، ٥٤، ٢٥٢٩، ٥٠٧٠) وحديث مسلم رقم (١٩٠٧).

كان يوم فتح مكة، فخفف الله عنَّا وأبقى الوجوب للمحدث، والاستحباب والندب لمن كان على طهارة.

وقد ثبت هذا من حديث بريدة عن أبيه قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئًا لم تكن تفعله؟ قال: «**إني عمدًا فعلته يا عمر**»[1] قال الترمذي: والعمل على هذا عند أهل العلم، أنه يُصلِّي بوضوء واحد ما لم يحدث.

وعن عمرو بن عامر الأنصاري قال: سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة قال: قلت: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث[2].

صفة الوضوء:

١- أما صفة وضوء النبي ﷺ فمنها ما جاء في الصحيحين عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أن رجلًا قال لعبد الله بن زيد بن عاصم: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوَضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض، واستنشق ثلاثًا، وغسل وجهه ثلاثًا، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدَّم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردَّهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه[3].

٢- وعن عطاء بن يزيد الليثي عن حُمْران بن أبان قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ، فأفرغ على يديه ثلاثًا فغسلهما، ثم مضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثًا، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثًا، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه

---

(١) «مسند أحمد» (٥/ ٣٥٨) برقم (٢٣٠٢٩) و«صحيح مسلم» (١/ ٢٣٢) برقم (٢٧٧) وأبو داود (١/ ١٢٠) برقم (١٧٢)والترمذي (١/ ٨٩) برقم (٦١) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١/ ١٧٠) برقم (٥١٠) والنسائي (١/ ٨٦) (١٣٢).

(٢) «المسند» (٣/ ١٣٢) بأرقام: (١٢٣٤، ١٢٣٦٤، ١٢٥٦٥، ١٣٧٣٤) والبخاري (٢١٤) وأبو داود (١٧١) والترمذي (٦٠) والنساء (١/ ٨٥) وابن ماجه (٥٠٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٨٥، ١٨٦، ١٩١، ١٩٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥).

اليمنى ثلاثًا، ثم اليسرى ثلاثًا مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: **«من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدم من ذنبه»**[(١)].

ويفيد هذا الحديث أن النبي ﷺ غسل أعضاءه ثلاث مرات.

٣- وفي حديث ابن عباس قال: توضأ النبي ﷺ مرة مرة[(٢)].

٤- وفي حديث عبد الله بن زيد أن النبي ﷺ: توضأ مرتين مرتين[(٣)].

٥- وفي حديث رفاعة بن رافع أن رسول الله ﷺ قال للمسيء في صلاته: **«إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمره الله، يغسل وجهه، ويديه إلى المرفقين، ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين»**[(٤)].

وقد أخذ الفقهاء من هذه الأحاديث وأمثالها أن الواجب في غسل الأعضاء مرة واحدة سابغة، وهو أدنى رتبة للوضوء، وأن المرتين والثلاث للندب والاستحباب، وأنه لابد من إسباغ الوضوء بإتمامه وإكماله.

أما مسح الرأس، فبعض الفقهاء كالإمام أحمد قال: مرة واحدة، وبعضهم قال ثلاثًا كالشافعي، وقد جاء إفراد الرأس بالمسح في حديث عثمان السابق.

وقد رغَّب الإسلام في الوضوء، وحث عليه في كثير من **الأحاديث**، منها:

١- في صحيح مسلم وغيره عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»**[(٥)].

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (١٥٩، ١٦٠، ١٦٤، ٦٤٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٦) من طريق الزهري بنحوه.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٥٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٥٨).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٧٦٤) وهو في سننه (٨٥٨) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٣٤٥).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٤٥).

وفيه دليل على أنه ينبغي إسباغ الوضوء وإكماله على أحسن وجه.

٢- وفي صحيح مسلم وغيره عن عقبة بن عامر ﷺ قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نَوْبتي فروَّحتُها بِعَشِيٍّ فأدركتُ رسول الله ﷺ قائمًا يحدِّث الناس، فأدركتُ من قوله: «**ما من مسلم يتوضأ، فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلًا عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة**»، فقلت: ما أجود هذا! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود، فنظرت فإذا عمر، قال: إني قد رأيتك جئتَ آنفا، قال: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء**»[(١)].

ولم يشرع الإسلام الوضوء لشيء إلا للصلاة، وفي حكمها الطواف بالبيت.

٣- عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ خرج من الخلاء، فقُدِّم إليه طعام، فقالوا: ألا نأتيك بوَضوء؟ فقال: «**إنما أُمِرْتُ بالوضوء إذا قمتُ إلى الصلاة**»[(٢)].

٤- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء، ومع كل وضوء سواك، ولأخَّرتُ عشاء الآخرة إلى ثلث الليل**»[(٣)].

٥- ويستحب قبل غسل الوجه: أن يَذكُر المتوضئ اسم الله تعالى على وضوئه؛ لما جاء في الحديث عن جماعة من الصحابة أن النبي ﷺ قال: «**لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه**»[(٤)].

٦- كما يستحب غَسل الكفين قبل البدء في الوُضوء، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم؛

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٤) و«المسند» (٤/ ١٥٣) وأبو داود (١٦٩) و«سنن النسائي» (١/ ٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ١٣٦) برقم (٣٧٦٠) وقال الترمذي: حديث حسن (٤/ ٢٨٢) برقم (١٨٤٧) وصحيح الترمذي (١٨٢٤) و«صحيح مسلم» (١/ ٢٨٢) وهو في صحيح «سنن أبي داود» (٣١٩٧).

(٣) إسناده صحيح، «المسند» (١٣/ ٢٥٥) برقم (٩٩٢٨)، دون ذكر الصلاة وثلث الليل.

(٤) أخرجه أبو داود (١/ ٧٥) برقم (١٠١) وأحمد في المسند (٩٤١٨) عن أبي هريرة بإسناد ضعيف، لجهالة يعقوب الليثي (محققوه) وأخرجه الترمذي (١/ ٧٣) برقم ٢٥ وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤) وصحيح ابن ماجه (٣١٨) والحاكم (١/ ١٤٦) وغيرهم، قال الألباني في إرواء الغليل (١/ ١٢٢): حديث حسن، قلت: وله طرق كثيرة يتقوى بمجموعها، عن أبي سعيد، وسعيد بن زيد، وأبي هريرة، وسهل بن سعد وغيرهم.

لما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا استيقظ أحدكم من نومه فليفرغ على يده ثلاث مرات قبل أن يدخل يده في إنائه فإن أحدكم لا يدري فيم باتت يده؟!**»[1].

قلت: وقوله ﷺ: «**فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده؟!**». يفيد أهمية غسل الكفين عند القيام من النوم قبل الوضوء وغيره، ولو لم يأخذ المتوضئ الماء من إناء يُدخل كفيه فيه، فإن كان الماء في إناء فهو آكد وأشد استحبابًا، وصبّ الماء على الكفين من الصنابير ونحوها هو المعمول به في الوقت الحاضر، حيث تجري المياه في المواسير.

أعضاء الوضوء:

ولنشرع بعد ذلك بحول الله تعالى في ذكر أعضاء الوضوء الأربعة وهي: غسل الوجه، وغسل اليدين مع المرفقين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين، بالإضافة إلى وجوب النية كما أسلفت، وإلى وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء، كما جاءت في الآية، وكما ثبت أن النبي ﷺ لم يخالف هذا الترتيب في وضوئه، كما تجب الموالاة بين أعضاء الوضوء في الغسل، بحيث لا يجف العضو السابق عن اللاحق، ولا يفصل بينهما بلبس شراب ونحوه؛ فهذه ثلاثة أحكام بخلاف أعضاء الوضوء الأربعة، وهي: النية والترتيب والموالاة.

والعضو الأول: غسل الوجه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ ويدخل في الوجه: الأنف والفم، أي: المضمضة والاستنشاق عند الإمام أحمد.

عن ابن عباس وعثمان وغيرهما ﷺ أن النبي ﷺ توضأ فغسل وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء، فتمضمض بها واستنثر...[2].

وعند الجمهور: أن المضمضة والاستنشاق قبل غسل الوجه، من سنن الوضوء.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث عثمان بن عفان، وعبد الله بن زيد، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وغيرهم، في صفة وضوء النبي ﷺ: أنه

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (١٦٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٨) واللفظ له.

(٢) الحديث في «المسند» برقم (٤١٥، ٤٢١، ٤٢٩) عن عثمان بن عفان مطولًا وأخرجه البخاري برقم (١٤٠) و(١٩٣٤) والنسائي (١/ ٧٤)، ومسلم (٢٣٥) وغيرهم.

توضأ فغسل كفيه ثلاثًا، ثم تمضمض واستنشق واستنثر ثلاثًا، ثم غسل وجهه(١).

وهذا يفيد أن المضمضة والاستنشاق منفصلة عن غسل الوجه.

وحدُّ الوجه من منابت الشعر إلى أسفل الذقن، وعرضًا ما بين شحمتي الأذنين، ولا عبرة بالصلع، ولا بالشعر الذي يتدلى على الوجه أو القفا، ويجب غسل ما تحت الحاجبين، وأهداب العينين والشارب، وما نزل على الصدغين من الشعر، وما تحت الشفة السفلى، وتخليل اللحية الكثة، وظاهر ما نزل منها، وغسْل ما تحتها.

وفي حديث عثمان بن عفان أن النبي ﷺ **كان يخلل لحيته**(٢).

وجاء هذا عن عمار بن ياسر وأنس بن مالك وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم.

العضو الثاني: غسل اليدين إلى المرفقين؛ لقوله تعالى عطفًا على غسل الوجه: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ المرفق من الإنسان: أعلى الذراع وأسفل العضُد، أي: واغسلوا أيديكم مع المرافق، فإلى بمعنى مع، أي مع المرافق.

وجمهور العلماء على وجوب إدخال المرفقين في الغسل؛ لما صح من حديث أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ غسَل يده اليمنى، حتى شرع في العضُد، ثم يده اليسرى، حتى شرع في العضُد.

وفي حديث أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: «**إن أمتي يُدْعون يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل**»(٣).

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**»(٤).

العضو الثالث: مسح الرأس؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ وجاء ذكر مسح الرأس بين الأعضاء المغسولة؛ لبيان الترتيب في الوضوء، أي: تغسل وجهك - أيها

---

(١) كما في البخاري (١٥٩، ١٦٤) ومسلم (٢٢٦).

(٢) «صحيح الترمذي» برقم (٢٨) وفي الترمذي (٣١) وابن ماجه (٤٣٠) وصحيح ابن ماجه (٣٤٥) وابن خزيمة (١٥١، ١٥٢) وابن حبان (١٠٧٨) و«المستدرك» (١/١٤٨). وصحيح أبي داود (٩٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٣٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٦).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٤٦).

المسلم- ثم يديك، ثم تمسح برأسك، ثم تغسل قدميك، فقد جاء ذِكْرُ مسح الرأس، قبل غسل الرجلين وبعد غسل الوجه واليدين.

والباء من ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ من ناحية اللغة لها معاني متعددة: هل هي زائدة، أو للإلصاق، أو للتبعيض، أو للبيان؟ أقوال.

والفقهاء حين يستنبطون الأحكام يرجعون إلى اللغة:

أ- فمَنْ قال: إن الباء للتبعيض، قال: يكفي مسح بعض الرأس، ثم بماذا يُفسَّر هذا البعض؟:

١- بالربع، بذلك قال الأحناف.

٢- وبالثلث، قال الشافعية.

٣- وبشعرات قليلة من الرأس، بذلك قال الشافعية أيضًا.

ب - ومن قال: إن الباء زائدة، أو أنها للإلصاق، قال: الواجب مسح الرأس كله، وبذلك قال المالكية والحنابلة في إحدى الروايتين عن أحمد، والرواية الأخرى: مسح أكثر الرأس.

والذين قالوا بمسح بعض الرأس، وأنه من باب الوجوب، قالوا: بمسح الرأس كلها من باب السُّنَّة.

والأظهر أن مسح الرأس كله واجب؛ لما ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن زيد: أن النبي ﷺ مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردَّهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه[١].

ويدل على ذلك حديث المغيرة بن شعبة في الصحيحين: أن النبي ﷺ توضأ فمسح بناصيته وعلى العمامة[٢].

ويؤخذ منه أنه لما شَق عليه خَلْع العمامة مسح عليها؛ لِيُكْمِل بذلك الرأس كله.

وفيه دليل على جواز المسح على الناصية والعمامة معًا، وإن كان أبو حنيفة يستدل به على المقدار الذي ينبغي مسحه من الرأس فحسب.

---

(١) الحديث في البخاري (١/ ٣٥٨) برَقم (١٨٥، ١٨٦، ١٩٩) ومسلم (١/ ٣١٠) برقم (٢٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٤) و«صحيح البخاري» (١٨٢، ٢٠٣، ٣٦٣، ٤٤٢١).

فالأكمل والأحوط أن يمسح المسلم برأسه كله، يُقبل ويُدْبر، من مقدَّم الرأس إلى آخره، ومن آخره إلى أوله، وبذلك يكون قد أتى بجميع المذاهب، ولو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به.

العضو الرابع: غسل الرجلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾

والكعبان هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم، ولكل رِجْل كعبين، وليس كعب واحد.

وأرجلِكم بفتح اللام وكسرها قراءتان متواترتان سبعيتان، كلاهما ثابت قطعي.

أ- وقراءة النصب عطفًا على غسل الأيدي، أي: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وأرجلكم إذا كانت مكشوفة، وليست في خف ونحوه، ويشهد لهذا أحاديث كثيرة منها:

١- ما جاء في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلًا توضأ فترك موضع ظفرٍ على قدمه، فأبصره النبي ﷺ فقال: «**ارجع فأحسن وضوءك**»[١].

٢- وفي حديث طويل عن عمرو بن عَبْسة، وقد سأل النبي ﷺ عن صفة الوضوء فقال: «... **ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله** ...»[٢].

٣- وكذلك الأحاديث التي فيها الوعيد على ترك شيء من غسل القدم، وهم الذين لا يسبغون الوضوء، ولا يغسلون مؤخر أقدامهم من الخلف، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار**»[٣].

وقال بعضهم: نزل القرآن بالمسح والسُّنَّة بالغسل، فيكون مسح الرجلين منسوخًا بالسُّنَّة.

وسن الإسلام إطالة الغرة من الوجه، والتحجيل في اليدين، كما جاء في الأحاديث.

---

(١) مسلم (١/ ٢١٥) برقم (٢٤٣).

(٢) مسلم (١/ ٥٦٩) برقم (٨٣٢) وأحمد في «المسند» (٤/ ١١٢) برقم (١٧٠١٩)، وبإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البيهقي في السنن (١/ ٨١) وابن عبد البر في التمهيد (٤/ ٥٣).

(٣) البخاري (١/ ١٤٣) برقم (٦٠، ٩٦، ١٦٣) ومسلم (١/ ٢١٤) برقم (٢٤٢) وأبو داود (١/ ٧٣) والطيالسي (٢٤٨٦) وابن ماجه (١/ ١٥٤) برقم (٤٥٤) وأحمد وهو عن عائشة وأبي هريرة وجابر ورقمه عن أبي هريرة في «المسند» (٧١٢٢، ١٠٠٩٢) وعن جابر (١٤١١٥)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

ب- وأما قراءة الجرِّ فهي عطفًا على ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ وهذا بالنسبة لمن كان يلبس خفًّا، وما في معنى الخف من الجوارب ونحوها، وهذه هي الحالة الثانية لطهارة القدمين.

فقراءة النصب محمولة على غسل الرجلين المكشوفتين، وقراءة الجر محمولة على مسح الرجلين المستورتين.

هذا: والمسح على الخفين سُنَّة ثابتة عن رسول الله ﷺ؛ فقد ثبت عن جَرير أنه بال، ثم توضأ ومسح على الخفين، وقال: ما يمنعني أن أمسح وقد رأيت رسول الله ﷺ مسح، قالوا: إنما كان ذلك قبل نزول (المائدة) حيث قال: ما أسلمت إلا بعد نزول المائدة[١].

والمسح على الخفين ثابت بالأحاديث المتواترة، فقد جاوز رُواته ثمانين صحابيًّا، منهم العشرة المبشرون بالجنة.

فقراءة النصب: لغسل الرجلين، وقراءة الجر: للمسح على الخفين، أو أن المراد بالمسح: الغسل الخفيف.

فالعرب تقول: تمسَّحتُ للصلاة، بمعنى توضأت لها، وتقول: هات ما أمسح به للصلاة، أي: أتوضأ، فسمِّي الغسل مسحًا بهذا الاعتبار.

ويشهد لهذا المعنى: تحديد الفرض ﴿إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ فالمسح لا يكون بهذا المقدار، بل يمسح أعلى القدم فقط والتحديد بالكعبين في الآية للغسل لا للمسح، فتعين أن المراد بالمسح هو الغسل في بعض وجوه اللغة، وهذا أوْلى من قولهم: هو من المؤخر الذي معناه التقديم، على تقدير: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم.

وبغسل الرجلين قال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين، ومَن بعدهم من الأئمة الأربعة وأصحابهم، على أن الغسل مفهوم من ظاهر الآية، بعطف الأرجل على الرؤوس، دون إعادة لفظ الغسل، اكتفاء بذكره قبل الوجه، والكسر للمجاورة؛ إذ الرجْلين أقرب الأعضاء إلى الأرض.

---

(١) ينظر: البخاري (٣٨٧) ومسلم (٢٧٢) والبيهقي (١/ ٢٧٠).

وجمهور الفقهاء على وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء الأربعة السابق ذكرها كما هو واقع الآية، حيث ذكرها الله تعالى مرتبة، وأدخل الممسوح وهو الرأس بين مغسولين هما: اليدين والرجلين، وهذا يفيد الترتيب، وعند الحنفية أن الواو لا تدل على الترتيب، ويستحب تقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

الْحكْم الثَّانِي: رَفْع الْحَدَثِ الأَكْبَرِ

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا۟﴾

ثم تحدثت الآية عن الغسل من الجنابة، وما في معناها من الحيض والنفاس.

والجنُب مَن أصابتْه الجنابة بسبب جماع ولو لم ينزل، أو احتلام يجد منه بللًا، فإن لم يجد بللا فلا غسل عليه، ولفظ الجنُب يطلق على الرجل والمرأة، وهو مشتق من المجانبة بمعنى المباعدة بينه وبين الصلاة وغيرها.

والجنب يحرم عليه الصلاة، والطواف بالبيت، ودخول المسجد، ولَمْس المصحف وحَمْله، وقراءة القرآن، إلا ما جوَّزه الفقهاء للحائض والنفساء، من قراءة القرآن عن ظهر قلب.

والغسل من الجنابة فصَّلَه وبيَّنَه أزواج رسول الله ﷺ فذكروا كيف كان ﷺ يغتسل من الجنابة:

في الصحيحين عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة، بدأ فغسل يديه، ثم يفرغ بيمينه على شماله فيغسل فرجه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يُدخل أصابعه في الماء ويخلل بهما أصول شعره، ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يفيض الماء على سائر جسده[(١)].

ووجوب النية يؤخذ من أول الآية ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أردتم القيام للصلاة، والنية واجبة لجميع الأعمال الشرعية، ومنها الوضوء والاغتسال.

والوضوء يدخل فيه غسل الفم والأنف، وتطهيرهما بالمضمضة والاستنشاق والاستنثار.

ولا يلزم غَسلُ الرجلين إن كان المغتسل يقف تحت ماء يُرشُّ فوقه، أو يُصبُّ عليه، وكانت رِجْلاه مغموستين في الماء، والسُّنَّة أن يتوضأ المغتسل قبل أن يفيض الماء على

(١) البخاري (٢٤٨، ٢٦٢، ٢٧٢) ومسلم (٣١٦) دون ذكر اليدين والرجلين.

جسده، ويخلل بأصابعه شعر رأسه، وشعر لحيته، ويتعهد الأماكن الغائرة في الجسم؛ كالسرة، وتحت إبطيه، وما بين الفخذين، ويغسل الجهة اليمنى من الأمام والخلف، ثم الجهة اليسرى كذلك، وتنقض المرأة ضفائر شعرها، إن كان الماء لا يصل إلى جذور الشعر إلا بذلك، فإن عمه الماء فلا يلزم.

وبعد أن يفيض المغتسل الماء على جسده ويتعهده يصلي دون أن يعيد الوضوء، إلا إذا مس فرجه، عند من يرى أنه من النواقض للوضوء، وهو قول مرجوح.

والحدث الأصغر يندرج تحت الحدث الأكبر في النية والطهارة.

الحُكْمُ الثَّالِثُ: التَّيَمُّمُ لِلحَدَثَيْنِ عِنْدَ فَقْدِ المَاءِ أَوْ تَعَذُّرِ اسْتِعْمَالِهِ

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ[1] ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾

والنوع الثالث من الطهارة: التيمم لمن يعجز عن استعمال الماء أو يفقده، وقد ثبتت مشروعية التيمم بهذه الآية و من السُّنَّة حين كان النبي ﷺ وأصحابه في سفر، وعند دخولهم المدينة، سقطت قلادة عائشة ﵂ بالبيداء، فأناخ الرسول ﷺ راحلته ونزل. ومن آثار السفر، وضع النبي ﷺ رأسه في حجر عائشة ونام، ثم جاء أبو بكر ولكز عائشة لكزة شديدة وقال لها: حَبَسْتِ الناس في قلادة، ثم استيقظ النبي ﷺ وقد حضرت صلاة الصبح، فالتمس الماء فلم يجده، فنزلت هذه الآية وفيها مشروعية التيمم، فقال أُسَيْدُ بن الحضيْر: لقد بارك الله للناس فيكم، يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم، قال: فبعثنا البعير الذي كانت عليه، فإذا العِقد تحته[2].

وكان ذلك عند العودة من غزوة المريسيع سنة ست من الهجرة.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (لَمَسْتُم) بحذف الألف بعد اللام، وقرأ الباقون (لَامَسْتُم) بألف بعد اللام قال ابن عمر: اللمس هو: الجسُّ باليد، وأُلحق به باقي البشرة، وبه قال الشافعي، وقال ابن عباس: اللمس هو الجماع.

(٢) انظر: «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤، ٤٦٠٧، ٤٦٠٨) و«صحيح مسلم» (١٠٨/٣٦٧).

وعن عمار بن ياسر ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل عن التيمم فقال: ضربة للكفين والوجه[1].

قال ابن عبدالبر: أكثر الآثار المرفوعة عن عمّار، ضربة واحدة، وما روى عنه من ضربتين فكلها مضطربة[2].

وفي حديث عمار أيضًا أن النبي ﷺ قال: «.. **إنما كان يكفيك» وضرب النبي ﷺ بيده إلى الأرض، ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه»**[3].

قال النووي في المجموع (٢/ ٢٢٩): وحكى أبو ثور وغيره، قولًا للشافعي في القديم أنه يكفي مسح الوجه والكفين... ثم قال: وهذا القول وإن كان قديمًا، مرجوحًا عند الأصحاب، فهو القوى في الدليل، وهو الأقرب إلى ظاهر السنة الصحيحة.

قلت: وهو بهذا يشير إلى عدم صحة القول بأن للتيمم ضربتان، ضربة يمسح بها وجهه، وضربة بمسح بها كفيه مع ذراعيه.

والمتيمّم أحد شخصين:

أحدهما: المريض الذي يتعذر عليه استعمال الماء وقد أصابه حدث أصغر، أو أكبر.

وثانيهما: المسافر الذي لا يجد الماء في سفره.

فإن كنتم مرضى، أو على سفر وحدث لكم ما يوجب الوضوء بسبب قضاء الحاجة من بول، أو غائط، أو خروج الريح ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ وهذه طهارة صغرى، أي: حدث أصغر، فاقصدوا التراب الطاهر وارفعوا به الحدث.

لمس النساء: والمراد بالملامسة في الآية: لمس شيء من جسد المرأة؛ قصدًا بشهوة ولذة، لأن القرآن الكريم أطلق المس على الجماع في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٨٣١٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم كما قال محققوه، وأخرجه الدارمي (٧٤٥) والبزار في مسنده (١٣٨٩) وابن خزيمة (٢٦٧) وأبو داود (٣٢٧) والترمذي (١٤٤).

(٢) تنظر حاشية مسند أحمد (٣٠/ ٢٦٢) نقلا عن الحافظ في التلخيص.

(٣) المسند (١٨٣٣٢) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري (٣٤٣) ومسلم (٣٦٨) وابن ماجه (٥٦٩) وغيرهم.

وقوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩].
وقال في الظهار: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ المجادلة.

فالمراد بالمس في الآيات: الجماع؛ و قد نصَّت الآية على الحدث الأكبر بلفظ الجنابة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ ونصَّت على الحدث الأصغر في قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ وعطفت عليه اللمس باليد في قوله تعالى ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فدل هذا على المشاركة في الحكم.

فالصحيح أن اللمس معناه: الجسُّ باليد، ويلحق به لمس البشرة للبشرة فمصافحة المرأة الأجنبية ولمس شيء من جسدها حرام فضلًا عن أنه ينقض الوضوء.

وكذا زوجها إن كان قد مسها عمدًا بعد وضوئه مع شعوره بلذة وشهوة؛ فإنه يكون ناقضًا للوضوء.

والفقهاء في هذا على ثلاثة أقوال:

١- منهم من يرى أن لمس المرأة لا ينقض الوضوء مطلقًا.

٢- ومنهم من يرى أنه إن كان بشهوة فهو ناقض، وإلا فلا.

٣- ومنهم من يرى أنه ينقض مطلقًا من غير حائل.

دواعي التيمم: فإن حدث شيء من ذلك، أي من الحدث الأصغر أو الأكبر ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وهو التراب الذي له غبار، أما الجدار والسرير والخشب فليس فيه غبار.

ويكون التيمم أيضًا من الحدث الأكبر؛ كالجنابة، والحيض، والنفاس عند عدم وجود الماء، أو تعذر استعماله، وهو ما جاء في قوله سبحانه: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

أخرج الشيخان عن عمار بن ياسر ﷺ أنه قال: أجنبت فلم أُصب الماء، فتمعكت في الصعيد وصليت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «**إنما كان يكفيك هكذا**»، وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه[1].

وصفة المسح: أن يضرب المسلم بكفيه الأرض الطاهرة، أو الحجر ضربة واحدة

---

(١) البخاري (٣٣٨، ٣٤١) ومسلم (٣٦٨).

يمسح بها على وجهه وكفيه، ويبدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

والأيدي الواردة في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ تطلق على الكفين، وتطلق عليهما مع الذراعين، وتفسِّر صحيح السنة المراد بذلك كما سبق بيانه، على أن اليد عند الإطلاق تعني إلى الكوعين.

والتيمم يرفع الحدث مؤقتًا إلى وجود الماء أو إمكانية استعماله، دون إعادة الصلاة التي صلاها، ويتيمم فاقد الماء، أو المتعذر عليه استعماله لكل فريضة، وما يتبعها من نوافل، والآية عامة في جواز التيمم من الحدثين، الأكبر والأصغر، ومحل التيمم فيهما واحد وهو الوجه واليدان.

التيسير ورفع الحرج: ثم بين سبحانه سعة فضله وتيسيره على خلقه فقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ الله تعالى فيما رخصه لكم من التيمم والمسح على الخفين وغيرهما ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ فإذا توضأ المسلم وغسل أعضاءه، ثم شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ورضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا ورسولًا، فقد أخبر النبي ﷺ أن أبواب الجنات الثمانية تفتح له، يدخل من أي منها شاء.

وبيَّن ﷺ أن الوضوء على وضوء سُنَّة، وأنه نور على نور، فهو طهارة للبدن، وطهارة للنفس والروح، طهارة حسية ومعنوية، طهارة للظاهر والباطن، وأن الخطايا والذنوب تخرج مع قطرات الماء، حتى تخرج من بين أظافر العبد، ومن تحت شفرة عينه.

وطهارة الأعضاء الظاهرة تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد والتوبة النصوح:

في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتْها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرج من رجليه كل خطيئة مشتْها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًا من الذنوب**»[1].

(١) «موطأ مالك» (١/ ٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٤) والطبري (٨/ ٢١٨).

قال تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ ببيان الشرائع والأحكام وما تحتاجون إليه من أمور دينكم ودنياكم.

ومجمل معنى الآية: يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله، إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وأنتم على غير طهارة، فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المِفْصَل الذي بين والذراع والعضُد، وامسحوا رؤوسكم، واغسلوا أرجلكم إلى العظمين البارزين عند ملتقى الساق بالقدم، وإن أصابكم الحدث الأكبر فتطهَّروا بالاغتسال منه قبل الصلاة، وإن كنتم مرضى أو على سفر، وأنتم أصحاء، أو تبوَّل أحدكم، أو تبرَّز، أو جامع زوجته، فلم تجدوا ماء، فاضربوا بأيديكم وجه الأرض، وامسحوا وجوهكم وأيديكم منه، ما يريد الله في أمر الطهارة أن يضيق عليكم، بل أباح لكم التيمم توسعة عليكم، ورحمة بكم؛ إذ جعله بديلًا للماء في الطهارة، فكانت رخصة التيمم من تمام النعم التي تقتضي شكر المنعم، بطاعته تعالى فيما أمر وفيما نهى لعلكم تشكرون الله الذي رفع عنكم الحرج وطهركم من الذنوب.

وجوب الوَفَاءِ بِالمَوَاثِيقِ: مِيثَاق المسْلِمِينَ

٧- ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

وبعد أن ذَكَرت السورة عددًا من نعم الله تعالى على عباده، وأجلُّها نعمة الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لخلقه إلى يوم القيامة؛ حيث أكمل لهم الدين، وأتم عليهم النعمة، وشرع لهم شرائعه ويسَّرها لهم، بعد ذلك ذكَّرهم سبحانه بوجوب القيام بشكر هذه النعم، بذكرها بقلوبهم وألسنتهم، فإن ذلك من دواعي زيادتها واستمرارها.

والوفاء بمواثيق الطاعة، ووجوب توحيد الله تعالى، والإيمان برسوله ﷺ الذي التزموا به بمقتضى إيمانهم وانقيادهم لما أمرهم الله به ونهاهم عنه، كل ذلك من جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، وفي **مطلع هذه السورة ثلاثة مواثيق:**

الميثاق الأول: هو الذي أخذه الله تعالى على المسلمين في هذه الآية، بأن يحرصوا على أداء ما أمروا به واجتناب ما نهوا عنه.

والميثاق الثاني: أخذه الله تعالى على اليهود، وهو المذكور في الآية الثانية عشرة من هذه السورة.

والميثاق الثالث: أخذه الله تعالى على النصارى وهو في الآية التي بعدها.

والمراد بالنعمة في الآية: جنس النعم، وعلى رأسها الإسلام، وما فيه من العز والتمكين في الأرض، وصلاح شأن الأمة، وهو عهد وميثاق أخذه الله على المؤمنين جميعًا إلى قيام الساعة، وكان المسلمون قد عاهدوا الله تعالى في زمن رسوله ﷺ بعدد من المواثيق، منها:

١- وجوب الوفاء بالعقود التي ذكرت في أول السورة.

٢، ٣ - ومنها: بيعة العقبة الأولى والثانية، وفيها الميثاق الذي أخذه النبي ﷺ على اثني عشر نقيبًا من الأنصار ليلة العقبة.

٤- وكذا أصحاب بيعة الرضوان الذين بايعوه ﷺ تحت الشجرة على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، والعسر واليسر، والمتابعة والنصرة، وعدم منازعة الأمر أهله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [الحديد].

٥- ومنها بيعة النساء: على ألا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين الله ورسوله في معروف.

فاذكروا نعمة الله عليكم - أيها المؤمنون - فيما شرعه لكم، واذكروا عهده الذي أخذه عليكم من الإيمان بالله ورسوله، واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، إن الله عليم بما تسرون في صدوركم وما تنطوي عليه قلوبكم وخواطركم.

وفي هذه الآية يذكِّر الله عباده بالميثاق الذي أقروا به على أنفسهم بالإيمان بمحمد ﷺ وكتابه والسمع والطاعة، ويأمرهم بالوفاء به.

أما الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم جميعًا، وهم في أصلاب آبائهم على أن يوحدوه سبحانه ولا يشركوا به شيئًا وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فهو ميثاق عام أخذه الله ﷻ على بني آدم جميعًا.

وهكذا: فقد أخذ الله تعالى ميثاق التوحيد على البشر جميعًا.

وأخذه سبحانه على الأمة الإسلامية على وجه الخصوص.

كما أخذ سبحانه ميثاقًا خاصًا على بني إسرائيل، وجعل منهم اثني عشر كفيلًا يتولون قيامهم ووفاءهم بميثاق التوحيد والطاعة.

وأخذ أيضًا الميثاق على النصارى أن يعبدوا الله تعالى ولا يشركوا به شيئًا كما ستفصل الآيات التالية.

النِّدَاءُ الرَّابِعُ: وُجُوبُ العَدْلِ مَعَ المُسْلِمِ وَغَيْرِهِ

٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ[١] قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

ومن بنود الميثاق المأخوذ على الأمة الإسلامية: وجوب إقامة العدل بين الناس والحكم به، ولو مع العدو أو من يبغضهم الإنسان، فيا من آمنتم بالله ورسوله كونوا قائمين بالحق؛ ابتغاء وجه الله، شهداء بالعدل، ولا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا معهم، سواء أكان ذلك البغض بين الأفراد، أم بين الأمم والجماعات، وإذا كان العدل واجبًا مع الكفار وهم أعداء الله، فهو بين المؤمنين الذين هم أولياء الله وأحباؤه من باب أولى؛ فاعدلوا بين الأعداء والأحباب على حدٍّ سواء، فذلك العدل أقرب لخشية الله تعالى، واعدلوا في طاعتكم لله وولائكم له، واعدلوا بين أبنائكم وبين زوجاتكم ومن ولّاكم الله عليهم.

ورد في ذلك أن بشير أبا الغلمان ذهب إلى النبي ﷺ يُشهدُه على عطية خَصَّ بها أحد أبنائه، والابن من الورثة، والهدية لا تجوز لوارث إلا بإجازة بقية الورثة، فامتنع النبي ﷺ من

---

(١) قرأ ابن عامر وشعبة وأبو جعفر بخلف عن ابن جماز (شَنْآن) بسكون النون، وقرأ الباقون (شَنَآن) بفتح النون وهو الوجه الثاني لابن جماز.

الشهادة كما جاء في الصحيحين عن النعمان بن بشير ﷺ أنه قال: نحلني أبي نُحْلًا، فقالت أمي - عمرة بنت رواحة - لا أرضى حتى تُشْهد رسول الله ﷺ فجاءه؛ ليشهده على صَدَقَتِي، فقال: «**أَكُلَّ وَلَدِك نَحلْتَ مثلَه؟**» قال: لا، قال: «**اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم**» وقال: «**إني لا أشهد على جور**» قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة(١).

أي: ردَّ تلك العطية، أو الهبة.

قال أهل العلم: يستحب التسوية بين الأبناء حتى في القُبلة؛ فإن عدم العدل في الأقوال والأفعال تتنافى مع تعاليم الإسلام.

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: احذورا أن تجوروا، وخافوا ربكم في كل ما تفعلون، أو تتركون، وصونوا أنفسكم عما لا يرضيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وسوف يجازيكم على ما قَدَّمتْ أيديكم.

وقد سبق نظير هذه الآية في سورة النساء في الآية الخامسة والثلاثين بعد المائة، بتقديم ﴿ٱلۡقِسۡطَ﴾ على الشهادة لله، وفي هذه الآية بتقديم الشهادة لله على ﴿ٱلۡقِسۡطَ﴾ والسبب في ذلك:

١- أن آية النساء: نزلت في المشركين الوثنيين، فاقتضى هذا مزيد الاهتمام بالعدل، والمبالغة فيه.

٢- ومن جهة ثانية: فإن آية النساء جيء بها في معرض الإقرار على النفس والوالدين والأقارب، فبدأ فيها بالعدل لعدم محاباة النفس والأقربين، أما هذه الآية فقد نزلت في اليهود، وجيء بها في معرض ترك العداوة، فناسب ذلك القيام بالشهادة لله أولًا؛ لأنه أردع للنفس، ثم ثنَّى بالشهادة بالعدل، فجيء في كل معرض بما يناسبه(٢).

٣- ومن جهة ثالثة: فإن آية النساء جاءت بعد آيات القضاء في الحقوق بين الناس بعد

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢١٠) برقم (٢٥٨٦، ٢٥٨٧، ٢٦٥٠) وفي الأدب المفرد برقم (٩٣) ومسلم (٣/ ١٢٤١) برقم (١٦٢٣) وأبو داود (٣/ ٨١١) برقم (٣٥٤٢) والترمذي (٣/ ٦٤٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه (٢٣٧٥) و«المسند» (١٨٣٥٤) وابن حبان (٥١٠٢) و«سنن النسائي الكبرى» (٥٩٧٩).
(٢) انظر: «تفسير الألوسي» (٦/ ٨٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]. وأتبعتْ ذلك بأحكام المعاملة بين الرجال والنساء، فكان الأهم في هذا المقام هو الأمر بالعدل أوَّلًا ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]. والقسط هو العدل في القضاء، أما الآية التي معنا فقد جاءت بعد التذكير بميثاق الله تعالى، فكان المناسب القيام بالشهادة لله أوَّلًا، أي: الوفاء بالعهد، ثم أتبع ذلك بأن تكون الشهادة بالعدل لا حيف فيها، ولا جور، ولذا عُدِّيت آية النساء بالباء ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ وهذه الآية عُدّيت باللام ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾[1].

مَصِير المؤْمِنِ وَالكَافِرِ

٩، ١٠- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

ثم بيَّن ﷻ ما أعده في الآخرة للمؤمنين الذين عملوا الصالحات ووفوا بالعهود والمواثيق وحققوا العدل بين الناس، من مغفرة الذنوب وإنجاز ما وعدهم الله به من جنات النعيم، وما أعده للكافرين الذين جحدوا وحدانية الله تعالى، وكذبوا الأدلة التي جاء بها رسل الله، ونقضوا العهود والمواثيق، ولم يعدلوا في حكمهم، هم أهل النار الملازمون لها.

النِّدَاء الخَامِس: نِعْمَة كَفّ أَيْدِي الأَعْدَاءِ عَنِ المسْلِمِينَ

١١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ[2] ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ[3] ۝١١﴾

ثم بيَّن سبحانه للمؤمنين أن من بين النعم التي أنعم الله بها عليهم، أن حَفِظَهم في كل

(١) انظر: «تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور» (٦/ ١٣٥).

(٢) رُسِمت كلمة (نعمت) في المصحف بالتاء المفتوحة، ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء، وهي لغة قريش، ووقف عليها الباقون بالتاء اتباعًا للرسم.

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (المؤمنون) واوًا، وصلًا ووقفًا وكذا حمزة عند الوقف، وقرأ الباقون بهمزة ساكنة.

زمان ومكان من أعدائهم أن يستأصلوهم، ويأتوا على دعوة الإسلام، كما حفظ سبحانه الرسول ﷺ في زمنه من أن تمتد إليه أيدي اليهود وأيدي المشركين بالاغتيال، بأن يقتلوا النبي ﷺ ويقضوا على شأفة المسلمين.

أسباب النزول: والخطاب في هذه الآية موجَّه للمؤمنين، وليس موجَّهًا للنبي ﷺ على وجه الخصوص، ولم يأت نص قاطع يحدد المراد بالقوم الذين في الآية ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ ولذا تعددت الأقوال في سبب نزول الآية ومن هذه الأقوال:

١- أن المشركين رَأوْا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر بعُسفان، في غزوة ذات الأنمار، فلما صلَّوا ندم المشركون أن لو كانوا قد انقضُّوا عليهم، ثم قالوا: إن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم - يَعْنون صلاة العصر- وهموا أن ينكبُّوا عليهم إذا قاموا إليها، فنزل جبريل بصلاة الخوف[1].

٢- ومنها أن أهل مكة قد عزموا على الغدر بالمسلمين حين نزلوا بالحديبية، عام صُلْح الحديبية، ثم عدلوا عن ذلك، وهو ما أشارت إليه الآية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

٣- ومنها أن أهل خيبر وأعوانهم من غطفان وبني أسد عزموا على قتال المسلمين حين حصار خيبر، ثم رجعوا عن عزمهم وألْقَوْا ما بأيديهم من السلاح، وإلى هذا أشارت الآية ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠].

٤- وقال أبو مالك: نزلت الآية في كعب بن الأشرف وأصحابه، حين أرادوا أن يغدُروا بالنبي ﷺ وأصحابه وهم في دار كعب بن الأشرف.

٥- وقال قتادة: نزلت هذه الآية ورسول الله ببطن نخلة، حين أراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا برسول الله ﷺ وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة، وكان ذلك في غزوة ذات الرقاع فأطْلع الله نبيه على ذلك وأنزل الله صلاة الخوف[2].

وقد شُرعت صلاة الخوف في السنة السابعة للهجرة، وكانت الغزوة جهة نجد.

---

(١) «تفسير الكشاف» (١/ ٦١٣).

(٢) تفسير «الخازن» (١/ ٤٤٤) و«زاد المسير» (٢/ ٣٠٩).

وإذا كانت الآية تُذكِّر المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم أن نجَّاهم من غدر عدوهم في أحداث مضت، فإنها تنطبق على هذه الأسباب جميعًا؛ إذ ليس فيها كلها تصريح بنزول الآية فيها عدا السببين الأخيرين، وسبب النزول يوضح الملابسات والظروف التي نزلت فيها الآية، ولكن الآية دائمًا يكون حكمها عامًّا وقائمًا إلى قيام الساعة، فلولا حِفْظُ الله تعالى لكتابه لاندثر هذا الكتاب ولولا ما يهيئه الله للمسلمين من سبب، أو آخر لقضى أعداء الله على الإسلام وأهله.

٦- محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ:

هذا: وقد عصم الله دم رسوله محمد ﷺ في حياته من أن تمتد إليه بالاغتيال أيدي الغدر والخيانة، فحفظ الله رسوله من كيد اليهود والمشركين، ونجاه من تدبيرهم، وهذا الحفظ من الله تعالى لرسوله ﷺ نعمة أنعم الله بها على المؤمينن.

ولذا فقد اختار كثير من المفسرين ومنهم الطبري أن هذه الآية نزلت في يهود بني النضير؛ فقد أرادوا قتل النبي ﷺ حين ذهب إليهم ليطلب منهم المشاركة في دفع دية رجلين من المسلمين يقال لهما: (العامريْن) من بني سليم قُتِلا خطأ، وكان بين المسلمين واليهود معاهدات، ومن بينها المعاهدة التي أُخذت عليهم في المدينة، ومنها أنهم يتعاونون ماليًّا مع المسلمين في تحمل الديات، بأن يشاركوا المسلمين فيها، والمسلمون يشاركونهم في مثل هذا الغرم، فذهب النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين- إلى اليهود ليطلبوا منهم بمقتضى ما بينه وبينهم من المواثيق والعهود أن يتحملوا شيئًا من دية القتيلين اللذيْن قُتِلا خطأ، فما كان منهم إلا أن قابلوا الرسول ﷺ بالترحاب، وفرشوا له مكانًا لائقًا يجلس فيه تحت جدار، وقالوا له: يا أبا القاسم، قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نعدُّ لك الطعام، ونعدُّ لك النقود التي تريدها، وجلس النبي ﷺ في انتظار ذلك.

أما اليهود فقد تآمروا بعيدًا فيما بينهم على قتل النبي ﷺ واغتياله في هذه اللحظة، حيث قالوا لبعضهم: إنه قد جاء إليكم بنفسه، ولا تَخْلُصون إليه إلا في مثل هذه الحالة، فما علينا إلا أن نقتله، وندبر أمرًا لاغتياله، فانبرى رجل منهم، هو عمرو بن جَحَّاش، وقرر أن يصعد فوق الجدار الذي يجلس تحته رسول الله ﷺ وأن يحمل رَحَى عظيمة

(حجرًا ثقيلًا كبيرًا) وأن يُلْقي بها فوق رأس النبي ﷺ فيُقتل، ودبَّروا كيدهم، وارتفع الرجل فوق الجدار، وناوَلُوه هذه الرَّحَى العظيمة، وحين أراد الرجل أن يلقيها على رسول الله ﷺ أمسك الله يده، وأرسل جبريل ليخبر الرسول ﷺ بتدبير قتله، فخرج ﷺ وأصحابه، بعد ما تبيَّن فِعْلَةَ اليهود، وكشف الله أمرهم لرسول الله ﷺ ونزلت الآية[1].

٧- محاولة غوْرث بن حارث قتل النبي ﷺ:

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن جابر بن عبد الله ﷺ أخبره أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلما قَفل رسول الله ﷺ قَفَل معه فأدركتهم القافلة في وادٍ كثير العِضَاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العِضَاة، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمُرة، فعلق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة، فإذا رسول الله يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: **«إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صَلْتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت له: الله، فها هو جالس»**، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ[2].

وفي رواية الحاكم: أن السيف سقط من يد الأعرابي، فأخذ النبي ﷺ السيف، وقام مقامه، ورفع السيف على الأعرابي، وقال له: **«من يمنعك مني؟»** فقال الأعرابي: كن خير آخذ، قال: فشهد الرجل أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وذكر الحاكم أن اسم الرجل (غَوْرَث بن الحارث)[3].

ذلكم قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ داوموا على شكر نعم الله عليكم، وصونوا أنفسكم عن كل ما نهاكم عنه، و﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالدفع عنكم، وأنْ أمَّنَكُم من الخوف ضِمْنَ سائر نعمه عليكم، فألقى الرعب في قلب عدوكم، فاذكروا نعم الله عليكم بقلوبكم وألسنتكم وأدوا شكرها بجوارحكم.

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن جرير» (١٠/ ١٠٢) عن مجاهد وعكرمة، وابن هشام في «السيرة» (٢/ ١٩٠) والواحدي في «أسباب النزول» (١٦٢) وانظر أبو نعيم في «الدلائل» (٤٢٥)

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٨٢) والبخاري (٧/ ٣٣٠) برقم (٤١٣٩) ومسلم (١/ ٥٧٦) برقم (٨٤٣) وليس فيه أنه سبب لنزول الآية.

(٣) صححه الحاكم ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٣/ ٢٩).

ثم وصف الله هذه النعمة فقال: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ يمدوا إليكم أيديهم بالبطش والقتل ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ بأن صرفهم عنكم، ورد كيدهم في نحورهم، وحال بينكم وبين ما أرادوه بكم، وهذا نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله عليه، وهو يشمل كل مَنْ هَمّ بالمؤمنين بِشَرٍّ من كل كافر ومنافق وباغٍ، كَفّ الله شرَّه عن المسلمين.

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ أي: احذروه واشكروه على نعمه، واستعينوا به في الانتصار على عدوكم وجميع أحوالكم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ في كل أمورهم الدينية والدنيوية، وليثقوا بعونه ونصرته، فداوموا على طاعة الله وشكر نعمه، وعلى حسب إيمان العبد يكون توكُّله.

مِيثَاق اليَهودِ وَبنوده

١٢- ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[١] وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوٰةَ[٢] وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ[٣] عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

اشتملت سورة المائدة على ستة عشر نداءً للمؤمنين، جاء في أول ربع منها خمس نداءات تأمرهم بالوفاء بالعقود، وتنهاهم عن استحلال شعائر الله، وتُبيِّن ماذا يجب عليهم عند إرادة الصلاة، وتأمرهم بالمداومة على القيام بالتكاليف الشرعية، والتزام العدل في أقوالهم وأحكامهم، ثم تنبههم إلى شكر الله تعالى على نعمه، حين نجاهم من شرور الأعداء.

وبعد هذه النداءات الخاصة بالمؤمنين، شَرَعتْ السورة في الحديث عن أهل الكتاب.

وفي هذه الآية بيان الميثاق الهام الذي أخذه الله على اليهود، وبيان صفته، وثوابهم

---

(١) قرأ أبو جعفر بالتسهيل مع المد والقصر في كلمة (إسرائيل) في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف، وقرأ الأزرق عن ورش بثلاثة أوجه، وبالمد في الهمزة الثانية، بخلف عنه.

(٢) قرأ الأزرق بتغليظ اللام من لفظ (الصلاة) والباقون بالترقيق.

(٣) قرأ الأزرق بترقيق الراء من (لأكفرن)، وبقية القراء بتفخيمها، والتفخيم والترقيق لغتان من لغات العرب، وكذا التغليظ في اللام، لغة من لغاتهم.

عند الله إن قاموا به - وقت طلبه منهم -، وإثمهم إن لم يقوموا به.

ثم ذكر سبحانه أنهم لم يقوموا بهذا الميثاق وبيّن عقابهم:

وتفصيل ذلك أن الله تعالى لما ذكر في الآيات السابقة أنه أخذ الميثاق على المؤمنين، وأنهم قالوا: سمعنا وأطعنا، كما جاء ذلك في قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧] بيَّن سبحانه بعد ذلك أنه أخذ العهد المؤكد على بني إسرائيل بالتوحيد والطاعة، ولكنهم نقضوا العهد ولم يوفُّوا به، ولم يقوموا بما تعبَّدهم الله تعالى به فيه، من شرائع وأحكام خمسة، بالإضافة إلى المواثيق التي سبق ذكرها في سورة البقرة الآيات (٦٣، ٨٣، ٨٤، ٩٣)، وغيرها.

ميثاق تقصّي أحوال الجبارين: وأول بند في آية الميثاق التي معنا هو: قتال اليهود للكنعانيين؛ حيث أمر الله موسى عليه السلام أن يختار منهم اثني عشر نقيبًا، وهم رؤساء الجيش بعدد الأسباط المجنَّدين؛ كي يرسل هؤلاء النقباء إلى الأرض المقدسة لمعرفة أحوال الجبارين فيها، ثم يخبروا نبيهم موسى بما شاهدوه من أحوالهم.

قال الزمخشري: لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون، أمرهم الله تعالى بالسيْر إلى أريحا، حيث كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، وقال لهم: إني كتبتها لكم دارًا وقرارًا، فجاهدوا مَن فيها؛ فإني ناصركم، وأُمر موسى بأن يأخذ من كل سبط نقيبًا، فاختار النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعثهم يتجسسون الأخبار، فرأَوْا قومًا أجسامهم عظيمة، ولهم قوة وشوكة، فهابوهم ورجعوا، وحدَّثوا قومهم، وكان موسى قد نهاهم أن يتحدثوا بما يروْن، فنكثوا الميثاق، وتحدَّثوا، إلا اثنين منهم[1].

وقد وعد الله بني إسرائيل أن يكون معهم، يؤيدهم بنصره وعنايته ورعايته، إذا وَفَّوْا بعهد الله، وحافظوا على ما فيه من الطاعات الخمسة واتبعوا رسل الله، فإنه سيمكِّن لهم في الأرض وينصرهم على عدوهم، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالنصر والتأييد، أي: في الدنيا، أما في الآخرة، فإن ذنوبهم ستمحى ويدخلون جنات تجري الأنهار من تحت غرفها وأشجارها، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث؛ حيث لم يُوَفُّوا بما أمرهم الله به وخالفوا رسل الله، فكتب الله عليهم الشَّتات

(١) «تفسير الكشاف» (١/ ٤٧٨).

في الدنيا وحرَّم عليهم الأرض التي جبنُوا عن لقاء من فيها، ولعنهم الله وختم على قلوبهم؛ حيث لم يقوموا بما أمرهم الله به مما جاء ذكره في الآية.

وهذا الميثاق المأخوذ على اليهود جاء بنصه في الآية الكريمة، وجاء معه الشرط والجزاء المترتب على نقضه، وذلك بعد أن ذكرتْ الآيات السابقة الميثاق الذي أخذه الله على المؤمنين من هذه الأمة، ناسب ذلك ذكر نقض أهل الكتاب للمواثيق لمعرفة طبائعهم والحذر منهم، ولمعرفة جُبنهم وخوفهم من قتال أعدائهم، وذلك عن طريق تقصِّي أحوال الجبارين من عماليق الكنعانيين الذين يسكنون الأرض المقدسة، فرجع كل عرِّيف من النقباء الاثني عشر، ينهَى سبْطَه عن قتال الجبارين، وهؤلاء النقباء هم رؤساء للأسباط بعدد القبائل والعشائر، وكل نقيب يشهد على قبيلته، ويكفل قومه في القيام بالعهد والوفاء بهذا الميثاق، والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه[١].

أمراء هذه الأمة بعدد نقباء بني إسرائيل: وهكذا كان عدد النقباء الذين بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة، ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج.

وجاء في حديث جابر بن سمُرة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يزال أمر الناس ماضيًا، ما وليهم اثنا عشر رجلًا**» ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيتْ عليَّ، فسألتُ أبي: ماذا قال النبي ﷺ؟ قال: «**كلهم من قريش**»[٢].

ولفظ البخاري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يكون اثنا عشر أميراً**» **فقال كلمة لم أسمعها فقال أبي: إنه قال: كلهم من قريش**»[٣].

وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ﷺ، أنهم سألوا النبي ﷺ: كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال: «**اثنا عشر، كعدة نقباء بني إسرائيل**»[٤].

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره أسماء هؤلاء النقباء الاثني عشر، كما جاء عن ابن عباس، وذكره ابن إسحاق وغيره، كما ذكر أسماء النقباء الاثني عشر الذين بايعوا النبي ليلة العقبة.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٨٢١).

(٣) عن جابر بن سمُرة في البخاري (٧٢٢٢).

(٤) يُنظَر نصه في «المسند» (١/ ٣٩٨) برقم (٣٧٨١) وفيه مجالد بن سعيد، وثَّقه النسائي وضعَّفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، أفاده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٩٠)، وأخرجه ابن ماجه (٣٨٥) والطبراني في الكبير (٩٩٦١) والدار قطني في السنن (١/ ٧٧).

وجاء في التوراة: البشارة بإسماعيل عليه السلام، وأن الله تعالى يقيم من صلبه اثني عشر عظيمًا، وهم هؤلاء الاثنا عشر، الذين جاء ذكرهم في حديث جابر بن سمُرة، وابن مسعود، ومن هؤلاء الاثنا عشر: الخلفاء الأربعة، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وهم غير متتابعين، ولعل آخرهم: هو المهدي المنتظر الذي بشَّر به النبي ﷺ، وذكر أن اسمه واسم أبيه يوافقان اسم النبي ﷺ واسم أبيه، وأنه يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا.

بنود ميثاق اليهود مكون من خمس نقاط:

وقد وعد الله بني إسرائيل أن ينصرهم على الكنعانيين إذا هم استجابوا لدعوة نبيهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بِالْعَوْن والحفظ والنصر، وكان الله قد وعدهم الأرض المقدسة، وأمرهم بقتال الكنعانيين فتخاذلوا وتقاعسوا فحرَّمها الله عليهم إلى الأبد **وهذا نص الميثاق:**

١- ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. فداومتم عليها وحافظتم على أركانها وشروطها والخشوع فيها.

٢- ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لمستحقيها، وكانت الصلاة والزكاة فريضتين على اليهود بكيفية وطريقة أخرى.

٣- ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ أي: صدقتم برسل الله جميعًا، فكلهم جاء بشرع من عند الله، فتصديقهم ونصرتهم من أركان الإيمان.

٤- ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي: قويتموهم ونصرتموهم عظّمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة، ودافعتم عن التوحيد، وعن الدعوة التي يقومون بها وتبليغها إلى الناس كافة.

٥- ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ والمراد بالقرض: الصدقة العامة، أو صدقة التطوع بالإنفاق في سبيل الله، والإحسان إلى المحتاجين.

هذه هي بنود الميثاق المكونة من خمس نقاط، وهي: إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، والإيمان بالرسل وتوقيرهم، والإنفاق في سبيل الله، ورتب الله سبحانه على ذلك تكفير الذنوب، ودخول الجنة،ثوابًا لهم إن عملوا بما في هذا الميثاق، فجمع لهم بين نعيم الجنة وتكفير السيئات.

وهذا الميثاق إلى جوار الميثاق المأخوذ عليهم في سورة البقرة، وهو مكون من ستة بنود: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

١- ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا هو البند الأول، وهو التوحيد.

٢- ثم ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

٣- ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾.

٤- ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

٥- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٦- ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

قال تعالى مبيِّنًا موقفهم من هذا الميثاق: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[البقرة: ٨٣].

ثم بيَّن سبحانه عقوبة من لم يقم بمقتضى هذا الميثاق في قوله: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ ولم يَقُم بمقتضى التوحيد والطاعة، ولم ينفذ هذه الأوامر بعد أخذ الميثاق عليه، فقد أخطأ الطريق وابتعد عن الصواب، وفقد طريق الهداية قبل ذلك وبعده، واستحق حرمان الثواب وحلول العقاب.

فماذا كان من اليهود بعد أن أخذ الله منهم العهد والميثاق على السمع والطاعة، وقتال الجبابرة؟ لقد نقضوا عهد الله سبحانه، فكذبوا رسله بعد موسى ﷺ، وقتلوا أنبياء الله، وضيَّعوا فرائضه، ونبذوا كتابه، وأشركوا بالله، وحرفوا التوراة، فزادوا ونقصوا، وغيَّروا وبدَّلوا، وأنكروا نبوة محمد ﷺ وصفاته التي في التوراة الأصلية، وقتلوا الأنبياء، ودبَّروا قتل عيسى عليه السلام وصَلْبه، ونسوا حظًّا مما ذُكِّروا به وأغفلوا وتناسوْا كثيرًا من الشريعة التي جاءت في التوراة؛ كإغفالهم آية رجم الزاني، وإغفالهم ما يتعلق بالربا، وغير ذلك.

عقوبَة اليَهودِ بِسَبَبِ نَقْضِ المِيثَاقِ؟

١٣- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً[1] يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن

(١) قرأ حمزة والكسائي (قَسِيَّةً) بحذف الألف وتشديد الياء، مبالغة في شدة القسوة، وقرأ الباقون (قَاسِيَة) بألف بعد القاف وتخفيف الياء.

﴿مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

أي: بسبب أن اليهود نقضوا هذا الميثاق، ولم ينفِّذوا بنوده، عاقبهم الله تعالى بخمس عقوبات هي:

١- اللعن والطرد من رحمة الله تعالى، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة ولم يقوموا بما عاهدوا الله عليه.

٢- قسوة القلوب وغلظتها فلا تُجْدِي فيهم المواعظ ولا تنفعهم الآيات والنذر.

٣- أنهم بسبب هذا النقص صاروا يبدلون أحكام الله، فيجعلون لكلامه تعالى معنى مخالفًا لما أراده.

٤- أنهم بسبب ذنوبهم نسوا نصوص التوراة ونسوا العمل بما فيها عقوبة لهم، وسمّي الله ذلك حظًّا لأن إتيان كتاب الله أعظم الحظوظ، وماعداه حظوظ دنيوية.

٥- الخيانة المستمرة لله ولعباده المؤمنين.

وهكذا فقد لعنهم الله سبحانه إلى يوم القيامة، وطردَهم من رحمته وأبعدهم عنها ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿قَٰسِيَةً﴾ غليظة، كما وصفها الله تعالى في سورة البقرة ﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[البقرة: ٧٤]. لا تلين للإيمان، فهي يابسة لا تنتفع بموعظة، ولا تقبل هدى.

من قبائح اليهود: ثم بيَّن سبحانه قبيحتين من قبائحهم فقال عن **الأولى**: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ وقال عن **الثانية** ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

أي: ومن بين الميثاق الذي نقضوه: أنهم يغيرون كلام الله تعالى وحدوده في التوراة ويبدلونها ويقولون: إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه وإن خالفكم فاحذروه.

وذلك أنه حين تُوُفِّي موسى عليه الصلاة والسلام كانت التوراة المنزلة من عند الله واحدة، لا يوجد غيرها، وهذه النسخة فُقدت في السبْي البابلي بإجماع المؤرخين من اليهود والنصارى وغيرهم، حين سلَّطهم الله على اليهود، حيث أُحرقت التوراة في التابوت الذي كانت فيه، ولما أُحرقت التوراة، كَتَبَ الأحبار بعدها شيئًا من ذاكرتهم

وحِفْظِهم، بما يخدُم سياساتهم، وجَمْع شتاتهم في مكان واحد، أما التوراة الحقيقية فقد فُقدت وأُحرقت ولم يبق لها أثر، ولذا: قال تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: تركوا نصيبًا مما ذكَّرهم الله تعالى إياه في التوراة، فلم يعملوا به، وأهملوا أوامر الله وشريعته، في مثل آية الرجم التي سألهم عنها رسول الله ﷺ فأغفلوها؛ لأنهم لا يريدون أن يُقام عليهم هذا الحد، فاستحلف النبي ﷺ رجلَ دين منهم، حتى أقر واعترف بوجود عقوبة الرجم في التوراة.

ثم قال سبحانه مبينًا **القبيحة الثانية** في الآية ومقررًا أمرًا عامًّا هو من شأن اليهود؛ حتى يبيِّن الله لنا طبيعتهم؛ كي نتقي شرهم، ونتعرف على قبائحهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لا تزال يظهر لك منهم كل خيانة وغدر وكذب وفجور، إلى يوم القيامة، وهذا ما يعانيه أهل فلسطين اليوم من نقض عهودهم، وعدم الوفاء بالمواثيق، أو الالتزام بها.

وقد حدث تكرار ذلك في عهد النبي ﷺ، وفي عهد الخلفاء الراشدين، وعلى مدى العصور، وفي وقتنا الحاضر، وما بعد وقتنا، ولا تزال تطلع على خائنة منهم، في كل زمان ومكان، فتظهر منهم مثل هذه الخيانات، وهذا الغدر، وهذا حالهم مع المسلمين في كل عصر ومِصْر، فهم على نهج أسلافهم.

ثم استثنى سبحانه من خائني اليهود فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي من هؤلاء القليل؟ وهم: عبد الله بن سلام ومن معه ممن أسلم من اليهود وحسن إسلامهم، فهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه.

أو أن المعنى: إلا قليلًا من اليهود جُبِلوا على الوفاء بالعهد، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ [آل عمران: ١١٣]. وقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]. وهذا المعنى أصح وأولى.

قال تعالى مخاطبًا رسول الله ﷺ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ هذا حمْل للنبي ﷺ على مكارم الأخلاق في مقابلة سوء معاملة اليهود للنبي ﷺ، ولا علاقة لهذه الآية بالآية التي تأمر بقتالهم في سورة التوبة؛ حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، وهي قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ

ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

ولعل المراد: الأمر بالعفو والصفح عنهم في غدرةٍ هَمُّوا بها، حين هَمُّوا بقتل النبي ﷺ، أي: ما داموا لم يقفوا في وجه الدعوة، أو ينصبوا لكم حربًا، وعلى هذا فلا نسخ في الآية، بل فيها تخصيص لعموم آية التوبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يحب من أحسن في العفو والصفح إلى من أساء إليه.

نَقْض النَّصَارَى لِلمَوَاثِيق

١٤- ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

أي وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق، فكذلك أخذنا العهد والميثاق على الذين زكُّوا أنفسهم بالإيمان ورسوله، فقالوا: إنا نصارى لعيسى بن مريم، ولكنهم نقضوا العهد ونسوا ما ذكّرهم الله به نسيانًا علميًّا وعمليًّا، فعاقبهم الله تعالى بأن سلّط بعضهم على بعض، ووقع بينهم البغض والعداء إلى يوم القيامة، وهذا أمر قائم ومُشاهد، لا يمكن إنكاره.

وهكذا فإن بعض الناس يرث عقائد ضالة، وأخلاقًا فاسدة، وعادات سيئة، وكثيرًا ما يقلد الأبناء آباءهم، أو يقلدون الجيل الذي قبلهم من غير دراسة، ومن غير بحث وتأمل وإعمال فكر، وليس أدل على ذلك من وجود الكثير من الخرافات والوثنيات في عقائد كثير من الناس، فهذا العدد الكثير، والكم الهائل في العالم يدين بالنصرانية، على ما فيها من خرافات، وما فيها من وثنية، كقولهم: المسيح هو الله، وقولهم: المسيح ابن الله، وقولهم: المسيح ثالث ثلاثة، أو أن المسيح وأمه إلهين من دون الله، ودعواهم أن المسيح له طبيعة إنسانية من طرف أمه، وطبيعة إلهية من طرف أبيه، وهو ما يعبرون عنه بالناسوت واللاهوت، فهو ذو طبيعتين، أو طبيعة واحدة مكونة منهما كما يزعمون، خرافات ووثنيات وأساطير، يدين بها كَمٌّ هائل من البشر في عصرنا الحاضر.

ولقد جاء عيسى عليه السلام بالتوحيد الناصع الخالص من ربه سبحانه، وأخذ يدعو الناس إليه ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [١١٧]. ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [٧٢]. جاء عيسى عليه السلام بهذا التوحيد

الخالص، و رُفِع عليه، دون أن يُكتب في عهده ما يسمى بإنجيل عيسى، وإنما كتبت الأناجيل بعده بفترة طويلة، وكل منها يُنسَب إلى تلميذ من تلامذته، وكل تلميذ منهم كتب الإنجيل من ذاكرته، والإنجيل الذي يقرر أن عيسى رسول الله، وأنه ليس ابنًا ولا إلهًا هو إنجيل برنابا، وهذا الإنجيل لا تعترف به الكنيسة إلى وقتنا هذا.

كَيْفَ دَخَلَ الشِّرْك دِينَ المَسِيحِ؟!

لقد دخل بولس في النصرانية، وكان قبل أن يدخلها يُسمَّى شاوم، ثم تَسمَّى ببولس بعد أن دخل المسيحية، وبولس هذا لم ير عيسى ﷺ، ولم يتصل به مباشرة، وإنما اتصل بتلاميذه ﷺ، ثم ادَّعى بعد ذلك أنه كان له اتصال مباشر بعيسى ﷺ؛ حتى يأخذ الناس أقواله.

ودين المسيحية الموجود إلى وقتنا مما وضعه بولس، وهو الذي قال بالصلب والفداء وتكفير الخطايا، أي: أن عيسى ﷺ إنما صُلب وعُذِّب -على حد زعمهم- ليكفِّر عن خطايا بني آدم، وهو الذي قال بأن عيسى ابن الله، هذه الخرافات أدخلها بولس على عقيدة التوحيد التي جاء بها عيسى من عند ربه.

وبولس هذا يهودي الأصل، ولد في طرطوس، وتربي في أورشليم، ودخل في النصرانية؛ ليُدخل فيها كثيرًا من عقائد اليهود؛ لكي يؤثر فيها بالتحريف والتبديل، وليُغيِّر من الشرائع التي جاء بها عيسى من عند ربه، وكان ذلك في وقت لاحق لوفاة عيسى ﷺ، أو لرفعه إلى السماء.

ثم دخل الملك قسطنطين في المسيحية من الوثنية في وقت لاحق، ولأنه كان إمبراطور روما، والملك المهيمن على البلاد، فقد قرر في مجمع كنسي كبير في نيقية عام ٣٢٥م حضره ٤٨ ألفًا من الأساقفة والبطارقة: أن عيسى ﷺ هو الله، فقسطنطين هو الذي أطلق الألوهية على عيسى، وأمر بقتل وتعزير وتشريد كل من يخالف هذا القرار، كما قرر في مجمع القسطنطينية الأول ٣٨١م ألوهية روح القدس، بمعنى: روح الله، وروح الله هي حياته كما يقولون، فصار الإله عندهم مكونًا من الأب والابن والروح القدس.

وما ظهرت الأناجيل إلا بعد دخوله النصرانية، فالأقانيم ثلاثة -كما يقولون- وهي شيء واحد، والمسيح هو الله، والله هو روح القدس! معادلة صعبة، وألغاز لا مفهوم لها؛ إذ

كيف يكون الثلاثة واحدًا، والواحد ثلاثة؟ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وقد أخذ الله سبحانه الميثاق على النصارى بالتوحيد، وبالسمع والطاعة لرسول الله ﷺ، كما أخذ الميثاق على اليهود قبل ذلك، ففرض الله على النصارى أن يتابعوا عيسى وينصروه ويؤازروه، فبدلوا دينهم كما صنع اليهود، وتركوا نصيبًا مما ذُكِّروا به، فلم يعملوا به، وأخذ عيسى عليهم الميثاق بتوحيد الله سبحانه، والإيمان بمحمد ﷺ وبمتابعته ومناصرته ومؤازرته حين يأتي زمانه، ويبعثه الله رحمة للعالمين.

نصارى أم مسيحيون؟! وفي مطلع الآية التي نحن بصددها تُقرر أن الله ﷻ يكذِّب النصارى في دعواهم أنهم نصارى، ويبيِّن أن هذه الدعوى لا يحق لهم أن يقولوها؛ لأن النصراني هو الذي قال: نحن أنصار الله ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [٨٢]. فالنصراني هو الذي يناصر الله عزَّ وجلَّ، وهو الذي ينصر عيسى عليه السلام، وينصر دين محمد ﷺ فيؤمن به وقت أن جاء، وقيل: سُمُّوا نصارى نسبة إلى بلدة الناصرة التي نشأ فيها عيسى عليه السلام، وأعلن دعوته للناس.

والله ﷻ يردُّ عليهم ويكذِّبهم، ويبيِّن أنهم لا يستحقون هذه التسمية، فيقول: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ على التوحيد، وأخذنا ميثاقهم على السمع والطاعة، وأخذنا ميثاقهم على الإيمان بمحمد ﷺ وبمتابعته ومناصرته ومؤازرته، كما أخذناه على اليهود من قبل، فماذا فعل النصارى؟ يقول تعالى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ وهذا النسيان هو قولهم: بالتثليث والبنوة والألوهية من دون الله، نسوا شريعة عيسى، ونسوا التوحيد الذي جاء به عيسى، فغيروه وحرفوه وبدلوه، وقالوا: إن عيسى هو ابن الله، أو هو الله، أو هو ثالث ثلاثة، ونسوا، أو تناسَوْا ما جاء به الإنجيل الصحيح من وجوب الإيمان بمحمد ﷺ عند بعثته، ومن أوصافه التي يُعرف بها، فنقضوا الميثاق ولم يعملوا بمقتضاه، ومن ذلك أنهم تركوا الإيمان بمحمد ﷺ بعد أخْذ الميثاق عليهم أن يؤمنوا به.

فماذا كانت العاقبة؟ وماذا كان الجزاء؟ وماذا كانت النتيجة؟ يقول سبحانه: ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ أي: ألصقنا بهم، وأوقعنا ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذه عقوبة لهم في الدنيا؛ حيث جعلهم الله سبحانه فِرَقًا متناحرة متخاصمة متجادلة كل فرقة تعادي الأخرى،

وهذا حاصل بين فِرَق النصارى، كما أن العداوة والبغضاء على أشدها بين اليهود والنصارى، وبين الفِرق المسيحية المختلفة، ولو أنهم لم يضيِّعوا فرائض الله، ولم يعطلوا حدوده، ما افترقوا ولا تباغضوا.

وهكذا نجد الأمم الغربية يتفنن بعضهم في إهلاك بعض، وكل منهم يخترع من أسلحة الدمار الشامل ما يبيد به الآخر، فالضمير يعود على اليهود والنصارى معًا على الأصح، وقيل: إنه يعود على فِرَق النصارى وأحزابهم، والفرق القديمة الرئيسة من النصارى، هي: اليعقوبية، والنسطورية، والملكانية، وتسمى حديثًا: الكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت، هذه هي الفرق الرئيسة للنصارى، ويتفرع منها فرق كثيرة يقع بينها العداوات والخصومات.

ومن ذلك أنهم اختلفوا في شأن عيسى عليه السلام، واختلفوا في شأن أمه، واختلفوا في الروح القدس، واختلفوا في طبيعة عيسى وأصل خَلْقه، حتى اختلفوا في أيام أعياد الميلاد التي يحتفلون بها، واختلفوا في عقائدهم وشرائعهم، فأوقع الله بينهم العداوة والبغضاء، وهذه العداوة والبغضاء بين الفرق المتناحرة من النصارى قائمة إلى يوم القيامة، كل طائفة منهم تكفِّر الأخرى، ويلعن بعضهم بعضًا، وتُحرِّم كل طائفة على الأخرى أن تدخل معبدها.

والعداوة أعم من البغضاء؛ لأن العداوة سبب في البغضاء، والعداوة: كراهية في النفس، تسبب الجفاء، أو القطيعة، أو الإضرار، أما البغضاء: فهي شدة البغض، وقد لا يصحبه عداوة، وسبب العداوة بين النصارى: اختلاف الملل والنحل في العقيدة، هذه عقوبة الدنيا.

أما العقوبة في الآخرة فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا تهديد ووعيد لهم، وبيان أن الله تعالى سوف يحاسبهم على ما ينسبونه زورًا إلى الله تعالى، وأنه سبحانه يجازيهم على هذا التحريف، وعلى هذه الخرافات التي أدخلوها في دين عيسى عليه السلام.

دَعْوَة أَهْلِ الكِتَابِ إِلَى اعْتِنَاقِ الإِسْلَامِ

١٥- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ[١] قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾.

ثم يوجه القرآن الكريم النداء إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى معًا، بعد أن خص كلًّا منهما بحديث، فدعا الفريقين إلى الاهتداء بنور القرآن، والدخول في ساحة الرحمن، والإيمان برسول الأنام، وترك ما هم عليه من شرك ووثنية وضلال وأوهام، ففيه السلامة في الدنيا والآخرة والنجاة من كل خوف وشقاء، فبيَّن سبحانه أنه يجب عليهم جميعًا أن يؤمنوا بهذا الرسول الخاتم الذي جاء؛ ليصحح ما أفسده اليهود، وما أفسده النصارى من العقائد الحقة التي جاءت من عند الله سبحانه، فقد جاءكم بآية قاطعة دالة على صحة نبوته، وهي أنه يبين لهم كثيرا مما يخفون عن الناس حتى عن العوام من أهل ملتهم، فإذا بيّن هذا القرآن ما يكتمونه في أنفسهم مع أن الذي أنزل عليه أميّ فإن هذا من أدل الدلائل على القطع برسالته.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ إلى جميع أهل الأرض: العربي والعجمي، الأمي والكتابي، وفي هذا حمل لجميع البشر على الدخول في الإسلام لوصول الدعوة إليهم، وإقامة الحجة عليهم، جاءكم محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: يوضِّح ما أخفيتموه من التوراة ومن الإنجيل؛ حيث أخفى اليهود من التوراة حكم رجم الزاني المُحصَن، وأخفوا بشائر صفة محمد ﷺ في كتبهم ونحو ذلك.

قال ابن عباس: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب[٢].

قال ابن صوريا بعد أن صدَّق النبي ﷺ على وجود الرجم في كتابهم: لكنا نخفيه،

---

(١) قوله تعالى (عن كثير) غير معدود آية عند الكوفيين، وهي آية عند بقية علماء العدد: المدني الأول والمدني الأخير، والمكي والبصري والشامي.

(٢) صحيح الإسناد، كما قال الحاكم ووافقه الذهبي: «المستدرك» (٤/ ٣٥٩) وابن حبان في «الإحسان» برقم (٤٤٣٠) بتصحيح الأرناؤوط و«السنن الكبرى» للنسائي (٧١٦٢، ١١١٣٩) .

فنزلت هذه الآية[١].

وكان ابن صوريا قد قال في شهادته للنبي ﷺ معللًا إخفاء اليهود لحدِّ الرجم: إنه كان بسبب تفشي الزنى فيهم، وأنهم قد جلدوا مئة وحلقوا رؤوسهم[٢].

وكما أخفى اليهود الآية التي تحرِّم التعامل بالربا بين اليهود واليهود، وجعلوا أكل الربا جائزًا بين اليهود وغيرهم.

وأخفى اليهود أيضًا من التوراة القصة المتعلقة بأصحاب السبت وعقوبتهم، وأن الله سبحانه قد مسخهم قردة وخنازير، بسبب مخالفتهم لأوامر الله عزَّ وجلَّ، ووقوعهم في الصيد المحرم يوم السبت.

كما أخفى اليهود من التوراة نعت محمد ﷺ وبيان أوصافه.

وأخفى النصارى من الإنجيل: التوحيد الذي جاء به عيسى عليه السلام، وأخفوا منه صفات محمد ﷺ ونعته فيه.

وعلى ذلك فإن آمنتم بمحمد ﷺ واتبعتموه عفا الله عنكم، وغفر لكم ما كان من ذنبكم ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ أي يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة.

وقيل أيضًا: يعفو عما لم يَعُدْ لَه حاجة في شريعة موسى وعيسى عليهما السلام.

فقد نسخ من الشرائع السابقة ما كانت صلاحيته محددة بزمان ومكان.

ثم وصف الله سبحانه هذا الكتاب فمدحه، وأثنى عليه بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ هو محمد ﷺ وعليكم أن تتبعوا هذا النور وهو الرسول الخاتم للنبوة والرسالة ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ ينجيكم من المهالك، ويبين لكم أمور دينكم ودنياكم، ويوضح لكم أقوم الطرق، وهو القرآن يستضاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة. قال تعالى:

١٦- ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ[٣] سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

---

(١) أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج كما في «الدر المنثور» (٥/ ٢٣٦).

(٢) يُنظَر: الطبري (٨/ ٢٦٣) عن عكرمة.

(٣) قرأ شعبة بخلف عنه (رُضْوَانه) بضم الراء، وقرأ الباقون (رِضوانَه) بكسر الراء ومعهم شعبة في الوجه الثاني.

إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ(١) إِلَىٰ صِرَٰطٍ(٢) مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

أي: يهدي الله بهذا القرآن من اجتهد واتبع ما رَضِيَه الله تعالى لخلْقه، وهو دين الإسلام، يهدي للتي هي أقوم، يهدي الأفراد والأمم والمجتمعات إلى طريق الحق؛ فهو يهدي العقل والضمير والأسرة والبيت إلى سبل السلام، ففيه سلامة العقل والروح والبدن والمجتمع، وفيه النجاة من النار، وهذا القرآن يخرجهم من ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والشرك إلى نور الإيمان، والعمل بالكتاب والسنة، ويوفقهم إلى طريقه القويم، وهو طريق الإسلام.

قال السُّدِّي عن ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾: هو سبيل الله الذي شرعه لعباده، ودعاهم إليه، وابتعث به رسوله، وهو الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد عملًا إلا به، لا اليهودية، ولا النصرانية، ولا المجوسية، ولا غيرها.

كفر مَنْ قَالَ بِألوهِيَّةِ المَسِيحِ

١٧- ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

لما ذكر الله سبحانه أَخْذَ الميثاق على أهل الكتابين وذكر أنهم نقضوه ولم يعملوا به، بيّن بعد ذلك أقوالهم الشنيعة، حيث قالت النصارى: عيسى ابن الله، وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه.

فقد ذكرت سورة المائدة في هذه الآية، بعد دعوة أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام، عقيدة فرقة من النصارى زعموا أن الله تعالى قد حلَّ في عيسى ﷺ، فترى في كتبهم: (جاء الرب يسوع)، ويسوع هو عيسى، وقد اتفق النصارى على أن المسيح فيه عنصر إلهي، وهذا العنصر الإلهي يختلفون في تفسيره، فمنهم من جعله إلهًا، ومنهم من

---

(١) ضم يعقوب الهاء من (ويهديهُم)، وكسرها الباقون.

(٢) قرأ قنبل ورويس بالسين في (صراط)، وقرأ بإشمام الصاد صوت الزاي خلف عن حمزة وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

جعله ابنًا، ومن جعله عضوًا من ثلاثة أعضاء تكوِّن الإله، وهي مذاهب تدور حول بعضها.

قال الدكتور (بوست) في تاريخ الكتاب المقدس: طبيعة الله، عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر: الله الأب، والله الابن، والله روح القدس، فإلى الأب ينتمي إلى الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير، غير أن الأقانيم الثلاثة هذه تتقاسم جميع الأعمال على السواء. أما مسألة التثليث فغير واضحة في العهد القديم، كما هي في العهد الجديد.

وفي هذا تصريح بأن الله هو الأب، وأنه أيضًا الابن، وأنه روح القدس كذلك، فكلها آلهة، وهل يعني الشرك أكثر من هذا؟

وفي الآية حَصْرُ القول أن الله هو المسيح لا غير، على معنى: أن الله وعيسى، اسمان لمسمى واحد، بمعنى أن الله تعالى امتزج واتَّحد بذات المسيح، أي: أن الطبيعة الإلهية التي في عيسى من جهة نفخ الروح امتزجت بالطبيعة البشرية التي هي من جهة أمه، فاتحد وجود الله سبحانه في وجود عيسى، نعوذ بالله من عمى البصر والبصيرة!

ولهذا الحلول والاتحاد أصل عند النصارى، فهم يقولون: إن الله تعالى جوهر واحد، مكون من ثلاثة أقانيم، هي: أقنوم الذات، وأقنوم العلم، وأقنوم الحياة، ومعنى الأقنوم بالرومية: الأصل، أي: أن هذه الأصول الثلاثة اتحدت في عيسى، ثم فسرها كل من الكاثوليك، والبروتستانت والأرثوذكس بتفسير معين، يجعل عيسى إلهًا، أو ابنًا، أو عضوًا في الألوهية المثلثة.

وقد جاء الإسلام ليصحح هذه العقائد الضالة ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هذه عقيدة ضالة، افتراها بعض النصارى واختلقوها وهو الملك (قسطنطين) ممن دخلوا في المسيحية مؤخرًا؛ ليكيدوا لها من واقع نفوذهم وسلطانهم، وقد قرر الله تعالى أن هذا كفر فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ فهم كفرة ومشركون بنص القرآن الكريم، فقد أشركوا مع الله غيره، وكفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن، فوصْفُ الكفر والشرك ملازم لهم، وإذا كانوا قد جعلوا عيسى إلهًا، فهل استطاع أن يدفع الصَّلْب عن نفسه، وهو هلاك؟ كما زعموا أنه صُلب، إذ كيف يكون إلهًا، أو ابنًا للإله ويصلب، ولا يدفع العذاب عن نفسه؟ وحينما جاء الموت إلى أمه وهي جزء من الإله كما يزعمون،

فهل رفع عيسى الموت عنها؟ وإذا كان عيسى لا يستطيع أن يمنع نفسه ولا أمه من الموت، فإن هذا يدل على أنه بشر كسائر الخلق، وفي هذا دليل كافٍ على فساد ما ذهب إليه النصارى؛ فلا أحد يملك من الله شيئًا فيدفع الموت والهلاك عن عيسى وعن أمه وسائر الخلق؟ إنه الله وحده جلَّ في علاه.

والآية تفرق تفرقة مطلقة، بين ذات الله تعالى، وذات عيسى، وذات أمه، وتبين أن كل ذات تختلف عن الأخرى، فالله سبحانه هو خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، وهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، وقد خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من غير أم، وخلق عيسى ابن مريم من غير أب، وخلق سائر البشر من ذكر وأنثى؛ لتكتمل القسمة العقلية، ويُعلم أن قدرة الله تعالى لا تتوقف على الأسباب، فهو سبحانه خالق السبب والمسبب ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]. إن شاء خلَق من أب وأم، وإن شاء خلق من أب بلا أم، و إن شاء خلَق من أم بلا أب، فلا وجه لاستغراب خلْق عيسى من غير أب، فالكون كله مملوك لله تعالى يدبر أمره ويصرف شؤونه، وكل شيء مخلوق لله تعالى، والخالق غير المخلوق.

وحقيقة **التوحيد**: توجب تَفَرُّد الله تعالى بصفات الربوبية والألوهية، وتوجب التوجه له وحده بالعبادة دون غيره، وكثيرًا ما يقع بعض الناس في الشرك بسبب هذا الغلو الذي حدث من النصارى في شأن عيسى عليه السلام ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، ولا يسأل عما يفعل، بمقتضى قدرته وسلطانه، وعدله وحكمته، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

دَعْوَى التَّمَيُّزِ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ

١٨- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

دعا النبي ﷺ بعض اليهود إلى الإيمان بالله تعالى واتباع ما جاء به من عنده، وخوَّفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا، فقالوا: أتخوفنا يا محمد، ونحن أبناء الله وأحباؤه، نحن أعزة عليه، فهو لن يعذبنا، كيف تخوفنا ونحن أبناء الله وأحباؤه؟

أخرج الطبري بسند حسن، من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاة، وبحري بن عمرو، وشاس بن عدي، فكلموه، فكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله، وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه!! كقول النصارى، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية[1].

وهذه الدعوى موجودة في التوراة، كما في الفصل الرابع عشر من سفر التثنية: (أنتم أولاد للرب أبيكم). وفي الإنجيل كثير من ذلك، ومنه ما جاء في الإصحاح العاشر من إنجيل متَّى: ألستم أنتم المتكلمين، بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم. وقد أبطل الله قولهم بالمنطق الواضح والبرهان العقلي **بحجتين:**

إحداهما: قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ فالمحب لا يعذب حبيبه، والأب لا يعذب ابنه.

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل، وكُتب اليهود والنصارى طافحة بذكر العذاب في الدنيا والآخرة، وفي عقيدة النصارى أن عيسى عليه السلام قد عرَّض نفسه للصلب؛ ليكفر عن خطايا البشر!! فهذه صور من العذاب يقرُّون بها ويعترفون، إذًا فهي دعوى قالها اليهود كما قالها النصارى، فهل هي أبوَّة جسد، أو أبوَّة روح وجسد؟ إنه زعمٌ كاذبٌ في التصوُّرَيْن معًا، وإن قصدوا أنهم مقربون من الله تعالى، أو أنهم أشياعه وأتباعه، كما قال بعض اليهود: إنهم أشياع ابنه عزير.

وقالت النصارى: نحن أشياع ابنه عيسى، وأنهم الشعب المختار، وكما زعم اليهود أن الله تعالى قال ليعقوب عليه السلام: (أنت ابني بكري)، وزعم النصارى أن عيسى عليه السلام قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم. وإن صح هذا فمعناه: ربي وربكم، ويكون على وجه التشريف والتكريم بالنسبة ليعقوب عليه السلام، والواقع يناقض دعواهم، ويكذبهم الله تعالى فيما زعموه، ويبيِّن لهم أنهم بشر كسائر البشر ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ والله تعالى لا يحب إلا من أطاعه، ولو كنتم أحبابه ما عذبكم، وما أعد لكم نار جهنم إن متم على هذا الشرك.

---

(١) ورواه أيضًا السيوطي في «أسباب النزول» (١٠٣) و«تفسير القرطبي» (٦/ ١٢٠) وغيرهم و«سيرة ابن هشام» (١/ ٥٦٣) والطبري (٨/ ٢٦٩) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٣٣).

قل لهم -أيها الرسول-: إن كنتم أبناء الله وأحباءه روحًا، أو جسدًا وروحًا، فهل يعذب الحبيب حبيبه؟ وهل يعذب الأب ابنه؟ والله سبحانه قد عذبكم في الدنيا، وشردكم وخرب دياركم، وأنتم تقرون أنكم تُعذَّبون في الآخرة أربعين يومًا، وتقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]. وأن هذه الأيام المعدودة هي مدة الأربعين يومًا التي عبدتم فيها العجل حتى تطهركم النار، وتأكل خطاياكم، وهي دعوة كاذبة، وأنتم تقرون بها، وأنكم تعذبون في النار بإقراركم واعترافكم، فكيف تكونون أبناء الله وأحباءه؟ كما أن النصارى يعترفون بأن الله تعالى يعذب العصاة منهم.

عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ مرَّ في نفر من أصحابه وصبيٌّ في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني، فسعتْ فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لِتُلْقي ابنها في النار، فقال النبي ﷺ: «**لا، والله لا يُلْقي حبيبه في النار**»[(١)]. ولو كنتم أحباب الله - كما تزعمون - ما عذبكم.

وإذن فلا خصوصية لكم عند الله تعالى، بل أنتم خلْق من خلْق الله كسائر بني آدم، تُذَمُّون على الإساءة، وتُحمدون على الإحسان، وتُجازَوْن بالإحسان إحسانًا، وبالسوء سوءًا بمقتضى عدل الله تعالى وإحسانه ويكرر الله سبحانه بيان أنه المالك لكل شيء، وأن مصير كل شيء إليه، لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، فيحكم بين عباده، ويجازي كلًّا بما يستحق.

إِقَامَة الحجَّةِ عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ لِلْإِيمَانِ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ

١٩- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾

ثم يوجه الله تعالى النداء إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لقطع الحجة عليهم، وإيقافهم على المصير المحتوم بسبب عدم إيمانهم بالنبي الخاتم، المرسل للجن والإنس، بشيرًا ونذيرًا، وقد كفر اليهود بعيسى، وبيْن عيسى ومحمد نحو ست مئة سنة،

---

(١) «المسند» (١٢٠١٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البزار (٣٤٧٦) كشف، وأبو يعلى (٣٧٤٧) والحاكم (١/ ٥٨).

وعيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل، وفي هذه المدة اندثر التوحيد، وتبدلت معالم الرسالة الإلهية، وانطمست آثار الوحي، ونشأ الضلال، وتغيَّرت العقيدة التي جاء بها عيسى، فبُدِّلت وحُرفت، ولم يعد هناك توحيد لله عزَّ وجلَّ، إلا نذْر يسير من البشر، ظلُّوا على الحنيفية السمحة، كانوا يُسمَّوْن بالحنفاء، ولذلك فإن النبي ﷺ يصور هذه الفترة التي فشا فيها الضلال وعبادة الأوثان، بما جاء في الحديث عن عياض بن حمار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «..**إن الله عزَّ وجلَّ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عجمهم وعربهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»[1].

هؤلاء البقايا هم الذين بقوا على الحنيفية ملة إبراهيم، وكانوا يُعدُّون على الأصابع، منهم: ورقة بن نوفل، وأمية بن أبي الصلت، وزيد بن عمرو بن نفيل، فالمراد ببقايا أهل الكتاب: الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل ولا تحريف.

جاء في **أسباب النزول** أن جماعة من الصحابة قالوا لعدد من اليهود: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصِفُونه لنا بصفته، فقالوا: ما قلنا لكم ذلك، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أَرْسَلَ بشيرًا ولا نذيرًا بعده فأنزل الله الآية[2].

ولم يوجد في هذه الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما السلام، من رسول أُرسل إلى الناس، إلا ثلاثة من الرسل، ذكرتْهم سورة يس، وهؤلاء الثلاثة كانوا على ملة عيسى، فهم أتباعٌ لعيسى ورسُلٌ له، يبلِّغون دعوته، ولم تكن لهم شريعة خاصة، وإنما أرسلهم الله تعالى إلى قرية أنطاكيا يجددون دعوة عيسى ﷺ ويقررونها، فهم بمثابة أنبياء بني إسرائيل، وبمثابة علماء هذه الأمة، وهناك نبي رابع هو (خالد بن سنان) الذي قيل فيه: «**نبي ضيعه قومه**» وكذلك (حنظلة بن صفوان) وهذان النبيّان من غير أهل الكتاب.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياء**

---

(١) الحديث بطوله في «صحيح مسلم» (٤/ ٢١٩٧) برقم (٢٨٦٥) وفي «المسند» (٤/ ١٦٢) برقم (١٧٤٨٤) من حديث طويل، إسناده صحيح على شرط مسلم، والطبراني في الكبير (١٧ (٩٩٤) والطيالسي.

(٢) رواه الطبري بإسناد حسن، من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس ﷺ (٨/ ٢٧٣) وذكره السيوطي في «أسباب النزول» (١٠٣٢) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٣٣).

أبناء عَلَّات، وليس بيني وبين عيسى نبي»[١].

أي: أن الأنبياء دينهم واحد وشرائعهم متعددة.

وهؤلاء الخمسة ليسوا بأنبياء أُوحي إليهم بشرع مستقل من عند الله تعالى، وإنما هم على دين عيسى وشريعته قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ [يس: ١٣، ١٤] وهؤلاء الثلاثة كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد، وبعد أن كثر الضلال، وعمت عبادة الأوثان أخذوا يدعون الناس إلى التمسك بالتوحيد الذي جاء به عيسى عليه السلام، وقد استمرت دعوتهم مدة تزيد على قرن من الزمان.

ثم أرسل الله محمدًا ﷺ؛ ليصحح ما فسد من آثار الوحي، وليعيد التوحيد الذي جاء به إبراهيم ﷺ إلى الناس كافة، وليكون حجة على الخلق إلى يوم القيامة.

وجاء في أسباب النزول أن النبي ﷺ دعا بعض اليهود إلى الإيمان بالله تعالى واتباع ما جاء به من عنده، فقالوا: يا محمد، ما نعرف من كتاب أنزل من بعد موسى، ولا نعرف من بشير ولا نذير أُرسل بعده؟ فأنزل الله سبحانه ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى، وغيرهم ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ يبيِّن لكم أحكام الدين وشرائعه على فترة انقطاع من الرسل، عمَّ فيها الضلال وعبادة الأوثان بين عيسى ومحمد؛ وذلك لكي لا تقولوا يوم القيامة ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ بعد موسى وعيسى يدعونا إلى عبادة الله، قال تعالى مجيبًا لهم، ومقيمًا الحجة عليهم: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ﴾ هو محمد ﷺ وهو الرسول الخاتم، من اتَّبعه وترسَّم خطاه وعمل بما جاء به وبشرعه، فإنه يفوز برضى الله تعالى، ويفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ومن قدرته سبحانه إثابة المطيع وتعذيب العاصي، وانقياد الأشياء له طوعًا وإذعانًا لقدرته، ومن قدرته سبحانه أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاع ويعذب من عصى.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٥٤) برقم (٣٤٤٢، ٣٤٤٣) ومسلم (٤/ ١٨٣٦) برقم (٢٣٦٥).

موسَى يذَكِّر بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ

٢٠- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ[1] وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ثم بيَّن الله تعالى لرسوله ﷺ جبن اليهود، ومخالفتهم لرسولهم موسى عليه السلام، وموقفهم من الميثاق الذي أخذه عليهم، مع توالي نعمه تعالى عليهم، وكان الله تعالى قد مَنَّ على بني إسرائيل بنجاتهم من فرعون وقومه، فخرجوا من مصر قاصدين بيت المقدس وما حوله، وكان الله قد فرض عليهم الجهاد لإخراج العمالقة من الديار، فلما اقتربوا من بيت المقدس وعظهم موسى وذكَّرهم ليقْدِموا على الجهاد، ولكنهم تقاعسوا و امتنعوا.

ويحسُنُ بنا أن نرجع إلى الوراء قليلًا:

لقد كان سيدنا يوسف عليه السلام وزيرًا لخزائن مصر، وقد دخل أبوه يعقوب وإخوانه أرض مصر، قادمين من الأرض المقدسة إلى أخيهم يوسف في مصر، وتُوُفِّي يوسف عليه السلام قبل ولادة موسى عليه السلام بأربعة وستين عامًا، وبقيت ذرية يعقوب في أرض مصر، إلى أن أرسل الله موسى نبيًّا ورسولًا، وكان فرعون قد استغلَّ بني إسرائيل من ذرية يعقوب، فاستعبدهم وجعل منهم خدمًا وعبيدًا يعملون في الأشغال الشاقة.

أرسل الله موسى عليه السلام نبيًّا ورسولًا، وأمره أن يخلِّص بني إسرائيل من ظلم فرعون واستعباده لهم، وأن يَخرُج بهم من مصر إلى فلسطين وقال له ولهارون عليهما السلام: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء] وقال لهما أيضًا: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. أي: أن الله تعالى قد أرسلَنا؛ لنخلص بني إسرائيل من ظلمك واستعبادك ونخرُج بهم من أرضك.

وتستمر القصة إلى أن أغرق الله فرعون وقومه، ونجَّى موسى وبني إسرائيل من الغرق، وحينئذ أمر الله تعالى موسى أن يأخذ بني إسرائيل ويخرج بهم إلى قتال الكنعانيين

---

(١) قرأ نافع بالهمز بدل الياء في (أنبئاء) وقرأ غيره بياء خالصة.

الجبابرة الذين سكنوا الأرض المقدسة بعد أن خرجوا منها إلى مصر؛ حتى يجاهدوهم ويخرجوهم، ويدخلوا هذه الأرض المقدسة، وبدأ موسى ذلك بتذكيرهم بنعم الله عليهم قائلًا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: نعمه الكثيرة التي حباكم بها دون غيركم من أهل زمانكم، اذكروها بقلوبكم وألسنتكم، فإنَّ ذِكْرَها يدعو إلى محبة الله تعالى ويُنَشِّط على العبادة، وكان موسى مشفقًا من تردد القوم ونكوصهم، فأخذ يذكِّرهم قبل دعوتهم للجهاد بنعم الله عليهم؛ ليهيئ نفوسهم لقبول هذا الأمر العظيم ويشحذ همتهم، ويبشرهم بالنصر إن قاتلوا أعداءهم، فذكر لهم ثلاث نعم من نعم الله تعالى عليهم:

النعمة الأولى: أن الله تعالى جعل فيكم كثرة من الأنبياء، يدعونكم إلى الهدى، لا توجد في أمة من الأمم سواكم، فكلما مات نبي قام فيكم نبي آخر منكم، ولا تزال النبوة فيكم من لدن إبراهيم ﷺ حتى خُتِموا بعيسى ﵇، ومن هؤلاء الأنبياء: إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون، وغيرهم.

النعمة الثانية: أن جعل الله فيكم ملوكًا على وجه الحقيقة؛ كداود، وسليمان عليهما السلام، وجعلكم أحرارًا تملكون أنفسكم وأهليكم وأموالكم وأولادكم، فكنتم تملكون أمركم وتتمكنون من إقامة دينكم بعد أن كنتم خدمًا وعبيدًا عند فرعون.

وكان يقال للرجل: مَلِك، إذا كان له مسكن وزوجة وخادم:

قال رجل من الصحابة لعبد الله بن عمرو بن العاص ﵄: **ألسنا من فقراء المهاجرين؟ قال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال الرجل فإن لي خادمًا، قال: فأنت من الملوك**[1].

فكان الرجل إذا كان عنده هذه الثلاثة، يقال له: ملك.

وقال الحسن البصري: هل المَلِك إلا مركب وخادم ودار؟

وفي الحديث عن عبيد الله بن محصن الخطمي، وكانت له صحبه: «**من أصبح منكم**

(١) يُنظَر: «صحيح مسلم» (٤/ ٢٢٨٥) وقد أورده ابن جرير (١٠/ ١٦١).

آمنًا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[١].

النعمة الثالثة: أن الله تعالى فضَّل بني إسرائيل على سائر الأمم في أزمانهم؛ لأنهم كانوا أهل الكتاب في زمانهم، يؤمنون بالله واليوم الآخر، وبقية الأمم عُبَّاد أوثان، ولا يوجد أهل كتاب غيرهم، فكانوا أفضل من غيرهم؛ كالقبط، واليونان؛ لهذا السبب فضَّلهم الله على غيرهم في زمانهم.

ومن جهة أخرى فقد آتاهم الله من النعم الدينية والدنيوية ما لم يؤتِ أهل زمانهم من النعم، وأعظمها: شريعة التوراة، وأيضًا، فقد أنزل عليهم المن والسلوى، وفلَق لهم البحر، وأخرج لهم الماء من الحجَر، وظلَّلهم بالغمام، وأنجاهم وأغرق فرعون ومن معه، وهذا لم يؤته الله أحدًا مِن قبلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية].

مُوسَى يَحُضُّ قَوْمَهُ عَلَى دُخُولِ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ وَيُحَذِّرُهُمْ مِنَ النُّكُوصِ

٢١- ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾

أمر الله اليهود بعد أن خرجوا من مصر أن يدخلوا بيت المقدس، وسميت مقدسة؛ لأنها مباركة، ومبارك حولها، ويُتطهر فيها من الذنوب، وهي مُطَهَّرة من الشرك؛ لأن الأصنام لم تُعبد فيها؛ لكثرة وجود الأنبياء وتتابعهم في هذا المكان، فلم يُعبد فيها صنم ولا وثن، وقد دُفِن فيها خليل الرحمن، فهي الأرض المقدسة ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: فرض عليكم دخولها لقتال من فيها من العمالقة الجبارين، وقد وعدكم الله إياها بشرط الطاعة، وتحريرها من المقيمين بها، فإن جَبُنْتم ونكصتم على أعقابكم حرَّمها الله عليكم تحريمًا أبديًّا.

قال ابن عباس: أُمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين، فسار بمن معه حتى نزل قريبًا من

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٧٤) برقم (٢٤٦٣) وقد حسنه الألباني في صحيح «سنن الترمذي» برقم (١٩١٣) وصحيح «سنن ابن ماجه» (٤١٤١) وهو في ابن ماجه (٢/ ١٣٨٧) وابن حبان برقم (٢٥٠٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٤٠٠).

المدينة -وهي أريحاء- فبعث إليهم اثني عشر نقيبًا، من كل سبط منهم عينًا ليأتوه بخبر القوم، فرأوْا من هيئتهم وجسْمهم وعِظمهم. . .، فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوه من أمرهم، فقال: اكتموا عنا، فأخبر كل واحد منهم أباه وصديقه ولم يكتم إلا رجلان هما: يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا[1].

وقد جبُن عشرة من النقباء عن لقائهم وكرَّهوا غيرهم في الدخول على الجبارين، وأما يوشع وكالب فقد أمَرا بالدخول عليهم ورغَّبا غيرهم في ذلك، وأخبروهم بأنهم غالبون.

فمعنى ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فَرَض عليكم الجهاد طاعة لنبيكم، وهذا وعدٌ وعدكم الله به في زمانكم، وقت وجود نبيكم، وأثناء صلاحية الرسالة، ولا يمتد أكثر من ذلك، فإذا انتهى وقت الرسالة بمجيء رسالة عيسى عليه السلام، فقد انتهت هذه الصلاحية، وكانت الراية والسيادة للرسول الذي يليه.

ومن المفروض أن لا يبقى يهودي يدين برسالة موسى بعد مجيء عيسى، وإنما يدين بالنصرانية بمجرد ظهور رسالة عيسى عليه السلام، وتكون الأرض تابعة لهذا الرسول الجديد.

فإذا انتهت مدة رسالة عيسى ﷺ كانت الأرض كلها إسلامية تبعًا للرسول الخاتَم، وكانت أمته مسلمة مؤمنة به إلى يوم القيامة.

وقد فُتحت فلسطين فتحًا إسلاميًّا، في عهد عمر رضي الله عنه، فهي أرض إسلامية، وصاحب الكلمة فيها هو صاحب الرسالة الأخيرة، حيث لم يَعُد لليهود أحقية الوجود فيها بعد حلول النصرانية، ولم يعُد للنصارى أيضًا حق فيها بعد حلول الإسلام.

والإسلام هو كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، ورسول الإسلام هو خاتم الرسل، والحكم الإسلامي هو الذي يجب أن يسود العالم، ومن لم يدخل في الإسلام من أهل الشرائع الأخرى لا يُكرهون على الدخول فيه، ما لم يتعرضوا لنشر الدعوة ويعيشوا في ظل حكمه العادل، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من الحقوق والواجبات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري (٨/ ٢٩٠) ويقال: كالب بن يوحنا.

وعلى هذا: فقد نُسخت اليهودية بشريعتين بعدها، لا بشريعة واحدة، ونُسخت النصرانية بالإسلام، فلم يبق لليهود وجود كشعب، ولا كشريعة، وما عدا هذا فهو من باب الباطل الذي لا ينبغي أن يكون.

وإمامة محمد ﷺ لجميع الرسل ليلة المعراج دليل حمْل الراية في الأرض بعد هؤلاء الرسل إلى يوم القيامة.

وكان بنو إسرائيل قد قالوا للنبي ﷺ: كل نبي قبلك وُلد أو بُعث أو هاجر إلى بيت المقدس، وأنت قد خالفت هذه القاعدة، فأخذ الله تعالى رسوله ﷺ في رحلة الإسراء إلى بيت المقدس، ومنها كان المعراج إلى السموات العلى؛ ليقيم عليهم الحجة، بجمْعِ المرسلين جميعًا له في المسجد الأقصى وإمامته لهم؛ لئلا يكون لهم عذر في عدم الإيمان بالرسالة الخاتمة.

قال موسى لقومه: لا تتخلفوا عن الجهاد، ولا تجبُنوا ولا تضعُفوا، ولا تخالفوا أمر الله وشرعه فتنقلبوا خاسرين في الدنيا بتحريمها عليكم إلى الأبد، وتكونوا خاسرين في الآخرة بعذابكم وعقوبتكم.

فكان ردهم فيه ضعف وخَوَر وقلة يقين، وعدم اهتمام بأمر الله ورسوله:

خَوْفُ بَنِي إِسَرَائِيلَ مِنْ لِقَاءِ العَدُوِّ

٢٢- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾

وحينما وصل موسى إلى أريحا -قرب الأرض المقدسة، والظاهر أن أريحا كانت حاضرة العماليق يومئذ، وبهذا فسرها ابن عباس- أرسل النقباء الاثني عشر الذين أخذ الله عليهم الميثاق من بني إسرائيل وجعلهم شهودًا على أقوامهم، وهؤلاء النقباء هم ممثلو الأسباط الاثني عشر وقادة الجيش فيهم- أرسل موسى النقباء إلى الأرض المقدسة يتحسسون القوم الذين سيدخلون عليهم ويجاهدونهم، فوجدوهم قومًا جبارين عظام الأجسام، أولي بأس وقوة وبطش، فرجع النقباء إلى موسى وأخبروه بحال الجبارين، وأنهم وجدوا الأرض تدرُّ لبنًا وعسلًا، غير أن ساكنيها أقوياء، ومدينتهم حصينة، فأخذ

موسى العهد والميثاق على النقباء أن لا يخبروا بني إسرائيل بذلك، وأن يكتموا عنهم قوة العمالقة؛ لأن هذا من شأنه أن يُضعف قوة الجيش، ومنْ شأنه أن يبعدهم عن الجهاد، ويُوهِن عزيمتهم، ويكون سببًا في الهزيمة، وعدم دخول الأرض المقدسة.

فماذا كان من النقباء؟ وهم الذين اصطفاهم موسى واختارهم، وجعلهم عرفاء عليهم، ما كان منهم إلا أن نقضوا هذا العهد، وأفشوا هذا السر، فذكر كل نقيب إلى السبط، أوالعشيرة، أوالقبيلة التي هو منها، الخبر الذي منعهم موسى من إفشائه، إلا نقيبين من الاثني عشر، هما يوشع وكالب اللذيْن أنعم الله عليهما، وجاء ذكرهما في الآية، وكل نقيب منهم نهى قومه عن قتالهم، إلا هذين الرجلين.

ولما عرف بنو إسرائيل قوة الجبارين من الكنعانيين المقيمين في الأرض المقدسة، همُّوا بالرجوع إلى مصر، وضعفوا وجبنوا عن لقائهم و﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا نستطيع قتالهم، ولا طاقة لنا بهم، ثم أكدوا عدم دخولهم الأرض التي فيها هؤلاء الجبارين بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ قالوا ذلك استبعادًا لخروج الجبارين منها، ولبيان أنهم لا قدرة لهم عليهم، وعزموا على العودة إلى مصر.

وهذا الجبن والخور سجله القرآن الكريم على اليهود في كثير من المواطن، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]. فهم لا يقاتلونكم مجتمعين، ولا يقاتلون في العراء، ولا يقاتلون وجهًا لوجه، وقوله: ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ [الحشر: ١٤]. هكذا وصفهم رب العالمين.

وقد رأينا هذا الجبن بأم أعيننا، فأطفال الحجارة يلقون بحجارتهم على العدو وهم في العراء، واليهود المدججون بالمدافع، تَبْرُز عيونهم فحسب من وراء جدار، أو من خلف نافذة الدبابة، أو باب السيارة، وهم بأسلحتهم يهربون من أطفال الحجارة!! ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ فهم في خلاف وفرقة، وتناحر بين الفرق المختلفة، وهم طبقات وجنسيات يحتقر بعضهم بعضًا كالفلاشا وغيرهم ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ تظنهم مجتمعين على قلب واحد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة متناحرة مليئة بالبغض والشحناء ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]. ولما امتنعوا من دخول الأرض المقدسة خوفًا وذعرًا من ساكنيها، قالوا لموسى عليه السلام: ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾.

مَوْقِفُ يُوشَعَ وَكَالِبَ مِنْ دُخُولِ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ

٢٣- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا[1] ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ[2] ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ[3] وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

ولما امتنع بنو إسرائيل من دخول الأرض المقدسة، حتى يخرج منها العمالقة، عندئذ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله، ويخشون عقابه وهما يوشع، وكالب من بين النقباء الاثني عشر، وقد ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان، وطاعة الله ورسوله، وعدم الخوف من بأس العدو، قالوا لبني إسرائيل مشجعين لهم: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي: خذوا بالأسباب، وادخلوا على الجبارين باب مدينتهم، وثقوا بنصر الله لكم، ولا يهولنكم عِظم أجسامهم، فقلوبهم خاوية ضعيفة، فإذا دخلتم الباب عليهم فالله معكم، ومؤيدكم بنصره، فليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تدخلوا عليهم الباب، وثقوا بالله وتوكّلوا عليه، واقطعوا العلائق بغير الله تعالى، واجعلوا قلوبكم متعلقة به سبحانه، فإنهم سيهزمون ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ إن كنتم مصدقين رسول الله موسى فيما جاءكم به من عند الله، عاملين بشرع الله، مجاهدين في سبيله، فإن في التوكل على الله تعالى تيسير للأمر ونصر على العدو، وبحسب إيمان العبد يكون التوكل.

إِصْرَارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الامْتِنَاعِ مِنْ دُخُولِ أَرْضِ بَيْتِ المَقْدِسِ

٢٤- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾

بنو إسرائيل قلوبهم قاسية لا تتأثر بالمواعظ، ولا تعرف الوفاء بالعهود والمواثيق، ولا تستطيع مجابهة العدو، ولذلك لم يتأثروا بنصيحة الرجلين لهم، فنكلوا عن الجهاد، وعزموا على الانصراف والرجوع إلى مصر، وقالوا: لن ندخل مدينة بيت المقدس (إيلياء) مدة حياتنا على وجه التأكيد والتأبيد، ما دام العمالقة مقيمين فيها حالًا ومستقبلًا، ثم

---

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من (عليهُما)، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب بضم الهاء والميم من (عليهُمُ الباب)، والباقون بكسرها، وعند الوقف على (عليهم) الجميع يُسكّن الميم.

(٣) عدّ البصري (فإنكم غالبون) آية، وأسقطها غيره من العدد.

قالوا في وقاحة وجرأة على الله تعالى وعلى رسوله، وفي استخفاف واستهانة: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ فنحن لا نريد عزًّا ولا ملكًا ولا أرض الميعاد، إن كانت ربوبيتنا لله ستكلفنا القتال، فهم يقولون لموسى: أنت وربك، وكأنه سبحانه رب موسى وحده وليس ربًّا لهم، ثم إن في تخلفهم عن الجهاد مخالفة لأمر الله تعالى وأمر رسوله موسى عليه الصلاة والسلام، وهذا فسق واضح.

وقولهم: ﴿فَقَـٰتِلَآ﴾ أي: أن موسى وربه معًا يقاتلان الجبارين، وهذا بناء على مذهبهم في القول بالتجسيم، فهم يُجوِّزون على الله تعالى أن ينتقل من مكان إلى مكان، فيذهب ويجيء، وهذا كفر بالله سبحانه، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، فهم يقولون: قاتل أنت وربك، ونحن هنا في انتظار النتيجة قاعدون.

لقد وعى المسلمون هذا الدرس حين واجهوا مثل هذه الشدة، وهم قلة، عُدة وعددًا، مستضعفون في الأرض، حين كانوا في مواجهة قريش في غزوة بدر، حيث قال عبد الله بن مسعود ﷺ: لقد شهدتُ من المقداد مشهدًا، لأن أكون أنا صاحبه أحب إليَّ مما عُدل به: أتى المقداد رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: يا رسول الله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾. ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيتُ وجه رسول الله ﷺ يُشرق، وسُرَّ بذلك[1].

وبمثل هذا قال أبو بكر وعمر ﷺ، وهكذا قال سعد بن معاذ ﷺ مخاطبًا رسول الله ﷺ: قد آمنا بك وصدَّقناك، وشهدْنا أنَّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله، لما أردت، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلَّف منا أحد، وما نَكْرهُ أن تلقى بنا عدونا وعدوك، إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله تعالى. وفي لفظ: والله لو سرْتَ بنا إلى برك الغماد

---

(١) أخرجه أحمد بسند صحيح (١/ ٣٨٩) ورواه البخاري في التفسير والمغازي برقم (٤٦٠٩، ٣٩٥٢) والحاكم (٣/ ٣٤٩) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٧٢) والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٥).

-وهو موضع في اليمن أو الحبشة- فخضته لخضناه معك . . .)[١].

هذا هو موقف أصحاب رسول الله ﷺ من الجهاد في سبيله، فأين هو من موقف يهود في قتال الكنعانيين؟ أين الثرى من الثريا؟!

مُوسَى يَعْتَذِرُ إِلَى رَبِّهِ

٢٥- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ولما امتنع بنو إسرائيل من القتال، توجه موسى عليه السلام إلى ربه شاكيًا أمره، وباثًا حُزنه، معتذرًا عن سفاهة القوم، فذكر أنه لا يملك لنصرة دين الله تعالى إلا أمر نفسه وأمر أخيه هارون، وليس في استطاعته أن يُلزم أحدًا بطاعة الله ورسوله، وهو سبحانه أعلم بهذا، ولكنه يُظهر اعتذاره إلى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾ وكان هارون يطيع أمر موسى وينفِّذه، مع أنه أكبر من موسى بسَنة، ولم يذكُر موسى اسم الرجلَيْن اللذيْن أنعم الله عليهما بالطاعة؛ لأن نفوذه لا يمتدُّ لهما، ولأنهما قلَّة، لا يمثِّلان قوة ضاربة للجبارين، بالإضافة إلى موسى وهارون، أما قومي الذين خرجوا عن طاعتي، وخالفوا أمرك يا ربي، فافصِل بيننا وبينهم بقضائك وعدلك وحكمك، وهذا معنى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعتك العاصين لأمرك، فإن الرابطة التي تجمعنا هي الدعوة إلى الله تعالى، وقد نكلوا عنها ونقضوا العهد والميثاق المأخوذ عليهم بنصرة الدين والسمع والطاعة، فاستجاب الله دعاء موسى، وقضى بالجزاء العادل على الفاسقين، وجاء الحكم في الآية التالية:

تَحْرِيمُ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ عَلَى اليَهُودِ حُرمَةً أَبَدِيَّةً

٢٦- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ[٢] أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ[٣] عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/٦١٥) و«المسند» (١٢٠٢٢، ١٢٩٥٤) بنحوه، قال محققوه: إسناده صحيح، على شرط الشيخين، وانظر أيضًا: «السنن الكبرى» للنسائي (٨٣٤٨) وابن حبان (٢٧٢١) و أبو يعلى (٣٧٦٦) وابن حبان (٤٧٢١).

(٢) ضم الهاء من (عليهُم) حمزة ويعقوب، وكسرها غيرهما.

(٣) أبدل همزة (تأس) ألفًا ورش والسوسي وأبو جعفر.

ويحسن بالقارئ أن يقف هنا على ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فهو كلام تام؛ لإفادة أن تحريم دخول الأرض المقدسة على اليهود تحريم أبدي، بخلاف مدة التيه فقد كانت أربعين سنة[1]، ودليل تحريم الأرض المقدسة على اليهود تحريمًا أبديًّا من كتاب ربنا، ومن كلام اليهود غير الصهاينة:

١ - قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء].

فلفظ ﴿لَفِيفًا﴾ معناه: مجتمعين في الآخرة، بعد أن كانوا موزعين في الدنيا؛ عقوبة لهم.

و(ال) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ للجنس، أي: اسكنوا الأرض كلها، وهم كذلك مشتَّتون في أرجاء العالم.

٢ - وأخوهم يوسف ﷺ يؤرخ لهم، ويقرر أنهم أهل بدْو يسكنون الصحراء دون وطن معيَّن، وذلك حين قال ﷺ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. والبدو قوم رُحَّل لا وطن لهم.

٣ - وقد أقسم ربنا على ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٧، ١٦٨] وتقطيعهم في الأرض أممًا، يعني: أنهم متفرقين مشتتين بلا وطن ولا مأوى، ومحاولة تجمُّعهم الآن في فلسطين هي بداية النهاية إن شاء الله تعالى.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يعاقب اليهود عقوبة أخرى دنيوية جزاء جُبنهم وعصيانهم وقعودهم عن القتال، فَحَكم الله عليهم بالتيه في بُقعة محدودة من أرض سيناء، قيل: إنها ستة فراسخ في اثني عشر فرسخًا، والفرسخ ثلاثة أميال، وكان عددهم ست مئة ألف، وكانت مدة التيه أربعين سنة، وذلك حتى ينقرض هذا الجيل الذي استمرأ الظلم والقهر والاستعباد على يد فرعون وجَبُن عن لقاء العدو، وضعُف عند الشعور بالعزِّ، وفضَّل حياة الذل مع القعود، على حياة العز والكرامة مع الجهاد، وحتى ينشأ جيل آخر

(١) أما علامة وقف التعانق في الآية فهو من اجتهاد اللجنة التي قامت بوضع علامات الوقف في المصحف حسبما ظهر لها، وهو غير ملزم.

لا يعرف القهر والمذلة؛ فإن الظلم إذا طال أمدُه صار خُلُقًا موْروثًا مكتسبًا، كأنه غريزة فطرية مجبول عليها.

هكذا كان فرعون مع قومه، وهكذا حياة الشعوب مع أمثال فرعون!! ثم حدد سبحانه مدة التيه في صحراء سيناء فقال: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ متحيرين فيها، يسيرون فيها اليوم كله، فإذا أمسوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي بدؤوا منه ورحلوا عنه.

قال مجاهد: تاهوا أربعين سنة، يُصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا؛ عقوبة لبني إسرائيل، وقيل: إن موسى وهارون لم يكونا مع بني إسرائيل في التيه؛ لأن موسى دعا ربه أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، ودعوة الأنبياء مجابة[١].

جاء عن السدِّي: لما ضرب الله عليهم التيه، قالوا لموسى، حين جاعوا وعطشوا، وأصابهم حر الشمس: ما صنعتَ بنا؟ - أي: حين دعوت علينا، أين الطعام؟ فأنزل الله المن والسلوى.

قالوا: فأين الشراب؟ فأُمر موسى أن يضرب بعصاه الحجر، فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا من الماء بعدد الأسباط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]. أي: عرف كل منهم العين المخصصة لكل عشيرة منهم، وهو حجَر أبيض، أخذه من جبل الطور، وكان يحمله على دابة في أسفاره، فإذا احتاج إلى الماء ضربه بعصاه فنبع الماء.

قالوا: فأين الظل؟ فظلَّل الله عليهم الغمام.

قالوا: فأين اللباس؟ فكانت لباسهم تطول معهم كما يطول الصبيان[٢].

ومات كل من جاوز الأربعين منهم في مدة التيه، ومنهم النقباء، ولما مضت مدة التيه، سار موسى بمن بقي من بني إسرائيل من أريحا إلى بيت المقدس، وكان يوشع بن نون على المقدِّمة، وكان نبيًّا مصاحبًا لموسى يغدو ويروح إليه، فحاصر يوشع بيت المقدس بعد عصر يوم الجمعة، فلما دنت الشمس من الغروب، وخاف يوشع دخول ليلة السبت، والعمل فيه محرَّم عندهم، عندئذ خاطب الشمس قائلًا: إنكِ مأمورة، وأنا مأمور، اللهم

(١) يُنظَر: تفسير الفخر الرازي (١١/ ١٩٩) و«فتح القدير» (٢/ ٣١) و«الخازن» (١/ ١٥٤).

(٢) بتصرف من «زاد المسير» (٢/ ٣٣٠) وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة.

احبسها عليَّ، فحبسها الله تعالى حتى فُتحت الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن نون.

وقال موسى لبني إسرائيل حين اقتربوا من دخول بيت المقدس: ادخلوا باب المدينة وأنتم ساجدون شكرًا لله تعالى، وكلوا منها حيث شئتم رغدًا، وقولوا: غفر الله لنا، وحَطَّ عنا ذنوبنا، فبدَّلوا ما أمرهم الله به، ودخلوا المدينة يزحفون على أدبارهم، بدلًا من أن يدخلوها سجدًا، وقالوا: حَبة في شعيرة، أو حبة حنطة، بدلًا من: حُطَّت ذنوبنا، فعاقبهم الله على سوء صنيعهم واستهزائهم بنبيهم، بالعذاب الشديد، جزاء فسقهم وخروجهم على طاعة الله تعالى، ومخالفة أوامر نبيهم.

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لايتْبَعْني رجل ملَك بُضْعَ امرأة، وهو يريد أن يَبْني بها، ولم يبْن بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا رجل اشترى غنمًا أو خلَفات وهو ينتظر أولادها، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحُبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم، فجاءت النار لتأكلها، فلم تَطْعَمْها، فقال: إن فيكم غلولًا، فليُبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس مثل رأس، بقرة من الذهب فوضعها، فجاءت النار فأكلتها، وكانت الغنائم لا تحل لمن قبلنا وتنزل نار من السماء لتأكلها، فأحلها الله لنا لضعفنا وعجزنا»**[1].

قال القاضي عياض: وقد حُبست الشمس مرة أخرى لنبينا ﷺ يوم غزوة الخندق، حين شُغلوا عن صلاة العصر حتى غربت الشمس، فردها الله عليه حتى صلى العصر[2].

وحُبست الشمس مرة ثالثة لنبينا محمد ﷺ أيضًا وكان ذلك صبيحة ليلة الإسراء حين انتظر العير التي أَخبر بقدومها مع شروق الشمس، يتقدَّمها جمل أورق[3].

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٣١٢٤، ٥١٥٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٤٧) ومصنف عبد الرزاق (٩٤٩٢) والحاكم (٢/ ١٣٩)

(٢) ذكره الطحاوي، وقال: رواته ثقات، «تفسير الخازن» (١/ ٤٥٤) ونقله ابن كثير (٢/ ٨٠) عن ابن عباس عن عكرمة عن أبي سعيد، عند ابن أبي حاتم بنحوه

(٣) ذكره يونس بن بكير في زيادته على سيرة ابن اسحاق، الخازن (١/ ٤٥٤)

ودخول موسى بيت المقدس، وعلى مقدمة الجيش يوشع بن نون هو أصح الأقوال؛ لاتفاق العلماء أن الذي قتل ملك الجبابرة (عِوَج بن عنُق) هو موسى عليه السلام، وأن هذا كان بعد التيه، واختاره الطبري والبغوي وغيرهما.

وقد مات هارون في التيه، ومات موسى بعده بثلاث سنوات، عن عمر يناهز عشرين سنة بعد المئة.

ومات يوشع بن نون وعمره ست وعشرون سنة بعد المئة، ودفن في جبل (أفرانيم) وتولى أمر بني إسرائيل بعد موسى سبعة وعشرين سنة.

والقول بأن موسى ﷺ مات في التيه قول مرجوح، وكذا القول بأن القرية التي أمر موسى بفتحها كانت أريحا، وليست بيت المقدس، وإنما كان ذهابهم إلى بيت المقدس من جهة أريحا.

وهذه القصة التي في كتاب الله تعالى أشار إليها سِفْر العدد، في الإصحاح الثالث عشر والرابع عشر، وذلك: أن الله تعالى أمر موسى أن يرسل اثني عشر رجلًا جواسيس، يتجسسون على أرض كنعان التي وعدها الله تعالى بني إسرائيل، من كل سبط رجلًا، فعيَّن موسى اثني عشر رجلًا، منهم: يوشع بن نون، من سبط أفرايم، ومنهم كالب بن يفنة، من سبط يهوذا، ولم يُسمُّوا بقية الجواسيس، فجاسوا خلال الأرض، من بريَّة صين، جنوبًا، وهي جبرون (مدينة الخليل) إلى حَمَاه أي: مدخل حماه بسوريا من جهة الشمال، فوجدوا الأرض ذات ثمار وأعناب ولبن وعسل، ووجدوا سُكَّانها معتزِّين، طوال القامات، ومُدنهم حصينة، فلما سمع بنو إسرائيل ذلك، وهَنُوا وبكَوْا، وتذمَّروا على موسى، وقالوا: لو متنا في أرض مصر كان خيرًا لنا من أن تُغنَم نساؤنا وأطفالنا.

فقال يوشع وكالب للشعب: إن رضي الله عنا يدخلنا إلى هذه الأرض، ولكن لا تعْصوا الرب ولا تخافوا من أهلها، فالله معنا، فأبى القوم دخول الأرض، وغضب الله عليهم، وقال لموسى: لا يدخل أحد مِن مَنْ سِنُّه عشرون سنة فصاعدًا هذه الأرض، إلا يوشع وكالب، وكلكم ستُدفنون في هذا القفر، ويكون أبناؤكم رعاة فيه أربعين سنة.

اليَهُودُ غَيْرُ الصَهَايِنَةِ لَا يَعْتَرِفُونَ بِالوُجُودِ الإِسْرَائِيلِيِّ

هذا هو حال اليهود تنطق به التوراة، جُبْن وتخاذل عن القتال، فما الذي جعل اليهود اليوم يعيثون في الأرض فسادًا: قتلًا، وتشريدًا لأهل فلسطين، وتهديدًا للدول العربية؟ إنه حبْل الناس، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]. ولكن هل جميع اليهود في العالم على هذا النحو الصهيوني، المتحالف مع الصهيونية الأمريكية المسيحية؟

يجيب عن هذا التساؤل الحاخام (ديفيد وايس) الناطق الرسمي باسم (حركة ناطوري كارتا)، ومعناها: حراس المدينة، وهي حركة يهودية عالمية معتدلة تعترف بأن ما يسمى بدولة إسرائيل دولة غير مشروعة، وأنها دولة ضد الله، أي: مضادة لما في التوراة، ومضادة لما كتبه الله على اليهود من التشرُّد في البلاد عقوبة لهم على عدم استجابتهم لنبيِّهم موسى عليه السلام حين دعاهم لدخول المدينة.

يقول الحاخام ديفيد وايس: اليهودية دين من آلاف السنين، له كتاب التوراة، من الله للشعب اليهودي، وكتاب التوراة يقول: إن من يرتكب خطيئة يَخْرُج من الأرض، وكُتُب الأنبياء تقول بكل صراحة: إننا طُردنا من هذه الأرض بسبب خطيئتنا، كل يهودي يعترف بذلك، ونحن نقول في صلواتنا: بسبب أخطائنا طُرِدْنا من الأرض، هذا اعتقاد يهودي، واليهود قبلوا هذا العقاب من الله تعالى، وقبلوا أن يعيشوا بين الأمم بسلام وأمان، واحترام القانون في كل بلد يقيمون فيه، ثم جاءت الحركة الصهيونية من مئة سنة تقريبًا، فتركوا تعاليم التوراة، ولم يقبلوا حكم الله تعالى، وهم ليسوا متدينين.

ويقول: إن ما يتعرض له الفلسطينيون من اليهود جريمة كبرى تعارض حقيقة التوراة التي تنص على أننا محظور علينا أن تكون لنا دولة صهيونية، ومحظور علينا أن نرتكب جرائم بشعة ضد الشعب الفلسطيني، وضد أي شعب.

إن إسرائيل دولة ضد الله، وهي لا تمثل اليهود، وهي تحول اليهودية من دين روحي قُدْسي إلى حركة وطنية علمانية، وكيان علماني، وهذا بالنسبة لنا كُفْر ضد الله؛ لأن الله منعنا من ذلك، وقال: سأُبقيكم في التشرُّد عقوبة لكم.

وهؤلاء يحاربون الله بإقامة هذه الدولة، والصهيونية تستخدم التوراة لجذب اليهود إليها؛ حتى يتْبعوهم، وهم يضللونهم ويخدعونهم ويقولون عن قوانينهم: هذا من التوراة، ويستأجرون حاخامات؛ ليقولوا للناس: اتبعوهم، مثل: (عوفاديا يوسف رئيس حركة شاس) الدينية في إسرائيل حينما نسب إلى التوراة قولها: صُبَّ غضبك على الأغيار. ويصف العرب بأنهم أفاعٍ، ودعا الرب أن ينتقم من العرب، وأن يبيد ذريتهم، وأن يسحقهم، وأن يمحوهم من على وجه البسيطة!

وقبل قيام دولة إسرائيل كان اليهود يعارضون قيام دولة، ويعارضون الذهاب إلى فلسطين؛ لأن هذا يعارض حكم الله، يقول ديفيد وايس: ونحن نعارض الهجرة إلى فلسطين، ونعارض تقوية الحركة الصهيونية؛ لأن ذلك يعرضنا لغضب الله تعالى، ونحن ندعو إلى إزالة دولة إسرائيل بالكامل، ليس كما قالت اتفاقية أوسلو أو غيرها، بأن تكون هناك دولتان، بل دولة واحدة؛ إذ لا يحق لنا نحن اليهود أن يكون لنا دولة على حساب الشعب الفلسطيني صاحب الأرض، ونريد أن نعيش تحت ظل الفلسطينيين، وتحت حكم الفلسطينيين، ولن يكون هناك نجاح للسلام طالما هناك دولة صهيونية على أرض فلسطين.

ونحن أيام (أوسلو) تظاهرنا في واشنطن، وفي مدريد، وقلنا: إن هذه الاتفاقيات لن تكون حجة طالما هناك دولة فيها تمرُّد على الله تعالى، والتمرد لا ينجح، ونحن نصلي دائمًا أن تكون إزالة دولة إسرائيل بطريق سلمي، وألَّا يُسفَك فيها دم فلسطيني ولا يهودي، نصلي دائمًا أن تنتهي دولة إسرائيل بدون سفك دماء، وإذا استمرت دولة إسرائيل فهذا يؤلمنا كثيرًا، وهذه مأساة كبيرة، نحن نعرف أن الصهيونية تقوم بالتسلح، ولكنا نؤمن بأن الله تعالى هو الذي سيقف في وجههم.

والشعب الفلسطيني له الحق ١٠٠% في مقاومته للحصول على أرضه، فالأرض أرضه، والصهيونية ليس لها حق أن تحتل بوصة واحدة من أرض فلسطين، هذه أرض فلسطينية، قلنا ذلك منذ بداية الدولة الصهيونية وحتى الآن، هذه معارضة لحكم الله والتوراة، كل الأشياء تعيش من الماء، والصهيونية تقوم على الدم، وسفك الدماء الذي يحدث لليهود الآن عقاب من الله تعالى، وقد عاش اليهود في كنف الدولة الإسلامية حتى عصر الدولة الأندلسية، ولم يَحْمِ اليهود من البطش إلا المسلمون، ولم يكن هناك كراهية

بيننا كما عاش اليهود بسلام في العراق.

ويقول الحاخام ديفيد وايس: إني تعلمت في الخليل، وكنت أعيش بسلام مع العرب، وكان أطفالي يسيرون في الشوارع بكل سلام، ثم جاء الصهيونيون، وبدأ التحريض ضد العرب، ودعَوْهم أن يشكِّلوا دولة خاصة لهم!

ومن الظلم للشعب الفلسطيني أن يقيم على نصف أرضه، وليس للفلسطينيين حق العودة فقط، بل لهم حق السيادة على الأرض.

إن المسجد الأقصى ملكهم وليس لنا، وتدميره باطل، وهذا الفساد بالمسجد الأقصى، بمفهوم صهيوني وليس بمفهوم يهودي، إن الصهاينة يريدون التحكم في الأماكن المقدسة لأغراض وطنية قومية، وليس لغرض ديني.

هذه مقتطفات يسيرة من كلام الحاخام اليهودي ديفيد وايس، الناطق الرسمي باسم حركة ناطوري كارتا، وهي أكبر الجماعات اليهودية الدولية التي أبقت على عداوتها لإسرائيل والحركات الصهيونية، وقد أُسِست هذه الجماعة سنة ١٩٣٥م، وهي تعتبر أن الصهيونية أخطر المؤامرات الشيطانية ضد اليهود، وأن دولة إسرائيل غير مشروعة، ومقر هذه الجماعة في نيويورك، ولها تجمعات في تل أبيب والقدس وبريطانيا واستراليا ودول أخرى، ويعتبرون يوم إعلان دولة إسرائيل يوم حداد، ينكِّسون فيه الأعلام، ويسيرون فيه بمظاهرات، ويُصْدِرُون البيانات المعادية لإسرائيل[١].

ونعود إلى تفسير بقية الآية:

لقد كان موسى رحيمًا بقومه، مشفقًا عليهم من مغبة العقوبة، خائفًا عليهم، فواساه رب العزة قائلًا: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا تأسف ولا تحزن عليهم، فهم فَسَقة، وخروجهم عن طاعة الله ورسوله سبَّب لهم هذا، وهم ليسوا أهلًا للعفو، ولا يظلم ربك أحدًا، فهم يستحقون ما حلَّ بهم من التيه، ومن تحريم دخول الأرض المقدسة عليهم.

قال موسى بلسان حاله: لقد بذلتُ جهدًا كبيرًا لدفعهم إلى قتال الجبارين ودخول

(١) وقد أجرى هذا الحوار (أحمد منصور) في برنامج (بلا حدود) من قناة الجزيرة الفضائية بتاريخ ١/٥/ ٢٠٠٢م، وأعيد هذا اللقاء أكثر من مرة، ونُشر في شبكة المعلومات.

الأرض المقدسة، فذكَّرتُهم بنعم ثلاث من أَجَلِّ نعم الله عليهم، وهي:

١- كثرة الأنبياء فيهم.

٢- ووجود الملوك منهم؛ كداود، وسليمان.

٣- ومنْحُ الله لهم ما لم يمنحه لأحد قبلهم من الأمم.

ليكون هذا دافعًا لهم للجهاد، ولكنهم نكصوا على أعقابهم، وقد جرَّبْتُهم قبل ذلك في مواطن كثيرة، فلم تَلِنْ لهم قناة، ومن ذلك أني عَبرْتُ بهم البحر، وهم ينظرون بأعينهم إلى هلاك قوم فرعون، ومع ذلك فإنهم سرعان ما حنُّوا إلى الوثنية، حين رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أي: اجعل لنا إلهًا وثنًا مثل هؤلاء! وأنزل الله عليهم المن والسلوى، فأرادوا استبدال الفوم والعدس والثوم والبصل به، وقد غبتُ عنهم لنزول التوراة عليَّ، فعبدوا العجل الذهبي في غيابي، ونكثوا كل العهود والمواثيق.

هذه صفحة من تاريخ يهود، يسجلها القرآن الكريم؛ لتكون درسًا لنا، نتبيَّن من خلالها أن اليهود ليست لهم عهود ولا مواثيق، وأنهم جبناء ضعفاء، وليسوا بأقوياء، وأن الله تعالى قد ضرب عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله، ولكن الله تعالى أمدَّهم بحبل منه، بحفظ دمائهم وأموالهم، إذا عاشوا في كنف المسلمين أهل ذمة، مسالمين، فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وأمدَّهم سبحانه بحبل موصول من الناس وهو القوة التي تدعمهم وتساندهم، عن طريق الحلفاء المناصرين لهم، وهذه القوة تزول أمام قوة الإيمان وحب الشهادة في سبيل الله، وإعداد العدة المضارعة لهم.

أَوَّلُ جَرِيمَةِ قَتْلٍ

٢٧- ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ذكرت سورة المائدة قصتين متواليتين:

الأولى: قصة بني إسرائيل، عندما كُلِّفوا بقتال الجبارين، وفيها تعقيب على عدم وفائهم بالعهود والمواثيق التي سبق ذكرها في السورة.

ثم جاءت القصة الثانية: تخاطب النبي ﷺ بأن يتلو على يهود زمانه، وهم امتداد لأسلافهم، يتلو عليهم وعلى أمته قصة أول جريمة قتْل وقعت على وجه الأرض، تعقيبًا على تآمر اليهود على قتل النبي ﷺ.

فقد ذكرت السورة تآمرهم على قتل النبي ﷺ وتذكيره بنعمة الله تعالى عليه حين هموا ببسط أيديهم لقتله ﷺ فكف الله أيديهم عنه. وسفْك الدماء من شأن اليهود، فهم الذين قتلوا الأنبياء والمرسلين كزكريا ويحيى عليهما السلام.

وهذه القصة مقدمة لذكر حدِّ الحرابة والسرقة والقصاص، وفيها بيان لجانب الخير والشر، والصلاح والفساد إلى يوم القيامة، وقد جاء ذكرها في ثنايا حديث السورة عن بني إسرائيل، فلما ذكر الله تعالى تمرد بني إسرائيل وعصيانهم، وأمْره لهم بالنهوض لقتال الجبارين، أتبع ذلك بذكر قصة ابني آدم، وعصيان قابيل أَمْرَ الله تعالى؛ لبيان أن بني إسرائيل قد اقتفوا أَثَر أول عاص في الأرض لله تعالى.

والضمير في ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعود على اليهود المذكورين في الآيات السابقة، فهم المقصودون بالقصة، للاستشهاد بها على شرورهم، وطبائعهم، وتعطشهم لسفك الدماء والعدوان على مرِّ التاريخ؛ لنستفيد من ذلك في التعامل معهم، ونأخذ حذرنا منهم، وفي هذا مقدمة للتحذير من قتل النفس ومن الحرابة والسرقة، وفيها دعوة للتغلب على غرور النفس، والرضى بحكم الله تعالى، وعدم الجرأة عليه سبحانه بمخالفة أمره ونهيه.

والمعنى: قُصَّ - أيها الرسول - على الناس، وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابنيْ آدم لِصُلْبِهِ حتى يعتبر بها المعتبرون، وذلك حين أخرج كلًّا منهما شيئًا من ماله بقصد التقرب إلى الله تعالى، فقبل الله قربان أحدهما بأن نزلت نار من السماء فأحرقته، ولم يَقْبل قربان الآخر، فحسده أخاه وأضمر قتله.

قصة ابني آدم: لم يَرِدْ في القرآن الكريم، ولا في السُّنَّة النبوية، ذكر للزمان أو المكان، أو ذكر لأسماء الأشخاص أصحاب هذه القصة، وقد جاءت قصة ابني آدم في العهد القديم محددة فيها الأسماء والزمان والمكان.

وقد نقل المفسرون عن بني إسرائيل تفاصيل هذه القصة، وهي مما لا يصدق ولا

يكذب، كما علَّمنا رسول الله ﷺ بالنسبة لأخبار أهل الكتاب.

ومن ذلك ما قاله الطبري والبغوي وابن كثير وابن اسحاق وغيرهم نقلًا عن أهل العلم بالكتاب الأول (التوراة) ونحن نعتقد بتحريف التوراة وتغيير ما فيها بعد وفاة موسى عليه السلام.

وذلك: أن آدم عليه السلام كان يغشى حواء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت فيها بقابيل وتوأمته إقليما، ولم تجد فيهما وخمًا، ولا وصبًا ولا طلْقًا حتى ولدتهما، ولم تر معهما دمًا، فلما هبط آدم إلى الأرض تغشاها، فحملت بهابيل وتوأمته ليوذا، ووجدت في الحمل بهما الوصب والطلق، وكان آدم عليه السلام، إذا شبَّ أولاده، يزوِّج غلام هذه البطن جارية بطن أخرى، فكان الرجل منهم يتزوج أية أخواتِه شاء، إلا توأمته التي وُلدتْ معه؛ لأنه لم يكن يومئذ نساء، إلا أخواتهم، فلما وُلد قابيل وتوأمته، ثم هابيل وتوأمته، أمر آدم أن ينكح قابيل أخت هابيل، وينكح هابيل أخت قابيل، وكانت أخت قابيل أجمل، فرفض هابيل أن يتنازل عنها، ولم يرض قابيل، وقال: هي أختي وأنا أحق بها، ونحن من ولادة الجنة، وهو من ولادة الأرض.

قال له أبوه: إنها لا تحل لك، وفق ما كان متبعًا في شريعته عند بدء الخليقة، فأبى قابيل.

قال آدم: قرِّبا قُربانًا، فأيكما يُقْبل قُربانه، فهو أحق بها، وكان قابيل صاحب زرع، فقدَّم حزمة من سنابل القمح، وقدَّم هابيل أفضل غنمه، وكان صاحب غنم، ودعا آدم ربه، فَقُبِل، فأكلت قربان هابيل[1]، وكان هابيل رجلًا صالحًا، وكان قابيل صاحب خطايا.

قالوا: وكانت حواء تلد في كل بطن ذكر وأنثى إلا شِيثًا عليه السلام، فإنها ولدته منفردًا[2].

قيل: وولدت حواء عشرين بطنًا، في كل بطن ذكر وأنثى، وكان قابيل أسنَّ ولد آدم، وَرُوِي أن آدم سافر إلى مكة؛ ليرى الكعبة، وترك قابيل وصِيًّا على بنيه، فجرت هذه القصة في غيابه[3].

---

(١) بتصرف من كتاب «توفيق الرحمن في دروس القرآن» للشيخ فيصل آل مبارك (٢/ ٣٠) وهو في الطبري (٨/ ٤٢٢) وهناك روايات أخرى للقصة.

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (٢/ ٣٣).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٢/ ١٧٨).

وشيث هو النبي الوحيد من ولد آدم عليه السلام، وقد أُنزلت عليه صحف، وكان الزواج على هذا النحو، شريعة مؤقتة؛ لضرورة إعمار الأرض.

قال المفسرون: وكانت نفس قابيل غير طيبة بقربانه؛ حيث إنه وجد سنبلة طيبة من بين السنابل التي قدمها فَفَركها وأكلها، وأن هابيل كانت نفسه طيبة بقربانه، حيث قدَّم كبشًا هو أنفس ما يملك من الغنم.

قيل: إن هذا الكبش رُفِع إلى السماء وبقي في الجنة، حتى نزل به جبريل فداء لذبح إسماعيل، والله أعلم.

فلما قُبل قربان هابيل حقد عليه قابيل، وغضب منه وحسده، وقال له: لأقتلنك حتى لا تأخذ توأمتي، قال هابيل: وما ذنبي ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؟ المخلصين في أعمالهم، المتبعين هدًى نبيهم، وأنا أرجو أن أكون منهم، فحصول التقوى شرط في قبول الأعمال، والتقوى من أعمال القلوب، وإنما أوتيتَ يا قابيل، من قِبَل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، وعدم قبول حكم الله تعالى على لسان آدم عليه السلام، فأي جناية لي توجب لك قتلى إلا أني اتقيت الله عز وجل.

وهذه قاعدة عامة تشمل هذه القصة وغيرها في شريعة آدم وشريعتنا، وكل رسالة إلهية.

قَالَ هَابِيلُ لِقَابِيلَ

٢٨- ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ[١] لِأَقْتُلَكَ[٢] إِنِّىٓ[٣] أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

لقد عزم قابيل على قتل هابيل، ولكنه لم يدر كيف يقتله، فهي أول جريمة قتل، فأخذ يلوي عنقه فلم يقتل.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إن هابيل كان أقوى وأشد من قابيل، لكنه خاف من ربه أن

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر، بفتح ياء الإضافة من (يديَ إليك) وصلًا للتخفيف، وقرأ الباقون بإسكانها على الأصل، وهما لغتان.

(٢) قرأ حمزة بتحقيق همزة (لأقتلك)، وإبدالها ياء خالصة في حالة الوقف عليها.

(٣) فتح ياء الإضافة من (إنيَ أخاف) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر، وأسكنها الباقون.

يمدَّ يده على أخيه، فقال له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ يقول هابيل: ما أنا بمنتصر لنفسي، ولا مبتدئ لك بالقتال، بل أستسلم لأمر الله، وكان هذا سائغًا في شريعتهم، ألّا يدفع الرجل عن نفسه، وهو محمول على ترك القتال في الفتنة، وكف اليد عند الشبهة:

فالشرائع تبيح للمعتدَى عليه أن يدافع عن نفسه، ولو بقتل المعتدي دون أن يتجاوز الحد الذي يدافع به عن نفسه، وفي حال التنازع على السلطة لا يجوز للمسلم أن يشهر السلاح في وجه أخيه، بل يتنازل أقرب الطرفين إلى الله تعالى، كما فعل عثمان ﷺ.

وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص ﷺ، قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «**إنها ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي**» قال: أفرأيت إن دخل عليَّ بيتي، فبسط يده إليَّ ليقتلني، قال: «**كن كَابْن آدم**»[1].

أما في غير حال الفتنة فإنه يجوز دفع الصائل إجماعًا، وأن «**من قُتل دون نفسه فهو شهيد**».

وثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي بكرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار**». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[2].

قال البخاري: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا حماد، عن رجل لم يسمِّه، عن الحسن، قال: خرجتُ بسلاحي ليالي الفتنة، فاستقبلني أبو بكرة، فقال: أين تريد؟ قلت: أريد نُصرة ابن عم رسول الله ﷺ قال: . . . وذكر الحديث[3].

---

(١) «المسند» (١/ ١٨٢) برقم (١٤٤٦، ١٦٠٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات كما قال محققوه، والترمذي (٤/ ٤٨٦) برقم (٣١٩٤) وأبو داود برقم (٤٢٥٧) وصححه الألباني في سنن صحيح «أبي داود» (٣٥٨١) وأصله في البخاري (١٣/ ٣٠) ومسلم (٤/ ٢٢١٢) عن أبي هريرة دون (أفرأيت) قال الألباني في «إرواء الغليل» (٨/ ١٠٤): سنده صحيح على شرط مسلم، وله شواهد عدة.

(٢) البخاري (١/ ٨٥) برقم (٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣) ومسلم (٤/ ٢٢١٣) برقم (٢٨٨٨) وأبو داود (٤/ ٤٦٢) وابن ماجه (٢/ ١٣١١) وأحمد (٤/ ٤٠١) برقم (٢٠٤٣٩، ٢٠٤٧٢) وعن أبي موسى برقم (١٩٥٩٠، ١٩٦٧٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٠٨٣) و«صحيح مسلم» (٢٨٨٨).

وهذا الحديث في القتال على الملك والتغلب على السلطة؛ تجنبًا للفتنة، وقد أمر النبي ﷺ أصلح الفريقين بالتسليم للآخر، وهو موقف عثمان ﷺ من الفتنة! ثم ذكر سبحانه ما دار بين الأخوين من حوار، حيث خوَّف هابيل قابيل من عذاب الله تعالى قائلًا:

٢٩- ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ[١] أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ[٢] وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾

أي: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي﴾ أي: إثم قتلي، أو الإثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصًا على قتلك ﴿وَإِثۡمِكَ﴾ الذي تحمله قبل ذلك بسبب عدم تقواك، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فإذا دار الأمر بين أن أكون قاتلًا أو مقتولًا، فإني أُوثر أن تقتلني فتبوء بالوِزريْن معًا.

وهذا المعنى يوافق ما ثبت في صحيح مسلم من قول النبي ﷺ: **«يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم، فيؤخذ من حسنات الظالم، فيزاد في حسنات المظلوم، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه»**[٣].

صح في الحديث أن النبي ﷺ أردف خلفه أبو ذر، ثم سأله ثلاثة أسئلة:

قال له: **«ماذا تصنع إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى المسجد؟»** قال أبوذر: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: **«تعفَّف يا أبا ذر»**.

ثم قال له: **«ماذا تصنع إن أصاب الناس موت شديد، يكون البيت فيه هو القبر؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«اصبر يا أبا ذر»**.

ثم قال له: **«ماذا تصنع إن قتل الناس بعضهم بعضًا حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء؟»** - وحجارة الزيت مكان بالمدينة - قال: الله ورسوله أعلم، قال: **«اقعُد في بيتك، وأغلق عليك بابك»** قلت: فإن لم أُترك؟ قال: **«فَأْتِ من أنت منهم فكن فيهم»** قلت: فآخذ سلاحي؟ قال: **«إذن تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروِّعك**

---

(١) فتح ياء الإضافة من (إني أريد) نافع وأبو جعفر، وأسكنها غيرهما.

(٢) قرأ أبو عمرو والدوري عن الكسائي بإمالة الألف من لفظ (النار) وقرأها ابن ذكوان بالفتح والإمالة، وقرأها الأزرق عن ورش بالتقليل وفتحها غيرهم.

(٣) رواه مسلم ومعناه في حديث (أتدرون من المفلس)

شعاع السيف، فألق طَرَف ردائك على وجهك؛ كي يبوء بإثمه وإثمك فيكون من أصحاب النار»[١]. وتمضي الآيات.

قَابِيلُ يَقْتُلُ هَابِيلَ وَيَحَارُ فِي دَفْنِهِ

٣٠- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٣٠﴾

ثم وعظ هابيل أخاه قابيل حين رآه مُصِرًّا على قتله، فأرشده إلى أن الله تعالى يتقبل من المتقين، وأرشده إلى حقوق الأخوة، والخوف من عاقبة فعله، فذكَّره بالله تعالى واستعطفه، وبيَّن له مصير القاتل، وأنه من أهل النار يوم القيامة، وأنه لا ذنب لمن تقبل الله قربانه حتى يستوجب القتل، وأن التقوى شرط في قبول العمل، ولكن قابيل زيَّنت له نفسه قتل أخيه، وسهَّلت عليه هذا الفعل ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾.

قال ابن جرير: لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر، ثم أخذ حجرًا آخر فضرب به رأسها حتى قتلها، وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك.

وعن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: إن أشقى أهل النار عذابًا: ابن آدم الذي قتل أخاه، ما سُفك دم في الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة، إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سن القتل[٢].

والذي حمل قابيل على قتل أخيه هو الحسد، والحسد أول جريمة ظهرت في الأرض.

والراجح أن قابيل قتل أخاه غيلة؛ يروى أن هابيل استراح بعض الوقت ونام، بعد أن رعى غنمه، فجاء إليه قابيل وهو نائم فشدخ رأسه بصخرة عظيمة، فمات، ثم تركه في العراء، فقصدتْه السباع.

---

(١) روى نحوه مسلم في الفتن عن أبي بكرة (١٣/ ٢٨٨٧) والبزار في مسنده (٣٩٥٩) والبغوي (٤٢٢٠) وأبي داود في الفتن والملاحم (١/ ٤٢٦) برقم (٤٢٦١) وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٨) وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣١٩٧) و«الإرواء» (٢٤٥١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ١٥٦) و«المسند» (٥/ ١٦٣) وإسناده صحيح على شرط مسلم برقم (٢١٣٢٥) وابن حبان (٦٦٨٥) وكلهم عن أبي ذر ﷺ.

(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ٢١٩).

٣١- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ[1] أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قيل: إن قابيل حمل هابيل على كتفه وبين يديه حتى أَرْوَح، وهو لا يدري ماذا يصنع به؟ فأرسل الله له غُرابيْن اقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، ثم حفر له في التراب ودفنه، قال قابيل: يا ويلتاه، ألا أفعل مثل هذا الغراب فأستر عورة أخي؟ فدفن قابيل أخاه، والغراب صاحب حيلة في الدفن مع ما فيه من سواد اللون، ولذا يتشاءم منه الناس، وعاقبه الله بالندامة على عدم جدوى ما فعل، وما أعقب ذلك من عناء وقلق ومشقة، فالندم كان من قابيل على قتله أخاه، وليس ندم توبة، ولذا: لم ينفعه ندمه.

وذكر مجاهد بن جبر أن قابيل عوقب في الدنيا بتعليق ساق فخذه يوم قَتَل أخاه، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلًا.

وفي الحديث عن أبي بكرة ﷺ: **«ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يُدَّخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»**[2].

قيل: إنه لَمَّا حدث ذلك، ذهب إبليس إلى حواء مسرعًا، وقال لها: إن قابيل قتل هابيل، قالت: ويحك، أي شيء يكون القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك، قالت: ذلك الموت، قال: فهو الموت، فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم، فقال: ما لكِ؟ فَلَمْ تُكَلِّمه، فرجع إليها مرتين فلم تكلمه، فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك، وأنا وبنيَّ منها براء[3].

لذا كان الصياح والصريخ من طبائع النساء دون الرجال.

وقيل: إن قتله كان عند مسجد البصرة، وكان عُمْر هابيل عشرين عامًا ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ

---

(١) وقف رُوَيس على (ياويلتاه) بهاء السكت مع المد المشبع للتوجع والتحسر، ووقف الباقون بالألف، وأمالها حمزة والكسائي وخلف العاشر، وقرأها بالفتح والتقليل، أي: بين الفتح والإمالة- الأزرق، ودوري أبي عمرو، والباقون بالفتح.

(٢) أبو داود (٢٠٨/٥) برقم (٤٩٠٢) وابن ماجه (١٤٠٨/٢) برقم (٤٢١١) والحاكم (١٦٢/٤) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٩١٧) والتعليق الرغيب (٢٢٨/٣) وصحيح ابن ماجه (٣٣٩٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» للآية.

﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ خسر دنياه بفقد أخيه وغضب أبيه، وخسر آخرته فأسخط ربه، وصار من أهل النار.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تُقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمها؛ لأنه أوَّل من سنَّ القتل»**[١].

والذي عليه جمهور أهل العلم أن هذه القصة تخص ابني آدم من صلبه كما هو ظاهر القرآن ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ وكما جاء في الحديث: **«إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها»**.

قالوا: وقد رزق الله آدم بعد قتل هابيل بسنوات شِيثًا، ومعناه: هبة الله، وصار نبيًّا، أنزل الله عليه خمسين صحيفة، وأصبح وصيَّ آدم ووليَّ عهده، وكان من نسله الأنبياء الصالحون، وكان الطالحون من ذرية قابيل.

جاء في الأثر: إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلًا، فخذوا من خيرهما ودعُوا الشر[٢].

حُرْمَةُ قَتْلِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ

٣٢- ﴿مِنْ[٣] أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا[٤] فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ[٥] رُسُلُنَا[٦] بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أي من أجل الذي ذكرناه في قصة ابنى آدم، من قتل أحدهما الآخر، وسَنِّه القتل لمن

(١) «صحيح البخاري» (٦/ ٣٦٤) برقم (٣٣٣٥، ٦٨٦٧) ومسلم (٣/ ١٣٠٤) ورقم (١٦٧٧) والترمذي (٥/ ٤٢) برقم (٢٦٧٣) وابن ماجه (٢/ ٨٧٣) برقم (٢٦١٦) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٣٤٤٧) وفي «السنن» (٣٩٩٦) و«المسند» (٣٦٣٠، ٤٠٩٢) والطبري (٨/ ٣٣٤).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢/ ١٨١).

(٣) قرأ أبو جعفر بكسر همزة (منَ اجل) ونقل حركتها إلى النون قبلها، وإذا وقف على (من) ابتدأ (إجْل) بهمزة مكسورة، وقرأ ورش بنقل حركة الهمزة المفتوحة إلى النون، وإذا وقف على (من) ابتدأ (أجل) بهمزة مفتوحة، وقرأ الباقون بهمزة مفتوحة مع عدم النقل، وهما لغتان.

(٤) قرأ الكسائي بإمالة ألف (أحياها)، وللأزرق عن ورش وجهان هما: الفتح، والتقليل.

(٥) أمال الألف من (جاءتهم) ابن ذكوان وحمزة وخلف العاشر، ولهشام عن ابن عامر وجهان هما: الفتح، والإمالة.

(٦) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا) والباقون بضمها، وهما لغتان.

بعده، كتبنا على أهل الكتب السماوية أن من تجرأ على قتل نفس متعمدا بغير حق، فإنه يحل قتله قصاصًا إلا أن يكون القاتل والد المقتول، وكذلك من أفسد على الناس دينهم أو استحل أموالهم وأبدانهم لأنه قد حارب الله ورسوله.

كان الإمام (نافع) يقف على ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ ويجعله من تمام الكلام السابق، أي: أنه وقف تام.

والمعنى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ من أجل قتل هابيل ولم يواره.

وقال جمهور المفسرين: إن ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ كلام مستأنف، متعلق بقوله: ﴿كَتَبْنَا﴾ فلا يوقف عليه، ويكون ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ تعليل لـ﴿كَتَبْنَا﴾ غير متعلق بـ ﴿ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ وفيه إشارة إلى أنواع المفاسد الحاصلة بسبب جناية القتل العمد، ولذلك شرع الله القصاص من القاتل، وهو حكم ثابت في جميع الأمم، وفي جميع الشرائع والملل، وإنما خُص بنو إسرائيل بالذكر:

١- لأن قصة القتل هذه جاء ذكرها في سياق الحديث عنهم، وتعداد جناياتهم.

٢- ولأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل النفس.

٣- وشُدِّد عليهم في ذلك؛ لأنهم أكثروا من سفك الدماء، وقتل الأنبياء.

٤- ولِمَا وصفهم الله تعالى به من قسوة القلب وظلم الناس.

٥- ولأن التوراة هي أول كتاب ذُكر فيه حكم القصاص ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [٤٥].

٦- ولأن الآيات في سياق ما أَقْدَم عليه اليهود من اغتيال النبي ﷺ.

وحكم القصاص وحدُّ الحرابة المذكور في الآية كتبه الله على اليهود والنصارى والمسلمين ومَن قبلهم، وذلك أنه مَنْ قتل نفسًا ظلمًا وعدوانًا عامدًا متعمدًا في غير قصاص ولا دفاع عن النفس، وبغير إفساد في الأرض بوجه من الوجوه، وذلك بمحاربة شرع الله تعالى بالكفر بعد إيمان، أو بالشرك الأكبر، أو بقطع الطريق، أو بهتك حرمة الحرم، أو نهب الأموال، أو هدم البنيان، أو قطع الأشجار، أو البغي على عباد الله، أو ترويج المخدرات، أو انتهاك الحرمات؛ فإن جريمة قتل النفس الواحدة على هذا النحو

كأنها قتل للناس جميعًا وإحياءها بعدم قتلها حياة للناس جميعًا؛ وذلك لأن انتهاك حرمة النفس الواحدة، مثل قتل جميع الناس، وصيانة حرمة النفس الواحدة خوفًا من الله تعالى، إحياء للناس جميعًا، فحق الحياة ثابت لكل نفس، والاعتداء عليها اعتداء على حق الحياة الذي تشترك فيه جميع النفوس، وقاتل النفس الواحدة بغير قصاص ولا حرابة جزاؤه جهنم، وغضب الله عليه ولعنه، ولو قتل الناس جميعًا لم يزد جزاؤه على ذلك، ولو عوقب في الدنيا لم يزد على القتل - قصاصًا - مرة واحدة.

ومن استحل قتل إنسان بغير حق، لم يتورع عن قتل من استطاع من الناس.

ومن استباح الدم المصون في نفس واحدة، فكأنما استباحه في نفوس الناس جميعًا.

فالنفس الواحدة تمثل النوع الإنساني، ولا فرق بين الواحد والجميع من عموم الأنفس؛ فالعقوبة واحدة في الحالتين.

ومن امتنع عن قتل نفس حرم الله قتلها، أو أنقذها من الهلاك، أو الغرق، أو الحريق، أو الهدم، أو شدَّ أزرها ونصرها، أو العفو عن القاتل قصاصًا، ونحو ذلك؛ فإن ذلك في حكم إحياء جميع الناس، فالحفاظ على حرمة إنسان واحد حفاظ على حرمات الناس كلهم، وله من الأجر والمثوبة، مثل ثواب من أحيا الناس جميعًا، والمحيي والمميت في الحقيقة هو الله تعالى، والكلام في الآية عن حدوث السبب ووقوعه، وفي هذا وعد ووعيد، وترغيب وترهيب.

وقد بينت هذه الآية أن قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعًا، ولم تبين حكم قتل النفس بالنفس، وقد جاء ذلك موضحًا في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [٤٥]. وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء]. بمعنى: أن من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعًا، ومن حرم دم مسلم، فكأنما حرم دماء الناس جميعًا، ولو قتل الإنسان الناس جميعًا لم تزد عقوبته عما جاء في الآية من أن جزاءه جهنم،

وغضبُ الله عليه ولعنهُ، وفي هذا تعظيم لقتل النفس، وتنفير من الجرأة عليها، وترغيب في صيانتها وحرمتها؛ لأن من أقدم على ذلك يكون قد أهان ما كرم الله، وهتك ما حرم الله؛ وذلك لأن قتل النفس بغير حق جُرْم فظيع، كفظاعة قتل الناس جميعًا.

وفي هذا حث على متابعة قاتل النفس، وأخذه أينما ثُقف، والامتناع عن إيوائه أو التستر عليه؛ لأن القاتل يوشك أن تدعوه نفسه إلى هضم الحقوق، وكلما سنحت له الفرصة قَتَل، ولو دعتْه نفسه أن يقتل الناس جميعًا لفعل. وقاتل النفس عند ولي المقتول كأنما قتل الناس جميعًا، ومن تسبب في إنقاذها من الموت فكأنما أحيا الناس جميعًا.

قال الفخر الرازي: إن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة، أقدموا على قتل الأنبياء والرسل، وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم، ونهاية بُعدهم عن طاعة الله تعالى، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول ﷺ؛ لأنهم عزموا على الفتك به وبأصحابه، كان تخصيص بني إسرائيل بهذه المبالغة العظيمة مناسبًا للكلام، ومؤكدًا للمقصود[1].

سئل الحسن عن هذه الآية: أهي لنا، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله غيره، ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم من دمائنا.

ثم بيَّن ﷻ أن بني إسرائيل أتتهم رسل الله بالحجج القاطعة، والدلائل الواضحة، والأحكام والشرائع، وجاؤوهم بما يؤكد صدق رسل الله في دعواهم إلى الإيمان بالله تعالى وأداء ما فرض عليهم من الأحكام والفرائض.

ثم إن كثيرًا منهم بعد مجيء الرسل، وبعد ما علموا تحريم القتل لَمتجاوِزُون حدود الله تعالى بارتكاب ما حرم الله، وترك ما أمر الله به، وقليل منهم دخل في الإسلام، وآمن بالله وخاتم النبيين، وفي هذا تقريع وتوبيخ لما حدث من يهود المدينة الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج، وقد أنكر الله عليهم ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤].

(١) «التفسير الكبير» (١١/ ٢١١).

حَدُّ الحِرَابةِ

٣٣- ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ[١] وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

وبعد أن قررت الآية السابقة حرمة قتل النفس البشرية، وبيَّنتْ أن صيانة حق الحياة مكفول لكل نفس، نصَّت هذه الآية على عقوبة من أفسد في الأرض، بالكفر أو القتل أو أخذ الأموال وإخافة السبيل أو ترويع الآمنين، أو إتلاف المتاع والمال بالحرق أو التفجير ونحو ذلك، فاعتدى على الأنفس، أو الأموال، أو الأعراض، ولم يترك الله تعالى تحديد العقوبة في هذه الجرائم لاجتهاد الناس نظرًا للآثار الخطيرة التي تترتب على ارتكابها؛ ولأن البشر سوف يحتالون في اختلاق بدائل لا تقطع دابر الجريمة، ولا توفر الأمن في المجتمع، ولا تحفظ النظام العام، وسماها الإسلام (حد الحرابة) وبيَّن أن التفريط في تطبيق الحدود يؤدي إلى الخسائر المادية والمعنوية؛ حيث يختل الأمن، وتضيع الأموال والأنفس، وتهتك الأعراض، وتحل بالأمم كوارث شتى.

ولذا فإن النبي ﷺ قال: **«حَدٌّ يُعمَل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا ثلاثين صباحًا»**[٢].

والمسلمون على مدى التاريخ، كانوا يقيمون حدود الله؛ لصيانة الدماء والأموال والأعراض، ولم يتركوا ذلك وعندما أغار عليهم التتار والأوروبيون بعدهم، وضعوا قوانين البشر بأحكام الله أخذت من فحوى الشريعة ومعناها.

قال ابن عباس والضحاك: آية الحرابة نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين

---

(١) ضم الهاء من (أيديهُم) يعقوب، وكسرها غيره.

(٢) من حديث أبي هريرة في «المسند» برقم (٨٧٣٨) بلفظ (يقام) و(٩٢٢٦) بلفظ (يعمل) وإسناده ضعيف، لضعف جرير بن يزيد، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢١٢) وابن ماجه (٢٥٣٨) والنسائي (٨/ ٧٥) وأبو يعلى (٦١١١) وابن حبان (٤٣٩٨).

رسول الله ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد، وقطعوا السبيل، وأفسدوا في الأرض[١] فخُيِّر رسول الله ﷺ بين قتلهم أو صلبهم، أو تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

وبهذا يعلم أن سياق الآيات لا يزال في نقض اليهود للعهود والمواثيق.

والآية عامة في كل من حارب الله ورسوله وروّع الآمنين وأخاف السبيل.

وقد جاءت روايات كثيرة في سبب نزول هذه الآية، منها ما جاء في خبر العُرَنيين من البحرين في شهر شوال سنة ست من الهجرة وكان أمير هذه السرية كرز بن جابر الفهري، وكانت السرية مكونة من عشرين فارسًا، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي قلابة عن أنس بن مالك ﷺ: أن نفرًا من عُكْل، أو عُرَيْنة (سبعة) قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا الأرض، وسقمت أجسامهم، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**ألا تخرجون مع راعينا في إبله، فتصيبوا من أبوالها وألبانها**»، فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها، فصحُّوا، فقتلُوا الراعي، وطردوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم، ونودي: ياخيل اللهِ اركبي، فركبوا، وركب رسول الله على أثرهم، فأدركوهم، فجيء بهم، فأمر بهم، فقُطعت أيديهم وأرجلهم، وسمَرت أعينهم، ثم نُبذوا في الشمس حتى ماتوا[٢].

قال البخاري: حدثنا مسدّد، حدثنا يحيى عن شعبة، حدثنا قتادة عن أنس ﷺ أن ناسًا من عُرينة اجتووا المدينة، فرخص لهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فقتلوا الراعي، واستاقوا الزوْد، فأرسل رسول الله ﷺ فأتى بهم فقطَع أيديهم وأرجلهم، وسمَر أعينهم، وتركهم بالحرَّة يعضون الحجارة. تابعه أبو قلابة وحميد وثابت عن أنس[٣].

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/ ١٨٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٨/ ٢٧٤) و(١٢/ ٢٣٠) برقم (٢٣٣، ٣٠١٨، ٤٦١٠، ٦٨٩٩) و«صحيح مسلم» (٣/ ١٢٩٦) برقم (١٦٧١) وأبو داود (٤/ ٥٣١) برقم (٤٣٦٤، ٤٣٦٧) و«سنن الترمذي» برقم (٧٢، ٢٠٤٢) و«سنن النسائي» (٧/ ٩٧، ٣٠٤، ٤٠٣٩) وفي «الكبرى» (١١١٤٣) وابن ماجه (٢٥٧٨) والبيهقي (٤/ ٨٦) وابن جرير (١٠/ ٢٤٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٣٣، ١٥٠١) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٧١).

ومعنى أنهم اجتووا المدينة أي استوخموا جوَّها وأرضها، وقالوا: نحن أهل ضرع، ولسنا أهل ريف، واستاقوا الزود، أي: سرقوا الإبل، وقد بعث رسول الله ﷺ في طلبهم جرير بن عبد الله البجَلي في خيل، فأدركوهم وقد أشرفوا على بلادهم، فجيء بهم، فأمر بهم، فقُطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِلتْ أعينهم بمسامير أُحْميت، ثم حبسهم حتى ماتوا، وقيل: ألقى بهم في الحرة يستقون، فما يُسقوْن حتى ماتوا، وكان هذا سنة ست من الهجرة، أي: قبل نزول سورة المائدة، وعلى هذا تكون هذه الآية مقررة لحد الحرابة، ناسخة للحدِّ الذي أقامه النبي ﷺ على العرنيين، الذين ارتكبوا جرائم عدة، أرادوا بها التحايل على كيد المسلمين بإظهار الإسلام[١].

وحد الحرابة وقطع الطريق يتعلق بكل من حارب جماعة المسلمين في كل زمان ومكان، وهو غير حد الردة؛ لأن الردة لها جزاء آخر، وليس حد الحرابة جزاء للكفار الذين عاندوا الإسلام وحاربوا الرسول ﷺ، وهؤلاء العرنيين قد ارتكبوا جرائم متعددة: ردة، وقتل، وسرقة، وتمثيل، وهرب.

وفي صحيح مسلم عن أنس ﷺ قال: إنما سَمَل أعينهم؛ لأنهم سمَّلوا أعين الرعاة - بتشديد الميم، أو تخفيفها - والسمَر، والسمَل، بمعنى واحد، والمعنى أنهم كحَّلوا أعينهم بمسامير قد أُحمي عليها، وفيه عقوبة بالمثل قصاصًا.

رُوِي أنهم كانوا أربعة من عُرينة، وثلاثة من عُكْل.

قال ابن جرير: إن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه أنس يخبره أنها نزلت في النفر العرنيين، وهم مِنْ بَجِيلَة، قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام، وفيهم نزلت الآية ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ﴾ قال أبو قلابة: هؤلاء كفروا، وقتلوا وأخذوا الأموال، وحاربوا الله ورسوله.

وقد رَوَى حديث قصة العُرنيين جماعة من الصحابة، منهم جابر وعائشة وسعيد بن جبير وأنس بن مالك وغيرهم، واحتج جمهور العلماء بعموم الآية في المحاربة في الأمصار

---

(١) يُنظَر: تفسير «التحرير والتنوير» لابن عاشور (٦/ ١٨١).

والصحراء والبوادي والقرى وسائر الطرق، فحيثما تحققت إخافة المسلمين، وترويع أمنهم فقد تحقق الوصف.

والآية نص في عدم جواز الخروج على الحاكم المسلم بتكوين عصابة تروِّع الآمنين، وتشهر السلاح في وجوههم، وتعتدي على الأرواح والأموال والأعراض، وتقرر أن الحاكم المسلم هو الذي يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات.

وعند جمهور الفقهاء أن العقوبات التي في الآية مرتبة:

١- فمن قَتل، ولم يأخذ المال قُتل.

٢- ومَن أخذ المال، ولم يقتُل قُطِع.

٣- ومن قَتلَ، وأخذ المال قُتل وصُلب.

٤- ومَن أخاف السبيل، ولم يقتُل ولم يأخذ مالًا نُفِيَ حتى تظهر توبته.

والسجن في معنى النفي، وكذا التغريب والإبعاد، والصلب يكون بشد الجاني على خشبة، ومقدار زمان الصلب بمقدار ما يشهَّر أمره عند الناس ردعًا لهم، وقيل: ثلاثة أيام.

وتقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، فإن لم يتب تقطع اليد اليسرى مع الرجل اليمنى.

وفي الآية عقوبات أربع، هي على الترتيب عند الجمهور، وعند مالك أنها على التخيير، وأن الحاكم مخير في تطبيقها، ويشهد لذلك ظاهر الآية.

ولفظ ﴿أَوْ﴾ في الآية يدل على التخيير، كما في قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال جماعة: إن ﴿أَوْ﴾ في الآية للتقسيم وليست للتخيير، وأن المذكور مراتب للعقوبات بحسب ما يرتكبه المحارب من جنايات، فهي عقوبات في يد القاضي، كالدواء في يد الطبيب، يختار مِنْ أصنافه ما يراه أنجع في العلاج.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: مَنْ شَهَر السلاح في قُبَّة الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظُفِر به وقُدِر عليه، فإمام المسلمين بالخيار، إن شاء قتله، وإن شاء صلبه،

وإن شاء قطع يده ورجله.

وجمهور العلماء على أنه يُقتَل، ثم يصلب نكالًا لغيره، وتقطع اليد من الرسغ، وتقطع الرجل من المفصل.

وذكر الطبري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عن حكم المحارب، فقال: من أخاف السبيل، وأخذ المال، فاقطع يده للأخذ، ورجله للإخافة، ومن قتل فاقتله، ومن جمع ذلك فاصلبه.

ومعنى ذلك أن من ارتكب في حرابته جريمة القتل فإنه يُقتل دون تخيير في ذلك.

في حديث عائشة ﵅ أن النبي ﷺ قال: **«لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زانٍ محصن يُرجم، أو رجل قتَل متعمِّدًا فيُقتل، أو رجل خرج من الإسلام فحارب؛ فيُقتلُ، أو يُصلبُ، أو ينفى من الأرض»**[1].

وقد جاء هذا الحديث بالفاظ متقاربة في الصحيحين وغيرهما من طرق عدة، عن عدد من الصحابة.

قال القرطبي: ولا خلاف بين أهل العلم في أن حكم هذه الآية ثابت في المحاربين من أهل الإسلام، وإن كانت نزلت في المرتدين أو اليهود، فهي تعم كل من ارتكب ما تضمنتْه من حرابة، ومحاربة المسلمين في كل عصر ومصر، محاربة لله والرسول، وسمَّاها الله سبحانه محاربة له، إكبارًا وتعظيمًا لإيذاء المسلم؛ لأن الله سبحانه لا يحارَب ولا يغالَب.

ومحاربة الله لهم تتضمن عقوبتهم على المعاصي ومخالفة الشرائع.

وهذا الجزاء الذي أعده الله للمحاربين، ذُلٌّ لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب شديد إن لم يتوبوا، فعقوبة الكافر في الدنيا لا تُسقط عنه العذاب الأخروي.

---

(١) ينظر صحيح «أبي داود» (٣٦٥٩) وهو في أبي داود (٤٣٥٣) والنسائي (٤٠٥٩). وانظر المسند (٢٤٣٠٤، ٢٥٧٠٠) وهو عند الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٨٠٠) والطبراني في الأوسط (٣٧٧٢) والدار قطني في السنن (٣/ ٨١) والبيهقي في السنن (٨/ ٢٨٣).

والمسلم إذا عوقب بجنايته في الدنيا، العقوبة المقررة له شرعًا، كانت هذه العقوبة كفارة له، فلا يعاقب في الآخرة؛ لأن الله تعالى لا يجمع على عبده عقوبتين، وإن لم يعاقب في الدنيا فهو تحت مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، ولكن لا يدخل في ذلك من مات على الشرك أو الكفر؛ ففي الحديث عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا... فمن وفَّى منكم كله فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له[١].

وعن علي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من أذنب ذنبًا في الدنيا فعُوقب به، فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده»**[٢].

والآية عامة في قُطَّاع الطرق الذين يحاربون النظام الإسلامي القائم للأمة، ويرتكبون جرائم القتل والسرقة أوالتخريب أوالتفجير أوالتحريق والنهب والسلب، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، وسواء أكان ذلك في المدن الكبرى، أو في القرى، أو في المنشآت والهيئات، أو غير ذلك، وإن كان بعضها أفحش من بعض.

وقد عُلم بهذا أنَّ تطهير الأرض من المفسدين وتأمين الطرق، وحفظ الأنفس والأموال العامة والخاصة، من أعظم الحسنات وأجلّ الطاعات والإصلاح في الأرض.

مَتَى تَسْقُطُ العُقُوبَةُ؟

٣٤- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

ثم استثنى الله سبحانه من عموم المعاقَبين بالعقوبات السابقة: التائبين مما ارتكبوه قبل

---

(١) «صحيح مسلم» (٣/١٣٣٣) برقم (١٧٠٩) والبخاري (٨/٦٣٧) بأرقام: (١٨، ٣٨٩٢، ٣٨٩٣، ٦٨٧٣).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١/٩٩) برقم (٧٧٥، ١٣٦٥) بإسناد حسن،والبزار (٤٨٢) والطبراني في الصغير (٤٦)، والترمذي في «السنن» (٥/١٦) برقم (٢٦٢٦) وابن ماجه (٢/٨٦٨) برقم (٢٦٠٤) والدارقطني في «العلل» (٢/١٢٩) وقال: رُوِي مرفوعًا وموقوفًا ورفْعه صحيح.

وقوعهم في يد العدالة، فإذا تاب العبد إلى الله تعالى من غير حصار ولا مطاردة، وَردَّ المظالم إلى أهلها، قبل أن يُرفع الأمر إلى الحاكم، وجاء طائعًا نادمًا؛ فإن الله سبحانه يتوب عليه، ولا يطالب بشيء مما أصاب من دم، أو مال.

أما التوبة بعد القدرة عليه فلا تسقط بها العقوبات فتوبته لا تنفع، وتقام الحدود عليه، إلا إذا عفا عنه أولياء الدم، أو تنازلوا عن حقوقهم.

وإن أسلم الكافر أو المشرك المحارب فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، كما أن التوبة تجُبُّ ما قبلها، وتسقط عنه جميع العقوبات إن آمن وأصلح قبل القدرة عليه، وحقوق الآدميين والقصاص لا تُسقطها التوبة، دون رد المظالم إلى أهلها وإنما حق الله تعالى فقط هو الذي يُتجاوز عنه؛ لأن حقه تعالى مبني على المسامحة.

والحكمة من إسقاط الجريمة والعقوبة: تقدير توبتهم واعتبارها دليل صلاح وهداية، والتشجيع على التوبة، وتوفير المؤنة في عقوبتهم؛ وليكون هذا أدعى إلى الدخول في الإسلام.

ولو آمن المشرك المحارب قبل القدرة عليه لا يُطالب بشيء مما أخذ إجماعًا، وكذا المسلم المحارب، وهذا حكم علي بن أبي طالب في حارثة بن بدر التيمي، من أهل البصرة وكان قد خرج محاربًا وأفسد في الأرض فتاب قبل أن يُقدر عليه، فأمَّنه عليٌّ علَى نفسه[1].

وجاء رجل إلى أبي موسى الأشعري وهو على الكوفة في خلافة عثمان، فقال: هذا مقام العائذ بك، أنا فلان بن فلان، كنت قد حاربت الله ورسوله، وسعيت في الأرض بالفساد، وتُبت قبل أن يُقدَر عليَّ، فخطب أبو موسى في الناس وقال: فلا يتعرض له أحد إلا بخير[2].

والله تعالى غفور لعباده، رحيم بهم، وتأثير التوبة في النجاة من عذاب الآخرة، لا يتقيد بما قبل القدرة عليه، فإن عظُم عليكم سقوط العقوبة عمن تاب قبل أن يُقدر عليه فاعلموا أن الله غفور رحيم.

ذكر الطبريُّ أن عليًّا الأسدي، حارب، وأخاف السبيل، وأصاب الدم والمال، ولم يقدر أحد على الإمساك به، ثم إنه سمع رجلًا يقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]. فقال: يا عبد

(١)، (٢) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٢).

الله، أعدها عليَّ، فأعادها، فوضع الرجل سيفه في غمده، وأقبل على المدينة تائبًا، فوصلها وقت السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح، فلما ظهر النهار عرفه الناس، فقال: لا سبيل لكم عليَّ جئت تائبًا قبل أن تقدروا عليَّ، فأخذ أبو هريرة بيده وأتى به أمير المدينة في زمن معاوية وهو مروان بن الحكم فقال أبو هريرة: هذا عليٌّ، جاء تائبًا، ولا سبيل لكم عليه ولا قتْل، فتُرك في ذلك كله، ثم إنه خرج مجاهدًا لحرب الروم في البحر، فهربوا منه بعد أن اقتحم عليهم سفينتهم، فمالت بهم السفينة فغرقوا جميعًا[1].

النِّدَاءُ السَّادِسُ لِلمُؤْمِنِينَ فِي السُّورَةِ: التَّوَسُّلُ وَالوَسِيلَةُ

٣٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

بدأت الآيات بنبأ ابنَيْ آدم، وثنَّتْ بالعقوبة التي تنخلع لها القلوب في حد الحرابة، ثم ثلَّثتْ بالدعوة إلى تقوى الله تعالى وخشيته والخوف من عقابه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله، وصدقوا ما جاء به محمد ﷺ، واتبعوه فيما أُوحي إليه ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوا الله تعالى، وصونوا أنفسكم عن كل ما لا يُرضيه؛ فإن تقوى الله تعالى هي التي تصاحب الضمير في السر والعلن، وتكف عن الشر في الحالات التي لا يراها الناس، ولا صلاح لمجتمع بلا رقابة غيبية وراءه ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا ما تتوسلون به إلى تحقيق المقصود، وابذلوا الجهد في تلمُّس الأسباب التي توصلكم إلى النجاح والفلاح، فداوموا على فعل الطاعات، وتزوَّدوا بالأعمال الصالحات، واجتنبوا المعاصي والمنكرات.

ثم خص سبحانه من العبادات المقربة إلى الله تعالى، الجهاد في سبيله بالنفس والمال واللسان، والقلم، لنصرة دين الله والدفاع عن حرمات المسلمين، ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ أي: جاهدوا أنفسكم، وجاهدوا أهواءكم وشيطانكم، وجاهدوا أعداءكم.

ورتب سبحانه على جهاد النفس والعدو، الفوز والفلاح في الداريْن فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون بالفلاح، وتسعدون بدخول الجنة، وتنجون من كل مكروه، ففي الآية:

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٢٨٤).

١ - طلب الخوف من الله تعالى بتقواه في ترك المنهيات ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٢ - والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات والعمل بما يرضيه ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾.

وتكليف العباد منحصر في هذين النوعين، ولا ثالث لهما، وهما: فعل المأمورات وترك المنهيات.

٣ - ثم جهاد النفس والعدو طاعة لله وابتغاء مرضاته ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾.

ثم رتب سبحانه على هذه الثلاث: الفوز بالفلاح، وكل محبوب في الدنيا والآخرة.

التوسل والوسيلة

والوسيلة هي التوصل إلى الشيء برغبة، فهي ما يُتوصَّل به، ويُتقرَّب به إلى الله تعالى بفعل الطاعات واجتناب المحرمات.

وحقيقتها: مراعاة سبيل الله تعالى بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الأخلاق، فالمراد بالوسيلة في هذه الآية، هو القربى إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، على وجه ما جاء به محمد ﷺ مع الإخلاص لله تعالى وعدم الإشراك به.

والوسيلة: اسمٌ لأعلى الدرجات في الجنة، وعَلَمٌ على أعلى منزلة فيها، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وأقرب أمكنة الجنة إلى العرش، فالوسيلة لها **معنيان**:

المعنى الأول: المقام المحمود، والدرجة الرفيعة في الجنة، وهذا المعنى خاص بخاتم الرسل ﷺ.

والمعنى الثاني: هو طلب التقرب إلى الله تعالى بما يرضيه.

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، إلا حلَّت له الشفاعة يوم القيامة**»[1].

---

(١) البخاري (٦١٤، ٤٧١٩) وأبو داود (١/٣٦٢) برقم (٥٢٩) وفي «صحيح سنن أبي داود» (٤٩٦) والترمذي (١/٤١٣) برقم (٢١١) وفي «صحيح سنن الترمذي» (١٧٤) وابن ماجه (١/٢٣٩) ورقمه في «صحيح سنن ابن ماجه» (٧٢٢) وجاء مثله عن سعد بن أبي وقاص بزيادة الشهادتين في الأول.

والمقام المحمود، جاء ذكره في قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وهو المعنى الأول للوسيلة كما جاء في الحديث أنها الدرجة العالية الرفيعة.

في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإن مَنْ صلَّى عليَّ صلاة، صلَّى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة»**(١).

وعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيدًا - أو شفيعًا - يوم القيامة»**(٢).

سبب النزول: وفي القرآن الكريم آيتان تتحدثان عن الوسيلة، هذه الآية التي نحن بصددها، والآية الأخرى في سورة الإسراء (٥٦، ٥٧) وقد جاء في سبب نزولهما، عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أن جماعة من العرب كانوا يعبدون الجن، فأسلم الجن، ولم يُعجب الإنس إسلام الجن، وظلُّوا يعبدونهم من دون الله، وهم غير راضين عن عبادتهم لهم، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ والحكم عام في كل من دعا غير الله تعالى، أو توسل إليه بسبب غير مشروع، طلبًا لجلب نفع أو دفع ضر، سواء أكان من الأحياء أم الأموات.

أنواع الوسيلة: والوسيلة بهذا المعنى الثاني هي طلب التقرب إلى الله تعالى، وهذا المعنى من التوسل المشروع على **ثلاثة أنواع:**

---

(١) مسلم (١/٢٨٨) برقم (٣٨٤) وأبو داود (١/٣٥٩) برقم (٥٢٣) وفي «صحيح سنن أبي داود» (٤٩١) والترمذي (١/٤٠٧) برقم (٣٨٧٦) وفي «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٦٠) و«المسند» (٢/٢٦٥)، برقم (٦٥٦٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، كما قال محققوه.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦٥،١٤٨٩) بإسناد حسن، و«المسند» بنحوه عن أبي سعيد (١١٧٨٣) وفيه ابن لهيعة، متكلّم فيه، والحديث السابق يشهد لصحته.

النوع الأول: التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، كأن يقول: يا غفور، اغفر لي، يا رحمن، ارحمني، يا تواب، تب عليَّ، وهكذا كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ [آل عمران].

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بإيمان العبد وطاعته لربه، كما توسل الثلاثة الذين آواهم الغار، وانطبقت عليهم الصخرة، فسأل كل منهم ربه بعمل صالح قدمه، سأل الأول ربه بطاعته وبره لوالديه، وسأل الثاني بحفظ حق الأجير وتنمية ماله له وإعطائه إياه، وسأل الثالث بامتناعه عن الحرام، بعد أن قعد من ابنة عمه التي يحبها مقعد الرجل من المرأة، ففرَّج الله عنهم الصخرة.

فيسأل العبد ربه بصلاته وصيامه وصدقاته أن يهديه أو يشفيه ونحو ذلك، كما يسأله بأسمائه وصفاته أن يفرج كربه ويغفر ذنبه، ونحو ذلك.

النوع الثالث: طلب الدعاء بظهر الغيب من رجل مؤمن صالح حيٍّ، وهو مثل قولهم: لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك.

فالدعاء بظهر الغيب لا سيما من الصالحين، أمر جائز، ينتفع به المؤمن في حياته وبعد مماته:

عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملَك: ولك بمثل»[(١)].

وأخرج مسلم بسنده عن ابن الزبير عن صفوان قال: قدمتُ الشام، فأتيت أبا الدرداء في منزله فلم أجده، ووجدت أم الدرداء، فقالت: أتريد الحج العام؟ فقلت: نعم، قالت: فادع الله لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل»[(٢)].

التوسل الممنوع: أما التوسل الممنوع فهو التوسل إلى الله تعالى بذوات بعض الأحياء أو الأموات، أو طلب الشفاعة والوساطة من الأموات عند قبر أو خلافه، وكذا التوسل

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٣٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٧٣٣).

بجاه النبي ﷺ وحقه ونحو ذلك، فليس للرسول ﷺ جاه عند الله تعالى، وليس للنبي ﷺ حق على الله تعالى، ولا يجوز الإقسام على الله تعالى بأحد من خلقه، فلا ينبغي السؤال بجاه النبي ﷺ، ولا بحقه على الله، ولا بحرمته، ولا بحرمة البيت الحرام، فكل ذلك توسل غير مشروع.

ويدل على عدم جواز التوسل بالأموات مهما كان شأن الميت ولو كان نبيًّا رسولًا.

كما عدَل عمر ﷺ عن التوسل بدعاء النبي ﷺ بعد موته إلى التوسل بدعاء وشفاعة عمه العباس وهو حيٌّ، في قوله: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا - العباس - فاسقنا، وهذا توسل بدعائه لا بذاته.

العَذَابُ المُؤَبَّدُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الكُفْرِ

٣٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

وبعد أن ذكرت الآيات، المؤمنين المتقين الذين يتقربون إلى الله تعالى بفعل الطاعات، وترك المعاصي، ويجاهدون أهواءهم وأعداءهم، ذكرت في مقابل ذلك الكفار الذين ماتوا على كفرهم، ولم يجدوا في الآخرة ما يغني عنهم من الله شيئًا، فيدفع عنهم عذاب الله تعالى؛ لأنهم لم يتقوا الله تعالى في الدنيا ولم يبتغوا إليه الوسيلة، وأقصى ما يتصوره الإنسان أن يمتلك كنوز الدنيا وكل ما في الأرض.

ولو أن الكافر قدَّم ذلك، وقدَّم مثله معه - على سبيل الفرض - لينجوَ من عذاب الله تعالى يوم القيامة ما قبل الله منه ذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: جحدوا وحدانية الله وشريعته ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي: لو أنهم ملكوا الدنيا، ودنيا أخرى، وجاءوا بهما يوم القيامة مملوءتين ذهبًا ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ أي: لم يتقبل منهم ذلك الفداء، ولا نجاة لهم من عذاب الله، وكان قد طُلب منه في الدنيا ألا يشرك بالله شيئًا، وهو شيء يسير، ولكنه لم يفعل، فكان مصيره النار:

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يؤتى بالرجل من أهل النار، فيقول: يا**

بن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقول: هل تفتدي بتراب الأرض ذهبًا؟ قال: فيقول: نعم، يارب! فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار»[1].

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون نجاة الناس من النار يوم القيامة متوقفة على الإيمان والعمل الصالح، لا على الأموال ولا على الأحساب والأنساب. وقد ذكر الله مقولة قوم توهموا ذلك، فقال: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ].

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٤٧].

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ [الرعد: ١٨]. وهكذا فهم:

٣٧- ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

أي: أنهم يحاولون الخروج من النار، ولكنهم يُرغمون على البقاء فيها، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودًا غيرها؛ ليذوقوا العذاب الدائم المتجدد، ولا سبيل لهم إلى الخلاص منه بوجه من الوجوه؛ فهم يتمنون الخروج من النار بقلوبهم، ويحاولون ذلك بأبدانهم دون جدوى، فكلما رفعهم اللهب إلى أعالي جهنم ضربتهم الزبانية بمقامع من حديد، فيردوهم إلى أسفلها، وهذا العذاب خاص بالكفار، كما قال تعالى عن الكافر:

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى].

وقال: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه].

وقال أيضًا: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج].

---

(١) البخاري (١١/ ٤١٥) برقم (٦٥٣٨، ٦٥٥٧) ومسلم (٤/ ٢١٦١) برقم (٢٨٠٥، ٢٨٠٧) والنسائي (٦/ ٣٦).

فالذين ماتوا على الكفر في عذاب مستمر متجدد ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾ [الزخرف].

ويطلب الكفار من مالك خازن النار أن يقضي عليهم ربهم بالموت، أو الحرق في جهنم ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فيجيبهم بعد طول مكث: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨﴾ [الزخرف] وقال سبحانه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: أعطيناكم عمرًا اتعظ فيه من اتعظ، واستمر حياته في الخير من استمر ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ الرسول، أو الشيب نذير الموت ﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وصح في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن: «**أهون أهل النار عذابًا رجل في رجليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه**»[٢] نسأل الله السلامة والعافية.

أما الموحدون من عصاة المؤمنين فإنهم يخرجون من النار بعد عقابهم على قدر عصيانهم، كما في الحديث عن جابر بن عبد الله: «**إن الله تعالى يخرج ناسًا من النار فيدخلهم الجنة**»[١].

وفي يوم القيامة يُلْقي أهل النار باللائمة على من أغووهم وأضلوهم في الدنيا، ويلعن بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

أخرج ابن مردويه وغيره عن طلق بن حبيب قال: كنت من أشد الناس تكذيبًا بالشفاعة، حتى لقيت جابر بن عبد الله، فقرأت عليه كل آية أقدِرُ عليها، يذكُر اللهُ فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلْق، أتُراكَ أقرأ لكتاب الله، وأعلم بسنة رسول الله مني؟ إن الذي قرأتَ هم أهلها، هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوبًا فعُذِّبوا، ثم أُخرِجوا منها، ثم أهوى بيديه إلى أذنيه، فقال: صُمَّتَا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) يُنظَر: «المسند» (٣/ ٣٥٥) و«صحيح مسلم» (١/ ٧٨) برقم (١٩١، ٣١٩، ٣٢٠) والبخاري برقم (٤٤، ٦٥٦٥) بنحوه والمراد بهم عصاة المؤمنين كما جاء في بقية الحديث.

(٢) «المسند» وعن أبي هريرة برقم (٩٥٧٦)و (٩٦٦٠) صحيح لغيره، وإسناده جيد، وأخرجه الدارمي (٢٨٤٨) وابن حبان (٧٤٧٢) والحاكم (٤/ ٥٨٠).

«يخرجون من النار بعد ما دخلوا» ونحن نقرأ كما قرأتَ[١].

وعن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس ﷺ: تزعم أن قومًا يخرجون من النار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ فقال ابن عباس: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذه للكفار[٢].

ومعنى هذا أن عدم الخروج من النار خاص بالكفار، أما الشفاعة فتكون في عصاة المؤمنين، يعذبون في النار بقدر ذنوبهم، ثم يخرجون منها بعد ما دخلوها.

حَدُّ السَّرِقَةِ وَقَبُولُ التَّوْبَةِ مِنَ السَّارِقِ

٣٨- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾

وبعد ذكر حد الحرابة، ومنها أخذ المال جهارًا، وهي محاربة لله ورسوله، وتسمَّى السرقة الكبرى، أعقب ذلك بذكر من يأخذ مال غيره خفية، وتسمى السرقة الصغرى، ويطلق عليهما السارق.

وسمِّي سارقًا؛ لأنه يأخذ الشيء الذي ليس له، في خفاء، ومنه استراق السمع، أي: مستخفيًا.

والسرقة شرعًا: أخذ العاقل البالغ مقدارًا مخصوصًا من مال غيره خفيه، من حرز بمكان أو حافظ، وبدون شبهة.

ولا تقطع يد السارق إلا بعد أن يكفل له المجتمع ضمانات العيش والكفاية، فمن حق كل فرد أن يأكل ويشرب ويلبس ويسكن، ويحصل على هذه الضروريات عن طريق العمل والكسب الحلال، فإذا تعطل الإنسان لعدم وجود العمل، أو لعدم قدرته عليه، أو كان كسبه لا يكفي حاجاته الضرورية، فله الحق في الحصول على هذه الضرورات أو استكمالها من الموسرين القادرين من ورثته وأقاربه، من الزكاة والصدقات، أوالضمانات والتكافل الاجتماعي، وخزينة الدولة، ونحو ذلك.

فإذا تحقق له ما يقيم حياته ويحفظها، فإنه لن يسرق إذن لسد حاجته، وإنما طمعًا في الثراء السريع عن طريق الحرام؛ لأنه سرق وهو مكفيُّ الحاجة.

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٧) وهو في «صحيح الأدب المفرد» (٦٢٩) وفي «شعب الإيمان» للبيهقي (٣٢٣).
(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٤٠٦).

وحد السارق: قطع يده اليمنى من مفصل الكوع، لأنه حدّ اليد عند الإطلاق.

فإن سرق ثانية قُطعت رجله اليسرى من مفصل القدم.

فإن سرق ثالثة قطعت يده اليسرى عند أكثر أهل العلم.

فإن سرق رابعة قطعت رجله اليمنى.

فإن سرق بعد ذلك عُزّر وحُبس حتى تظهر توبته.

وذهب بعض الفقهاء إلى أنه إن سرق الثالثة والرابعة فلا قطع عليه، بل يحبس؛ لما رواه البغوي عن ابن عباس ﷺ أن الرسول ﷺ قال في السارق: **«إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله»**[(١)].

مقدار السرقة الذي تقطع فيه اليد: وجمهور أهل العلم على أن النِّصاب الذي تقطع فيه يد السارق: هو ربع دينار، أو متاع يقدر بربع دينار، والحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان عن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدًا»**[(٢)].

والدينار: اثنا عشر درهمًا.

ولذا: فإن الإمام مالك احتج بقطع يد السارق في ثلاثة دراهم مضروبة خالصة، بما جاء في الصحيحين عن نافع عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قطع في مِجَنٍّ ثَمنُه ثلاثة دراهم[(٣)].

---

(١) وقد صححه الألباني عن أبي هريرة في إرواء الغليل (٢٤٣٨،٢٤٣٤) وهو في تلخيص الحبير والطبراني والدار قطني وفي إسناده الواقدي.

(٢) البخاري (١٢/ ٩٦) برقم (٦٧٨٩، ٦٧٩١) ومسلم (٣/ ١٣١٢) برقم (١٦٨٤).

(٣) البخاري (١٢/ ٩٧) برقم (٦٧٩٧) ومسلم (٣/ ١٣١٣) برقم (١٦٨٦).

والدراهم الثلاثة تعادل ربع دينار، وهو نحو عشرة ريالات سعودية فلا تعارض بينهما.

وكل من سرق ما يعادل ربع الدينار، أو الدراهم الثلاث قُطعت يده بمقتضى عموم الآية، وبحديث ابن عمر وحديث عائشة ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «**اقطعوا في ربع دينار، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك**»[١].

وكان ربع الدينار يومئذ: ثلاثة دراهم، والدينار: اثنا عشر درهمًا.

وفي لفظ النسائي: «**لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المِجَنِّ**»، قيل لعائشة: ما ثمن المِجن؟ قالت: ربع دينار[٢].

ولما كانت يد الإنسان أمينة كانت ثمينة، ولكنها لما خانت هانت، فقطعت في ربع دينار.

واشترط أبو حنيفة أن يبلغ المسروق عشرة دراهم، ودليله أن ثمن المجنِّ في حديث ابن عمر عشرة دراهم على عهد النبي ﷺ، وهذا اختلاف في ثمن المجن.

والصحيح ما عليه الجمهور، وهو قطع يد السارق في ربع دينار للنص الصريح فيه.

اشتراط الحرز فيما يسرق:

ويشترط أن يكون المال المسروق مصونًا ومحفوظًا، ومعنيًّا به في حرز يناسب حاله، وقد يكون الشيء غير محروز، ولكنه معلوم أن صاحبه فلان، فهو في حكم الحرز، لا يجوز التعدي عليه؛ وذلك كثمر الشجر والنخيل، والحيوان الذي يرعى في البادية، ونحو ذلك، فقد جرت العادة أن مثل هذا لا يُحرز، وإنما يكون معلومًا من جيرانه ومن أهل المكان، أنه مِلْك لفلان، فهو في حكم المال المحروز.

واشتراط الحرز من أقوال الفقهاء، ولا دليل عليه من الكتاب أو السُّنَّة، ولم يشترط أهل الظاهر النصاب، ولا الحرز فيما يُسرق، بل قالوا بقطع يد السارق في القليل والكثير، وسواء سرقهُ من حرز، أو غير حرز لعموم الآية.

---

(١) «المسند» (٦/ ٨٠) برقم (٢٤٤٥١٥)، ومسلم (١٦٨٤) و«صحيح سنن النسائي» (٤٥٨١) والنسائي في «الكبرى» (٧٤١٥) والطبراني في «الأوسط» (٢٨٢).

(٢) «سنن النسائي» (٨/ ٨٠) وقد صححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» برقم (٤٥٨٣).

اشتراط عدم وجود شبهة للسارق فيما سرق:

ويشترط كذلك عدم وجود شبهة للسارق في المال، أو المتاع المسروق؛ لقول النبي ﷺ: «**ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم**»(١) فلا قطع فيمن سرق مالًا له فيه شركة، ولا قطع فيما لو سرق الأب من مال ابنه، أو الابن من مال أبيه، أو سرق العبد من مال سيده، ونحو ذلك، فإنه لا قطع فيه لوجود الشبهة.

فحين توجد شبهة من حاجة، أو غيرها فلا يقام عليه الحد؛ لأنه لم يجد ما يقيم أَوَدَه، أو يستر عورته، أو ما يؤويه من الحر والقرّ، ولهذا فإن عمر ﷺ لم يقطع يد السارق عام الرمادة، حين عمت المجاعة، ولم يقطع أيضًا في حالة خاصة، حينما سرق غلمان ابن حاطب بن أبي بلتعة ناقة رجل من مزينة، فبعد أن أمر بقطع أيديهم، تبين له أنهم كانوا جَوْعَى، وأن سيدهم منعهم الطعام، فدرأ عنهم الحد، وغرَّم سيدهم ضعف ثمن الناقة تأديبًا له.

ويشترط في المسروق أن يكون مما يَحِلُّ تملكه، وألا يكون مما يَحرُم تعاطيه؛ كالخمر، والخنزير، وآلات اللهو، فلا تقطع يد السارق في مثل هذا، ويشترط أن يعلم السارق بتحريم السرقة.

بم تثبت السرقة؟

وتثبت السرقة بالإقرار أو البينة والشهادة ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ﴾ يا ولاة الأمر ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ بمقتضى الشرع، اقطعوا يد الذكر إذا سرق، واقطعوا يد الأنثى إذا سرقت، وذلك ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ مجازاة لهما على أخذهما أموال الناس بغير حق ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عقوبة لهما، وزجرًا وتأديبًا لغيرهما؛ كي لا يصنع مثل صنيعهما، والنكال في الأصل هو القيد الشديد وحديدة اللجام ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره ونهيه.

قال الأصمعي: قرأت هذه الآية وإلى جنبي أعرابي، فقلت في نهايتها: والله غفور رحيم، سهوًا، فقال الأعرابي: ليس هذا كلام الله، فتنبهتُ، فقلت: والله عزيز حكيم، فقال: أصبت، هذا كلام الله، فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا، عزَّ فحكَم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

فقد فهم الأعرابي أن مقتضى العزة والحكمة، غير مقتضى المغفرة والرحمة، وأن الله تعالى يضع كل شيء موضعه من كتابه(٢).

---

(١) رواه البيهقي عن علي ﷺ، يُنظَر: «نصب الراية» للزيلعي (٣/ ٣٣) و«تاريخ بغداد» (٩/ ٣٠٣) و«كشف الخفاء» للعجلوني (١/ ٧٣) و«تلخيص الحبير» (٤/ ٥٦).

(٢) «زاد المسير» لابن الجوزي (٢/ ٣٥٤).

وجوب إقامة الحد على الشريف والوضيع

والحدود تقام على القوي والضعيف، والشريف والوضيع؛ فالكل أمام الله سواء، فإذا فرَّق أولو الأمر بين هذا وذاك في إقامة الحدود، فإن هذا نذير شؤم، ومظنة عقوبة عامة.

لا شفاعة في الحدود:

ولا شفاعة في الحدود إذا وصل الأمر إلى القاضي أو ولي الأمر، وهي شفاعة سيئة يقع وزرها على من يشفع فيها.

عن عمرو بن شعيب قال: إن أول حد أقيم في الإسلام لرجل أُتي به رسول الله ﷺ سرق، فشُهِد عليه، فأمر به النبي ﷺ أن يُقطع، فلمَّا حُفَّ الرجل، نُظِر إلى وجه رسول الله ﷺ كأنما سُفِيَ فيه الرَّماد، فقالوا: يا رسول الله، كأنه اشتدَّ عليك قطْعُ هذا! قال: **«وما يمنعني وأنتم أعوان للشيطان على أخيكم»**، قالوا: فأرسِلْه. أي: خلِّ سبيله. قال: **«فهلَّا قبل أن تأتيني به، إن الإمام إذا أُتي بحدٍّ لم ينبغ له أن يُعطِّله»**[1]

لقد سرق شاب في عهد عمر ﷺ، وجيء به إليه، فلما أراد أن يقيم الحد عليه، قالت أمه: اعف عنه يا أمير المؤمنين، فهذه أول مرة، قال عمر: إن الله أكرم من أن يفضح عبده لأول مرة.

وعن عائشة ﷺ أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية، التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يُكلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ قالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فأتى رسول الله ﷺ وكلَّمه فيها، فتلوَّن وجه النبي ﷺ، وقال: **«أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟!»** فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشيُّ قام رسول الله ﷺ فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: **«أما بعد: فإنما أهلك الذين مِنْ قَبلكُم؛ أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعتُ يدها»**، ثم أمر بتلك المرأة التي سَرقت فقُطِعتْ يدُها، قالت عائشة: فحسُنتْ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٣٣١٨).

توبتها بعد وتزوجتْ، وكانت تأتي بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ[(١)]

والشفاعة في الحدود شفاعة سيئة. قال الله تعالى عنها: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

ولمكافحة جريمة السرقة لا بديل عن إقامة الحد الذي شرعه الله تعالى، فقطع يد واحدة في مكان عام، وتسليط الأضواء ووسائل الإعلام عليها كفيل بردع وزجر آلاف الناس ممن تخوّل لهم نفوسهم سرقة أموال الناس أو متاعهم.

واستبدال السجن بهذه العقوبة ونحوه لا يقطع دابر الجريمة، ولا يكبح جماحها؛ فالسجن مدرسة، يتعلم فيها السجناء فنون الجريمة واحترافها، فعقوبة السجن: لا تحول بين السارق والسرقة إلا مدة الحبس، أما عقوبة القطع فإنها تحول بين السارق والسرقة دائمًا، ويده المقطوعة تعلن عن سوابقه، فلا يستطيع أن يخدع الناس، أو يحملهم على الثقة به والتعاون معه، فهو يحمل أثر الجريمة في جسده!! على أن قطع يد السارق كان معمولًا به في الجاهلية قبل الإسلام، ولما جاء الإسلام أقرَّه، كما أقر القسامة والدية وغيرهما.

وأول من قُطعت يده في الجاهلية رجلًا يقال له: (دويك) كان قد سرق كنز الكعبة، فقطَعت قريش يده[(٢)] وقد قضى بذلك الوليد بن المغيرة في الجاهلية فأقره الإسلام.

وأول رجل قطعت يده في الإسلام: الخيارُ بن عدي بن نوفل بن عبد مناف.

وأول امرأة قطعت يدها: المخزومية مُرَّة بنتُ سفيان.

التَّوْبَةُ لَا تُسْقِطُ الحَدَّ بَعْدَ رَفْعِ الأَمْرِ إِلَى القَاضِي

٣٩- ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

يفتح الله سبحانه باب التوبة لمن يريد أن يتوب، على أن يندم وَيكُف عن السرقة، ويعمل صالحًا، ويُصلح ما أفسده، برد ما سرقه إلى ذويه، دون أن يترتب عليه ضرر أكبر،

---

(١) هذا لفظ مسلم (٢/ ١٣١٥) برقم (١٦٨٨) والبخاري (١٢/ ٨٧) برقم (٢٦٤٨) وانظر: (٣٤٧٥، ٦٨٠٠).

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٧).

أو يؤدي إلى فتنة أعظم ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ لنفسه وظلمه لخلق الله بالسرقة ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ برد المسروق إلى صاحبه، وأصلح في جميع أعماله مستقبلًا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ﴾ فيقبل توبته، ويغفر له فيما هو من حقوق الله تعالى، أما أموال الناس، فلا بد من ردها إليهم أو استحلالهم منها عند الجمهور.

والتوبة لا تُسْقِط حكم قطع اليد بعد وصول الأمر إلى القاضي، عند الحنفية والمالكية؛ لعموم الأمر بالقطع.

وقال أكثر الشافعية والحنابلة: إن التوبة تمنع إقامة الحد.

فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ويتجاوز الله عنه فيعفو عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لمن تاب وأناب ﴿رَّحِيمٌ﴾ رحمة عامة بعباده، ومنهم السارق.

ولا بد لهذه التوبة بعد قطع يدالسارق، من الندم، وتَقطُّع القلب حسرة على ما كان منه، والعزم الأكيد على تركه في المستقبل، والإقلاع عن ارتكاب ما فعله في الحال، ورد المال أو المتاع المسروق إلى صاحبه؛ لأن القطع حق الله، والعزم على ترك السرقة حق الآدمي.

وصِدْقُ التائب في توبته، عِلْمُه عند الله تعالى، والله تعالى يتوب على من تاب توبة نصوحًا:

١- عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: سرقت امرأة حُليًا، فجاء الذين سرقتْهم، فقالوا: يا رسول الله، سرقتْنا هذه المرأة، فقال رسول الله ﷺ: **«اقطعوا يدها»** قال: فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة: هل من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك»**، فأنزل الله الآية ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾[1]

وهذه المرأة هي المخزومية وحديثها ثابت في الصحيحن[2] سبق ذكره.

---

(١) ابن جرير الطبري (١٠/ ٢٩٩) و«المسند» (٦٦٥٧) فيه ابن لهيعة، حديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات كما قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٧٦) وأصله في الصحيحين من غير ذكر سبب النزول.

(٢) البخاري (٦٧٨٨) ومسلم (١٦٨٨) وأبو داود (٤٣٧٣) وصححه (٣٦٧٦) وصحيح ابن ماجه (٣٥٤٧) وصحيح النسائي (٤٥٥٢) عن عائشة، واسمها فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عمرو بن مخزوم.

٢- وعن ابن عمر أيضًا: أن امرأة كانت تستعير الحليَّ، ثم تُمسكُه، فقال رسول الله ﷺ: **«لتتب هذه المرأة إلى الله ورسوله، وتردُّ ما تأخذه على القوم»**، ثم قال رسول الله: **«قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها»**[1].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ أُتي بسارق قد سرق شملة، فقال: **«ما إخالُه سرق»**! فقال السارق: بلى يا رسول الله، قال: اذهبوا به فاقطعوه، ثم احسموه، ثم ائتوني به، فقُطع فأُتي به، فقال: **«تب إلى الله»** فقال: تبت إلى الله، فقال: **«تاب الله عليك»**[2].

وهذه الأحاديث تفيد أن التوبة المنصوص عليها في الآية: هي ما تكون بعد إقامة الحد، وبهذا أخذ الحنفية والمالكية وقالوا: إن الأمر بقطع يد السارق في الآية عام، يشمل التائب وغيره.

أما أكثر الشافعية والحنابلة فقد قالوا: إن الآية ﴿فَمَن تَابَ﴾ مخصصة لعموم ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ وقد بينت الأحاديث أن التوبة تجُبُّ ما قبلها، وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وعليه فالتوبة تمنع إقامة الحد.

قلت: وهذا قول وجيه، ما لم يصل الأمر إلى القاضي، فإن رُفع أمر السارق إلى القاضي، وقامت البينة الدالة على صحة الدعوى قُطِعت يده، كما سبق بيانه. قال تعالى:

٤٠- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

ثم يأتي التعقيب على ذكر الجريمة والعقوبة، والتوبة والمغفرة، بأن الله تعالى هو صاحب المشيئة العليا، وهو خالق هذا الكون ومالكه يتصرف فيه كيف يشاء ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد، ويا كل إنسان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالق هذا الكون ومالكه

---

(١) «المسند» (٢/ ٥٥١) بنحوه برقم (٦٣٨٣) حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، وأبو داود (٤/ ٥٣٨) عن عائشة برقم (٤٣٩٥) وكلاهما بسند صحيح، وصحيح أبي داود (٣٦٩٤) و«سنن النسائي» (٨/ ٧٠) و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٣٣٥) وهذا لفظه.

(٢) «سنن الدارقطني» (٣/ ١٠٢) و«المستدرك» (٤/ ٣٨١) وقال الحاكم: هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي، ورواه أبو داود في المراسيل برقم (٢٤٤) وكذا مصنف عبد الرزاق (١٣٥٨٣).

ومدبر أمره، ومُصرِّف أحواله، لا يمتنع عليه شيء، فعال لما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ على كفره ومعصيته ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ إذا تاب إلى الله، ورجع عن فعله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل.

وقدَّم سبحانه العذاب على المغفرة؛ لمناسبة المقام في مقابلة قطع السارق، كما قُدِّم السارق على السارقة؛ لأن السرقة من شأن الرجال غالبًا. كما أن الزنا للمرأة فيه الضلع الأكبر بإغرائها وإغوائها وميولها، وعدم امتناعها، ولذا قُدِّمت الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ [النور: ٢].

الحُكْمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ مُسَارَعَةٌ فِي الكُفْرِ

٤١- ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ[1] ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

كان النبي ﷺ يشتد حزنه على من يُظهر الإيمان ثم يرجع إلى الكفر، فأرشده الله تعالى إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء، وبيّن سبحانه السبب الموجب لعدم الحزن عليهم، فذكر أنهم أحدُ رجليْن:

إما منافق ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾
ولو كان مؤمنًا حقًّا لم يرض بالإسلام بديلًا.

وإما يهودي مقلّد لرؤسائه الذين أعرضوا عنك ويريدون منك أن تحكم لهم بما يوافق أهواءهم، وهؤلاء وصفهم ربنا بقوله ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾.

فهم كالمنافقين السابق ذكرهم ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ من أحبارهم ورؤسائهم ﴿ سَمَّـٰعُونَ

(١) قرأ نافع بضم ياء (لايُحزِنك) وكسر الزاي، مضارع أحزن الرباعي، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حَزَن الثلاثي.

﴿لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وإنما أتــوك لتحكم لهم بتغيير حكم القتل من القصاص إلى الدية، وتغيير حكم الزاني المحصن، بغير الرجم ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي إن حكم لكم بما تريدون فاقبلوا حكمه، وإلا فلا، وهذا من عدم طهارة قلوبهم.

ولا يزال الحديث موصولًا عن إقامة حدود الله تعالى، وتطبيق شرعه سبحانه في أرضه على خلق الله جميعًا؛ ونظرًا لأن اليهود والنصارى ومَنْ سواهم مأمورون جميعًا باتباع الدين الخاتم، وتنفيذ الشرع الذي جاء به محمد ﷺ، ولأن نظام الحكم والتشريع في الإسلام يشمل الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، وأن لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فإن الآيات في هذا الربع من السورة تبدأ بالحديث عن اليهود: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [٤٤].

وتُثَنِّي بالنصارى فتقول في سياق الحديث عن عيسى ﷺ: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [٤٦].

وتثلِّث بالحديث عن محمد ﷺ فتقول: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [٤٨]. وهذا الكتاب ناسخ لما قبله، يُصْلِح الله به كل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

وجميع الكتب التي نزلت من عند الله تعالى، لم تنزل للقراءة والاستماع والاتعاظ فحسب؛ وإنما نزلت أيضًا للحكم بما فيها بين الناس، ولتكون الدستور الإلهي للبشر، كل منها في زمانه ومكانه.

كما قال تعالى عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [٤٤].

وقال عن الإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [٤٧] والحكم بكل منهما ينتهي بانتهاء الرسالة.

وقال سبحانه عن القرآن مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [٤٨].

وكل رسول نزل عليه كتاب له شريعة ومنهاج ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [٤٨].

ودين الله واحد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فالتوحيد عقيدة كل الرسل، أما الشريعة فيكون بينها تفاوت يناسب أطوار حياة البشر من لدن آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والله ﷻ يختم الحديث عن التوراة واليهود المغيرين لحكم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [٤٤]. وفي الآية بعدها: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [٤٥].

ويختم الحديث عن النصارى والإنجيل بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [٤٧].

فالكافرون والظالمون والفاسقون، هم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله سبحانه.

والخطاب في كل هذا لأمة محمد ﷺ يتعلق بتناول أحوال من سبقهم، وأخذ العبرة مما حدث لهم؛ حتى لا تحذو حذوهم.

وعليه: فمن لم يحكم بما أنزل الله من أمة محمد ﷺ فهو كافر وظالم وفاسق.

وأهل العلم يقولون: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

فإن كان الحاكم يعتقد أن حكم الله تعالى غير مناسب لهذا الزمان، فهو كفر أكبر، وظلم أكبر، وفسق أكبر، وكذا إن جحد حكم الله وأنكره، فكل منهما خارج من الملة.

والحاكم الذي يؤمن بالله تعالى بقلبه وقوله، ويعترف بأن حكم الله تعالى أصلح للبشر، ولكن توجد أسباب مانعة من تحكيم شرع الله تعالى فوق إرادته، وفوق إرادة الأمة، تحول دون ذلك، فهذا كفر أصغر، وظلم أصغر، وفسق أصغر، ومع أنه أصغر، فهو أكبر من الكبائر، فإن مات على ذلك فأمره إلى الله تعالى إن كان من أهل التوحيد؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه.

والكلام عن قضية الحكم بما أنزل الله، يستغرق هذا الربع بأكمله من سورة المائدة.

سبب النزول: وقد ورد في سبب نزول آيات الحكم بغير ما أنزل الله، جملة من الأحاديث الصحيحة يشير بعضها إلى تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ في قضية زنى.

وبعضها يشير إلى تحاكمهم إليه ﷺ في قضية دماء.

ولا تعارض في ذلك؛ حيث يقرر العلماء أنه لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة، أو لطائفة من الآيات.

وسوف أكتفي بذكر سببين للنزول، يتعلق الأول بحكم الرجم عند اليهود، ويتعلق الآخر

بحكم الدية عندهم:

السبب الأول: أخرج مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ، فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟**» فقالوا: نفضحُهم ويُجْلَدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتَوْا بالتوراة فنشروها - وكانوا يَلُفُّونها على عمود بشكل إسطواني - فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما، فرأيت الرجل ينْحني على المرأة يَقيها الحجارة[1].

وفي لفظ للبخاري أن النبي ﷺ قال لليهود: «**ما تصنعون بهما**» - أي: بمن زنيا؟ - قالوا: نُسخِّم وجوههما - أي: نسوِّده - ونخزيهما، قال: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]. فجاؤوا، فقالوا لرجل منهم ممن يرضون، أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها، فوضع يده عليه، قال: ارفع يدك، فرفع، فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، ولكنا نتكاتمه بيننا، فأمر بها فرُجما.

وفي صحيح مسلم وغيره عن البراء بن عازب ﷺ قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهوديٍّ مُحمَّمًا مَجْلُودًا، فدعاهم ﷺ فقال: «**هكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟**» قالوا: نعم، فدعا رجلًا من علمائهم، فقال: «**أنشُدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟**» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لما أخبرتك، نجده الرجم، ولكنه كثُر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالَوْا فلْنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه**» فأمر به فرُجم، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: ائتوا محمدًا ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا،

---

(١) «موطأ مالك مع تنوير الحوالك» (٣/ ٣٨) وفي «الموطأ» من رواية أبي يحيى (٢/ ٨١٩) وهو في البخاري (٨/ ٢٢٤) برقم (٣٦٣٥، ٦٨٤١) ومسلم (٣/ ١٣٢٦) برقم (١٦٩٩) وأبو داود (٤٤٤٦) والترمذي (١٤٣٦) وابن ماجه (٢٥٥٦) وعبد الرزاق (١٣٣٣١).

فأنزل الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٤٧]. في الكفار كلها[١].

وقد ذهب اليهود إلى النبي ﷺ ليحكم بينهم باعتباره وليَّ الأمر في البلاد، ولأن قواعد التوراة تقضي بطاعة وُلاة الحكم عليهم. ولذا: فإن حكم الإسلام عليهم وهم في بلاد المسلمين ملزم لهم، ولم يلجؤوا إلى النبي ﷺ؛ ليحكم بينهم تصديقًا له ولدعوته، إلا من آمن منهم.

وقد رجح ابن كثير هذا السبب فقال: والصحيح أنها نزلت في اليهوديّيْن اللذين زنيا، وكانوا قد بدَّلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم . حتى الموت . فحرَّفوا، واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مئة جلدة، والتحميم - أي: تسويد الوجه، والإركاب على حمار مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ قالوا فيما بينهم: تعالَوْا حتى نتحاكم إليه، فإن حكَم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه[٢].

وحُكْمُ النبي ﷺ بما في التوراة في هذه المسألة، ليس من باب المجاملة لليهود، ولكنه بوحي خاص من الله سبحانه.

وسؤالهم عما في التوراة لتقرير ما بأيديهم مما تواطؤوا على كتمانه وتحريفه، فلما اعترفوا بذلك ظهر ضلالهم وتكذيبهم وتحريفهم لكتاب الله تعالى.

وكذلك الشأن في موافقة النبي ﷺ لليهود في صيام يوم عاشوراء، ليس من باب الإكرام لهم أو مجاملتهم، وإنما هو بوحي خاص من الله تعالى في ذلك.

والظاهر أن حكم الرجم، من الجزء الصحيح الباقي في التوراة، وقد رأى اليهود قديمًا تعطيله.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٠٠) و«سنن أبي داود» برقم (٤٤٤٨) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٧٢١٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٥٥٨) وذكره الواحدي والسيوطي في «أسباب النزول».

(٢) تُنظَر رواية أبي هريرة في «المسند» بتحقيق أحمد شاكر رقم (٧٧٤٧) و«سنن أبي داود» برقم (٤٤٥٠) وإسناده ضعيف، و«تفسير الطبري» (١٠/ ٣٠٥). و يشهد له الحديث السابق، فهو صحيح المعنى.

وحكم الرجم في سفر التثنية: أن من تزوج عذراء، فوجدها ثيبًا، ترجم عند باب بيت أبيها، وإذا وجد رجل مضطجعًا مع امرأة ذات بعل يُقْتل الاثنان.

وفيه أيضًا: إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها آخر في المدينة، فاضطجع معها، فَأَخْرِجُوهما كِلَيْهما إلى باب تلك المدينة، وارجُمُوهما بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ، والرجل من أجل أنه أذلَّ امرأة صاحبه، بذلك تنزع الشر من وسطك.

وتسخير اليهود للمرأة في الإغواء والإغراء وتأجيج الشهوات، لخدمة قضاياهم، وقيامها بدور هام في الموساد (من الجاسوسية وخلافها) إنما هو تنفيذ لمخططات الصهاينة في بُرُتُوكُولات حُكَماء صهيون.

ونفوذ اليهود قد سرى لدى الغرب جميعًا بما فيهم النصارى وأضرابهم، والأوربيون في هذا المضمار يقلدون آباءهم الأولين، وإن كان فجورهم قد تجاوز الحدود، فشاع في أرجاء الدنيا فساد عريض؛ حيث أبيح الزنى ما دام بالتراضي، فإن كان على قارعة الطريق، فيُغرَّما مبلغًا يسيرًا جدًّا؛ لأنهما خدشا الحياء العام!! وأباحت أرقى دُوَلهم: اللواط، والسحاق، وسائر ألوان الشذوذ الجنسي، وعَدُّوا ذلك من الحرية الشخصية، وهم بهذا قد أهالوا التراب على شرائع الحدود والقصاص التي جاءت في كتبهم! فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

السبب الثاني: ما جاء عن ابن عباس ﷺ أنها نزلت في أقوام من اليهود قتلوا قتيلًا، وقالوا: تعالوا نتحاكم إلى محمد ﷺ فإن أفتانا بالدية، فخذوا ما قال، وإن حَكَم بالقصاص فلا تسمعوا منه، فدسُّوا إلى رسول الله ﷺ ناسًا من المنافقين؛ لِيخْبُروا لهم رأي الرسول ﷺ فلما جاؤوا إلى النبي ﷺ أخبره الله تعالى بأمرهم، وأنزل الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

وتذكُر بعض الروايات أن الأقوام هم بنو النضير وبنو قريظة[١].

وكان اليهود قد اصطلحوا على تغيير حكم القتل من القصاص إلى الدية، وجعْل عقوبة

---

(١) يُنظَر: الحديث بطوله في «مسند الإمام أحمد» (١/ ٢٤٦) برقم (٢٢١٢) بإسناد حسن وابن جرير عن ابن إسحاق في «تفسير الطبري» (١٠/ ٣٢٦) وأخرجه أبو داود (٣٥٧٦) والطبراني (١٠٧٣٢).

التعزير في جرائم أخرى بدلًا من إقامة الحدود، ولما قدم النبي ﷺ المدينة أرادوا أن يجعلوه حجة لهم عند الله تعالى، فقد أفتاهم بها رسول! أمَّا إنْ حَكَم بما في التوراة لم يأخذوه، ومن هنا كان قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ ومن ذلك ما جاء في شأن الرشوة وإرادة استحلالها منهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [آية: ٤٢].

وعلى كِلَا السببين للنزول، كان المنافقون من المسلمين يُوالون اليهود، ومَن على شاكلتهم، ويُبطنون حبهم.

ومن ثَمَّ يأتي خطاب الله تعالى لنبيه في مقام التشريف والتكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وهم الذين جحدوا نبوتك من المنافقين الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم خاوية منه؛ حيث تظهر آثار الكفر عندهم لأدنى مناسبة وفي كل فرصة، فلا تهتم بموالاتهم، ولا تبال بهم، فإن الله تعالى ناصرك عليهم، وكافيك شرهم، والقرآن لكريم يوضح حالهم، ويكشف سترهم فيقول: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ هؤلاء صنف من البشر، وهم المنافقون الذين كشف الله أمرهم لرسوله ﷺ، وقال له: لا تهتم بهم؛ فهم لن يضروك شيئًا.

أما الصنف الآخر الذي ذكرتْه الآيات، فهم اليهود الذين عيَّنهم الله تعالى ووصفهم بقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي اليهود ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ فلا يحزنك تسرُّع اليهود إلى إنكار نبوتك، فهم يستمعون للكذب من رؤسائهم ويقبلونه، ويقولونه لأحبارهم، محبة لهم ورغبة منهم في الكذب.

أو هم يسمعونك لأجل الكذب عليك، فيقولون: سمعنا منه كذا وكذا مما لم تقلْه، فلا تهتم بهم، ولا يحزنك قولهم.

وهم أيضًا يستجيبون لقوم آخرين لم يحضروا مجلسك فهم ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وهؤلاء الآخرون يبدلون كلام الله من بعد ما عقلوه، ويقولون: إن جاءكم محمد بما يوافق ما بدَّلْناه وحرَّفْناه من أحكام التوراة فاعملوا به، وإن جاءكم منه ما يخالفه، فاحذروا قوله والعمل به، فهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ بتحريف وتغيير أحكام التوراة.

ونص الآية هنا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾، وفي آية أخرى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]. لأن الآية هنا بصدد ذكر طائفة معينة من اليهود، أبطلوا العمل بحكم الرجم الثابت في التوراة، دون تعويض عنه بغيره، وهذا أبلغ وأشد جُرأة في التحريف؛ لأن لفظ ﴿بَعْدِ﴾ يقتضي أن حكم الرجم ثابت مستقر، وأنهم أبطلوا العمل به، مع بقائه قائمًا في التوراة.

أما التحريف الذي في هذه السورة، فهو تغيير كلام التوراة، بكلام آخر عن جهل أو خطأ أو قصد، فكان إبعادًا للكلام عن مواضعه، أي: إزالة للكلام الأصلي، سواء عُوِّض بغيره، أم لم يُعوَّض[1].

ومثل ذلك في الآية الثالثة عشرة من سورة المائدة. وهم الذين ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ أي من تبديل حكم الرجم والدية والرشوة والتحليل والتحريم ﴿فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ أن تقبلوه وتعملوا به.

وهؤلاء الآخرون الذين لم يحضروا مجلس النبي ﷺ، ولم يستمعوا منه، هم أهل خيبر الذين أرسلوا وفدًا إلى بني قريظة؛ ليسألوا النبي ﷺ عن رجل وامرأة من أشراف يهود خيبر، وكانا قد زنيا بعد إحصان، فذهب كعب بن الأشرف ومن معه إلى النبي ﷺ وسألاه، فأوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ أن يجعل (ابن صوريا) حَكَمًا بينه وبينهم، ووصفه الله تعالى له، بأنه: شاب أمرد أبيض أعور، يسكن (فَدَك) فقالوا: نعم، هو أعلم يهودي على وجه الأرض، فجاء (ابن صوريا) وشهد أن حُكْم الزاني المحصن في التوراة هو الرجم حتى الموت، ثم قال للنبي ﷺ: كيف هو في كتابكم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخله فيها كما يدخل المِرْوَدُ في المكحلة وجب عليهما الرجم**»، فقال ابن صوريا: والذي أنزل التوراة على موسى، هكذا أنزل الله في التوراة على موسى.

فقال له النبي ﷺ: «**فما هو أول شيء ترخصتم به من أمر الله؟**» قال: كنا إذا زنى الشريف تركناه، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد، فكثر الزنى في أشرافنا، حتى زنى ابن عم الملك، فلم نرجُمْه، ثم زنى رجل آخر، فأردنا رجمه، فأبى قومه إلا أن نرجم

(١) يُنظَر: تفسير «التحرير والتنوير» (٦/ ٣٠٠).

ابن عم الملك أوَّلًا، فوضعنا الجَلْد والتحميم مكان الرجم، فأمر النبي بالرجل والمرأة اللذين هما من يهود خيبر، فرُجما عند باب المسجد، وقال: «**اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه**»[١].

ثم بيَّن الله تعالى لرسوله ﷺ أن هؤلاء المسارعين في الكفر من المنافقين واليهود، قد سلكوا طريق الفتنة ووقعوا فيها، وليس في استطاعتك أيها الرسول، ولا في استطاعة غيرك دفع الفتنة عنهم، وقد ولجوا فيها فكفروا وضلوا وأضلوا ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ لأنه قد استحب العمى على الهدى، واختار برغبته طريق الضلال، ومن يشأ الله إضلاله فلن تقدر على هدايته ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من دنَس الشرك والكفر، فإن مَن ركب قطار الشر انطلق به، ومن زرع الشوك فلن يجني فاكهة قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وهؤلاء الكفرة: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ ذل وهوان وفضيحة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فلا يحزنك كفرهم، ولا تهتم بشأنهم، فهو أمر مقضيٌّ عليه، ومفروغ منه.

الرِّشْوَةُ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ اليَهُودِ

٤٢- ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ[٢] فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم يكشف الله سبحانه عن رذيلة أخرى من رذائل اليهود، وهي أنهم يجمعون بين سماع الكذب أكل السحت ، في قبول ما يفتريه أحبارهم من الكذب على الله تعالى وتحريف كتابه، و يبالغون في ذلك رغبة منهم في تغيير أحكام الله سبحانه إلى ما هو أسهل؛

---

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (١/ ٤٦٤) و«مسند الحميدي» (٢/ ٥٤١) و«سنن أبي داود» برقم (٤٤٥٢، ٤٤٥٣) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٣٢٨) والمسند (١٨٥٢٥) عن البراء بن عازب وإسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وأوله «مُرّ على رسول الله ﷺ بيهودي..» وهو في صحيح مسلم (١٧٠٠) والنسائي في الكبرى (٧١٢٨) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٠١) وغيرهم.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف العاشر (لِلسُّحْت)، والباقون (لِلسُّحُت) بضم الحاء، وهما لغتان.

يجمعون بين ذلك وبين أكل السحت، وهو الحرام من الرشوة والربا وما إلى ذلك ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ وسماع الكذب بمعنى الاستجابة له، إنهم من قلة دينهم وعقلهم يستجيبون لكل من دعاهم إلى القول الكذب، وأكل السحت هو المال الحرام، فهم يجمعون بين اتباع الكذب وأكل الحرام.

قال قتادة: هذا في حكام اليهود يسمعون الكذب ويقبلون الرشوة.

أي: أن هذه الآية نزلت في حكام اليهود، مثل: كعب بن الأشرف، ونظرائه، فقد كانوا يرتشون، ويقضون لمن رشاهم.

قال الحسن: كان الحاكم إذا أتاه أحدهم برشوة، جعلها في كمه، ثم يريه إياها، ويتكلم بحاجته، فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فيسمع الكذب ويأكل الرشوة، وهي السحت، فيكون قد جمع بين سماع الكذب وأكل الحرام في وقت واحد.

وسميت الرشوة سحتًا؛ لأنها تستأصل دين المرتشي، فمعنى السحت: الاستئصال، يقال: فلان مسحوت المعدة، إذا كان لا يوجد إلا جائعًا؛ لذهاب ما في معدته، فكل ما لا يحل كسبه مسحوت البركة، وكان الحكام من اليهود يأخذون الرشوة على الأحكام، وعلى تحليل الحرام.

وقد حرم الإسلام الرشوة بالإجماع على الحاكم، أي: (القاضي) إذا كانت لإحقاق باطل، أو إبطال حق.

فقد أخرج الترمذي عن أبي هريرة، وأبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٣٦) وقال: حديث حسن صحيح، «جامع الترمذي» بشرح «عارضة الأحوذي» (٦/ ٨١) و«المسند» (٩٠٢٣، ٩٠٣١) قال محققوه حديث صحيح لغيره وإسناده حسن، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٦٦١) وابن حبان في «موارد الظمآن» للهيثمي برقم (١١٩٦) تحقيق محمد حمزة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٤/ ١٠٣) والطبراني في الكبير، ووثق رجاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٩٩) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٩٦٩) وهو في «جامع الأصول» برقم (٧٦٦٥).

قال الحسن: إنما ذلك في الحاكم إذا رشوته؛ ليحق باطلًا أو يبطل حقًّا.

وقال ابن مسعود: من شفع شفاعة؛ ليرد بها حقًّا، أو يدفع بها ظلمًا، فأُهدي بها إليه فقبل، فهو سحت.

فأكْل السحت حرام، سواء أكان عن طريق الرشوة، أم عن أي طريق محرم سواها؛ كالربا، وأكل مال اليتيم، ومهر البغي، وكسب الحجَّام والكاهن، والمقامرة، والظلم...، ونحو ذلك.

وفي الحديث عن أبي بكرة: «**كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به**»[١].

سواء أكان السحت عن طريق الرشوة، أو الربا، أو النصب، أو النهب، أو السلب، أو السرقة، أو غير ذلك.

وقد سئل النبي ﷺ: ما السحت؟ فقال: «**الرشوة في الحكم**»[٢].

ولما قيل له ﷺ: كنا لا نعدُّ السحت إلا الرشوة في الحكم، قال: «**ذلك الكفر**».

فرشوة القاضي محرمة على الراشي والمرتشي والواسطة بينهما.

حكم الرشوة: وقد تكون الرشوة في غير الحكم كأن يرشو الإنسان الحاكم؛ ليدفع عن نفسه ظلمًا، أو لينال حقًّا ثابتًا له، فهذه الرشوة محرمة قطعًا على المرتشي.

وفي تحريمها على المعطي خلاف بين أهل العلم، فقد قيل: لا بأس أن يدفع الرجل من ماله ما يصون به عرضه، وكذا إذا خاف الظلم على نفسه.

قال الحسن: لا بأس أن يدفع الرجل من ماله ما يصون به عرضه[٣].

وقال الشعبي، وجابر بن زيد: لا بأس بأن يصانع الرجل عن نفسه وماله إذا خاف الظلم[٤].

---

(١) من حديث أبي بكرة في «صحيح الجامع» برقم (٤٣٩٥).

(٢) حديث مرسل ورجاله ثقات، كما قال ابن حجر في «الفتح» (٤/ ٤٥٤) ورُوِي مرفوعًا.

(٣) الجصاص في «أحكام القرآن» (٢/ ٤٣٣).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٤٣٤) و«المقنع» لابن قدامة (٣/ ٦١١) والخصاف في «شرح أدب القاضي» (٢/ ٥٥) وابن الأثير في «النهاية» (٢/ ٢٦٢).

وحين قسَّم النبي ﷺ الغنائم في بعض الغزوات أعطى العباس بن مرداس أقل من غيره، فلم يرض العباس، وأنشد شعرًا يتعجب فيه من هذه القسمة، فقال النبي ﷺ: «**اقطعوا لسانه**» فزاده حتى رضى، وقد رخص النبي ﷺ في ذلك؛ ليدفع عن نفسه ما يصون به عرضه[(١)].

وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «**إن الرجل يأتيني فيسألني فأعطيه، فينطلق وما يحمل في حضنه إلا النار**»[(٢)].

فالنبي ﷺ يعطيه وهو يعلم أنه يتأبط نارًا؛ لأنه يسأل، ويأبى الله لرسوله البخل.

فإن جاءك هؤلاء اليهود متحاكمين إليك في قضاياهم، فاقض بينهم بما أنزل الله، أو اتركهم وأعرض عنهم، واعلم أنه لا ضرر عليك منهم إن أهملْتهم فأعرضت عنهم، ولم تقض بينهم فيما احتكموا فيه عليك، فالله حافظك من ضررهم، وناصرك عليهم؛ لأنهم يتحاكمون إليك لطلب الأسهل والأهون عليهم.

ولما كان الحكم بين اليهود بما أنزل الله يشق عليهم، فتشتد عداوتهم ومضارَّتهم للنبي ﷺ أمَّنه الله من ذلك وبيَّن سبحانه عزم اليهود على تحكيم النبي ﷺ في حكم الزنى قبل أن يأتوا إليه، وهذا من دلائل النبوة حيث خيَّره ربه في الحكم بينهم، أو الإعراض عنهم، وهكذا كل حاكم مسلم فقال تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ فالله حافظك وعاصمك منهم، وهذا الحكم كان في شأن الرجم كما سبق بيانه، وهو قول الحسن ومجاهد والسدي.

والحكم عام يتناول تحريم الكذب، وأكل السحت والرشوة في الحكم في كل زمان ومكان، فالآية محكمة على الأصح، وليست منسوخة، بمعنى أن النبي ﷺ مخير بين أن يحكم بينهم، أو يعرض عن الحكم بينهم، بسبب أن اليهود لا يقصدون الحكم الشرعي

(١) يُنظَر: ابن عابدين في «رد المحتار» (٥/ ٢٧٢) والجصاص في الموضع السابق، والحديث مرسل، وضعفه العجلوني في كشف الخفا برقم (٤٨٤).

(٢) أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٩٤) رجال أحمد رجال الصحيح، ووثق رجال أبي يعلى وهو في «جامع الأصول» برقم (٧٦٤٢) وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (٣٣٩٢) قال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

الصحيح، وإنما يريدون ما يوافق أهواءهم، فإنْ حَكَم بينهم، وجب أن يحكم بالقسط.

وعليه: فإنَّ كل مُسْتفْتٍ إن عُلم من حاله أنه لن يقبل حكم الله إنْ حَكَم له به، لا يلزم الإفتاء له.

وعلى هذا فالمعنيّ بهذا التخيير هم المستأمنون في دار الإسلام:

قال قتادة: نزلت الآية في رجلين من بني قريظة وبني النضير، قتل أحدهما الآخر، وكان (حيي بن أخطب) قد جعل للنضيري ديتين، وللقرظي دية واحدة؛ لأنه كان من بني النضير، فقالت قريظة: لا نرضى بحكم (حَيِي) ونتحاكم إلى محمد ﷺ فأنزل الله تعالى يخيِّر رسوله في الحكم بينهم[1].

ثم بيَّن الله تعالى لنبيه ﷺ كيفية الحكم بينهم في قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فالآية الأولى للتخيير، والآية الثانية (٤٩)؛ لبيان كيفية الحكم.

وهذا التخيير بين الحكم أو تركه، خاص بالمعاهدين المستأمنين في دار الإسلام من غير أهل الذمة، كبني النضير وبني قريظة الذين كانوا في المدينة، فللحاكم المسلم أن يتركهم، أو يحكم بينهم بما أنزل الله، وحكمه فيهم نافذ؛ لأن اليهود حكَّموا النبي ﷺ في بعض قضاياهم ونُفِّذ فيهم حكم الله على لسان نبيه فهذا التخيير خاص بغير أهل الذمة من غير المسلمين المعاهدين المستأمنين على الأصح.

أما إذا تحاكم مسلم وذمِّيٌّ إلى القاضي، فإنه لا خلاف في وجوب الحكم بينهم؛ لأنه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمة، ولأن أهل الذمة لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

وأهل الذمة محمولون على أحكام الإسلام في البيوع والمواريث وسائر العقود، ولا يجوز لحاكم أن يحكم فيهم بغير أحكام الإسلام؛ إذ لا فرق بين المسلمين وغيرهم في دار الإسلام.

أما عبادات أهل الكتاب، وأحكام الحلال والحرام، وما يجري بينهم من معاملات يرتضونها، فلا يتعرض لهم المسلمون في ذلك، ويجري عليهم أحكام الإسلام فيما فيه

---

(١) تفسير «الخازن» (١/٤٦٦) وهو في «سنن أبي داود» برقم (٤٤٩٤) و«سنن النسائي» (٨/١٨) وابن حبان (٥٠٥٧) و«المستدرك» (٤/٣٦٦) وابن أبي حاتم (٥٩) وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» برقم (٣٧٤٠).

اعتداء على نفوس الآخرين وأعراضهم. والحكم في جميع الأحوال يجب أن يكون بالعدل والإنصاف، كما أمر الله بذلك نبيه فقال: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وهم العادلون فيما ولّاهم الله تعالى، والعادلون في حكمهم بين الناس.

في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا**»[1]

وهذا من أحاديث الصفات التي نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل، وقوله: «**وكلتا يديه يمين**» ليس المراد باليمين الجارحة، فهذا مستحيل في حق الله تعالى.

اليَهُودُ يَكْتُمُونَ أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ

٤٣- ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

ثم أنكر ﷻ مسلك اليهود الخبيث، وعَجِب من صنيعهم؛ إذ كيف يتركون حكم الله تعالى الذي في التوراة مع اعتقادهم بصحته، ويعدلون عنه إلى حكم النبي ﷺ طلبًا للرخصة والأيسر، ورغبة منهم في ميله لأهوائهم واتباع شهواتهم، مع أنهم يجحدون نبوته؟! فلا يؤمنون به، ولا بكتابه ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ على الزاني المحصن بالرجم، وهم يعلمون ذلك، وجمعوا بين عدم الرضا بشرعهم وبحكمك؛ كما قال تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور]. ثم إنهم قدأ عرضوا عنك وتولوا، ولم يقبلوا حكمك، لأن الحكم لم يوافق أهواءهم ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ وهم بذلك قد جمعوا بين الكفربشريعتهم، والإعراض عن حكمك، ولو أنهم كانوا عاملين بما في التوراة، لم يتركوا حكم الله فيها، ويبحثوا عندك عما يوافق أهواءهم.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٢٧) جـ٣ ص(١٤٥٧) والمسند (٦٤٩٢، ٦٤٨٥، ٦٨٩٧) إسناده صحيح على شرط الشيخين، والحميدي (٥٨٨) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٢٧) وابن حبان (٤٤٨٤) والبغوي (٢٤٧٠) والنسائي (٨/ ٢٢١).

ولذا: فقد سلب الله عنهم وصف الإيمان بالله تعالى وبما أنزل إليهم على لسان موسى عليه السلام، وبما حكمْتَ به وفق شرع الله تعالى، لأنهم لم يرضوا به بل أعرضوا عنك فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم غير مؤمنين بك ولا بكتابك، ولا مؤمنين بكتابهم وشرعهم، وقد أظهر الله جهلهم وعنادهم، وأرجعهم إلى حكم الرسول الموافق لكتابهم، وذلك حتى لا يغترَّ مغترٌّ بأنهم أهل كتاب محافظين على أمر الله فيه، وفي هذا تقريع وتوبيخ لليهود، لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم.

وُجُوبُ الحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

٤٤- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ[١] ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ[٢] وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ثم شرع ﷻ في بيان شرف التوراة ومنزلتها بعد أن بيَّن أنها مشتملة على حكم حد الزنى وغيره، وهي التي أعرضوا عن حكم الله فيها، وبيَّن سبحانه بعض ما فيها من أحكام، قبل أن تمتد إليها أياديهم الآثمة بالتحريف والتبديل، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ على موسى بن عمران عليه السلام، وهي كتاب الله الذي جاء لهداية بني إسرائيل ﴿فِيهَا هُدًى﴾ إرشاد من الضلالة، وهداية إلى الإيمان والحق، مبينة لصحة نبوة محمد ﷺ، ومبينة لما تحاكموا فيه، وفيها نور كاشف للشبهات، وموضح للمشكلات، يستضاء به في ظلمات الجهل والشكوك، والشبهات والشهوات، وفيها إنارة الطريق إلى الله، بما تحمل من عقيدة التوحيد، والشعائر التعبدية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقد حكم بها النبيون الذين انقادوا لحكم الله، وأقروا به، ولم يخرجوا عن حكمها،

---

(١) قرأ نافع (النبيئون) بهمزة بعد الياء المدية، وقرأ الباقون بياء مشددة، وبدون همز.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء من (واخشوني) وصلًا ووقفًا، ووافقه أبو عمرو وأبو جعفر وصلًا فقط، وقرأ بقية القراء العشرة بحذفها في الحالين.

وهم صفوة الله من العباد، فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام قد اقتدَوْا بها وعملوا بما فيها، فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود أن يقتدوا بها؟ وما الذي جعلهم يكفرون بما جاء فيها من صفات محمد ﷺ؟ إنه الضلال البيّن والكفر والجحود.

والمراد بالنبيين: الذين بُعثوا بعد موسى عليه السلام، وذلك أن الله تعالى بعث في بني إسرائيل ألوفًا من الأنبياء، وليس معهم كتاب، وإنما بُعِثوا بإقامة التوراة وأحكامها، وهم في بني إسرائيل كالعلماء العاملين المبلِّغين عن الله دعوته، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من أمة محمد ﷺ.

وأيضًا فإن خاتم الرسل ﷺ حكم بينهم في قضية الرجم والدية بما في التوراة.

وشريعة عيسى عليه السلام كانت تعتمد على ما في التوراة من أحكام وشرائع.

وقد سماهم الله (مسلمين)؛ لأنهم انقادوا جميعًا لأمر الله تعالى وحكمه، فقال: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي: يحكم هؤلاء الأنبياء المسلمون، بما في التوراة لليهود، ولا يخرجون عنها، ولا يبدِّلونها ولا يحرِّفونها، وفي هذا مدح وثناء لهم، وفيه أيضًا تعريض بذم اليهود؛ لأنهم ابتعدوا عن الإسلام الذي هو دين الله للخلق جميعًا، وفيه رد على اليهود والنصارى بأن أنبياءهم لم يكونوا موصوفين باليهودية ولا النصرانية، بل كانوا مسلمين موحدين منقادين لله تعالى في أوامره ونواهيه.

ويحكم بما في التوراة أيضًا عُبَّاد اليهود وفقهاؤهم، الذين يربُّون الناس بشرع الله؛ لأن أنبياءهم قد استأمنوهم على تبليغ التوراة، وفقه كتاب الله تعالى والعمل به.

﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ هم العُبَّاد العاملون بما في التوراة، الذين يربّون الناس أحسن تربية ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقون.

﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ هم العلماء الكبار، الذين يُقتدى بأقوالهم، ولهم لسان صدق بين أممهم.

وعلماء اليهود وعبَّادهم يحكمون ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما استودعهم الله إياه، واستأمنهم عليه من التوراة، وقد وكَل حفظه إليهم، وجعلهم أمناء عليه، فلا ينسوا ما حفظوه في صدورهم، ودرسوه بألسنتهم، ولا يضيِّعوا أحكامه، ولا يهملوا شرائعه، وأوجب عليهم حِفْظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه.

سئل إسماعيل بن إسحاق بن حمَّاد: لِمَ جاز التبديل على أهل التوراة - أي: التحريف والتغيير - ولم يجُز على أهل القرآن؟ فقال: لأن الله تعالى قال في أهل التوراة: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فوكل الحفظ إليهم، وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]. فتعهد الله بحفظه، فلم يجز التبديل على أهل القرآن[1].

قال الفخر الرازي: وحفظ كتاب الله على وجهين:

الأول: أن يُحفظ فلا يُنسى. **والثاني**: أن يُحفظ فلا يُضيَّع.

وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من وجهين:

أحدهما: أن يحفظوه في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم.

وثانيهما: ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه.

والتوراة التي أثنى الله تعالى عليها هي التوراة الأصلية التي لم تمتد إليها أيدي اليهود بالتحريف والتبديل، والزيادة والنقص، وكان هؤلاء الأحبار والرهبان شهداء على أن أنبياءهم قد حكموا بينهم بكتاب الله، وهذا قول الله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ فالأحبار هم الفقهاء أو العلماء منهم، وهم مقدَّمون على الرهبان، وهم العُبَّاد من اليهود فلا تكونوا - أيها الربانيون والأحبار - كالجهال الذين يقتصرون على مجرد العبادات لأنكم مطالبون بتعليم الناس وتنبيههم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم.

﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ - أيها الأحبار والرهبان - في تنفيذ حكمي؛ فإنهم لن يقدروا على نفعكم أو ضُركم ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ وحدي فأنا النافع الضار، فلا تخشوا أحدًا غيري، ولا يمنعكم خوف الناس وخشيتهم من القيام بما يجب عليكم.

ولا تأخذوا رشوة أو عرَضًا من أعراض الدنيا على ترك الحكم بما أنزل الله ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عوضًا حقيرًا من أجْل الطمع في المال والجاه، تستبدلونه بحكم الله تعالى، وتغيرون آياته أو تبدلونها، فتؤثرون الدنيا على الدين، فليس هناك أبشع من تفريط المستحفَظ، ولا أشنع من خيانة المستأمن، ولا أخسَّ من تدليس المستشهَد.

---

(١) تفسير «التحرير والتنوير» (٦/ ٢٠٩).

وفي هذا نهي عن جميع المكاسب الخبيثة، ونهي عن التحايل بالعلم لشراء الدنيا بالدين، وهو حكم عام يتناول علماء اليهود كما يتناول علماء هذه الأمة ومن سبقهم ولحق بهم.

والذين بدَّلوا حكم الله تعالى الذي أنزله في كتابه، وكتموه وجحدوه، وحكموا بغيره واعتقدوا حله، وهم كفار خارجون من الملة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: هم المتصفون بالكفر من قبل، فإذا لم يحكموا بما أنزل الله، فذلك من آثار كفرهم؛ لأن من يرفض حكم الله تعالى يرفض خصائص الألوهية، وهذا كفر محض، وهذه الجملة من الآية معقبة على رفض اليهود لحكم الله تعالى، وذِكرُ هذا في القرآن خطاب موجه لأمة محمد ﷺ؛ كي يأخذوا العبرة المستفادة من هذا الدرس، بأن من لم يرض بحكم الله في كل زمان ومكان فهو كافر بما أنزل الله.

صح عن ابن عباس رضي الله عنه أن قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و(الظالمون) و(الفاسقون) نزل في طائفتين من اليهود هما قريظة والنضير، قهرت إحداهما الأخرى في الجاهلية، واصطلحوا على أن دية القتيل في الطائفة المغلوبة وهي بنو قريظة على النصف من الطائفة الغالبة وهي بنو النضير، فلما بُعث محمد ﷺ احتجت الطائفة المغلوبة على عدم التسوية بينهما في الدية، وكادت الحرب تنشب بينهما، ثم ارتضوا التحاكم إلى النبي ﷺ فدسَّت الطائفة الغالبة ناسًا من المنافقين؛ كي يختبروا رأي محمد ﷺ في هذا، فإن كان في صالحهم قبلوا، وإلا رفضوا، فأخبر الله رسوله بما كان من أمرهم، وأنزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى آخر هذه الآيات الثلاث التي وصفتهم بالكفر والفسق والظلم، ثم قال: فيهم والله نزلت، وإيَّاهم عَنَى الله[1].

وقد حكم النبي ﷺ برجم الزاني، ولكنهم لم يقبلوا حكم الله الذي أنزله على محمد ﷺ، والذي أنزله على موسى عليه السلام من قبل، فغيروه واستبدلوا به التحميم والجلد.

وقد رأى النبي ﷺ يهوديًّا محمَّمًا مجلودًا، فدعا أكبر علمائهم وقال له: «يا بن

(١) يُنظَر «المسند» (٢٢١٢) بإسناد حسن، فيه عبدالرحمن بن أبي الزناد، صدوق، حسن الحديث وباقي رجاله ثقات، (محققوه) والطبري (٨/ ٤٦١) والطبراني (١٠٧٣٢) وجاء مختصرًا في «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٥٣)، وفي سننه (٣٥٧٦).

صوريا، أنشدُك الله وأُذكِّرك أيامه عند بني إسرائيل، هل تعلم أن حكم الله فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم في التوراة؟» فقال: اللهم نعم، أما والله يا أبا القاسم، إنهم ليعرفون أنك نبي مرسل، ولكنهم يحسدونك فخرج رسول الله ﷺ فأمر بالزانيين اليهوديين فرُجِما عند باب مسجده، ثم كفر ابن صوريا بعد ذلك، وجحد نبوة محمد ﷺ فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ الآية[١].

وكان اليهود قد قالوا: إن أفتاكم محمد بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروه[٢].

ولما أتوْا بالتوراة ونشروها بين يدي النبي ﷺ وضع أحدهم يده على آية الرجم، وقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا بآية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما[٣]، وعُلم بهذا تغيير اليهود لأحكام الله وتحريفهم لها.

والخلاصة في هذا: أن من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا له، وهو يعلم أن الله أنزله - كما فعلت اليهود - فهو كافر كفرًا مخرجًا من الملة، وأن ما نزل على بني إسرائيل ونزل علينا، فهو لنا ولهم.

ومن لم يحكم به ميلًا إلى الهوى من غير جحود، وكان مقرًّا به، وبأنه أصلح للبشر، ولكنه لم يحكم به لسبب أو لآخر، فهو ظالم وفاسق.

والآية عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله معتقدًا عدم صلاحيته ومستحلًّا له، فهو كافر كفرًا أكبر من المسلمين واليهود والنصارى أثناء قيام رسالة كل منهما، أما من فعل ذلك وهو معتقد أنه مرتكب محرَّمًا، ومخالف لأمر الله تعالى، فهو من فسَّاق المسلمين، وأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، وهذا ما يسمى بكفر دون كفر، أي: لا يخرج من الملة، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، أي: أنه كفر أصغر، وظلم أصغر، وفسق أصغر، وهو أكبر من كبائر الذنوب.

ويشهد لهذا ما جاء في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب، قال: أنزل الله تبارك

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٦٤) وابن جرير (٨/ ٤١٤) والبيهقي (٨/ ٢٤٦).

(٢) كما جاء في «صحيح مسلم» (١٧٠٠) و«المسند» (١٨٥٦٢) مختصرا، وغيرهما عن البراء بن عازب.

(٣) يُنظَر: البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩) عن ابن عمر.

وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ في الكفار كلها.

وعن ابن عباس ﷺ: أنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، إنه ليس كفرًا ينقل عن الملة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ كفر دون كفر[١].

أي إذا لم يكن معتقدا حله وجوازه.

وهذه الآية تتضمن أن من يترك الحكم بصحيح التوراة فهو كافر، وتتضمن أن كل من يترك الحكم بما أنزله الله على الرسل جميعًا فهو كافر، إن ترك ذلك جحودًا له أو استخفافًا به، أو طعنًا في صحته وثبوته، وأعظم من ذلك إلزام الناس بالحكم بغير ما أنزل الله من قبل وُلاة الأمور، أما من لم يرضَ بحكم الله تعالى فهو كافر لا محالة.

أَحْكَام القِصَاصِ فِي التَّوْرَاةِ

٤٥- ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ[٢] قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

ثم شرعت السورة في ذكر بعضٍ من شريعة التوراة التي يحكم بها النبيون والربانيون والأحبار لليهود، وجاء التمثيل بالقصاص، إشارة إلى مخالفتهم لهذا الحكم عمدًا وعنادًا؛ حيث كانوا لا يعدلون في الدية، فالمقتول من بني النضير له دية كاملة، والمقتول من بني قريظة له نصف الدية، فغيَّروا بهذا حكم الله الذي أنزله في التوراة على موسى عليه السلام، كما بدَّلوا عقوبة الزاني المحصن من الرجم إلى الجلد والتحميم.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٣) من طريق سفيان بن عُيينة، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

(٢) قرأ الكسائي برفع الكلمات الخمس على الاستئناف وهي (العين والأنف والأذن والسن والجروح) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر، بنصب الكلمات الأربع الأول ورفع الجروح قطعًا لها عما قبلها، وقرأ الباقون بالنصب في الكلمات الخمس عطفًا على اسم إن، وسكن نافع الذال من (والأذن بالأذن).

فبين ﷻ أنه فرض على بني إسرائيل في التوراة أن النفس تُقتَل بالنفس، والعين تُفقأ بالعين، والأنف يجدع بالأنف، والأذن تقطع بالأذن، والسن تقلع بالسن ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾.

فما بال اليهود يفضلون بعض القبائل على بعض، فيقتلون النفْسَيْن بالنفْس، ويفقؤون العيْنين بالعين، وقتل النفس بالنفس يكون عند تكافؤ الدماء.

والاقتصار على ذكر النفس والعين والأذن والسن، دون غيرها من أعضاء الجسد، كاليد والرجل والإصبع؛ لأن القصاص يكون بقطع الرقبة وهذه الأعضاء تتصل بها دون غيرها، ولأن الوجه هو الذي يقابل المعتدي.

وقد صح من حديث علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا يُقتَل مسلم بكافر»**[1].

وفي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ **«لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده»**[2]

والمراد الكافر المحارب فهو تخصيص من العموم وفي الحديث: عن عبدالله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»**[3].

واستدل أبو حنيفة بعموم الآية على أن المسلم يقتل بالذمي، والحر يقتل بالعبد، والرجل يقتل بالمرأة، ويشهد له قول النبي ﷺ في سياق الحديث عن القصاص: **«إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»**[4].

وكان ذلك في قصة جارية كَسَرَتْ سِنَّها الرُّبيع بنت النضر، حين لطمتْها على وجهها، فأبى أهلها إلا القصاص، فحملهم الرسول ﷺ عليه، ثم عفَوْا عنها.

---

(١) البخاري (١٢/ ٢٦٠) برقم (٦٩٠٣) ومسلم (١٣٧٠) والمسند (٥٩٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) المسند (٦٧٩٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) ومثله (٦٧٩٠، ٦٧٨٦).

(٣) حديث صحيح بإسناد حسن، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، (محققو المسند) برقم (٦٧٩٧) وأخرجه أبو داود (٤/ ٦٧٠) برقم (٢٧٥١، ٤٥٣١) ورواه أيضًا عن علي، النسائي (٨/ ٢٤) برقم (٤٧٣٤) والطيالسي (٢٢٥٨) ورواه من طريق قتادة (١/ ١٢٢) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٦٨٣) عن ابن عباس.

(٤) يُنظَر: البخاري (١٢/ ٢٢٣) برقم (٦٨٩٤) ومسلم (٣/ ١٣٠٢) برقم (١٦٧٥) و«المسند» (٣/ ١٢٨) برقم (١٢٣٠٢، ١٢٧٠٤، ١٤٠٢٨) عن أنس ﷺ.

وتخصيص عدم قتل المسلم بالكافر لصحة الدليل، ولا ينبغي ما عداه.

قال الشيخ الشنقيطي: واعلم أن آيات القصاص في النفس فيها إجمال بينته السُّنَّة، وحاصل تحرير المقام فيها: أن الذَّكَر الحر المسلم يُقتَل بالذكر الحر المسلم إجماعًا وأن المرأة تقتل بالمرأة إجماعًا، وأن العبد يقتل بالعبد إجماعًا؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وأن المرأة تقتل بالرجل؛ لأنها إذا قُتِلتْ بالمرأة، فقتلُها بالرجل أولى، وأن الرجل يقتل بالمرأة عند جمهور العلماء فيها[١].

ومن الأدلة على أن الرجل يُقتَل بالمرأة ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ رضَّ رأس يهودي بالحجارة، قصاصًا بجارية فعل بها ذلك[٢].

وفي كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم أن الرجل يُقتَل بالمرأة[٣].

وفي الحديث الصحيح عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**[٤].

وبعد أن خصصت الآية هذه الأربعة بالذكر، وهي: (النفس والعين والسن والأذن) جاء التعميم في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ بمعنى أنه يقتص في الجروح فيما يمكن أن يقتص منه؛ كاليد، والرِّجل والذَّكر والأنثيين ونحوها، أما ما لا يمكن القصاص فيه، ففيه الأرش والقضاء، وذلك ككسر عظم، أو رضٍّ في لحم، أو جرح في الجسم، ونحو ذلك، بأن يُفعل فيه كما فَعل: حدًّا وموضعًا وطولًا وعرضًا وعمقًا.

وهذه الأحكام كانت مشروعة في التوراة، وهي مشروعة كذلك في القرآن، والذي عليه الجمهور أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، إذا حكاه القرآن مقررًا له، والتعبد

---

(١) «أضواء البيان» (٢/ ٥٩).

(٢) يُنظَر: البخاري (٢٤١٣، ٦٨٨٥) ومسلم (١٦٧٢) و«صحيح سنن النسائي» (٤٤١٥-٤٤١٧) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٦٥) و«إرواء الغليل» (١٢٥٢).

(٣) وهو حديث مرسل رواه النسائي (٨/ ٥٨) وغيره.

(٤) البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦).

بهذا من طريق الوحي الذي جاء على محمد ﷺ لا من جهة كتب أهل الكتاب؛ لِمَا اعتراها من تحريف، والوحي المقصود هو إيراد الحكم، وتقريره في القرآن على سبيل الحكاية.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي بالقصاص في النفس ومادونها من الأطراف والجروح بأن عفى عمن جنى بعد ثبوت الحق له ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ للمجني عليه لأنه عفى عمن جنى عليه، وقد أضافها الإسلام إلى ما جاء في التوراة، فهي حكم آخر.

والمعنى: فمن تجاوز عن حقه في القصاص من المعتدي، فذلك كفارة لبعض ذنوب المعتدَى عليه، وإزالة لها، وهذا على أساس أن الضمير، وهو (الهاء) من (له) يعود على المجروح المجنيِّ عليه وولي الدم. **هذا هو القول الأول**.

قال أبوالدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من مسلم يصاب بشيء من جسده، فيتصدق به، إلا رفعه الله به درجة، وحطَّ عنه به خطيئة»** قال الأنصاري الذي كسَر سنُّه رجل من قريش، واستعدى عليه معاوية: أأنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، سمعتْه أذناي، ووعاه قلبي، فعفا عنه[1].

والقول الثاني: أن الضمير من (له) يعود على الجارح والقاتل، وهو الجاني، بمعنى: أن المجني عليه إذا عفا عن الجاني كان هذا العفو كفارة لذنب الجاني، لا يؤاخذ به في الآخرة، والأول أرجح.

والتصدق من ولي الدم، قد يكون بالعفو عن القَود، وقد يكون بقبول الدية مكان القَود، أو بالتنازل عن الدم والدية معًا؛ إذ العفو والعقوبة متروكان له، ويبقى للحاكم تعزير القاتل بما يراه.

في حديث عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من رجل يخرج في جسده جُرحة، فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به»**.

---

(١) يُنظَر: «المسند» (٦/ ٤٤٨) برقم (٢٧٥٣٤) وفي سنده مقال، والمرفوع منه صحيح لغيره (محققوه) وهو عند الترمذي برقم (١٣٩٣) وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه مختصرا برقم (٢٦٩٣) و«تفسير الطبري» (١٠/ ٣٦٤) والبيهقي في السنن (٨/ ٥٥).

وفي لفظ: «**من تصدق بجسده بشيء كفر الله عنه بقدر ذلك من ذنوبه**»[١].

ويأتي التعقيب على ترك الحكم بما في التوراة بقول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ومن لم يحكم بما أنزل الله في القصاص وغيره، فأولئك هم المتجاوزون حدود الله، الظالمون لأنفسهم بالحكم بغير ما أنزل الله في شريعة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا وصف آخر يفيد أن من حكم بغير ما أنزل الله يكون قد أورد نفسه موارد التهلكة، وأفسد حياة الناس، وكان ظالمًا لها بذلك، بالإضافة إلى الوصف السابق، الذي هو الكفر؛ لتعدِّيه على خصائص الألوهية.

شَرِيعَةُ النَّصَارَى

٤٦- ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ[٢] وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وكما جاء الحديث عن التوراة في آيتين، ثنَّى في أثره بالحديث عن الإنجيل في آيتين أيضا، فقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: وأتبعنا أنبياء بني إسرائيل الذين أسلموا كموسى وهارون وداود وسليمان بعيسى ابن مريم، جاء في عقبهم واقتفى أثرهم، واعتمدت رسالة عيسى كثيرًا من التشريعات التي أتى بها موسى، ولم يتضمن الإنجيل إلا بعض التغيير فيها، مما جعله الله تعالى عقوبة لليهود بسبب ظلمهم، ثم رفعه عمن جاء بعدهم، فكان عيسى عليه السلام مصدقًا ومؤمنًا بالتوراة التي سبقتْه، عاملًا بما فيها عدا بعض الأحكام التي نُسخت فهو ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ شاهد لموسى وللتوراة التي جاء بها من عند الله تعالى، ومؤيد لدعوته، وحاكم بشريعته، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية.

---

(١) أخرجه النسائي برقم (١٦٦) في التفسير بإسناد صحيح، وأخرجه أحمد في «المسند» (٥/٣١٦) برقم (٢٢٧٠١) وصححه الهيثمي في «المجمع» (٦/٣٠٢) وهو في «صحيح الجامع» برقم (٥٥٨٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٤٦) قال محققو المسند: صحيح بشواهده.

(٢) أمال (التوراة) في الموضعين ابن ذكوان والبصري والكسائي وخلف، وقللها ورش وحمزة وقالون بخلف عنه.

وكان عيسى يدعو إلى التصديق بالتوراة والعمل بما فيها، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ من الضلالة؛ ليكون منهج حياة وشريعة حُكم، ينتفع به أهل القلوب الحيَّة والبصيرة النافذة، وفيه نور وضياء لعمى البصيرة وموعظة للمتقين، يهدي إلى الحق، ويبيِّن ما جهله الناس من حكم الله تعالى، وهو شاهد على صدق ما جاء في التوراة من الأحكام التي اشتملت عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ليس هذا بتكرار، وإنما التصديق الأول لعيسى نفسه، والتصديق الثاني للإنجيل، وكل منهما يصدق التوراة، وقد نُسب إلى عيسى قوله: (ما جئت لأنقض الناموس)، أي: التوراة.

وفي الإنجيل هداية أخرى، وهي ما تضمنه من البشارة برسالة محمد ﷺ؛ ليكون سببًا لهداية الناس إلى يوم القيامة، وفي الإنجيل بيان وموعظة بليغة وزواجر وأمثال ينتفع بها المتقون الذين يخافون الله تعالى فيرتدعون عن ارتكاب المحرمات، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فلفظ (هدى) الأول للإنجيل.

ولفظ (هدى) الثاني إشارة لما تضمنه الإنجيل من البشارة برسالة محمد ﷺ؛ فيكون سببًا لاهتداء الناس بنبوته.

وقد وصف القرآن الإنجيل بخمس صفات هي: هدى، ونور، ومصدقًا لما في التوراة، وهدى، وموعظة للمتقين.

ويضيف القرآن دائمًا عيسى إلى أمه، إشارة إلى أنه ليس له نسب إلا من جهتها، فليس له أب، وهو عبد من عباد الله، كان خَلْقه آية دالة على قدرة الله تعالى، كما خلق آدم من تراب، وكما خلق حواء من غير أم، وكما خلق الناس كلهم من أب وأم. قال تعالى:

٤٧ - ﴿وَلْيَحْكُمْ[1] أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

وكما فرض الله تعالى على اليهود أن يعملوا بما في التوراة في قوله سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ

---

(١) قرأ حمزة (ولِيحكمَ) بكسر اللام ونصب الميم، على أن اللام لكي، وأن مضمرة بعدها، وقرأ الباقون بسكون اللام وجزم الميم، على أن اللام لام الأمر، وسكنت الميم تخفيفًا.

فِيهَآ﴾ فرض على النصارى أن يعملوا بما في الإنجيل، وقال لهم: اعملوا بموجبه وتقيَّدوا به والتزموا بما فيه ولا تحيدوا عنه ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ على نبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن ذلك وجوب التصديق بما بشَّر به الإنجيل من مجيء الرسالة العامة الخاتمة، ووجوب العمل بما فيها باعتبارها ناسخة لما قبلها من الديانات، كما قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾ [٦٨]. كل في زمن صلاحية الرسالة الخاصة به قبل أن تنسخ بما بعدها.

ثم عقَّب سبحانه على ترك الحكم بما في الإنجيل بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن أمر الله، العاصون له.

وهذا وصف ثالث يضاف إلى وَصْفَي الكفر والظلم، فتارك الحكم بما أنزل الله جحودًا له. كافر؛ لرفضه حكم الله، وظالم؛ لأنه حمل الناس على غير شرع الله، وأفسد حياتهم، وفاسق؛ لأنه خرج عن منهج الله تعالى وطاعة أمره.

والظلم يطلق على الكفر، كما أن الفسق يطلق على الكفر، فعدم الحكم بما أنزل الله كفر وظلم وفسق.

الشَّرِيعَةُ الخَالِدَةُ

٤٨- ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

وبعد ذكر التوراة والإنجيل يأتي ذكر الرسالة الخاتمة، والشريعة الأخيرة؛ لتكون المرجع النهائي الذي تقوم عليه حياة البشر إلى يوم القيامة، فقال تعالى مادحًا للقرآن الكريم بعد مدحه للتوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن، أنزلناه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق الذي لا شك فيه أنه من عند الله، وهو مشتمل على الحق في أوامره ونواهيه وأخباره وأحكامه.

وقد صدر هذا القرآن من الجهة العليا التي تملك حق التشريع وفرض القوانين لكل ما

فيه خير العباد والبلاد، وكل ما في هذا الكتاب حق يشهد على صدق الكتب التي قبله، وأنها نزلت من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: من جنس الكتب السابقة، التي نزلت على رسل الله جميعًا، فالقرآن يصدقها ويؤمن بها، ويشهد لها ويوافقها في أصوله وأخباره وقواعده الكلية.

فلفظ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ الأول، يعني: القرآن، والثاني، يعني: جميع الكتب السماوية، وهذه الكتب تتضمن وجوب الإيمان بك - يا محمد - وتصديق ما جئت به من عند الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء]. أي: كان وعده لنا على ألسنة الرسل بمجيء محمد ﷺ وعدًا مفعولًا وكائنًا لا محالة.

وهذا القرآن هو الكتاب المهيمن، أي: الجامع لكل ما اشتملت عليه الكتب السابقة من هدايات وأحكام، فهو أمين ورقيب عليها، وحافظ لما فيها، وشاهد بصدقها وصحتها، وهو محفوظ من التبديل والتغيير والنسخ، يؤيد الكتب التي قبله ويدعو إلى ما فيها ويحكم عليها، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي مشتملًا على جميع ما جاء في الكتب السابقة، فهو غير تابع لما قبله من الكتب، إنما هو شاهد وأمين وحاكم عليها كلها، وكان نزوله آخرًا؛ لعدم ورود النسخ عليه، وليكون قيّمًا على ما سبقه، فهو الكتاب الذي فيه خبر السابقين واللاحقين، وفيه الحكمة والحكم والأحكام، فما شهد له بالصدق فهو الحق، وما شهد له بالرد فهو الذي دخله التحريف والبتديل.

وبعد أن قرر الله سبحانه أن هذا القرآن نزل بالحق، يؤيد ما سبقه من كتب ويسيطر عليها، وجَّه الخطاب إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ أي: احكم بين أهل الكتاب وغيرهم إذا ترافعوا إليك ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الأحكام الشرعية في هذا القرآن، فهو الكتاب الذي ارتضاه الله تعالى للخلق أجمعين إلى قيام الساعة.

وقد عَلِمَ الله سبحانه أن ثمة صوارف كثيرة، وأعذارًا متعددة، قد تحول دون تطبيق شرع الله تعالى، فحذَّر نبيَّه مرتين؛ في هذه الآية، والآية التي بعدها: ألَّا ينصرف عن الحق الذي أمره به ربه إلى اتباع أهوائهم وما اعتادوه، فالتزِمْ - أيها الرسول - في حكمك ما يؤيده القرآن الذي نزل عليك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: ولا تتبع في حكمك أهواء اليهود

وأشباههم، منحرفًا ومائلًا ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ومن المعلوم أن النبي ﷺ لا يحكم بغير شرع الله، والمقصود بهذا النهي هو تيئيس الطامعين أن يحكم لهم بما يشتهون، وإعلان ذلك ليتقرر في علم الناس، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

والله تعالى قد عصم رسوله من الزلل، ومن اتباع أهواء الناس، والعدول عن حكم الله إلى حكم غيره، ولكن القرآن الكريم ينبه كل حاكم مسلم ألَّا يساير الرغبات البشرية التي تميل إلى التساهل في تطبيق شرع الله، كالحرص على الوحدة الوطنية، أو إرضاء بعض الرؤوس، أو الإبقاء على الكرسي، ونحو ذلك.

وهذا يدل على أن اليهود ومن جاء بعدهم، مخاطبون بما جاء في القرآن، وقد أمروا أن يتحاكموا إلى كتبهم قبل نسخها بالقرآن، أما بعد نزوله، فقد أصبح واجبًا عليهم الدخول في الإسلام، واتباع ما جاء به محمد ﷺ؛ إذ ليس لأحد بعد بعثته ﷺ إيمان مقبول إلا باتباعه وتصديقه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

ثم خاطب الله سبحانه الأمم الثلاثة: أمة موسى، وأمة عيسى، وأمة محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بعد أن ذكر التوراة والإنجيل والقرآن، فقال: ﴿لِكُلٍّ﴾ من الأمم الحاضرة والماضية ﴿جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ خاصًّا بهم؛ فلأهل التوراة شريعة ومنهج، ولأهل الإنجيل شريعة ومنهج، ولأهل القرآن شريعة ومنهج، وهذا في الفروع العملية والشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، وباختلاف الزمان والمكان، وكلها صالحة في وقت الرسالة الخاصة بها.

أما في أصل الدين، وهو التوحيد، فقد بعث الله به جميع الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]. يعني: التوحيد الذي بُعث به كل رسول، وكذا أصول الدين، من الإيمان بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله، لم يختلفوا في هذا، والآيات الدالة على التباين بينهم، محمولة على الفروع، وما يتعلق بظواهر العبادات، فالله تعالى قد شرع لكل أمة ما يناسب

طورها في الحياة، حتى اكتملت الرسالات، ونضجت الأمم في الرسالة الأخيرة.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة»**، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: **«الأنبياء إخوة من علّات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد فليس بيننا نبي»**[(١)].

والعلّات: يراد بها كثرة الأمهات، أي: من أمهات شتى.

وعليه: فإن شرع من قبلنا إذا قرر في كتابنا ولم ينسخ، فهو شرع لنا، وإلا فإن لكل أمة شريعة خاصة بها، فنحن متعبدون بالشرائع السابقة باعتبار أنها أحكام شريعتنا.

وقد يحرِّم الله على أمة ما يحله لغيرها في جانب التشريع، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

والشريعة والمنهاج معناهما متقارب، فالمنهج هو الاستمرار على الطريقة، أي: الشريعة التي شرعها الله للناس، فالدين واحد والشرائع مختلفة.

ثم بيَّن سبحانه بعضًا من مظاهر قدرته وبالغ حكمته، في أنه لو شاء لجعَلَنا أمة واحدة تدين بدين واحد، فالله تعالى لا يعجزه شيء، ولكنه سبحانه خالَف بينها ليسجِّل ابتلاءكم واختباركم، ويُظهِر المطيع من العاصي ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ تتبعون شريعة واحدة لا يختلف أوّلها عن آخرها.

﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، أي: وقد اختلفت الشرائع ليكلف الله كل أمة بما تقتضيه حكمته تعالى، ويشرع لها ما يناسب حالها في كل حقبة من الزمن.

والمخاطب بهذا في الآية هم أمة محمد ﷺ وهو خطاب يشمل سائر الأنبياء والأمم، وما دام الأمر كذلك فسارعوا - أيها الناس - إلى ما هو خير لكم في الدارين، واعملوا بما جاء في القرآن وهذا معنى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ بادروا إليها وأكملوها وتنافسوا في المسارعة إليها.

والخيرات: كلمة جامعة لكل فرض ومستحب من حقوق الله تعالى وحقوق عباده،

(١) هذا لفظ مسلم برقم (٢٣٦٥) وهو في البخاري برقم (٣٤٤٣) وأبي داود (٥/ ٥٥).

فأقبلوا عليها واغتنموا أوقاتها، لأن مردَّكم ومصيركم إلى الله، فيخبركم بما اختلفتم فيه، ويجازي كلًّا بعمله ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيحاسبكم ويجازيكم بما تستحقون، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

تَحْذِير الأمَّةِ مِنْ الحكْمِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله

٤٩- ﴿وَأَنِ[1] ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا[2] مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وبعد أن حذر الله رسوله من اتباع أهواء الناس، وفي مقدمتهم اليهود المعاصرون له ﷺ حذره من فتنهم، ومحاولة إغوائهم وإضلالهم له؛ حتى يعتبر بهذا كل حاكم مسلم في كل زمان ومكان، فالخطاب لرسول الله ﷺ، والمراد كل من يتولى أمر المسلمين أن يحكم بينهم وبين المستأمنين في ديارهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، فإنهما في غاية العدل والقسط، ولا يتبع أهواء أهل الضلال، فهي جور وظلم، فإن لم يقبلوا حكم الله تعالى فاعلم أن ذلك عقوبة لهم في الدنيا، فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة، وكثير من الناس طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله والرسول.

ومما جاء في **أسباب النزول**:

١- أن جماعة اليهود قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد ﷺ لعلّنا نفتنه عن دينه، فأتوه، وقالوا: قد عرفت أنَّا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنَّا إن اتبعناك، اتبعك اليهود، وإنَّ بيننا وبين قومنا خصومة، فاحكم لنا عليهم ونحن نؤمن بك، فأبى رسول الله ﷺ[3] فنزل قوله سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ أي: بين اليهود وسائر الخلق ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إليك في

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر النون وصلًا من (وأنِ احكم) للتخلص من التقاء الساكنين، وقرأ الباقون بضمها وصلًا كذلك تبعًا لضم ثالث الفعل.

(٢) قرأ الأزرق عن ورش بترقيق الراء وتفخيمها وصلًا من (كثيرًا) وبترقيقها فقط في الوقف، وفخمها الباقون في الحالين.

(٣) الطبري (١٠/ ٣٩٣) و«الدر المنثور» (٢/ ٢٩٠) وغيرهما وفي إسناده عند الطبري: محمد مولى زيد بن ثابت، لم يوثقه غير ابن حبان.

القرآن، ولا تتبع أهواء الذين يحتكمون إليك في كل عصر ومصر ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ فيصدُّوك ويصرفوك ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ في هذا القرآن، فتترك العمل به اتباعًا لرغباتهم، وهذا السبب لنزول الآية يتعلق بحكم الرجم الذي طلبوا منه تغييره.

٢- وورد أن جماعة من بني النضير قالوا للنبي ﷺ: هل لك أن تحكم لنا على بني قريظة في أمر الدماء كما كنا من قبل، ونحن نبايعك؟[١].

وهذا السبب في طلبهم التسوية بين الدماء، فهما سببان مختلفان.

وقد تحاكموا إلى النبي ﷺ في الأمرين جميعًا، فحملهم على الحق، وجعل الدية بينهم سواء، وحَكَمَ بالرجم في المحصن الزاني.

وتقدير الآية مع ما قبلها: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق أن احكم بينهم بما أنزل الله، فاحكم بينهم به؛ لأن الحكم بما أنزل الله أثر من آثار تنزيل القرآن، كأنه تعالى قال: وأنزلنا إليك الأمر بالحكم بما أنزل الله، فإن حكمت بينهم وأعرضوا عنك، فتلك علامة الشقاء وأمارة الخذلان.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ فأعرضوا عن الإيمان بك واتباعك والرضى بحكمك ﴿فَٱعْلَمْ﴾ يا محمد ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ فيعجِّل لهم العقوبة في الدنيا؛ ليذيقهم ألوانًا من الهزائم، وجور الحكام، وقهر العدو، وضنك المعيشة، والهوان على الناس، عقوبة لهم على عزوفهم عن الحكم بما أنزل الله، ومن ذلك أن الله تعالى يصرفهم عن الحق، واتباع الهدى؛ بسبب ذنوب اكتسبوها كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله تعالى وحكمه كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

---

(١) قاله مقاتل.

التَّعْقِيب عَلَى تَرْكِ الحكْمِ بِمَا أَنْزَلَ الله

٥٠- ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾.

ثم يأتي التعقيب على ترك الحكم بما أنزل الله لبيان مفرق الطرق، إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية، ولا وسط بين الطريقين؛ فالجاهلية هي حكم البشر للبشر، وعبودية البشر للبشر، وهذه الجاهلية ليست فترة من الزمان، ولكنها موجودة بالأمس واليوم وغدًا، كلما وجدت أسبابها ومقوماتها ونتائجها! ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ﴾ أيريد هؤلاء اليهود وأمثالهم أن تحكم بينهم - يا محمد - بما تعارف عليه المشركون عبدة الأوثان، من الضلالات والجهالات والجور في الأحكام، وتحريف ما أمر الله به بلا مستند من شريعة الله، فتغير لهم حكم الرجم، وعدم التساوي في الدماء؟! أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية المبني على الظلم والجهل والغيّ، ويتركون حكم الله تعالى المبنيّ على العلم والعدل والقسط والنور والهدى؟

وأي حكم أحسن من حكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟ فلا أحد أعدل من الله تعالى في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن.

واليقين: هو العلم التام الموجب للعلم اليقيني، وفي هذا توبيخ وتقريع لمن يعدل عن حكم الله تعالى إلى حكم غيره.

عن نافع بن جبير عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومُطَّلبُ دم امرئ بغير حق ليُهريق دمه**»[1].

النِّدَاء السَّابِع: النَّهْي عَنْ مَوَالَاةِ أَهْلِ الكِتَابِ

٥١- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (١٠/ ٣٧٤) و«صحيح البخاري» برقم (٦٨٨٢) واللفظ له.

وبعد الحديث عن الحكم بما أنزل الله، وإعراض اليهود عنه، وتبديلهم له، يأتي النداء السابع للمؤمنين في هذه السورة حيث يوجه ﷺ ثلاث نداءات إلى المؤمنين في هذا الرُّبُع يحذرهم فيها من موالاة أعدائهم من اليهود والنصارى، ويبين لهم صفاتهم وأحوالهم حتى لا يتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة، ينصر بعضهم بعضًا ويكونون يدًا على مَنْ سواهم، وهم لا يدَّخرون جُهدًا في ضُرِّكم وإضلالكم، ويعقُب ذلك حديث عن أهل الكتاب يتناول فيه صورًا من أبشع أقوالهم وأفعالهم، مع تقريعهم وتوبيخهم، وبيان ما أعده الله لهم من عقوبة.

النداء الأول للمؤمنين في هذا الربع السابع في السورة:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يا من أيقنتم وصدقتم بالله ربًّا، وبمحمد نبيًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن كتابًا، وبالكعبة قبلة... لا تتخذوا اليهود والنصارى حلفاء وأنصارًا وأعوانًا على إخوانكم في الدين والعقيدة من أهل الملة، فتسرون إليهم بالمودة، وتستأمنونهم على أسراركم وأموالكم، وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين، وتنصرونهم وتستنصرون بهم، وتتخذونهم موضع سرٍّ وقرب وبطانة، وتثقون فيهم عن إخوانكم المؤمنين.

فالولاية تعني: التناصر والتعاون والتحالف، وفرق بين ذلك وبين حُسْنِ المعاملة وحُسْنِ الجوار؛ فالمسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب غير المحاربين، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨] فالله تعالى نهانا أن نوالي من قاتلونا في الدين وظلمونا، وأخرجونا من ديارنا، كاليهود الذين شردوا أهل فلسطين وطردوهم منها، واستولوا على ديارهم، وهذا ما تعنيه الآية التي بعدها ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة].

فأهل الكتاب من اليهود هم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين.

وأهل الكتاب من النصارى هم الذين شنوا الحروب الصليبية على المسلمين مئتىْ عام، وهم الذين قتلوا المسلمين وأبادُوهم في البوسنة والهرسك، والشيشان، والحبشة، والصومال، وأريتريا، والفلبين، والعراق، وفلسطين.

ثم بيَّن ﷺ أن أهل الكتاب من شأنهم أنهم لا يوالون المؤمنين ولا يوادُّونهم؛ فاليهود﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ والنصارى بعضهم أولياء بعض، فكل منهم يد واحدة على من خالفهم في دينهم وملتهم.

وقد بيَّن تعالى أن ولاية اليهود لبعضهم ولاية زائفة لا تقوم على أساس صحيح، ولذلك فقد قرر الله تعالى أن العداوة والبغضاء قائمة بينهم إلى يوم القيامة فقال: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [٦٤]. وهي قائمة بين النصارى كذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [١٤].

فإن كانت الولاية لليهود والنصارى على سبيل الرضى بدينهم، ونَصْرهم على المؤمنين مع فقد الثقة في الإسلام وأهله، فهذا كفر مخرج من الملة قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ لأن التولّي التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يندرج شيئًا فشيئًا حتى يكون العبد منهم.

وإن كانت الولاية على سبيل المصادقة في العمل، أو الجوار، أوالمشاركة في التجارة، ونحو ذلك فهي معصية تختلف درجتها بحسب قوة الموالاة وضعفها. فالمسلم لا يحب عدوه من قلبه، ولا يُفَضِّله على المسلم، وإلا كان هذا طعنًا في دينه، ووضْعًا للمودة في غير موضعها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوِّفق من وضَع الولاية في غير موضعها، وهؤلاء الظالمون لَوْجِئْتَهُم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك.

ومما ورد في أسباب النزول:

١- أن عبادة بن الصامت قال: يا رسول الله، إن لي موالي من اليهود، وإني أبرأ إلى الله من ولاية يهود، فقال عبد الله بن أبيٍّ بن سلول: إني رجل أخاف الدوائر، ولا أبرأ إلى الله من ولاية يهود، فنزلت الآية[1]

٢- وورَدَ أنه لما كانت وقعة أحد، خافت طائفة من الناس أن يدال عليهم الكفار (أي:

---

(١) فيه عطيه بن سعد العوفي وهو صدوق يخطئ كثيرًا، وقد أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ١٣٧) ورواه الطبري بالمعنى بإسناد حسن، وجاء من عدة طرق يقوي بعضها بعضًا، يُنظَر: ابن جرير (١٠/ ٣٩٥) و«التقريب» و«الدر المنثور» (٢/ ٢٩٠) وابن إسحاق في السيرة ص(٢٩٥) وابن أبي حاتم (٦٥٠٦).

يغلبوهم) فقال رجل لصاحبه: أما أنا فألحق بفلان اليهودي، فآخذ منه أمانًا.

قال السدي: إنها نزلت في رجلين، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أُحد: أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي فأُواليه وأتهوَّد معه إذا وقع أمر أو حدث حادث، وقال الآخر، وأما أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام، فأواليه وأتنصر معه فأنزل الله الآية[١].

٣- وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح[٢].

والولاية لليهود والنصارى إن كانت على سبيل الرضى بدينهم ونَصْرتهم، والطعن في دين الإسلام كانت كفرًا وخروجًا عن دين الإسلام.

وإذا كانت الولاية بمعنى معاملة غير المسلمين معاملة حسنة من غير محبة ولا مودة قلبية، أو اتخاذهم موضع سر دون المؤمنين، من غير رضى بدينهم، فهي معصية تختلف درجاتها بحسب قوة المخالطة وتأثرها بهذه المصادقة.

وقد سُئل فقهاء غرناطة عن عصابة من قواد الأندلس وفُرْسانهم، لجؤوا إلى النصارى واستنصروا بهم على المسلمين، واعتصموا بحبل جوارهم، وسكنوا أرضهم، فهل يحل لأحد من المسلمين مساعدتهم وإيواؤهم؟ فأجابوا بأن ركونهم إلى الكفار، واستنصارهم بهم قد دخلوا به في وعيد قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ فمن أعانهم فهو معين على معصية الله ورسوله، ما داموا مصرين على فعلهم، فإن تابوا ورجعوا عما هم فيه من الشقاق والخلاف، فالواجب على المسلمين قبولهم[٣].

وأدنى درجات الموالاة: المخالطة والمصادقة، وليس من الموالاة تبادل الخبرات والقرض والعمل، فقد عامل النبي ﷺ يهود خيبر على مساقاة النخل، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، واستأجر في الهجرة دليلًا غير مسلم لخبرته بالطريق.

وفي الآية تغليظ من الله تعالى وتشديد في مجانبة المخالف في الدين واعتزاله، كما

---

(١) قاله السدي، يُنظَر: الطبري (١٠/ ٣٩٧) وابن أبي حاتم (٦٥٠٧).

(٢) الطبري (٨/ ٥٠٦).

(٣) تفسير «التحرير والتنوير» (٦/ ٢٣٠).

قال ﷺ (لا تراءى ناراهما) فمن تولَّى غير المسلمين فإنه يكون منهم، بتولِّيه إياهم، وقد بيَّن سبحانه أن تولِّيهم موجب لسخط الله تعالى، ولو أن متوليهم كان مؤمنًا ما تولاهم، قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

وبيَّن سبحانه سبب النهي عن موالاتهم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ١٣].

فإذا كانت الموالاة بسبب خوف محقق تَقِيَّةً منهم، فصاحبها معذور، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

فمحلُّ السخط في موالاة الكفار هو حالة الاختيار، أما عند الخوف والتقية فيرخص في موالاتهم بقدر الموالاة التي يُتقى بها شرهم، مع وجوب سلامة الباطن من الموالاة.

ويفهم من ذلك أن موالاة الكفار عمدًا واختيارًا رغبة فيهم، هو كفر مثلهم لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

ذَمُّ المُسَارَعَةِ فِي مُوَالَاةِ غَيْرِ المُسْلِمِينَ

٥٢- ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يذم الله سبحانه من يسارعون في مودة غير المسلمين والتحالف معهم مخافة وقائع الدهر وهذا المعنى هو ما تشير إليه هذه الآية ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك ونفاق وضعف يقين ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي يبادرون إلى مودة اليهود وغيرهم، والتزلف إليهم، والقرب منهم، ومخالطتهم، وغشيان مجالسهم، فهم ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي تكون الغلبة لليهود والنصارى، وتريد أن تكون لنا عندهم يد حتى يكافئوننا عليها، فنحن نخشى من الهزائم في الحروب، ونخاف قلة الموارد، ومغالبة الأعداء،

ونخاف ألا ينصر الله أهل الإسلام، فنجعل لنا يدًا عندهم؛ حتى لا يظفروا بالمسلمين فيصيبونا معهم، قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ الذي يعز الله به الإسلام ويقهر أعداءه فيخذلهم،ويؤيد المسلمين بنصرهم وفتح الأبواب عليهم فتتغير الأحوال وتتبدل، فيصبح القوي ضعيفًا، والضعيف قويًا، ويصبح الغني فقيرًا والفقير غنيًا، ويصبح الذليل عزيزًا، والعزيز ذليلًا، عسى الله أن يظهر دينه ويعلي كلمته، ويَدْحر أعداءه، كما أخرج اليهود من المدينة وهم يُخْربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، بلا كلفة ولا مؤونة من المسلمين، عسى الله أن يلقي في قلوبهم الرعب، فيخذل أعداءه، وينصر أولياءه، وقد تحقق مثل ذلك في فتح مكة.

وعندما يأخذ المسلمون بأسباب النصر ويتأهلون لملاقاة عدوهم، ويتسلحون بالإيمان الكامل؛ فإن الدائرة ستكون على عدوهم بإذن الله تعالى، فالله سبحانه يسلط رسله على من يشاء ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر].

قال تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ ليس في الحسبان، فينصر الله دينه، ويظهر الإسلام والمسلمين على الكفار، أو يهيئ من الأمور والأسباب ما تذهب به قوة اليهود والنصارى، فيخضعون للمسلمين، فحينئذ يندم المنافقون على ما أضمروا في أنفسهم من موالاة الأعداء ﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ على ما كان منهم متحسرين على ما فرطوا في جنب الله من قلة إيمان وضعف يقين.

ومن هنا فإنه لا ينبغي للمسلم أن يستعمل غير المسلم في الخدمة أو الوظائف أو السكرتارية، ويترك المسلم، بحجة المهارة، أو الأمانة، أو الثقة في غير المسلمين، فهذا ضعف في النفس نابع من ضعف الإيمان، ولو كان الإيمان قويًا لَوَثِقَ بإخوانه المسلمين والناس بَشَر، والخطأ وارد على كل البشر، ولا يوجد معصوم إلا من عصمه الله تعالى.

ورد عن أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب ﷺ: إن لي كاتبًا نصرانيًا، فقال: ما لك؟ قاتلك الله، ألا اتخذت حنيفيًا؟ أما سمعت قول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ قلت: له دينه، ولي كتابته، فقال: لا أُكْرِمُهُم إذ أهانهم الله، ولا أُعِزُّهُم إذْ أذلهم الله، ولا أُدْنِيهِمْ إذا أبعدهم الله، قلت: لا يتم أمر البصرة إلا به، فقال: مات النصراني، والسلام، أي: هَبْ أنه مات، فما تصنع بعد موته؟ فاستغن عنه بغيره[١].

وفي رواية أن عمر ﷺ قال له: هل أنت قارئ لنا كتابًا في المسجد جاء من الشام؟ فقال أبو موسى: إنه لا يستطيع، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: بل نصراني، قال: فانتهرني وضرب فخذي، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[٢].

التَّعَجُّبُ مِنَ المُسَارَعَةِ فِي مَوَدَّةِ غَيْرِ المُسْلِمِينَ

٥٣- ﴿وَيَقُولُ[٣] ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

ولما أظهر الله نفاق المنافقين في ميلهم إلى موالاة اليهود والنصارى، تعجَّب المؤمنون من حالهم، واستنكروا ما صدر منهم من خداع وكذب في دعوى الإيمان، وقال بعضهم لبعض وهم يشيرون إلى اليهود والنصارى: أهؤلاء الذين أقسموا أغلظ الأيمان إنهم معنا ومن أنصارنا، فكيف صاروا موالين لأعدائنا، محبين الاختلاط بهم، بطلت أعمال المنافقين التي عملوها في الدنيا، فلا ثواب لهم عليها؛ وهم بهذا قد خسروا دنياهم بافتضاح أمرهم وبيان كذبهم، وخسروا آخرتهم بإحباط ثواب أعمالهم، وحصول العذاب الدائم لهم.

---

(١) يُنظَر: الفخر الرازي (١٢/ ١٦) وتفسير «الخازن» (١/ ٤٧٢).

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» للآية والفخر الرازي (١٢/ ١٦) وابن أبي حاتم (٦٥١٠) والبيهقي في «الشعب» (٩٣٨٤) عن عياض.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (يقول) بحذف الواو التي قبل الياء، ورفع اللام، على الاستئناف، كأنه جواب لسؤال مقدر، تقديره: ماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ وقرأ أبو عمرو ويعقوب بإثبات الواو ونصب اللام عطفًا على (فيصبحوا) المنصوبة بأن مضمرة بعد الفاء في جواب الترجي، وقرأ الباقون بإثبات الواو، والرفع، على الاستئناف، وإثبات الواو وحذفها موافق للرسم العثماني في كل هذه المصاحف.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض مستنكرين ما صدر من المنافقين من أيمان كاذبة ومتعجبين من تعاونهم مع أعداء الله ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: أنهم حلفوا أيمانًا مغلظة ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: مع المؤمنين بالعون والنصر، وقد بيَّن ﷻ سبب هذا الحلف الكاذب للمسلمين أنهم منهم، إنما هو الخوف، ولو وجدوا ما يسترهم عن المسلمين لسارعوا إليه، لشدة بغضهم لهم، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢]. وقال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾ [التوبة].

كما بيَّن سبحانه أن المنافقين يحلفون للمؤمنين ليرضوا عنهم، ولو رضي عنهم المؤمنون، فإن الله تعالى غير راضٍ عنهم ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾ [التوبة]. ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾ [التوبة].

ثم أخبرت عن حال الموالين لغير المسلمين فقال تعالى ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام الله تعالى بتقرير حالتهم فهو إخبار عنهم، ويحتمل أن يكون من كلام المؤمنين عنهم، والأظهر أنه من كلام الله تعالى على وجه الدعاء عليهم إما من الله تعالى، وإما من المؤمنين وهؤلاء خسروا دنياهم وأخراهم.

وهكذا فقد نهت الآيات عن موالاة أعداء الله نهيًا صريحًا بذكر اليهود والنصارى، وبيَّنت علة النهي، وأن بعضهم يوالي بعضًا، وصرَّحت بأن من يواليهم فهو منهم، وسجلت الظلم على من يواليهم، وأخبرت أنه لا يواليهم إلا من كان في قلبه ضعف ونفاق، ثم قطعت الآيات أطماع الموالين، وبشَّرت المؤمنين بتغيُّر الأحوال، وتبدُّل الأمور، والفوز القريب للمؤمنين ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾

وقد تبيَّن مما سبق أن **موالاة غير المسلمين على ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: هم الذين يعيشون مع المسلمين مسالمين لهم، ولا يعملون لحساب جهة أخرى، ولم يظهر منهم ما يسيء الظن بهم، فهؤلاء لا مانع من حسن التعامل معهم، ومجاملتهم في الأمور الاجتماعية من غير رضى عن ديانتهم، ولا مجاملة في أمور دينهم؛ كالأعياد الدينية، والطقوس الخاصة بهم.

النوع الثاني: هم المحاربون للمسلمين في عقيدتهم، أو المحتلون لأرضهم، والمساعدون لهم في ذلك، والذين يتربصون بنا الدوائر، ويعملون على تبديد طاقاتنا، وفساد شبابنا، وضعف قوتنا، فهؤلاء أعداء وهم مع من أعانهم، لا تجوز موالاتهم، ولا التعامل معهم، ولا الإحسان إليهم.

النوع الثالث: قوم لا يُظهرون العداوة لنا ولا لديننا، والقرائن تدل على أنهم لا يحبوننا ويحبون أعداءنا، فهؤلاء علينا أن نحذر منهم، ونتعامل معهم بقدَر، ولا نعتدي عليهم بدون عدوان علينا.

النِّدَاء الثَّامِن: الرِّدَّة وَالمرْتَدُّونَ

٥٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ[1] مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

أما النداء الثاني للمؤمنين في هذا الربع من السورة، وهو النداء الثامن فيها، فهو يربط بين موالاة اليهود والنصارى وبين الارتداد عن دين الإسلام، فكأن محبتهم وكثرة مخالطتهم ومودتهم قد يكون لها من التأثير على عقيدة المسلم فتؤدي به إلى التهود، أو التنصر، والخروج من ربقة الإسلام، ولهذا فإن الله تعالى يحذر عباده أن ينسلخوا من دينهم فيرتدوا عن الإسلام، ويهدِّدُهم إن هم فعلوا ذلك، فإن الله تعالى سيستبدل بهم قومًا آخرين لا يتزعزع إيمانهم، ويؤثرون في غيرهم، ولا يتأثرون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ فيرجع عنه إلى غيره، ويستبدل به اليهودية، أو النصرانية، أو غيرهما، فإنه بعمله هذا لن يضر الله شيئًا، وإنما ضرَّ نفسه برجوعه عن الدين الصحيح، وقد خسر بذلك دنياه وأخراه.

قيل: إنه ارتد عن الإسلام إحدى عشرة فرقة، ثلاث في عهد النبي ﷺ وهم: بنو

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (يرتدد) بدالين، الأولى مكسورة والثانية مجزومة مع فك الإدغام، على الأصل في الجزم، وهي موافقة لرسم المصحف الشامي والمدني، بلغة أهل الحجاز، وقرأ الباقون (يرتدّ) بدال واحدة مشددة على الإدغام للتخفيف، وهي لغة تميم.

مدلج، ورئيسهم الأسود العنسي، وبنو حنيفة، قوم مسيلمة الكذاب، وبنو أسد، قوم طلحة بن خويلد الأسدي.

وسبع في عهد أبي بكر الصديق ﷺ، وهم: فزارة، وغطفان، وبنو سليم، وبنو يربوع، وبعض بني تميم، وكندة، وبنو بكر بن وائل.

وارتدت فرقة واحدة في عهد عمر، وهي قبيلة غسان، قوم جبلة بن الأيهم[١].

أما الأسود العنسي، فكان قد تنبأ باليمن، واستولى على بلاده، وأخرج منها عُمَّال رسول الله ﷺ وقد أهلكه الله على يد فيروز الديلمي فقتله، وأخبر رسول الله ﷺ بقتله ليلتها.

أما مسيلمة الكذاب، فقد تنبأ، وكتب إلى النبي ﷺ يقول له: إنه رسول الله، وإن لي نصف الأرض ولك نصفها. فكتب إليه النبي ﷺ يقول: أما بعد: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

أما طلحة بن خويلد، فقد تنبأ، وأرسل إليه النبي ﷺ خالد بن الوليد ﷺ فقاتله وهزمه، ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه[٢].

وهذه الآية مما أخبر عنه القرآن قبل وقوعه، وقد وقع ما أخبر به فكان هذا من معجزاته ﷺ؛ إذ كانت ردة كثير من العرب بعد موته ﷺ، ولم يبق إلا ثلاثة مساجد هي: مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد البحرين (جُؤاثَى) بالإحساء، وكانت تسمى البحرين.

أما القوم الذين يخلُفون المرتدين في كل زمان ومكان فقد وصفهم ربنا بأوصاف **ثلاثة**:

الوصف الأول: أن الله تعالى يحبهم ويرضى عنهم، وهم يحبون الله تعالى فيمتثلون أمره، ويجتنبون نهيه، فهم عباد مخلصون ورجال صادقون، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافًا وأقواهم نفوسًا وأحسنهم أخلاقًا.

والمعنى: وسوف يأتي الله بقوم آخرين خير منهم كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. وقال سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ

(١) يُنظَر: «تفسير الألوسي» (٦/ ١٦٠) وتفسير «الخازن» (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنظَر: تفسير البغوي، «الخازن» والألوسي والطاهر بن عاشور للآية.

جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]. وهؤلاء القوم يحبون الله أكثر من حبهم لأنفسهم، ولا يحيدون عن محبته طرفة عين، ولا يرضون بدين الإسلام بديلًا، وهذا معنى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ومحبة الله للعبد أجل نعمة يُنعم بها عليه، وإذا أحب الله العبد يسّر له الأسباب، وهوّن عليه كل عسير، وأقبل بقلوب العباد إليه بالمودة والمحبة.

ومن لوازم محبة العبد لربه: أن يخلص لله تعالى في طاعته وعبادته، ويتصف بمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله.

ومن لوازم محبة الله للعبد: الإكثار من التقرب إليه بالفرائض والنوافل، والإكثار من ذكره سبحانه وتعالى، قال تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ﴾ [آل عمران: ٣١]

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل **«وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولايزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتف سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطيته، ولئن استعاذ بي لأعيذنه»** والحب رتبة فوق رتبة الطاعة والاتباع، إنه رضًى متبادل، وتقديم مراد الله تعالى على مراد النفس والهوى، فالله تعالى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فكل من أحب الله وأحبه الله فهو داخل في هذا الحب من غير تخصيص بزمان معين، ولا مكان معين، ولا أشخاص معينين.

وإذا أحب الله العبد، أنعم عليه بفعل الخيرات وترْك المنكرات، ووفقه وهداه إلى طاعته والعمل بما يرضيه.

ومن مقتضى محبة العبد لله تعالى: المسارعة إلى طاعته، وألّا يفعل ما يوجب سخطه، وأن يتقرب إليه بما يحبه ويرضاه.

قال قتادة: أنزل الله هذه الآية وقد علم أنه سيرتد مرتدُّون من الناس، فلما قبض الله نبيه ارتدَّ عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد؛ أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل الجُواثا من عبد القيس، وهم أهل البحرين في الإحساء، وهم أهل أول موضع جُمعت فيه الجمعة بعد المدينة، فقال الذين ارتدوا نصلي ولا نزكي، والله لا تُغْصَبُ أموالنا، فقال أبو بكر: والله لا أفرق بين شيء جمعه الله، ولو منعوني عقالًا مما فرضه الله

ورسوله لقاتلتهم عليه.

قال قتادة: فكنا نحدث أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وأصحابه[١].

ولما ارتدَّ من ارتد من العرب عن الإسلام جاهدهم أبو بكر وأصحابه حتى ردَّهم إلى الإسلام.

وقد وردت أحاديث وآثار تحدد المراد بهم في الآية:

١- فقيل: إنهم أبو بكر ومن معه من المؤمنين الذين قاتلوا المرتدين، حيث قال أبو بكر: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة) وقال: (والله لو منعوني عقالًا أو عناقًا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه)[٢].

والعناق: الأنثى من ولد المعز، ما لم تتم سَنَة.

٢- وقيل: إنهم الأنصار الذين نصروا الرسول ﷺ وآزروه، أو هم المهاجرون والأنصار معًا.

٣- وقيل: هم أهل اليمن الذين جاهدوا في سبيل الله يوم القادسية، وكانوا عشرة آلاف مقاتل.

٤- وقيل: هم أهل فارس، وقد سئل النبي ﷺ عن الذين يحبون الله ويحبهم الله، فضرب على عاتق سلمان، وقال: **«هذا وذووه، ولو كان الإيمان معلقًا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس»**[٣].

٥- وقيل: هم قوم أبي موسى الأشعري، كما جاء عن سماك بن حرب قال: سمعت عياضًا الأشعري يقول: لما نزلت ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال ﷺ: **«هم قومك**

---

(١) الطبري (٨/ ٥٢٠) والبيهقي (٨/ ١٧٧) وابن عساكر (٣٠/ ٣١٩).

(٢) رواه أبو بكر وأبو هريرة في مسند أحمد (١٠٨٤٠، ١١٧، ٢٣٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري (١٣٩٩، ١٤٥٦) والبيهقي (٤/ ١٠٤) والنسائي (٦/ ٥) وابن حبان (٢١٦).

(٣) ينظر حديث أبي هريرة في البخاري (٤٦١٥) وابن حبان في صحيحه (٧٣٠٨) وصححه الحاكم على شرط البخاري في المستدرك (٨١٩٤) ج٤ص٤٣٧) وعن ابن عمر في فضائل البلدان (١/ ١٨٤).

يا أبا موسى» وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى أبي موسى الأشعري[١].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا، الإيمان يماني، والحكمة يمانية والفقه يمانٍ»**[٢].

وعلى القول بأنهم الذين قاتلوا المرتدين حين كره بعض الصحابة قتالهم، فثبتوا وقاتلوهم، وكذا على القول بأنهم الأشعريون، تكون الآية إخبارًا عن الغيب، وقد حدث ما أخبرت به.

وهذا يفسر قول الحسن: علم الله تعالى أن قومًا سيرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم، فأخبر أنه سيأتي بقوم يحبهم ويحبونه.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا، فكان فيما قال: **«ألا، لا يمنعنَّ رجلًا هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه»** قال: فبكى أبو سعيد، وقال: قد والله رأينا أشياء فهبنا[٣].

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحقرنَّ أحدكم نفسه»**، قالوا: وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: **«أن يرى أمر الله فيه مقال، فلا يقول به، فيقال له يوم القيامة: ما يمنعك أن**

---

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه (٢/ ٣١٣) وصححه الذهبي وابن الملقن، وأخرجه الطبراني في الكبير برقم (١٠١٦) وابن أبي شيبة في مسنده برقم (١٠٣) و«تفسير الطبري» برقم (١٢١٩١، ١٢١٨٨) وابن أبي حاتم في تفسيره برقم (٢٦٦) وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٦) رجال الطبراني رجال الصحيح، وقال البوصيري في «الإتحاف»: هذا إسناد رواته ثقات وأخرجه ابن سعد (٤/ ١٠٧) والبيهقي (٥/ ٣٥١).

(٢) «المسند» برقم (٧٦٢٧، ٧٧٢٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وعن أنس (١٣٢١٢) وهو في صحيح مسلم (٥٢، ٨٢) ومصنف عبدالرزاق (١٩٨٨) عن أبي هريرة.

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٢٣٧) وهو في ابن ماجه برقم (٤٠٠٧) وأخرجه الترمذي برقم (٢١٩١) وقال: حديث حسن صحيح و«المسند» (٣/ ٥، ٤٦، ٤٤) من طرق متعددة وهو في «المسند» (١١٨٢٤) قال محققوه: حديث صحيح، وفيه انقطاع بين الحسن البصري وأبي سعيد، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه ابن حبان برقم (٢٧٥) و«مسند أبي يعلى» برقم (١٤١١) وصحح رجاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧٤).

تكون قلت فيَّ كذا وكذا؟ فيقول: مخافة الناس، فيقول: إياي أحق أن تخاف»[1].

أما **الوصف الثاني** للمؤمنين الكمَّل فإنهم رحماء بالمؤمنين أشداء على الكفار ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنهم أصحاب قلوب ليِّنة ورأفة ورحمة ومحبة لإخوانهم المؤمنين، كما قال تعالى ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]

وهذا الوصف ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فقد اجتمعت همتهم وعزيمتهم على عداوة المؤمنين، وبذلوا الجهد في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم.

وليس المراد بقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ﴾ الذل والهوان، وإنما المراد لين الجانب، والرقَّة والرحمة والشفقة لإخوانهم المؤمنين، بالتذلل والتواضع والعطف والمحبة، وخفض الجناح لهم، مع شرفهم وعلوهم وفضلهم.

والمراد بالعزة: القوة والشدة والغلظة، بمعنى أن هؤلاء المؤمنين أشداء وأقوياء على الكفار، ودعوتهم إلى الإسلام ليست من باب الشدة ولا الغلظة.

فهم كما قال ابن عباس ﷺ: تراهم - بالنسبة لإخوانهم في الدين - كالوالد على ولده، وكالعبد لسيده، وهم في الغلظة على الكافرين كالسبع على فريسته.

وكما قال علي ﷺ في وصفهم: أهل رقة على أهل دينهم، وأهل غلظة على من خالفهم في دينهم.

كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن صفات المؤمن أنه هيِّن ليِّن، متواضع لأخيه متعزز على عدوه.

الوصف الثالث: أنهم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأنفسهم وأموالهم وأقوالهم وأفعالهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي: أنهم يجاهدون أعداء الله، لنصرة دينه، ورفع كلمته، ونشر

---

(١) «المسند» (٣/ ٧٣) برقم (١١٨٦٨، ١١٢٥٥) إسناده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي سعيد، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، (محققوه) وابن ماجه (٤٠٠٨) قال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٢٤٤) هذا إسناد صحيح وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٨٦٨) وأخرجه الطيالسي (٢٢٠٦) والبيهقي في الشعب (٧٥٧١).

دعوته، وزجر مَن حال دون إقرار منهج الله في أرضه، وهم في جهادهم هذا لا يخافون في ذات الله لومة لائم، فلا يردهم عن قتال أعداء الله راد، ولا يصدهم صادٌّ، بل يقدِّمون رضى الله تعالى والخوف منه على رضى الخلق والخوف منهم، ولا يَسْلَم القلب من التعبد لغير الله تعالى حتى لا يخاف في الله لومة لائم:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا لا يمنعنَّ أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرِّب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق، أو يذكِّر بعظيم»**[1].

وقد دخل في الإسلام بعد أحداث الردة كثير ممن يحبهم الله ويحبونه، من عرب الشام والعراق، وأهل فارس، ومصر، وتركيا وإسبانيا وصقلية، والهند والصين والسودان، وغيرهم ممن تحقق بهم وعد الله تعالى.

وعن أبي ذر ﷺ قال: أمرني خليلي بسبع:

١- أمرني بحب المساكين والدنو منهم.

٢- وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي.

٣- وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت.

٤- وأمرني ألا أسأل أحدا شيئًا.

٥- وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًّا.

٦- وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم.

---

(١) «المسند» (٣/ ٥٠) برقم (١١٤٧٤) حديث صحيح إلى قوله (أو شهده) وفي باقيه ضعف في السند (محققوه) وابن ماجه (١٣٢٨/٢) وأبو يعلى في مسنده (٤١٩/٢) برقم (١٤١١) والطبراني في الأوسط (٢٨٢٥) وفي سنده انقطاع من طريق أبي سعيد، ولكنه صحيح من طريق أبي نضرة كما في «المسند» (٣/ ٥) ، ص(٤٤) و(٩٢) برقم (١١٠١٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم وانظر: (١١٨٣١)، (١١٨٦٩) وغيرهما.

٧- وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن من كنز تحت العرش[(١)].

وفي الصحيحين وغيرهما عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كنا، ولا نخاف في الله لومة لائم[(٢)].

وقد ذم الله تعالى قومًا يخافون الناس، ولا يخافون الله، فقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨]. وقد نهانا الله تعالى عن الخوف من الناس، وأمرنا بالخوف منه وحده، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [٤٤].

وهذا الإنعام من الله تعالى يمنحه كل من اتصف بهذه الأوصاف الثلاثة في كل زمان ومكان ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من خلقه، وهو سبحانه واسع الفضل والجود، عليم بمن يستحق هذه المنزلة من عباده ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمّت رحمته كل شيء، ووسع فضله الأولياء من عباده.

مَنْ تَجِب موالاتهمْ وَمَحبَّتهمْ

٥٥- ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

وبعد النهي عن موالاة أعداء الله تعالى، بيَّن ﷻ من تجب موالاتهم، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فولاية الله تعالى تدرك بالإيمان والتقوى، فكل من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا، ومن كان وليًّا لله كان وليًّا لرسوله، ومن تولى الله ورسوله، تولّى من تولّاه الله ورسوله من المؤمنين الصادقين المخلصين، وليس اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم، فالله هو الذي ينصركم على عدوكم، وهو الذي يتولاكم بعنايته

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد في «المسند» (٥/١٥٩) برقم (٢١٤١٥) وابن أبي شيبة (١٣/٢٣٢) والطبراني في الصغير (٧٥٨) وفي الدعاء (١٦٤٨) وفي االأوسط (٧٧٣٥) وفي الكبير (١٦٤٨) وابن سعد (٤/٢٢٩) والبيهقي في الشعب (٣٤٢٩) قال محققو المسند: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، وهو في مسند البزار (٣٩٦٦) وابن حبان (٤٤٩).

(٢) البخاري (٩/٩٦) باب كيف يبايع الإمام الناس، كتاب الأحكام برقم (٧١٩٩، ٧٢٠٠) ومسلم (١٧٠٩) والنسائي (٤١٦٠، ٤١٦٥) وابن ماجه (٢٨٦٦).

ورعايته، ووليكم أيضًا عباده المؤمنون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والولاية لله تعالى أصل، ولغيره تبع، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. فلا تتركوا ولاية المؤمنين وتوالوا اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم، ومن **أخص صفات هؤلاء المؤمنين:**

١- أنهم يداومون على أداء الصلاة المفروضة في أوقاتها بخشوع وخضوع، مع المحافظة على الطمأنينة في ركوعها وسجودها والقراءة فيها ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢- وهم يخرجون زكاة أموالهم عن رضا نفس وطيب خاطر ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٣-وهؤلاء المؤمنون يصلُّون ويزكون، وهم خاضعون منقادون لأوامر الله عزَّ وجلَّ ونواهيه ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾.

فالركوع بمعنى الخضوع، والانقياد لله عزَّ وجلَّ، أي: أن المؤمنين من شأنهم إقامة الصلاة بخضوع وخشوع وتواضع، وخص الله سبحانه الركوع بالذكر تشريفًا له.

والآية عامة في جميع المؤمنين، وهي تتمة الحديث عن وجوب معاداة أعداء الله تعالى وموالاة أوليائه.

قال جابر بن عبد الله: نزلت في عبد الله بن سلام، وذلك أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن قومنا قريظة والنضير هجرونا وفارقونا وأقسموا ألا يجالسونا، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن سلام: رضينا بالله ربًّا، وبرسوله نبيًّا، وبالمؤمنين أولياء[١].

وقد نزلت هذه الآيات في عبادة بن الصامت ﷺ حين تبرأ من ولاية يهود.

وما ورد من آثار تفيد أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ﷺ، وأنه تصدَّق بخاتمه وهو راكع، فهي روايات لم يصح منها شيء؛ لضعف أسانيدها، وجهالة رجالها[٢].

---

(١) تفسير «الخازن» (١/ ٤٧٤) و«زاد المسير» (٢/ ٣٨٢).

(٢) كما ذكر ابن كثير في تفسيره للآية والسيوطي في «الدر المنثور» وغيرهما.

ثَمَرَةُ الحبِّ فِي اللَّهِ وَالبغْض فِي اللَّهِ

٥٦- ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ الثمرة والنتيجة للحب في الله والبغض في الله، فبيَّن سبحانه أن ﴿حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، وحزب الله هم أنصار دينه، الذين لا يوالون من حادَّ الله ورسوله، ولو كانوا أقرب الناس إليهم، وهم لا يثقون إلا بالله، ولا يستمدون العون والنصر إلا منه سبحانه، ومن كان من حزب الله وجنده كان له الغلبة والانتصار، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] وهذه بشارة عظيمة.

وبالمقابل فمن يتولَّ غير المؤمنين فهو من حزب الشيطان، وحزب الشيطان خاسرون لدينهم ودنياهم ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة]

النِّدَاء التَّاسِع: النَّهْي عَنْ مَوَالَاةِ مَنْ يَسْخَرونَ مِنَ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

٥٧- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا[1] وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ [2] أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [3] ﴿٥٧﴾﴾

النداء الثالث للمؤمنين في هذا الربع من سورة المائدة، والتاسع فيها، وهو نداء يضيف إلى التحذير من موالاة أهل الكتاب: التحذير من موالاة مَنْ لا كتاب لهم من سائر ملل الكفر والشرك، فينهى عن موالاتهم، فلا تحبونهم، ولا تذكرون لهم أسرار المسلمين، ولا تعاونونهم على ما يضر بالإسلام والمسلمين، مع أن ما معكم من إيمان وتقوى -أيها المسلمون- تدعوكم إلى معاداتهم ومخالفتهم، لا سيما من استهزأ بدينكم واحتقر شعائره.

ويثير هذا النداء في نفوس المؤمنين الغضب لدين الله، والحميَّة لعبادتهم وصلاتهم التي يهزأ بها هؤلاء ويسخرون منها.

---

(١) قرأ حفص (هزُوًا) بإبدال الهمزة واوًا، للتخفيف، مع ضم الزاي وصلًا ووقفًا، وقرأ حمزة بالهمز مع إسكان الزاي، وصلًا فقط، وقرأ خلف العاشر مثله وصلًا ووقفًا، وقرأ الباقون بالهمز مع ضم الزاي وصلًا ووقفًا، ووقف عليها حمزة بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، وبإبدال الهمزة واوًا موافقة للرسم.

(٢) قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بخفض راء (والكفارِ) عطفًا على الاسم الموصول الأول.

(٣) أبدل ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه همزة (مومنين) واوًا، وصلًا ووقفًا، ويوافقهم حمزة عند الوقف.

فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: أيقنوا وصدَّقوا بالله ربًّا، وبمحمد نبيًّا ورسولًا، فأطاعوا الله، واتبعوا رسوله ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي: لا تتخذوا هذا الدين مادة للسخرية والتهكم وموضعًا للعبث، وكان هذا الاستهزاء والاستخفاف بالصلاة يقع من الكفار الوثنيين الذين لا كتاب لهم. كما يقع من اليهود خاصة في الفترة التي كان الوحي ينزل فيها على رسول الله ﷺ بالمدينة، إذ لم يكن فيها نصارى يهزؤون بالدين.

ورد أن رفاعة بن زيد، والحارث بن سويد، أظهرا الإسلام، ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادُّونهما[(١)]

وكان استهزاؤهما وتلاعبهما في إظهار الإسلام وإخفاء الكفر، وكان بعض المسلمين يوادونهما اغترارًا بظاهرهما، فنهى الإسلام عن مودتهما، وكشف الله سترهما؛ إذ كيف يكون وَلاء بين المؤمن وبين من يتلاعب بالدين ويستهزئ به ممن كانوا إذا نودي للصلاة ضحكوا وصاحوا مثل صياح العير.

والله سبحانه يضع قاعدة عامة للمسلمين على مدى التاريخ، سواء أكان هذا المستهزئ بالدين يهوديًّا، أم نصرانيًّا، أم بوذيًّا، أم شيوعيًّا، أم ملحدًا، أم علمانيًّا...إلخ، أي: من أهل الكتاب، أو من غيرهم، وجميع هذه الطوائف تدخل في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهم الذين ينتمي شرعهم إلى كتاب منزل، هو التوراة والإنجيل، باعتبار الأصل وعدم التحريف، أما غير أهل الكتاب فيشير إليهم قوله تعالى: ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ وهم أغلظ وأفحش؛ لأنهم عبدة أوثان.

وقد روى ابن عباس رضي الله عنه أن نفرًا من اليهود والمشركين ضحكوا من المسلمين وقت سجودهم.

وهذا لا ينافي وصف أهل الكتاب بالكفر بعد مجيء محمد ﷺ لعدم الإيمان به، وكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر، ولا ينافي وصفهم بالشرك أيضًا، بعد نسبتهم الولد لله تعالى، وقولهم بالتثليث، فأهل الكتاب كفار؛ لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، ومشركون؛

---

(١) ابن جرير الطبري (١٠/ ٤٢٩) ورجاله ثقات، وهو عن ابن عباس من طريق ابن إسحاق بإسناد حسن، و«زاد المسير» (٢/ ٣٨٥) والقرطبي (٦/ ٤٢٣) والألوسي (٦/ ١٧١).

لأنهم أشركوا مع الله غيره، فلا تتخذوا هؤلاء جميعًا ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ توادونهم وتحابونهم وتتخذون منهم بطانة وأنصارًا، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي وخافوا الله تعالى وراقبوه، ولا توالوا غيره إن كنتم أهل إيمان حقًّا بالله ورسوله في سائر أموركم فـ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقًّا، ممتثلين أمر ربكم، مجتنبين نهيه، فإنَّ وَصْفَكُم بالإيمان يحتِّم عليكم الطاعة التامة لله والرسول.

السُّخْرِيَة مِنَ الأَذَانِ سخْرِيَةٌ مِنَ الإِسْلَامِ

٥٨- ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا[1] وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

بيَّن ﷻ في هذه الآية لونًا من ألوان استهزائهم بالدين، يتمثل في سخريتهم من الأذان، فكان المؤذن إذا أذَّن للصلاة سخروا من دعوته وتلاعبوا بها ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ وهكذا يفعل غير المسلمين في كل زمان ومكان، ومما ورد في ذلك من أسباب **النزول** ما يأتي:

١ - ورد أن منادي رسول الله ﷺ كان إذا نادى للصلاة قالوا على سبيل الاستهزاء والضحك: قاموا، لا قاموا، صلُّوا، لا صلُّوا فنزلت الآية[2].

٢- ولما سمع الكفار الأذان حسدوا رسول الله ﷺ والمسلمين على ذلك، وقالوا: يا محمد، لقد ابتدعت شيئًا لم نسمع به فيما مضى من الأمم الخالية، فَمِنْ أين لك الصياح كصياح العير؟ فإن كنت تدَّعي النبوة، فلقد خالَفْتَ في هذا الأذان الأنبياء قبلك، فما أقبح هذا الصوت! وأسمج هذا الأمر! فنزلت الآية[3].

٣- وقال السدِّي: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمدًا رسول الله، قال: حُرِّق الكاذب! فدخلت خادمة ليلة من الليالي بنار، وهو نائم،

---

(١) قرأ حفص بضم الزاي من (هزُوًا) وبالواو بعدها، وقرأ حمزة وخلف بسكون الزاي بعدها همزة، وقرأ الباقون بضم الزاي بعدها همزة.

(٢) قاله ابن السائب وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٢٩٤) للبيهقي في «دلائل النبوة» عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وانظر: «البحر المحيط» (٣/ ٥١٥) و«تفسير القرطبي» (٦/ ٢٢٤).

(٣) «زاد المسير» (٢/ ٣٨٦) و«الخازن» (١/ ٤٧٥).

وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله[١].

والاستهزاء والتلاعب بالأذان عند سماعه صفة من صفات الشيطان، فهو كما أخبر النبي ﷺ في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أنه: «**إذا سمع الأذان أدبر وله حصاص - ضراط - حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا ثُوِّب بالصلاة أدبر، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لِمَا لم يكن يذكُر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلَّى، فإذا وجد أحدكم ذلك، فليسجد سجدتين قبل السلام**»[٢].

وهذا الاستهزاء واللعب من خصال الجهال والسفهاء الذين لا يعقلون ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يفهمون شرع الله تعالى في عبادته وحده، ولا حكمة الصلاة في تطهير النفوس.

ومما ذكره ابن إسحاق في السيرة أن النبي ﷺ دخل الكعبة عام الفتح، وأمر بلالًا أن يؤذن، فسخر بعض الجالسين في فناء الكعبة، حيث قال عتَّاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدًا حيث لم يسمع هذا الأذان، فيسمع ما يغيظه، وقال الحارث بن هشام: لو أعلم أنه مُحق لاتَّبعتُه، وسكت أبو سفيان، فخرج عليهم النبي ﷺ وأخبرهم بما قالوا، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطَّلع على ما قلناه أحد؛ حتى نقول: إنه قد أخبرك[٣].

وأخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن ابن أبي محذورة أن رسول الله ﷺ لقيه في نفر ببعض الطريق حين العودة من غزوة حنين، فأذَّن مؤذن رسول الله ﷺ قال: فسمعنا صوت المؤذن، فصرخنا نحكيه ونستهزئ به، فأرسل إلينا رسول الله وأوْقفنا بين يديه، وقال: «**أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع؟**» فأشار القوم كلهم إليَّ، وصدقوا، فأرسلهم كلهم وحبسني، وقال: «**قم فأذن بالصلاة**» فقمت ولا شيء أكره إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا مما يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ فألقى عليَّ التأذين هو بنفسه - وذكر ألفاظ

---

(١) ابن جرير الطبري (١٠/ ٤٣٢) تحقيق الشيخ أحمد شاكر والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٧٤) وابن أبي حاتم.

(٢) يُنظَر: البخاري برقم (٦٠٨، ١٢٢٢) ومسلم برقم (١٦، ٣٨٩) و«المسند» (٩١٧٠، ٨١٣٩، ١٠٨٧٨). بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبغوي (٤١٣) والبيهقي (١/ ٤٣٢).

(٣) بتصرف من سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٣).

الأذان - وأن النبي ﷺ قال له: «ارجع فامدد من صوتك» قال: ثم دعاني حين قضيتُ التأذين، فأعطاني صُرَّة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمرَّها على وجهه، ثم بين ثدييه، ثم على كبده، حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سُرَّة أبي محذورة، ثم قال ﷺ: «بارك الله فيك، وبارك عليك»، فقلت: يا رسول الله، مُرني بالتأذين بمكة، فقال: «قد أمرتك به» وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة، فأذَّنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ . . .)[١]

سَبَبُ نِقْمَةِ غَيْرِ المُسْلِمِينَ عَلَى المُسْلِمِينَ

٥٩- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾

وبعد أن نهى ﷻ عن موالاة غير المسلمين ومحبتهم، وعدم المسارعة إلى مودتهم، وبيَّن جلَّ شأنه أنهم يسخرون من ديننا ويهزؤون منه، وجَّه عزَّ وجلَّ الخطاب إلى أهل الكتاب على لسان رسولنا ﷺ؛ ليسألهم سؤال تقريع وتوبيخ وإنكار، فيقول له: قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتاب: إن الذي تظنون أنه مَطْعَنًا علينا، وعيْبًا فينا، هو محْمَدة وفخْر لنا، فأنتم لا تكرهوننا، ولا تعيبون علينا، إلا لأننا نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولا نفرق بين أحد منهم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ أي: تعيبون وتنكرون علينا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ولا نشرك به أحدًا ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: وآمنا بما أنزل إلينا وهو القرآن على لسان محمد ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ وهي الكتب السابقة التي نزلت على موسى وعيسى وغيرهما، على أن كلًّا منها كان له وقت معين، انتهى بمجيء الرسول الذي يليه.

فلا مذمَّة لكم، ولا مطعن فينا لديكم، إلا أننا مسلمون، ولسنا يهودًا ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج].

---

(١) يُنظَر: «المسند» (٣/ ٤٠٨) برقم (١٥٣٨٠) حديث صحيح بطرقه، وهذا إسناد حسن (محققوه) و«صحيح مسلم» برقم (٣٧٩) و«سنن أبي داود» برقم (٥٠٢) و«سنن الترمذي» برقم (١٩١) و«سنن النسائي» (٢/ ٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (٧٠٨) وابن خزيمة (٣٧٩) وابن حبان (١٦٨٠) والنسائي في الكبرى (١٥٩٦).

فما نقمتم منا، وسخطتم علينا إلا لهذا، ولأن أكثركم فاسقون، خارجون عن طاعة الله تعالى، وآية فسقكم أنكم غير مؤمنين بالرسول الخاتم، وهذه حقيقة قررها ربنا في قوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩].

وقد علم الله سبحانه أن بعضهم سيؤمن بالرسالة الخاتمة فقال: ﴿أَكْثَرَكُمْ﴾ ولم يقل كلكم، وفي الآية إلزام لهم بأن الإسلام هو الدين الحق، وأن قدْحهم فيه إنما هو قَدْح فيما ينبغي مدْحه.

ورد أن جماعة من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فذكر جميع الأنبياء، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بمن آمن بعيسى، والله ما نعلم دينًا شرًّا من دينكم، ولا نعلم أهل دين أقل حظًّا في الدنيا والآخرة منكم، فأنزل الله الآية[1].

والله ﷻ يعلمنا طبائع اليهود؛ كي نكون على حذر في التعامل معهم حتى لا يخرجوننا من ديننا؛ فلا يغيظهم من المؤمنين إلا إيمانهم بالله، وإيمانهم بما عند أهل الكتاب، وإيمانهم بما أنزل على محمد ﷺ وهذه أمور جديرة بالمدح لا بالذم، فالإيمان بالله وما أنزل من قبل قدر مشترك بيننا وبينهم، ومن آمن بالوحي المنزل على الرسل السابقين، يؤمن بالوحي المنزل على محمد ﷺ ضرورة، وقد دعا الرسول ﷺ أهل الكتاب إلى الإسلام، وترك لهم حرية الاختيار، كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فما وجه نقمتهم على الإسلام وأهله؟ إلا أن يكون ذلك حقدًا وحسدًا وخروجًا عن طاعة الله، ونحن لا نملك لكم أن تكونوا صالحين!

---

(١) يُنظَر: «زاد المسير» (٢/٣٨٦) وتفسير «الخازن» (١/٤٧٦) وابن إسحاق (٢/٢٠٨) وابن جرير (٦/ ١٨٩) بإسناد حسن عن ابن عباس من طريق ابن إسحاق والواحدي في «أسباب النزول».

أَشَرُّ عُقُوبَةٍ لِأَشَرِّ قَوْمٍ

٦٠- ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ(١) أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

ثم يلقن الله رسوله الجواب، مذكرًا اليهود بما كان من أسلافهم، وقد تضمنت هذه الآية أربعة أوصاف لليهود هي:

١- لعنُ الله لهم
٢- وغضبُه عليهم.
٣- ومسخُهم قردة وخنازير
٤- وكونهم عُبَّادًا للشيطان.

﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين يقولون: ما نعلم دينًا شرًّا من دينكم، قل لهم على سبيل التهكم والتبكيت والتنبيه على ضلالهم: يأهل الكتاب، الطاعنين في ديننا، كيف يصدر منكم ذلك، مع أن الله تعالى قد غضب عليكم ولعنكم. . .

فإن كنتم تعتبرون أن ديننا شر لا خير فيه، فشر منه ما أنتم عليه مِنْ طَرْدٍ من رحمة الله، وأشر منه سوء العاقبة التي تنتظركم في الآخرة.

قل لهم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: هل أخبركم بشر من موقفكم البعيد عن الحق عقوبة عند الله تعالى في الدنيا ومجازاة يوم القيامة أشد من جزاء الفاسقين؟ هو ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ من أسلافكم فطرده وأبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: سخط عليه لِكُفْره وانهماكه في المعاصي، فمَنعه من عَفْوِه ورضاه ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ﴾ على صورة ﴿ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ لافترائهم وكذبهم على الله تعالى وتكَبُّرهم على عباده.

قيل: إن مسخ القردة، كان في أصحاب السبت، ومسخ الخنازير كان فيمن كفر بالمائدة.

ولما نزلت هذه الآية عيَّر المسلمون اليهود، وقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير، فافتضحوا بذلك فإذا كان حالنا شرا كما تظنون فكيف من اجتمع عليه اللعنة والغضب مع المسخ إلى أقبح صورة.

---

(١) قرأ حمزة (وعبُد الطاغوتِ) بضم الباء وجر التاء، على أن (عبد) مفرد، أريد به الكثرة، و(الطاغوت) مجرور بالإضافة، بمعنى: وجعل منهم عبد الطاغوت، أي خدمه، وقرأ الباقون بفتح باء (عبد) ونصب تاء (الطاغوت) على أنه فعل ماض، والطاغوت مفعول به

عن ابن مسعود ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ الله؟ فقال: «**إن الله لم يُهلك قومًا - أو قال: لم يمسخ قومًا - فيجعل لهم نسلًا ولا عقبًا، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك**»[١].

وقال: ابن مسعود: سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهي من نسل اليهود؟ فقال: «**لا، إن الله لم يلعن قومًا قَطُّ فمسخهم، فكان لهم نسل، ولكن هذا خلْق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم، جعلهم مثلهم**»[٢].

والمعنى: أن القردة والخنازيركانت موجودون في بعض اليهود السابقين، وأن الذين مُسخوا منهم قد أهلكهم الله تعالى، ولم يجعل لهم ذرية، وهذا هو الصحيح، لصحة الخبر فيه.

ومرجع عود الضمير في ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ على اليهود؛ لمناسبة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ قبله، ومعنى مثوبة: عقوبة ومجازاة.

وكما أن الله تعالى لعنهم وغضب عليهم، وجعل منهم على صورة القردة والخنازير، فإنه سبحانه جعل منهم عُبَّادًا للشيطان الذي زين لهم عبادة العجل الذهبي، وجعل منهم طاعة الكهان والأحبار في معصية الله تعالى.

وكل ما عُبِد من دون الله فهو طاغوت وشيطان، ومن ذلك عبادتهم للعجل من دون الله بعد أن كانوا أهل توحيد وقد وصفهم ربنا بقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الأربع، وهي: اللعن، والغضب، والمسخ، وعبادة غير الله تعالى، مكانهم في الآخرة أشد شرًّا من غيرهم، وهم أكثر الناس ضلالًا؛ لأنهم أخطؤوا الطريق الصحيح، وخاب سعيهم في الحياة الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الملعونون، الموصوفون بتلك القبائح ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذا بيان لسوء عاقبتهم وقبح مكانتهم.

---

(١) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠٥١) ورقم (٢٦٦٣) وانظر: «المسند» (٥/ ٢٦٠) برقم (٤٢٥٤) إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير المغيرة اليشكري فمن رجال مسلم، (محققوه) وأخرجه النسائي في الكبرى (٩٤) والحميدي (١٢٥) وابن أبي عاصم في السنة (٢٦٣).

(٢) الطيالسي (٣٠٥) و«المسند» (٣٧٠٠، ٤١١٩) وغيرهما بنحوه، وابن أبي حاتم (٦٥٦٢) قال محقق المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات، وأخرجه مسلم (٣٢، ٢٦٦٣) وابن أبي عاصم في السنة (١٦٢) وابن أبي شيبة (١٠/ ١٩٠).

وليس معنى الآية: أن المؤمنين فيهم شر، وأن اليهود أشر منهم، وإنما الكلام مسوق على سبيل المشاكلة والمجاراة على حسب قولهم، وفيه استعمال أفضل التفضيل في غير بابه، فكأن الله تعالى يقول: هب أن الأمر كذلك، لكن من لعنه الله وغضب عليه ومسخ صورته أشد شرًّا وأكثر ضلالًا.

الخِدَاع اليَهودِيُّ

٦١- ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾

ثم أخذ ﷻ يبيِّن لنا بعض خداع اليهود ونفاقهم؛ لنتعرف على أخلاقهم وطبائعهم، فنحذر في التعامل معهم، فقال تعالى عن المنافقين منهم: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نفاقًا ومكرًا، يقولون ذلك بألسنتهم، ونفوسهم تنطوي على الكفر الصريح.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في أناس من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم مؤمنون، راضون بالذي جاء به، وهم في الحقيقة متمسكون بضلالهم وكفرهم، فأخبر الله رسوله بنفاق هؤلاء اليهود الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر(١).

ولعل هؤلاء اليهود هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢].

والله سبحانه يخبر رسوله أنهم دخلوا كفارًا وخرجوا كفارًا، فهم كفار في الحالتين، ولم يتعلق الإيمان بقلوبهم، وإنما أظهروه لك كذبًا وخداعًا ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ ولم ينتفعوا بشيء مما استمعوا إليه منك، فألسنتهم تقول غير ما يحملوه في جعبتهم من الكفر حال دخولهم وحال خروجهم، بل كانوا عند خروجهم أشد كفرًا، كما تقول العرب: خرج بغير الوجه الذي دخل به.

وعبَّر سبحانه وتعالى عن الدخول بقد، التي تفيد تقريب الماضي من الحال، كما عبَّر بلفظ ﴿بِهِۦ﴾ عند الخروج؛ لتأكيد إضافة الكفر إليهم، وبيان أنهم قد خرجوا وهم أشد

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن عن قتادة والسدي (٨/ ٥٤٧) وابن أبي حاتم (٦٥٦٤).

كفرًا وأقسى قلبًا؛ لأنهم لا يتأثرون بالمواعظ، وقد وصف الله قومًا بأنهم إذا استمعوا إلى القرآن ازدادوا إيمانًا، ووصف آخرون بأنهم ازدادوا رجسًا إلى رجسهم، وماتوا وهم كافرون، فهم مصرون على اعتقادهم في جميع الأحوال، ثم بيَّن سبحانه أن خداعهم ونفاقهم لا يخفى على الله تعالى، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ فيجازيهم على صنيعهم، وفيه وعيد شديد على كفرهم ونفاقهم.

مسَارَعَة اليَهودِ إلَى المنْكَرَاتِ

٦٢- ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا[١] مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ[٢] لَبِئۡسَ[٣] مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

ثم بيَّن ﷻ خصلة أخرى من خصال اليهود، وهي أنهم يبادرون إلى المنكرات، ويسارعون في الإقدام عليها بخفة وإقبال، كأنها جبلَّة لهم، أو طَبْع من طباعهم، وأنهم أهل حق فيها، فقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ، وكاشفًا له عن صفات المجتمع اليهودي: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي﴾ ثلاثة أشياء هي:

١- ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ والإثم: اسم جامع لجميع المعاصي والمنهيات التي تختص بالعبد في حد ذاته؛ كالكذب، والبخل، والكفر، وهذه المعاصي متعلقة بحقوق الخالق سبحانه.

٢- ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ وهو الظلم ومجاوزة الحد، وكل ما فيه تعدٍّ على الآخرين، وهذا الظلم والعدوان متعلق بحقوق المخلوقين.

٣- ﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ وهو المال الحرام، ومنه الرشوة والربا، وكل ما فيه أكل لأموال الناس بالباطل.

---

(١) رقق الراء من (كثيرا) الأزرق عن ورش وفخمها الآخرون.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف العاشر (السحْت) في هذه الآية والتي بعدها بسكون الحاء، والباقون بضمها، وهما لغتان وقرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (وأكلهِمِ السحت) وضمهما حمزة والكسائي وخلف العاشر. وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم. وهذا في حالة الوصل، أما في حالة الوقف على (وأكلهِمْ) فكل القراء يكسرون الهاء ويسكنون الميم.

(٣) أبدل ورش والسوسي وأبو جعفر همزة (لبئس) ياء، وحققها الآخرون.

وهؤلاء لم يكتفوا بفعل هذه الذنوب الثلاث، بل يساعون إليها ويقبلون عليها، وهذا من خبث طويتهم وحبهم للظلم والمعاصي.

ثم ذمَّ ﷻ أعمالهم هذه، وأكدها باللام الموطئة للقسم، وبكلمة بئس، الدالة على الذم في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لهذه المنكرات الثلاث، وهي: المسارعة إلى الإثم والعدوان وأكلهم السحت، وهذا تقبيح لأعمالهم التي يأباها الدين والخلق الكريم.

السُّكوت عَنِ المنْكَرِ عَاقِبَته وَخِيمَةٌ

٦٣- ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ[1] ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾

والمجتمع الفاضل هو الذي تكون فيه هيئة أو سلطة تتولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسكوت عن ارتكاب المنكرات في كل أمة نذير شؤم، يُؤذِنُ بنتائج خطيرة وعواقب وخيمة، ومن هنا فقد وبخ الله سبحانه علماء اليهود وهم الأَحْبَارُ، والربانيون وهم العلماء العاملون، أرباب الولايات عليهم، وبخهم وعنَّفهم على سكوتهم على ارتكاب المنكرات من عامتهم، فالساكت عن الحق شيطان أخرس.

يقول تعالى منكِرًا عليهم ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلَّا ﴿يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ من العلماء الذين ينصحون الناس ليزول عنهم ماهم فيه من الجهل، ويرغِّبونهم في الخير ويرهِّبونهم من الشر، فينهوْهم ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ من المعاصي والمنكرات ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ وهو المال الحرام، ومنه الرشوة ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ لقد ساء صنيعهم حين تركوا النهي عن المنكر، وهذا يدل على أن تارك النهي عن المنكر كفاعله؛ لأن الله تعالى ذمَّ الفريقين معًا في هذه الآية.

قال ابن عباس ﷺ: ما في القرآن آية أشد توبيخا من هذه الآية، يعني بالنسبة لتارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي الحديث عن أبي بكر ﷺ أن رسول الله ﷺ: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا**

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (قولهم الإثم وأكلهِم السحت)، وضمهما حمزة والكسائي وخلف، وكسر الهاء، وضم الميم الباقون.

على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»[١].

وفي لفظ آخر «**إن الناس إذا رأو المنكر فليم يغيره أوشك أن يعمهم الله بعقابه**»[٢].

وقد قال سبحانه في المقْدِمين على الإثم والعدوان وأكل السحت: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقال في العلماء والعبَّاد التاركين للنهي عن المنكر: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ والصنع أقوى من العمل؛ لأن العمل يسمى صناعة إذا رسخ وتمكن، فكأن السكوت على ارتكاب المنكر أشد جرمًا وأعظم إثمًا، وهو منذر بعقوبة عامة.

وقد لعن الله اليهود على لسان داود وعيسى ابن مريم بسبب عدم التناهي عن المنكر، وحذَّرنا ﷺ أن نكون مثلهم، فأوجب علينا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران]. وأناط سبحانه خيرية هذه الأمة بقيامها بهذا الواجب في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

خطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار أخذتْهم العقوبات، فَمُرُوا بالمعروف وانهوْا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقًا، ولا يقرب أجلًا[٣].

وقد وبَّخ الله علماء اليهود وفقهاءهم على عدم نهيهم لهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت؛ لأن هاتين الرذيلتين هما جماع الرذائل؛ إذ القول بالباطل الكاذب، إذا تعود عليه الإنسان هانت عليه الفضائل، وتكلم في الناس دون حياء ولا حرج، وأكل المال

---

(١) رواه الترمذي عن أبي بكر بإسناد صحيح رقم (٢١٦٨) والمسند (٣٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ١٧٤) وابن ماجه (٤٠٠٥) وعبد بن حميد (١) والبزار (٦٨).

(٢) المسند (١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الحميدي (٣) وأبو داود (٤٣٣٨) وأبو يعلى (١٣٢) والبزار (٦٥) وابن حبان (٣٠٤).

(٣) ابن أبي حاتم بسنده (٢/ ١٤٥) برقم (٦٥٧١).

الحرام يقتل في النفس المروءة والشرف، ويجعلها تستهين بحقوق الناس وأموالهم.

وقد أَلِف علماء اليهود أكل أموال الناس بالباطل، بدعوى أن الله تعالى سيغفر لهم ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وهم كاذبون في دعواهم، متقوِّلون على الله تعالى ما لم يقُلْه.

مِنْ أَبْشَعِ أَقْوَالِ اليَهُودِ

٦٤- ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ[1] غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ[2] إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا[3] ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه أمثلة من قبيح أفعال اليهود، ذكر صورة من أبشع أقوالهم؛ ليجمع لهم بين قبيح الفعل المتمثل في تسابقهم إلى فعل المنكرات من الإثم والعدوان، وبين قبيح القول: من أن الله تعالى بخِل عليهم بالرزق والتوسعة، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ أي: مقبوضة ومحبوسة عن البذل والعطاء وعن الخير والإحسان والبر.

وقد نهى الله تعالى عن البخل في قوله ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] فنسبوا إلى الله تعالى ما نهى عنه من والبخل بالتوسعة عليهم في الرزق حين لحقهم القحط والجدب، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

قال ابن عباس ﷺ: لا يَعْنُون أن يد الله مُوثقة ولكنهم يقولون: إنه بخيل[4]

من أسباب النزول:

١- قيل: إن اليهود لما سمعوا النبي ﷺ يقرأ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾

---

(١) قرأ أبو جعفر بإخفاء التنوين في الغين من (مغلولة غلت).

(٢) سهل الهمزة الثانية من (البغضاء إلى) نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ورويس، وحققها الآخرون.

(٣) سهل الهمزة الثانية من (أطفأها) وقفًا حمزة وحققها غيره.

(٤) «تفسير الطبري» (١٠/ ٤٥٢).

[الحديد: ١١]. ورأَوْا النبي ﷺ في فقر وقلة مال، قالوا: إن إله محمد ﷺ بخيل(١).

وكان المسلمون في أول الهجرة في فقر وشدة.

٢- وقيل: إن هذه الآية نزلت في فنحاص بن عازوراء، اليهودي الذي أفصح عن مآثمهم وما يسرُّونه فيما بينهم حين دُعُوا إلى الإنفاق في سبيل الله، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾(٢) [آل عمران: ١٨١].

فضربه أبو بكر ﷺ، وكان اليهود قد نزلت بهم شدة وأصابتهم مجاعة.

ولما قال فنحاص هذه المقالة رضي بها اليهود ولم ينهَوْه، ولذا أشركهم الله معه في المقالة.

٣- ومن ذلك أن شاس بن قيس اليهودي قال للنبي ﷺ: إن ربك بخيل لا ينفق، فنزلت الآية كما قال ابن عباس ﷺ(٣).

وهم بهذا القول قد استوجبوا مقت الله وغضبه، وحقَّت عليهم لعنته وسخطه ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم، أو إخبار عن حالهم، بمعنى مُنِعت أيديهم عن الإنفاق والخير، وغُلَّت في نار جهنم، ونَفَذ فيهم قضاء الله تعالى، وحقت عليهم لعائن الله تعالى ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ فحُبِست أيديهم عن فعل الخيرات، وطردوا من رحمة الله، وعذبوا في الدنيا والآخرة، وقد حقت عليهم كلمة الله، فهم أبخل خلق الله، كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء].

وهم أحرص الناس على الدنيا ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

وليس الأمر كما يفترون على ربهم، بل هو سبحانه واسع الفضل، جزيل العطاء، خزائنه لا تنفد ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ لا حجْر عليه، ولا مانع يمنعه من الإنفاق، فإنه جواد كريم، ينفق على مقتضى الحكمة وما فيه مصلحة العباد.

---

(١) «تفسير القرطبي» (٦/ ٢٣٨).

(٢) ابن جرير الطبري (١٠/ ٤٥٣) بسند ضعيف، وانظر «تفسير القرطبي» (٦/ ٢٣٨) و«أسباب النزول» للسيوطي (١٠٧).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٢٤٩٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧): رجاله ثقات، وذكره ابن إسحاق وابن كثير وغيرهما.

ولما كان أقصى الكرم أن ينفق العبد بكلتا يديه، عبَّر ﷻ بذلك فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ في مقابل قولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ وقد أجيبوا وفق كلامهم من التعبير باليد.

وفي الآية إثبات لصفة اليدين لله تعالى، كما يليق بجلاله من غير تأويل ولا تشبيه ولا تكييف، فنؤمن بها كما جاءت.

وقد صح في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن يمين الله ملأى، لا يغيضُها نفقة، سحَّاء الليل والنهار**»[1] أي: لا ينقصها النفقة.

وسحاء: أي دائم العطاء، وفي الحديث عن ابن عمر: «**وكلتا يديه يمين**»[2].

وهو سبحانه ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ بمقتضى حكمته ومشيئته، يعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، والعرب يُعَبِّرون باليد عن العطاء فيقولون: صاحب اليد الطولى، أي: كثير البذل والكرم.

ثم بيَّن ﷻ أن كفرهم وطغيانهم سوف يزيدهم على الرسول ﷺ حقدًا وحسدًا منهم على اصطفائه بالرسالة، وكلما نزل عليه شيء من القرآن ازدادوا كفرًا وبعدًا قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ وهذا من أعظم العقوبات لهم، حيث يزيدهم الوحي المنزل لهداية البشر وسعادتهم، غيًّا إلى غيّهم، وطغيانًا إلى طغيانهم، وكفرًا إلى كفرهم، وذلك بسبب إعراضهم ومعاندتهم، حيث أعماهم الحسد، فازدادوا كفرًا وطغيانًا، وقال سبحانه: ﴿كَثِيرًا﴾ ليُخرج مَنْ أسْلَم منهم وحَسُن إسلامه.

ثم أخبر الله تعالى رسوله في الشق الثاني من الآية، بما بيّن طوائف اليهود من العداوة والخصومة والبغضاء في الدين والعقيدة، فمنهم الجبرية، ومنهم القدرية، ومنهم المشبهة، ومنهم الفِرِّيسِيُّون، وغير ذلك وبعضهم لبعض عدو، وهم فرق متناحرة متفرقة ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤]. وحالهم هكذا إلى يوم القيامة، كما قال تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فلا يتآلفون ولا يتناصرون ولا يتفقون، بل لا يزالون في عداوة وبغضاء إلى يوم القيامة.

---

(١) الحديث في البخاري عن أبي هريرة برقم (٤٦٨٤، ٧٤١١، ٧٤١٩) وفي مسلم (٢/ ٦٩١) برقم (٩٩٣) و«المسند» (٢/ ٣١٣) برقم (٨١٤٠، ٧٢٩٨، ١٠٥٠٠) والترمذي وابن ماجه (١٩٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٣/ ١٤٥٨) رقم (١٨٢٧).

والعداوة أخص من البغضاء؛ لأن كل مبغض عدو، وقد يبغض من ليس بعدوٌ، والنصارى كذلك فرق مختلفة في العقائد متناحرة فيما بينها: الكاثوليك، والأرثوذكس، والمارون، والبروتستانت، ولم توجد فرق، ولا مذاهب في الإسلام أثناء العهد النبوي، ولا في عصر الصحابة والتابعين، وقد حدث هذا بعد القرون الثلاثة المفضلة، فاليهود طوائف متشاحنة متعادية وإن بدا خلاف ذلك، وهم يحاولون دائمًا أن يكون لهم النفوذ السياسي والاقتصادي والعسكري، وأن يكونوا القوة الضاربة في العالم؛ ليضربوا الإسلام والمسلمين بأيدي غيرهم لا بأيديهم.

ونفوذهم في مجلس الشيوخ الأمريكي واضح.

ونفوذهم في اختيار الرئيس الأمريكي في كل انتخاب واضح.

ونفوذهم في أن تكون حقيبة الخارجية والدفاع والاقتصاد بأيديهم أمر واضح، وواقع ملموس.

ثم بيَّن ﷻ أنه كلما تآمر اليهود على الإسلام والمسلمين فأثاروا الفتن وأشعلوا نار الحرب بين المسلمين، ردَّ الله كيدهم، وفرَّق شملهم ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ وهذا إخبار عن حال أسلافهم، ومن كان منهم معاصرًا للنبي ﷺ.

وكانت بعض القبائل إذا أرادت الحرب أوقدت نارًا على قمة الجبل؛ ليهتدي بها الجيش لكثرته فيتجمعوا لساحة القتال، وليس هذا معنى الآية، وليس عادة متبعة لا قديمًا ولا حديثًا. وفي عصرنا أججوا نار الحرب في فلسطين بين الحين والآخر، لجسِّ نبض المسلمين، وإمكانية القيام بهدم المسجد الأقصى لبناء الهيكل المزعوم على أنقاضه، حدث هذا في حريق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩م.

وحدث أيضًا في حفر الأنفاق حول وتحت المسجد عام ١٩٩٦م وما بعده.

وحدث اقتحام شارون[١] للمسجد الأقصى تحت حماية وحراسة مشددة في عام ٢٠٠٠م، مما أدى إلى انتفاضة العالم الإسلامي بشكل لم يسبق له مثيل، وهكذا كلما أشعلوا نار الفتنة، أرسل الله عليهم من يحطمها، ويوقفها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

---

(١) رئيس وزراء إسرائيل في التاريخ المذكور.

وقد سلط الله المسلمين على اليهود فأخرجوهم من خيبر ومن المدينة وما حولها، والتاريخ شاهد بذلك، منذ بعث الله عليهم بختنصَّر البابلي حين أفسدوا في الأرض وبعث عليهم الرومان لَمَّا أفسدوا، وسلط عليهم الفرس لما أفسدوا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]. فسنة الله قائمة إلى قيام الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود في آخر نصر لهم عليهم حين يختبئ اليهودي وراء الحجر فينطقه الله ويقول: (يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله)

ثم أخبر ﷻ أنهم يمكرون بالمسلمين دائمًا، ويجتهدون في النيل من الإسلام، والقضاء على قوة المسلمين، ويسعون سعيًا حثيثًا للإفساد في الأرض عن طريق إثارة الفتن وإيقاظ الأحقاد بين الناس والعمل بمعاصي الله ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ لإثارة الفتن بين المسلمين ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم.

صَلَاحُ اللَّاحِقِ بِمَا صَلُحَ بِهِ السَّابِقُ

٦٥- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ[1] وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

ثم رسم الله سبحانه قاعدة عامة لصلاح الدنيا والآخرة معًا في كل أمة من الأمم، السابقين والحاضرين واللاحقين، وهي القاعدة والمنهج لكل من وُجد على ظهر الأرض من لدن بعثة النبي ﷺ إلى قيام الساعة، إنها دعوة إلى التوبة والإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر، واتقاء المعاصي، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى وغيرهما ﴿ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ بمحمد ﷺ، وصدقوه فيما جاء به من عند الله، بعد توحيدهم لله عزَّ وجلَّ، ثم قرنوا هذا الإيمان بالتقوى، فاجتنبوا ما حرم الله تعالى، وتركوا معاصيه، وامتثلوا ما أمرهم الله به، وتركوا ما نهى عنه، وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه سبحانه، لو أنهم فعلوا ذلك ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: محونا عنهم ذنوبهم التي عملوها قبل دخولهم في الإسلام؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، فلا نؤاخذهم عليها، بل نسترها ونغفرها ولا نعاقبهم عليها ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مع جملة المسلمين.

---

(١) أبدل حمزة همزة (سيئاتهم) ياء خالصة عند الوقف، وحققها الآخرون.

وفي الحديث عن أبي بريدة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**اثنان يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، ثم آمن بي فله أجران، ورجل كانت له جارية فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران**»[1].

وهذا منهج مكون من مادتين اثنتين هما: الإيمان، والتقوى. ويترتب عليه أمران هما: سعادة الدنيا والآخرة، فلا افتراق بين الدنيا والآخرة، ولا بين الدين والدنيا، ولا تعارض ولا تناقض، ولا تضاد ولا تصادم بين العمل لكل منهما، فالطريق واحد، ما يُصلح الدنيا يصلح الآخرة، وصلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا (بالإيمان والتقوى)

فسعادة الآخرة تحصل برفع العقاب وإيصال الثواب، وهذا حاصل بتكفير السيئات ودخول الجنات، أما سعادة الدنيا فتحصل بالعمل بما أنزل الله تعالى على رسله، فالمنهج الإسلامي يجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، والفصام بينهما يؤدي إلى التوتر، والقلق والحيرة، والشقاء الدنيوي والأخروي، فكم من البشر منغمسون إلى أذقانهم في الترف والنعيم الدنيوي وجميع الملذات والشهوات بعيدًا عن العمل للآخرة، وهم في انحلال نفسي وخلُقي، وقلق عصبي، وخوف داخلي، يدمر حياتهم المادية إن عاجلًا أو آجلًا، بسبب الفصام بين منهج الله وحياة الناس. قال تعالى:

٦٦- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم[2] مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

أي لو أن اليهود والنصارى ﴿أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ فعملوا بما فيهما، وأطاعوا أوامر الله، واعترفوا بما جاء فيهما، واجتنبوا ما نهى الله عنه فيهما، وحققوا منهج الله كما أنزله على رسولهما من غير تحريف، ولا تغيير، ولا تبديل، لو أنهم فعلوا ذلك؛ لسلموا من غضب الله، ولأغدق الله عليهم نعمه، فيسَّر لهم الأرزاق، وفتح لهم أبواب الأرض والسماء، وهذا يقتضي بالضرورة العمل بما فيهما من البشارة بالنبي ﷺ.

---

(١) في حديث أبي بردة في البخاري (٩٧) و(٣٠١١) ومسلم (١٥٤) بلفظ (ثلاثة يؤتون أجرهم..) وعن أبي موسى أيضًا كما في صحيح الجامع (١٨٨١).

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهم) وكسرها الباقون.

ولو أن المعاصرين منهم للنبي ﷺ ومن جاؤوا بعدهم عملوا بما أُنزل على محمد ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ وهو القرآن، ولو أنهم عملوا بما جاء في كتب أنبيائهم من البشارة بمحمد ﷺ مثل كتاب أشعياء، وكتاب أرمياء، وزبور داود، لكانوا في عداد المؤمنين بكتب الله ورسله، وفازوا بسعادة الدنيا والآخرة، فجميع الكتب التي نزلت من عند الله تعالى يصدق بعضها بعضًا، والسابق منها يسلِّم الراية لِلَّاحق، وكلها بشرت بالرسول الخاتم، والقرآن يجمعها، ويصدِّقها، ويهيمن عليها.

والمراد بإقامة هذه الكتب جميعًا: العمل بما فيها، وعدم تحريفها أو تغييرها، وتصديق ما جاءت به من البشارة بمحمد ﷺ والإيمان به واتباع هديه؛ لأنهم مأمورون باتباعه ﷺ ومخاطبون بما جاء به من عند الله تعالى، فهو منزل إليهم وإلى غيرهم من عند ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ثم رتَّب ﷻ على ذلك كثرة الرزق، وسعة العيش، ومجيء الخيرات من فوقهم بكثرة الأمطار، ومن تحتهم بكثرة النبات، واستخراج كنوز الأرض ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ من رزق الله في الجنة ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ من رزق الله في الدنيا، فالاستقامة على إقامة شرع الله تعالى، سبب لكثرة الخيرات، وعميم البركات، وسعة الأرزاق، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن].

وهذه سنة الله في خلقه لجميع الأمم، كما قال تعالى عن قوم هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢].

وقال عن قوم نوح: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

وقال سبحانه عن جميع الخلق: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال جل شأنه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق]

والآية التي نحن بصددها نزلت في سياق الحديث عن اليهود الذين قالوا ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ حين قلَّت الأرزاق عليهم، فكأن الله تعالى يقول ـ مع عموم الآية ـ ولو أن اليهود تركوا ما هم عليه من الكفر، وعدم الإيمان بمحمد ﷺ لانقلبت تلك الشدة إلى خصوبة وسعة رزق، وهذا الشرط ليس خاصًّا بهم، فهو لأهل كل كتاب في زمن نبيهم، وأمة هذا القرآن هم أولى الناس به.

وغني عن البيان أن الله تعالى لا يقبل من أحد دينًا آخر بعد بعثة الرسول ﷺ وقد انتهى إليه كل دين قبله.

ثم بيَّن ﷻ أن من أهل الكتاب فريقًا معتدلًا ثابتًا على الحق، كما قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف]. والمراد بهم الطائفة التي آمنت بمحمد ﷺ مثل: عبد الله بن سلام وأصحابه، والنجاشي وأصحابه، ونصارى نجران وغيرهم، وكل من يحذو حذوهم إلى يوم القيامة ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلة، عاملة بما في التوراة، لا تغالي في دينها ولا في نبيها، ولا تقصِّر في طاعة الله تعالى، والمراد بهم من دخل في الإسلام منهم.

وكثير من أهل الكتاب مثل كعب بن الأشرف، ورؤساء اليهود أقاموا على كفرهم، ومثلُهم كل يهودي أو نصراني ولد بعد بعثة النبي ﷺ ولم يؤمن به، وهؤلاء قد ساء عملهم وضل سعيهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، فالمسيء منهم أكثر من المقتصد.

وهكذا قال الله تعالى في النصارى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]. فهم فرقتان أيضًا كاليهود، وهكذا، فإن هذه الآية والتي قبلها بشَّرت أهل الكتاب بالسعادة في الدنيا والآخرة متى آمنوا بالله تعالى، واتبعوا ما جاء به محمد ﷺ، وإن لم يتحقق ذلك فلا وجه للانتفاع بما في التوراة والإنجيل.

في مسند الإمام أحمد وغيره عن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: **«وذاك عند ذهاب أهل العلم»** قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءَهم إلى يوم القيامة؟ قال: **«ثكلتك أمك يابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوَ ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل**

ولا ينتفعون مما فيهما بشيء»[١].

وفي رواية عبد الرحمن بن جبير بن نُفَيْر عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: **«يوشك أن يُرفع العلم»** فقال زياد بن لَبيد: يا رسول الله، وكيف يُرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلّمناه أبناءنا؟ قال: **«ثكلتك أمك يا بن لَبيد! إن كنتُ لأراك من أفقه أهل المدينة، أوَ ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى؟! فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله، ثم قرأ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾»**[٢].

أما أهل الإسلام فقد قسَّمهم الله تعالى إلى ثلاثة طوائف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]. والظالم لنفسه هو الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، والمقتصد - هو من اقتصر على امتثال الأوامر واجتناب النواهي، والسابق بالخيرات - هو من زاد على ذلك بالإكثار من النوافل.

حِفظ اللهِ تَعَالَى لِرَسولِهِ ﷺ حَتَّى يبلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ

٦٧- ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ[٣] وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

وفي سياق الحديث عن أهل الكتاب، ينادي الله تعالى رسوله الكريم أن يبلغ للناس جميع ما أوْحى الله به إليه، وإن لم يفعل أو ترك شيئًا مما أُمر بتبليغه لأي سبب من الأسباب، فما بلَّغ وما قام بواجب الرسالة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾

---

(١) «المسند» (٤/ ١٦٠) برقم (١٧٤٧٣، ١٧٩١٩) بنحوه، حديث صحيح ورجال ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/٥٣٦) والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣٤٤) والطبراني في الكبير (٥٢٩١) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٤٨) قال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٢٥٣) إسناده منقطع، قال البخاري في «التاريخ الصغير»: لم يسمع سالم بن أبي الجعد من زياد بن لبيد، وانظر الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٧٢).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٤٣) والبزار في مسنده برقم (٢٣٢) «(كشف الأستار») وابن أبي حاتم (٦٥٩٥) وهو حديث مرسل.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب (رسالاته) بالجمع، والباقون (رسالته) بالإفراد.

ويدخل في هذا الأمر، كل ما أمر الرسول بتبليغه من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية، وإن لم تستوف - أيها الرسول - ما أمرت بتبليغه فحكمك في عدم الامتثال حكم من لم يبلغ شيئًا أصلًا، وهذا معنى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ وقد بلغ النبي ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر وبشر، وعلَّم وبلَّغ بقوله وفعله وكتبه ورسله، فلم يبق خيرا إلا دل الأمة عليه، ولا شرا إلا حذر منه.

ولما كانت الآية التي قبلها والتي بعدها تتحدث عن أهل الكتاب، كان لهذه الآية في هذا السياق معنى يتعلق بأهل الكتاب خاصة، ثم هي كسائر الآيات تأخذ حكم العموم، وهو هنا: وجوب تبليغ الوحي للخلق أجمعين.

وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [٤١].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [٤٩].

والسياق يقتضي حمل الآية بالدرجة الأولى على أن الله تعالى قد أمَّن رسوله محمدًا ﷺ من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ وإشهاره من غير مبالاة منهم؛ وذلك لتثبيت قلب النبي ﷺ وتقويته وتأمينه من خوف الأعداء، وهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ففي هذا حماية وحفظ وعصمة من الله لرسوله أن يمسه أذى من الناس، وأنه ينبغي له أن يصرف همته وحرصه على الدعوة والبلاغ، ولا يخاف من المخلوقين، فإن نواصيهم بيد الله سبحانه، وقد تكفل الله بعصمته، ومهمتك - أيها الرسول - هي البلاغ المبين، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها.

ومما جاء في **أسباب النزول**:

١ - قالت عائشة ﵂: سَهِر رسول الله ﷺ ذات ليلة. أي: أصابه أرق. فقلت: ما شأنك؟ قال: «**ألا رجل صالح يحرسني الليلة؟**» فبينما نحن في ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «**من هذا؟**» فقال: سعد وحذيفة جئنا نحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ غطيطه، فنزلَتْ ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة

أدم، وقال: «**انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله تعالى**»[(١)].

٢ - وعن أبي هريرة ﷺ قال: كنا إذا صحبنا رسول الله ﷺ في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلها، فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلَّق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷺ «**الله يمنعني منك، ضع السيف**»، فوضعه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[(٢)].

٣ - وقيل: إن الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ نزلت في قصة سؤال اليهود للنبي ﷺ عن حكم الرجم والقصاص، بأن يجهر بالحكم فيهما، ولا يبالي بهم.

٤- وعن عبد الله بن شفيق عن عائشة ﷺ قالت: كان النبي ﷺ يُحرَس حتى نزلت هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبَّة وقال: «**يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني الله عزَّ وجلَّ**»[(٣)].

هذا: وكان أهل الكتاب والمنافقين قد تظاهروا على النبي ﷺ: فريق مجاهر بالعداوة، وفريق مستتر، فجاءت هذه الآية؛ لتثبيت قلب النبي ﷺ وشرْح صدره بأن يداوم على تبليغ الرسالة، ويجتهد في ذلك، ولا يكترث بما يلاقيه من أهل الكتاب والكفار، والله تعالى حافظ رسوله وعاصمه من أعدائه ومهوِّن عليه أمرهم.

والمراد بالعصمة: الوقاية والحفظ من اغتيال المشركين له ﷺ؛ إذ لو حصل ذلك لتعطلت الرسالة، وكان النبي ﷺ حريصًا على هداية الناس، ولذلك فإن النبي ﷺ لما

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٩٦) برقم (٣٠٤٦) والطبري (١٠/ ٤٦٩) والحاكم (٢/ ٣١٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقد حسَّن الحافظ في الفتح إسناده، و«المسند» (٦/ ١٤٠) برقم (٢٥٠٩٣) بلفظ (ليت رجلًا) وهو في الصحيحين من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، يُنظَر: البخاري (٦/ ٨١) برقم (٢٨٨٥، ٧٢٣١) ومسلم (٤/ ١٨٧٥) برقم (٢٤١٠).

(٢) أخرجه ابن مردويه، قال محقق «تفسير ابن كثير» ط دار الراية بالرياض: شيخ ابن مردويه أبو عمرو وشيخه محمد بن عبد الوهاب لم أقف على تراجمهما، وبقية رجال السند على شرط مسلم، وهو في «صحيح ابن حبان» برقم (١٧٣٩) (موارد) واللفظ له.

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٥٠٣٧) وصحيح الترمذي (٢٤٤٠) بتحسين الألباني له و«تفسير الطبري» (١٠/ ٤٦٩) و«المستدرك» (٤/ ٣١٣) وسنن سعيد بن منصور برقم (٧٦٨).

عرض نفسه على القبائل في أول الدعوة طلب منهم أن يبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم حتى يبلغ رسالة ربه.

أما ما دون الاغتيال أو القتل، فقد حدث للنبي ﷺ وناله من الأذى الشيء الكثير، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى أدْمَوْه، وشُجَّ وجهه الشريف، وكُسِرت رباعيته، ووضعوا سلَى الجزور عليه ﷺ وهو ساجد.

وهذه العصمة من القتل والاغتيال قد وعد الله تعالى بها رسوله ﷺ في أكثر من موضع، كما قال تعالى ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. وقد أخذ النبي ﷺ من هذه الآية وهو بمكة أن الله تعالى قد عصمه من المشركين.

وفي غزوة ذات الرقاع سنة ست من الهجرة، أي: قبل نزول هذه الآية وجد غَوْرَث بن الحارث رسول الله ﷺ نائمًا في ظل شجرة، ووجد سيفه معلقًا، فاخترطه، وقال للرسول ﷺ: من يمنعك مني؟ فقال: **«الله»**، فارتعدت يده وسقط السيف من يد الأعرابي (غَورث)، وقال له النبي ﷺ: **«إن الله قد حال بينك وبين ما تريد»**[١].

وقد جاءت هذه الآية تثبيتًا لوعد الله تعالى له بحفظه، وتطمينًا له بالمداومة على ذلك، وأن هذا الوعد لا يتغير مع تغير الأعداء، سواء أكانوا مشركين وثنيين، أو يهود، أو غير ذلك، فكلهم كفار، وسبب عداوتهم وعدم هدايتهم هو الكفر.

ومع أن رسول الله ﷺ يحب الرفق في الأمر كله، وقد أخبره ربه ألا يجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، فقد أعلمه ربه أنه لا رفق مع هؤلاء؛ لأنهم لا يدخلون تحت مَن يُجادَلون بالتي هي أحسن، وأمره أن يقول لهم: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [٥٩]. وأن يقول لهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾. فحذَّره ربه من ملاينتهم ومن خشية إعراضهم عنه، وَأَمَرَهُ أن يبلغهم قوارع القرآن، وأخبره أن ذلك سيزيدهم طغيانًا وكفرًا فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [٦٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله برقم (٦٦١٤) وأصل القصة في «صحيح البخاري» برقم (٢٩١٠، ٤١٣٥، ٤١٣٦) وفي «صحيح مسلم» برقم (٨٤٣).

فالمراد بهذا التبليغ في الآية: تقريع أهل الكتاب وعدم المبالاة بهم.

وقد صان الله تعالى رسوله ﷺ في بدء الدعوة بعمه أبي طالب.

ونجَّاه الله من تآمر المشركين على قتله ليلة الهجرة.

وقيض له الأنصار فبايعوه، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وذراريهم.

وحفظه من تآمر اليهود على قتله أكثر من مرة.

ونجَّاه من مكرهم حين همُّوا بإلقاء الحجر عليه وهو جالس تحت دار من دورهم.

ووضعوا له السم في ذراع الشاة فأعلمه الله تعالى به.

وحفظه من السحر الذي أرادوه به.

وأنزل عليه المعوذتين.

ولما أُتي النبي ﷺ برجل، وقيل له: هذا أراد أن يقتلك، قال ﷺ: **«لم تُرع، لم تُرع، ولو أردتَ ذلك لم يسلطك الله عليَّ»**[1].

وعَصَمَهُ الله تعالى في غزواته وحروبه من أن تمتد إليه يد الأعداء على كثرتها، ولا ينافي ذلك ما حدث في غزوة أحد من شج وجهه الشريف وكسر رباعيته؛ لأن العصمة له ﷺ من القتل والاغتيال، وليس من الأذى، وقد حفظه الله من القتل حتى الموت.

على أن هذه الآية من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ أي: بعد غزوة أحد التي حدث فيها هذا الأذى.

أما عدم كتمان الرسول ﷺ لشيء مما نزل، فقد شهد له الصحابة جميعًا بأداء الأمانة وتبليغ الرسالة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته ﷺ يوم حجة الوداع، وكان معه أربعون ألفًا من الصحابة، كما ثبت في صحيح مسلم وغيره.

---

(١) يُنظَر ذلك في «المسند» (٣/ ٤٧١) برقم (١٥٨٦٨) عن أبي إسرائيل الجُشمي بسند ضعيف، والطبراني في الكبير برقم (٢١٨٣) من طريق علي بن الجعد عن شعبة، وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٩٠٣) وفي عمل اليوم والليلة (١٠٦٤).

عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: «**أيها الناس: إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت وأدَّيت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء، ويقلبها إليهم ويقول: «**اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت**»[(١)].

وفي صحيح البخاري وغيره عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لمسروق: ثلاث من حدثك بهن فقد كذب، من حدثك أن محمدًا كتم شيئًا مما أُنزل عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ الحديث[(٢)].

وفي لفظ: من زعم أن محمدًا كتم شيئًا من الوحي فقد كذب[(٣)].

وعنها ﷺ قالت: لو كان محمد كاتمًا من القرآن شيئًا لكتم هذه الآية ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ﴾[(٤)] [الأحزاب: ٣٧].

أوهام شيعية:

وفي صحيح البخاري وغيره من حديث أبي جُحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالب ﷺ: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فَهْمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفَكَاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر[(٥)].

---

(١) يُنظَر النص في «صحيح مسلم» في حديث طويل عن جابر ﷺ برقم (١٢١٨) بنحوه وأبي داود (٥/ ٣٦٠-٣٨٥) في «عون المعبود» وابن ماجه (٢/ ١٠٢٢-١٠٢٧) و«المسند» (١/ ٢٣٠) برقم (٢٠٣٦) عن ابن عباس في المقطع الأخير منه.

(٢) البخاري برقم (٣٢٣٤، ٤٦١٢، ٤٨٥٥، ٧٣٨٠) ومسلم برقم (١٧٧) والترمذي برقم (٣٠٦٨) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١١٤٧).

(٣) البخاري (٣٢٣٤).

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٧) وأحمد في «المسند» (٦/ ٤٩) برقم (٢٦٠٤١، ٢٦٢٩٥) وهو حديث صحيح وأخرجه الترمذي (٣٢٠٩) عن محمد بن أبان (وهو ثقة) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وابن خزيمة في التوحيد ص(٢٢٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٠٨).

(٥) «صحيح مسلم» (١٣/ ١٦٠) برقم (١٣٧٠) والبخاري برقم (١١١) وانظر: (١٨٧٠، ٣٠٤٧، ٧٣٠٠) وأخرجه أيضا الترمذي برقم (١٤١٢) وابن ماجه (٥٦٥٨).

وفي هذا ردٌّ على من زعم أن القرآن أكثر مما هو في المصحف الذي جمعه أبو بكر ونسخه عثمان، وأنه قد خُصَّ علي بن أبي طالب بشيء من الوحي يَبْلُغُ حِمْلًا ورَّثه أبناءه، وأنه مختزن عند الإمام المعصوم الملَقَّب بالمهدي المنتظر، وكانت هذه الأوهام قد ألمَّتْ بأنفس بعض المتشيِّعين لعلي ﷺ في مدة حياته مما دعاهم إلى سؤاله.

ومن ذلك ما جاء في الحديث السابق أن أبا جحيفة سأل عليًا ﷺ، إن كان عندهم شيء من القرآن ليس عند الناس، فأقسم عليٌّ بالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، أنه لا يوجد عندهم شيء زائد عما هو بين دفَّتي المصحف، سوى ما يمنحه الله تعالى لبعض خلقه من رجاحة العقل وحُسن الاستنباط لِمَا في كتاب الله عز وجل، ويشير إلى ذلك أيضًا حديث عائشة لمسروق كما سبق، ففيه تبديد لهذا الهاجس الذي قد يحدث لبعض الناس.

اختصاص بعض الصحابة بشيء مما تدعو إليه الحاجة:

وقد يخص النبي ﷺ بعض الناس ببيان شيء ليس في القرآن تدعو إليه الحاجة، كما جاء في حديث أبي جحيفة حيث كان علي ﷺ قاضيًا باليمن، فكتب إليه النبي ﷺ بحكم فكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر، وبيَّن له فضيلة العقل، وهذا بيان وشرح لما أُنزل على النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

كما أسرَّ النبي ﷺ إلى فاطمة ﷺ بأنه سيموت، وأنها أول من يلحق به.

وأسرَّ إلى أبي بكر ﷺ بأن الله تعالى أذن له في الهجرة.

وأسرَّ إلى حذيفة ﷺ بخبر فتنة الخارجين على عثمان ﷺ، وبأسماء المنافقين.

وعصمة الله تعالى لنبيه من الناس دفعًا لما يُظن أن الخوف من الناس يحمله على الكتمان.

ومجمل معنى الآية: يأيها الرسول، بلغ وحي الله تعالى الذي أنزل إليك من ربك، وإن قصرت في البلاغ فكتمت منه شيئًا، فإنك لم تبلِّغ رسالة ربك، وقد بلَّغ ﷺ رسالة ربه كاملة، ومن زعم أنه كتم شيئًا مما أنزل عليه، فقد أعظم على الله وعلى رسوله الفرية، والله تعالى حافظك وناصرك على أعدائك، فليس عليك إلا البلاغ، إن الله لا يوفق للرشد من

حاد عن سبيل الحق، وجحد ما جئت به من عند الله[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

أَبْجَدِيَّاتُ البَلَاغِ النَّبَوِيِّ

٦٨- ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ[٢] عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ[٣] ﴿٦٨﴾﴾

ومن أول ما أُمر النبي ﷺ بتبليغه أهل الكتاب هذه الآية لبيان ضلالهم وإعلان باطلهم: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ يقام له وَزْنٌ من أمر الدين، فإنكم لا بالقرآن ومحمد آمنتم، ولا بنبيكم وكتابكم صدّقتم، ولا بحق تمسّكتم، ولا على أصل اعتمدتم، فلستم على شيء ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ وتعملوا بما فيهما، ولا تكتموا شيئًا منهما، وحتى تؤمنوا بالنبي الخاتم، وهذا معنى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ أي: - قل أيها الرسول الكريم - لهؤلاء اليهود والنصارى: إنكم لستم على شيء من الدين الحق، المرتضى عند الله تعالى، ولستم على شيء مما تدَّعون أنكم عليه مما جاء به موسى إلى اليهود، ولا مما جاء به عيسى إلى النصارى، حتى تؤمنوا بما بشّرت به التوراة والإنجيل، من الرسالة الخاتمة، وبما أنزل الله على محمد ﷺ في الكتاب المهيمن على كل ما سبقه من الكتب، فتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده.

ولستم على حظ من الجميع، ما دمتم لم تعملوا بما جاء في هذا القرآن، وهو مصداق ما جاء في التوراة والإنجيل، ولكنكم أحدثتم وغيَّرتم في دين الله وأنكرتم ما جاء فيه.

جاء وفد من اليهود إلى النبي ﷺ فيهم سَلام بنُ مِشْكَم، ورافعُ بنُ حارثة، ومالكُ بن الصَّيف، ورافعُ بنُ حُرَيْمِلة، وقالوا: يا محمد، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها حق؟ فقال رسول الله ﷺ: «**بلى، ولكنكم أحدثتم وكتمتم، وجحدتم ما فيها، مما أُخذ عليكم من الميثاق، وكتمتم منها ما أُمرتم أن**

---

(١) من «التفسير الميسر» نخبة من العلماء.

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (فلا تأس) ألفًا، وصلًا ووقفًا ووافقهم حمزة حالة الوقف عليها، وتحقيق الهمز وإبداله لغتان للعرب.

(٣) أمال (الكافرين) أبو عمرو ودوري والكسائي ورويس، وقللها ورش.

تبينوه للناس، **فأنا بريء من إحداثكم**»، قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الحق والهدى، ولا نؤمن لك ولا نتبعك، فأنزل الله الآية[١].

وتقدم أن مقتضى إقامة التوراة والإنجيل بالدرجة الأولى، هو العمل بما فيهما، من وجوب الدخول في دين الله الذي جاء به محمد ﷺ، فالمقصود: إقامة التوراة والإنجيل عند مجيء القرآن بالاعتراف بما فيهما من البشارة، والإيمان بمحمد ﷺ، وبما أُنزِل عليه، وقد كذَّبت هذه الآية مزاعم اليهود أنهم متمسكون بالتوراة؛ إذ لو تمسكوا بها لآمنوا بمحمد ﷺ.

والله ﷻ يعلم أن مواجهتهم بهذه الحقيقة ستؤدي بكثير منهم إلى الطغيان والكفر والعناد واللجاج، فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ فبدل أن يزْدَادُوا هدى وإيمانًا بمقتضى ما أنزله الله على محمد ﷺ ازدادوا كفرًا وطغيانًا، وهم بهذا يستحقون المصير البائس والعذاب المؤلم، فلا تحزن على من جحدوا نبوتك، ولم يؤمنوا بك، حسدًا منهم لأنك بُعِثْت بالرسالة الخاتمة، فضرر كفرهم وتكذيبهم لن يعود عليك ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا تأسف على كفرهم؛ فإنهم قد استحبوا العمى على الهدى، وفي المؤمنين غنى عنهم.

قَوَاعِدُ النَّجَاةِ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ لَهُ ثَلاثَةُ شُرُوطٍ

٦٩- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ[٢] وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ[٣] عَلَيْهِمْ[٤] وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٦٧) والطبري (٨/ ٥٧٣) وابن أبي حاتم (٨/ ٦٦) وتفسير «الخازن» (١/ ٤٨٠) والألوسي (٦/ ٢٠٠) و«زاد المسير» (٢/ ٣٩٨) والقرطبي (٦/ ٢٤٥) والسيوطي (١٠٩) و«فتح الباري» (٨/ ٢٦٩).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بنقل حركة همزة (والصابِئون) إلى الباء قبلها مع حذف الهمزة، وقرأ باقي القراء بإبقاء الهمزة وعدم النقل.

(٣) قرأ يعقوب بفتح فاء (فلا خوفَ) وعدم تنوينها، والباقون برفع الفاء منونة.

(٤) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهُم)، والباقون بكسرها. وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه بضم ميم الجمع وصلتها مدًّا طبيعيًّا، والباقون بإسكانها.

وبعد أن بيَّن سبحانه أن أهل الكتاب ليسوا على حظ من الدين، ولا يُعتبرون أهل دين حتى يؤمنوا بمحمد ﷺ، ذَكَرَ حُكْمًا عامًّا يشمل أهل الملل والنحل جميعًا، وخَصَّ منهم بالذكر **فرقًا أربعًا** وهم:

الفرقة الأولى: المسلمون، وقُدِّموا في الآية؛ لأنهم المثال الصالح في كمال الإيمان وعدم الشرك بالله تعالى، وهم الذين عبَّر الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أهل القرآن أي: إيمانًا صادقًا كاملًا، فاعتقدوا بقلوبهم، ونطقوا بألسنتهم، وعملوا بجوارحهم، وفْق هَدْي محمد ﷺ فاتبعوه في كل ما جاء به.

الفرقة الثانية: اليهود، وهم الذين عبَّر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ من أهل التوراة، وسُمُّوا يهودًا من قولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. أو نسبة إلى أبيهم (يهوذا) وهو أكبر أبناء يعقوب، وَخُفِّفَتْ الذال إلى الدال، وهم أتباع موسى عليه السلام، وقد أنزل الله تعالى عليه التوراة.

الفرقة الثالثة: الصابئون، هم الخارجون عن الدين الصحيح من عبدة الكواكب أو الملائكة والصابئ هو الخارج عن الدين إلى دين آخر، والصابئة لغة سامية قديمة هي لغة عرب ما بين النهرين في العراق، يسكنون البطائح، وواسط، وحَرَّان من بلاد الجزيرة، وقد ظهر دينهم في الكلْدان، ثم انتشر في البلاد المذكورة، ولما ظهر الفرس على العراق أزالوا مملكة الصابئين ومنعوهم من عبادة الأصنام، ودين الصابئة من أقدم الديانات فهم ينتسبون إلى شيث بن آدم،وكانوامؤمنين بالله تعالى والنبيين ولهم عبادات، ثم عبدواالكواكب.

وسُمُّوا بذلك؛ لأنهم صَبؤوا إلى اتباع الهوى، فظنوا أن الأرواح تسكن الكواكب، وأنها تنزل إلى النفوس الإنسانية فعبدوها بقصد تزكية النفس وتطهيرها، ولم يستمروا على ما جاء الله به من الرسالات، ولا تزال طائفة منهم تسكن تخوم العراق.

فهم اليوم قلة تعيش في شمال العراق، ومن العسير الجزم بحقيقة معتقدهم حاليًا؛ لأنهم أكتم الناس لعقائدهم خشية أن تتغير بمرور الزمن.

وقد جاء ذكرهم في الآية (٦٢) من سورة البقرة بنحو ما في هذه الآية، بخلاف الآية (١٧) من سورة الحج، فإنها تضيف المجوس والوثنيِّين إليهم، وتبين أن الله تعالى يفصل

بين الجميع يوم القيامة.

الفرقة الرابعة: النصارى، أتباع عيسى ﷺ، وقد أنزل الله عليهم الإنجيل، وسُمُّوا نصارى نسبة إلى قرية الناصرة التي ظهر فيها عيسى ﷺ بفلسطين، أو سُمُّوا نصارى من قول الحواريين منهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

وقد بيَّن ﷻ أنه لا يحصل لهؤلاء، ولا لغيرهم فضيلة ولا منقبة ولا سعادة ولا نجاة من عذاب الله تعالى إلا من طريق واحد وأصل واحد، إذا تحقق فيهم **ثلاثة شروط**:

الشرط الأول: الإيمان بالله تعالى ربًّا وخالقًا، وإفراده جل شأنه بالعبادة دون سواه، وعدم الإشراك به، مع ثبات هذا الإيمان وعدم النفاق فيه، ولا يتحقق كمال هذا الإيمان إلا بالتصديق بمحمد ﷺ وما جاء به من عند الله سبحانه.

الشرط الثاني: الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر، وحساب وجزاء، وجنة ونار، وثواب وعقاب.

الشرط الثالث: العمل الصالح بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، والإكثار من النوافل، وتوقِّي الشهوات والشبهات.

فكل من انتمى من هؤلاء وغيرهم إلى دين صحيح في أصله، وآمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحًا، وآمن بالرسول المبعوث إليه، والكتاب الذي نزل عليه، وداوم على إيمانه، فلم يُغيِّره بالشرك، ولم ينكر البعث، ثم مات قبل مجيء الرسول الذي يليه، أي: قبل نسخ رسالته، فهو في مأمن من أهوال يوم القيامة، لا يخاف إذا خاف الناس، ولا يحزن على ما تركه وراءه من الدنيا، فلا خوف من المستقبل، ولا حزن على الماضي؛ لأنه سَيُقْدِم على نعيم دائم لا ينفد.

و قال تعالى عن أوليائه ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس]

كما قال سبحانه عن أهل الاستقامة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]

وهكذا: فرسالة موسى ﷺ تنتهي ببعثة عيسى ﷺ؛ فمن وُجد يدين باليهودية بعد مجيء النصرانية فهو غير داخل في الآية؛ لأنه لم يؤمن بالرسول اللاحق ولا بكتابه، وظل متبعًا لرسالة قد انتهت صلاحيتها.

وكذلك الشأن في كل رسالة، فلا بقاء لنصراني على نصرانيته، بعد بعثة خاتم الرسل ﷺ.

وبداهة أنه لا مجال ليهودي يكفر برسالتين فكل من جاء بعد بعثة محمد فهو مأمور أن يؤمن بالنبي الخاتم.

وكل من بلغتْه دعوة الإسلام من تلك الفرق وغيرها ولم يقبلها، ولم يدخل في دين الإسلام، فليس من الناجين من عذاب الله يوم القيامة؛ لأن الإسلام قد نسخ ما قبله، وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة، وفي الحديث: **«لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»** ولا يدخل في الآية من جعل عزيرًا ابن الله، ومن جعل المسيح ابن الله، أو قال: إن الله ثالث ثلاثة، ولا من قال: إن عيسى كفَّر خطايا البشر بالقتل والصلب، ولا يدخل في الآية أيضًا الصابئة الذين عبدوا الكواكب أو غيرها بعد أن كانوا على دين له كتاب، حيث إن المراد بهذه الفرق التي في الآية من كان منهم موحدًا متمسكًا بأصل الديانة قبل التحريف، وكان كل منهم في زمانه قبل بعثة خاتم المرسلين ﷺ.

ومن نافلة القول أن محمدًا ﷺ هو خاتم النبيين، وأنه قد أُرسل إلى البشر كافة، وأن الناس جميعًا على اختلاف مللهم ونحلهم مَدْعوُّون إلى الإيمان بما جاء به جملة وتفصيلًا، وكل من لم يؤمن به من الخلق جميعًا فهو ضالٌ مضلٌ، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا، ولا يدخل في مضمون هذه الآية.

وقد تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة، ولفظ ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ قرأها ابن محيْصن[1] (والصابئين) عطفًا على ما قبلها، وقرأها الجمهور (والصابئون) بالرفع، على أنها مبتدأ حُذِف خبره، أي: والصابئون كذلك، كأنه قال: كل هؤلاء إذا آمنوا وعملوا صالحًا حتى الصابئين، فإنهم كذلك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحًا، والحكمة في ذلك أن الناس يجهلون حالهم، فالقاعدة التي في الآية

---

(١) وهو أحد القراء الأربعة ممن نسبت إليهم القراءات غير المتواترة، وهي ما بعد القراءات العشر، وهذه القراءات الشاذة يؤخذ منها الأحكام الشرعية، ويُحتج بها في اللغة العربية، ولكنها لا تُقرأ تعبُّدًا.

تنطبق على كل من توفرت فيه الشروط الثلاثة المذكورة وهي:

١- الإيمان بالله. ٢- والإيمان باليوم الآخر. ٣- والعمل الصالح.

مِنْ جَرَائِمِ اليَهودِ: تَكْذِيب الرُّسلِ وَقَتْلهمْ

٧٠- ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[1] وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

والكلام موصول عن بني إسرائيل، فيذكر الله سبحانه في هذه الآية طرفًا من تاريخهم، يبيِّن فيه فساد معتقدهم، وما جُبلت عليه نفوسهم من الجحود والغرور، وما ارتكبوه من جرائم لم ترتكبها أمة قبلهم، ولا بعدهم، وهم دائمًا ينقضون العهود والمواثيق ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أخذنا عليهم العهد الثقيل من الإيمان بالله تعالى والقيام بواجباته كما سبق ذكره في الآية الثانية عشرة من هذه السورة ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ هم موسى وهارون ومن جاء بعدهما مثل: يوشع وأشعيا وأرْميا وحزقيال وداود وسليمان وعيسى، وهؤلاء الرسل قد توالَوْا عليهم بالدعوة، وتعاهدُوهم بالإرشاد، ولكن ذلك لم ينجح فيهم ولم يفد، ولقد أخذنا عليهم العهد المؤكد في التوراة على السمع والطاعة والإيمان بالرسول الخاتم، بعد توحيد الله عزَّ وجلَّ والعمل بما أمر ونهى، ولكنهم نكثوا ونقضوا.

ولم تذكر هذه الآية بنود هذا الميثاق اكتفاء بذكرها في أوائل هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [١٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

ثم إن الله تعالى أرسل إليهم رسلًا جاؤوهم بهذه المواثيق والعهود؛ لهدايتهم وإرشادهم إلى أقوم الطرق، فنقضوا ما أُخذ عليهم من العهد، واتبعوا أهواءهم، وكانوا

---

(١) سهَّل أبو جعفر همزة (إسرائيل) الثانية مع المد والقصر.

كلما جاءهم رسول بما يخالف أهواءهم ناصبوه العداء، وكذبوا فريقًا من الرسل، وقتلوا فريقًا آخر﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: بما يخالف رغباتهم وشهواتهم، كذبوه وعاندوه وعاملوه أقبح معاملة، وفيه دلالة على فساد أهوائهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾ وقد كذب اليهود جميع الرسل غير موسى ﷺ، ولم يؤمن بهم إلا قلة ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وقد قتلوا زكريا ويحيى وغيرهما، وقد قرر الله سبحانه مبدأ نقض اليهود الدائم للمواثيق فقال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: ١٠٠].

عَوَاقِب اسْتِخْفَافِ اليَهودِ بِجَرَائِمِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الأَرْضِ

٧١- ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ[1] فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

ومع ما ارتكبوه من الجحود والإعراض والتكذيب لرسل الله تعالى، فقد ظنوا أن ما فعلوه شيء هين، وأنه لن يصيبهم بلاء ولا عقاب في الدنيا بسبب مفاسدهم، وأن الله تعالى لن يعذبهم في الآخرة جزاء عصيانهم وتمردهم وعتوِّهم؛ لزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، فاستمروا في طغيانهم وشهواتهم، وعَمُوا عن الحق فلم يبصروه، ولم ينتفعوا به ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي ظنوا أن معاصيهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عذابًا ولا بلاء ولا عقوبة في الدنيا ﴿فَعَمُوا۟﴾ عن الهدى واستمروا على باطلهم ﴿وَصَمُّوا۟﴾ عن سماع الحق، وتمادَوا في الغي والضلال وأفسدوا في الأرض بقتل أنبياء الله؛ كيحيى، وزكريا، وعزمهم على قتل عيسى ﷺ، وعبدوا العجل، ولم يدخل الهدى إلى قلوبهم بسبب قوة كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق، فكأنهم لم يَرَوْا ولم يسمعوا، فهم عُمْي وصُم.

ثم أنزل الله بهم بأسه، فأصابهم العقاب الدنيوي؛ كالقحط، والجدب، والوباء، والهزائم؛ بسبب مفاسدهم.

---

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، برفع نون (ألا تكونُ) على أن (أنْ) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف، و(لا) نافية، و(تكون) تامة، و(فتنة) فاعلها، والجملة خبر (أنْ) و(حسبوا) بمعنى أيقنوا؛ لأن (أن) المخففة لا تقع إلا بعد تيقن، وقرأ الباقون بنصب نون (تكونَ) على أن (أنْ) دخلت على فعل منفي بلا، وهي ناصبة للفعل المضارع، و(حسبوا) للظن؛ لأن (أن) الناصبة للمضارع لا تقع إلا بعد الظن.

ثم تابوا إلى الله تعالى، ورجعوا إليه مما كانوا فيه، فقبل الله توبتهم، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي حين تابوا إليه وأنابوا.

ثم عادوا إلى عدم الانتفاع بالحق، فلم يبصروه، فكأنهم عُمْي، ولم ينفذ الحق إلى مسامعهم، فكأنهم صُمّ ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ بهذا الوصف، والقليل منهم استمروا على توبتهم وإيمانهم، وذلك بعد بيان الحق ببعثة محمد ﷺ فكفر به كثير منهم، ولم يؤمن به منهم إلا القليل.

من تاريخ اليهود في فلسطين:

فالمرة الأولى التي عَمُوا وصموا فيها كانت بسبب إفسادهم الكثير في الأرض على نحو ما فصلته سورة الإسراء في قوله تعالى ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[الإسراء: ٤]. والمرة الثانية كانت بسبب كفرهم بمحمد ﷺ وكتمان أوصافه ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ فيجازيهم على جميع أعمالهم خيرها وشرها.

والمعنى: أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل العهد والميثاق أن يؤمنوا بالله ورسله، وأرسل إليهم الرسل لهدايتهم، فكان منهم أن كذبوا بعض الرسل وقتلوا بعضهم، وظنوا أن الله تعالى لن يبتليهم في الدنيا، ولن يعاقبهم على ذلك في الآخرة، فأمنوا عقاب الله، واستولى الغرور على قلوبهم، فتمادَوْا في البغي والفساد، واستخفوا بعذاب الآخرة، وتوهموا أنهم ناجون من عذاب الله سبحانه؛ لأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة - على حد زعمهم - فأفسدوا في الأرض إفسادتين كبيرتين تتخللهما توبة، ولعل الإفسادة الأولى: أنهم كذبوا الرسل، وقتلوا الأنبياء، فسلط الله عليهم بختنصر ملك آشور، فدخل بيت المقدس ثلاث مرات سنة ٦٠٦، وسنة ٥٩٨، وسنة ٥٨٨ قبل الميلاد، ودخل أورشليم في المرة الثالثة فأحرقها وأحرق المسجد الأقصى، وأخذ جميع بني إسرائيل أسرى ونقلهم إلى بابل بالعراق، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾ [الإسراء].

وبعد هذه العقوبة تاب الله عليهم، فرفع عنهم الفتنة بعد ما أصابتهم، فأذن لليهود أن يرجعوا من بابل إلى بلادهم؛ ليعمِّروها، وكان ذلك بعد أن تغلب (كورش) ملك فارس

على بابل، واستولى عليها سنة ٥٣٠ قبل الميلاد، وهذا معنى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ [الإسراء].

فمعنى التوبة: أن الله تعالى ردَّهم إلى بيت المقدس بعد الإخراج الأول منه وردَّ إليهم مُلْكَهُم، ثم عاد اليهود إلى العمى والصم والإفساد في الأرض، فسلط الله عليهم (تِيطس) القائد الروماني فحاصر أورشليم حتى اضطروا إلى أكل الجلود ونحوها، وقتل منهم مليون رجل، وسُبِي سبعة وتسعين ألفًا، وكان ذلك سنة ٦٩ ميلادية، وتبعه (أدريان) امبراطور الرومان، فسوَّى مدينة أورشليم بالأرض، وانقرضت دولة اليهود، وتفرقوا في الأرض، وكان ذلك من سنة ١١٧ إلى سنة ١٣٨ ميلادية، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾[1] [الإسراء: ٧].

ولما كفروا بمحمد ﷺ سلطه الله تعالى عليهم فذبح رجال بني قريظة، وسبى نساءهم وذراريهم، وأجلى بني النضير وبني قينقاع عن المدينة وما حولها.

وكان تفرق اليهود في الأرض، وعدم قيام دولة خاصة بهم وعْد محتوم من الله تعالى؛ حيث حرَّم عليهم دخول الأرض المقدسة إلى الأبد، عقوبة لهم على تخاذلهم وعدم استجابتهم لنبيهم موسى ﷺ حين أمرهم بدخولها، فقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ [٢٢]. وقالوا ردًّا على الرجلين اللذيْن أنعم الله عليهما وهما (يوشع وكالب) حين أمراهم بامتثال أمر نبيهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [٢٤].

فكان نتيجة ذلك أن حرَّم الله عليهم دخولها في قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ وكتب عليهم أن يتيهوا في صحراء سيناء أربعين سنة؛ حتى تتطهر الأرض من هذا الجيل المخالف لأمر ربه، فقال: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [٢٦].

ووجود الكيان الصهيوني الحالي على أرض فلسطين مخالف لما تقرره التوراة، ومخالف لحكم الله على اليهود، وهي حركة صهيونية سياسية، وليست دينية، فإن

(١) يُنظَر تفسير «التحرير والتنوير» (٦/ ٢٧٧).

المتدينين منهم لا يعترفون بهذا الكيان وينكرون قيامه، وقد وعد الله سبحانه بأنه عند قيام الساعة يجمعهم في أرض المحشر فقال: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد موسى ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي كلها وتفرقوا فيها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] أي: جمعناكم في هذا المكان.

على أن العمى والصمم والتوبة في الآية، غير محدودين بزمان معين ولا بجريمة معينة، والآية تفيد أن اليهود يتوارثون السجايا والأخلاق خَلَفًا عن سلف، فالذين عموا وصموا في المرة الأولى غير الذين عموا وصموا في المرة الثانية.

وقد قضى الله تعالى بتكرار وقوع العقوبة بهم كلما عادوا إلى الإفساد في الأرض فقال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]. وإقامتهم الكيان الصهيوني في العصر الحديث على أرض فلسطين عودة إلى الإفساد في الأرض، وكذا ما يقومون به من قتل وتشريد لأهل فلسطين، وتقويض للمسجد الأقصى.

عَقِيدَة بَعْضِ النَّصَارَى فِي أُلوهِيَّةِ الْمَسِيحِ

٧٢- ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

وبعد الحديث عن فساد اعتقاد اليهود، يأتي الحديث عن فساد اعتقاد النصارى، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾ وشبهتهم في هذا أن عيسى خُلق من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، وهذا قول فريق منهم، هم (اليعقوبية والملكانية) من النصارى، فهم يقولون: إن الله تعالى حلَّ في ذات عيسى واتَّحد به، فصار إلهًا واحدًا، ويقولون: ربنا يسوع المسيح، ومريم أم الإله، وهو الابن الوحيد، إله حق، من إله حق، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وصُلِب عنا، وتألم وقُبِر، ثم قام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الرب[١].

والله ﷻ يُصدِّر هذه الآية بالقسم المؤكد بأن الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ

(١) هذا مختصر ما جاء في كتاب «سوسنة سليمان» لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني، وما قرره مجمع نيقية كما في تفسير «الظلال» للآية.

﴿مَرْيَمَ﴾ كُفَّار، لأنهم أشركوا بالله حين قالوا (عيسى هو الله) أو هو (ابن الله) ولم يؤمنوا بخاتم النبيين، ثم قرر سبحانه ما قاله عيسى في الرد على مقالتهم وتكذيبه لهم حين بُعث نبيًّا، وهو في سن الكهولة ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ فلستُ إلهًا ولا ابنًا للإله، وليس هناك من فرق بيني وبين غيري في العبودية لله تعالى، فأثبت لنفسه العبودية التامة، والإقرار له سبحانه بالربوبية، فأنا وأنتم في العبودية سواء، والله تعالى لا يكون معه إله آخر، وهذا هو عين ما قاله عيسى ﷺ قبل ذلك وهو في المهد صبيًّا ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم].

ثم قرر عيسى ﷺ أنهم بقولهم هذا قد أشركوا مع الله غيره في العبودية، فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أحدا من المخلوقين، لا عيسى ولا غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ لأنه سوى بين الخلق والخالق، وصرف العبادة لغير الله، فاستحق أن يخلد في النار فالجنة دار الموحدين، والنار دار المشركين الذين ماتوا على شركهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقد حرم الله تعالى على الكفار والمشركين نعيم الجنة من طعام وشراب وغيرهما، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف].

وصح عن رسول الله ﷺ أنه بعث مناديًا ينادي في الناس: «**إن الجنة لا يدخلها غير نفس مسلمة**»، وفي رواية: «**مؤمنة**»(١).

والمشرك قد ظلم نفسه بالشرك، وظل على حاله حتى وافته المنية.

ولذا: فإن النار مستقرُّ المشرك، وهو محروم من دخول الجنة، وهما عقوبتان، إحداهما إيجابية، وثانيهما سلبية، ولا مناص له من ذلك، فليس له وليٌّ ولا ناصر ينقذه من عذاب الله ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾. يحولون بينهم وبين عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما ينزل بهم من عقاب.

---

(١) «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة (٧/ ٤٧١) برقم (٣٠٦٢، ٤٢٠٤، ٦٦٠٦) و«صحيح مسلم» من حديث عمر بن الخطاب (١/ ١٠٧) برقم (١١١).

وقد سبق نظير هذه الآية في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [١٧].

عَقِيدَة التَثْلِيثِ لَدَى بَعْضِ النَّصَارَى

٧٣- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

ثم أخبر ﷻ بالقسم المؤكد عن الفريق الآخر من النصارى وهم (المرقوسية، والنسطورية) القائلون بعقيدة التثليث، وهي عقائد مختلفة، ولكنها تجتمع على الكفر والضلال، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا﴾ كذبًا وزورًا ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ وهم معظم النصارى في الأرض، ولهم في هذا معنيان:

المعنى الأول: أن الله تعالى أحد آلهة ثلاثة، أو أنه واحد من آلهة ثلاثة، والآلهة الثلاثة هي: الله، ومريم، وعيسى، فالإلهية مشتركة بينهم، وكل واحد منهم إله، ويوضح هذا قوله تعالى للمسيح: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [١١٦].

المعنى الثاني: أنهم قالوا: إن الله جوهر واحد، مكون من ثلاثة أقانيم، هي: الآب، ويسمونه: أقنوم الوجود، والابن، ويسمونه: أقنوم العلم، والروح القدس، ويسمونه: أقنوم الحياة، وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول: القرص والشعاع والحرارة، وأرادوا بالآب: الذات، وبالابن: الكلمة، وبالروح القدس: الحياة، وقالوا: إن الكلمة هي كلام الله، اختلطت بجسد عيسى، اختلاط الماء باللبن، ويقولون: إن الآب إله أزلي، وقد أرسل ابنه للناس.

ويطلقون أيضًا روح القدس على جبريل، ثم يقولون: إن الكل إله واحد.

وهكذا: فالغموض شديد في عقيدتهم، والتناقض واضح، فالواحد لا يكون ثلاثة، والثلاثة لا تكون واحدًا، والنصارى أنفسهم لا يفهمون هذه المعادلة الصعبة، فيقول بعضهم: قد فهمنا ذلك على قدر طاعة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهمًا أكثر جلاء في المستقبل، حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض، أما في

الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية[١].

فهم يعترفون أن العقل يرفض هذا الكلام المتناقض ابتداء، ويحاولون تأجيل النظر في القضية؛ لأنهم لم يستوعبوها.

قلت: إن الناس ترث مقالات ومفاهيم مَنْ سَبَقَهم وتُسلِّم بها دون فكر، ولا رويَّة، ولعل هذه المقولات من تلبيس إبليس، ويحسن بنا أن نورد في هذا روايتين عن وهب بن منبِّه، ومحمد بن كعب، يفسر كلامهم:

قال وهب بن منبه: لما وُلِد عيسى لم يبق صنم إلا خرَّ لوجهه، فاجتمعت الشياطين إلى إبليس، فأخبروه، فذهب، فطاف أقطار الأرض، ثم رجع، فقال: هذا المولود الذي ولد من غير ذَكَر، أردت أن أنظر إليه، فوجدت الملائكة قد حفَّت بأمه، فليتخلف عندي اثنان من مرَدتكم، فلما أصبح خرج بهما في صورة رجلين، فأتوا مسجد بني إسرائيل وهم يتحدثون في أمر عيسى، ويقولون: مولود من غير أب، فقال إبليس: ما هذا ببشر، ولكن الله أحب أن يتمثل في امرأة؛ ليختبر العباد.

فقال أحد صاحبيه: ما أعظم ما قلت! ولكن الله أَحَبَّ أن يتخذ ولدًا.

وقال الثالث: ما أعظم ما قلت، ولكن الله أراد أن يجعل إلهًا في الأرض.

فألقوا هذا الكلام على ألسنة الناس، ثم تفرقوا، فتكلم بهما الناس.

وأقول: ما أشبه هذا بالشيطان الذي تمثَّل في صورة شيخ نجدي ليلة هجرة النبي ﷺ، وأشار على المجتمعين في دار الندوة بأن يأخذوا من كل قبيلة شابًا قويًا، ويشتركوا جميعًا في قتل النبي ﷺ فيتفرق دمه بين القبائل! فهذه مشورة شيطان متمثل في صورة رجل، وهي ثابتة في كتب السيرة والحديث.

وقال محمد بن كعب: لما رُفع عيسى اجتمع مائة من علماء بني إسرائيل، وانتخبوا منهم أربعة.

---

(١) القس (بوطرس) في رسالة (الأصول والفروع) عن كتاب «محاضرات في النصرانية» للشيخ محمد أبو زهرة وتفسير «الفخر الرازي» (١٢/ ٦٠).

فقال أحدهم: عيسى هو الله، كان في الأرض ما بدا له، ثم صعد إلى السماء؛ لأنه لا يحيي الموتى، ولا يبرئ الأكمه والأبرص إلا الله.

وقال الثاني: ليس كذلك؛ لأنا قد عرفنا عيسى، وعرفنا أمه، فهو ابن الله.

وقال الثالث: لا أقول كما قلتما، ولكن جاءت به أمه من عمل غير صالح.

فقال الرابع: لقد قلتم قبيحًا، ولكنه عبد الله ورسوله وكلمته، فاتَّبع كل واحد منهم طائفة من النصارى[1].

ثم بيَّن ﷻ بعد ذكر قول بعضهم بالألوهية، وقول غيرهم بالبنوة، وقول الآخرين بالتثليث، مبينًا الاعتقاد الحق فقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ متصف بكل صفات الكمال، منزه عن كل نقص، متفرد بالخلق والتدبير، ما من نعمة إلا وهي منه سبحانه، فكيف يُجعل معه إله غيره، أما عَلِمَ هؤلاء النصارى أنه ليس للناس سوى معبود واحد ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]. لم يلد ولم يولد، وليس له صاحبة ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ثم توعَّد سبحانه القائلين بهذا بالعذاب الشديد على كذبهم وافترائهم إن استمروا على ذلك، فقال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: وإن لم يرجع هؤلاء الذين قالوا بالتثليث عن عقائدهم الفاسدة، وأقوالهم الزائفة، ويعتصموا بعروة التوحيد ليصيبن الذين استمروا على الكفر منهم عذاب شديد الألم ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يصيبهم العذاب الموجع بسبب كفرهم وشركهم.

وقد علم الله سبحانه أن منهم من سيوحد الله تعالى فيما بعد فقال: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ ولم يقل كلهم.

أو أن المعنى: ليمسنَّ الذين كفروا من النصارى خاصة نوع شديد الألم من العذاب.

قال تعالى في شأن عيسى ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الزخرف].

(١) يُنظَر الروايتان في «زاد المسير» لابن الجوزي (٢/ ٤٠٢).

الله تَعَالَى يَقْبَل تَوْبَةَ الكَافِرِ

٧٤- ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

أي: ومع هذا فإن الله تعالى يفتح بابه لكل تائب، حتى المشرك والكافر، فهلَّا تاب هؤلاء المشركون عما قالوه، ورجعوا إلى الله عزَّ وجلَّ، وسألوه المغفرة، فإن الله تعالى يتوب على من تاب ويرحمه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، حتى الكافر والمشرك، إذا رجع عن شركه وكفره فإن الله يقبل توبته ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. فإن تابوا واستغفروا الله رفع الله عنهم العذاب وغفر لهم ما سلف.

بَشَرِيَّة المَسِيحِ وَأُمِّهِ

٧٥- ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه حقيقة عيسى وأمه؛ حتى يبرئ ساحتهما مما نسب لهما فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ أيده الله بالمعجزات ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ كسائر مَنْ تَقَدَّمه من الرسل، والرسالة هي غايته ومنتهى أمره، فهو من عباد الله المرسلين الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله لا مزية له عليهم تُخْرِجه من البشرية إلى الربوبية.

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ فغايتها ومنتهى أمرها أنها كانت من الصدقيين، والصديقية رتبة بعدرتبة النبوة تعنى العلم النافع والعمل الصالح، فأعلى أحوالها أنها صديقة، وكفى بذلك فضلا وشرفًا، فإذا كان عيسى من جنس الأنبياء، وأمه صديقة، فلأي شيء اتخذهما النصارى إلهين من دون الله؟ قد صدَّقت تصديقًا جازمًا بآيات ربها وكتبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم]. وهي كسائر النساء المؤمنات المصدقات بأنبياء الله.

وذكر ابن حزم أن سارة أم إسحاق، وكذا أم موسى، وأم عيسى، من الأنبياء، أخذًا من خطاب الملائكة لسارة ومريم، والصحيح أن النبوة لا تكون إلا في الذكور، كما قال

تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [الأنبياء: ٧، ويوسف: ١٠٩].

وهذه الآية تنص على أن مريم كثيرة التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله وليست نبية، والتصديق درجة من درجات الولاية؛ كالشهداء، والصالحين، ثم أبعدهما سبحانه عما نسب إليهما، فبيَّن أن طبيعتهما كسائر البشر يحتاجان إلى الطعام والشراب لحفظ حياتهما، وجسمهما حادث كسائر بني آدم، مؤلف من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والشهوة، وكيف يكون إلهًا من تتوقف حياته على الغذاء، ويحتاج إلى هضمه وإخراجه، وهذا من خواص البشر؛ إذ إن الله تعالى حيٌّ بذاته، قائم بذاته، باقٍ بذاته، لا يحتاج إلى طعام، ولا يخرج منه بول ولا براز، فكل هذا من شأن الحوادث، ولذا قال تعالى عن عيسى وأمه: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ فهما عبدان فقيران محتاجان إلى الطعام والشراب كما يحتاج بنو آدم، ولو كانا إلهين لاستغنيا عنهما ولم يحتاجا إلى شيء، فالله هو الغني الحميد.

وهذا شأن جميع الرسل: يأكلون الطعام، ويتزوجون، ويسعون على أرزاقهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨﴾ [الأنبياء].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ [الرعد: ٣٨].

وقد ذكر الله تعالى صفة الأكل على وجه الخصوص؛ لأن الأناجيل أثبتتْها، كما أثبتها القرآن الكريم من أن مريم أكلت رُطبًا عند المخاض، وأثبتت الأناجيل أن عيسى أكل مع الحواريين يوم الفصح خبزًا، وشرب خمرًا.

فعيسى بشر من البشر، ورسول مثل سائر الرسل الذين سبقوه، وأم عيسى أَمَةٌ من إماء الله، كسائر النساء، وهما عبدان من عباد الله، كانا يأكلان ويشربان ويتصرفان كما يتصرف البشر.

فتأمل - أيها الرسول- حال هؤلاء الكفار، لقد أوضحنا لهم العلامات الدالة على وحدانيتنا، وبطلان ما يزعمونه في أنبياء الله ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الموضحة للحق، الكاشفة لليقين، ثم هم مع ذلك يضلون عن الحق الذي تهديهم إليه،

فلا يستفيدون منه شيئًا ولا يزالون على كذبهم وافترائهم، وانظر كيف ينصرفون عنه مع هذا البيان الجلي ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وهذا تعجب من حالهم ومن سوء تفكيرهم، يتأمله كل عاقل فهو أوضح من الشمس في رابعة النهار.

لَا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ إِلَّا مَنْ جَلَبَ الخَيْرَ وَدَفَعَ الضَّرَّ

٧٦- ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾

والله تعالى يوجِّه الخطاب إلى رسوله ﷺ؛ ليسأل النصارى وغيرهم عما يعبدونه من دون الله ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع.

والمعنى: قل - أيها الرسول- لهؤلاء الكفار كيف تشركون مع الله من لا يملك ضَرَّكم، ولا يقدر على جلب خير لكم؟! ومن لا يقدر على دفع الضر، ولا على جلب النفع لا يكون إلهًا.

والآية تنفي أن يكون هناك إله غير الله تعالى يستحق العبادة والخضوع.

وقد وضع لفظ (ما) بدلًا من (من) في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ ليشمل جميع المخلوقات، العاقل وغير العاقل، ويدخل في ذلك عيسى وأمه، ويدخل فيه روح القدس دخولًا أوَّليًا، وفيه توبيخ وإنكار لهم؛ حيث عبدوا من هو متصف بالعجز عن دفع ضر، أو جلب نفع.

وهذا يشمل كل ما عُبِد من دون الله مِن: بشر، أو كوكب، أو حجر، أو جن، أو ملك، وغير ذلك ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم باختلاف لغاتكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم وما تكنه ضمائركم، من الأمور الماضية والمستقبلية، وسوف يجازيكم على أقوالكم وأفعالكم.

نَهْيُ أَهْلِ الكِتَابِ عَنِ الغُلُوِّ فِي الدِّينِ

٧٧- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

ثم أمر الله رسوله أن ينهي أهل الكتاب عن الغلو وتجاوز الحد في دينهم. والغلو: هو مجاوزة الحد ومفارقة الحق وابتداع غيره بالتجاوز المفرط فيه. فَمِنْ غُلُوِّ اليهود: تمسكهم بالتوراة بعد

رسالة عيسى ومحمد عليهما السلام. ومن غلُوّ النصارى: دعوى إلهية عيسى ﷺ، وتكذيبهم محمدًا ﷺ، وقد نهى الله تعالى المعاصرين منهم ألّا يتابعوا مَنْ سبقهم من الأحبار والرهبان في هذا الضلال، ولا يتبعوا أهواءهم، فهم قد ضلوا وأضلوا، وفي الآية إشارة إلى أصناف الناس بالنسبة لعيسى عليه السلام بين الإفراط والتفريط والوسطية:

١- فمنهم صنف فرَّط في شأن عيسى عليه السلام فلم يؤمن برسالته، ونسب إليه وإلى أمه الفاحشة، فقالوا: إنه ابن زنى أتت به أمه من يوسف النجار، وهم اليهود (قبحهم الله).

٢- وصِنْف من البشر أفْرَطَ وغالى في شأن عيسى عليه السلام، فرفعه فوق منزلته، وقالوا: إنه الله، أو ابن الله، أو أحد آلهة ثلاثة، وهم النصارى (قبحهم الله).

٣- وصنف وسط، اعتقد أن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، خلقه بدون أب كما خلق حواء من غير أم، وكما خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق سائر البشر من ذكر وأنثى، وهم المسلمون.

وهذه الآية والتي بعدها في سياق الحديث عن عقيدة النصارى الذين ألَّهوا عيسى وعبدوه، وغالوا في شأنه فرفعوه فوق بشريته ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لا تتجاوزوا ولا تتعدّوا الحق إلى الباطل.

والغلوُّ: هو مجاوزة الحد، ومخالفة الحق، فاليهود كفروا بعيسى ونسبوه إلى الزنى، والنصارى جعلوه إلهًا وعبدوه، وما عبد الناس الأصنام إلا بسبب الغلو في الدين؛ كقصة اللات، وود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر.

ولما دخل حكام الرومان النصرانية من الوثنية، عظَّموا عيسى فرفعوه فوق منزلته، وقالوا فيه ما قالوا، فلا تتجاوزوا الحق - أيها النصارى - فيما تعتقدون من أمر المسيح عليه السلام.

ثم أرشد الله سبحانه النصارى إلى طريق الحق فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ وهم اليهود فقد وقعوا في الضلال بسبب اتباع أهوائهم، وحملوا كثيرًا من الناس على الضلال والكفر بالله تعالى ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ من الناس غيرهم، بدعوتهم إلى دينهم ولما بُعِث محمد ﷺ حسدوه، وكفروا به، وبَغَوْا عليه، وهم بهذا خرجوا عن طريق الاستقامة إلى طريق الغواية والضلال ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ففارقوا الحق،

وابتدعوا غيره وتجاوزوا فيه، وجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله منهم ومن الوقوع في حبائلهم واتباع أهوائهم.

واليهود بهذا قد ضلوا قبل بعثة النبي ﷺ بتحريفهم للتوراة، وكتمانهم أوصاف النبي ﷺ ولم يكتفوا بضلال أنفسهم، بل أضلوا كثيرًا من الناس ممن قلَّدهم ووافقهم على كذبهم، ثم ضلوا أخيرًا لَمَّا بُعِث محمد ﷺ فكفروا به، فهذه درجات ثلاث في الضلال. والغلو في الدين نقيض التقصير والتفريط فيه، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الغلو في الدين في كثير من الأحاديث، منها ما جاء:

١- عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إياكم والغلو في الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»**[١].

٢- وعن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»**[٢].

٣- وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«هلك المتنطعون»**، قالها ثلاثًا[٣].

والمتنطعون: هم المتشددون المتجاوزون للحدود التي جاءت بها تعاليم الإسلام.

ونستخلص من الآيات السابقة التي تنادي المؤمنين وتنادي أهل الكتاب: أن الإسلام يرمي إلى تصحيح العقيدة؛ لتقوم على التوحيد الكامل الخالي من شوائب الوثنية والشرك التي أفسدت عقائد أهل الكتاب، ويصرح بكفر اليهود والنصارى، ويقرر أنهم ليسوا على

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (١٨٥١) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين غير الرياحي فمن رجال مسلم (محققوه) وأوله «هَلُمَّ القُط لي، فلقطتُ سبع حصيات هن حصى الخذْف فلما وضعهن في يده قال: نعم بأمثال هؤلاء فارموا.» وأخرجه أيضا أبو يعلى (٢٤٧٢) وابن ماجه (٣٠٢٩) وابن خزيمة (٢٨٦٧) وابن حبان (٣٨٧١) والطبراني (١٢٧٤٧)

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٤٥) وعن ابن عباس برقم (٦٨٣٠) و«المسند» برقم (١٥٤) حديث صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) و (٣٩١) في حديث طويل، وصحيح مسلم (١٦٩١) وابن حبان (٤١٤) وغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٠) و«المسند» برقم (٣٦٥٥) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وأخرجه أبو داود (٤٦٠٨) وأبو يعلى (٥٠٠) والطبراني في الكبير (١٠٣٦٨) والبغوي (٣٣٩٦).

دين الله، وليس بعد قول الله قول، وفي ضوء التناقض بين الشرائع، فإنه لا حوار، ولا لقاء، ولا تقارب بينها، ولا ولاء.

وبناء عليه: فلا ولاء، ولا تناصر، ولا مودة بين المسلم وبين أحد من هؤلاء، ومن يسارع في مودتهم ومحبتهم فهو منهم، كافر مثلهم، ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١]. وليس من باب الغلو من يبذل الجهد لمعرفة الحق ويجتهد في تحصيله.

تَرْكُ النَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ مُوجِبٌ لِسَخَطِ اللهِ تَعَالَى

٧٨، ٧٩- ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾.

ثم شرع ﷻ في بيان موقف من مواقف أبناء بني إسرائيل من كفار بني جلدتهم، فبيَّن ﷻ أن تاريخهم في الكفر واللعنة والمعصية عريق، وأن أنبياءهم الذين أُرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم، وهم الذين لعنوهم في نهاية الأمر، فسمع الله دعاءهم، وكتب عليهم السخط واللعنة إلى يوم القيامة ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يعني: من اليهود، والنصارى، فطُرِدوا وأُبعدوا من رحمة الله تعالى، وذلك في الكتاب الذي أنزله الله على عليهما، وهو الزبور والإنجيل، فكان ذلك ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ بشهادتهما وإقرارهما، ولَعْنُهم هذا فيه إعلان بأنهم لُعِنوا في الكتب الأربعة، وأنهم قد لُعنوا أيضًا على لسان موسى في التوراة، وعلى لسان محمد في القرآن، وقال ابن عباس: إنهم لُعنوا بكل لسان.

وخُص من أنبيائهم داود؛ لأنه كان قائدًا مظفرًا قادهم إلى النصر بعد الهزيمة.

وخُص عيسى؛ لأنه كان رسولًا مسالمًا، جاءهم ليُحِلَّ لهم بعض الذي حُرِّم عليهم.

جاء في سِفْر الملوك والمزامير أن داود لَعَن الذين بدَّلوا الدين، وجاء لَعْنهم في الإنجيل متكررًا على لسان عيسى عليه السلام.

قيل: إن اليهود لما اعتدَوْا في السبت بالصيد فيه، قال داود عليه السلام: اللهم العنهم،

واجعلهم قردة، فمُسِخوا قردة.

أما لَعْنُهم على لسان عيسى عليه السلام، فذلك حين أكلوا من المائدة وادخروا ولم يؤمنوا، فقال عيسى: اللهم العنهم واجعلهم خنازير، فمُسِخوا خنازير.

وقيل: إن الله تعالى أعلم داود وعيسى بوقت مجيء رسالة محمد ﷺ، فلَعنا من يكفر به.

وقد جاء في الزبور والإنجيل: ملعون من يكفر من بني إسرائيل بالله، أو بأحد من رسله[1].

ثم بيَّن ﷻ سبب لعنهم وطردهم من رحمة الله تعالى، وأن ذلك يرجع إلى أمرين هما: معصية الله تعالى، واعتداؤهم على خلق الله سبحانه ﴿ذَٰلِكَ﴾الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم لله وظلمهم لعباده، فإن للذنوب وللظلم عقوبات.

وتاريخ بني إسرائيل حافل بالعصيان لله عزَّ وجلَّ، فهم قد أشركوا بالله تعالى، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ، ولا بعيسى قبله، ولم يتحاكموا إلى شرع الله في قضايا الرجم والقصاص وغيرهما، وانتهكوا حرمة الله تعالى بالاعتداء في يوم السبت فاصطادوا فيه، وغير ذلك.

أما عدوانهم على الناس، فتاريخهم حافل بنقض العهود والمواثيق، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، واستحلال المحرمات مع غير اليهود؛ كالربا، والزنى، وغيرهما، وقد ترفَّعوا على الناس، وزعموا أنهم من نطفة أخرى، وأنهم أبناء الله وأحبابه.

ومن جملة معاصيهم: تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان اليهود يجاهرون بالمعاصي ويرضَوْنَها، ولا ينهي بعضهم بعضًا عن أي منكر فعلوه، ويداومون على ارتكابه ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضًا عنه، فيشترك في ارتكابه من باشر فعله ومن سكت عنه.

وقد ذمهم الله تعالى على سوء فعلهم الذي استحقوا عليه الطرد من رحمة الله تعالى ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وكل مجتمع لا يخلو من الشر، ولكن المجتمع الصالح لا يسمح للمنكَر أن يصبح عُرفًا سهلًا يجترئ الناس عليه كأنه أمر مشروع، والنهي عنه يُستغرب ويُستنكر، كأن الموازين انقلبت، فأصبح المعروف منكرًا والمنكر معروفًا،

---

(١) «تفسير الألوسي» (٦/ ٢١١).

وارتكاب المنكر علانية ليس مسألة شخصية، وإنما هو جرثومة قاتلة تقوض دعائم المجتمع، وتقضي على وجود الفضيلة فيه.

والمنكر الأكبر أن تستبيح الدولة المسلمة ذلك بدعوى أن فيها غير المسلمين، والكبائر محرمة في جميع الشرائع، فلم يرد تحليل الزنى ولا الخمر ولا الربا ونحوها في شريعة من الشرائع السماوية، وميزان المنكر هو ما حرمه الله تعالى.

وعلى علماء الأمة أن يبصِّروا حكامهم بالحلال والحرام، ويَحْملوهم على منع المنكر وإزالته، وإلا شاركوهم في الإثم، وكان عليهم أوزار من يقع في هذا المنكر من عامة الناس.

ويبدأ هذا المشوار بالقبور التي يطاف حولها، ويُدْعى أصحابُها، ويُنذر لها، ويذبح عندها.

ويُثنَّى بتحرير البلاد من الربا، وإحلال الفكر الإسلامي في اقتصاد البلاد محل الفكر الأجنبي.

ويُثلَّث بضرورة وجود المظْهر الإسلامي في المجتمع المسلم، فيخلو الشارع الإسلامي من الخمر، ومن السفور والتبرج، والملاهي، وما إلى ذلك.

مع وجوب احترام أداء الشعائر الإسلامية؛ كفريضة الصيام، وصلاة الجماعة، سِيَّمَا صلاة الجمعة، عنوان المجتمع المسلم، وإن وجد ف البلد الواحد ديانات أخرى، فلأهل الذمة أحكامهم في بلاد الإسلام. هذه وأمثالها منكرات تحتاج إلى مقاومة، وإلا كنا كبني إسرائيل الذين حقت عليهم اللعنة.

ومعنى التناهي: الكف عن المنكر، ونهي الآخرين عن ارتكابه، فيكون المرء منتهيًا عنه في نفسه ناهيًا لغيره عن فعله، وليس من شروط النهي عن المنكر أن يكون المرء سليمًا من المعاصي، بل ينهى العصاة بعضهم بعضًا.

والمنكر: كل ما أنكره الشرع والعقل السليم، من الأقوال والأفعال.

ومن شر ما تصاب به الأمة أن يفشو فيها اقتراف المنكرات واجتراح السيئات، ولا تجد من يغيِّرها أو يزيلها، فإن هذا يكون أقوى أسباب انهيار الأمة أخلاقًا وحضارة وقوة مادية ومعنوية، وذلك لتهاونهم بأمر الله تعالى، فلو كان لَدَيْهم تعظيم لربهم لغارُوا لمحارمه وغضبوا لغضبه، وقد كان السكوت عن المنكر من أعظم المفاسد، لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس، متهاون بالمعاصي، يُجَرىء غيره على الإكثار منها، ولأن عدم

الإنكار يدل على أنه ليس بمعصية، فيعتقد بعض الناس حل ما حرم الله، ويزين له الشيطان سوء عمله، ويقتدى به غيره، ولذا لعن الله الساكتين على سماع المنكر.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونطقت بذلك الأحاديث:

١- فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله، ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»**، ثم قرأ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٰسِقُونَ﴾ ثم قال: **«كلا والله، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطُرُنَّه على الحق أطرًا، أو تقْصُرنَّه على الحق قصرًا»**[1].

٢- وفي رواية لأبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد المسيء، ولتأطُرُنَّه على الحق أطرًا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، وليلعنكم كما لعنهم»**[2].

٣- وعن حذيفة بن اليمان ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثم لتدعُنَّه فلا يستجيب لكم»**[3].

٤- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من رأى منكم منكرًا فليغيره**

---

(١) «سنن أبي داود» برقم (٤٣٣٦) و«سنن الترمذي» برقم (٣٠٤٧) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٠٦) وعبد الرزاق (١/ ١٩٤) و«المسند» (٣٧١٣) بإسناد ضعيف، لأن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، والنخعي القاضي سيء الحفظ، وباقي رجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن أبي حاتم (٦٦٦١) والبيهقي في «الشعب» (٧٥٤٤، ٧٥٤٥) ضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» عقب (٨٦٧).

(٢) «تحفة الأشراف» (٧/ ١٦١) وقد أخرجه الطبراني (١١٧٠٢) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، «المجمع» (٧/ ٢٦٩).

(٣) «المسند» (٥/ ٣٨٨) برقم (٢٣٣٠١، ٢٣٣٢٧) حسن لغيره، والبغوي (٤١٥٤) و«سنن الترمذي» بإسناد حسن رقم (٢١٦٩) والبيهقي (١٠/ ٩٣) وفي «الشعب» (٧٥٥٨) حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٦٢).

بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[١].

٥- وفي حديث أبي سعيد أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»**[٢].

٦- وعن أبي سعيد ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحقر أحدكم نفسه»**، قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: **«يرى أمرًا لله فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله له يوم القيامة: ما منعك أن تقول فيَّ كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى»**[٣].

٧- وفي حديث عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: **«مروا بالمعروف وانهَوْا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم»**[٤].

وفي الآية تعجُّب من سوء فعل غير المسلمين في عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فكيف بالمسلمين إذا فعلوا ذلك، وإذا جمع الناس بين فعل المنكر، والجهر به، وعدم النهي عنه، ففي ذلك فساد كبير، إذ إن من فَعل معصية ينبغي عليه أن يتستر، كما في الأثر: من ابْتُلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر. فإذا فُعِلَت المعصية جهارًا، وتواطأ الناس على عدم الإنكار، كان ذلك تحريضًا على فعلها، وسببًا مثيرًا لإفشائها وكثرتها.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٩) وأبو داود (١١٤٠، ٤٣٤٠) والترمذي (٢١٧٢) والنسائي (٥٠٢٣) وابن ماجه (١٢٧٥، ٤٠١٣).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (٤٣٤٤) و«سنن الترمذي» برقم (٢١٧٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠١١) و صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٤٠) والمشكاة (٣٧٠٥) والسلسلة الصحيحة (٤٩١) والروض النضير (٩٠٩)

(٣) سنن ابن ماجه مختصرًا برقم (٤٠٠٨) قال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٢٤٢): هذا إسناد صحيح، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٣٧) والسلسلة الصحيحة (١٦٨) والروض النضير (١٠٠١)، وهو في المسند (١١٤٤٠، ١١٢٥٥) وفيه أبو البختري لم يسمع من أبي سعيد وبينهما رجل مبهم وبقية رجال السند ثقات رجال الشيخين، أفاده محققو المسند.

(٤) حديث حسن كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٣٥) و هو في ابن ماجه (٤٠٠٤) والتعليق الرغيب (٣/ ١٧٢) والمسند (٢٥٢٥٥) حسن لغيره.

تَحَالُفُ اليَهُودِ مَعَ الوَثَنِيِّينَ ضِدَّ المُسْلِمِينَ

٨٠- ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

ومن جملة معاصي بني إسرائيل أن كثيرًا من المعاصرين منهم للرسول ﷺ يوالون الكافرين الوثنيين ضد المسلمين، ويناصرون كل محارب للإسلام وأهله، كما فعل كعب بن الأشرف وأصحابه حين حالفوا المشركين على قتال النبي ﷺ وأصحابه، وهذا شأنهم في كل زمان ومكان، فقد ذكر القرآن الكريم أن اليهود كانوا يوالون المشركين ويؤلبونهم على المسلمين ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. وكما حدث في غزوة الأحزاب والنضير لما تحالفوا مع المشركين على قتال المسلمين، وكما يحدث منهم حاليًا بالتعاون والتحالف مع الكبار ماديًا وعسكريًا، وذلك قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: يتخذون المشركين الوثنيين، والمشركين النصارى، أولياء لهم يناصرونهم على المسلمين، ثم ذم سبحانه فعلتهم هذه فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: بئس ما عملوه من موالاة الكفار، وما قدَّموه لأنفسهم يوم لقاء الله، وبئست هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة، ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ما فعلوه من الموالاة والنصرة، أن غضب الله عليهم، وهم خالدون في عذاب الله يوم القيامة ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ وما أسوأ ما قدموه لأنفسهم من عمل يسبب لهم غضب الله تعالى وعذابه يوم لقائه، وهذا الوعيد يتحقق بالنسبة لموالاة اليهود وغيرهم ضد المسلمين، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين.

الدُّخُولُ فِي الإِسْلَامِ هُوَ المَطْلُوبُ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمِينَ

٨١- ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ[1] وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ

(١) قرأ نافع بالهمز موضع الياء في (والنبي)، والباقون بياء مشددة.

كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

ثم ما الدافع لتولِّي اليهود للكفار الوثنيين وما الدافع أيضًا من موالاة المسلمين لأعداء الله؟ إنه عدم الإيمان بالله تعالى، وعدم الإيمان برسول الله ﷺ وعدم الإيمان بما نزل على رسول الله ﷺ، فلو أن هؤلاء اليهود آمنوا بالله ربًّا ومعبودًا وبالرسول محمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وأقروا بما أُنزل عليه من ربه، وهو القرآن الكريم، لو كانوا كذلك، ما اتخذ وهم أنصارًا وأعوانًا، والسبب في ذلك أن كثيرًا منهم خارجون عن طاعة الله ورسوله، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي: اليهود ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ محمد ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ وهو القرآن إيمانًا صادقًا ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي: غير المسلمين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أصحابًا وأصدقاء، وما ارتكبوا ما ارتكبوه من محبتهم في الباطن، فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه يوجب على العبد موالاة ربه، وموالاة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه، ولَمّا لم يتحقق منهم ذلك، كانوا من الخارجين على طاعة الله وطاعة رسوله، وكانت موالاتهم لأعداء الله فسق ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وقليل منهم غير فاسق، وهم من دخل في الإسلام منهم.

وكان اليهود في المدينة قد أظهروا الإسلام نفاقًا، لمَّا وجدوا جميع أهل المدينة من الأوس والخزرج قد أسلم، فتظاهروا بالإسلام؛ ليكونوا عينًا ليهود خيبر وقريظة والنضير، والمراد بالذين كفروا في الآية: مشركو مكة، ومن حول المدينة من الأعراب الذين بقوا على الشرك.

ومن هؤلاء اليهود: كعب بن الأشرف رئيس اليهود، وكان مواليًا لأهل مكة يغريهم دائمًا بغزو المدينة.

والآية عامة، وفيها دعوة إلى دخول اليهود في الإسلام، والإيمان بالنبي الخاتم وما أنزل عليه، وكذلك الشأن بالنسبة للنصارى وسائر الملل والنِّحَل الخارجة عن الإسلام.

اليَهُودُ وَعَبَدَةُ الأَوْثَانِ أَلَدُّ أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

٨٢- ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

وفي سياق الحديث عن أهل الكتاب، تمضي الآيات؛ لتكشف لنا عن نوايا اليهود والنصارى تجاه المسلمين، فيقسم ﷺ، ويؤكد هذا القسم على أن اليهود وعبدة الأوثان هم أشد الناس عداوة للمؤمنين.

فهاتان الطائفتان أعظم الناس عداوة للإسلام وأهله على الإطلاق، وأكثرهم سعيًا في وصول الضرر إلى المسلمين وذلك لشدة بغضهم لهم بغيًا وحسدًا وعنادًا وكفرًا.

والتاريخ شاهد بذلك في ماضيه وحاضره ومستقبله، وهذا ما يؤكده قول الله تعالى عنهم ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [٦٤، ٦٨]. فكررها مرتين.

وقوله سبحانه: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [٨٠].

وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ [٦١].

وهذه العداوة تنسحب على الزمن كله في جميع العصور.

ويجعل الله تعالى اليهود في الآية، مع من لا يعرفون لهم ربًا، في كفة واحدة، والمفروض أن تكون عداوة اليهود للمسلمين أقل؛ لأنهم يعترفون بوجود إله خالق، بخلاف الوثنيين فهم لا يعترفون بوجود إله لهذا الكون، ومع هذا فإن الله تعالى يقدِّم اليهود عليهم في عداوتهم للمسلمين، **ولهذه العداوة أسباب أربعة:**

السبب الأول: أن من مبادئ اليهود أنه يجب عليهم إيذاء من خالفهم في الدين، بأي لون من ألوان الأذى؛ كالقتل، أو النهب، أو السلب، أو بنوع من أنواع المكر والكيد والخداع والاستفزاز، ولذلك فإنهم قتلوا الأنبياء، وقتلوا الآمرين بالقسط من الناس من بين سائر الأمم.

السبب الثاني: أنهم يعلمون الحق وينكرونه، فقد عرفوا أن محمدًا رسول الله قبل بعثته، وأنكروا ذلك بعد بعثته، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

وكما قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة].

فهم يحسدون محمدًا ﷺ على الرسالة التي خرجت من بني إسرائيل إلى العرب.

ولذا: فقد غضب الله عليهم؛ لأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم، واستثناهم ممن أنعم الله عليهم في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وهم ينكرون رسالة عيسى ومحمد عليهما السلام.

السبب الثالث: أنهم يعملون جاهدين على أن تكون القدس عاصمتهم الأبدية، ويخططون لبناء الهيكل المزعوم على أنقاض المسجد الأقصى.

ولذا: فإنهم يخططون للقضاء على أية قوة مادية، أو بشرية، أو عسكرية، أو علمية بين صفوف المسلمين، سِيَّمَا دول الطوق التي تحيط بالكيان الصهيوني، فينشرون السموم والشهوات، ويبددون طاقات الشباب بكل الوسائل المتاحة.

إن عداوة المشركين في مكة للإسلام وأهله لم تزد عن عشرين عامًا، وعداوة الفرس لـه قبل اعتناق الإسلام لم تزد عن بضع سنوات، أما عداوة اليهود فهي قائمة إلى قرب الساعة، حتى يقاتل اليهود المسلمين ويختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، وينطق الله الحجر فيقول: يا مسلم، هذا يهودي ورائي تعالَ فاقتله.

ولذا جاء في الأثر: ماخلا يهودي بمسلم إلا حدَّث نفسه بقتله[١].

والتاريخ مليء بالمشاهد التي تبرز هذه العداوة:

١ - لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة وأقام دولة الإسلام، عقد معاهدة مع اليهود للتعايش السلمي، ودعاهم للإسلام والاعتراف بما جاء في التوراة، ولكنهم لما رأوا الأوس والخزرج قد توحَّدوا تحت راية الإسلام بعد التمزق والفرقة سرعان ما أثاروا النعرة الجاهلية بينهم وأوقدوا نار الحرب، وبذَرُوا بذور الشقاق والخلاف.

٢ - وهم الذين ألَّبوا الأحزاب ضد النبي ﷺ لقتاله.

٣ - وهم الذين تحالفوا مع مشركي مكة لقتال النبي ﷺ وأصحابه.

٤ - وهم الذين دبروا قتل النبي ﷺ بإلقاء حجر عليه وهو جالس تحت جدار من جُدُر ديارهم.

---

(١) ضعيف الجامع برقم (٤٤٣٩) ج٩.

٥ - وهم الذين دسُّوا له السم في ذراع الشاة؛ لعلمهم أنه يحب أن يأكل منها.

٦ - وهم الذين كانوا وراء الفتنة الكبرى، فتنة قتل عثمان ﷺ بقيادة عبد الله بن سبأ اليهودي.

٧ - وهم الذين كانوا وراء تقويض الخلافة العثمانية، وإسقاط السلطان عبد الحميد؛ لتفكيك الخلافة الإسلامية إلى دويلات!!

٨ - وهم الذين أخرجوا عرب فلسطين من ديارهم وشردوهم في البلاد.

٩ - وهم الذين وراء إخماد الصحوات الإسلامية وتشويه سمعة الإسلام والمسلمين بمصطلحات التطرف والإرهاب والأصولية.

السبب الرابع: أن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الرئاسة، وهذا يجعلهم معادين للمسلمين وغيرهم بغية الاستيلاء على زمام الحكم في العالم.

من المفروض أن تكون عداوة النصارى للمسلمين أشد من عداوة اليهود؛ لأن اليهود ينازعون في النبوة، فينكرون نبوة بعض الأنبياء، أما النصارى فهم ينازعون في الألوهية، ويزعمون أن لله ولدًا.

والجواب عن ذلك: أن المراد مجرد مدح النصارى في مقابل ذم اليهود.

أما النصارى فهم ألين عريكة من اليهود، وأقرب إلى المسلمين نظرًا لما يأتي:

١ - النصارى يكفرون بنبي واحد، واليهود يكفرون بأكثر من نبي.

٢ - الإيذاء والقتال لدى النصارى حرام: مَنْ ضَرَبَك على خدك الأيمن فأَدِرْ لَهُ خدك الأيسر.

٣ - لا يحرص النصارى على الدنيا وحب الرئاسة حرص اليهود، ولذلك فهم لا يعادون الناس ولا يحسدون أحدًا كاليهود.

٤ - على أن مدح القرآن للنصارى ليس على إطلاقه بما يشمل جميع النصارى، أو بالأحرى بما يشمل كل نصراني باقٍ على ديانته، وإنما يمدح القرآن قومًا مخصوصين من النصارى تأثروا بالقرآن حين سمعوه فرقَّت قلوبهم واعتنقوه، والآية تشمل كل من كان كذلك إلى قيام الساعة.

قال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به

عيسى عليه السلام، فلما بُعث محمد ﷺ آمنوا به وصدقوه، فأثنى الله عليهم بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾.

والآيات بعدَ ذَم اليهود تصف قومًا قالوا: إنا نصارى، فهي دعوى مزعومة، والحقيقة أنهم ليسوا على دين النصرانية الصحيح، وأن النبي ﷺ وجدهم أقرب الناس مودة لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسمِّ لنا أسماءهم، ويجوز أن يكون المراد بهم وفد النصارى الذين أرسلهم النجاشي إلى النبي ﷺ مع جعفر بن أبي طالب بعد قدومه إليه، وكانوا سبعين من قساوسة أهل الصوامع فأسلموا، ولما رجعوا إلى النجاشي وأخبروه أسلم، ولم يزل مسلمًا حتى مات.

وقيل: إنها نزلت في وفد نصارى نجران، وكانوا ثمانين رجلًا فأسلموا، وأيًا ما كان الأمر، فإن الآية عامة تشمل هؤلاء وغيرهم ممن رقَّ إلى الإسلام ودخل فيه، ولا تنطبق الآية على من لم يدخل في الإسلام من النصارى.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ يا محمد ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بك وصدقوك واتبعوك ﴿الْيَهُودَ﴾؛ لعنادهم وجحودهم وغمطهم الحق ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مع الله غيره، كعبدة الأوثان وغيرهم، فجعلهم الله قرناء لليهود في الحسد والعداوة وصعوبة إجابتهم للحق.

﴿وَلَتَجِدَنَّ﴾ يا محمد ﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ لم يصف الله النصارى بأنهم أهل ود، وإنما وصفهم بأنهم أقرب من اليهود والمشركين، فهو قرب مودة بالنسبة إلى متباعدين، ولذا فقد سُرَّ النبي ﷺ حين غَلَبت الرومُ فارس؛ لكونهم أهل كتاب، والفرس عبدة نار، وإذا غَلب العدو الأصغر انكسرت شوكة العدو الأكبر، ومن النصارى من هو أرق قلبًا من اليهود ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ علماء بدينهم، قرؤوا صفة محمد ﷺ في الإنجيل ﴿وَرُهْبَانًا﴾ أي: عبادًا في دور العبادة زاهدين متنسكين ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق والخضوع له، وهم الذين قبلوا رسالة محمد ﷺ وآمنوا بها، فهذان سببان ذُكرا في هذه الآية لقرب مودة النصارى عن اليهود والوثنيين، وهما:

وجود القساوسة، والرهبان، وليس فيهم من الغلظة والجفاء ما عند اليهود.

والسبب الثاني أنه لا يوجد فيهم الْعُتُوّ والتكبر الذي عند اليهود.

وذكرت الآية التالية سببًا ثالثًا وهو رقة قلوب بعضهم وإذعانهم للحق والتصديق به، كمن يدخل في الإسلام منهم في قديم الزمن وحديثه، وعلى مدى التاريخ كله.

ثَنَاء الإِسْلَامِ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنَ النَّصَارَى

٨٣- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

ومما يدل على قرب مودة النصارى للمسلمين أنهم يتأثرون بالقرآن عند سماعه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد من القرآن الذي نزل عليه ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فأيقنوا أنه حق منزل من عند الله تعالى، وفاضت أعينهم بالدمع عند البكاء ورقة القلب لسماع القرآن.

قال ابن عباس يريد النجاشي وأصحابه لَمَّا قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم: فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة، وكان النجاشي قد سأل جعفرًا: هل في كتابكم ذِكْرُ مريم؟ فقرأها، وقرأ صدر سورة طه عليه، فبكى وبكت الأساقفة حوله حتى اخضلَّت لحاهم.

وبكى كذلك الوفد الذي قدم على رسول الله ﷺ من طرف النجاشي حين قرأ عليهم الرسول ﷺ سورة يس. وجاء أيضًا أنها نزلت في إسلام سلمان الفارسي[1].

وفَيْضُ العين بالدمع يكون بعد امتلائها، فيفيض من جوانبها ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: القساوسة والرهبان ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ برسولك محمد، وصدقناه واتبعناه، وشهدنا أن ما جاء به هو الحق ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الذين يكرمهم الله بشرف الشهادة مع أمة محمد ﷺ على سائر الأمم يوم القيامة، فنشهد له أنه قد بلَّغ رسالة ربه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهذا إيمان صريح، وانضمام إلى أمة الإسلام، وضراعة إلى الله تعالى أن يجعلهم مع

---

(١) كما أخرجه البيهقي في «الدلائل» في حديث طويل جدًا (٢/ ٨٢-٩٢) والحاكم (١/ ٥٣٢) قال الذهبي: هذا حديث جيد حكم الحاكم بصحته.

الشاهدين مع محمد وأمته والشاهدين بصدق محمد ﷺ.

جاء عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما أن ثمانية من نصارى الشام كانوا في بلاد الحبشة، وأنهم قدموا المدينة مع اثنين وستين راهبًا من الحبشة، صاحبوا المسلمين الذين رجعوا من هجرتهم بالحبشة، وسمعوا القرآن وأسلموا، وأن هذا الوفد كان قد عاد إلى المدينة سنة سبع من الهجرة، فكانت هذه الآية تذكيرًا بفضلهم، وهؤلاء الثمانية الذين أسلموا هم: بَحيرا الراهب، وإدريس، وأشرف، وأبرهة، وثمامة، وقثم، ودريد، وأيمن[١]. وكون هذه الآية مدنية لا يمنع أن تكون قد أثنت على من دخل في الإسلام من النصرانية قبل الهجرة، كما جاء في الروايات الأخرى.

ومن ذلك ما جاء عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير قالا: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتاب معه إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، فأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفرًا أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم، فآمنوا بالقرآن، وفاضت أعينهم من الدمع، وهم الذين أنزل الله فيهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ إلى ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[٢].

وفي رواية الطبري عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ خاف على أصحابه من المشركين، فبعث جعفر بن أبي طالب، وابن مسعود، وعثمان بن مظعون في رهط من أصحابه إلى النجاشي، فلما بلغ ذلك المشركين، أرسلوا وفدًا منهم برئاسة عمرو بن العاص، فسبقوا وفد النبي ﷺ ودخلوا على النجاشي، وذكروا له أنه خرج فيهم رجل سفَّه عقول قريش، وهو يزعم أنه نبي، وقد أرسل وفدًا إليك؛ ليفسدوا قومك، فأحببنا أن نخبرك، ولما قدم وفد النبي ﷺ سلَّموا عليه، فقال لهم: ما منعكم أن تُحَيُّوني بتحيتي، قالوا: إنا حيَّيْناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة، ثم سألهم: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ قالوا: يقول: هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ويقول في مريم: إنها العذراء البتول، فأخذ النجاشي عودًا من الأرض، وقال: ما زاد عيسى

(١) يُنظَر: «أسباب النزول» للواحدي (١٧٠) والسيوطي (١٠٩).

(٢) «تفسير القرطبي» (٦/ ٢٥٥) وهو عند ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٤٩) وابن أبي حاتم (٦٦٧٨) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١٧) و«أسباب النزول» للواحدي ص(١٥١).

والله على ما قال صاحبكم قدْر هذا العود، فكره المشركون قوله، وتغيَّرت وجوههم، ثم قال: هل تعرفون شيئًا مما أُنزل عليكم؟ قالوا: نعم، فقرؤوا، وكان منهم قسيسون ورهبانٌ وبعض النصارى في المجلس، قد انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ الآيات[1]، ثم قالوا:

٨٤- ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾

ورد أن قومهم من النصارى لَامُوهم على إسلامهم حين رجعوا إليهم فأجابوهم ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ أيْ: أيُّ لَوْم علينا في إيماننا بالله، وتصديقنا بالحق الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله واتباعنا له؟ وما الذي يمنعنا من ذلك، وقد ظهر لنا الحق من الباطل؟ ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ونرجو من الله بذلك الإيمان أن يجعلنا مع الصالحين من أهل طاعته، من أمة محمد ﷺ.

وهؤلاء النصارى هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. وقال فيهم أيضًا: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ [القصص].

جَزَاءُ المُؤْمِنِ وَالكَافِرِ

٨٥- ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ أنه قد أجاب النصارى الذين أسلموا إلى ما طلبوا، بل أجابهم إلى أكثر مما طلبوا؛ حيث طلبوا من ربهم أن يكونوا من الصالحين، وأن يكتبهم مع الشاهدين، فأعطاهم جنات النعيم، وسماهم محسنين، والإحسان أعلى درجات الإيمان وأكرم أوصاف المتقين ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي: أجزل لهم الأجر والمثوبة، وجزاهم على إيمانهم واعترافهم بالحق، وعلى قولهم: ﴿آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وقولهم: ﴿وَمَا لَنَا

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٠/٤٩٩) برقم (١٢٣١٧) وابن أبي حاتم عند تفسير الآية برقم (٤٢)، (٤/١١٨٤) (٦٦٧٧) مختصرًا.

﴿لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ وهذا الذي قالوه فيه اعتزاز بالإسلام، وتضرع إلى الله تعالى أن يكونوا في عداد الصالحين، وأن يدخلهم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت قصورها وأشجارها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وقد علم الله منهم صدقهم فيما قالوا، وإخلاصهم العمل له سبحانه، كما بيَّنته الآيات الأخرى فوعدهم دار النعيم، فهم ماكثون في الجنة أبدًا لا يزولون عنها ولا يُحوَّلون ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا هو جزاء المحسنين مع الله تعالى في القول والعمل. هذا هو جزاء المؤمن.

٨٦- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ﴾

أما الذين جحدوا وحدانية الله تعالى فكفروا به، وكذبوا رسول الله محمدًا ﷺ فلم يؤمنوا به، وكذبوا بآياته المنزلة عليه، والمنزلة على الرسل قبله، فهم أصحاب النار يلازمونها ولا يخرجون منها ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه: ٧٤].

النِّدَاء العَاشِر: النَّهْي عَنْ طَلَاقِ الدُّنْيَا

٨٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

وفيما يأتي من الآيات إلى بداية الربع الأخير من السورة يوجه الله ﷻ للمؤمنين خمس نداءات تتناول جانب التشريع في الحلال والحرام، وهي: النهي عن تحريم الحلال، والقطع بتحريم الخمر، والنهي عن الصيد في الحَرَم، وعدم التعنت في السؤال، والوصية عند الموت.

وهذه الآية هي النداء العاشر للمؤمنين في هذه السورة، وله علاقة بالآيات السابقة، وذلك أن الله تعالى لَمَّا ذكر من أسباب قُرب النصارى من المسلمين: أن منهم قسيسين ورهبانًا.

ومن مقتضى ذلك أن يَرْغبَ المؤمنون في الرهبانية والزهد والتقشف، ويظنون أنها مَرْتبة تُقَرِّبهم من الله تعالى، وهذا يتحقق - كما يزعمون - بتحريم التمتع بالطيبات.

ولذا فقد رفع الله سبحانه هذا الظن بهذه الآية فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، فإنها نعم أنعم الله

عليكم بها، فاحمدوه إذ أحلها لكم واشكروه، ولا تردّوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتقولوا على الله الكذب، وتعتقدو تحريم ما أحل الله.

جملة من الأحاديث في معنى الآية:

١- صحَّ أن النبي ﷺ ذكَّر أصحابه النار يومًا، ووصف القيامة، فرقَّ الناس وبكَوا، واجتمع عشرة منهم[١] في بيت عثمان بن مظعون، واتفقوا على أن يترهَّبوا، ويلْبسوا المسوح[٢]، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفُرُش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء، ولا الطيب، ويَسيحوا في الأرض، فبلَغ ذلك النبي ﷺ فأتى دار ابن مظعون فلم يجده، فسأل امرأته، فكرهتْ أن تُفشي سر زوجها، وقالت: إن كان قد أخبرك عثمان فقد صدق، وانصرف، فلما جاء عثمان أخبرتْه، فذهب هو والعشرة إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله، ما أردنا إلا الخير، فقال ﷺ: **«إني لم أُومر بذلك»**، ثم قال ﷺ: **«إن لأنفسكم عليكم حقًّا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا؛ فإني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآكل اللحم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**، ثم جمع الناس وخطبهم، فقال: **«ما بال أقوام حَرَّموا النساء والطعام والطيب وشهوات الدنيا؟! فإني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانًا؛ فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء، ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتي الصوم، ورهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وحُجُّوا واعتمروا، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا يُستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شدَّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الديار والصوامع»** فأنزل الله الآية[٣].

---

(١) هم: (أبو بكر وعلي وابن مسعود وابن عمر وأبو ذر وسالم والمقداد وسلمان ومعقل بن مقرن وعثمان بن مظعون).

(٢) كساء من شعر يلبسه الرهبان علامة على الزهد والتقشف.

(٣) صُحِّح هذا المعنى في الصحاح والسنن والمسانيد، بنصه مع تصرف يسير من تفسير «الخازن» (١/ ٤٨٨) وهو باختصار عن أبي صالح عن ابن عباس في «زاد المسير» (٢/ ٤١٠) وعن عكرمة بمعناه في «تفسير الطبري» (١٠/ ٥١٩) ونسبه في «الدر المنثور» لابن المنذر وأبي الشيخ، وعن عائشة مختصرًا في البخاري (٩/ ١٠٤) برقم (٥٠٦٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠) عن أنس برقم (١٤٠٠١) وفي «أسباب النزول» للواحدي (١٧٥) والسيوطي (١١٠).

٢- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله، ألم أُخبَر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟**» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**فلا تفعل، صم وأفطر، وقُم ونم؛ فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزوْرك عليك حقًّا، وإنَّ بِحَسْبِك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام؛ فإن بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله**»، قلت: إني أجد قوة، قال: «**فصم صيام نبي الله داود ولا تزد عليه**»، قلت: وما كان صيام نبي الله داود؟ قال: «**نصف الدهر**»[1].

٣- وعن أنس ﷺ أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه فقال: «**ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[2].

٤- وفي حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا تزوج العبد، فقد استكمل نصف الدين، فلْيتق الله في النصف الباقي**»[3]

٥- وجاء معقل بن مقرِّن إلى عبد الله بن مسعود ﷺ فقال: إني حرمت فراشي عليَّ سَنَة، فقال له: نم على فراشك وكفِّر عن يمينك، وتلا عليه الآية[4].

٦- وعن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود، فجيء بضَرْع، فتنحَّى رجل، فقال عبد الله: ادْنُ، فقال: إني حرمت أن آكله، فقال عبد الله: ادْنُ فاطْعَمْ وكفِّر عن يمينك، وتلا الآية[5].

٧- وقال زيد بن أسلم: سبب هذه الآية أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله، وهو عند النبي ﷺ فانقلب ابن رواحة إلى أهله، فقال لزوجه: ما عشَّيْتِه؟ قالت: كان الطعام قليلًا فانتظرتك، فقال: حبستِ ضيفي من أجلي، طعامك عليَّ حرام إن ذقته،

---

(١) البخاري (١٩٧٧، ١٩٧٩) ومسلم (١١٥٩) وأبو داود (٢٤٢٧) والنسائي (٢٣٩٦، ٢٤٠٠).

(٢) مسلم (١٤٠١) من حديث أنس واللفظ له.

(٣) البيهقي (٥٤٨٦) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٢٥).

(٤) سنده صحيح إلى ابن مسعود، كما في الطبري (٨/ ٦٤٨) وابن أبي حاتم (٦٦٩٠) والطبراني (٩٦٩٣).

(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٣).

فحرمته هي أيضًا على نفسها، وحرمه الضيف كذلك، فلما رأى ابن رواحة ذلك قال: قرِّبي الطعام، كلوا باسم الله، فأكلوا جميعًا، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: **«أحسنت»**، ونزلت الآية[١].

٨- وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء، وإني حرمت عليَّ اللحم، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾[٢].

٩- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخَّص لنا أن ننكح النساء إلى أجل، ثم قرأ عبد الله الآية[٣] وكان هذا قبل تحريم نكاح المتعة.

وعند الشافعي أنَّ من حرَّم أكلًا أو شُربًا أو ملبسًا أوشيئًا مًّا عدا النساء، أنه لا يَحْرُم عليه، ولا كفارة عليه، واحتج بحديث الذي حرم اللحم على نفسه، السابق ذكره؛ حيث لم يأمره النبي ﷺ بكفارة، فهو بمثابة اللغو لا يلزم صاحبه شيء.

وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى أنه يجب عليه كفارة يمين، أخذًا من قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ٢]. أما تحريم الزوجة فلأن عقد العصمة يتطرق إليه التحريم.

١٠- ونقل ابن جرير عن السُّدي أن (الحولاء) امرأة عثمان بن مظعون، واسمها عائشة، دخلتْ على أزواج النبي ﷺ فقُلْن لها: ما بالك يا حولاء متغيرة اللون، لا تمشطين ولا تطيبين؟! فذكرت أن زوجها لا يقربها، فلما علم النبي ﷺ بذلك أرسل إليه وسأله. فقال: إني تركته لله؛ لكي أتخلى للعبادة، وكان عثمان قد أراد أن يَجُبَّ نفسه، فقال له النبي ﷺ: **«أقسمتُ عليك إلا رجعتَ فواقعتَ أهلك»** فقال: يا رسول الله، إني

---

(١) بتصرف من «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٢٨) وهو في الطبري (٨/ ٦١٣) و«الدر المنثور» (٣/ ١٤٣) ونقله ابن كثير عن ابن أبي حاتم وقال: هذا أثر منقطع (٢/ ١٧٠) ورقمه: (٦٦٩٢).

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٣٠٥٤) وقال: حسن غريب وقد صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٤١) وهو في الطبراني في «الكبير» (١١٩٨١) وابن أبي حاتم (٦٦٨٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٦١٥، ٥٠٧١، ٥٠٧٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٠٤) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٩٤) والنسائي في «الكبرى» (١١١٥٠) وابن حبان (٤١٤١) وابن أبي حاتم (٦٦٨٨).

صائم، قال: «**فأفطِرْ وأْتِ أهلك**»، ثم قال ﷺ: «**ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم؟ ألا إني أنام وأقوم، وأفْطر وأصوم، وأنكح النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»، ونزلت الآية، فقال ﷺ لعثمان: «**لا تجُبَّ نفسك، فهذا هو الاعتداء**»، وأمرهم أن يكفِّروا عن أيمانهم، فقال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾[1] [٨٩].

١١- وفي رواية أن ناسًا قالوا: إن النصارى قد حَرَّمُوا على أنفسهم، فنحن نُحَرِّم على أنفسنا بعض الطيبات، فحرم بعضهم على نفسه أكل اللحم، وبعضهم النوم، وبعضهم النساء، وأنهم ألزموا أنفسهم بأيمان حلفوها على ترك ما التزموا بتركه فنزلت الآية[2].

١٢- وفي الصحيح من حديث أنس ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أُخبروا عنها كأنهم تقالُّوها، قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[3].

١٣- وعن عاشة ﷺ قالت: صنع النبي ﷺ شيئًا ترخص فيه، وتنزَّه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني أعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**»[4].

وهذه الأخبار تقتضي أن ذلك كان في أول الهجرة؛ لأن عثمان بن مظعون لم يكن له دار بالمدينة، وأسكنه النبي ﷺ دار أم العلاء الأنصارية، قيل: إنها زوجة زيد بن ثابت، وتُوفي عثمان بن مظعون سنة اثنتين من الهجرة. وهكذا قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٨/ ٦٠٩-٦١١).

(٢) تفسير «التحرير والتنوير» (٧/ ١٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٠٦٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٠١).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٧٣٠١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥٦).

بن العاص، كما سبق، لمَّا علم أنه يقوم الليل ويصوم النهار فقال له: «**إن لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فصم وأفطر، وقم ونم**» وبمثله قال سلمان لأبي الدرداء.

والله ﷻ ينادي المؤمنين بمقتضى إيمانهم ألَّا يزاولوا خصائص الألوهية التي يتفرد بها رب العالمين، فليس لهم أن يحرموا ما أحله الله لهم من الطيبات، ولا يمتنعوا عن المباح على وجه التحريم، والطيبات هي اللذائذ التي تشتهيها النفس من المأكل والمشرب، ثم إن أهل الجاهلية حرموا على أنفسهم أشياء لم يقرها الإسلام كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

والمعنى: لا تتركوا ما أحله الله لكم من المطاعم والمشارب والنساء على وجه التحريم لها، أما من ترك شيئًا من المباحات على وجه الزهد والتفرغ للعبادة من غير إضرار بالنفس ولا تفويت حق الزوجة، فلا حرج في ذلك، ولذلك فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ أي: لا تتجاوزوا حدود ما حرم الله؛ فإن التحليل والتحريم من حق الله وحده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المتجاوزين حدود الله، فيبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك. قال تعالى:

٨٨- ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

وبعد أن نهى الله ﷻ عن تحريم الطيبات، أمر بتناولها ورغَّب في التمتع بها فقال: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ كلوا وتمتعوا - أيها المؤمنون - من رزق الله الذي رزقكم إياه، وأحله لكم من المطاعم والمشارب والملابس والمراكب والشهوات، وما حرمه الله تعالى من ذلك ليس من الرزق الحلال، ولا يُسمَّى رزقًا، إنما يأمر الله تعالى بالأكل من الرزق الحلال الطيب، وترك ما عداه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن إيمانكم يوجب تقوى الله ومراقبته، واتباع طاعته، واجتناب مخالفته فلا تضيعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله، وفي هذا دعوة إلى التقوى بألطف الوجوه، وليس المراد الأكل وحده، بل يدخل فيه ألوان التمتع بالطيبات، وخص الأكل بالذكر لكونه أكثر حاجات الإنسان.

والتمتع بالطيبات لا ينافي التقوى، ولا يجوز لأحد من خلق الله أن يحرم على نفسه شيء أحله الله تعالى، وقد كان النبي ﷺ يحب الحلوى.

وجاء رجل إلى الحسن البصري فقال له: إن له جارًا لا يأكل الفالوذج؛ لأنه لا يؤدي شكره، فقال له الحسن: أفيشرب الماء البارد؟ قال: نعم، قال: إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذج[١].

وترك الأكل من الطيبات يؤدي إلى إضعاف العقول والأجسام، والإسلام يريد من أتباعه أن يكونوا أقوياء في أجسامهم وعقولهم وسائر شؤونهم، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف:

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة].

وبهذا أمر الله المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

فالمؤمن لا يترك ما أحل الله من الطيبات، ويتمتع بها دون إسراف ولا تقتير، ويداوم على شكر الله تعالى، ويطعم الفقراء والمساكين مما رزقه الله سبحانه.

الأَيْمان وكفَّاراتها

٨٩- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ[٢] اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ[٣] الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وقد يحلف الإنسان على ترك المباح كما عَلِمْنا من الآية السابقة، وكما يَقْدُم ضيف على شخص مَّا، فيحلف عليه رب المنزل أن يذبح له ذبيحة، ويحلف الضيف ألا يأكل

---

(١) «تفسير القرطبي» (٦/٢٦٢١).

(٢) أبدل همزة (يؤاخذكم) واوًا في الموضعين ورش وأبو جعفر، ومثلهما حمزة وقفًا، وقرأ الباقون بالواو.

(٣) قرأ ابن ذكوان (عاقدتم) بألف بعد العين، وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر (عقدتم) بتخفيف القاف مع حذف الألف بعدها، وقرأ الباقون بحذف الألف مع تشديد القاف، على التكثير.

منها. وكما يحلف الرجل ألا يأتي أهله، أو لا يصل رحمه، ونحو ذلك، وآية كفارة اليمين التي نحن بصددها جاءت في هذا السياق؛ لتشريع كفارة اليمين لمن حرَّم على نفسه ما أحل الله له.

قال ابن عباس: سبب نزولها: القوم الذين حرموا طيبات المطاعم والملابس والمناكح على أنفسهم، حلفوا على ذلك، فلما نزلت ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قالوا: كيف نصنع بأيماننا؟ فنزلت هذه الآية[1].

والأيمان ثلاثة أنواع:

أولًا: اليمين اللغو وهو: ما يسبق إليه اللسان من غير قصد؛ كقولهم: لا والله، وبلى والله.

أو هو: أن يحلف الحالف على شيء يعتقد أنه صادق فيه، ثم يتبين له خلاف ذلك. والله تعالى لا يعاقب على ما لا تقصدون عقده من الأيمان، فليس فيه كفارة في الدنيا، ولا عقوبة في الآخرة، ولكن لا ينبغي التهاون باسم الله تعالى وتعريضه للحلف في الصغيرة والكبيرة، وتعويد اللسان على ذلك. فإن حلف أنه لم يفعل كذا، أو أنه فعل كذا، وهو يعتقد أنه صادق فيما قال، ثم ظهر خلافه، فلا إثم عليه ولا كفارة في أصح القولين.

ثانيًا: اليمين المنعقدة وهي: التي تكون عن قصد ونية، وفيها كفارة عند الحنْث فيها، ومثالها قول القائل: والله لا أفعل كذا، فيفعل، أو يقول: والله لأفعلنَّ كذا، ولا يفعل.

ثالثًا: يمين الغموس وهي: التي يتعمد فيها الحالف الكذب، كأن يخبر بخلاف الواقع عن شيء مضى، أو يقصد بحلفه اقتطاع حق امرئ مسلم، وسُمِّيت غموسًا؛ لأنها تغمس صاحبها في النار، فهو مستحق للعذاب الأخروي؛ لأنه صمم على الكذب وقصده وحنث فيه وهذه اليمين الغموس وهي من كبائر الذنوب، وعقابها شديد:

عن أبي مالك قال: الأيمان ثلاثة: يمين تُكفَّر، ويمين لا تكفَّر، ويمين لا يؤاخذ بها، فأما التي تكفَّر فالرجل يحلف على قطيعة رحم، أو معصية الله، فيكفِّر يمينَه، والتي لا تكفَّر، الرجل يحلف على الكذب متعمدًا، والتي لا يؤاخذ بها، فالرجل يحلف على الشيء يرى أنه صادق، فهو اللغو لا يؤاخذ به[2].

---

(١) «تفسير الطبري» (٧/ ١٣).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٤١).

١- أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: **«الإشراك بالله»**، قال: ثم ماذا؟ قال: **«عقوق الوالدين»**، قال: ثم ماذا؟ قال: **«اليمين الغموس»**، قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: **«التي يقتطع بها مال امرئ مسلم وهو كاذب فيها»**[١].

٢- وأخرج مسلم عن أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة»**، فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: **«وإن كان قضيبًا من أراك»**[٢].

٣- وفي البخاري وغيره عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة، لقي الله وهو عليه غضبان»**[٣].

٤- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، رجل حلف على سلعة، لقد أُعْطِيَ بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر؛ ليقتطع بها مال امرئ مسلم، ورجل منع فضل ماء، فيقول الله يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك»**[٤].

والحالف في اليمين الغموس قد جمع بين الكذب، واستحلال مال غيره، والاستخفاف باليمين بالله تعالى.

وجمهور أهل العلم على أن اليمين الغموس لا كفارة فيها؛ لأنها أعظم من أن تُكفَّر، ويجب على صاحبها التوبة الصادقة، والرجوع إلى الله تعالى، وردُّ المظلمة لأهلها إن كان قد ترتب عليها مظلمة، ويرى الشافعي أن فيها كفارة كسائر الأيمان المنعقدة.

أما كفارة اليمين المنعقدة فهي إما: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة،

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٧٥، ٦٨٧٠، ٦٩٢٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٤٥) وانظر: (٢٣٥٦) و«صحيح مسلم» (١٣٨).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٤٦) وانظر: (٢٣٥٨) و«صحيح مسلم» (١٠٨).

فمن لم يجد شيئًا من ذلك فليصم ثلاثة أيام، **فهذه أربعة أنواع للكفارة**، والحالف مخير بين الثلاثة الأولى يفعل منها ما يشاء، فإن عجز عن الثلاثة انتقل إلى الرابعة وهي الصيام:

أولها: إطعام عشرة مساكين، وفي كيفية هذا الإطعام ومقداره ثلاثة أقوال:

القول الأول: تمليك كل فقير من العشرة وإعطاؤه (مُدًّا) أي: ربع صاع، وهو ما يعادل ثلاثة أرباع الكيلو تقريبًا، من البُرِّ، أو الأرز، أو الشعير، ونحو ذلك من غالب قوت أهل البلد، ومن خيار ما يَطعم الحالف، وبهذا قال مالك والشافعي، والقيمة عندهما لا تجزئ، والتمليك شرط في الإطعام.

القول الثاني: وقال أبو حنيفة: يطعم من الحنطة نصف صاع، ومن غيرها صاع، ولو غدَّاهم وعشَّاهم جاز، أي: أن الإطعام عنده لكل فقير وجبتان، وعنده أن القيمة بالدراهم والدنانير تجزئ.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: كان الرجل يقوت أهله قوتًا فيه سعة، وكان الرجل يقوت أهله قوتًا فيه شدة فنزلت ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾[1] وبسْط اليد في النفقة على الأهل، أو قبضها أمر موجود في كل زمان ومكان.

القول الثالث: قال أحمد: يطعم لكل مسكين مد من البُرِّ، ونصف صاع من غيره، ويشترط أن يملِّك الفقير هذا المقدار، ولو غدَّاهم وعشَّاهم لا يجزئ، ولو أطعم فقيرًا واحدًا عشر مرات أجزأه، ولا تخرج الكفارة إلا لمسلم.

قلت: الأمر واسع، ولفظ الإطعام إذا تحقق بصورة من الصور فإنه يجزئ إن شاء الله، فلو صنع للفقير طعامًا في بيته أجزأه، وإن دفع له القيمة في أحد المطاعم أجزأه، وإن ملَّكه حُبوبًا يعطيه معها إدامًا، أو لحمًا؛ لأنه لن يأكل الحبوب وحدها أجزأه.

وثانيها: الكسوة، ولا تطلق الكسوة إلا على ما يستر العورة وتصح الصلاة فيها، فتصدُق على الثياب، والقميص الطويل، والإزار، ولا تصدق على العمامة أو الطاقية أو الخمار.

وثالثها: عتق الرقبة المؤمنة السليمة من العيوب إن وجدت، وفي آية كفارة القتل الخطأ

---

(١) صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» موقوفًا علي ابن عباس برقم (١٧١٧) وهو في ابن ماجه (٢١١٣) وصحح إسناده البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ١٣٥).

تقييد الرقبة بكونها مؤمنة، قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]. وجاءت آية كفارة الظهار، وهي قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣]. غير مقيدة بكونها مؤمنة، كما في آية كفارة اليمين التي معنا. والجمهور على حمل المطلق على المقيد، ويشهد له ما صح في حديث معاوية بن أبي الحكم السلمي أنه ذكر للنبي ﷺ أن عليه عتق رقبة، وجاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، قال: «**من أنا؟**» قالت: أنت رسول الله، قال: «**اعتقها فإنها مؤمنة...**» الحديث[1].

وأخذ أبو حنيفة بإطلاق الآية فقال: تجزئ الرقبة الكافرة كما تجزئ الرقبة المؤمنة في الكفارة.

ولا ينتقل الحانث في يمينه إلى الصيام إلا إذا عجز عما سبق، وحد العجز عن الإطعام: ألَّا يملك المكفِّر قوت يومه وليلته، له ولأهل بيته، فإن كان عنده أكثر من ذلك بما يكفي لإطعام المساكين العشرة أطعم، ولا ينتقل إلى الصيام، وتقوَّم الدراهم بما يعادل ما يكفي قوت يوم وليلة له ولمن يعول، وما زاد عليها يشتري بها كسوة عشرة مساكين، أو ثمن عتق الرقبة إن كانت تكفي لذلك قبل الانتقال للصيام، فإن عجز عما ذُكِر، فعليه صيام ثلاثة أيام، والتتابع فيها أولى، فإن صامها من غير تتابع أجزأه ذلك، وقد بدأت الآية بالأسهل فالأسهل، ومن صام من كفارة اليمين يومًا أو يومين، ثم وجد ما يطعم فليطعم، ويجعل صومه تطوعًا[2].

ومن حلف على أمر فرأى أن غيره خير منه فليحنث في يمينه، وليأت الذي هو خير؛ لما صح عن رسول الله ﷺ من حديث عدي بن حاتم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حلف على يمين، ثم رأى غيرها خيرًا منها فليأت الذي هو خير**» أخرجه مسلم[3].

وجاء في حديث عائشة ﵂ أن أبا بكر ﵁ لم يكن يحنث في يمين قط، حتى أنزل الله

---

(١) في «الموطأ» (٢/ ٧٧٧) و«مسند الشافعي» برقم (١١٩٦) و«صحيح مسلم» برقم (٥٣٧).

(٢) قاله سعيد بن جبير كما عند ابن أبي حاتم (٦٧٣٧، ٦٧٤٠).

(٣) في الصحيح برقم (١٦٥٠) وفي المسند (١٨٢٤٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وهو عن عبدا لله بن عمرو برقم (٦٩٠٧) وعن أبي هريرة برقم (٨٧٣٤) وعن أبي سعيد برقم (١١٧٢٧) وفي البخاري عن أبي موسى (٣١٢٣) ومسلم (١٦٥٢).

كفارة اليمين، وقال: لا أحلف على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني[١].

وقال ﷺ لعبد الرحمن بن سمُرة: «... **وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها، فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير**»[٢].

وهذا ينطبق على من حلف ألا يصل رحمه، أو منع زوجته من صلة رحمها، ونحو ذلك من الحلف على ترك فعل خير، وكذا لو حلف على فعل معصية، فإنه يجب عليه أن يحنث في يمينه، بل هو من قبيل اللغو، وفيه إصرار على الذنب، وهو يحتاج إلى التوبة.

والكفارة تكون بعد وقوع اليمين.

وتجوز الكفارة قبل وقوع اليمين؛ لقول النبي ﷺ: «**وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير**»[٣].

وبه قال أربعة وعشرون من الصحابة، وجمهور الفقهاء.

ولا تنعقد اليمين إلا بأسماء الله تعالى وصفاته، لما رواه الشيخان من حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله**» وكانت قريش تحلف بآبائها فقال «**لا تحلفوا بآبائكم**»[٤].

والحلف بغير الله تعالى كفر أو شرك؛ فقد سمع النبي ﷺ رجلًا يحلف بأبيه فقال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله، أو ليصمت**»[٥].

فلا يجوز الحلف بالنبي ﷺ ولا بالكعبة، ولا بحياة أحد، ونحو ذلك.

كما لا يجوز وضع الطلاق موضع اليمين لفعل شيء، أو الامتناع عن شيء، فمن

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦١٤، ٦٦٢١) وعبد الرزاق (١٦٠٣٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٢٢) وانظر: (٦٧٢٢، ٧١٤٦).

(٣) من حديث أبي بريدة عن أبيه في «صحيح البخاري» برقم (٦٦٢٣) وانظر: (١٦٤٩، ٣١٣٣).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٦٤٦).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (١٦٤٦) و«صحيح البخاري» برقم (٢٦٧٩، ٦٦٤٦).

حلف بالطلاق اعتقادًا منه أنه أعظم من الحلف بالله، أو أن الحلف بالطلاق موضع اهتمام أكثر لدى المحلوف له، فإنه يقع في ذنب أكبر؛ لأن اليمين بالله تعالى أعظم من الطلاق، وإذا عدل الحالف عن الحلف بالله تعالى إلى الطلاق، فإنه يُسأل عن نيته، فإن نوى الطلاق، فإنه يؤاخذ به ويُعدُّ طلاقًا، وإن قصد المنع أو التهديد فإنه يُعدّ بمثابة اليمين بالله تعالى، وعليه كفارة يمين.

ومن حلف على فعل واجب أو تَرْكِ محرم يحرم عليه الحنث فيه؛ لأنه تأكيد لما كلّفه الله به.

أما من فعل العكس بأن حلف على ترك واجب أو فعل معصية، فإنه يجب عليه الحنث فيه؛ لأنه يمين معصية لا يجوز الوفاء به، وكذلك الأمر بالنسبة إلى فعل المندوب وترك المكروه.

والحلف يكون على نية المحلِّف، ولا حَلِف فيما لا يملك العبد .

ومعنى الآية: أن الله تعالى لا يعاقب على أيمان اللغو التي لا تنعقد عليها نية الحالف، ولكن يعاقب على ما قصدتموه من الأيمان وعقدتم النية عليه، فإن لم تفُوا باليمين، فإن الله تعالى يمحو عقوبته بما شرع لكم من الكفارة، وهي إطعام عشرة مساكين، بتمليك كل منهم نصف صاع من أغلب قوت البلد، ومعه شيء من اللحم والإدام، أو ستر عورة كل منهم بكسوة تكفيه، أو عتق مملوك من الرق، وهو مخير بين هذه الثلاث، فإن لم يجد واحدًا منها فليصم ثلاثة أيام، وإن كانت متتابعة فهو أولى له.

واحفظوا - أيها المسلمون - أيمانكم باجتناب الحَلِف، والوفاء به إن حلفتم، أو إخراج الكفارة إن لم تفوا به ﴿وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ فلا تحلفوا إلا لضرورة، ولا تحلفوا كذبًا، ولا تكثروا من الحلف، ولا تحنثوا فيها إذا حلفتم، إلا إذا كان الحنث خيرا.

وكما بيَّن الله لكم حكم الأيمان والتحلل منها، يبيِّن لكم أحكام دينه؛ لتشكروا الله على هدايته إياكم إلى الطريق المستقيم ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ المبينة للحلال والحرام الموضحة للأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: مثل ذلك التبيين يبيِّن الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها؛ لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومن ذلك معرفة الأحكام الشرعية.

النِّدَاء الحَادِي عَشَرَ: التَّحْرِيم القَاطِع لِلخَمْرِ وِالقِمَارِ

٩٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

النداء الحادي عشر لأهل الإيمان في هذه السورة جاء بصدد تحريم أربعة أشياء هي: الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، فيذمها، ويخبر أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس، فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله.

وهذا النداء يرتبط بالنداء الذي قبله، وذلك أن الله تعالى نهانا عن تحريم ما أحله لنا من الطيبات، وأمرنا أن نتمتع بها، ولما كانت الخمر والميسر من الأمور المعتادة المستطابة عند العرب في الجاهلية، بيَّن الله سبحانه أن هذه الأمور الأربعة المذكورة في الآية غير داخلة في جملة الطيبات المحللة، بل هي من المحرمات.

وقد كانت هذه الأمور الأربعة من معالم الجاهلية المتغلغلة في المجتمع، وكانت كلها ذات ارتباط واحد، يتسابقون إليها، ويتباهَوْن بها، ولا تخلُو منها مجالسهم للشعر والمدح والمفاخرة.

وكانت مجالس شراب الخمر يصاحبها نحر الذبائح، وكانت هذه الذبائح تُنحر على الأنصاب، وهي أصنام كانوا يذبحون عليها ذبائحهم وينضحونها بدمها.

وفي هذه المجالس كان الميسر يجري عن طريق الأزلام، وهي قداح كانوا يقتسمون بها الذبيحة، فيأخذ كل منهم نصيبه بحسب قدَحه.

وأنصبة القداح تبدأ من أعلى وتنتهي بلا شيء، وقد يخرج القدح الأخير لصاحب الذبيحة، فيخسرها كلها، وبيان هذه **المحرمات الأربع** فيما يأتي:

أولًا: الخمر وهي أم الخبائث، سميت كذلك؛ لأنها تخامر العقل، أي: تستره وتخالطه وتغطيه، ومنه خمار المرأة؛ لأنه يغطي وجهها، والخمر: كل مسكر يغطي العقل:

ومن مفاسد الخمر:

١- أنها رجس، أي نجسة نجاسة معنوية.

٢- وهي من عمل الشيطان التي يجب الحذر منها لمنع الوقوع في مصايدة.

٣- ولا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتناب الخمر.

٤- والخمر موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس.

٥- والخمر تصد القلب عن ذكر الله تعالى ولذا وجب تركها والانتهاء عنها.

والمشهور أن الخمر حُرمت سنة ثلاث من الهجرة بعد غزوة أحد، ولعل هذه الآية نزلت قبل سورة العقود، ثم وضعت بعد ذلك في موضعها من السورة بأمر النبي ﷺ.

أسباب النزول:

١- في صحيح مسلم وغيره عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: (.. وأتيتُ على نفر من الأنصار والمهاجرين فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمرًا - وذلك قبل أن تحرم الخمر - قال: فأتيتُهم في حَشٍّ - والحشُّ هو البستان - فإذا رأس جَزور مشوي عندهم، وزقٌّ من خمر، قال: فأكلت وشربت معهم، قال: فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، قال: فأخذ رَجُل أَحَدَ لَحْيي الرأس[1] فضربني به، فجرح أنفي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فأنزل الله فيَّ شأن الخمر ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[2].

٢- وعن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزلت في الخمر أربع آيات - فذكر الحديث - قال: وصنع رجل من الأنصار طعامًا، فدعانا فشربنا الخمر قبل أن تحرم حتى انتشينا، فتفاخرنا فقالت الأنصار: نحن أفضل، وقالت قريش: نحن أفضل، فأخذ رجل من الأنصار لَحْيَ جَزُور فضرب أنف سعد ففزره، وكان أنف سعد مفزورًا، فنزلت الآية ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[3].

٣- وعن أبي ميسرة، عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال:

---

(١) للجمل لَحيان، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان داخل الفم.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٧٤٨) في فضائل الصحابة من حديث طويل بعد الحديث رقم (٢٤١٢) و«المسند» (٣/ ٨٢) و«سنن البيهقي» (٨/ ٢٨٥) وابن جرير (١٠/ ٥٦٩).

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم أيضًا من حديث شعبة (١٨٧٨/٤) برقم (١٧٤٨) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٨٥).

اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت هذه الآية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢١٩] فدُعي عمر فقرئتْ عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾[النساء: ٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام إلى الصلاة نادى: (أن) لا يقربنَّ الصلاة سكران، فدُعي عمر، فقرئتْ عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعي عمر، فقرئتْ عليه، فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[٩٠] قال عمر: انتهينا، انتهينا.[١]

٤- ومثله حديث أبي هريرة ﷺ قال: حُرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] فقال الناس: ما حُرِّم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم من الأيام، صلَّى رجل من المهاجرين، أَمَّ أصحابه في المغرب، خلط في قراءته، فأنزل الله عزَّ وجلَّ آية أغلظ منها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] وكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق، ثم أُنزلت آية أغلظ من ذلك ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ قالوا: انتهينا ربنا، وقال الناس: يا رسول الله، ناس قُتلوا في سبيل الله، وناس ماتوا على سَرَفهم، كانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجسًا من عمل الشيطان، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ [٩٣] وقال النبي ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ: **«لو حُرِّمت عليهم لتركوها كما تركتم»**[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣١٦) برقم (٣٧٨) إسناده صحيح ورجاله ثقات، (محققوه) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣١١٧) وصحيح الترمذي (٣٢٥٥) قال ابن كثير: وصحح هذا الحديث علي ابن المديني والترمذي، وقال الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في تعليقه عليه: وعلى كل فتصحيحه متوقف على ثبوت سماع ميسرة من عمر، قال محققو المسند: وأبو ميسرة، وهو عمرو بن شرحبيل الهمداني سمع من عمر، كما في الجرح والتعديل (٦/ ٢٣٧) وهو في «سنن أبي داود» (٣/ ٤٤٤) برقم (٣٦٧٠) والنسائي (٨/ ٢٨٦) والترمذي (٤/ ٩٨) برقم (٣٠٤٩) والبزار (٣٣٤) وابن أبي شيبة (٨/ ١١٢).

(٢) انفرد به أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥١) برقم (٨٦٢٠) وهو حديث حسن لغيره، لضعف أبي معشر السندي، وجهالة أبي وهب مولى أبي هريرة.، كما قال محققوه.

٥- وفي حديث ابن عمر ﷺ قال: نزلت في الخمْر ثلاث آيات، فأول شيء نزل آية سورة البقرة، فقيل: حُرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، ننتفع بها كما قال الله تعالى، قال: فسكت عنهم، ثم نزلت آية النساء، فقيل: حُرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نشربها قُرْبَ الصلاة، فسكت عنهم، ثم نزلت آية المائدة، فقال ﷺ: «**حُرِّمت الخمر**»[١].

٦- وحدث أن قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما ثملوا عبث بعضهم ببعض، فلما صحوا، جعل الرجل يرى الأثر بوجهه وبرأسه وبلحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي، حتى وقعت في قلوبهم الضغائن، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، فنزلت هذه الآية[٢].

تدرج تحريم الخمر: أما الآيات الأربع التي نزلت في تحريم الخمر فهي تمثل مراحل التدرج في تحريمها، نظرًا لشدة إلف أهل الجاهلية لها، وصعوبة إقلاعهم عنها، لتمكُّنها من شغاف قلوبهم، ولو حُرِّمتْ مرة واحدة لكان هذا مصادمًا لهم، والإسلام حكيم في تشريعه، وفي تنقية رواسب الجاهلية واقتلاع جذور الشرور من نفوسهم.

أما المرحلة الأولى: في شأن الخمر، فقد كانت قبل هذه المراحل السابق ذكرها، كانت في مكة المكرمة مجرد إشارة، وتعريض بالذم غير صريح، وإطلاق سهم في الاتجاه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] ففي هذا تعريض بذم (السَّكَر) وهو التمر أو العنب المخمر، في مقابل الرزق الحسن، وهو من (السُّكْر) لا من (السَّكَر).

كما نزلت الإشارة إلى ذم الربا في مكة في سورة الروم، ونزل التحريم النهائي في المدينة.

وحديث عمر ومصعب اللذان سبق ذكرهما فيهما بيان المراحل التي نزل فيها تحريم الخمر.

وأن التحريم في المرحلة الأولى منها كان بتحريك الشعور الديني في نفس المؤمن عن

---

(١) «مسند الطيالسي» برقم (١٩٥٧).

(٢) رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٨) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» وهو برقم (١٢٤٥٩) ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه النسائي في التفسير برقم (١٧١) وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٤١) قال الذهبي: صحيح على شرط مسلم وهو في ابن جرير (١٠/ ٥٧) وانظر: «السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١١٥١) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٨٥).

طريق العقل والمنطق، فما دام الإثم أكبر من النفع، فالعاقل هو الذي يغلِّب جانب النفع كما في سورة البقرة.

وفي المرحلة التي تليها كسر لعادة الشرب المستمر، وتضييق لِفُرَص مزاولتها، فأوقات الصلاة خمس، وبينها تقارب في الأوقات، وقد يترتب على الشرب خطأ في الصلاة أو في القراءة، كما حدث من بعضهم حين قرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ أعبد ما تعبدون، كما جاء ذلك في تفسير آية سورة النساء ٤٣، وقد نوَّه النبي ﷺ بالتحريم النهائي للخمر قبل نزوله بناء على ذلك.

ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب بالمدينة قال: «**يأيها الناس، إن الله يُعرِّض بالخمر، ولعل الله سيُنزل فيها أمرًا، فمن كان عنده شيء فليبعْه ولينتفع به**» قال: فما لبثنا إلا يسيرًا حتى قال ﷺ: «**إن الله تعالى حرم الخمر، فمن أدركته هذه الآية، وعنده شيء فلا يشرب ولا يبع**» قال: فاستقبل الناس بما كان عنده منها في طريق المدينة فسفكوها[1].

الامتثال الفوري لتحريم الخمر دون عودة لها:

أما المرحلة الأخيرة: فكانت بعد أن تهيأت النفوس تهيُّؤًا كاملًا، حيث كان النهي الكلي في المائدة، وكل هذا كان بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة بعد غزوة أُحُد، فلم يحتج الأمر حينئذ إلا إلى منادٍ ينادي بصوته العادي في أزقَّة المدينة وشوارعها - وما عساه أن يُسمِع! : ألا - أيها القوم - إن الخمر قد حرِّمت، فكل من كان في يده كأس حطَّمه، ومن كان في فمه جَرْعة من خمر مجَّها، وسالت الخمرة في شوارع المدينة، وكُسرت قنانيها، وانتهى الأمر، كأن لم يكن سُكر، ولا خمر!!

١- عن أنس ﷺ قال: كنت ساقي القوم يوم حُرمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلا الفضيخ: البسر والتمر، فإذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، فجَرت في سكك المدينة، قال: فقال لي أبو طلحة: اخْرج فأهرقها، فهرقتها، فقالوا: قُتل فلان وفلان، وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٧٨) في المساقاة، باب تحريم الخمر.

طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾[1] [٩٣].

يا سبحان الله! فرق بين إجابة هؤلاء الأخيار الفورية، بمجرد سماع النهي، وبين أهل هذه العصور التي نعيشها، ففيها استفتاءات لأخذ رأي الناس في حكم العليم الخبير، وفيها اعتماد على تحسُّن الاقتصاد من طريق الخمر والسياحة، وفيها مجاملة غير المسلمين، مع أن الخمر محرمة في جميع الشرائع؛ لما فيها من المضار، أهمها فقدان العقل، الذي هو فرق الإنسان من الحيوان . .

٢- وعن قتادة عن أنس ﷺ قال: بينما أنا أدير الكأس على أبي طليحة، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، وأبي دجانة، حتى مالت رؤوسهم من خليط بُسْر وتمر، فسمعتُ مناديًا ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، قال: فما دخل علينا داخل، ولا خرج منا خارج، حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقال رجل: يا رسول، فما منزلة من مات وهو يشربها؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [٩٣]. فقال رجل لقتادة: سمعته من أنس بن مالك؟ قال: نعم، وقال رجل لأنس بن مالك: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، أو قال: حدّثني من لم يَكْذِب، ما كنا نَكْذِب، ولا ندري ما الكذب[2].

٣- وأخرج ابن جرير عن ابن بريدة عن أبيه قال: بينما نحن قعود على شراب لنا، ونحن رَمْلة، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا باطية لنا، ونحن نشرب الخمر حلًا، إذ قمتُ حتى آتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه، إذ نزل تحريم الخمر ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ فقرأتها إلى ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال: وبعض القوم شَرْبَتُه في يده، قد شرب بعضها وبقي بعضها في الإناء، فقال بالإناء تحت شِفَّتِه العليا كما يفعل الحجَّام، ثم صَبُّوا ما في باطيتهم، فقالوا: انتهينا ربنا[3].

(١) أخرجه البخاري (١٠/٣٦) برقم (٢٤٦٤) ومسلم (٣/ ١٥٧٠) برقم (١٩٨٠) وهذا لفظه وأبو يعلى بسند صحيح (٣٣٦٢).

(٢) «تفسير ابن جرير» (١٠/ ٥٧٨) ورواه البزار في مسنده برقم (٢٩٢٢) «كشف الأستار» من طريق عباد بن راشد.

(٣) «تفسير الطبري» (١٠/ ٥٧٢).

الخمر أم الخبائث: وكانت الخمر أم الخبائث؛ لأنها تُفقِد العقل، فإذا غاب الوعي انتهك العبد جميع المحرمات:

قال الزهري: حدثني أبو بكر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن أباه قال: سمعت عثمان بن عفان ﷺ يقول: اجتنبوا الخمر؛ فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلَّقتْهُ امرأة غويَّة، فأرسلتْ إليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك لشهادة، فدخل معها، فطفِقَتْ كلما دخلتْ بابًا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام، وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكني دعوتك لتقع عليَّ، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر، فسقتْهُ كأسًا، فقال: زيدوني، فلم يَرِمْ حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يُخْرِج صاحبه[(١)].

الخمر والإيمان لا يجتمعان:

أما أن الخمر لا تجتمع مع الإيمان في قلب مسلم في وقت واحد، فيشهد له قول النبي ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»**[(٢)].

وكان الصحابة يقولون: ما حرَّم الله شيئًا أشد من الخمر، وذلك لما فهموه من الآية، ووعيد صاحبها في الأحاديث.

تحريم كل ما يتعلق بالخمر: ولمَّا حرم الإسلام الخمر حرَّم كلَّ ما يمتُّ إليها بصلة:

١- أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده أن عبد الرحمن بن وَعْلة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر، فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف - أو: من دَوْس- فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: **«يا فلان، أما علمتَ أن الله حرَّمها؟»** فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبعها، فقال رسول الله ﷺ: **«يا فلان، بماذا أَمَرْته؟»** فقال:

---

(١) رواه البيهقي في سننه (٨/ ٢٨٧) وإسناده صحيح إلى عثمان بن عفان من قوله، ورواه عمر بن سعيد بن السرحة مرفوعًا في رواية ابن أبي الدنيا.

(٢) البخاري (٥/ ١١٩) برقم (٦٨١٠) ومسلم (١/ ٧٦) برقم (٥٧) من حديث أبي هريرة.

أَمَرْتُه أن يبيعها، قال: «**إن الذي حرم شربها حرم بيعها، فأمر بها فأُفرغت في البطحاء**»[١].

٢ - وفي رواية أخرى قال ابن عباس: قدم رجل من دَوْس على النبي ﷺ براوية من خمر أهداها له، فقال النبي ﷺ: «**هل علمتَ أن الله حرَّمها بعدك؟**» فأقبل الدَّوْسي على رجل كان معه فأمره ببيعها، فقال له النبي ﷺ: «**هل علمتَ أن الذي حرَّم شُربها حرَّم بيعها وأكْلَ ثمنها**»، وأُمر بالمزادة فأهرقتْ حتى لم يبق فيها قطرة[٤].

٣ - وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لُعنت الخمر على عشرة وجوه: لُعنت الخمر بعينها، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها**»[٢].

٤ - وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال عام الفتح: «**إن الله حرَّم بيع الخمر والأنصاب والميتة والخنزير**»، فقال بعض الناس: كيف ترى في شحوم الميتة يُدْهن بها السفن والجلود، ويَستصْبح بها الناس؟ فقال: «**لا، هي حرام**»، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**قاتل الله اليهود، إن الله لمَّا حرَّم عليهم الشحوم جملوه**» أي: أذابوه واستخلصوا منه الدهن. «**فباعوه وأكلوا ثمنه**»[٣].

وقليل الخمر وكثيره حرام، وعقابها وخيم يوم لقاء رب العالمين إن مات شاربها على غير التوبة:

١- عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**كل مُخَمِّر خمر، وكل مسكر حرام، ومن**

---

(١) الحديث صحيح، «المسند» (١/ ٢٣٠-٢٤٤) برقم (٢٠٤١، ٢٩٧٨، ٣٣٧٣) حديث صحيح ورواه مسلم في البيوع (٣/ ١٢٠٦) برقم (١٥٧٩) والنسائي (٧/ ٣٠٧) ومالك في «الموطأ» (٢/ ٨٤٦) وأبو يعلى (٢٢٤٦٨) والدارمي (٢١٠٣).

(٢) الحديث صحيح بطرقه وشواهده وهذا إسناد حسن، كما قال محققو «المسند» (٢/ ٢٥) برقم (٤٧٨٧، ٥٣٩١) وأخرجه أبو داود (٤/ ٨٢) برقم (٣٦٧٤) وابن ماجه (٢/ ١١٢١) برقم (٣٣٨٠) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٤٧) وأبي يعلى (٥٥٩١).

(٣) البخاري (٢٢٣٦) ومسلم (١٥٨١) وأبو داود (٣٤٨٦) والترمذي (١٢٩٧) والنسائي (٤٢٦٧) وابن ماجه (٢١٦٧).

(٤) «المسند» بنحوه (٢٠٤١، ٢١٩٠، ٣٣٧٣) حديث صحيح رجاله ثقات، كما قال محققوه ومسلم (١٥٧٩)، والدارمي (٢٥٧١) وانظر الحديث رقم (١).

شرب مسكرًا بخست صلاته أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال»، قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: **«صديد أهل النار، ومن سقاه صغيرًا لا يعرف حلالًا ولا حرامًا كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال»**(١).

٢ - وفي صحيح مسلم وغيره عن جابر ﷺ أن رجلًا قدم من اليمن، فسأل النبي ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له: المِزْر، فقال النبي ﷺ: **«أوَ مُسْكر هو؟»** قال: نعم، قال ﷺ: **«كل مسكر حرام، إن على الله عزَّ وجلَّ عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال»**، قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: **«عَرَق أهل النار، أو عصارة أهل النار»**(٢).

٣- وعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها، لم يشربها في الآخرة»**(٣).

٤- وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أَعْطَى»**(٤).

٥- وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حُرِمَها في الآخرة»**(٥).

---

(١) حديث صحيح، تفرد به أبو داود (٤/ ٨٦) برقم (٣٦٨٠) صححه الألباني في صحيح أبي داود (٣١٢٧) والسلسلة الصحيحة (٢٠٣٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٠٢).

(٣) رواه مسلم (٣/ ١٥٧٣) برقم (٢٠٠٣) وهذا لفظه، وأبو داود (٤/ ٨٢) والنسائي في الكبرى (٥٠٩٦) وابن حبان (٥٣٦٨) والترمذي (٣/ ٥٧٩) و«المسند» (٣/ ١١٩) بأرقام منها: (٤٦٤٥) و(٦٢١٨) مختصرًا وهو حديث صحيح وإسناد قوي، كمال محققوه.

(٤) «سنن النسائي الكبرى» برقم (٢٣٥٤) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٨٨) عن عبد الله بن وهب والبزار (١٨٧٥) و«المسند» (٥٣٧٢) بلفظ مختلف، وابن حبان (٧٣٤٠) وأبو يعلى (٥٥٥٦) والطبراني في «الكبير» (١٣١٨٠).

(٥) حديث حسن صحيح، أخرجه النسائي (٤/ ٨٠) وهو في «مسند الشافعي» برقم (١٧٦٣) و«صحيح البخاري» برقم (٥٥٧٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠٠٣).

ولا يجوز الانتفاع بالخمر بوجه من الوجوه:

عن أنس بن مالك ﷺ أن أبا طلحة سأل النبي ﷺ عن أيتام في حجره، ورثوا خمرًا، فقال: **«أهرقها، قال: أفلا نجعلها خلًا؟ قال: لا»**[(١)]

وشارب الخمر لا يُلعن ولا يُشتم ولا يُسبُّ

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: أُتي النبي ﷺ بسكران، فأمر بضربه، فمنا من يضربه بيده، ومنا من يضربه بنعله، ومنا من يضربه بثوبه، فلما انصرف، قال رجل: ما له أخزاه الله؟ فقال رسول الله ﷺ: **«لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»**[(٢)].

وفي حديث عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلًا كان يُلقَّب حمارًا، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يومًا فجُلِد، فقال رجل من القوم: اللهم الْعنْه، ما أكثر ما يؤتى به؟! فقال ﷺ: **«لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»**[(٣)]، فنهى النبي ﷺ عن لعنه، لعلمه أنه محب لله ورسوله.

حدُّ شارب الخمر

وشارب الخمر يُجلد أربعين جلدة، فإن استمر في شربه، ولم يتب يجلد ثمانين جلدة.

جاء في صحيح البخاري وغيره عن السائب بن يزيد قال: كنا نُؤتى بالشارب على عهد رسول الله ﷺ وإمرة أبي بكر، وصدرًا من خلافة عمر، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرْديتنا، حتى كان آخر إمرة عمر، فجلد أربعين، حتى إذا عَتَوْا وفسقوا جلد ثمانين[(٤)].

وثبت أن النبي ﷺ جلد شارب الخمر أربعين جلدة، ففي حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يضرب في الخمر بالنعال والجريد أربعين[(٥)].

---

(١) البخاري (١/ ٣٠) ومسلم (٣/ ١٥٨٨) برقم (١٩٨٣) وأبو داود برقم (٣٦٧٥) والترمذي برقم (١٢٩٤) و«المسند» (٣/ ١١٩) برقم (١٢١٨٩) وابن أبي شيبة (٨/ ٢٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٧٧٧، ٦٧٨١).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٧٨٠).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٧٧٩) وانظر: «صحيح مسلم» رقم (١٧٠٦).

(٥) كما في «صحيح مسلم» برقم (١٧٠٦) وانظر «صحيح البخاري» برقم (٦٧٧٣، ٦٧٧٦).

ويصل حد شارب الخمر إلى القتل تعزيرًا إذا تعدد منه الشرب، وأقيم عليه الحد أكثر من مرتين ولم يتب، وظل يتابع شرب الخمر، كما صح في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا سكر فاجلدوه، ثم إن سكر فاجلدوه، ثم إن سكر فاجلدوه، فإن عاد الرابعة فاقتلوه»**(١).

الخمر نجسة: والذي عليه الجمهور أن الخمر نجسة العين؛ لأن الله تعالى سماها (رجسًا)، والرجس: هو النجس، كما جاء في لسان العرب، وهو كل مستقذر تعافه العرب، وهو مفهوم المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. وقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقال بعضهم: إنها نجاسة معنوية، ورجس معنوي؛ لأن النجاسة تعني القذارة، والخمر ليست قذرة، ولو كانت كذلك لنهى النبي ﷺ الصحابة عن إراقتها في طرق المدينة.

التوبة من شرب الخمر: ومن تاب تاب الله عليه، عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، إلا أن يتوب»**(٢).

فإن مات وهو مُصِرٌّ عليها فوعيده شديد كما في حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: **«كل مسكر حرام، إن الله عهد لمن يشرب المسكر أن يسقيَهُ من طينة الخبال»**، قالوا: يا رسول اله، وما طينة الخبال؟ قال: **«عَرَقُ أهل النار، أو عُصارة أهل النار»**(٣).

أصول الخمر:

١- ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة: من العنب،

---

(١) حديث صحيح، صححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (٧٨٩٨، ١٠٥٥٤) وهو في ط الرسالة برقم (١٠٥٤٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، عن يزيد عن ابن أبي ذئب وذكر له شواهد، (محققوه) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٦٠) وأخرجه أبو داود برقم (٤٤٨٤) والنسائي في «السنن» (٨/ ٣١٤) الأشربة، وابن ماجه برقم (٢٥٧٢).

(٢) البخاري (٥٥٧٥) ومسلم (٢٠٠٣).

(٣) مسلم (٢٠٠٢) والبيهقي (٥٥٧٩).

والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، والخمر: ما خامر العقل[١].

٢- وفي البخاري عن عائشة ﵂ قالت: سئل رسول الله ﷺ عن البتْع - وهو نبيذ العسل - وكان أهل اليمن يشربونه، فقال رسول الله ﷺ: **«كل شراب أسكر فهو حرام»**[٢].

٣- وفي البخاري وغيره أن أنسًا ﵁ قال: حُرِّمَتْ علينا الخمر حين حُرِّمَتْ، وما نجد خمر الأعناب إلا قليلًا، وعامة خمرنا: البسر والتمر[٣].

فهذه أحاديث صحيحة صريحة في أن ما أسكر من الأشربة المأخوذة من التمر، أو الحنطة، أو الشعير، أو العنب، يسمَّى خمرًا.

أما النبيذ: فهو ما لم يتخمر من الزبيب، أو التمر، أو الذرة، ونحوها من نقيع الماء فيها، وهو ما يسمى بالخشاف الذي أجازه الأحناف.

ثانيًا: الميسر: وهو القمار، ومنه النرد والشطرنج، ومنه المقامرة بالقداح التي كانت في الجاهلية عن طريق الأزلام، والاستقسام بها.

والميسر: مشتق من اليسر والسهولة؛ لأن المال فيه يأتي لمن اكتسبه بدون جهد، وكانوا يسمون الجَزُور الذي يتقامرون عليه ميسرًا؛ لأنه يجزَّأ أجزاء، وكل شيء جزأته فقد يسرته:

١ - قال قتادة: كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله، فيُقْمر، فيقعد حزينًا، سليبًا ينظر إلى ماله في يد غيره، فيورثه ذلك العداوة والبغضاء، فنهى الله عن ذلك.

٢ - وعن علي ﵁ قال: الشطرنج من الميسر.

٣- وقال سفيان: كل شيء من القمار فهو من الميسر.

٤- وفي صحيح مسلم والمسند عن بريدة الأسلمي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من**

---

(١) البخاري (٨/ ٢٧٧) برقم (٤٦١٩، ٥٥٨١، ٥٥٨٩) ومسلم (٤/ ٢٣٢٢) برقم (٣٠٣٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٦٤) وأبو داود (٣٦٦٩) والترمذي (١٨٧٤) والنسائي (٥٥٩٤) وابن حبان (٥٣٥٣) والبيهقي (٥٥٧٧) والدارقطني (٤/ ٢٤٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٥٨٥، ٥٥٨٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٥٨٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٨٠).

لعب بالنَّرْدَشِير، فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه»[١].

٥- وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من لعب بالنرد فقد عصا الله ورسوله»**[٢].

٦- وأخرج ابن أبي حاتم، عن القاسم بن محمد، أنه سئل عن النرد، أهي من الميسر؟ قال: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو ميسر.

ولفظ **الميسر**: يشمل كل المراهنات، واليانصيب، والحظ، والمصادفة.

٧- أخرج أحمد عن موسى بن عبد الرحمن الخطمي أن رسول الله ﷺ قال: **«مثل الذي يلعب بالنرد، ثم يقوم فيصلي، مثل الذي يتوضأ بالقيح، ودم الخنزير، ثم يقوم فيصلي»**[٣].

وقد قرن الله تعالى الخمر والميسر بالأوثان والأصنام؛ تأكيدًا لحرمتهما، فالخمر تنسي، والميسر يلهي.

والميسر الذي في الآية يشير إلى الْجَزُور الذي كانوا يتقامرون عليه، وكل شيء يأتي عن طريق الحظ والمصادفة فهو ميسر، وسمِّي ميسرًا؛ لأن المال يأتي عن طريقه بيسر وسهولة.

ثالثًا: الأنصاب: وهي تطلق على الأصنام التي كانت تُنْصَبُ للعبادة، والأنصاب أيضًا هي الحجارة التي كانت منصوبة حول الكعبة عند القداح، وكان المشركون يذبحون عندها، تعظيمًا لها، وتقربًا للأصنام، وكانت تُنْضَحُ بدماء الذبائح، وقد حرم الإسلام ما ذُبح لغير الله، وما ذُبح في مكان يذبح فيه لغير الله.

---

(١) مسلم، كتاب الشعر، باب تحريم النردشير (٤/ ١٧٧٠) برقم (٢٢٦٠) وفي «المسند» برقم (٢٣٠٢٥، ٢٢٩٧٩) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات،كما قال محققوه.

(٢) روي مرفوعًا وموقوفًا، أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٥٨) وأحمد في «المسند» (٤/ ٣٩٧) برقم (١٩٥٠١)بلفظ (من لعب بالكعاب) والكعاب ما يُلعب به في النَّرْد، وأخرجه أبو داود (٥/ ٢٣٠) برقم (٤٩٣٨) وابن ماجه برقم (٣٧٦٢) وهو حديث حسن.

(٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١١٣) وفيه موسى بن عبد الرحمن الخطمي ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، وهو في «المسند» (٥/ ٣٧٠) برقم (٢٣١٣٨) بإسناد ضعيف وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٢٩١) وأبو يعلى (١١٠٤) والبيهقي في السنن (١٠/ ٢١٥) وفي الشعب (٦٥٠٠).

رابعًا: الأزلام: وهي السهام التي كانوا يتقاسمون بها الْجَزُور، أو البقرة إذا ذُبحت، فَسَهْمٌ كُتِب عليه واحد، وسهم كتب عليه اثنان، وهكذا إلى عشرة.

والأزلام أيضًا: هي السهام التي كانوا يكتبون على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، ويتركون الثالث بلا شيء، فإذا أرادوا سفرًا، أو حربًا، أو زواجًا، أو غير ذلك، أتوا إلى بيت الأصنام واستقسموها، فإذا خرج: أمرني ربي، أقدموا على ما يرونه، وإن خرج: نهاني ربي، أمسكوا عنه، وإن خرج الثالث، أعادوها ثانية، حتى يخرج الأمر، أو النهي. وقد حرم الإسلام ذلك، وحرم كل ما يشبهه في العصر الحديث، وشرع لنا الاستخارة.

وقد وصف الله سبحانه هذه الأربع وهي: الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، بأنها رجس مستقذر، تأباه الفطرة السليمة، وكلها من تزيين الشيطان وكيده لابن آدم، وأمر سبحانه باجتنابها جميعًا، ورتب على تركها الفلاح في الدنيا والآخرة.

وفي الآية تصدير الجملة بإنما، وهي أداة حصر وقصر تفيد التأكيد، وقُرنت الخمر والميسر بعبادة الأصنام، وجعلته رجسًا نجسًا من عمل الشيطان، وأمرت باجتنابه، وجَعلتْ ذلك من الفلاح، وذَكرتْ ما ينتُج عن الخمر والميسر من التعادي والبغضاء.

وأتت بصيغة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهي أبلغ شيء في النهي، أي: فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم باقون على ما أنتم عليه كأنكم لم توعظوا ولم تُزْجَرُوا؟

وكلمة ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أبلغ من اتركوه ونحوها؛ لأن الاجتناب معناه المباعدة بين الشيئين، كأنه سبحانه يقول: كن في جانب، والخمر والميسر في جانب آخر بعيد، ولا تقترب منهما.

والمعنى: فاجتنبوا شرب الخمر، واجتنبوا اللعب بالقمار، واجتنبوا الذبح في الأماكن التي يُذْبَح فيها لغير الله، واجتنبوا التشاؤم والشعوذة، وضرب القداح ونحوها، كقراءة الكف والفنجان، وضرب الودع والرمل... إن ذلك كله إثم من تزيين الشيطان، فابتعدوا عن هذه الآثام لعلكم تفوزون بالجنة.

مِنْ أَسْبَابِ تَحْرِيمِ الخَمْرِ وَالقِمَارِ

٩١- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

في هذه الآية أربعة أسباب لتحريم الخمر والميسر، وهي أنهما يكونان سببًا لوقوع العداوة والبغضاء بين الناس، وإثارة الشحناء في النفوس، وإيغار الصدور بسبب فقدان الوعي عند شرب الخمر، وفوز أحد الطرفين بالمال أو المتاع، ولأن فيهما صد عن ذكر الله تعالى بنسيان حقه وفضله على الإنسان، وبترك أفضل العبادات وهي الصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بتزيين الآثام والمعاصي لكم ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ أي: بين المؤمنين، فيقطع ما بينهم من صِلات، ويثير ما في نفوسهم من الأحقاد والضغائن، فالخمر تُذهب العقل، وتجعل الإنسان يسيء لغيره من غير شعور.

والميسر يسبب خسارة المال، فيضمر الإنسان في نفسه الغل والغيظ على مَنْ أخذ ماله، وكل ذلك بسبب شرب الخمر ولعب الميسر.

ويريد الشيطان أيضًا أن يصرفكم عن ذكر الله تعالى، وعن أداء الصلاة بغياب العقل في شرب الخمر، والاشتغال باللعب في الميسر.

والسبب في هذا أن الخمر تزيل عقل شاربها، فيتكلم بالفحش، وربما أفضى ذلك إلى المقاتلة بسبب إيقاع الشحناء في النفوس، كما أنَّ شُرْب الخمر ولعب الميسر يسببان نسيان الصلاة أو تركها، والغياب عن ذكر الله تعالى في أية صورة من الصور، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

واقتصار الآية على بيان مفاسد شرب الخمر، وتعاطي الميسر؛ لأن عبادة الأنصاب والاستقسام بالأزلام قد تقرر قبل هذه الآية حين الدخول في الإسلام؛ لأنهما من مآثر الشرك.

ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي: فانتهوا خيرًا لكم، والاستفهام يكنَّى به عن التحذير من الوقوع في المستفهم عنه، ولذلك فإن عُمَر ﷺ لمَّا سمعها قال: انتهينا، انتهينا. وقد أكد هذا المعنى اسمية الجملة بعد (هل) للدلالة على زيادة الخبر وثباته بحصول التحريم والنهي القاطع والجازم. قال تعالى:

٩٢- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

أي: امتثلوا - أيها المسلمون - ما أمركم الله به، واجتنبوا ما نهاكم عنه، بطاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ في كل ما تفعلون وفي كل ما تتركون، ويدخل في هذا كل أمر ونهي ظاهر وباطن ﴿وَاحْذَرُوا﴾ مخالفة الله ومخالفة رسوله، واتقوا الله وراقبوه في جميع أقوالكم وأفعالكم ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: فإن أعرضتم عما أمركم الله به ونهاكم عنه فليس على رسولنا محمد إلا البلاغ المبين.

وهذا وعيد وتهديد لمن أعرض عن أمر الله تعالى ونهيه؛ لأنه بسبب ذلك استحق عذاب الله وسخطه.

لَا عقوبَةَ إِلَّا بِنَصٍّ، وَلَا مؤَاخَذَةَ قَبْلَ التَّحْرِيمِ

٩٣- ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

عن البراء بن عازب ﷺ قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تُحرَّم؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾[١].

وقد سأل جابر بن عبد الله رسول الله ﷺ عمن مات من الصحابة أو استشهد والخمر في بطنه، فأنزل الله تعالى الآية[٢].

وهذا يشبه سؤالهم عمن مات وهو قد صلى إلى القبلة الأولى، فنزل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والآية نزلت لتقرر أن التحريم يبدأ من وجود النص، وليس قبله، فلا عقوبة إلا بنص،

---

(١) الحديث صحيح على شرط الشيخين، الترمذي (٥/ ٢٥٤) برقم (٣٢٥٨) وقال: حسن صحيح، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٤٤) وابن حبان (٥٣٥٠) وابن أبي حاتم (٦٧٧٥) و«مسند الطيالسي» برقم (٧١٥) ومسند أحمد عن ابن عباس (٢٧٧٤، ٢٠٨٨).

(٢) نص الحديث في البخاري، يُنظَر: فتح الباري (٨/ ٢٧٧) ورواه أيضا الحافظ البزار والترمذي في سننه برقم (٣٠٥١) و«مسند الطيالسي» برقم (٧١٥).

سواء في الدنيا أو الآخرة، والتحريم لا يكون بأثر رجعي، فالذين كانوا يشربون الخمر، ويلعبون الميسر، وماتوا قبل نزول الآية لا إثم عليهم، ولا مؤاخذة، ولا حرج فيما طعموه من الخمر، أو أكلوه من القمار قبل التحريم.

وليس على الأحياء إثم كذلك، ولا حرج فيما طعموه من الخمر، وما أكلوه من القمار، قبل نزول هذه الآية إذا تركوها عند نزولها، وتابوا إلى الله تعالى من فورهم، واتقوا الله تعالى وآمنوا، وأكثَروا من عمل الصالحات التي تدل على إيمانهم، ورَغَّبَتَهُم في رضوان الله تعالى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وتركوا المعاصي والذنوب، ويدخل في هذا مَنْ أكل حرامًا ثم اعترف بذنبه فتاب إلى الله واتقى وآمن وعمل صالحًا، فإن الله يغفر له ويرتفع عنه الإثم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا﴾ أي: أنهم ازدادوا بذلك مراقبة لله عزَّ وجلَّ وإيمانًا به.

﴿ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا﴾ واستمروا على ذلك، وإلا فقد يتصف العبد بالإيمان والتقوى والإحسان في وقت دون وقت، ولابد أن يدوم العبد على ذلك حتى يأتيه أجله وهو محسن.

أي: أنهم أصبحوا على درجة من اليقين، وعلوِّ المرتبة، يعبدون الله تعالى كأنهم يرونه، وهم يوقنون أنه سبحانه يراهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يحب عباده الذين بلغوا درجة الإحسان حتى أصبح إيمانهم بالغيب كأنه مشاهد أمام أعينهم.

فالتقوى الأولى بمعنى: التوبة والرجوع إلى الله تعالى، واتقاء سخطه مما كان منهم قبل التحريم.

والتقوى الثانية بمعنى: المداومة على الاستقامة، وازدياد الإيمان بالعمل الصالح.

والتقوى الثالثة بمعنى: الوصول إلى أعلى الدرجات، وهي مرتبة الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» والله أعلم.

وفي هذا ثناء ومدح للإيمان والتقوى والإحسان؛ لأن هذه المقامات أشرف الدرجات وأعلاها.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال لما نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ فقال النبي ﷺ: «قيل لي: أنت منهم»[١].

ومعناه: أنه قيل للنبي ﷺ: إن ابن مسعود من الذين آمنوا وعملوا الصالحات والتقوى والإحسان، والقائل هو رب العالمين، فيا له من فضل عظيم وخير عميم! وهنيئًا لك يا ابن مسعود بهذه الدرجة العالية.

والأولى حمل الآية على العموم، بمعنى أن الله تعالى رفع الحرج والإثم عن المؤمنين في أي شيء طعموه من مستلذات المطاعم وحلاله إذا اتقوا ما حرم الله عليهم، فليس البر في حِرْمان النفس من الطيبات، بل البرُّ في التقوى؛ فالآية لها اتصال بالآية التي قبلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ ورفع الحرج عن المطاعم والمشارب المباحة أمر حاصل للمؤمن والكافر على السواء، والإيمان والتقوى ليسا شرطًا في ذلك، فتعين أن يكون المراد هو المدح والثناء للمؤمنين، وأنهم جديرون بهاتين الصفتين إلى جانب الإحسان.

وفائدة ذلك: إدخال الطمأنينة عليهم، بأن مَنْ تعاطى شيئًا قبل تحريمه لا يؤاخذ عليه، وإنما يؤاخذ بعد التحريم.

ومن الزندقة: حمل الآية على معنى أنه لا حرج على من شرب الخمر إذا كان مؤمنًا تقيًا محسنًا، ولم يحصل منه عداوة ولا بغضاء للمؤمنين، ولا صدٌّ عن ذكر الله، ولا عن الصلاة، فهذا استنباط الجهال الذين لا خلاق لهم، وقد أقام عمر ﷺ الحدَّ على قُدامة بن مظعون الجمحي، الذي تأوَّل هذا المعنى، واحتج به[٢].

ومثل ذلك كلام الحشَّاشين الذين يقولون: إن الله تعالى قال عن الخمر والميسر: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ ولم يقل: (فاتركوه) ونحوها، وهم يتلمسون تأويلًا يبيح لهم ما هم فيه من السكر ونحوه، وهذا جهل فاضح، أو مغالطة مكشوفة؛ إذ جعْل الخمر في جانب، وشاربها في جانب آخر أبلغ تعبير في التحريم والنهي وعدم الاقتراب منها.

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٤/ ١٩١) برقم (٢٤٥٩) والترمذي في التفسير (٥/ ٢٥٥) برقم (٣٠٥٣) والنسائي في التفسير برقم (١٧٣) وفي «السنن الكبرى» برقم (١١١٥٣).

(٢) انظر القصة في «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٣٥).

النِّدَاء الثَّانِي عَشَرَ: تَحْرِيم صَيْدِ الحَرَمِ وَكَفَّارَته

٩٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

النداء الثاني عشر لأهل الإيمان في سورة المائدة، يتعلق بالصيد في الحرم الذي جاء ذكره في أول السورة، والآيات في سياق التحليل والتحريم، فبعد بيان تحريم الخمر، يأتي بيان تحريم الصيد في الحرم.

قيل: إن هذه الآية نزلت عام الحديبية حين كان الصحابة مُحْرِمين بالعمرة، حيث ابتلاهم الله بالصيد، فكانت الوحوش والطيور وأنواع الصيد تغشى رحالهم من كثرتها، ولم يَرَوْا مثلها قط، فهمُّوا بصيدها وأخْذها، فأنزل الله الآية[1]، وَوُضِعَتْ في مكانها من هذه السورة؛ لتذكُّر المؤمنين وهم في حجة الوداع بما حدث يوم الحديبية.

كما في حديث أبي قتادة أنه رأى عام الحديبية حمارًا وحشيًّا وهو غير مُحْرِم، فاستوى على فرسه، وأخذ رُمْحه وشد وراءه الحمار فأدركه، فعقره برمحه وأتى به، وهو صيد سهل ساقه الله إليهم قريبًا منهم يطوف بخيامهم ومنازلهم، وأيديهم تنال منه صغار الصيد، ورماحهم تنال كباره، والله تعالى يبتليهم بما هو محبب إلى نفوسهم؛ ليظهر قوة إيمانهم من ضعفه، وقد ابتلى الله خليله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، فنجح في الامتحان.

وهذا النوع من الابتلاء، وهو الإغراء بالصيد ابتلى الله به اليهود حين ألَحُّوا على نبيهم موسى ﷺ أن يخصص لهم يومًا للراحة والعبادة لا يشتغلون فيه بشيء من أمور المعاش، فجعل لهم يوم السبت، ثم ابتلاهم الله فيه، فساق لهم صيد البحر على الشاطئ قريبًا منهم متعرضًا لأنظارهم، ويختفي هذا الصيد في بقية الأسبوع، فاحتالوا على صيده في يوم السبت، وأظهر الله ضعف إيمانهم، فرسبوا في الامتحان.

وهذا الابتلاء بعينه هو الذي ابتلى الله به هذه الأمة، فنجحت حيث أخفق اليهود، وكان هذا الاختبار بالصيد السهل اليسير أثناء فترة الإحرام، عندما يقترب منهم الصيد

(١) قال مقاتل بن حيان، من التابعين، وهو أثر مرسل، يُنظَر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٣٢٧).

على غير المعتاد، حيث يستطيعون أخذ صغاره بغير سلاح، وأخذ كباره بالسلاح، وهذا معنى ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ وهو ابتلاء تكليف، ونهي وتحذير عما يحدث في المستقبل من أنكم تتمكنون من صيده باليد أو بالرمح.

ثم كشف الله سبحانه عن حكمة هذا الابتلاء فقال: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: ليظهر الله للخلق طاعة من يطيعه في السر والعلن، والغيب والمشاهدة، كي يترتب على ذلك الثواب والعقاب، والاعتبار بمن يخاف ربه بالغيب عند عدم حضور الناس عنده، أما إظهار مخافة الله أمام الناس، فلا يثاب عليها حتى يوقنوا بأن الله تعالى مطلع عليهم، يعلم سرهم ونجواهم وجميع أحوالهم، فيمسكون عن الصيد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك].

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فمن خالف بعد هذا البيان الواضح، فأقدم على الصيد، وتجاوز الحد وهو محْرم ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: أنه يستحق العذاب المؤلم الموجع الذي لا يقدر على وصْفه إلا الله، بما اجترأ على الحرم، أو على حرمة الإحرام، أو على كليهما معًا، لأنه لا عذر لذلك المعتدي.

وقد حرَّم الله الصيد في منطقة الحرم داخل حدوده من الجهات الأربع، وهي من ٦ إلى ١٦ كيلومترًا.

كما حرَّم سبحانه الصيد على المحرم سواء أكان داخل الحرم، أم خارجه.

النِّدَاء الثَّالِثَ عَشَرَ: فِي تَفْصِيلِ عقوبَةِ المخَالِفِ بِالصَّيْدِ فِي الحَرَمِ

٩٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ[1] مَا قَتَلَ مِنَ

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (فجزاء مثل) بتنوين همزة (جزاء) ورفع لام (مثل) على أن (جزاء) مبتدأ والخبر محذوف، أي: فعليه جزاء، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: فالواجب جزاء، أو فاعل لفعل محذوف تقديره فيلزمه جزاء، والباقون بحذف تنوين (جزاء) وخفض لام (مثل) على أن (جزاء) مصدر مضاف لمفعوله ثم حذف المفعول لدلالة الكلام عليه، وأضيف المصدر إلى مفعوله الثاني، وتقدير الكلام: فعليه أن يجزي المقتول من الصيد مثله من النعم، فحذف المفعول وهو المقتول، وأضيف المصدر وهو مثل إلى المفعول الثاني.

ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ[1] مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

وجاء النداء الثالث عشر لأهل الإيمان في السورة؛ ليفصِّل عقوبة المخالف بالصيد في الحرم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بالحج أو العمرة، ولا تقتلوا الصيد داخل حدود الحرم وأنتم غير محرمين بحج ولا عمرة.

ورد أن هذه الآية نزلت في أبي اليسر - عمرو بن مالك الأنصاري- في عُمْرة الحديبية، حيث عرض له حمار وحشي، فحمل عليه وقتله وهو محرم، فنزلت الآية لتقرر حُكْمًا عامًّا أنه لا يجوز قتل الصيد، ولا التعرض له ما دام العبد محرمًا، كما أنه لا يجوز ذلك في الحرم لغير المحرم، فهي منطقة أمن وأمان للإنسان والحيوان والوحوش والحشرات والطيور والأشجار والنبات وغير ذلك، وهي حرمة ثابتة منذ بُني البيت الحرام.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقد عظَّم الله تعالى شأن الكعبة، وأمر إبراهيم أن يتخذ لها حرمًا؛ ليكون حمى لها، وجعل هذا الحمى واسعًا، كما وسَّعَ الأمن فيه حتى شمل الحيوان.

وقد وُضِعَتْ علامات لحدود الحرم من زمن عمر ﷺ تحيط به من كل جانب.

ثم بيَّن سبحانه حكم من قتل الصيد بأنَّ عليه إما جزاء المثل، وإما الإطعام، وإما الصيام، فهذه ثلاثة أشياء:

الحكم الأول: الجزاء المماثل للصيد:

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ والنهي عن القتل يشمل النهي عن مقدماته وعن المشاركة فيه وعن الدلالة عليه وعن الإعانة عليه، ومن تعظيم النسك أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالًا له قبل الإحرام.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (أو كفارةُ طعامٍ) بعدم تنوين كفارة وخفض طعام على الإضافة، وقرأ الباقون بالتنوين في كفارة ورفع طعام وإضافته إلى مساكين.

أي: ومن قتل أي نوع من صيد البر متعمدًا، فجزاء ذلك أن يذبح مثل ذلك الصيد من بهيمة الأنعام: الإبل، أو البقر، أو الغنم، وخرج بذلك ما قُتِلَ خطأ، أو نسيانًا ففيه خلاف بين أهل العلم، والجمهور على أن العمد والخطأ سواء.

وقد نص الله تعالى على المتعمِّد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطيء، لأن المتلف للنفوس والأموال المحترمة يضمنها على أي حال كان، والمتعمد عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، أما المخطيء فليس عليه عقوبة إنما عليه الجزاء فحسب.

وهذا الجزاء المماثل: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: يحكم بالجزاء في قتل الصيد ويقدره: رجلان صالحان عدْلَان من أهل ملتكم ودينكم، وينبغي أن يكونا فقيهين، يعرفان الحكم ووجه الشبه فينظُران إلى أشبه الأشياء من بهيمة الأنعام ويحكمان به.

وقد حكم الصحابة في النعامة ببدنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز.

عن ميمون بن مهران أن أعرابيًا أتى أبا بكر، قال: قتلتُ صيدًا وأنا محرم، فما ترى عليَّ من الجزاء؟ فقال أبو بكر لأبيِّ بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيما قال؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: وماذا تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاورتُ صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به[١].

وعلى من قتل شيئًا من الحيوانات، أو الطيور في الحرم عمدًا، أو خطأ فعليه أن يهدي مثل ما قتل لفقراء الحرم، وهذا معنى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: واصلًا إليها يُذبح في الحرم ويُتصدق به على فقرائها، ويراد بالكعبة الحرم كله، فيتصدق به على فقرائه، والعرب تسمي كل بيت مرتفع (كعبة).

الحكم الثاني: الإطعام:

فإن لم يكن للصيد الذي قُتِلَ في الحرم مِثْل، فعلى من قتله أن يشتري بقيمة مِثْلِه طعامًا يهديه لفقراء الحرم، وقد جاءت هذه الكفارة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾

(١) إسناده جيد، وفيه انقطاع بين ميمون والصديق أبي بكر، كما قال ابن كثير في التفسير وقد رواه ابن أبي حاتم برقم (٦٨٠٥).

أي يجعل مقابلة المثل من النعم طعام يطعم المساكين، كفارة لذلك الجزاء، أي يُقوّم الجزاء فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مُدّ بُر أو نصف صاع من غيره.

الحكم الثالث: الصيام:

أو بصوم بدلًا من ذلك يومًا عن كل نصف صاع من الطعام، وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أي يصوم عن إطعام كل مسكين يومًا.

قال ابن عباس ﷺ: إن قتل المحرم ظبيًا فعليه شاة تُذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام، وإن قتل إبلًا فعليه بقرة، فإن لم يجد فإطعام عشرين مسكينًا، فإن لم يجد صام عشرين يومًا، وإن قتل نعامة أو حمارًا وحشيًا فعليه بدنة، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكينًا، فإن لم يجد صام ثلاثين يومًا[(١)].

وجمهور أهل العلم على أن قاتل الصيد مخير بين جزاء المثل، أو الإطعام، أو الصيام؛ لأن (أو) للتخيير، وأثر ابن عباس يقتضي الترتيب، والعمل على الأول.

وقد فرض الله ذلك؛ ليذوق من قتل الصيد عاقبة فعله وهذا معنى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أما الذين وقعوا في شيء من ذلك قبل التحريم فإن الله تعالى قد عفا عنهم ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ ومن عاد بعد التحريم إلى قتل الصيد متعمدًا فإنه معرَّض لانتقام الله تعالى منه كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ ووجوب الجزاء في الدنيا لا يمنع عقاب الآخرة، والعقوبة تتكرر بتكرار قتل المحرم للصيد.

والله سبحانه قوي منيع في سلطانه، ومن عزته أن ينتقم ممن عصاه إذا أراد، ولا يمنعه من ذلك مانع ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾

والحيوانات التي تقتل في الحرم على أقسام أربعة:

القسم الأول: الحيوان البري مأكول اللحم مثل: الغزال، والظبي، والنعامة، والضبع، والأرنب، واليربوع، والوعل، وكذلك الطير، مثل: الحمام، فإن هذا وأمثاله من الحيوان الوحشي (البري) الذي يؤكل، ولا يجوز للمحرم أن يصيده، أو يتعرض له بشيء من الأذى.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٤٠) وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق علي بن أبي طلحة.

وفي صيده، أو قتله جزاء وعقوبة على ضوء ما جاء في الآية، فيخير من قتل الصيد: بين ذبح مثله إن كان له مثل، وبين تقويمه بدراهم، يشتري بها طعامًا، ويعطى كل مسكين نصف صاع، وقيل: (مُدًّا) بدل نصف الصاع، أو يصوم عن كل نصف صاع يومًا، وهذا النوع من الحيوانات هو المحرَّم صيده على المحرم عمدًا.

القسم الثاني: الحيوان الضار المؤذي وهذا النوع من الحيوانات يُقتل في الحل والحرم، ولا حاجة للناس في اصطياده، وهو خمسة أنواع جاء ذكرها في هذا الحديث الذي ثبت في الصحيحين من حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: **«خمس فواسق يُقتلْن في الحِلِّ والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور»**(١).

ويلحق بالكلب العقور: الذئب، والسبع، والنمر، والفهد؛ لأنها أشد ضررًا منه كما قال العلماء، ومنهم مالك وأحمد، ووقف أكثر العلماء عند ظاهر الحديث(٢).

ولا يقتل غراب الزرع الصغير الذي يأكل الزرع، أما الهر والثعلب والضبع فلا يقتلها المحرم، وإن قتلها كان عليه فدية، وثبت عن عمر بن الخطاب ﵁ أنه أمر المحرمين بقتل الحيات، وقتلها محل إجماع، ومثلها ذوات السموم.

القسم الثالث: الحيوان الأهلي المستأنس كبهيمة الأنعام (الإبل، والبقر، والغنم)، والدجاج، ونحوه، فإنه يباح تزكيته في كل حال؛ لأنه مملوك للناس، ولا شيء في الانتفاع به؛ لأنه يربَّى لذلك.

القسم الرابع: الحيوان الذي لا يؤكل لحمه وليس فيه ضرر كبير، مثل الحشرات، من البراغيث، والنمل، والذباب، والجراد، فإنه يكره قتله، وإن قُتِل فليس فيه فداء ولا كفارة.

حكم صَيْدِ البَرِّ وَالبَحْرِ

٩٦- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

---

(١) البخاري (٤/ ٣٤) برقم (١٨٢٩، ٣٣١٤) ومسلم برقم (١١٩٨) و«الموطأ» (١/ ٣٥٦) والنسائي (٥/ ٢٠٨) وابن أبي شيبة.

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» للآية.

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري استثنى الله تعالى صيد البحر.

وبعد بيان حكم صيد البر بالنسبة للمحرم، يبيِّن ﷻ أن صيد البحر حلال في الحل والحرم، وفي أثناء الإحرام، فقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ والمراد بالبحر: جميع المياه العذبة والمالحة، أي: النهر والبحر وفروعهما.

وجملة حيوان الماء على قسمين: سمك، وغير سمك؛ أما السمك فجميعه حلال للمحرم، وغير المحرم على اختلاف أنواعه وأجناسه؛ وذلك لما رواه أبو هريرة ؓ أن رجلًا سأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإذا توضأنا به عطشنا، أنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: **«هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»**[1].

وعن عبد الله بن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: **«أحلت لنا ميتتان ودمان؛ فأما الميتتان فالحوت، والجراد، وأما الدمان فالكبد، والطحال»**[2].

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي قتادة أن النبي ﷺ لما خرج حاجًّا قال لطائفة من أصحابه: **«خذوا ساحل البحر حتى نلتقي»** فأحرموا كلهم إلا أبا قتادة، فرأوا حُمُر وحْش، فحمل أبو قتادة على الحمُر فعقر منها أتانًا، فنزلوا فأكلوا من لحمها، فقالوا: أنأكل لحم صيد ونحن محرمون؟ قال: فحملنا ما بقي من لحمها، ثم ذكرنا لرسول الله ﷺ فسأل المحرمين: **«أمنكم أحد أمر أبا قتادة أن يحمل عليها، أو أشار إليها»**، قالوا: لا، قال: **«فكلوا ما بقي من لحمها»**[3].

---

(١) الحديث صحيح ورجاله ثقات، فإنه قد جاء من تسع طرق ذكرها الشوكاني في «نيل الأوطار» وهو في «المسند» (٢/ ٣٦١) برقم (٧٢٣٣، ٨٧٣٥، ٩٠٩٩) وعن جابر برقم (١٥٠١٢) وكتاب «الأم» للشافعي في الطهارة وفي مسنده برقم (٢٥) وفي النسائي (١/ ٥٠) والترمذي (١/ ١٠٠) برقم (٩٦) وأبي داود (١/ ٦٤) برقم (٨٣) وابن ماجه (١/ ١٣٦) عن مالك عن صفوان برقم (٣٨٦) و«صحيح ابن خزيمة» برقم (١١١) و«صحيح ابن حبان» برقم (١١٩).

(٢) «مسند الشافعي» برقم (١٧٣٤) و«المسند» (٢/ ٩٧) برقم (٥٧٢٣) حديث حسن، فيه عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، ضعيف، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٣١٤) و«سنن الدارقطني» (٤/ ٢٧١) و«السنن الكبرى» للبيهقي (١/ ٢٥٤) والبغوي في شرح السنة (٢٨٠٣).

(٣) البخاري في مواضع كثيرة منها (١٨٢٤، ٥٤٩٢) ومسلم (١١٩٦) والحاكم (١/ ٤٥٢).

ولا فرق بين أن يموت السمك بسبب أو بغير سبب.

وقال الإمام أحمد: يؤكل كل ما في البحر إلا الضفدع والتمساح؛ لأن التمساح يأكل الناس، فهو حيوان مفترس؛ وذلك لأن ما عدا السمك مما يعيش في البر والبحر؛ كالضفدع، والسرطان، والجراد فيه خلاف بين الفقهاء في جواز أكله من عدمه.

وقالوا: كل ما له نظير في البَرِّ يؤكل فإن نظيره في البحر يؤكل، وكل ما له نظير لا يؤكل؛ مثل كلب الماء، وخنزير الماء، فلا يحل أكله.

أما طعام البحر، فهو الميت منه، أي: مما لفظه البحر ميتًا، أو ما مُلِّح منه بعد موته فإنه يؤكل، وقد أحل الله لنا ذلك؛ لينتفع به المقيم والمسافر، فقال تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ والمتاع بمعنى: التمتع والانتفاع به، والسيارة بمعنى: المسافرون، أما الإقامة فأُخِذت من ضمير ﴿لَّكُمْ﴾.

وقد استدل الجمهور على حل ميتة البحر بهذه الآية، وبالأحاديث الواردة في ذلك، ومنها حديث جابر في البخاري قال: بعثنا النبي ﷺ ثلاث مئة راكب، وأميرنا أبو عبيدة، نرصُد عيرًا لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسُمِّي جيش الخبط، وألقى البحر حوتًا يقال له: العنبر، فأكلنا نصف شهر، وادَّهنَّا بوَدَكِه حتى صلحت أجسامنا قال: فأخذ أبوعبيدة ضِلْعًا من أضلاعه فنصبه، فمرَّ الراكب تحته، وكان فينا رجل، فلما اشتد الجوع نحر ثلاث جزائر، ثم ثلاث جزائر، ثم نهاه أبوعبيدة[١].

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أُحِلَّ لكم صيد البحر وطعامه متاعًا لكم»، قال: طعامه: ما لفظه ميتًا فهو طعامه**[٢].

أما صيد البر فهو محرم على المحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: طالما أنتم محرمون بحج، أو بعمرة، ولابد للصيد أن يكون وحشيًا ومأكولًا لأن الإنسي ليس بصيد، وغير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٤٩٤) وانظر: (٢٤٨٣) و«صحيح مسلم» (١٩٣٥).

(٢) قال الشيخ محمود شاكر: إسناده صحيح، ورجاله ثقات كما في «تفسير الطبري» برقم (١٢٧٢٩).

وقد ذكر الله سبحانه تحريم الصيد على المحرم في **ثلاثة مواضع** من هذه السورة:

أحدها: في أول السورة في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

والثاني: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

والثالث: في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾. وذلك لتأكيد تحريم قتل الصيد على المحرم.

وجمهور العلماء على أنه يجوز للمحرم أن يأكل لحم الصيد إذا لم يَصِدْهُ بنفسه، ولا صيدَ له، ولا بإشارته، ولا أعان على صيْده، جمعًا بين الأدلة الواردة في ذلك.

ويشهد لهذا الحديث السابق وهو ما جاء في البخاري أن أبا قتادة كان مع النبي ﷺ وصحبه في طريق الحج ولم يكن محرمًا، فاصطاد حمارًا وحشيًا، فأكلوا من لحمه، ثم قالوا: أنأكل لحم صيد ونحن محرمون؟ فحملوا ما بقي من لحمه إلى النبي ﷺ وسألوه عن الحكم، فقال ﷺ: **«منكم أحَد أمَرَهُ أن يحمل عليها، أو أشار إليها؟»** قالوا: لا، قال: **«فكلوا ما بقي من لحمها»**[1].

ولا يجوز للمحرم قبول الصيد الذي يُهدى، أو يُشترى، أو يُصطاد له؛ لما جاء في البخاري أن الصَّعب بن جثامة الليثي أهدى إلى النبي ﷺ حمارًا وحشيًا وهو بالأبواء، أو بودان، فردَّه عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: **«إنا لم نرده عليك إلا أنا حُرُمٌ»**[2].

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: اخشوا ربكم وخافوه، ونفذوا جميع أوامره واجتنبوا نواهيه؛ حتى تظفروا بعظيم الثواب، وتسلموا من أليم العقاب عندما تُحشرون للحساب والجزاء فيجازيكم أو يعاقبكم.

تَعْظِيمُ الكَعْبَةِ وَالأَشْهُرِ الحُرُمِ وَمَا يُهْدَى لِلحَرَمِ

٩٧- ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا[3] لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ[4]

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (١٨٢٤) وانظر: (١٨٢١) و«صحيح مسلم» (١١٩٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٨٢٥) وانظر: (٢٥٧٣، ٢٥٩٦، ٣٠١٢) و«صحيح مسلم» (١١٩٣).

(٣) قرأ ابن عامر (قيمًا) بحذف الألف بعد الياء على أنها مصدر، وقرأ الباقون (قيامًا) بإثبات الألف، مصدر قام.

(٤) قرأ حمزة بتسهيل همزة (القلائد) وقفًا مع المد والقصر.

ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

والكلام موصول عن أمن البيت الحرام، وقد كان الناس في أرجاء الأرض قبل الإسلام، لهم حكم ونظام يحقق لهم الأمن والرخاء، ويدفع عنهم العدوان، ويعمل على راحة الشعوب. وذلك كملوك فارس والروم وغيرهما، ولم يكن للعرب في الجاهلية دولة، ولا حكم، ولا نظام، وكان البيت الحرام وسط صحراء قاحلة، وكان الناس يقصدونه منذ القدم من شتى أرجاء المعمورة للحج والعمرة والطواف حوله، والطريق إليه يَسْهُل فيه ارتكاب الجرائم، وكذا منطقة الحرم نفسها، فهي صحراء واسعة.

ومن أجل ذلك فإن الله تعالى قد وضع في قلوب عباده منذ القدم هيبة البيت الحرام وقدسيته ومهابته.

كما أن الأشهر الحُرُم كان لها أيضًا مكانة خاصة واحترامًا في نفوس الناس جميعًا.

وقد بيَّن النبي ﷺ ذلك يوم فتح مكة حيث قال: «**إن هذا البلد حرَّمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا يُنفر صيده، ولا يُلتقط لُقَطته إلا مَن عرَّفها، ولا يختلى خلاه**»[1].

وفي الآية التي معنا ذكَر الله سبحانه أربعة أمور أضفى عليها الخوف والمهابة والتعظيم في نفوس الخلق، وجعلها مصدر أمن وأمان لهم، وسببًا لقوام مصالح الناس في أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم، وهذه **الحُرُمَات الأربع** هي:

أولًا: الكعبة البيت الحرام

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: جعلها الله قيامًا لدينهم ومعالم حجِّهم، وضبط نفوسهم، وأداء مناسكهم. وسميت كعبة نظرًا لأنها مكعبة ومرتفعة عن الأرض.

والكعبة عَلَمٌ على البيت الذي رفع قواعدَه إبراهيمُ ﷺ بمكة المكرمة بأمر الله تعالى؛ ليكون قبلة للناس ومَعْلَماً للتوحيد، والكعب: هو النتوء والبروز.

وكانت الكعبة قيامًا للناس؛ لأن الله تعالى أمر إبراهيم ﷺ أن يُنزل فيها زوجه هاجر

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٥٨٧) وانظر: (١٣٤٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس.

وابنها إسماعيل، وأن تكون نشأة العرب من ذريته فيها، ويتلقَّوْا أفضل الشرائع فيها، فأقام لهم الكعبة، وجعلها رمزًا للتوحيد، ووضع في نفوسهم تعظيمها وحرمتها، ودعا الخلق للحج إليها، وجلب إليها من الأرزاق والخيرات بما لا يلحق ساكنيها الجوع ولا العراء، وانتشرت ذرية إسماعيل، ولحقت بهم قبائل كثيرة من العرب القحطانيين، وحقق الله لها الأمن، فجعل أهلها يسيرون آمنين لا يتعرض لهم أحد بسوء في أسفارهم وتجارتهم وتقلباتهم.

وفي الكعبة يعظم الناس دينهم ودنياهم، فيتم إسلامهم، وتحط أوزارهم، وتحصل لهم العطايا الجزيلة، وفيها تنفق الأموال، ويجتمع فيها أجناس المسلمين من كل فج عميق، فيتعارفون، ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون في المصالح العامة، وتنعقد بينهم الروابط الدينية والدنيوية كما قال تعالى ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]

ولو ترك الناس الحج لأثم كل قادر، وزال ما به قوام الناس، ولذا لما جاء الإسلام جعل الحج إليها من أفضل الأعمال، وبه تُكفَّر الذنوب.

وسُمِّي البيت الحرام حرامًا؛ لأن الله حرمه وشرفه وعظمه عِظَمَ حرمته، وحرَّم أن يُصطاد عنده، وأن يُقطع نباته أو شجره.

والمراد **بالبيت الحرام**: جميع أرض الحرم من جميع الجهات، وهي:

١ - **من جهة المدينة**: التنعيم، ثلاثة أميال.

٢ - **من جهة اليمن**: أضاة لبن، سبعة أميال.

٣ - **من جهة العراق**: ثنية خل بالمقطع، سبعة أميال.

٤ - **ومن الجعرانة**: تسعة أميال.

٥ - **ومن جهة جدة**: منقطع الأعشاش، عشرة أميال.

٦ - **ومن الطائف**: بطن نمرة، سبعة أميال.

٧ - **ومن بطن عرفة**: أحد عشر ميلًا[١].

---

(١) عن كتاب «مفيد الأنام» (١/ ٢٥٥).

وفي الحديث عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن الله حرَّم مكة، فلم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار . . .»**[1] الحديث.

وقد كانت العرب تسفك الدماء بغير حلها، وتأخذ الأموال بغير حقها، ويقتل أحدهم غير القاتل، فجعل ﷻ البيت آمنًا، وصرف قلوب العباد إليه، وأمَّن فيه سائر خلقه.

فإذا دخل الحيوان الوحشي الحرم أنس بالناس، ولم ينْفر من الكلب، ولم يطلبه الكلب، فإذا خرج عن حدود الحرم طلبه.

والطائر يأنس بالناس في حرم الله، ولا يزال يطير حتى يقرب من البيت، فإذا قرب منه عدل عنه، ولا يطير فوقه إجلالًا له، فإذا لحقه وجع طرح نفسه على سقف البيت استشفاء به.

ويأمن الناس على أنفسهم وأموالهم في مناسك الحج والعمرة وطول العام من النهب والغارة والعدوان والقصاص، فلو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم لم يهيِّجه، وهذا كله من قيام الدنيا.

وأما قيام الآخرة، فإن المناسك التي تقام عنده أسباب لعلو الدرجات، وتكفير الخطيئات، وزيادة الكرامات والمثوبات، فلما كانت الكعبة المشرفة سببًا لحصول هذه الأشياء، كانت سببًا للقيام على مصالح الناس وانتفاعهم في دينهم ودنياهم.

ثانيًا: حرمة الشهر الحرام، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ أي: وجعل الأشهر الحرم أمنًا وأمانًا للناس ولغيرهم. والمراد الأشهر الحرم الأربعة، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وقد جعل الله الأشهر الحرم مثابة للناس وأمنًا، يأمنون فيها من القتال.

وذلك أن العرب كان يقتل بعضهم بعضًا، ويغير بعضهم على بعض، فإذا دخل الأشهر الحرم كفُّوا عن القتال، وأمسكوا عن الغارات، فيأمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولو لم يجعل الله لهم وقتًا للأمن لهلكوا جميعًا، فكانت الأشهر الحرم قيامًا للناس لذلك.

ثالثًا: حرمة الهدي، وهو ما يُهدى إلى الحرم من الأضاحي، والكفارات، والفدية،

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس (٤/ ٤٠) برقم (١٨٣٣) وانظر: (١٣٤٩) وأخرجه مسلم (١٣٥٣) بأطول منه.

وهَدْي التمتع، والقران، وقد جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ والمراد به بهيمة الأنعام من الإبل، أو البقر، أو الغنم التي تساق إلى الحرم، وتُذبح عنده وتُوزَّع على فقرائه، فقد أمَّنها الله تعالى على أنفسها، وهي في طريقها إلى الحرم، فلا يتعرض لها أحد بأذى، ولو كان يعتصر من ألم الجوع.

وقد جعل الله ذلك قيامًا لمصالح العباد بانتفاعهم بها في الدنيا، وأداء مناسك عبادتهم، فينتفعون بها في الآخرة ويثابون عليها، وهذا الأمن والأمان للحيوان بسبب حرمة الحرم وأمنه.

رابعًا: حرمة القلائد، التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ والمراد بها: ما يقلَّد بلحاء شجر الحرم، من بهيمة الأنعام المهداة إلى الحرم على وجه الخصوص؛ لإظهار الشعائر والمناسك، ففيها قيام لمصالح الناس وانتفاعهم بها في دنياهم وأخراهم.

وهكذا يمتَنُّ الله على عباده بأن جعل لهم البيت الحرام صلاحًا لدينهم، وأمنًا لحياتهم، فحرَّم العدوان في الأشهر الحرم؛ حتى لا يعتدي أحد على أحد.

وحرَّم الاعتداء على ما يُهدى إلى الحرم من بهيمة الأنعام.

وحرَّم الاعتداء على ما قُلِّد منها، إشعارًا بأنه يُقْصَدُ به النسك.

وقد التزم الناس بهذه الشعائر، وعظموها حتى في الجاهلية، فقد حدث في يوم الحديبية أن قريشًا أرسلت (الحليس) للنبي ﷺ وهم يتفاوضون في صده عن البيت، فلما رآه النبي ﷺ قال لأصحابه: **«هذا رجل يعظم الحرمات فقابلوه بالبُدْن مُشْعَرة»**، فلما رآها (الحليس) عظمها، وقال: ما ينبغي أن يُصدَّ هؤلاء عن الحرم، ورجع إلى قومه[1].

وكان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلَّد من ورق شجر الحرم أو غيره، فكان ذلك أمانًا له، فلا يعتدي عليه أحد.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وفي هذا إشارة إلى الغيب الذي أخبرنا الله به مما يخفى علينا، ويَعْلَمُه علَّام الغيوب، ومن ذلك أنه يعلم

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٤٣).

ما يصلح شؤون العباد والبلاد، فشرع سبحانه ما سبق بيانه لحماية خلقه بعضهم من بعض، وعِلْمُ الله تعالى شامل ومحيط: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ثم قال تعالى:

٩٨- ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

ولما ذكر سبحانه ألوانًا من رحمته بعباده، وأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، رهَّبهم من عقابه، ورغَّبهم في ثوابه، فذكَّرهم بعد ذلك بعقوبة المخالف لِهَدْيِ الله تعالى، المنتهك لحرماته، المستحل لها؛ لأن الإيمان لا يتم إلا بحصول الخوف والرجاء، فقال سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وخالف أمره ونهيه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وأناب، وقدم شدة العقاب على مغفرة الذنوب لمناسبة الرحمة في الآية قبله. قال تعالى:

٩٩- ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

وفي هذه الآية وعيد للمؤمنين إذا انحرفوا ولم يمتثلوا ما بلَّغه لهم الرسول ﷺ، وفيها إعذار للناس أن الرسول ﷺ قد بلَّغ عن ربه ما أراده من عباده، فلا عذر لهم في التقصير.

وبعد هذا البلاغ من النبي ﷺ وقيام الحجة على العباد، فلا عذر لأحد إذا فرَّط في جنب الله تعالى، ولم يقم بما أمر الله به ونهى عنه، ومهمة الرسول ﷺ بهذا البلاغ قد انتهت ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ والقرآن باقٍ إلى قيام الساعة للقيام بهذه المهمة على يد الدعاة إلى الله تعالى. وفي هذا إنذار ووعيد لمن عصى الله تعالى، وخالف هداية الرسول ﷺ ودلالته له على الخير.

أما هداية التوفيق التي تنطوي عليها نفوس الناس بما يسرون وما يعلنون من الهدى والضلال، فعلم ذلك عند الله وحده ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وهو سبحانه الذي يجازي عباده وفق أعمالهم وأقوالهم. وهكذا أشارت الآية إلى نوعين من الهداية وهما: هداية الإرشاد والدلالة وهذه مهمة النبي ﷺ والدعاة إلى الله تعالى، وهداية التوفيق وهي التي تكون بيد الله تعالى.

الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ فِي مِيزَانِ اللهِ تعالى

١٠٠- ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

وفي ثنايا الحديث عن الحلال والحرام تأتي هذه الآية؛ لتقويم ما في الحياة، وفق قيم الإسلام بميزان الله تعالى، فالخبيث والطيب في كل شأن من شؤون الدنيا والدين لا يستويان في كل شيء: فالكافر لا يساوي المؤمن، والعاصي لا يساوي المطيع، والجاهل لا يساوي العالم، والمبتدع لا يساوي المتبع،والطالح لا يساوي الصالح،والرديء لا يساوي الجيد، وهكذا في كل شيء.

فالخبيث: كل ما يُكره؛ لرداءته وخسته، محسوسًا كان أو معقولًا؛ لأنه بغيض إلى الله تعالى تمجُّه العقول السليمة، ومصيره إلى الهلاك والبوار.

والطيِّب: هو كل حسن أباحته الشريعة، ورضيتْه العقول السليمة، وهو محمود العاقبة دنيا وأخرى؛ لأنه محبوب إلى الله تعالى.

ولا يستوي في ميزان الله، ولا في ميزان العقلاء، الخبيث والطيب، ولو كان الخبيث كثيرًا، برَّاق المنظر، يعجب الناظرين، ومهما فشا وكثر وانتشر، فإنه سيئ العاقبة، سريع الزوال، فهو لذة، تعقبها حسرة، وشهوة تتلوها ندامة ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ بوجه عام، في أصناف الناس، وأنواع المكاسب، والمعارف والعلوم، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام والمال الحلال وغير ذلك ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئا بل يضره في دينه ودنياه.

ومن ذلك كل ما في السورة من صور الحلال والحرام ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ اجتنبوا الخبائث، وافعلوا الطيبات يا أصحاب العقول الراجحة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بنيل المقصود الأعظم، وهو رضى الله تعالى والفوز بالجنة، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى قد خلق العقول للناس؛ ليميزوا الخبيث من الطيب، فيتَّبعون الطيب ويتركون الخبيث، وفي مقدمة ذلك معرفتهم بصدق ما جاء به محمد ﷺ.

روى جابر بن عبد الله ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن الخمر كانت تجارتي، فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال له النبي ﷺ: «**إن الله طيِّب لا يقبل إلا طيبًا**» فنزلت هذه الآية تصديقًا لقول النبي ﷺ[1].

وهذا السبب يناسب سياق الآيات في الحلال والحرام، وفيه تحريم ثمن الخمر ونحوها من كل محرم، قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٨]. والقليل النافع من الحلال خير من الكثير الضار من الحرام، ومن ذلك أن المؤمنين على قلتهم خير من الكافرين على كثرتهم، فلا يغتروا بهم، ولا يُفتنوا بكثرتهم.

النِّدَاء الرَّابِعَ عَشَرَ: أَدَب السُّؤَالِ

١٠١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ[2] وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ[3] ٱلْقُرْءَانُ[4] تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

وهذا هو النداء الرابع عشر في السورة لأهل الإيمان وهو يتعلق بعدم التعنت في السؤال، حيث يعلِّم الإسلام أبناءه أدب السؤال، وحدود المعرفة، ومنهج التعليم، والإسلام يأمر أن يتفقه المرء في دينه، وأن يسأل أهل العلم والذكر فيما يجهل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء].

وكما قال ﷺ: «**إنما شفاء العيِّ السؤال**»[5].

ولكن الإسلام يكره التنطع والمبالغة، والتعمق في السؤال.

يكره أن يبحث الإنسان عما ستره الغيب، ولم ينزل فيه أمر ولا نهي من رب العالمين.

يكره أن يسأل الإنسان عن تفصيل ما أجمله الشرع رحمة بالعباد، يكره الإسلام التنطع في

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي: ص(١٢٠) و«زاد المسير» (٢/ ٤٣٢).

(٢) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (تسؤكم) واوًا خالصة وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة وقفًا.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يُنْزَلُ) بالتخفيف، مضارع أنزل، وقرأ الباقون (يُنَزَّلُ) بالتشديد، مضارع نزَّل

(٤) قرأ ابن كثير (القُرَان) بنقل حركة الهمز إلى الساكن قبلها، والباقون (القُرْآن) بسكون الراء وتحقيق الهمزة.

(٥) من حديث جابر بن عبدالله عند أبي داود (٣٣٦) بتحسين الألباني، وقال البيهقي في المعرفة: هذا الحديث أصح ما رُوي في هذا الباب مع اختلاف في إسناده، نصب الراية (١/ ١٨٧).

الأسئلة الفقهية، وكثرة السؤال فيها: كأن يحمل المرء سؤالًا يسأله أحد العلماء، ثم يذهب ويسأل الثاني والثالث والرابع ونحو ذلك، والله ﷻ أعلم بطاقات خلقه، وأعلم بما يصلحهم في دينهم ودنياهم، فلا تسألوا عن الأشياء التي إذا بُينت لكم ساءتكم وأحزنتكم، كالسؤال الذي يترتب عليه تشديد أو إحراج في الشرع، والسؤال عما لا يعني، وعن حال الإنسان في الجنة أو النار وهكذا فلا تسألوا عن أشياء إن تظهر لكم إجابتها تسؤكم.

وإذا وافق سؤالكم محله، فسألتم عن آية أشكلت عليكم، أو خفي حكمها عنكم وكان ذلك وقت تنزُّل الوحي على رسول الله ﷺ، يُبيّن لكم معناها ويظهر لكم حكمها، و إلا فاسكتوا عما سكت الله عنه، فكل ما سكت عنه رب العالمين فهو مما أباحه وعفا عنه، فتعرَّضوا لمغفرة الله وإحسانه، واطلبوا رحمته ورضوانه.

عدد الأسئلة في القرآن:

والقرآن الكريم قد سجَّل أربعة عشر سؤالًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وأجاب عنها رب العالمين في الوحي المنزل على رسوله ﷺ جاء ذكرها في القرآن، وأُجِيبوا إليها؛ لأنها تبحث عن المعرفة، ومن هذه الأسئلة قوله تعالى:

١- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة].

٢- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة].

٣- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة].

٤- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

٥- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

٦- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

٧- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٨- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾ [المائدة].

٩- ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ۝١٥٣﴾ [النساء].

١٠- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧﴾ [الأعراف].

١١- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال].

١٢- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء].

١٣- ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ [الأحزاب].

١٤- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝﴾ [النازعات: ٤٢].

هذه الأسئلة تبحث عن المعرفة: يسألونك عن الخمر؟ يسألونك عن الأهلة؟ يسألونك عن اليتامى؟ يسألونك ماذا ينفقون؟ وغير ذلك من الأسئلة التي جاء ذكرها، والجواب عنها في القرآن الكريم.

في صحيح البخاري وغيره عن أنس ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعتُ مثلها قَطُّ، قال: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»**، قال: فغطَّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم،وله خنين، فقال رجل: مَنْ أبي؟ قال: فلان، فنزلت الآية[1].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٢١) وانظر: (٩٣) و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

والسائل هو عبد الله بن حذافة السهمي، كما جاء في الحديث الآخر، أن النبي ﷺ خرج -أي: على المنبر- فقام عبد الله بن حذافة، فقال: مَنْ أبي؟ فقال: **«أبوك حذافة»** ثم أكثر أن يقول: **«سلوني»** فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، فسكت[1].

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى قال: سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب، ثم قال للناس: **«سلوني عمَّا شئتم»** فقال رجل: من أبي؟ قال: **«أبوك حذافة»** فقال آخر: من أبي؟ يا رسول الله، قال: **«أبوك سالم مولى شيبة»** فلما رأى عمر ما في وجه النبي ﷺ من الغضب، قال: يا رسول الله، إنا نتوب إلى الله[2].

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس ﷺ قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم الآية[3].

ولما أكثر بعض الأعراب والجهال والمنافقين من سؤال النبي ﷺ على وجه أثقله، حيث كان بعضهم يسأل: ماذا ألْقى في سفري هذا؟ وبعضهم يسأل استهزاء واستخفافًا وتعنتًا، فيقول: ماذا في بطن ناقتي؟ وأين ناقتي؟ وبعضهم كان يسأل النبي ﷺ أين ناقته التي ضلّت عنه؟ وفي أي مكان يجدها؟

ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام صعد المنبر، وخطب فيهم خطبة بليغة أثرت في نفوسهم أيما تأثير، ثم قال لهم: **«ما سألتموني عن شيء في مقامي هذا إلا بيَّنته لكم»**، قال أنس راوي الحديث: فجعلت لا ألتفتُ يمينًا ولا شمالًا إلا وجدت كُلًّا لَافًّا رأسه في ثوبه يبكي من كلام النبي ﷺ، وكان عبد الله بن حذافة إذا تخاصم مع رجل وتلاحى معه ينسبه إلى غير أبيه، قال عبد الله للنبي ﷺ: من أبي يا رسول الله؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: **«أبوك حذافة»** أي: أن أباك الذي تنتسب إليه حذافة، فلما سمعت أمه بهذه المقولة، قالت له: ما رأيت ابنًا أعق منك، هل ظننت أني قاربتُ مثل ما يقارب نساء أهل الجاهلية، فتريد أن تفضحني بين الناس؟ ولما رأى عمر الغضب على وجه رسول الله ﷺ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٩٣) وانظر: (٤٥٠، ٧٤٩٠) و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٦٠) و«صحيح البخاري» برقم (٧٢٩١، ٩٢).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٢٢).

جلس على ركبتيه وقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، وبالقرآن إمامًا، يا رسول الله، كُنَّا حديثي عهد بالجاهلية، ولا يدري أحدنا من أبوه؟ فسكن غضب النبي ﷺ[1].

وهكذا كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن بعض الأسئلة التي إن ظهرت تسؤهم، وإن كانت الإجابة تنزل عليهم، ربما يحدث فيها مشقة على المسلمين.

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: **«إن أعظم المسلمين جُرمًا، من سأل عن شيء لم يحرَّم، فَحُرِّم من أجل مسألته»**[2].

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: **«إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»**[3].

وقد جاء في الأثر: أن هناك أشياء سكت عنها الشرع فلم يذكرها، أو أنه أجملها ولم يفصِّلها، رحمة بنا من غير نسيان، ونهانا أن نسأل عنها؛ لأن هذا من باب التنطع والتشدد والتكلف، ولذلك أمثلة كثيرة:

هب أنك أردت الصلاة في بيت زيد من الناس، وليس أمامك نجاسة ظاهرة في المكان، لا ينبغي لك أن تسأل: هل هذا المكان نجس أم طاهر؟

وكذا إذا نزل عليك ماء وأنت في الطريق، وليس فيه أمارة من أمارات النجاسة الظاهرة، من تغيير لون أو ريح أو طعم، لا ينبغي لك أن تقف وتسأل: هل هذا الماء طاهر أم نجس؟

وبعض الناس يرى رجلًا صالحًا في ظاهر حاله، ثم يشق على نفسه ويكلِّفها عناء،

---

(١) هذه روايات بالمعنى، والنص في البخاري برقم (٦٣٦٢، ٧٠٨٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥٩) وأحمد في «المسند» (٣/ ٢١٠) برقم (١٢٠٤٤، ١٢٦٥٩، ١٣٦٦٦) وفي «تفسير الطبري» (١١/ ١٠٠) و«سنن الترمذي» برقم (٣٠٥٦).

(٢) يراجع الحديث في البخاري (١٣/ ٣٦٤) برقم (٧٢٨٩) ومسلم (٤/ ١٨٣١) برقم (٢٣٥٨) واللفظ للبخاري.

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٧١٥) وهذا لفظه وفي البخاري عن المغيرة بن شعبة برقم (١٤٧٧، ٢٤٠٨).

ويُؤثِّمها حين يقول: لا أدري عن عقيدة فلان؟ وأقول: إذا كنت لم تر منه شركًا ظاهرًا، ولم تر منه شيئًا يظهر في أقواله وأفعاله، فلماذا تظلم نفسك، وتتهم أخاك، وتظن فيه ظن السوء، وأنت تقول: لا أدري؟ وما دمت لا تدري فلماذا تظلم نفسك، وتظن ما ليس لك به علم، وقد أمرنا الإسلام أن نأخذ بالظاهر، وأن نحسن الظن بالناس، حتى يثبت العكس.

والقرآن الكريم يجيب عن هذا كله في هذه الآية من سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ إن ظهر لكم الجواب عنها يكون فيها مشقة عليكم وكلفة.

وهذا السؤال المنهي عنه هو الذي لم يأت له ذكر في الكتاب أو السُّنَّة، أما السؤال عن حكم شرعي لفهمه ومعرفته فهو أمر مطلوب ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا﴾ مما لم يرد فيها نص ﴿حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ أي: وقت نزول الوحي في زمن النبي ﷺ ﴿تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ ينزل الجواب عليها من السماء فيسيء إليكم، كهذا الذي سأل النبي ﷺ: أين أنا؟ أو أين أبي؟ فقال: **«في النار»** فلا شك أن هذا مما يسوء السائل، والأسئلة التي سألها بعضهم ليست في شؤون الدين، ولكنها في شؤون ذاتية خاصة بهم، لا يتعلق بها مهمة الرسول ﷺ في البلاغ عن ربه، وكانوا قد ألحوا في ذلك، والله تعالى لم يكلفهم هذا البحث، وهي مما ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ أي: لم يكلفكم بها ولم يفرضها عليكم.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ حيث لم يكلفهم فوق طاقتهم قد تكون هذه المسألة من الأمور التي أجملها الشرع ولم يفصلها، رحمة بالعباد، والله تعالى هو اللطيف الخبير ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وهو سبحانه أدرى بعباده، وما يصلح شؤونهم في الدين والدنيا.

وفي الأثر عن أبي ثعلبة الخشني: **«إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيِّعوها، وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان، فلا تسألوا عنها»**[١].

وهذه الأمور قد تكون مما عفا الله عنها، فالحلال بيِّنٌ وواضح، والحرام كذلك، وهناك

---

(١) الأثر عن أبي ثعلبة، الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧٥) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٣) وفي سنده مقال.

أمور سكت عنها الشرع ولم يذكرها، فلا تكلف نفسك مشقة العناء في السؤال عنها.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: **«دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»**[(١)].

سَبَب النَّهْيِ عَنْ سؤَالِ التَّعَنُّتِ

١٠٢- ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ سبب النهي عن سؤال التعنت، بأن مثل هذه المسائل قد سألها مَن قبلكم على وجه التعنت، فلما بُيِّنت لهم كفروا بها، كأن الله سبحانه يقول: لا تكونوا كقوم صالح الذين سألوه أن يخرج لهم ناقة حلوب من صخرة صماء، فأجابهم الله تعالى إلى سؤالهم، ومع ذلك لم يؤمنوا فعقروها، ولم يُذْعنوا ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ فأهلكهم الله، وكثيرًا ما كان بنو إسرائيل يستفتون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أُمِروا بها تركوها، فهلكوا.

فلا تكونوا كبني إسرائيل الذين سألوا الله يومًا خاصًا للطاعة والعبادة فأُعطوا يوم السبت، فلم يوفُّوا بما طلبوا.

ولا تكونوا كبني إسرائيل شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، فقد أمرهم بذبح بقرة، ولو ذبحوا أيَّة بقرة لأجزأتهم، ولكنهم سألوا عن سنِّها وعن لونها وعن عملها وهكذا، حتى اشتروها بملء جلدها ذهبًا، وما كادوا يفعلون مع ذلك كله، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

ولا تكونوا كبني إسرائيل حين سألوا موسى أن يريهم الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

ولا تكونوا كبني إسرائيل الذين طلبوا مَلِكًا يقاتل معهم في سبيل الله، فلما أجابهم الله تعالى إلى ما طلبوا تولَّوا وأعرضوا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٧٢٨٨) ومسلم برقم (١٣٣٧).

﴿أَلَّا تُقَاتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة].

ولا تكونوا كقوم عيسى الذين طلبوا المائدة وسألوها، فلما أُجيبوا إليها لم يعملوا بها وكفروا، فأهلكهم الله كما أهلك قوم صالح وغيرهم.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: **«أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»**، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: **«لو قلت نعم، لوجبت، ولما استطعتم»**، ثم قال: **«ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»**[1].

فالآية والحديث فيهما النهي عن سؤال ما لم نؤمر به، وما هو غير موجود، وما يترتب عليه تشديد، لو كلَّفنا الله به لشق علينا، وقد نعجز عنه إذا كُلِّفنا به، مع أن الله تعالى أعفى عباده منه.

ومثل هذه الأسئلة قد سألها قوم من قبلنا لرسلهم، فلما أمروا بها جحدوها، ولم ينفِّذوها، فاحذروا أن تكونوا مثلهم أيها المؤمنون، **ومن الأسئلة المذمومة:**

١- السؤال عما لا ينفع في الدين، كسؤال عبد الله بن حذافة، من أبي يا رسول الله؟ فأجابه: **«أبوك حذافة»**.

٢- وسؤال بعضهم: أين ناقتي، وماذا في بطنها؟

٣- السؤال عن شيء بيَّنه القرآن، كسؤال الرجل عن الحج: أكل عام يا رسول الله؟

٤- السؤال عما لم ينزل فيه حكم: **«ذروني ما تركتكم»**.

٥- السؤال عن أصعب المسائل وأشدها، كسؤال بني إسرائيل عن البقرة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٩٧٥) برقم (١٣٣٧، ٢٣٥٧) وأحمد في «المسند» (٢/ ٥٠٨)، (١/ ١١٣) برقم (٧٣٦٧، ٨١٤٤، ١٠٦٠٧) والترمذي برقم (٣٠٥٥) وابن ماجه برقم (٢٨٨٤) و«تفسير الطبري» (١١/ ١٠٥) والرجل السائل هو الأقرع بن حابس كما جاء في بعض الروايات.

٦- السؤال عن علة الحكم في العبادات، كسؤال لماذا تقضي الحائض الصوم دون الصلاة؟

٧- التكلف والتعمق في السؤال، كسؤال عمرو بن العاص صاحب الحوض: هل ترد حوضك السباع؟ فقال عمر بن الخطاب: يا صاحب الحوض لا تخبرنا، فإنا نرد على السباع وترد علينا.

٨- السؤال عن الأمور المتشابهة، كالسؤال عن الاستواء والنزول.

٩- السؤال عما كان بين الصحابة والسلف من خلاف، كما قال عمر بن عبد العزيز: تلك دماء كف الله عنها يدي، فلا أحب أن ألطخ بها لساني.

١٠- سؤال التعنت والإفحام، وطلب الغلبة على الخصم، كما في الحديث عن عائشة ﵂: «**أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم**»[١].

١١- السؤال عن وقوع آيات، كما سألت قريش النبي ﷺ أن يجعل لهم أنهارًا، وأن يجعل لهم الجبل ذهبًا، وسؤال اليهود لموسى أن ينزل عليهم كتابًا من السماء.

ويقاس على ذلك سواها مما يحرَّم، أو يكره، أو يُنزَّه عنه اللسان، أو لا تدعو إليه الحاجة.

صُوَرٌ مِنْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ

١٠٣- ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

ولما بيَّن الله سبحانه أنه جعل الكعبة قيامًا للناس، وجعل الهدْي والقلائد قيامًا لهم كذلك، ذكر في هذه الآية أمورًا يزعم بعض أهل الجاهلية أن لها حُرمة وقُدْسية، ثم فرّق جلَّ شأنه بين الخبيث والطيب حتى لا يخلط الناس بين الهدى والضلال، وكان من الأسئلة التي وُجِّهت للنبي ﷺ السؤال عن أمور كانت في الجاهلية مما يفعله الناس، ولم يحرِّمه رب العالمين، بل حرموه هم على أنفسهم، وهو السؤال عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكانوا يظنون أن هذه الأشياء ينبغي أن تُعظَّم، كما تُعظَّم الكعبة والحرم، فسألوا عنها، فأُجيبوا بأن الله تعالى لم يُحرّم شيئًا من ذلك، ولا سَنَّهُ لعباده،

---

(١) يُنظَر: «الموافقات» للشاطبي، والحديث في البخاري عن عائشة برقم (٢٤٥٧، ٤٥٢٣) وفي مسلم (٢٦٦٨).

ولكن رؤساء الكفار؛ كعمرو بن لُحَيٍّ، هم الذين فعلوا ذلك، افتراء على الله، وظنوا أنها قربى إليه سبحانه.

وهكذا فالله ﷻ يجيب على هذه الأسئلة بأنه جلَّ شأنه لم يحرم شيئًا من ذلك، ما بحَّر بحيرة، ولا سيَّب سائبة، ولا وصل وصيلة، ولا حمى حام ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ وفي هذا ذم للمشركين الذين شرعوا في دين الله ما لم يأذن به الله، وحرموا على أنفسهم ما أحله الله، فجعلوا شيئًا من مواشيهم محرَّمًا فما هذه الأشياء التي ابتدعتموها، وما معنى هذه المسميات؟:

البَحِيرة: هي الناقة، وكانت إذا نتجت أو وَلَدتْ خَمسًا وأتت بالسادس أنثى، فإنهم يبحرونهما، أي: يشقون أذنها ويعلِّمونها ويتركونها، فلا ينتفعون بشيء منها، لا بألبانها، ولا بأوبارها، ولاغير ذلك، وتُترَك للآلهة، فلا تركب ولا يُحمل عليها ولا يؤكل لحمها.

أما **السائبة**: فهي الناقة أو البقرة أو الشاة، ينذر المرء إن شفاه الله من مرضه، أو إن قدم من سفر، فإنه يسيِّب هذه الشاة أو هذه الناقة، أي: يتركها للآلهة، تَسير وترعى، فلا يعترضها أحد، ولا يُنتفع بشيء من ألبانها، أو أشعارها، أو أصوافها، بل تُسيَّب للآلهة، فلا تُركب ولا يُحمل عليها ولا تؤكل.

أما **الوصيلة**: فهي الناقة أو الشاة تأتي بأنثى، وتعقبها بأنثى أخرى ليس بينهما ذَكَرٌ، فإذا جاءت بِذَكَرٍ يقولون: قد وَصَلَتْ أخاها، فيمتنعون عنها، ويحرِّمونها على أنفسهم، وربما خصوها بآلهتهم على تفصيل طويل في ذلك.

والوصيلة: هي الناقة البكر، تُبكِّر في أول نتاج الإبل، ثم تُثنِّي بعدها بأنثى، وكانوا يسيبونها لآلهتهم إذا وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر.

أما **الحامي**: فهو الجمل الذي يحمى ظهره عن الركوب وحمل المتاع عليه إذا نتج من صُلْبه عشرة، فيقولون: حمى ضرعه.

فالحام: فحل الإبل، يضرب الضِّراب المعدود، فإذا قضى ضرابه تركوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسمَّوْه: الحامي»[1].

---

(١) يُنظر: البخاري (٨/ ٢٨٣) برقم (٣٥٢١، ٤٦٢٣، ٤٦٦٣) ومسلم (٤/ ٢١٩١) برقم (٢٨٥٦) وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٦) برقم (٧٧١٠، ٨٧٨٧)، حديث صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين. (محققوه).

١- أخرج البخاري بسنده عن سعيد بن المسيب قال: «**البحيرة: التي يُمنَع درُّها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم، لا يُحمل عليها شيء، وقال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرُّ قُصْبَه في النار**» - كان أول من سيَّب السوائب.

٢- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا، ورأيت عمرو يجرُّ قُصْبَه، وهو أول من سيب السوائب**»[1].

٣- وعن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أول من سيَّب السوائب، وأول من غيَّر دين إبراهيم**»، قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «**عمرو بن لُحيٍّ، أخو بني كعب، لقد رأيته يجرُّ قُصْبَهُ في النار، يؤذي ريحه أهل النار، وإني لأعرف أول من بحَّر البحائر**»، قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «**رجل من بني مُدلج، كانت له ناقتان، فجدع آذانهما، وحرَّم ألبانهما، ثم شرب ألبانهما بعد ذلك، فلقد رأيته في النار، وهما يعضَّانه بأفواههما، ويطآنه بأخفافهما**»[2].

هذه أشياء صنعها البشر ما أنزل الله بها من سلطان، فيحرمونها من غير دليل ولا برهان، إنما كان ذلك افتراء على الله صادر من جهلهم وعدم عقلهم، وقد أبطلها الإسلام جملة وتفصيلًا ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فلا نقل فيها ولا عقل.

ولهذه الأربع السابقة وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي معان أخرى غير ما سبق بيانه، وحين نقرأ هذه الآية، نشم السخف الذي كان في عقول هؤلاء القوم، وهذه الأشياء لها نظائر موجودة في وقتنا، وهذه النظائر توضحها الآية بعدها.

ذَمُّ التَّقْلِيدِ الأَعْمَى

١٠٤- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

---

(١) البخاري (٨/ ٢٨٣) برقم (٤٦٢٤) وقد تفرد به وفي مسلم مطولًا برقم (٩٠١).

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ١٩١) و«تفسير الطبري» (١١/ ١٢٠) من طريق عبد الرزاق وابن أبي شيبة (١٤/ ٩٢).

أي: وإذا قيل لهؤلاء الذين ينسبون إلى الله تعالى -كذبًا وافتراء- ما لم يَأْمُر به مِنَ البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، إذا قيل لهم: اتبعوا شرع الله فيما أحل وحرم، واتركوا ما كان عليه آباؤكم من الجهل والضلال، أعرضوا عنه فلم يقبلوا، وتمسكوا بما كان عليه مَنْ سبقهم، وقالوا: نكتفي بما كان عليه أجدادنا وأسلافنا، وهذا شأن العوام المقلدين في كل زمان ومكان -إلا من رحم الله- وهذه حجة كل مقلد في الضلال، من غير تعقل ولا تدبر، حتى ولو كان هؤلاء الآباء أجهل من دابة.

وهذه القاعدة توجَد كثيرًافي المجتمعات، فالناس غالبًا يقلدون مَنْ سبقهم، الابن يقلد أبويه، ويقلد المجتمع، فإن نشأ في بيئة تعبد الأصنام قلدها غالبًا، وإن رآهم يطوفون حول الأضرحة وينذرون لها ويذبحون عندها، قلدهم دون نظر ولا فكر، ودون بحث عن الدليل والحكم الشرعي، والتقليد في العبادة والعقيدة، قد يخرج الإنسان من الملة، بخلاف التقليد في الأمور الاجتماعية؛ كالمآكل والمشارب ونحوهما مما لم ينزل فيه تحريم، فقد لا يكون به بأس.

وكثيرًا ما تسأل فلانًا، لماذا تفعل الشيء الفلاني؟ فيقول: وجدنا آباءنا كذلك، والمجتمع يفعل ذلك، ويفعله فلان وفلان، ممن ينتسبون إلى العلم، المسؤول الفلاني يفعل، وأكبر الناس في المال والجاه يفعله، والجواب على ذلك أن الحق لا يُعرف بالرجال، وإنما يُعرف بالدليل والحكم الشرعي، فما وافق الشرع فعلناه، وما خالفه تركناه وإن فعله الناس كلهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان].

وما أنزله الله هو القرآن والسُّنَّة، يقول سبحانه: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: يقلدونهم ولو كانوا على غير بصيرة، ولو كانوا على غير هدى ولو كانوا على ضلال. والاقتداء إنما يكون بالعالم المهتدي، الذي يبني قوله على الحجة والبرهان والدليل، ويعمل به، ولا تخالف أقواله أفعاله.

النِّدَاءُ الخَامِسَ عَشَرَ: النَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ مِنْ جُمْلَةِ الاهْتِدَاءِ

١٠٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

هذا هو النداء الخامس عشر لجماعة المؤمنين في السورة، وهو يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيما يصدر عن المؤمن من حلال، أو حرام، أو مندوب، أو مكروه، والمسلم مطالب **بأمرين**:

الأمر الأول: أن يُصلح نفسه، وأن يُلزمها طاعة الله عزَّ وجلَّ، مخلصًا في ذلك لله سبحانه، ومتبعًا ما جاء به رسول الله ﷺ.

والأمر الثاني: مطلوب من المسلم أن يصلح غيره، كلما استطاع إلى ذلك سبيلًا، يصلح أبناءه وأهل بيته، ويصلح كل مسلم عاص، وكل ضالٍّ، ويصلح جيرانه، وجلساءه وأصدقاءه وزواره، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهذه وظيفة الأمة الإسلامية، فلا يكفي أن تكون في نفسك صالحًا، وإنما عليك تبعة ومسؤولية، هي هداية الناس وإرشادهم.

وقد سئل الرسول عليه الصلاة والسلام: أنهلِك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم، إذا كثر الخبث»**[1].

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال] فالنقمة تعم، لو أن الناس رأوا المنكر ولم يغيروه.

ولا بد لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يصاب بشيء من الأذى، بالقول أو بالفعل، ولا يُثنيه ذلك عن القيام بواجب الدعوة ومهمة الأمة التي أناط الله بها خيْريتها وأفضليتها، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ بماذا كانت هذه الخيرية؟﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولأمرٍ مَّا قدَّم الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على الإيمان بالله تعالى في هذه الآية، فإذا لم تفعلوا ذلك لم تكونوا خير أمة، ولم يتحقق فيكم واجب الخلافة

---

(١) أخرجه الشيخان عن زينب بنت جحش رضي الله عنهما، ينُظَر: «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠)و«صحيح البخاري»برقم (٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥) .

التي أمرنا الله سبحانه بإقامتها.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قطب هام عظيم، وركن كبير في الإسلام، وينبغي أن تقوم كل أمة من دول الإسلام بهذه المهمة؛ إذ لا بد لكل دولة مسلمة من رفع راية الجهاد لنشر الدعوة وحمايتها، ولا بد لها من وجود هيئة تأمر بالمعروف وتقوم عليه، وتنهى عن المنكر، فتمنعه بين الناس، ومن ذلك أنها تقيم الصلاة في الناس وتأمرهم بها، وتجمع الزكاة وتوزعها على مستحقيها، وتمنع الغش من الأسواق، وتمنع المحرمات، والسفور والخلوة في الأماكن العامة والخاصة، والمحلات التجارية، والأسواق، وفي الشوارع ووسائل الإعلام، ودواوين العمل، وغير ذلك ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

فلا بد أن يهتدي الإنسان في نفسه أوَّلًا، وأن يهدي غيره ثانيًا، يشير إلى ذلك قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أصلحوا أنفسكم، والزموا الهداية، وأصلحوا غيركم، فإنكم إذا أصلحتم أنفسكم، وأمرتم غيركم بالمعروف ونهيتموهم عن المنكر، تكونوا قد اهتديتم، فإن العبد لا يتم هداه إلا إذا اجتهد في إصلاح نفسه وإصلاح غيره.

بعد ذلك ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ أي: إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، فلن تشفع لكم هدايتكم وحْدكم، وقد لا تستطيعون أن تغيروا المنكر، ولكن إن أديتم الواجب، فلا عليكم من ضلال غيركم بعد بذل السبب في هدايته.

والله سبحانه يبيِّن أن الناس جميعًا في خسران وهلاك، وأقسم على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ②﴾ [العصر]، ثم استثنى سبحانه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ٣] وهؤلاء هم الذين أصلحوا أنفسهم، هذا هو الشق الأول، وأما الشق الثاني فهم الذين أصلحوا غيرهم: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] فلم يكتف القرآن الكريم أنْ بيَّن أنهم صلحاء في أنفسهم فقط، وإنما أوجب عليهم أن يصلحوا غيرهم ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

قيل: إن هذه الآية حين نزلت كان في مجلس عبد الله بن مسعود رجلان يختصمان، فقام أحد الناس يصلح بينهما، قال له الآخر: عليك نفسك، فغضب عبد الله بن مسعود وقال: إن هذا مخالف للإسلام، وأن هذه الآية ليس معناها هكذا، ثم بيَّن أن عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يكون في آخر الزمان عند ظهور علامات الساعة، حيث

يعم الفساد ويستشري في الأرض، ولا يوجد من يقبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(١)].

فقد خطب أبو بكر ﷺ في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يأيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: **«إن الناس رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»**[(٢)].

وتتعطل هذه الفريضة، ويتعطل هذا الركن الهام في الإسلام، إذا فسدت الناس وذلك عند قرب قيام الساعة.

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أبو ثعلبة الخشني: **«ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك العوام، فإنَّ مِنْ ورائكم أيامًا، القابض فيها على دينه كالقابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين منكم»**، قيل: يا رسول الله، منهم، قال: **«بل منكم؛ لأنهم لا يجدون عونًا على الخير وأنتم تجدون»**[(٣)].

فالوقت متغير، والأحوال مختلفة ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ في يوم العرض والحساب ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من خير أو شر.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ما قُبل منكم، فإن رُدَّ عليكم، فعليكم أنفسكم[(٤)].

---

(١) انظر هذا المعنى في «تفسير الطبري» (١١/ ١٤٣)

(٢) حديث أبي بكر رواه أحمد في المسند بسند صحيح (١/ ٥) برقم (١، ١٦، ٢٩، ٥٣) وأبو داود (٤/ ٥٠٩) برقم (٤٣٣٨) والترمذي (٤/ ٤٦٧) برقم (٢١٦٨) وقال: حديث حسن صحيح وابن ماجه (٢/ ١٣٢٧) برقم (٤٠٠٥) وابن حبان (١/ ٢٦١) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١١٥٧) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٤٤٨)

(٣) من حديث أبي ثعلبة الخشني أخرجه الترمذي (٥/ ٢٥٧) برقم (٣٠٥٨) وفيه عمرو بن جارية وشيخة أبي أمية وهما مجهولان، وعند أبي داود (٤/ ٥١٢) برقم (٤٣٤١) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٠) برقم (٤٠١٤) و«تفسير الطبري» (١١/ ١٤٥).

(٤) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٤٩).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متعيَّن على أفراد هذه الأمة، ما لم يخفْ الناهي عن المنكر ضررًا محققًا يلحق به، أو يخفْ فتنة يقع فيها، كشقِّ عصا المسلمين، أو يخفْ فتنة تلحق بطائفة من الناس، فإن خاف ذلك فعليكم أنفسكم.

أخرج الطبري عن جُبَير بن نُفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ وإني لأصغر القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت: أليس الله يقول في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾؟ فَأَقْبَلُوا عليَّ بلسان واحد وقالوا: تنزع آية من القرآن ولا تعرفها، ولا تدري ما تأويلها؟ حتى تمنيتُ أني لم أكن تكلمت، ثم قالوا: إنك غلام حديث السن، وإنك نزعت آية ولا تدري ما هي؟! وعسى أن تدرك ذلك الزمان: إذا رأيت شُحًّا مطاعًا، وهوى متبعًا، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت(١).

وقال الزمخشري: كان المسلمون تذهب أنفسهم حسرة على الكفرة، يتمنون دخولهم في الإسلام، فقيل لهم: عليكم أنفسكم بإصلاحها، والمشي في طريق الهدى، لا يضركم الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين، كما قال تعالى لنبيه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾(٢) [فاطر: ٨].

فليس في الآية رخصة لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من جملة الاهتداء: دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ودعوة المسلمين إلى الطاعة وترك المنكرات، وذلك حسب وسائل التغيير المتاحة للقائم بذلك، إن كان مسؤولًا، أو داعيًا، أو من عامة الناس، فيكون التغيير بالقوة، أو باللسان أو بالقلم، أو بالقلب مع ظهور علامات الإنكار على المنكِر. وبعد ذلك لا يضره ضلال من ضل، وكذلك إذا كان الآمر بالمعروف في زمان أو مكان لا يستطيع فيه أن يقوم بهذه المهمة، بسبب إعراض الناس وصدهم، أو بسبب قوة حاكمة طاغية، فإنه أيضًا لا يضره ضلال من ضل وعليه نفسه.

ففي الآية أمر للمؤمنين أن يُلزموا أنفسهم طاعة الله تعالى، وأنه ليس عليهم شيء من آثام غيرهم إذا نصحوهم وأرشدوهم إلى الخير.

---

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ١٤٢).

(٢) «تفسير الكشاف» (١/ ٥٣٤).

فإذا اختلفت القلوب، وألبستم شيعًا، وذاق بعضكم بأس بعض، فعليكم أنفسكم.

ومعنى الآية: يأيها الذين صدقوا الله ورسوله، ألزموا أنفسكم بالعمل بطاعة الله واجتناب معصيته، وداوموا على ذلك؛ فإن فيه هدايتكم، ومن الهداية أن تأمروا غيركم بالمعروف وتنهوه عن المنكر، فإن فعلتم ذلك ولم يستجب الناس لكم، فلا يضركم ضلال من ضل إذا لزمتم طريق الاستقامة، فأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، وسوف ترجعون جميعًا إلى الله تعالى فيخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها، فليس في الآية ما يدل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سأل رجل عبد الله بن عمر ﷺ عن ستة رجال يشهد بعضهم على بعض بالشرك، فقال له: عظهم، وانههم، فإن عصوك فعليك نفسك، فإن الله تعالى يقول ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[1].

ففيه بيان أن الإنسان يَلزم نفسه بعد أداء واجبه ولم يُقبل منه، وإلا فهو مسؤول عنه أمام الله تعالى.

في البخاري والترمذي وغيرهما عن النعمان بن بشير ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على مَنْ فَوقهم، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا»**[2]

قال ابن الجوزي:

١- إن قوله تعالى ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه إغراء الإنسان بمصالح نفسه، ويتضمن الإخبار بأنه لا يعاقب بضلال غيره، وليس من مقتضى ذلك ألا ينكر على غيره.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١١/ ١٤٠) برقم (١٢٨٥٤) ورجاله ثقات وإسناده صحيح.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٩٣، ٢٦٨٦) والمسند (١٨٣٧٠، ١٨٣٦١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الترمذي (٢١٧٣) والبيهقي في الشعب (٧٥٧٦) والبغوي في شرح السنة (٤١٥١) وابن حبان (٢٩٧).

٢- إن الآية تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أمْر بإصلاحها وأداء ما عليها، وقد ثبت وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصار من جملة ما على الإنسان في نفسه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، بدليل قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.

٣- إن الآية قد حملها قوم على أهل الكتاب إذا أدُّوا الجزية، فلا يُلْزَمُون بغيرها.

٤- إن الله سبحانه لمَّا عابهم في تقليد آبائهم بالآية المتقدمة، أعلمهم بهذه الآية أن المكلف إنما يلزمه حكم نفسه، وأنه لا يضره ضلال غيره إذا كان مهتديًا، حتى يعلموا أنه لا يلزمهم مِنْ ضلال آبائهم شيء من الذم والعقاب.

قال: وإذا تَلَمَّحْتَ هذه المناسبة بين الآيتين لم يكن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هنا مدخل، وهذا أحسن الوجوه[١].

النِّدَاء السَّادِس عَشَرَ: الوَصِيَّة عِنْدَ المَوْتِ وَالإشْهَاد عَلَيْهَا

١٠٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾

هذا هو النداء السادس عشر والأخير لأهل الإيمان في سورة المائدة، وهو يتناول الوصية عند الموت والإشهاد عليها.

وهذه الآيات الثلاث المتتابعة، قال عنها بعض أهل العلم: إنها أصعب ما في القرآن الكريم فهمًا وحُكْمًا ونظمًا، تحتاج في فهمها إلى دقة، وإلى معرفة سبب النزول فيها حتى يتضح المعنى، والآية غير منسوخة وحكمها قائم إلى يوم القيامة.

وقد جاء ذكر الوصية الواجبة ومشروعيتها في سورة البقرة قبل آيات الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: إن ترك مالًا كثيرًا ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) «نواسخ القرآن» ص(٨٥).

وجاءت مشروعية الوصية في مثل قول النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمر ﷺ: **«ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»**[(١)].

أي: أنه لا ينبغي للإنسان أن يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه، فإنه لا يدري أين يموت، ولا متى يموت؟

وتتأكد كتابة الوصية في حالة المرض، وفي حالة السفر، وفي حالة الغزو، ونحو ذلك من الحالات التي يتأكد أن يكتب المسلم فيها وصيته.

وكتابة الوصية قد تكون واجبة، أي: يجب عليه أن يكتبها، وقد تكون محرمة، وقد تكون مكروهة، وقد تكون سنة مستحبة، فهذه أربعة أنواع للوصية؛ وبيانها كالتالي:

أولًا: الوصية الواجبة، وذلك إذا كان على الإنسان دين، أوله دين، أو مشاركة، أو ودائع أو أمانات ونحو ذلك.

فيجب على المسلم أن يكتب وصيته إن كان عليه دينٌ؛ كي يسدَّد عنه هذا الديْن بعد موته، وكذا إن كان له دين، أو حسابات في بنوك، أو أسهم في شركات، أو تجارة أو عقارات، ونحو ذلك، وكذا إن كان عنده ودائع وأمانات للناس يكتبها ويُشهد عليها؛ حتى لا تضيع الحقوق، وحتى لا يُدخل على ورثته مالًا ليس لهم، فيوقعهم في الحرام، وحتى لا تضيع أمواله هنا وهناك إن كان الورثة لا يعرفونها.

وإن كان عليه زكاة لم يخرجها، وجب عليه أن يوصي؛ حتى يتم إخراجها للناس بعد موته وتَبْرَأ ذمته.

وإن كان عليه كفارة يمين، أو كفارة ظهار، أو كفارة قتل، أو كفارة جماع في نهار رمضان، ونحو ذلك، فعليه أن يوصي بإخراجها.

وإن كان عليه حج الفريضة وعنده مال، فإنه يُحج عنه منه، وكذا العمرة.

فإن كتابة الوصية في هذه الحالات واجبة، وعليه أن يكتبها ويُشهد عليها، فيبيِّن ما له وما عليه.

ولا يجوز للورثة أن يُقَسِّموا الميراث إلا بعد تنفيذ هذه الوصية، وسداد الديون التي

---

(١) من حديث عبد الله بن عمر في البخاري (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧).

عليه وإن لم يوص بها، وبعد إخراج الزكاة، ورد الأمانات والودائع إلى أهلها، وإخراج الكفارات والنذور ونحو ذلك.

وقد جاء الأمر بذلك مكررًا في آيتي الميراث من سورة النساء بعد بيان ميراث الآباء والأبناء ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١١].

وبعد بيان ميراث الزوج والزوجة ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾ وأيضًا ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾.

وبعد بيان ميراث من لا أصل له ولا فرع، في مسألة الكلالة ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ [النساء: ١٢].

وهكذا ختم الله سبحانه كل حكم في آيات الميراث بوجوب تنفيذ الوصية وسداد الدَّيْن قبل تقسيم التركة.

ثانيًا: الوصية المحرمة: وقد تكون الوصية محرَّمة، وذلك إذا قصد الموصي أن يَحْرِم الوارث من الميراث، أو يضر بوصيته أحد الورثة، ولذلك قال ﷻ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ [النساء: ١٢]. أي: غير مضار بوصيته للورثة، إذا أراد أن يمنعهم، أو يقلل من نصيب بعضهم ولو أوصى بوقف ماله، أو بعضه على شيء محرم؛ كدور الملاهي، ونحوها، فإن هذه الوصية محرمة، ولا يجوز تنفيذها.

وكذلك إذا كانت الوصية لوارث، فالوارث له نصيب في الشرع، فلا يوصَى له لما بعد الموت، ولايجوز الوصية في أكثر من الثلث.

فإذا أوصى الإنسان بوصية لأحد من الورثة بعد موته، وكانت هذه الوصية في حدود الثلث، فعند أهل العلم أن ذلك يتوقف على إجازة بقية الورثة البالغين العاقلين، إن أجازوها نُفِّذت، وإن لم يجيزوها لا تُنفَّذ، فهي تتوقف على رضى الورثة جميعًا وبمقتضى منطوق قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة] فالوالِديْن أوّل الوارثين، وقد أجازت الآية الوصية لهم، وليست منسوخة، أما العطاء للوارث في حياة الإنسان فليس هناك ما يمنعه.

ثالثًا: الوصية المكروهة: وقد تكون الوصية مكروهة، وذلك إذا كان الإنسان عنده أطفالًا، وليس عنده إلا شيء قليل من المال، وعنده ورثة، فإن الوصية بشيء من تركته في هذه الحالة مكروهة؛ لأنها تضر بالورثة؛ لقول النبي ﷺ في حديث سعد ﷺ: **«لأن**

تدع ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»[١].

رابعًا: الوصية المستحبة: وقد تكون الوصية مستحبة يتقرب بها العبد إلى الله عزَّ وجلَّ، وذلك إذا كان الإنسان ميسورًا، من فضل الله تعالى عليه، وعنده مال يكفي ورثته ويزيد، فإنه يشرع له في هذه الحالة أن يوصي في حدود الثلث من تركته على وجه من وجوه الخير والبر، أو على أشخاص، أو أسر فقراء، أو على طلبة علم، أو على مساجد، أو على دور تحفيظ القرآن الكريم، أو نحو ذلك من وجوه الخير والبر، فإن هذا صدقة جارية، له بعد موته أجرها وثوابها، كما في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[٢]، فهذه صدقة جارية له بعد موته تنفعه في قبره وفي آخرته.

ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟»** قالوا: ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: **«فإن مالَه ما قدَّم، ومالُ وارثه ما أخر»**[٣].

فما قدَّمه العبد لنفسه من الإنفاق في سبيل الله فهو ماله الحقيقي، وما تركه لأولاده بعد موته فهو مال غيره، ومن الحُمْق والغباء أن يكون مال الآخرين أحب إلى الإنسان من ماله الذي ينفعه يوم لقاء ربه.

والإسلام دين لا يخص زمانًا دون زمان، ولا مكانًا دون مكان، ولا بيئة دون بيئة، ولا قومًا دون آخرين، إنما هو دين يُصلح الله تعالى به أهل كل زمان وأهل كل مكان، يجد فيه البدَوي ما يتعلق به من أحكام، ويجد فيه الحضَري ما يتعلق به من أحكام.

يجد فيه المريض ما يتعلق به من أحكام، ويجد فيه الصحيح والسليم ما يتعلق به من أحكام.

يجد فيه المسافر ما يتعلق به من أحكام، ويجد فيه المقيم ما يتعلق به من أحكام.

---

(١) يُنظَر: حديث سعد عن ثلاثة من أولاده في البخاري (٥٦٥٩) ومسلم (١٦٢٨).

(٢) من حديث أبي هريرة في «المسند» برقم (٨٨٤٤) بإسناد صحيح، وأخرجه مسلم (١٦٣١) والبخاري في الأدب المفرد (٣٨) والترمذي (١٣٧٦) والدارمي (٥٥٩) وابن خزيمة (٢٤٩٤) وأبو داود (٢٨٨٠) وابن ماجه (٢٤٢).

(٣) من حديث ابن مسعود في «المسند» (٣٦٢٦) وهو في الصحيحين.

يجد فيه أهل السلم وأهل الحرب حاجتهم ومسائلهم.

ويجد فيه المسلم أحكامه إذا عاش مع إخوانه المسلمين، أو إذا عاش مع غير المسلمين، وهكذا.

إشهاد غير المسلم عند فقد المسلم في السفر ونحوه:

وفي الآيات الثلاث الأخيرة قبل الربع الأخير من سورة المائدة بيان حكمٍ من الأحكام التي تتعلق بالمسلم مع غير المسلم، فقد يمرض المسلم، أو يموت في بلدٍ غير مسلم، وقد يمرض أو يموت في سفر، ولا يحضره مسلمون، ويحضره غير المسلمين، ويريد أن يردَّ متاعه وماله إلى أهله وورثته، أو يريد أن يكتب وصيته ويوصلها إلى أهله.

فإن كان المسلم في سفر، وأشرف على الموت، وتعذر وجود المسلم في سفره هذا، فإن له أن يضع أمانته وما معه من مال ومتاع مع اثنين من غير المسلمين للضرورة، وله أن يُشهد على وصيته اثنين من غير المسلمين في هذه الحالة؛ حيث لا يجد مسلمًا يشهد له على وصيته إلا من غير المسلمين، على تفصيل بين الفقهاء في جواز هذه المسألة.

عن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهودي والنصراني إلا في سفر، ولا تجوز في سفر إلا في وصية(١).

فإذا صدَّق الشاهديْن أهلُ الميت فيما أوصى به بعد موته فلا خلاف في ذلك، فإن شكُّوا وارتابوا واتهموهما بشيء من الكذب أو الخيانة أو الكتمان، فإن للحاكم المسلم أن يأتي بهؤلاء الشهود من غير المسلمين في وقت يجتمع فيه الناس من بعد صلاة العصر، كما فعل النبي ﷺ فإذا كانا من أهل الكتاب؛ يهوديين أو نصرانيين، أو يهودي ونصراني، فإنهما يحلفان بالله أنهما ما كذبا، وما خانا، وما كتما، وما غيَّرا، وما سرقا.

وإن ظهر أنهما كذبا فيما قالا، فإن على أهل الميت أن يشهد منهم اثنان بردِّ شهادة غير المسلمين، وبأن كلامهما كذب، ويُحكم لهم في هذه الحالة بالوصية.

---

(١) أثر سنده صحيح إلى شريح وهو عند الطبري (١١/ ١٦٣)

وفي عهد رسول الله ﷺ حدثت أحوال مثل هذه الحالة:

١- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بَدَّاء، فمات السَّهْمي بأرض ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته فقَد أهله جامًا من فضة مُخوَّصًا بالذهب، فاشتكوْا إلى النبي ﷺ، فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم إنهم وجدوا الجام بعد ذلك بمكة، فقالوا: اشتريناه من تميم وعدي، فقدم رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الرجلين، وأن الجام لصاحبهما، وفيهم نزلت الآية، **ولهذا السبب قصة:**

فإن تميم الداري، وعدي بن بَدَّاء، رجلان من النصارى، كانا يتاجران بين مكة والشام، وبين المدينة والشام، وذات مرة خرج معهما بُديل بن أبي مارية، مولى لعمرو بن العاص، أو لأبيه العاص بن وائل السهمي، وهذا المولى أو الخادم كان مسلمًا، وخرج معهما في تجارة، ولَمَّا كان في الشام مرض بُديل مرضًا شديدًا، وأشرف على الموت، فكتب وصيته بخط يده، وأودع في الموصَى به قائمة بأسماء الأشياء التي سوف يردها مع هذين الرجلين إلى قومه وأهله، ودس هذه القائمة في متاعه دون أن يراه الرجلان، وأعطاهما ما معه من متاع، وتُوُفِّيَ الرجل، فلما مات، فتَّشا هذه الأمانة (متاعه) فوجدا فيه أثمن شيء يملكه الرجل في تجارته، وهو إناء يقال له: (جام) من فضة منقوشًا عليه، على هيئة خوص النخيل؛ صفائح من الذهب، وفيه ثلاث مئة مثقال من الفضة، فأخذا هذا الإناء - أي: سرقاه - ولمَّا وصلا إلى المدينة، دفعا ما معهما من متاع إلى أخيه، ما عدا هذا الإناء، وفتش أهله المتاع ووجدوا الوصية مكتوبة بخط يده، ووجدوا أن الأشياء ينقصها هذا الجام، والرجلان - الشاهدان - لم يريا هذه الكتابة، فذهب أهل الميت إليهما يسألونهما: هل صاحبنا مرض مرضًا كثيرًا، واحتاج إلى النفقة، وباع شيئًا مما كان معه؟ قالا: لا، هل باع واشترى شيئًا؟ قالا: لا، قالا: إنا وجدنا الأمتعة تنقص إناء من فضة مخوصًا بالذهب قد ذكره في القائمة، وكتبه بخط يده، ولم نجده، قال الرجلان: ما وجدنا شيئًا من ذلك، وما أعطاه لنا دفعناه لكم، ولا نعرف شيئًا عن هذا الإناء، فذهبوا واشتكَوْا إلى النبي ﷺ فأتى بهما رسول الله عليه الصلاة والسلام واستحلفهما بعد صلاة العصر في ملأٍ من الناس، أنهما ما كتما وما كذبا وما خانا وما سرقا، وحلفا.

ومضت مدة، وبعد وقت رأى أهل الميت هذا الإناء بين يدي قوم في مكة، وعرفوا أنه إناءهم، فسألوا من أين هذا الإناء لكم؟ قالوا: اشتريناه من تميم وعدي بألف درهم.

فذهبوا يشتكون إلى النبي ﷺ مرة ثانية أنهم وجدوا الإناء، فأنزل الله الآيات الثلاث من سورة المائدة(١)، وقد حدثت هذه القصة سنة تسع من الهجرة.

وفيها يأمر الله تعالى رسوله أن يُشهد اثنين من أقرب الناس إلى الميت -من الورثة- بصدْق قولهما، وبأنهما وجدا خلاف ما حلف عليه الرجلان سابقًا، وقد حلف عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة على أن تميمًا وعديًّا أخفيا الجام، ورُدت شهادة النصرانيين، وأعيد الإناء إلى أهله.

وتميم الداري أسلم فيما بعد، وجاء إلى النبي ﷺ بعد إسلامه نادمًا تائبًا معترفًا بخطيئته يقول: يا رسول الله، أخذنا الإناء، وَبِعْناه بألف درهم، وهذه هي الخمس مئة التي أخذتها.

وأما عدي بن بدَّاء -صاحبه- فمات على غير الإسلام، وقيل: إنه أسلم.

ولما شهد اثنان من بني سهم بصحة القضية، قام عمرو بن العاص وأخذ من عدي الخمس مئة درهم عنوة.

٢- وحدث مثل هذه القضية أيضًا بعد موت النبي ﷺ:

فقد أسند الطبري إلى الشعبي، أن رجلًا حضرتْه المنيَّة بمكان يسمى (دقوقا) ولم يجد أحدًا من المسلمين يشهد على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة، فأتيا أبا موسى الأشعري، فأخبراه، وقَدِمَا عليه بتركته، فقال أبو موسى: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في مدة النبي ﷺ، ثم أحلفهما بعد صلاة العصر، وأمضى شهادتهما(٢).

وأبو موسى في هذه القضية حلَّف الذمِّيْن، وأكمل شهادتهما باليمين، ونفَّذ الوصية لأهلها، ولم يحدث ريبة في الشهادة، وأشار أبو موسى إلى القضية المماثلة في عصر النبوة.

---

(١) يُنظَر: سبب النزول هذا بنصه في البخاري (٥/ ٣٠٧) برقم (٢٧٨٠) مختصرًا وأبي داود (٣/ ٤١٨) والترمذي (٤/ ١٠٠) برقم (٣٠٥٩) ابن جرير (١١/ ١٨٥) في تفسيره والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١٦٥) وفي «الدر المنثور» (٢/ ٣٤٢).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٥١) و«تفسير الطبري» (١١/ ١٦٥).

وكانت الوصية معروفة ومتداولة في الإسلام والجاهلية، ولذلك اكتفى فيها القرآن بشهادة اثنين عدلين، دون التوثيق والكتابة، كما في التبايع والديْن؛ لأن هذه المعاملات تكون بين طرفين، أما الوصية فهي من جانب واحد، وكان العرب في الجاهلية يُشهدون على وصاياهم عند الموت من يثقون به من أصحابهم، أو كبير القبيلة، أو من كان حاضرًا عند احتضار الموصي.

وفي هذه المسألة وفي أشباهها إلى يوم القيامة نزل قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: إذا ظهرت علامات الموت ومقدماته على الإنسان ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ أي: يشهد على الوصية إذا كنتم في سفر، وحضر أحدكم الموت: ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ من المسلمين ممن تعتبر شهادتهما ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أو اثنان من غير المسلمين إذا لم تجدوا مسلمين، لأن قولهما في تلك الحال مقبولة ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم في أرجائها للتجارة ونحوها ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وأوصيتم إلى اثنين عدلين في ظنكم، ودفعتم إليهما ما معكم من المال ولم تجدوا مسلمين، ففي هذه الضرورة يشهد على الوصية غير المسلمين، وفي حالة الشك من أمرهما ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: تحبسون الشاهديْن وتُوقفونهما أمام الناس بعد صلاة العصر، فهو وقت اجتماع الناس، كما فعل النبي ﷺ عندما استحلف عَديًّا وتميمًا ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أي: يحلف الشاهدان اللذان هما من غير المسلمين على الوصية أنهما صدقا ولم يُغيِّرا ولم يُبدّلا، هذا ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ فيهما، ويقولان: نحن نقسم بالله، ولا نعتاض بيمين الله عوضًا، ولو كان ذلك إرضاء لذوي القربى أو نفعهم، فنحن ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ أي: لسنا كاذبين، ولا نستبدل بيمين الله شيئًا، ولا نرضى أن نبيعه بعَرَض من أعراض الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: فلا نراعيه من أجل إرضاء الأقارب ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ التي أُمِرْنا بها بل نؤديها كما ينبغي ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إن كتمنا الشهادة ﴿لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ ولما صلى النبي ﷺ العصر نادى الرجلين، فاستحلفهما عند المنبر، فدل هذا على أن المراد بالصلاة، صلاة العصر، والخطاب موجه للمسلمين، وهذه صلاتهم.

والآية تشير في مجملها إلى أنه إذا قَرُب الموت من أحدكم، فليُشْهِد على وصيته اثنين أمينيْن من المسلمين، فإن لم يجد فمن غير المسلمين سِيَّمَا في السفر وفي بلاد الغربة،

فإن ارتبتم في شهادتهما فارفعوا الأمر للحاكم المسلم فيوقفهما بعد الصلاة في مشهد من الناس، ويقسمان أنهما لا يأخذان عوضًا ولا يحابيان قريبًا، ولا يكتمان شهادة؛ حتى لا يلحقهما إثم. قال تعالى:

١٠٧- ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ[1] عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ[2] فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

وبعد أن يحلف شاهدا الوصية من غير المسلمَيْن على أنهما ما خانا وما كتما ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي: إذا ظهر وتبيَّن من القرائن خلاف ما قالا، فظهر كذبهما أو خيانتهما، كما حدث في هذه المسألة حيث اتضح ﴿أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي: خالفا ما حلفا عليه.

والآثم هو مرتكب الإثم، **واستحقا** بمعنى: ارتكبا إثمًا، وبهذا فإن الإثم يكون قد وقع عليهما، وبطلت شهادتهما وخانا وكذبا، وفي هذه الحالة: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي فليقم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه، يقومان في الشهادة بدلًا منهما ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ من أقارب الميت؛ أي: يشهد شاهدان آخران من ورثة الميت؛ كي يردوا شهادتهما، ويأتيان بشهادة مكان شهادة، وتكون هذه الشهادة من أولى الناس بالميت وأقربهم إليه؛ كي يشهدان ويردان شهادة من شهد من غير المسلمين، ثم بيَّن سبحانه كيفية اليمين التي يحلفها الأوْلَيَان فقال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ قائلين: ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ أي: من يمينهما ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ أي: وما تجاوزنا الحق، ولا نسبنا لهما خيانة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إن حدث منا شيء من ذلك بأن ظلمنا واعتدينا وشهدنا بغير الحق.

والمعنى: أن الإنسان إذا حضره الموت وهو في سفر، فليُشهد على وصيته شاهدَيْن عَدْلَيْن مُسْلمَيْن، فإن لم يجد إلا كافرَيْن جاز له أن يوصى إليهما للضرورة كما هو في

---

(١) قرأ حفص (الذين اسْتَحَقَّ) بالبناء للفاعل، وإذا ابتدأ القارئ بها كسر الهمزة والباقون (الذين اسْتُحِقَّ) بالبناء للمفعول، وإذا ابتدأ القارئ بـ (استحق) ضم الهمزة.

(٢) قرأ شعبة وحمزة ويعقوب وخلف العاشر (الأوَّلِينَ) بتشديد الواو وفتحها وكسر اللام بعدها، وفتح النون، جمع (أوَّل) وهو مجرور، بدل أو صفة، وقرأ الباقون (الأوْلَيَانِ) بإسكان الواو وفتح اللام وكسر النون، مُثنًّى (أولى) وهو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: وهما الأوليان.

مذهب الإمام أحمد، فإن ظهر لأولياء الميت أن الشاهدين الكافريْن قد كذبا وخانا في الشهادة أو الوصية، ووجدوا قرينة تدل على ذلك، فليأتوا بشاهديْن من أقارب الميت، فيقسمان بالله أنهما صادقان، وأنهما لم يتجاوزا الحق في شهادتهما؛ لأنهما لو فعلا ذلك لكانا من الظالمين المتجاوزين لحدود الله تعالى. قال سبحانه معقِّبًا على هذه القصة:

١٠٨- ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

أي: ذلك الذي شرعه رب العالمين من التوثيق والضبط، ورد الشهادة عند الارتياب فيها أدنى وأقرب طريق لأداء الشهادة، وأضمن للشهود ألا يكتموا شهادتهم، وألا يخونوا، وألا يكذبوا؛ خوفًا من الله تعالى، ومن الفضيحة بين الناس، وهذا معنى ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ فيفتضحوا برد شهادتهم، ويشهد عليهم غيرهم أنهم كاذبون ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين على حدوده وشرائعه، ممن لا يريدون الهدى وسلوك الصراط المستقيم، وفي هذا تحريض على التقوى والطاعة، وتحذير من مخالفة أمر الله تعالى.

والمعنى: أن هذا الحكم عند الارتياب في شهادة الشاهدين، وتحليفهما بعد صلاة العصر وعدم قبول شهادتهما، أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها خوفًا من الله تعالى، ومن عذاب الآخرة، أو خشية أن ترد عليهم اليمين الكاذبة من قِبَل أهل الحق، فيفتضح الكاذب وتظهر خيانته.

فخافوا الله وراقبوه؛ حتى لا تقطعوا بأيمانكم مالًا حرامًا، واسمعوا ما توعظون به، فالله لا يهدي من خرج عن طاعته.

ومن الأحكام التي تؤخذ من هذه الآيات الثلاث:

أ - الحث على الوصية وتأكيدها في حال السفر والمرض وعدم التهاون فيها.

ب - الإشهاد على الوصية في الحضر والسفر؛ لأن عدم الإشهاد عليها يشكك فيها.

ج - جواز تحليف الشهود إذا ارتاب الحاكم، أو الخصوم في شهادتهم.

د - اختيار الوقت، والمكان المناسب للوصية، واختيار الكلام المناسب المؤثر على الشهود بما يحملهم على النطق بالحق.

هـ - جواز شهادة غير المسلمين عند الحاجة، وعند عدم وجود المسلمين.

سؤال الرُّسلِ عَنْ إجَابَةِ الأمَمِ لَهمْ

١٠٩ - ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ[(١)]﴾

وبعد أن ذكر سبحانه حكم الوصية عند دُنُوِّ الأجل، وأمر في نهايتها بالسمع والطاعة وتقوى الله عزَّ وجلَّ، أعقبه بذكر يوم القيامة حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب والجزاء في يوم تشتد فيه الأهوال، وتشيب فيه رؤوس الأطفال.

ومن عادة القرآن الكريم أنه إذا ذكر أنواعًا من الأحكام والتشريع، أتبعها إما بذكر التوحيد، أو ذكر بعض أحوال الأنبياء، أو بعض أحوال القيامة، وقد أتبع ذِكْر الوصية في هذه الآيات، سؤال الرسل يوم القيامة؛ لأنهم قادة الخلق، ويكون ذلك في يوم عظيم مهيب، تشيب فيه رؤوس الأطفال، وتتصدع فيه السموات والأرض، يحشر الله سبحانه الخلائق جميعًا في صعيد واحد، على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم، وعلى تفاوت أزمانهم وأمكنتهم، فيسأل الله سبحانه الأقوام والأمم بماذا أجابت رسلها؟ ويسأل الرسل بماذا أجابتهم الأمم عما دعوهم إليه من التوحيد والإيمان والعمل الصالح؟ كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف]. الكل يُسأل: الرسل، والمرسَل إليهم، الجميع يقدِّم كشف حسابه، وكتاب أعماله؛ لتظهر النتائج في هذا اليوم العظيم على مشهد من الخلائق أجمعين.

فاذكروا - أيها الناس - ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ في صعيد واحد، مَنْ أُرسل منهم أول الزمان، ومَنْ أُرسل آخره، مَنْ أُرسل في شرق الأرض، وَمَنْ أُرسل في غربها، يجمعهم الله جميعًا يوم القيامة، ويسألهم: ماذا أجابتكم الأمم؟ وهذا السؤال لإقامة الحجة على

---

(١) قرأ شعبة وحمزة بكسر غين (الغِيوب) والباقون بضمها، وهما لغتان.

الأمم، بماذا أجابتكم الأمم من الإيمان والكفر والطاعة والعصيان؟ ماذا عملوا؟ ماذا أحدثوا؟ فالأمم قد تُحْدِث في دين الله ما ليس منه بعد موت رسولها.

في الصحيحين عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليرِدَنَّ على الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رأيتهم ورُفِعوا إليَّ اختُلِجوا دوني، فلأقولنَّ: أي رب، أصحابي، أصحابي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»[1].

زاد في رواية: فأقول: «**سحقًا لمن بدَّل بعدي**».

كما أحدث قوم عيسى؛ حيث أتاهم رسولهم بالتوحيد الخالص، فغيَّروا وبدَّلوا وعبدوه إلهًا من دون الله.

ولأن الرسل لا يعلمون إلا ما ظهر من الأمور، وقد يُظهر بعض الناس الإيمان، ويبطن النفاق والكفر في قلبه، ولذلك فإن الرسل يجيبون ربهم يوم القيامة في أدب وتفويض، ووثوق بعدل الله تعالى، فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ وإنما العلم لك يا ربنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي: لا علم لنا بجوار علمك، فأنت سبحانك المحيط بكل شيء، أنت تعلم ظواهر الأمور وبواطنها، أنت تعلم ما ظهر لنا وما خفي علينا، والغرض من هذا السؤال: توبيخ الأمم التي كذَّبت رسلها.

تِسْع معجزَاتٍ أَيَّدَ الله بِهَا عِيسَى عليه السلام

١١٠- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ[2] تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ[3] ٱلطَّيْرِ[4] بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا[5] بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٠٤) و«صحيح البخاري» (٦٥٨٢).

(٢) قرأ ابن كثير بإسكان الدال من (القدْس)، والباقون بضمها.

(٣) قرأ أبو جعفر (كهيَّة)، والباقون (كهيئة).

(٤) قرأ أبو جعفر (الطائِر) بألف بعد الطاء، بعدها همزة مكسورة، وقرأ الباقون (الطيْر) دون ألف وبياء ساكنة.

(٥) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (طائِر) بألف بعد الطاء بعدها همزة مكسورة، وقرأ الباقون (طيْر) دون ألف بعد الطاء، وياء ساكنة.

﴿وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ[١] مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

وفي هذا الربع الأخير من سورة المائدة يفرد الله ﷻ عيسى عليه السلام من بين الرسل الذين يجمعهم ربهم ويسألهم، حيث يُفرده بالحوار والسؤال والمناقشة يوم القيامة، وهذا اتصال بمن قالوا: إنا نصارى ممن سبق ذكرهم في السورة، وبمن سبق تكفيرهم ممن قالوا بالبنوة والتثليث.

ولسائل أن يسأل: لماذا خُصَّ هذا الرسول من بين رسل الله بالسؤال يوم القيامة؟

والجواب: لأن النصارى هم أشد الأمم احتياجًا إلى التوبيخ والملامة؛ لأنهم تعدَّوْا على ذات الله تعالى، وتطاولوا عليه فنسبوا له الزوجة والولد، وفي هذا تنبيه لهم على قبح مقالتهم، وفساد اعتقادهم، وإقامة الحجة عليهم، ودلالة قاطعة على كمال قدرة الله تعالى.

ولأن عيسى عليه السلام هو الذي اختلف فيه الناس؛ حيث إن ولادته كانت آية من آيات الله تعالى، على غير مثال سبق في الناس، فاختلف فيه البشر؛ اليهود قالوا عنه: إنه ابن زنى، وإنه ساحر، ورموا أمَّه بالفاحشة، والنصارى عبدوه إلهًا، أو جعلوه ثالث ثلاثة، أو ابن الله سبحانه، وقال المسلمون: عبد الله ورسوله.

ولهذا فإن الله تعالى يخص عيسى عليه السلام بالسؤال يوم القيامة؛ ليبين لهم خطاياهم على الملأ، ويوبخ هؤلاء الذين عبدوه من دون الله، وليقرر عيسى بنفسه أنه عبدٌ من عباد الله سبحانه، وأنه دعا قومه إلى توحيد الله تعالى.

وليبين سبحانه للخلائق جميعًا أن ما أيَّد الله به عيسى من إبراء الأكمه والأبرص، ومن إحياء الموتى بإذن الله، ليس لأن عيسى إلهًا، ولا ابن إله، ولا عنده من خصائص الإلهية شيء، وإنما هو من باب المعجزات وخوارق العادات التي يؤيد الله بها رسله، كما أيَّد صالحًا بالناقة، فأخرجها لهم من صخرة صماء، وكما أيَّد محمدًا بالقرآن، وأيَّد موسى بإبطال السحر، وغير ذلك من المعجزات التي يؤيد الله تعالى بها رسله.

وفي هذا الحوار يبين الله سبحانه تسعًا من المعجزات، هي مننٌ ونعمٌ، أنعم الله بها على عيسى ﷺ كرامة له خصه بها، كما خص سائر رسل الله تعالى بالكرامات، والله

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (ساحر)، وقرأ الباقون (سحر).

سبحانه يبيِّن هذه المعجزات في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ حيث خلقتك بلا أب؛ لتكون آية على قدرة الله تعالى، كما خلقتُ آدم بلا أب ولا أم، وخلقتُ حواء بدون تلقيح من الذكر للأنثى، وخلقتُ سائر البشر من ذكر وأنثى، اذْكُرْها بقلبك ولسانك، وقم بواجب شكرها لربك حيث أنعم عليك نعمًا لم ينعم بها على غيرك فقد أنعمتُ عليك ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث كنتَ آية من آيات الله مُبَرِّئًا لأمك من الفاحشة التي ألصقها بها اليهود، فاذكر نعمتي عليها؛ حيث أنبتُّها نباتًا حسنًا، وطهَّرتُها واصطفيتها على نساء العالمين، فتذكَّر هذه **المعجزات التسع**، وهي:

أوَّلًا: تَأْيِيدُ عِيسَى بِالوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: قوَّيتك وأعنْتك بالروح الطاهرة، وهي جبريل عليه السلام، نزل عليك بالرسالة من عند الله، وحين نفخ في جيب درع أمك فحملت بك، وخلَقْتُك بقول: كن، أي: بقدرة الله سبحانه، وأيَّدتُك بخوارق العادات، وأيَّدتك بالوحي والرسالة؛ حيث أتاك جبريل وأنت كهل، قد بلغتَ سن الثلاثين، وأنزل الله عليك النبوة والكتاب، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

ثَانِيًا: كَلَامُهُ وَهُوَ رَضِيعٌ لِبَرَاءَةِ أُمِّهِ، وَكَلَامُهُ وَهُوَ شَابٌّ لِإِعْلَانِ الرِّسَالَةِ

وهذا معنى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ حيث أنطقك الله وأنت طفل رضيع في المهد، ودعوْتَهم إلى التوحيد وأنت كبير في سن الثلاثين كما جاء في سورة مريم: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ليعلن رسالته وهو في المهد، ويبرِّئ ساحة أمه مما اتهمها به القوم، ثم قال: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم].

ولم يتكلم في المهد إلا ثلاثة وهم: عيسى، وصاحب جريج، وشاهد يوسف[1]، وهكذا فقد امتاز عيسى عليه السلام على غيره من الرسل بكلام الناس في المهد.

---

(١) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٠) و«صحيح البخاري» برقم (١٢٠٦، ٣٤٣٦).

ثَالِثًا: مِنَّةُ اللهِ عَلَى عِيسَى بِتَعْلِيمِهِ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ

جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المنزل من عند الله تعالى، وفيه العلم النافع، وتدبير الأمور وتصريفها. ولفظ الكتاب: اسم جنس يشمل جميع الكتب المنزلة من عند الله، ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: وعلمتك الحكمة وهي الفهم والإدراك، والاطلاع على أسرار العلوم ووضع الأمور في مكانها المناسب.

وقد وهب الله تعالى الأنبياء من العصمة بحيث لا ينطقون عن الهوى.

وقد يراد بالكتاب: الكتابة والخط، أي: أن الله تعالى علّمه ذلك بدون معلم، ثم أشار سبحانه إلى أن الله قد علَّم عيسى الكتاب الذي أنزله على موسى قبله، فقال: ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي: وعلمتك التوراة التي نزلت قبلك على موسى ﷺ ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الذي أنزلته عليك، فهذه أربعة أشياء علمها الله عيسى ﷺ.

رَابِعًا: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾

أي: تُصور من الطين على هيئة الخفافيش طيرا مصورا لا رُوح فيه ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ أي: فتنفخ في هذا الطين، فيكون طيرًا بإذن الله، فيه حياة وفيه روح، آية ومعجزة، أيَّد الله بها عيسى عليه السلام.

خَامِسًا: إِبْرَاءُ الأَمْرَاضِ المُسْتَعْصِيَةِ

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ فتُشفي الذي وُلد أعمى فيُبصر ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ **البرص**: مرض جلدي معروف، ليس له علاج إلى وقتنا، وهو من الأمراض المستعصية، وأنت يا عيسى، تبرئه وتشفيه ﴿بِإِذْنِى﴾.

سَادِسًا: إِخْرَاجُ المَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللهِ

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ أي: أن عيسى عليه السلام يدعو الله تعالى أن يحيي الموتى، فيقومون بعد موتهم، وقد أخرج عيسى عليه السلام عددًا من الأموات بإذن الله، فجاء بنو إسرائيل إليه وطلبوا منه أن يحيي لهم سام بن نوح، فوقف عيسى على قبره وناداه ودعا ربه، فقام سام من قبره وهم ينظرون إليه، وليس هذا من خصائص الإلهية في عيسى ﷺ،

وإنما هو معجزة أيَّده الله بها.

سَابِعًا: نَجَاتُهُ مِنْ كَيْدِ اليَهُودِ

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ حين تآمر اليهود على قتلك، وصَلْبِك فنجاك الله منهم ورفَعك من البيت الذي أحاطُوك فيه مع الحواريين، وكفاك الله شرهم ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لَمَّا جئتهم بالآيات المعجزات الدالة على صدق دعوتك ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ ممن استمر على كفره وجحْد نبوته ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ رموه بالسحر وكذّبوه، ونسبوه إلى الزنى.

عن عبد الله بن عمرو ﵄ قال: إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون[1].

والمعنى: لقد أعطيناك - يا عيسى - ما أعطيناك من النعم والمعجزات؛ لتكون دليلًا ناطقًا بصدقك، وشاهدًا يحمل الناس على الإيمان بنبوتك، ولكن الكافرين من بني إسرائيل الذين أُرسلت إليهم لم يصدقوا ما جئتَ به من النبوة والرسالة، فكذبوك، ووصفوا ما جئت به من المعجزات بالسحر الواضح، وهذه منن امتنّ الله بها على عبده ورسوله عيسى ﵇ ودعاه إلى شكرها، فقام به أتم قيام، وصبر كما صبر إخوانه أولى العزم من الرسل.

ثَامِنًا: إِيمَان الحَوَارِيِّين

١١١- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾

واذكر نعمتي عليك - يا عيسى- إذ يسرتُ لك أتباعًا وأعونًا و ألقيتُ في قلوب جماعة من المخلصين لك أن يصدقوك، فيؤمنوا بالله ربًّا، وأنك رسول الله، ويشهدوا بذلك، وهكذا: يمتنُّ الله سبحانه على عيسى ﵇ أن جعل له أصحابًا وأنصارًا، هم الحواريون يؤمنون به وبرسالته، ويؤيدونه وينصرونه، فقالوا: ربنا آمنا بقلوبنا، وانْقَدْنا، وخضعْنا لك بجوارحنا، فجمعو بين الإسلام الظاهر والإيمان الباطن، المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان.

---

(١) أثر صحيح إلى عبد الله بن عمرو ﵄.

وإيمان الحواريين بعيسى ﷺ نعمة أنعم الله عليه بها؛ إذ لو لم يؤمنوا به لما وُجد من يؤمن به، فهم الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] حين كفرت به طائفة من بني إسرائيل، فكان الحواريون هم السابقون إلى الإيمان به، ولم يترددوا في تصديقه وملازمته وعونه في الدعوة إلى الله تعالى، والوحي إليهم بمعنى الإلهام وقذف الإيمان في القلب، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]

وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

وسُمُّوا حواريين من (الحوَر) وهو شدة الصفاء ونصوع البياض؛ ولأنهم طهَّروا أنفسهم من النفاق والخداع، وأخلصوا نياتهم لله تعالى.

تَاسِعًا: معْجِزَة المَائِدَةِ

١١٢- ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ(١) رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ(٢) عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

ثم حكى ﷻ ما دار بين عيسى والحواريين، وهو مثال نافع لكل أمة مع نبيها، أي: واذكر يا عيسى حين سأل الحواريون نزول مائدة من السماء عليهم، فيها طعام لهم، فكان الجواب: أنْ أمرَهم الله تعالى باتقاء عذاب الله إن كانوا مؤمنين.

والحواريون لم يشكُّوا في قدرة الله سبحانه، وإنما أرادوا سؤال عيسى ﷺ من باب العرض والأدب أن يطلب من ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، فقالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ وفي قراءة الكسائي (هل تستطيعَ ربَّك) هل بإمكانك أن تسأله هذا السؤال؟ وتوجُّه إليه هذا الطلب؟ وهل يسهل عليه ذلك؟

وكانوا مؤمنين معترفين بكمال قدرة الله تعالى، ولكنهم أرادوا مزيد الاطمئنان، كما

---

(١) قرأ الكسائي بتاء الخطاب في (تستطيعَ) ونصب الفعل، ونصب (ربَّك) على التعظيم، والمخاطب هو عيسى، أي: هل تستطيع سؤال ربك، وقرأ سائر القراء بياء الغيب في (يستطيعُ) ورفعها، ورفع (ربُّك) على أنه فاعل، أي هل يطيعك ربك، ويجيبك إلى مسألتك، واستطاع بمعنى أطاع، والكسائي يدغم لام هل في التاء بعدها.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف (يُنْزِل) مضارع (أنزل)، وقرأ الباقون بالتشديد مضارع (نَزَّل).

قال إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] ولما كان هذا السؤال منافيًا للانقياد للحق، قال لهم عيسى: يا قوم، اتقوا الله؛ فإن ما مع المؤمن من الإيمان، يحمله على ملازمة التقوى وأن ينقاد لأمر الله، ولا يقترح الآيات فهو لا يدري ما يكون بعدها، لأن من سنن الله في خلقه أنهم إذا سألوا رسولًا من رسل الله أن يأتيهم بآية معينة من آيات الله الكونية، وأنزل الله عليه هذه الآية، ثم كذبوه فلم يؤمنوا به ولا بهذه الآية، تكون النتيجة أن الله ﷻ يهلكهم ويبيدهم جميعًا، فهو سبحانه يخشى عليكم هذه العاقبة إن لم تؤمنوا.

فلا تقترحوا عليه الآيات، وقِفُوا عند حدود الله، وامْلَؤُوا قلوبكم هيبة وخشية لله تعالى، ولا تطلبوا مثل هذه المطالب، ونصوص القرآن تفيد أن الحواريين كانوا مؤمنين، وقد أرادوا زيادة الاطمئنان بالمشاهدة، وكان طلب الحواريين للمائدة في أول عهدهم بالإيمان.

والمائدة: اسم للطعام، وقد يكون هذا الطعام على خِوان من خشب له قوائم، وقد يوضع الطعام على سُفْرة أرضية من الجلد، أو البلاستيك، أو الورق المقوَّى، ونحو ذلك، ولا ينبغي أن يوضع الطعام على ورق الصحف؛ لأن فيه امتهان لما في هذه الصحف من اسم الله تعالى وآياته، وحديث رسوله ﷺ، فماذا كان رد الحواريين على عيسى ﷺ حين أمرهم بتقوى الله تعالى؟ وجوابًا على طلب المائدة؟

١١٣ - ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

أي: قال الحواريون لعيسى: مقصدنا حسن، ونحن نريد أن نأكل من هذه المائدة وتسكن قلوبنا لرؤيتها، وتسكن أيضًا إليك وإلى دعوتك، ونعلم أن قد صدقتنا في نبوتك، ونشهد أن هذه الآية أنزلها الله حجة له علينا في توحيده تعالى وعظيم قدرته، وحجة لك - يا عيسى- على صدقك في نبوتك فنزداد إيمانًا ويقينًا بأنك رسول الله، عز وجل، فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان في كل وقت.

فهذه أربعة أسباب من أجلها طلبوا نزول المائدة، وهي:

١- الأكل منها لحصول البركة، والتشرُّف بأكل شيء نازل من السماء.

٢- اطمئنان القلب بمشاهدتها؛ حتى يرسخ الإيمان ويقْوى اليقين.

٣- تصديق دعوة النبوة، والإذعان لما تأمرنا به -أيها النبي- أو تنهانا عنه.

٤- الشهادة على أن نزول المائدة معجزة من عند الله تعالى؛ حتى نبلِّغ من لم يحضر نزولها فيؤمنون بدعوتك.

لما سمع عيسى كلامهم وعلم مقصودهم أجابهم إلى ما طلبوا، حيث طلب منهم عيسى عليه السلام لما سألوا نزول المائدة أن يتطهروا ويتوبوا ويصوموا ثلاثين يومًا، ثم يسألوا الله سبحانه ما يشاؤون فإنه معطيهم، فصاموا ثلاثين يومًا وسألوه المائدة، ودعا عيسى ربه طالبًا منه نزول المائدة عليهم بعد أن توضأ وصلى، وتضرع إلى ربه، وبكى بكاء كثيرًا.

١١٤- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾

في هذه الآية حكى الله تعالى ما تضرع به عيسى إلى ربه، يطلب منه سبحانه أن تكون هذه المائدة حجة له، وتكون برهانًا ومعجزة دالة على صدق دعوته عليه السلام، فدعا ربه قائلًا: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة طعام من السماء، نتخذ يوم نزولها عيدًا لنا نعظمه نحن ومَنْ بعدنا، وتكون هذه المائدة علامة وحجة على وحدانيتك سبحانك، وتكون دليلًا على صدق نبوتي، فارزقنا - يارب- من فيضك العميم، فأنت جواد كريم، وأنت خير المانحين.

وهكذا توسل عيسى إلى ربه مرة بذاته العلية فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أي يا ألله، ومرة بوصف الربوبية فقال: ﴿رَبَّنَآ﴾ وفي هذا غاية التضرع، فكأنه يقول: يا إلهي ومعبودي وخالقي، ويا مُربِّيني بخيرك ونعمك أجب دعائي.

ويلاحظ أن الحواريين لما طلبوا المائدة قدَّموا في سؤالهم الغرض الدنيوي وهو الأكل منها، على الغرض الأخروي، وهو تصديقهم بنبوة عيسى عليه السلام.

وظهر عكس ذلك في طلب عيسى عليه السلام للمائدة؛ حيث قدَّم الغرض الأخروي؛ وهو كون نزولها يوم عيد يفرحون فيه بنزولها، وأن تكون هذه المائدة آية دالة على صدق الرسالة، وأخَّر الغرض الدنيوي وهو الرزق والأكل منها.

١١٥- ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا[1] عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي[2] أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾

وجمهور أهل العلم على أن الله تعالى أيَّد عيسى، وأنزل عليه المائدة تحقيقًا لوعد الله سبحانه في قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وكان نزولها في يوم الأحد فاتخذه النصارى عيدًا، قيل: نزلت المائدة من السماء تطير بها الملائكة من عند الله، وكان عليها خبز وسمك، أو خبز ولحم، أو ثمر من ثمار الجنة، وأيًّا ما كان الأمر، فقد أيَّد الله سبحانه عيسى عليه السلام بما طلب القوم، ونزلت عليه المائدة من السماء، ولكن القوم كفروا بها، وقد توعَّد الله من يكفر بها بالعذاب الذي لم ينزل بأحد من خلقه، فقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أي: من يكفر بعد نزول المائدة، فيجحد وحدانيتي ونبوة عيسى ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه شاهَدَ الآية الباهرة، وكفَر عنادًا وظلمًا، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد.

قال لهم عيسى ﷺ كما أمره ربه: كلوا من المائدة، ولا تخونوا ولا تدخروا، فأكلوا وخالفوا ما أُمروا به.

عن عمار بن ياسر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**نزلت المائدة من السماء، عليها خبز ولحم، وأمروا ألا يخونوا، ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمُسِخُوا قردةً وخنازير**»[3].

وحديث عمار -على ما في سنده من مقال- يفيد أن المائدة كان عليها خبز ولحم، وجاءت آثار أخرى تفيد أن عليها أحواتًا وأرغفة، أو أن عليها ثمرًا من ثمار الجنة، وغير ذلك من الأخبار[4] التي لا يترتب على معرفتها فائدة عملية للمؤمنين، ونحن متعبدون بما جاء في القرآن وصحيح السُّنَّة، وليس فيهما شيء من هذا القبيل، ولو كان في معرفته

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (منْزِلها) بالتخفيف، أي: بسكون النون وعدم تشديد الزاي، على أنها اسم فاعل، من (أنزل)، وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الزاي المكسورة اسم فاعل من (نزَّل).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر (فإنيَ أعذبه) بفتح ياء الإضافة وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦٠) برقم (٣٠٦١) وهو عند الطبري (١١/ ٢٢٨) وقد رُوي مرفوعًا وموقوفًا وهو أصح، قال الترمذي: ولا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث الحسن بن قزعة، ولا نعلم للحديث المرفوع أصلًا.

(٤) انظر: «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٦١) و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٦) و«زاد المسير» والقرطبي، وغيرهم.

مصلحة للمؤمن لبيَّنه رب العالمين، فيكفينا ظاهر القرآن، وما بيَّنه النبي ﷺ.

وخبر المائدة لا تعرفه النصارى، ولا يوجد في كتبهم، ومن الجائز أن يكونوا قد أخفوه كما أخفوا غيره ضمن تحريفهم لكتاب الله تعالى.

وقد وردت آثار عن الحسن ومجاهد تفيد أن المائدة لم تنزل، والذي عليه جمهور العلماء والمفسرين أنها نزلت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وهذا وعد من الله تعالى بإنزالها، وقد توعّدهم الله سبحانه بالعذاب، إن كفروا بهذا الوعد.
ولم تصرح الآية بنزولها، فيحتمل أنها لم تنزل، وليس في الأناجيل التي بأيدي النصارى الآن ما يدل على نزولها.

وفي الآية تحذير من الكفر بعد الإيمان، وأن عذاب الله للكافر بعد قيام الحجة عليه، وبعد إجابة ما طلب، يكون سببه الجحود والعناد، فيستحق بذلك أقسى العذاب وأشده.

وقد جاء هذا المعنى في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادعُ لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك، قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة، قال: «بل باب التوبة والرحمة»[1].

بطلان دعوى ألوهية عيسى وأمه

١١٦- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ[2] إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ[3] أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي

---

(١) «المسند» (١/ ٢٤٢) برقم (٢١٦٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ومثله (٣٢٢٣) وصححه أحمد شاكر و«المستدرك» (١/ ٥٣) قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١٥٢) برقم (١٢٧٣٦) من طريق سفيان، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٩٦): رجاله رجال الصحيح، وأخرجه عبد بن حميد (٧٠٠) والبيهقي (٢/ ٢٧٢).

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح ياء (وأميَ) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء (مايكون ليَ أن) وصلًا، والباقون بإسكانها.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ[١] ١١٦﴾

وبعد بيان المعجزات التسع التي ذكرتها الآيات السابقة، يأتي مشهد على مرأى من الخلائق جميعًا يوم لقاء الله؛ ليعلموا أن عيسى عليه السلام ليس إلهًا، وليس ابنًا، ولا مشاركًا لله سبحانه؛ حيث يأتي هذا السؤال من الله تعالى ليُعلِم عيسى ﷺ ماذا فعل قومُه من بعده بالتوحيد الذي أتى به من عند الله.

وليُعلم اليهود والنصارى أنهم قد كذبوا وخرجوا عن حدود طاعة الله ورسوله ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾ من أهل دينك ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وفي الآية توبيخ للنصارى الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾.

أي: واذكر -أيها الرسول- حين يقرر الله تعالى شأن عيسى يوم القيامة، ويسأله عن التوحيد، وعدم اتخاذه وأمه معبودين من دون الله، وهذا السؤال توبيخًا للنصارى الذين زعموا ذلك في الدنيا، والله سبحانه يبيِّن لجميع خلقه أن عيسى ما قال ذلك.

وهذا بيان للأمم على رؤوس الأشهاد؛ لإبطال هذه الدعوى، ولتَعلم الملايين من البشر التي تؤمن بهذه الخرافة أن عيسى عليه السلام ليس ابن الله.

وبعد السؤال يأتي الجواب: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ قرآن ناطق، لا يحتاج إلى بيان ولا إيضاح، ما ينبغي لي أن أقول للناس غير الحق، فما تجاوزتُ فيما قلتُ حدَّ التبليغ لِمَا أمرتني به، وكيف أقول هذا وأنا لستُ له بأهل؟! ولو أني قلتُه لعلمتَه ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ فأنت أعلم بما في نفسي، لا يخفى عليك شيء ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ من الخفايا والنوايا، وعلمك محيط بكل شيء، ثم قال عيسى عليه السلام على سبيل المشاكلة والمطابقة في الكلام ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ فأنت تعلم ما لا أعلم، ونفس الشيء وذاته بمعنى واحد، وفي هذا اعتذار من عيسى لربه، وبراءة من القول المنسوب إليه، ومبالغة في الأدب وإظهار الذلة والمسكنة. قال القرطبي: اختُلف في وقت هذه المقالة:

١- فقال قتادة وابن جريج وأكثر المفسرين: إنما يقول له هذا يوم القيامة.

---

(١) قرأ شعبة وحمزة بكسر غين (الغِيوب) والباقون بضمها.

٢- وقال السُّدِّي وقطرب: قال له ذلك حين رفعه إلى السماء.

٣- وقالت النصارى فيه ما قالت.

والأول أصح[١]. لأن سياق الآيات قبل هذه الآية وبعدها في الحديث عن يوم القيامة، ولأن عبادة عيسى حدثت بعد رفعه.

وقد ناداه الله سبحانه بقوله: ﴿يَٰعِيسَى﴾ إشارة إلى نفي الألوهية عنه، وأنه ليس ابنًا لله كما يزعمون، ولا يحمل عنصر الإلهية بأي شكل من الأشكال، والبشرية والإلهية نقيضان لا يجتمعان.

ونقل الألوسي ما حكاه أبو جعفر الإمامي عن بعض النصارى أنه كان فيما مضى قوم يقال لهم: (المرْيميَّة) يعتقدون في مريم الألوهية[٢].

وقد بدأ عيسى جوابه بتنزيه الله تعالى فقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وقدم تنزيه الله تعالى على براءة نفسه، ثم أكد هذا التنزيه بأنه ليس من حقه أن يقول هذا القول، ثم استشهد بالله تعالى على براءته وضعفه فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ وأكد نفيه لما سئل عنه بجملة تأكيدات؛ منها:

١- (إن) المؤكدة. ٢- وبالضمير (أنت). ٣- وبصيغة المبالغة (علّام).

٤- وبصيغة الجمع للفظ (الغيوب)، فلم يقل: أنت عالم الغيب.

والله تعالى يعلم أن عيسى لم يقل ذلك، ولكنه سبحانه أراد إعلان كذب من كفر من النصارى.

١١٧- ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ[٣] ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ[٤] شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ[٥] فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾

وبعد هذا النفي المؤكد لِمَا سئل عنه عيسى، يذكر القرآن ما قاله عيسى لقومه، فقال

(١) «تفسير القرطبي» (٦/ ٣٧٤).

(٢) «تفسير الألوسي» (٧/ ٦٥).

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر نون (أنِ اعبدوا) وصلًا، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين، وقرأ الباقون بضمها.

(٤)، (٥) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم)، وقرأ يعقوب بضم الهاء من (فيهم).

ﷺ: ما قلت لهم إلا ما أوحيتَه إليَّ، وأمرْتني به من إفرادك بالتوحيد والعبادة، فقلت لهم: اعبدوا خالقي وخالقكم، فأنا بشر مثلكم وعبد من عباد الله، وكنت شاهدًا على أعمالكم وأنا مقيم بينهم، أي: كنتُ شاهدًا على أقوالهم وأفعالهم وأنا حي بين أظهرهم، وقد حالت الوفاة بيني وبينهم.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي: قبضتني إليك حيًّا، ووفيتَ أجلي في الدنيا، ورفعتني إليك ﴿كُنتَ أَنتَ﴾ وحدك ﴿الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الحفيظ عليهم، المراقب لأحوالهم، العليم بتصرفاتهم، ولا أعلم عنهم شيء ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا، فأنت تعلم سرهم ونجواهم، وأنت المطلع على السرائر، لا تخفى عليك خافية في الأرض ولا في السماء، وأنت الذي تجازى عبادك بما تعلمه فيهم منْ خير وشر.

وآيات القرآن الكريم يُفهم منها أن عيسى ﷺ توفاه الله في الدنيا ثم رفعه إليه سبحانه.

ويفهم من الآثار والأحاديث الكثيرة أن عيسى رُفِع حيًّا بجسده وروحه؛ إذ لا معنى لرفع جسده ميتًا، ولا يصح حمل التَّوَفِّي في الآية على الإماتة؛ لأن إماتة عيسى في وقت حصار أعدائه له، ليس فيها ما يسوغ الامتنان به عليه، وكذا رفعه إلى السماء جثة هامدة، فليست السماء قبرًا لجثث الموتى، والسماء مستقر جميع الأرواح الطاهرة، فلا معنى ولا مزيَّة لرفع روح عيسى إلى السماء، بل إن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، كما يرزق الإنسان الحي، ويفرحون ويستبشرون فيها.

وقد دلت الآية على أن الأنبياء بعد استيفاء آجالهم ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون أعمال أمتهم.

فقد روى البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غُرْلًا**» - أي: غير مختونين- ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ثم قال: «**ألا وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة: إبراهيم، ألا وإنه يُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يارب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح** ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ

﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[١].

عِيسَى يفوِّض أَمْرَ أُمَّتِهِ إِلَى رَبِّهِ

١١٨- ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾

أي: إن عيسى عليه السلام فوَّض الأمر في قومه إلى ربه؛ إن شاء عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم، فقال: إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، واستمروا عليها حتى الموت فإنهم عبادك تفعل بهم ما تشاء وأنت العادل فيهم، وأرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، وإن تغفر لمن تاب منهم عن شركه وكفره، فذلك فضل منك ورحمة، فالأمر مفوض إليك، وأنت صاحب العدل والحكمة، فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ تلا قول الله عزَّ وجلَّ في إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ [إبراهيم]. وفي عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ فرفع يديه وقال: **«اللهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله عزَّ وجلَّ: يا جبريل، اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسله: ما يبكيك؟ فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال -وهو أعلم-: فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»**[٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام يصلي ليلة كاملة حتى أصبح بآية واحدة، والآية هي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾، ثم قال: **«إني سألت ربي عزَّ وجلَّ الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئًا»**[٣].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٩، ٤٦٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٠).

(٢) رواه مسلم (١/ ١٩١) برقم (٢٠٢) ورواه أحمد في «المسند» (٥/ ١٤٩) وابن حبان (٧٢٣٤، ٧٢٣٥) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٠٥).

(٣) يُنظَر: «المسند» (٥/ ١٤٩) برقم (٢١٣٨٨) مختصرًا، بإسناد حسن، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٨٤، ١١٠٩٦) وابن ماجه (١٣٥٠)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٧) والبغوي (٩١٥) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١١٠) والمشكاة (١٢٠٥).

فَصْل القَضَاءِ يَوْمِ القِيَامَةِ بِنَجَاةِ مَنْ نَجَا وَهَلَاكِ مَنْ هَلَكَ

١١٩- ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ[1] يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾

في هذه الآية جواب من الله تعالى عن قول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية. وذلك أن عيسى عليه السلام بعدما قرر أن الله تعالى يفعل في عباده ما يشاء من تعذيب ومغفرة، بيَّن جلَّ شأنه أن الأمر قد انتهى وفُرغ منه، فقد نجا من نجا، وخاب من خاب، فوصل إلى رحمة الله من وصل، وهلك في العذاب من هلك، وذلك بمجيء يوم القيامة.

وكل من اتقى الله تعالى وأخلص له العبادة داخل تحت هذه الآية؛ حيث يقول الله تعالى لعيسى يوم القيامة: هذا يوم الجزاء الذي ينفع فيه توحيد الموحدين، وصدقهم في أقوالهم وأفعالهم ونياتهم، فصدقهم في الدنيا ينفعهم يوم القيامة؛ حيث تجازى كل نفس بما كسبت، فقد أعد الله لهم جنات تجري الأنهار تحت أشجارها وقصورها، يمكثون فيها أبدًا، وقد رضي الله عنهم فقبل أعمالهم الحسنة، ورضوا عن ربهم بما أعطاهم من جزيل الثواب في هذا اليوم، وهذا الجزاء وذلك الرضى، هو الفوز العظيم يوم لقاء الله رب العالمين، و﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات]. ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. والصادقون هم الأنبياء والمؤمنون، أما الكافرون فليسوا منهم، وصدقهم بدون إيمان لا ينفعهم.

خِتَام السُّورَةِ فِي نَفْيِ الشَّرِيكِ للهِ تَعَالَى فِي مُلْكِهِ

١٢٠- ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ[2] وَهُوَ[3] عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

---

(١) قرأ نافع (هذا يومَ) بالنصب على الظرف، و(هذا) مبتدأ، والخبر متعلق الظرف، أي: هذا القول واقع يوم ينفع، وقرأ الباقون (هذا يومُ) بالرفع، على أنه خبر (هذا) أي: هذا اليوم، يوم ينفع، والجملة في محل نصب مقول القول.

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (فيهُن)، وكسرها الباقون.

(٣) سكن الهاء من (وهْو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون.

ويختم الله سبحانه السورة بهذه الآية الدالة على شمول ملكه تعالى لكل شيء في هذا الكون، لله وحده دون غيره ملك السموات والأرض وما فيهن من جميع الكائنات والمخلوقات، فهو مالكها ومبدعها، والجميع تحت قهره وسلطانه، وعيسى وأمه من جملة ما في هذا الكون، ومن عبيده في ملكه، ومن زعم أن لله شريكًا في ملكه، فقد أعظم الفِرْيَة على الله، واستحق خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وهو سبحانه القادر الذي لا يعجزه شيء، وجميع المخلوقات منقادة له ومسخرة بأمره.

تم تفسير (**سورة المائدة**) ولله الحمد والمنة



تَفْسِير سورَةِ الأَنْعَام (٦)

مقَدِّمَة السُّورَةِ

سورةُ الأنعام هي السورة السادسة في ترتيب المصحف، والخامسة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الحِجْر وقبل سورة الصافات، وهي مئةٌ وخمسٌ وستون آية في العدد الكوفي، ومئةٌ وسبعٌ وستون آية في العدد المكي والمدني، ومئةٌ وستٌّ وستون آية في العدد الشامي والبصري، وهي ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة، واثنا عشر ألفًا وأربع مئة واثنان وعشرون حرفًا.

وقد أَوْرَدَ بعضُ المفسرين كثيرًا من الآثار الضعيفة التي تُحدِّدُ وقت نزول السورة وكيفيَّتَها، وتُبيِّنُ فَضْلَها، كتفسير ابن كثير، وفتح القدير للشوكاني، وكلها لا تَخلو من مقالٍ، وأقوى هذه الآثار ما جاء عن أنس ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«نزلتْ سورةُ الأنعامِ ومعها موكب من الملائكة تسدُّ ما بين الخافقين، لهم زجل بالتَّسْبِيح والتقديس، والأرضُ ترتجُّ، ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم»**[1].

وعن جابر وابن عباس وأنس وابن مسعود وغيرهم: لمَّا نزلتْ سورةُ الأنعام سَبَّحَ رسول الله ﷺ ثم قال: **«لقد شيَّع هذه السورة من الملائكة ما سدَّ الأفق»**[2].

وقد نزلتْ سورةُ الأنعام ليلًا جملةً واحدةً، ودعا الرسول ﷺ كُتَّابَ الوَحْيِ فكتبوها من ليلتهم[3].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٢١٠) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣): رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي السالمي ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٤٧) وابن مردويه.

(٢) «المستدرك» (٢/ ٣١٤) وهو صحيح على شرط مسلم كما قال الحاكم، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٢٤٣١) وقد ردَّ الذهبيُّ قولَ الحاكم بأن في إسناده جعفر، ولم يدرك السُّدي، قال: وأظنه موضوعًا، ولكن وفاة السدِّي كانت سنة (١٢٧ هـ)، وولادة جعفر كانت سنة (١٠٩هـ)، فاللقاء بينهما مُحتمَلٌ، ولا وجهَ لكلام الذهبي، انظر تعليق سامي بن محمد السلامة على «تفسير ابن كثير» في أول السورة، وانظر موسوعة فضائل سور آيات القرآن (١/ ٢٥٥) واللفظ لجابر، ورواه عبد بن حميد عن محمد بن المنكدر.

(٣) جاء هذا في أَثَرٍ منسوبٍ لابن عباس في «المعجم الكبير» للطبراني (٢/ ٢١٥) وفي «فضائل القرآن» لأبي عبيدة ص١٢٩، و«فضائل القرآن» لابن الضريس ص١٥٧، وفي إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف، ورواه أيضًا إسحاق بن راهويه في مسنده برقم (١٦) وعبد بن حميد عن شهر بن حوشب.

ولم يَنزِلْ من السور السبع الطوال جملة واحدة غيرها، ولعل أسباب النزول لبعض آياتها قد تجمعت عند نزول السورة في مدَّةٍ قصيرةٍ متلاحقةٍ.

قال الفخر الرازي: والسببُ في إنزالها دَفْعَةً واحدةً أنها مُشتملةٌ على دلائل التوحيد، والعدل، والنبوَّة، والمعاد، وإبطال مذاهب المعطِّلين والملحدين.

فإنزال ما يتعلق بالأحكام والتشريع، قد تكون المصلحة في نزوله على قَدْرِ الحاجة حسب الحوادث والأحوال، أما ما يدل على علم الأصول فقد أُنْزِلَ جملةً واحدةً، ومن ذلك سورة الأنعام.

وقد نزلتْ سورةُ الأنعام غالبًا في السنة الرابعة للبعثة بعد الأمر بالجَهْرِ بالدَّعْوَة، وهي فترةٌ عنيفةٌ في تاريخ الدَّعْوَة؛ لأنها تواجه الشرك والمشركين، وتقاوم عقائدَ فاسدةً، لاقتلاع جذور الشرك من نفوسهم، وتصحيح العقيدة لديهم.

وسُمِّيتْ بسورة الأنعام؛ لذكر الأنعام فيها ست مرات، في أربع آيات؛ هي الآيات: (١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢)، ولم يُعرَف لها اسمٌ آخر.

والمراد بالأنعام: كل ما له خُفٌّ وظلف من الحيوانات، وهي: الإبل والبقر والغنم.

وقد سُبقت سورة الأنعام بسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وهي السور الأربع الأول بعد سورة الفاتحة حسب ترتيب المصحف .

وقد نزلتْ هذه السور الأربع على رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وهي سُورٌ تخاطب المؤمنين، وترسمُ لهم منهج الحياة، ومنهج الحُكْم الإسلاميّ، وتضعُ لهم قواعد العبادات والمعاملات المالية، وأحكام الأسرة، ومعاملة أهل الكتاب، والجهاد في سبيل الله، وتبيِّنُ أحوالَ النفاق والمنافقين وغير ذلك من الأحكام التشريعية.

وأكبر ما تعالج سورة الأنعام قضية العقيدة، وتعريف العباد برب العباد، وقد سلكتِ السُّورَةُ في هذا **مسلكين**:

المسلك الأول: أسلوب التقرير؛ بعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله تعالى، مصدَّرة بضمير الغائب، واسم الموصول المفرد، مع التسليم بدلائل وجود الله تعالى وقدرته، بما لا يشك في ذلك عقلٌ راشدٌ.

وضمير الغيبة يَجعل المستمعَ في حالةِ حضورٍ، كأن الله تعالى يُخاطبه، ويضع يده على مظاهر عظمته: ١-﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [٢]

٢-﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [٣] ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [١٨]

٣-﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [٦٠]

٤-﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [٧٣]

٥-﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ [٩٧]

٦-﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [٩٨]

٧-﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [٩٩]

٨-﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [١٤١].

المسلك الآخر: أسلوب التلقين والتعليم؛ حيث يُلقِّنُ اللهُ تعالى رسولَه الحُجَّة التي يَقذف بها في وجه الباطل، بما يملك على الإنسان سمعه وقلبه، وذلك عن طريق السؤال وتلقين الجواب، وربما تكرَّر ذلك أربع مرات في آية واحدة.

١-﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [١١] ٢-﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [١٢]

٣-﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [١٤].

٤-﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾[١٥] ٥-﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [١٩]

٦-﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [٤٠]

٧-﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [٤٦]

٨-﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ [٤٧]

٩-﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ [٥٧].

١٠-﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [٥٨]

١١-﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [٥٦]

١٢- ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [٦٣]

١٣- ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [٦٤]

١٤- ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ [٦٥]

١٥- ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [٧١].

١٦- ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [٧١] ١٧- ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [١٣٥]

١٨- ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [١٤٥]

١٩- ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [١٤٩]

٢٠- ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ [١٥٠]

٢١- ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [١٥١]

٢٢- ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ﴾ [١٦٢]

٢٣- ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [١٦٤].

وهكذا يَكْثُرُ أسلوبُ التلقين في أوَّلِ وأطولِ سورة مكية في القرآن؛ عن طريق السؤال والجواب في جوانبَ متعددةٍ تتعلق بالعقيدة، والعبادة، والأخلاق، والتشريع، وغير ذلك.

والسبب في كثرة هذا الأسلوب في السورة، أنها نزلتْ في ذروة المعركة المحتدمة بين الحق والباطل، فهي تلقينات متتابعة، يقول الله تعالى فيها لنبيِّه وهو يجادل المشركين: قل لهم كذا و كذا، لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحُجج القاطعة، وتفنيد شُبه المعارضين، وبيان وجه الحقِّ فيها،وقد بلغ هذا الأسلوب أربعًا وأربعين مرة في السورة.

وسورة الأنعام أوَّلُ سورة مكية في ترتيب المصحف، وهي والتي بعدها (سورة الأعراف) أطول سورتين مكيتين في القرآن الكريم، وخصائص القرآن المكي يَختلف عن خصائص القرآن المدني.

ونحن لا نجد في سورة الأنعام نداءً ولا خطابًا واحدًا للمؤمنين، فليس فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، ولا نجد فيها حديثًا يخاطب أهلَ الكتاب من اليهود والنَّصارَى؛ لأن

ذلك كان في المدينة، ولا نجد فيها حديثًا عن النفاق والمنافقين؛ لأن النفاق ظَهَرَ في المدينة، ولا نجد في السور المكية حديثًا عن القتال وأحكام الجهاد؛ لأن الجهاد شُرِعَ في المدينة أيضًا، ولا نجد تفصيلًا لأحكامِ العبادات؛ كالصوم والزكاة والحج، وأحكام المعاملات؛ كالرِّبَا وأحكام الأسرة والجنايات من القتل والسرقة والجرائم وغيرها.

والقرآن المكي في ترتيب المصحف بدأ من سورة الأنعام، على خلاف في سورة الفاتحة، هل هي مكية أم مدنية، أو نزلت مرتين؟

والفترة المكية استمرَّت نحو ثلاثة عشر عامًا، نزل فيها أربعٌ وثمانون سورة؛ منها سبعٌ وأربعون سورة متوالية، هي جزآ (تبارك) و(عمَّ) غالبًا؛ أي: من سُورة الملك إلى سُورة الناس، وهي من متوسط وقِصَارِ السوروعددها سبع وأربعون سورة.

ويتناول القرآن المكيُّ **ثلاث قضايا**؛ وهذه القضايا الثلاث هي:

القضية الأولى: قضية تصحيح العقيدة، وتوحيد الإله المعبود، ونَبْذ الشرك، والتنديد بالمشركين، وكلِّ ما يُعْبَدُ من دونِ الله.

القضية الثانية: تتناول الوَحْيَ والرسالة؛ بمعنى أن الوَحْي المنزَّل من عند الله تعالى على نوحٍ، وعلى إبراهيم، وعلى موسى وعيسى ﷺ، هو نفسه الذي نَزَلَ به جبريل ﷺ على محمدٍ ﷺ، ومَن آمن بالوَحْي الذي نَزَلَ على الرُّسُل السابقين، عليه أن يُؤمن بالوَحْي الذي نَزَلَ على خاتم الأنبياء والمرسلين محمدٍ ﷺ، وهذا يستلزم الإيمانَ به ﷺ.

القضية الثالثة: قضيةُ البعث والحشر والنشور والحساب والجزاء يوم القيامة، فالقرآنُ يَغرس في نفوس الخَلْقِ أن هناك يومًا آخِرًا، يبعث الله فيه العبادَ، ويُحاسبهم على ما قَدَّمَتْ أيديهم من خيرٍ أو شرٍّ، وأن الدنيا ليست نِهاية المطاف، وفترة البرزخ يَتِمُّ فيها استيفاء الأعمال، ثم يكون البعث والحساب، والجنة أو النار، نسأل اللهَ حسنَ الخاتمة.

هذه القضايا الثلاث هي المحاورُ التي يَدورُ حولَها القرآنُ الذي نَزَلَ بمكة على رسولِ الله ﷺ، وفي مقدمة ذلك سورةُ الأنعام، وهذه القضايا ذكرتْها سورةُ الأنعام في الآيات الأربع الأُوَل منها على وجه الإجمال؛ حيث جاءت قضية التوحيد في الآية الأولى منها، وقضية البعث والنشور في الآية الثانية، وقضية الوَحْي والرسالة في الآية الرابعة منها.

وقد اشتملت سُورَة الأنعام على هذه القضايا الثلاث في **مشاهد مختلفة**:

١- فأقامتِ الأدلةَ على وحدانيّةِ الله تعالى في كثيرٍ من الآيات، التي تتناول جوانبَ الكونِ كلّها:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [١٤]

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [١٧]

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [٥٩]

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [٧١]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [٩٥].

ومن دلائل التوحيد حوارُ إبراهيمَ لقومه، وهو يُقيم الحُجَّةَ عليهم، ويأخذ بأيديهم خُطْوَةً خُطْوَةً، حتى يعترفوا بوحدانية الخالق سبحانه، وقد جاء هذا في أسلوب تربويٍّ بديعٍ.

٢- وأقامتْ سورةُ الأنعام الأدلةَ على قضيَّةِ البعث والحساب والجزاء في مثل قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [٣٠].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [٣١]

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [٩٣]

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [٩٤]

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [١٢٨].

٣- وأقامتِ السورةُ الأدلةَ على قضية الوَحْي والرسالة في كثيرٍ من آياتها؛ منها قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [٢٥].

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [٢٦]

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [٣٤] ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [٥٠].

وإلى جوار هذه القضايا الثلاث فنَّدتِ السورةُ شُبُهات المشركين بأسلوب يُقنع العقولَ ويَهدي القلوب، ويُرضي العواطف، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [١٣٦]

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ [١٣٨]

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [١٣٩].

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [١٤٣]

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [١٤٤]

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [١٤٦]

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [١٤٨].

وسورة الأنعام أجمعُ سُورةٍ في القرآن لأحوال العرب في الجاهلية، وأشدُّها مقارعة لجدالهم، واحتجاجًا على سَفَاهَةِ أَحْوَالِهم.

في صحيح البخاري أن ابن عباس ﷺ قال: إذا سرَّك أن تعلم جهلَ العرب؛ فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا﴾ إلى قوله ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[1].

إلى جوار الآيات التي تناولتْ مقترحات المشركين بنزول معجزاتٍ كونيَّةٍ على النَّبي ﷺ تُصَدِّقُ دعوتَه، وردَّ الله عليهم في آيات؛ منها:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ

(١) البخاري (٣٥٢٤).

أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [١١٠، ١١١].

والآياتُ التي تناولتِ القرآن الكريم تَصِفُهُ بأنه كتابٌ مباركٌ مصدقٌ لِمَا قبله من الكتب، وتأمر نبيَّه ﷺ باتباع ما فيه ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [١٠٦].

وعلى هذا الأساس تَمْضِي السُّورَة.

فتبدأ: بإقامة أدلة التوحيد في مواجهة المشركين ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [١].

وتثنِّي: بموقف المكذبين بآيات الله في هذا الكون الفسيح ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [٥].

وتثلِّث: بتعريف الناس بحقيقة الألوهية ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [١٢].

ورابعًا: تُخْبِرُ أن أهل الكتاب يعرفون محمدًا ﷺ، وكتابَه حقَّ المعرفة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [٢٠].

وخامسًا: تُسلِّي الرسولَ ﷺ، وتُسرِّي عنه ما يَحدث له من تكذيب المكذبين.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وسادسًا: تُقيم السورةُ أدلَّةً، ماديةً لا يسع العاقل أمامها إلا أن يُوحِّدَ الخالق سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [٩٥] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [٩٨] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [٩٩].

وسابعًا: تُفنِّدُ السُّورَةُ مزاعمَ أهلِ الجاهليةِ في الأنعام والثمار؛ لاقتلاع جذور الشرك، وتصحيح العقيدة ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [١٣٦]

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [١٣٨]

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [١٤٣].

وثامنًا: تَذْكُرُ الوصايا العشر التي جاءت بها كل شريعة من عند الله عز وجل، وفي ثنايا ذلك حديثٌ عن مفاتحِ الغيب، وحوار إبراهيم لقومه، وذِكْرُ ثمانية عشر رسولًا من رسل الله، والأمر بالاقتداء بهم، وإيحاء كلٍّ من شياطين الجن والإنس للآخر.

ولم تَخْلُ السورة من مشاهدِ القيامة وأهوالِها ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [٢٧] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [٣٠].

وتختم السورة بابتهال وإنابة إلى الله تعالى وحده لا شريك له.

فسورةُ الأنعامِ أقامتِ الأدلةَ على وحدانيَّةِ الله تعالى، وبينتْ أنه المستحقُّ للعبادة دون سواه، وأقامتِ الأدلةَ على صِدْقِ النَّبِي ﷺ في دعوته، وأقامت الأدلة كذلك على أن يوم القيامة حقٌّ، وأن الحساب والجزاء فيه حقٌّ، وفنَّدتِ السورة الشُّبُهاتِ التي أثارها المشركون حول هذه الأمور الثلاثة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مِنْ دَلَائِلِ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ الأَرْبَعُ

١ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ[1] ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

في هذه الآية يُعلِّمُنا الله ﷻ كيف نحمده؛ فيقول لنا: قولوا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وفيها إخبار عن حمده سبحانه والثناء عليه بصفات الكمال ونعوت العظمة والجلال على وجه العموم، وعلى هذه المخلوقات الأربع بوجه خاص، فحمَدَ نفسه - سبحانه - على خلق السموات والأرض، وانفراده بالخلق والتدبير، وحمد نفسه على جعل الظلمات والنور محسُوسَيْن كالليل والنهار، والشمس والقمر، ومعنويَّيْن كظلمات الجهل والشك، والشرك والمعصية، وفي هذا دلالة قاطعة على أنه سبحانه المستحق للعبادة دون سواه، ومع هذا فالكفار يعدلون به سواه فيسوونهم معه في العبادة!!

وجملة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ افْتَتَحَ اللهُ ﷻ بها خَمْسَ سُوَرٍ من القرآن الكريم؛ هي سورة الفاتحة، وسورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورتا سبأ وسورة فاطر؛ ليعلِّمنا الله سبحانه كيف نحمده ونمجده، وكيف نثني عليه جل شأنه، وهو تصريح من الله تعالى بأنه جل شأنه المستحِقُّ للحمد وحده، والمُخْتَصُّ بالشكر على ما أنعم به على عباده بجلائل النِّعَمِ.

كما يُبَيِّنُ لنا سبحانه في الآية موجباتِ هذا الحمد، لماذا نحمده؟ والجواب: لأنه تعالى مُبدعُ هذا الكون، خالق السموات والأرض، وخالق الليل والنهار، وخالق الظلمات والنور، والشمس والقمر، والأفلاك والكواكب والنجوم، خالق هذا الكون جميعه بعالَمَيْه العلوي والسفلي، وما فيهما، وما بينهما.

وقد افْتَتَحَ اللهُ سبحانه خَلْقَ هذا الكون بالحمد في هذه السورة، واختتمه بالحمد أيضًا في نهاية سورة الزمر فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وخَصَّ الله تعالى السموات والأرض بالذِّكْرِ؛ لأنهما أعظمُ المخلوقات فيما يُرى

---

(١) عدّ لفظ (والنور) آية، المدني الأول والمدني الأخير والمكي، وتركها غيرهم.

للعباد، فالسماء مرفوعةٌ بغير عمدٍ، والأرض هي مَسْكَنُ العباد، فله سبحانه الثناءُ كلُّه؛ لأنه أنشأ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما لفائدة العوالم.

ثم أشار سبحانه إلى صِنْفٍ آخر من المخلوقات فقال: ﴿وَجَعَلَ﴾ أي: خَلَقَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ وهما ينشآن من تعاقب الليل والنهار، وقد جَمَعَ الله لفظَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ولم يَرِدْ في القرآن إلا جَمْعًا، ووحَّد لفظ ﴿ٱلنُّورَۖ﴾ ولم يرد إلا مفردًا؛ لأن الظلمات تختلف باختلاف ظلِّ كلِّ شيءٍ، فظلمةُ الليل غيرُ ظلمة البحر غير ظلمة ما تحت الجدار، وهكذا.

أما النور فهو واحدٌ في جميع أحواله، وأراد به اسم الجنس، وباعتبارٍ آخر فإن شُعَب الضلال (وهي الظلمات) متعددة، ومسالكَه متنوعة، أما النور فمصدرُه واحدٌ، هو ربُّ العالمين.

كما خطَّ النَّبِيُّ ﷺ خطوطًا كثيرة وقال: ما من طريق منها إلا وعليه شيطان يدعو له؛، والصراط المستقيم طريقٌ واحدٌ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

وفي خَلْقِ الظلمات والنور دلالةٌ على عظمة الله تعالى، واستحقاقه للعبادة دون سواه، فلا يجوز لأحدٍ أن يشرك بالله غيرَه، ومع هذا الوضوح التام فإن الكافرين يُشركون بالله تعالى ويسوُّون معه غيرَه، ويُسيئون إليه سبحانه؛ فيعبدون معه غيرَه.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة: أن الله تعالى خلق السموات قبل الأرض، والظلمة قبل النور، والجنة قبل النار.

فتقديمُ السموات والظلمات مراعاة للترتيب في الوجود، وجُمعت السموات؛ لأنها عوالِمُ كثيرة؛ فمنها الكواكب السبعة المشهورة، وكلُّ كوكبٍ عالَمٌ مستقلٌّ، وأُفردت الأرض؛ لأنها عالَمٌ واحدٌ.

وخَصَّ القرآنُ بالذكر: الظلمات والنور؛ لأن الناس جميعًا يستوون في إدراكهما والشعور بهما.

وذِكْرُ هذه الأربع: السموات والأرض، والظلمات والنور، يُشير إلى جنس جميع المخلوقات من جواهر وأعراض، والكفر يشبه الظلمة، والإيمان يشبه النور.

وفي هذا إبطالٌ لعقائد الكُفَّار من مشركين وصابئة ومجوس ونَصَارَى، فكلهم قد أثبتوا

آلهةً من الأرض، والصابئة أثبتوا آلهةً من الكواكب السماوية، والنَّصَارَى أثبتوا إلهية عيسى، أو عيسى وأمه، وهما من الموجودات الأرضية، والمجوس وهم المانَوِية ألَّهوا النور والظلمة؛ فالنور إله الخير، والظلمة إله الشر عندهم، فأخبر الله تعالى الجميعَ أنه خالقُ السموات والأرض بما فيهن، وخالق الظلمات والنور، فهو المستحقُّ للعبادة دون سواه[1].

والظلمةُ تكون حِسِّيَّةً كظلام الليل، وتكون معنويَّةً كظلمة الشرك والكفر والنفاق، والكفر يشبه الظلمة؛ لأنه انغماسٌ في الجهل والحيرة، والإيمان يشبه النور؛ لأنه ظهورٌ ووضوحٌ للحق والهُدَى، والظلمة متنوعةٌ بتنوع أسبابها؛ فهناك ظلمة الليل، وظلمة السجون، وظلمة القبور، وظلمة الغمام، وكلها ظلمات حِسية، وهناك ظلمة الانحراف، وظلمة الجهل، وظلمة الأهواء والشهوات وطمس القلوب.

والمعنى: الحمدُ والثَّنَاءُ كلُّه لله تعالى، الذي أنشأ هذه العوالِم العُلْوية والسفلية، وأَوْجَدَ ما فيها من مخلوقاتٍ ناطقةٍ وصامتةٍ، وظاهرةٍ وخفيَّةٍ، وأنشأ الظلمات والنور بتعاقب الليل والنهار، واختلاف الأحوال، وتقلب الأمور ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ عن عبادته إلى عبادة غيره؛ أي: يعدلون عن التوحيد إلى الإشراك بالله ﷻ، مع الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة على وجوب توحيده سبحانه.

والعدل: مساواةُ الشيء بالشيء، فهم يجعلون لله عديلًا ومماثلًا من خَلْقِه؛ فيعبدون الحجارة وغيرها، مع إقرارهم أنه سبحانه خَالقُ السموات والأرض.

قَضِيَّةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٢- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾

قضية البعث والحساب والجزاء يوم القيامة تُشير إليها هذه الآية على وجه الإجمال، وهي دليلٌ آخر على أن الله تعالى هو المستحقُّ للعبادة، وهو سبحانه المستحقُّ للحمد كلِّه، وفيها بيان أن القيامة حقٌّ.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ خطابٌ إلى بني آدم جميعًا؛ أي: خُلِقَ أبوكم

(١) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٧/ ١٢٧).

آدم من طين، وأنتم أبناؤه خُلقتم من النُّطفة، والنطفة تَرجع إلى الطين، فهي من الغذاء، والغذاء من النبات، وهو من الطين.

وفي مراحل خلق الإنسان من طين ثم من نطفة يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون].

وهذا الإنسان المخلوق من الطين، جعله الله بشرًا سويًّا مفكرًا حُرًّا مُخْتَارًا، وفي هذا أعظمُ دليلٍ على أن القادر على الخَلْقِ الأوَّلِ قادرٌ -من باب أَوْلَى- على الخَلْقِ الثاني ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق]

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه]

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الروم: ٤٠].

فالله تعالى قدَّرَ لعباده أجَلَيْنِ: أجلًا تنتهي عنده أعمارُهم، وهو مدة إقامتكم في هذه الحياة، تتمتعون وتُبتلَوْن بما تأتي به الرسل ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] ويعمركم في الدنيا مدة يتذكر فيها من تذكر، ويَعتبر فيها من يَعتبر.

وأجلًا آخر يَمتدُّ من وقت موتِهم إلى انتهاء عمر الدنيا، وقد وَصَفَ الله تعالى الأجل الثاني بأنه مُسمى عنده؛ أي: معلوم عند الله تعالى؛ لأن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله، وهذا الأجل هو الدار الآخرة التي ينتقل العباد إليها من هذه الدنيا، فيجازيهم بأعمالهم وأقوالهم من خير وشر.

قيل: إن المشركين لمَّا أنكروا البعث، وقالوا: مَن يُحيي العظام وهي رميم؟ أعلمهم الله بهذه الآية أنه خلقهم من طين، وهو القادر على إعادة خلقهم وبعثهم بعد الموت.

عن أبي موسى الأشعري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله تعالى خَلَقَ آدم من قبضةٍ قبضها من جميعِ الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر**

والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحَزْنُ، والخبيث والطيب»[١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾ أي: كتب وقدَّر ﴿أَجَلًا﴾ هو أجلُ الإنسان المحدود في هذه الدنيا، وهو أجلٌ تَعرفون مدَّتَهُ بموتِ صاحبِه ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ هو الأجلُ الذي تنتهي فيه هذه الدنيا يوم البعث، ولا يعلمه إلا ربُّ العالمين، فالأجل الأول هو عُمر الإنسان، والأجل الثاني هو يوم القيامة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكون وترتابون في هذا اليوم، وفي وعد الله ووعيده، ولا تعتقدون فيه قُدرة الله تعالى على البعث والنشور والحساب والجزاء.

ويُشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام].

والنتيجة الحتمية: أن الله تعالى هو المعبود في الأرض والسماء، وهو صاحب السلطان المطلق في الكون.

اللهُ تَعَالَى هُوَ صَاحِبُ السُّلْطَانِ الْمُطْلَقِ فِي الْكَوْنِ

٣- ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

وبعد أن بيَّنَتِ السورة أن الله تعالى هو خالق هذا الكون -ممثَّلًا في السموات والأرض، والليل والنهار، وهو خالق هذا الإنسان- بيَّنت أنه سبحانه المعبود في الأرض وفي السماء؛ يعبده أهل السموات وأهل الأرض، لأنه سبحانه مالكُ السموات والأرض، ومدبرُ الأمرِ في هذا الكون، فهو سبحانه الخالق الرازق، المحيي المميت، المحيط علمًا بجميع الكائنات، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ﴾ [الزخرف: ٨٤] فهو سبحانه صاحبُ السلطان المطلق في هذا الكون؛ لأنه المتفرد بالإلهية؛ إذ لا خالق غيره، ولا يعلم السرَّ والنجوى إلا هو، فاحذروا معاصيه، وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه وتُدْنيكم من رحمته، وابتعدوا عن كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

فالآية الثالثة تُقرِّرُ ما في الآيتين قبلها، وتُضيف أنه جل شأنه لا يَخْفَى عليه شيءٌ في

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣١٤٣) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٥٥) و«مشكاة المصابيح» (١٠٠) و«السلسلة الصحيحة» (١٦٣٠) و«المسند» (١٩٥٨٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات، (محققوه) وأخرجه الطبري في التفسير (٦٤٥) وأبو داود (٤٦٩٣).

الأرض ولا في السماء، فهو يُحيط علمًا بالسرِّ والجهر، وبكلِّ ما يكسبه الإنسانُ من خيرٍ أو شرٍّ، فالله سبحانه خالقُ العالم العلوي، وخالق العالم السُّفلي.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وهو جل شأنه المعبودُ بحقٍّ في السموات وفي الأرض، ومن دلائل وحدانيته أنه ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي: يعلم جميعَ ما تُخفونه وما تُعلنونه، ويَعلم ما تكسبون من أعمالِ القلوب، ومن أعمالِ الجوارح، والكلُّ خاضعٌ لله تعالى، مُؤتَمِرٌ بأمره، وسوف يُحاسبكم ويُجازيكم على ما قدمتْ أيديكم، وسرُّ الناس وجهرُهم وكسبُهم حاصلٌ في الأرض دون السماء.

مِنْ عَوَاقِبِ الْمُكَذِّبِينَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ

٤- ﴿وَمَا تَأْتِيهِم[1] مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾

وبعد تقريرِ حقيقةِ الوجودِ الإلهيِّ، ووجوب تفرُّدِه تعالى بالعبادة، وبيان أن جميعَ مَن في السموات والأرض يُقرُّون له بالألوهية، ذَكَرَ سبحانه مَن خالف هذه القاعدة من أهل الشرك والضلال، وهم مَن جحدوا رسالاتِ الله تعالى، ولم يُصدِّقُوا بالمعجزات التي أيَّدَ الله بها رُسُلَه؛ حيث تشير الآية الرابعة إلى ما فصَّلتْه السورة بعد ذلك، وهو أن الرُّسُل والأنبياء أيَّدهم الله سبحانه بمعجزاتٍ دالَّةٍ على صِدْقِ دعواتِهم ورسالاتهم، ومن هذه المعجزات: القرآن الكريم، الذي نَزَلَ على محمدٍ ﷺ، وكذا المعجزات الكونية التي نزلت على الرُّسُل السابقين، ولكن الكُفَّار يُكذبون ويُعرضون ولا يُصدِّقُون بهذه المعجزات.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن إعراض المكذبين وشدة عداوتهم وأنهم لا تنفع فيهم الآيات ممَّا تضمنه هذا القرآن الذي نَزَلَ على رسولِ الله ﷺ كانشقاق القمر، أو من المعجزات الأخرى التي أيَّد الله بها رسلَه في مختلَف الأزمنة والأمكنة ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فهؤلاء الكُفَّار قد جاءَتْهم الحُجَجُ الواضحةُ والدِّلالات البيِّنة على وحدانيَّةِ الله تعالى، وعلى صِدْقِ محمدٍ ﷺ فيما جاء به من عند الله تعالى، ولكنهم أعرضوا عن قَبولها ولم يُؤمنوا. قال تعالى:

---

(١) أبدل همزة (تأتيهم) ألفًا ورش، وأبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر، وعند الوقف حمزة، وضم الهاء يعقوب، ومثلها (يأتيهم) في الآية التالية.

٥- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ[١] ﴿٥﴾﴾

وحين يكون الإعراض مُتعمدًا مع توافر الأدلة؛ فإن التهديد بالبطش يُحدث هزةً تفتح نوافذ الفطرة، لقد جَحَدَ هؤلاء الكُفَّار الحقَّ الذي جاءهم به محمدٌ ﷺ، وسَخِرُوا من دعوته، واغتروا بإمهال الله تعالى إيَّاهم، بعد أن كذَّبُوا بالحقِّ وأعرضوا عنه، فسوف يَرَوْنَ أن ما استهزؤوا به هو الحقُّ، وسيحلُّ بهم عذابُ الله إنْ عاجلًا أو آجلًا، فأحوالهم كما ذَكَرت هذه الآية والتي قبلها على **ثلاث** مراتب:

١- كونهم معرضين. ٢- كونهم مكذبين. ٣- كونهم مستهزئين.

وقد وصف الله تعالى هذا الصِّنْفَ من البشر المعرِض عن آيات الله المستهزئ بها بقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر] لقد استهزؤوا بالرُّسُل، واستهزؤوا بما جاؤوا به من الوعد والوعيد والجنة والنار، وقد بيَّن الله تعالى سوءَ عاقبتهم بخلودهم في النار يوم لقائه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الجاثية].

وقد توعَّد الله تعالى مَن استهزأ به، أو استهزأ برسوله ﷺ، أو استهزأ بشيء ممَّا جاء به رسولُ الله ﷺ بالعذاب الشديد يوم لقاء الله، وحَكَم عليهم بالكفر، حتى ولو كان ذلك من باب المزاح والضحك، قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

ولا يجوز للمسلم أن يُجالس قومًا يسخرون من الإسلام، ويأكلون لحوم العلماء، فضلًا عن أن يطعنوا في شيء من القرآن أو السنة، إلا إذا كان ينهاهم عمَّا هم فيه من باطل ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام]

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

---

(١) وقف حمزة على (يستهزئون) بحذف الهمزة وضم الزاي، والتسهيل بين بين، وإبدالها ياء خالصة.

الاعْتِبَارُ بِمَا حَلَّ بِالأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِ اللهِ

٦- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا[1] مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾

والقرآنُ سيقصُّ علينا ما حَاقَ بالأمم التي كَذَّبَتْ رسلَها، وجحدت وحدانيةَ الله تعالى، من هلاك ودمار، مع ما أعطاهم اللهُ من القوَّةِ والمُلك والتمكين في الأرض.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم يعلم هؤلاء المكذبون ما حلَّ بالأمم التي سَبَقَتْ قبلهم فيعتبروا بهم؟ وهم كثرة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: كثيرًا ما أهلكنا أُمَمًا كانوا أعتى منهم وأشدَّ قوة، وأكثرَ جاهًا وعددًا وعتادًا.

والقرن: هو الجيل من الزمن، ويُقدَّرُ بمئة عام على الأصح.

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوامٌ تَسبق شهادةُ أحدهم يمينَه، ويمينُه شهادتَه**»[2].

وهؤلاء الأقوام ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: أعطيناهم من أسبابِ التَّمكِينِ والقوَّةِ الماديَّةِ، ومنحناهم من أسباب السعادة والعيش ما لم نُعْطِكم ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: أنزلنا عليهم المطرَ غزيرًا متتابعًا، وهيأنا لهم أسبابَ سعي الأرزاق، ورغَد العيش، والنِّعَم الكثيرة ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: وفجَّرْنَا لهم ينابيعَ الأرضِ تَجري تحت مساكنهم؛ فعاشوا بين الأنهار والثمار عيشةً خصبةً رغيدةً، ولم يشكروا الله على نعمه، فأقبلوا على شهواتهم وملذاتهم، فجاءتهم رسلهم بالبينات فلم يصدقوها، ولمَّا كذَّبُوا الرُّسُل أهلكناهم بذنوبهم.

فالذنوب تهلك أهلها، وتُقوِّض دعائم الأمم؛ بسبب الترف والغرور والفساد، والله تعالى يهلكها عقابًا لها، ولمَّا كذَّبُوا رسلَ الله دمَّرهم الله سبحانه؛ فأبادهم وأتى على خبرهم، وذهبوا كما ذهب الأمس، وصاروا أحاديثَ للناس، بعد أن مزَّقَهم الله كلَّ ممزق.

---

(١) أبدل همزة (وأنشأنا) الثانية ألفًا أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، وكذا حمزة وقفًا.

(٢) البخاري (٥/ ١٩١) برقم (٢٦٥١، ٦٦٩٥) ومسلم (٤/ ١٩٦٣، ٢٥٣٥) عن عبد الله بن مسعود.

﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ وهذه سنة الله في السابقين واللاحقين، أي: أَوْجَدْنا بعدَهم أُمَمًا أُخرى خلَفوهم في عمارة الأرض، كما حدث لقوم عاد وثمود ولوط، فاعتبروا واتعظوا، واحذروا أيها المخاطبون أن يُصيبكم ما أصابهم، فلستم أعزَّ على الله منهم ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقد وصف الله تعالى مَنْ أهلَكَهم من الأمم السابقة؛ بسبب تكذيبهم رسل الله تعالى، واقترافهم المعاصي والذنوب **بثلاثة أوصاف** لم يتمتع بها مَنْ بعدَهم من الأمم:

١- فقد وَصَفَهم الله تعالى بأنهم أقوى مُلْكًا، وأوسع سلطانًا، وأكثر عُمرانًا، وأعظم استقرارًا، وهذا معنى ﴿مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ فأعطيناهم المال والبنين ووسائل الرفاهية وألوان المُتع.

٢- ووصفهم الله تعالى بأنهم أرغد عيشًا، وأسعد حالًا، وأهنأ بالًا، وأكثر رزقًا، وهذا معنى ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾، فأنبت الله لهم الزروع والثمار، يتمتعون بها ويتناولون منها ما يشتهون، ولكنهم لم يشكروا الله على نعمه.

٣- ووصفهم سبحانه بأنهم كانوا مُنَعَّمِين بوفرة المياه، وكثرة الأشجار والثمار، تسير معهم حيث كانوا، فيشيِّدون المساكن على ضفافها، ويَعيشون بين الثمار والأنهار، ويَتمتعون بمناظرها الخلَّابة، وهذا معنى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾.

وعقابُ الله تعالى لهذه الأمم كان بسبب ذنوبهم وتكذيبهم رسل الله، وإعراضهم عن آيات الله تعالى واستهزائهم بها.

مِنْ مُقْتَرَحَاتِ الْمُكَذِّبِينَ لِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ

٧- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ[1] فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

ثم يُصَوِّرُ القرآنُ طبيعةَ النفس العنيدة المكابرة، فالحقُّ يخْرق عينَها، ولكنها لا تراه، وقد أخبر الله رسوله في هذه الآية أن سبب شدة عناد المكذبين هو الظلم والبغي وليس شيئًا آخر وهكذا كان مشركو مكة الذين قالوا للنَّبي ﷺ: نريد أن تأتيَ لنا بكتاب من عند الله، معه أربعة من الملائكة، يَشهدون عليه أنك رسولُ الله، ويَشهدون لهذا الكتاب الذي

(١) أجمع القراء على تفخيم راء (قرطاس)؛ لوقوع حرف الاستعلاء بعدها في كلمة واحدة.

معك أنَّه من عند الله، واللهُ سبحانه يجيبهم في قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ أي: مكتوب في الورق والصحف، وقد نَزَلَ هذا الكتاب من السماء جملةً واحدةً ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: عاينوه وتيقنوه بأعينهم، ولمسوه بحسهم وأيديهم، لو فعلنا ذلك كما طلبوا ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ظلمًا وعدوانًا ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ كما حدث في انشقاق القمر، فها هو قولهم الشنيع في هذه البينة العظيمة، حيث أنكروا المحسوس الذي لا يمكن إنكاره.

وهكذا كلُّ كافرٍ معاندٍ، كما قال تعالى في الأمم السابقة: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

وكما قال جل شأنه: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام].

ويصدُق على هذه الآية اقتراحُ عبد الله بن أبي أمية، وتعنُّته حين قال للنبي ﷺ: لا أومن بك حتى تصعدَ إلى السماء، ثم تنزل منها بكتابٍ فيه: من رب العزة إلى عبد الله بن أبي أمية، يأمرني بتصديقك، وما أراني مع هذا كنتُ أصدقك، ثم أسلم عبد الله بعد هذا، ومات شهيدًا في الطائف[1].

وهذا المعنى كان ضمن اقتراح من مقترحات المشركين على النَّبي ﷺ، وأنهم لن يؤمنوا به حتى يُحققَّها لهم، فكان منها ما ذكره ربُّ العالمين على لسانهم: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقد بيَّن سبحانه أن صاحبَ الفطرةِ المنحرفةِ لن يُؤمن بالرسول الخاتَم مهما كان الحقُّ واضحًا، والحُجَّةُ ساطعةً، كما قال تعالى في وصف الكافرين: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور].

فالمكذِّبون بالرسالة لا يَنقصهم الدليل على صِدْقِ محمدٍ ﷺ، وإنما الذي ينقصهم هو الاستجابةُ للحقِّ، وتَرْكُ التقليد والمكابرة؛ لأن العناد لا تُجدي معه معجزةٌ، ولا ينفع معه دليلٌ.

وإذا كان الكُفَّار الأوائل وصفوا القرآن بأنه سحر مبين، فإن كفار اليوم يَصِفُونه بأنه غير ملائمٍ للعصر، ويَشتركون مع مَن سبقهم في وَصْفِه بأنه أساطير الأولين، فالأوصافُ

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٦٩).

تتعدد، وكلُّها كُفْرٌ وجَهْلٌ فَاضِحٌ. قال تعالى:

٨- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ بعضَ مقترحاتِ المكذبين لخاتَم النبيين ﷺ، وبيَّن ما يترتب على هذا الاقتراح من هلاكهم واستئصالهم إن لم يؤمنوا، كما حَدَثَ للأمم قبلهم، فقد اقترح المشركون على رسولِ الله ﷺ أن يُؤيِّدَه الله بالملائكة ﴿وَقَالُوا﴾ على وجه التعنت والمكابرة ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يَشهد بنبوته فيعاونه ويُؤيده ويساعده، ونراه بأعيننا يصدقه في دعوته، فالأَوْلَى أن يكون مع الرسول الذي أُرْسِل إلينا مَلَك، قالوا ذلك من جهلهم بطبيعة الملائكة، فالملائكة خَلْقٌ آخر، خُلق من نورٍ، والإنسان لا يستطيع رؤيتهم؛ لأنه إذا رأى الملَك يُصعَق ويُغشَى عليه.

والنَّبِيُّ ﷺ رأى جبريلَ على صُورته الحقيقية مرتين، أول مرة حين نزل عليه الوَحْي، رآه بست مئة جَنَاحٍ، وقد سدَّ الأفقَ، فأخذتِ النَّبِيَّ عليه الصلاة والسلام رعشةٌ شديدةٌ، مع ما أعطاه الله من قُوَّةٍ خاصة، وإعداد معيَّن لتلقي الوَحْي، ومع ذلك فقد ذهب إلى أهله يَرْجُفُ فؤادُه ويقول: زملوني زملوني؛ أو دثروني دثروني؛، وذلك ممَّا لَحِقَ به من رؤية الملَك، فالطبيعةُ البشريَّةُ لا تَقْوَى على رؤية الملَك.

ولذلك فإن الله سبحانه كان يُرسل جبريلَ ﷺ إلى النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام في صورة رجلٍ من أصحابه، حَسن الهيئة والمنظر، يقال له: دحية الكلبي، فكان الوَحْيُ ينزل في صورة إنسان.

والملَكان اللذان أرسلهما الله تعالى إلى داود ﷺ؛ كي يحتكمان إليه في الخصومة بينهما، نزَلا في صورة رجلين.

والملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام، كانوا في صورة رجال؛ لأن البشرَ ليس في استطاعتهم رؤيةُ الملائكة، يقول جل شأنه: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ كما اقترحوا ثم كفروا به بعد أن عاينوه ﴿لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ووَجَبَ إهلاكُهم وعدمُ إنظارهم ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: لو أجبناهم إلى ما طلبوا واقترحوا فأنزلنا عليهم الملَك، ثم كذَّبوا؛ فإن الله سبحانه سيهلكهم عن آخرهم، كما فعل ذلك بالأمم السابقة، ومعنى لقضي الأمر أي: أنهم لا يُمهلون طَرْفَةَ عَيْنٍ، بل يُعجَّل لهم العذاب.

وقد قرَّرَ اللهُ سبحانه هذا المعنى في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ [الحجر] وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٢٢﴾ [الفرقان] وقد عَلِمَ الله تعالى أنهم لن يُؤمنوا كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام].

فمِن رَحمة الله بهم عدم إجابة مَطْلَبِهِمْ، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ [الإسراء]

أي: لا يستطيع الملَك أن يكونَ في وسط الإنس، يَعيش معهم ويَمشي بينهم؛ لأنه مخلوقٌ من جِنْسٍ آخر، فالطبيعةُ بينهما مختلفة؛ ولذلك فإنه لما كان يوم بدرٍ، وأيَّد اللهُ المؤمنين بالملائكة، صَعدَ رَجُلان على الجبل ليريا ما يكون في حرب النَّبي ﷺ مع المشركين؛ فسمعا صوتَ الملائكة، يقول أحدهما للآخر: أَقْدِمْ حيزوم (اسم فرس الملَك) فمات أحدُ الرجلين مِن هَوْلِ ما رأى، فكيف برؤية الملَك على خِلْقَتِهِ؟[1].

فلو أُنزل عليهم ملَك، وأُرسل لهم هذا الملَك، لم يُطيقوا التلقِّي عنه، ولا احتملوا رؤيته، ولا طاقتْه قواهم، فطلبهم إنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون.

ولو أن الله تعالى أرسل ملائكةً للبشر؛ لَمَا أمهلوا أهلَ الضلال والفساد، ولناجزُوهم العذابَ جزاءَ تكذيبهم وإعراضهم، فيكون اقتراحُهم بنزول الملائكة سببًا لوقوع الضَّرَرِ بهم من حيث لا يشعرون.

قال ابن إسحاق: دعا رسول الله ﷺ قومَه إلى الإسلام، وكلَّمهم فأبلغ إليهم، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعبد بن يغوث، وأبيُّ بن خلف بن وهب، والعاص بن وائل بن هشام: لو جُعل معك - أيها الرسول - ملَكٌ يحدِّثُ عنك الناس ويروي معك؛ فأنزل الله الآية[2].

فهم لا يُريدون ملَكًا لا يرَوْنَه، وإنما يُريدون ملَكًا يَمشي معه، ويشاهدونه بأعينهم، وقد ردَّ الله عليهم بِرَدَّيْنِ:

(١) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٧٠).

(٢) ابن أبي حاتم (٧١٢٠).

أحدهما: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: ولو أنزل الله عليهم الملَك، وهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي؛ لجاءهم من الله العذابُ من غير إمهال ولا إنظار، وهم يريدون من هذا الملَك أن يُشارك الرسول ﷺ في تبليغ الدَّعْوَةِ، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان]. **وثانيهما**:

٩- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ[1] مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ[1] رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾

أي: لو جعلنا الرسولَ الذي أُرسل إليهم ملَكًا؛ لجعلناه في صورةِ رجلٍ؛ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك، لعدم مقدرتهم على رؤية الملَك، وليتمكنوا من رؤية مَن يبلِّغهم عن الله تعالى، ومن سماع كلامه الذي يُبلِّغه عن ربِّ العالمين؛ لأن كلَّ جنسٍ يَألَفُ جِنْسَهُ، وينفر من غير جِنْسِهِ، ولو أنزل الله إليهم الملَك في صورةِ رجلٍ؛ لكانت النتيجةُ واحدةً، ولاختلط الأمرُ والتبس عليهم؛ فظنوه بشرًا وشكُّوا في كونه ملَكًا وكذَّبوه.

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ فكما قالوا عن النَّبِيِّ ﷺ إنه بشرٌ، فسيقولون عن الملَك أيضًا إنه بشر، فتعود المسألة كما هي، ولو كان الرسول ملَكًا ونظروا إليه لَصُعِقوا عند رؤيته وغُشِي عليهم، ولذا كان الأنبياء بشرًا ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣] وقد صرَّح المشركون بطلب نزولِ الملَكِ عليهم في قوله تعالى يَحكي قولَهم: ﴿قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤].

وبهذين الجوابين يكون القرآنُ قد دحض شبهات المكذبين لخاتَم النبيين ﷺ، وتَبيَّنَ أن السببَ في كُفرِهم، هو اللَّجاجُ والعناد، وأنهم ما أرادوا إلا التعجيز والاستهزاء.

ثم أخذ القرآنُ في التخفيف عن الرسول ﷺ ممَّا أصابه من قومه:

١٠- ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ[2] بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

قال ابن إسحاق: مرَّ رسولُ الله ﷺ -فيما بلغني- بالوليد بن المغيرة، وأميَّة بن خلف،

(١) وصل ابن كثير الهاء في (جعلناه) و(لجعلناه) بحرف مد، وقصَرها سائر القراء.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب وعاصم وحمزة بكسر الدال من (ولقد استهزئ) حالة الوصل؛ للتخلص من التقاء الساكنين، وقرأ الباقون بضمها، وأبدل أبو جعفر الهمزة ياء.

وأبي جهل بن هشام، فهمزوه واستهزؤوا به، فغاظه ذلك؛ فأنزل الله الآية[1].

يقول سبحانه مسلِّيًا رسولَه ﷺ ومقوِّيًا له على مُحاجة المشركين، ومخبرًا له بما نَزَلَ بالمكذِّبين قبله، ومتوعدًا كلَّ مَن كذَّب رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة، يقول له: لا تحزن، فإن هذا مِن شأن الدعاة إلى الحقِّ في كلِّ زمان، ولقد أُوذي مَنْ قبلك فصبروا؛ وكانت العاقبة لهم.

والاستهزاء بالرُّسُلِ أمرٌ قديمٌ، فلا تحزن - أيها الرسول - لأن المكذبين طلبوا منك رسولًا من الملائكة، يُصدقك، على وجه الاستهزاء، فلك أُسوة في الأنبياء قبلك، وقد أحاط العذاب بمَن استهزأ برسل الله جميعًا، فاحذروا أن يَحلَّ بكم - أيها المكذبون - ما حلَّ بهم.

دَعْوَةٌ إِلَى السِّيَاحَةِ وَالاعْتِبَارِ

١١- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

قل - أيها الرسول - لهؤلاء المستهزئين المكذبين: إن شككتم أو ارتبتم فيما نزل بالأمم المكذبة لرسل الله ، فسيروا في الأرض معتبرين، ومتفكرين، وسيحوا فيها؛ لِتَرَوْا بأعينكم آثارَ الأمم الخالية، وما لَحِق بهم من الخزي والهلاك ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وانظروا يمينًا، وشمالًا، وشرقًا، وغربًا.

ففي الشمال توجد آثارُ قومِ صالح، فانظروا كيف أَتَى الله عليهم حين كذَّبوا رسولهم. وفي الجنوب توجد آثار قوم هود، فتأملوا كيف أهلكهم الله تعالى. وهكذا قوم لوط ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وغيرهم وغيرهم. فاعتبروا يا أولي الألباب، واحذورا أن يصيبَكم ما أصابهم، وتأملوا كيف نَجَّى الله أولياءه من الهلاك في الدنيا، فضلًا عمَّا ينتظركم من العذاب في الآخرة.

وقد فصَّل اللهُ سبحانه في كثيرٍ من آياته صنوفَ العذاب التي لحقت بهذه الأمم، وبيَّن نوعيَّة العذاب الذي لحق بكل منهم:

١- فقد سَخِرَ قومُ نوح منه، وهو يصنع السفينة، وقالوا له: بعد أن كنتَ نبيًّا صِرْتَ نجارًا؟

---

(١) ابن أبي حاتم (٧١٣٧).

فتوعَّدهم الله تعالى بالعذاب في قوله: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود]

فكان العذاب الذي أتى عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

٢- واستهزأ قومُ عاد بنبيِّهم هودًا؛ حيث قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] فكان هلاكُهم كما ذكر ربُّ العالمين ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة].

٣- وقال قوم صالح له: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] فكانت عقوبتُهم كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات].

٤- واستهزأ قوم لوط بنبيهم ﷺ؛ فقالوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] و﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء] وقد جاء عذابُهم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

٥- واستهزأ قومُ شعيب بنبيهم ﷺ؛ فقالوا له: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]

فكانت النتيجة أن أخذت ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ﴾ [هود].

وهكذا كل أمة كذَّبت رسولها، وسَخِرَتْ منه؛ عذَّبها الله في الدنيا، مع ما ينتظرها من العذاب المهين في الآخرة ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ﴾ [هود]

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

شُمُولُ مُلْكِ اللهِ تَعَالَى لِجَمِيعِ الأَمْكِنَةِ

١٢- ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا(١) رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثم يأمر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يُواجه المشركين في كل عصر ومصر، بما لا يقرون به؛ من الاعتراف بوجود الخالق سبحانه، لِيُرَتِّبَ عليه وجوب إفراده تعالى بالعبادة.

وسورة الأنعام تتحدث عن تصحيح العقيدة، وتوحيد الألوهية، وتقرر ذلك في **أسلوبين**:

أحدهما: أسلوب التقرير: الذي جاء بكثرة بلفظ (هو)، في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [٣] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [١٨] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [٦٠] فهذا يُسمَّى بلاغيًّا: أسلوب التقرير.

وثانيهما: أسلوب التلقين: بمعنى أن الله سبحانه يأمر رسولَه أن يسألهم، ثم يلقنه ويلقن الأمة الحُجَّةَ والجواب، وجاء هذا بلفظ (قل)، في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [١٩].

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [٦٥].

ومن ذلك ست آيات في هذا المقطع من السورة، وأولها هذه الآية: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ من إنسٍ، وجنٍّ، وحيوانٍ، ونباتٍ، وجبالٍ، وبحارٍ، وغير ذلك.

قل لهم - أيها الرسول - يا أيها العادلون عن عبادة ربكم إلى عبادة غيره، إنه الله الخالق الرازق لكم، فكيف تساوون به غيره وهو مالك هذا الكون بما فيه؟ والمقصود بالاستفهام هو التبكيت والتنبيه على ضلالهم لعلهم يتوبوا.

وهذه أوَّلُ آيةٍ في هذا الأسلوب الذي يُقرِّر توحيد الألوهية بأسلوب التلقين، قل لهم يا محمد: لمَن هذا المُلْك من كل ما في السموات وما في الأرض؟ علِّمهم الإجابة ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ كما تقرون أنتم بذلك وتعلمون ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان: ٢٥] ومادمتم معترفين بأن الخالق الرازق هو الله؛ فإنكم بهذا تكونون قد

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد (لا) أربع حركات للمبالغة، والباقون بالقصر، وهو الوجه الثاني لحمزة.

أقمتم الحُجَّةَ على أنفسكم بالبرهان القطعي؛ لأن الجواب قد بَلَغَ في الظهور بحيث لا يُنكره مُنكِرٌ، فَغَيْرُ الله تعالى ليس أَهْلًا للألوهية، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئًا.

ومن جهة أخرى؛ فإن الكُفَّار يستعجلون نزول العذاب بهم، ويقولون: لو كان ما تقولون حقًّا لعجَّل لنا العذاب، والمؤمنون يستبطئون تأخيرَ عقابهم؛ فبيَّن ﷻ لكِلَا الفريقين أنه واسع الرحمة، وهذا الإمهال لهم لونٌ من الرحمة بهم.

ثم إن الله تعالى رَفَعَ عن هذه الأمة عذابَ الاستئصال، الذي كان يحدث في الأمم السابقة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال] لأن الله تعالى أراد أن يكون هذا الدين خاتم الشرائع، فكان من الحكمة إمهالُ المعاندين والجاحدين؛ لأن الله تعالى لو استأصلهم لأتى على أهل مكة، ونحن نرى في الواقع أن كلمة الإسلام انتشرت في الآفاق، وخرج مِن ظهورهم مَن يُوحِّدُ الله تعالى، ومَن كان منهم عدوًّا للإسلام بالأمس، أصبح من أقوى المدافعين عنه فيما بعد.

وشأن المَلِك أن يكون جبارًا شديدًا قويًّا، ولكن الله سبحانه لا يعاملكم معاملة الجبروت، وإنما يعاملكم بمقتضى الرحمة، فهو سبحانه ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وألْزَمَ نفسه بها تَفَضُّلًا منه وإحسانًا، فكتب على نفسه كتابًا، أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب من المنع، وأنه قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا أبوابها بذنوبهم ومعاصيهم.

وقد جاء ذِكْرُ الرحمة في الآية مُعْتَرَضًا؛ حيث أمَرَ الله تعالى بها رسولَه ﷺ أن يُذكِّرَهم بها في هذا الموقف؛ كي يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا عمَّا هم فيه من كُفْرٍ وضلالٍ.

١- جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**إن الله لمَّا خلَق الخَلْقَ كتب كتابًا عنده فوق العرش: إن رحمتي تَغْلِبُ غضبي**»[1].

٢- وعنه ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**جعل الله الرحمة مئةَ جزءٍ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق،**

(١) «صحيح البخاري» (١٣/ ٣٨٤) برقم (٧٤٠٤، ٧٥٥٤) ومسلم (٤/ ٢١٠٧) برقم (٢٧٥١) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة بنحوه، وعبد الرزاق (١/ ٢٠٥) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٨٠) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٨٠٨).

حتى ترفع الدَّابةُ حافرها عن ولدها خشيةَ أن تصيبه».

زاد البخاري في رواية له: **«ولو يعلم الكافر بكلِّ الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكلِّ الذي عند الله من العذاب لم يَأْمَن العذاب»**(١).

٣- وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوَحْشُ على ولدها، وأخر الله تسعة وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»**(٢).

٤- وعن سلمان الفارسي ﷺ عن النَّبِي ﷺ قال: **«إن الله خَلَقَ يوم خَلَقَ السموات والأرض مئة رحمة، منها رحمة يتراحم بها الخلق، وتسعة وتسعون ليوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»**(٣).

٥- وفي الصحيحين عن عمر ﷺ قال: قَدِمَ عَلَى رسول الله ﷺ سَبْيٌ، فإذا امرأة من السَّبْي تبتغي؛ -أي: تطلب وتبحث- إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذتْه فألصقتْه ببطنها وأرضعتْه، فقال لنا رسول الله ﷺ: **«أترون هذه المرأة طارحةً ولدَها في النَّار؟»** قلنا: لا والله، وهي تقدر على ألَّا تطرحه، فقال ﷺ: **«لله أرحم بعباده من هذه بولدها»**(٤).

وهذه الرحمة كَتَبَها الله تعالى على نفسه فضلًا منه ومِنَّةً على عباده، فهو سبحانه المالك لهذا الكون، لا يُنازعه مُنازعٌ، ولا يَقترح عليه مُقترحٌ، بل كلُّ ما يَجري في الكون إنما هو بمحض إرادته، ومطلق مَشِيئته.

والرحمة خُلُقٌ قرآنيٌّ حثَّ عليه رسولُ الله ﷺ أمَّتَه أن يتخلقوا به. ففي الحديث عن

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٠٠٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٩) وصحيح مسلم (٢٧٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥/٤٣٩) برقم (٢٣٧٢٠) ومسلم في التوبة (٢٠/٢٧٥٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين برقم (٢٧٥٣) والطبراني (٦١٢٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٣٧) وابن حبان (٦١٤٦).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٥٩٩٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٤) واللفظ له.

جرير بن عبد الله: «**لا يرحم الله من لا يرحم الناس**»[١].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قبَّل رسولُ الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرةً من الأولاد ما قبَّلتُ منهم أحدًا؛ فنظر إليه رسولُ الله ﷺ ثم قال: «**من لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ**»[٢].

وهذه الرحمة التي يَحثُّ عليها الإسلام لا تَختص بالإنسان وحده، بل تشمل كلَّ روح حيَّة، فتشمل الكلب والهِرَّة والنملة وغير ذلك.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتدَّ عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب يَلهَث، يأكل الثَّرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفَّه ماءً، ثم أمسكه بفِيه حتى رَقِيَ، فسقى الكلب؛ فشكر الله تعالى له، فغفر له**» قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «**في كل كبد رَطْبَةٍ أجرٌ**»[٣].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**قرصتْ نملةٌ نبيًّا من الأنبياء؛ فأمر بقرية النمل فأُحرقت؛ فأوحى الله تعالى إليه: أنْ قرصتْك نملة أحرقت أُمَّةً من الأمم تُسبِّحُ الله؟**»[٤].

فما أشقى مَن لم تسعْه هذه الرحمات التي تَفتح باب التوبة أمام الكافر والعاصي، ولا تُيَئِّسُ أحدًا من قَبول توبتِه.

ولمَّا كان الكُفَّار يُنكرون البعث والنشور؛ فقد أكَّد سبحانه على حتمية مجيئه كما نطقتْ به الآية.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يخلقْهم عبثًا، ولم يتركهم سُدًى، فهذه الدنيا ليست نهاية المطاف، وإنما خَلَقنا الله لغاية، فجعل لنا يومًا آخِرًا، يُوفَّى فيه كل إنسان جزاء ما

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذي، من حديث جرير بن عبد الله في «البخاري» برقم (٧٣٧٦) واللفظ له، وانظر (٦٠١٣) وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٣١٩).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٧) واللفظ له، ومسلم برقم (٢٣١٨).

(٣) أخرجه مالك والشيخان: البخاري برقم (١٧٣، ٦٠٠٩) ومسلم برقم (٢٢٤٤).

(٤) أخرجه الشيخان: البخاري برقم (٣٠١٩، ٣٣١٩) ومسلم برقم (٢٢٤١).

عمل في الدنيا، حتى لا يضيع كدح كادحٍ، ولا يتساوى مع تقصير مُقَصِّرٍ.

ومن هنا جاء هذا القسم في قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ فمن مظاهر الرحمة أنه سبحانه يُحاسبكم يوم القيامة، ويجمعكم في هذا اليوم، ويُعطيكم الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بسيئةٍ مثلها، ولن يَخسر في هذا اليوم إلا غير المؤمنين؛ فقد ظلموا أنفسهم فأوقعوها في سخط الله وأليم عقابه.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: أضاعوها بالكفر، وفرَّطُوا في جَنْبِ الله وهم في دنياهم، فهم من الهالكين يوم لقائه، إنها الخَسارة الحقيقية، فقد أضاعوا أنفسهم وفقدوها، كما يخسر التاجر رأسَ ماله، لقد خسروا كلَّ شيءٍ، ولم يكسبوا شيئًا؛ لأنهم عطَّلوا أجهزةَ الاستقبال فيهم وهم في الدنيا، ومنعوا استجابةَ الفطرة، ولم ينتفعوا بدعوةِ الرُّسُلِ، فليس لهم وَزْنٌ في الآخرة، ونصيبُهم فيها هو الجحيم، والعذاب الأليم.

ثم بيَّن سبحانه أن مَن انطمستْ بصيرتُه وأصرَّ على عدم الإيمان؛ فإن الإيمانَ لا يتسربُ إلى قلبه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن قلبه قد قسا، وتراكمت عليه الظلمات، فعدم الإيمان مُتسبِّبٌ عن عدم الانتفاع بالدَّعْوَةِ.

شُمُولُ مُلْكِ اللهِ تَعَالَى لِجَمِيعِ الأَزْمِنَةِ وَلِكُلِّ مَا سَكَنَ وَتَحَرَّكَ

١٣- ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾

وبعد أن قرَّر سبحانه مِلْكِيَّتَه لكلِّ الخَلْقِ في جميع الأمكنة، قرَّر سبحانه ملكيتَه لجميع الخلائق أيضًا في جميع الأزمنة، وذلك أنه تعالى بعد أن ذَكَرَ شمولَ مُلْكِه لكلِّ ما في هذا الكون، خَصَّ بالذِّكْرِ منها ما خَفِيَ واستتر، سواء في الليل أو النهار، فهو عَطْفٌ للخاص بعد العام؛ لبيان شمول مُلْكِه تعالى لِمَا ظهر للخلق وما خفي عنهم، وقد اشتملت هذه السورة على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقلي، ومن هذه الأدلة قوله تعالى:

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ والسكون من الثبوت والاستقرار، ويدخل فيه ما تحرَّك أيضًا، فهو سبحانه له ما سَكَنَ وما تحرك في هذا الكون، في الليل والنهار، وكل ما طَلَعَتْ عليه الشمسُ وغربت فهو من ساكني الليل والنهار؛ من إنسانٍ وحيوانٍ وطيرٍ ودوابٍّ ونباتٍ وجمادٍ وبحارٍ وأنهارٍ وغير ذلك في البرِّ والبحرِ، فجميعُ الموجودات مِلْكٌ لله

تعالى في كلِّ زمان ومكان، إنسها وجنّها وملائكتها. . الكل خلق الله، الكل عبد مسخر لله في جميع حركاته وسكناته، فالسكون هو استقرار الجسم في حيِّزٍ لا ينتقل عنه مدة، فهو ضد الحركة، والسكون من أسباب الاختفاء، والمختفي يَسْكُنُ ولا يَنْتَشِرُ.

وقد بيَّن سبحانه في هذه الآية أنه لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمال العباد، وهو محاسبُهم عليها يومَ القيامة ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد]

فالمستخفي بالليل هو ما خَفِيَ عن الأنظار، ويطَّلِعُ عليه ربُّ العالمين، ويَشْهَدُ لهذا المعنى أن ما يَتحرك في الكون أكثرُ ممَّا يَسْكن، ألا ترى إلى الفلك، والشمس، والقمر، والنجوم السابحة، والملائكة، وأنواع الحيوان.

وذَكَر الله الليل والنهار، لأنهما حاصران للزمان ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد على اختلاف اللغات وكثرة الحاجات، وهو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم، فيما كان وما يكون ومالم يكن، المطلع على الظواهر والبواطن، وهذا كالنتيجة للمقدَّمة.

تَوْبِيخ مَنْ يَعْبد غَيْرَ اللهِ تَعَالَى

١٤- ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ[1] أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾

وبعد أن تقرَّر أن الله سبحانه هو الخالق المالِك لهذا الكون، يأتي الإنكارُ والتوبيخُ لمَن يعبد غيرَ الله تعالى، ويوالي غيرَه؛ لأن هذا مناقضٌ لكونه خالقًا لكل ما سَكَنَ وما تحرك في هذا الكون.

وقد كان المشركون يداهنون النَّبِيَّ ﷺ ويلاينونه؛ ليجعل لآلهتهم مكانًا في دينه، مقابل أن يدخلوا معه في هذا الدِّين، وليتركَ لهم بعضَ خصائصِ الإلهية يُمارسونها في التحليل والتحريم وغيرهما، مقابل أن يَكفُّوا عن معارضته.

---

(١) فتح ياء الإضافة من (إني أمرت) نافع وأبو جعفر وصلًا، والباقون بإسكانها.

ذَكَرَ مقاتل أن كفار قريش قالوا: يا محمد، ألا ترجع إلى دين آبائك؟ فنزل قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[(١)].

وقد بيَّن ﷻ أنه وحده المستحقُّ للعبادة دون سواه لسببين:

السبب الأول: أنه سبحانه خالقُ هذا الكون بما فيه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعهما ومنشئهما.

والسبب الثاني: أنه سبحانه الرازقُ لخلقه، الغنيُّ عنهم غنًى مطلقًا ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، يرزق جميع خلقه من غير حاجة منه إليهم.

قل - يا محمدُ - لهؤلاء المشركين: أغير الله أتخذ معبودًا وناصرًا ومُعينًا، مِنْ هؤلاء المخلوقات العاجزة، وهو سبحانه الذي خَلَقَ الكون بما فيه؟

يقول ابن عباس ﷺ: كنتُ لا أدري ما معنى فاطر حتى اختصم أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا الذي فطرتُه؛ أي: أنا الذي ابتدأتُ هذه البئر وأنشأتُها[(٢)].

فعلم ابن عباس من الأعرابي أن (فاطر) بمعنى خالق وموجد ومبدع ومبتدئ ومنشئ.

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة، حتى يُعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه، إما شاكرًا وإما كفورًا**»[(٣)].

وهو سبحانه يَرْزُقُ ولا يُرْزَقُ، ومَن كان كذلك فهو غنيٌّ عن الخَلْقِ، وهم فقراء إليه؛ لأنه سبحانه الرازقُ لخَلْقِه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات].

عن أبي هريرة ﷺ قال: دعا رجلٌ من الأنصار -من أهل قباء- النَّبِيَّ ﷺ، قال: فانطلقنا معه، فلما طَعِمَ النَّبِيُّ ﷺ، وغسل يديه قال: «**الحمد لله الذي يُطعِم ولا يُطعَم،**

---

(١) «تفسير البغوي» والخازن و«زاد المسير» وغيرهم للآية.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٧٣) وأبو عبيد في فضائله ص٢٠٦، والطبري (٩/ ١٧٥).

(٣) هذا لفظ الإمام أحمد في «المسند» (١٤٨٠٥) بإسناد ضعيف، لضعف عيسى الرازي وعنعنة الحسن البصري (محققوه) وعن أبي هريرة برقم (٧١٨١، ٧٧١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، بلفظ (كل مولود) وجاء في «البخاري» بلفظ (فأبواه يهودانه وينصرانه) (١٣٥٨، ٤٧٧٥) وفي مسلم (ليس من مولود يولد إلا) (٢٦٥٨) وأخرجه أبو يعلى (٦٣٩٤) وابن حبان (١٢٨).

ومَنَّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا»[1].

وبعد أن ذَكَرَ سبحانه دليلين على وجوب استحقاقه للعبادة، أمر نبيَّه ﷺ أن يتبرأ من شركِ كلِّ مشركٍ إلى يوم الدين.

ومعنى بقية الآية: قل يا محمد: إني أمرتُ أن أكون أوَّلَ مَن خَضَعَ وانقاد له سبحانه بالعبودية من هذه الأُمَّةِ، ونُهيتُ أن أكون من المشركين معه غيرَه، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر].

التَّحْذِير مِنَ المَعَاصِي

١٥- ﴿قُلْ إِنِّىٓ[2] أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد، لكلِّ مَن عَصَى الله تعالى في ذنبٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، فضلًا عمَّن أشرك بالله تعالى وعَبَدَ غيرَه، قل لهم: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ فعبدت غيرَه، أو أشركت معه غيره، أو خالفتُ أمرَه أو نهيَه، أن أكون مستحقًّا لعذاب ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الأهوال، تَذْهَلُ فيه ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢]

فالآية تنهى عن جميع المعاصي؛ خوفًا من العقاب، وطمعًا في الرحمة.

ضع هذه الآية -أيها المسلم- نصب عينيك كلما أردتَ أن تُقْدِمَ على معصية، وكلما أردتَ أن تقترف ذنبًا، اقرأ هذه الآية التي أَمَرَ الله بها رسولَه ﷺ وهو سيِّدُ الخَلْق: إني أخاف إن خالفتُ أمر ربي، وأشركتُ معه غيرَه في عبادته، أن يَنزل بي عذابٌ عظيمٌ يوم لقائه، وأرجو إن أطعتُ ربي أن يشملني برحمته وعفوه.

وهو خِطَابٌ للأمة في شَخْصِ رسول الله ﷺ، فإذا كان هذا التحذير الشديد بالنسبة للنبي ﷺ على سبيل الفرض والتقدير، فكيف بمَن يُشرِكُون بالله غيرَه؟ وكيف بمَن لا يعترفون

---

(١) الحديث رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم (٣٠١) وفي «السنن الكبرى» برقم (١٠١٣٢) والحاكم في «المستدرك» (٥٤٦/١) من طريق سهيل بن أبي صالح، وابن حبان في صحيحه (٣٢٦/٧١) برقم (١٣٥٢) من طريق بشر بن منصور - وهو بصري - وهو حديث صحيح.

(٢) فتح ياء الإضافة من (إني أخاف) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وصلًا، والباقون بكسرها.

بوجود إله لهذا الكون؟ وكيف بمَن هم منغمسون في المعاصي والذنوب ليل نهار؟ قال تعالى:

١٦- ﴿مَّن يُصْرَفْ[١] عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

أي: أن مَن يَصرِف الله عنه هذا العذاب الشديد، ويكون ممَّن شَمِلته رحمةُ الله تعالى ورعايته يوم لقائه؛ فقد نجَّاه الله من النار، وأناله الثواب لا محالة، وهذه الرحمة بزحزحته عن النار ودخوله الجنة، وذلك هو الظفر العظيم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فمن صُرف عنه العذاب يومئذ فقد فاز ونجا، ومن لم ينج منه فقد شقي وهلك.

الله وَحْدَه هوَ النَّافِع الضَّارُّ

١٧- ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

ثم ثبَّت الله نبيَّه، ويأَّس أعداءه مِن أن ينالوا منه شرًّا أو يصيبوه بأذًى؛ فأنزل الله هذه الآية، وفيها من دلائل التوحيد أن الله تعالى هو الذي يدفع الضر ويجلب الخير.

والضُّرُّ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما ينال الإنسان من ألمٍ، ومكروهٍ، وما في معناهما.

والخير: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما ينال الإنسان من فرحٍ، وسرورٍ، ونحو ذلك.

والضُّرُّ ضد العافية، وقد ناب الضُّرُّ في الآية مناب الشر، وإن كان الشرُّ أعم، وقد عَدَلَ عنه القرآن؛ لبيان أن الضُّرَّ من الله تعالى ليس شرًّا، بل هو تربيةٌ واختبارٌ للعبد، وهذا غايةُ البلاغة.

والمعنى: لا تتخذ أيها المسلم وليًّا ولا معبودًا غيرَ الله تعالى، فهو وحده القادر على أن يَدْفَعَ عنك كلَّ ما يصيبك من مرضٍ، وفقرٍ، وهزيمةٍ، وعُسر ويُسْر، وهم وغمّ، وغير ذلك، وهو وحده القادر على أن يَجلب لك الصحة والغِنَى والنصر وغير ذلك، إنه وحده الذي يكشف عنك الضُّرَّ، ويوصِّل لك الخير، لا رادَّ لفضله، ولا مانعَ لقضائه، وهو قادرٌ

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر (من يُصْرَف) بالبناء للمجهول، ونائب الفاعل ضمير العذاب، والباقون (من يَصْرف) بالبناء للمعلوم.

على كلِّ شيءٍ، فهو الذي يستحق أن يُفرد بالعبادة دون سواه.

جاء في حديث ابن عباس ﷺ قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعتْ على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف**»(١).

وفي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أن النَّبِي ﷺ كان يقول: «**اللهم لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطيَ لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ**»(٢).

أي: ولا ينفع صاحب الغنى عندك غناه، وإنما ينفعه العمل بطاعتك.

والآية برهانٌ على وحدانيَّةِ الله تعالى؛ لانفراده بالضُّرِّ والخير والخلق والرزق، وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] فالمتصرف المطلق في أحوال العباد هو الله وحده.

والآية عامةٌ بالنسبة لكلِّ إنسانٍ، وهي على وجه الخصوص تَثْبِيتٌ لقلب النَّبِيِّ ﷺ؛ كي يمضي في طريق الدَّعْوَةِ، ولا يخشى بَأْسَ المشركين، وتهديدهم، وتخويفهم، ووعيدهم، وفيها وَعْدٌ للنَّبِيِّ ﷺ بحصول الخير له، ورضى ربه عنه، إلى جوار أن الآية تتحدى المشركين؛ بأنهم لا يستطيعون إيقاع الضَّرر بالنَّبِيِّ ﷺ، ولا جلب النفع له.

وفيها ردٌّ على مَن يزعم أن أحدًا من خَلْقِ الله حيًّا أو ميِّتًا، فضلًا عن الجن، أو الصنم أو الوثن، يمكنه أن يَشْفَعَ له عند الله تعالى، ويجلب له خيرًا، أو يدفع عنه ضَرًّا، فهي لا تملك للناس ضَرًّا ولا نفعًا؛ وبالتالي فإن عبادتها، أو التوسل بها، خرافة كبرى.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦] وقال إبراهيم ﷺ لقومه: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء].

---

(١) من حديث طويل في «المسند» (٢٧٦٣، ٢٨٠٣) حديث صحيح ورجاله ثقات، وفيه ابن لهيعة وهو متابع، (محققوه) وقد أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم (٣/ ٦٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٤٣) والمشكاة (٥٣٠٢).

(٢) البخاري (١١/ ١٣٣) برقم (٨٤٤) ومسلم (١/ ٣٤٣) برقم (٥٩٣).

الْقدرَة الْمطْلَقَة

١٨- ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

أي: أن الخَلْقَ جميعًا تحت سُلطانِ الله وقُدرتِه، فالضَّرُّ والنفع بيد الله، فهو صاحب القدرة المطلقة، وتدبيرُ أمور الخَلْقِ تحت قَهْرِ الله، وتذليله، وتسخيره، فهو الذي خضعتْ له الرِّقَابُ، وذلَّت له الجبابرة، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في موضعها وَفْقَ حكمته، الخبير الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ، ومَن اتصف بهذه الصفات يجب ألا يُشْرَكَ به شيئًا.

وفي الآية إثباتُ الفوقيَّةِ لله تعالى، وفيها إبطال أن يكون للأصنام أو غيرها تصرفٌ في أحوال المخلوقات، وإبطال أن يكون غيرُ الله تعالى قاهرًا لأحدٍ، فلا قاهرَ إلا الله، **والقَاهِرُ**: هو الغالب الذي لا يَنفلِتُ من عمله وقدرته شيءٌ.

والقَهْرُ الحقيقيُّ هو الذي لا يجد المقهور منه ملاذًا، ولا يستطيع دَفْعَ أسبابه، فلا يُمكن لأحدٍ أن يَدْفَعَ الموتَ عن نفسه مثلًا، ولا عن غيره، ولا يمكن لأحدٍ أن يجعل العقيم وَلُودًا . وهكذا. والعباد هم المخلوقون العقلاء، ومعنى أن الله تعالى قاهرٌ فوق عباده، أنه سبحانه خالقُ ما لا يَدْخُلُ تحت قدرتهم، ولا يستطيعون دَفْعَهُ، فلا يتصرف متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، ولا يمكن لمخلوق أن يخرج عن ملكه وسلطانه، وإذا كان هو المدبر القاهر، كان هو المستحق للعبادة دون سواء.

أَكْبَر شَهَادَةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَعَلَى عمومِ الرِّسَالَةِ

١٩- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ[1] لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ[2] لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

وفي نهاية هذه الآيات الخمس المصدَّرة بلفظ ﴿قُلْ﴾ يأتي التلقين الخامس؛ ليبيِّنَ مَفْرِقَ

---

(١) قرأ ابن كثير (القُرَان) بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، والباقون (القُرْآن) بتحقيق الهمزة.

(٢) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أئنكم) مع إدخال ألف بين الهمزتين، وقرأ ورش وابن كثير بتسهيلها بدون إدخال، وحقق هشام الهمزة الثانية مع الإدخال وعدمه، وبالتسهيل والتحقيق مع عدم الإدخال رويس، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

الطريق بين الإسلام والمشركين، والتوحيد والشرك، وأنه لا سبيل للمشركين والمكذِّبين إلا أن يدخلوا في الإسلام، ويؤمنوا بخاتم النبيِّين.

أتى رؤساءُ مكةَ رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، ما نرى أحدًا يُصدِّقُك بما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنَّصارَى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذِكْرٌ ولا صِفَةٌ، فأرِنَا مَن يَشْهَدُ أنك رسول الله؛ فنزلت الآية(١).

وفيها يأمر الله رسولَه أن يسأل المشركين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ عن أكبر شهادة، بعد أن بين لهم الهدى وأنار الطريق ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ على هذا الأصل العظيم، وهو التوحيد، فيأتي الجواب من ربِّ العالمين على لسانِ رسولِه ﷺ ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: أن الله تعالى هو الواحد والأحد، ويَشهد أني رسولُ الله، وأن هذا القرآن وَحْيٌ من عند الله، ولا يوجد أعظم شهادة منه تعالى ولا أكبر، وهو سبحانه يقرنى على ما قلته لكم، ولو كنت كاذبًا لأخذ الله مني باليمين ولقطع مني الوتين.

والمعنى: قل - أيها الرسول - لمَن يجحد وحدانية الخالق، وينكر رسالتك: أي شهادة هي أصدق الشهادات وأقواها وأعدلها، بحيث تقبلونها عن إذعانٍ وتسليمٍ؟.

ولمَّا كانتْ شهادةُ الله تعالى على وحدانيته وعلى صِدْقِ رسولِه ﷺ غيرَ معلومةٍ بالنسبة للمكذِّبين لرسالته، كانت شهادةُ الله تعالى عليهم في معنى القسم، على تقدير: فإني أُشهد الله عليكم، وشهادة الله تعالى أكبر وأعظم شهادة على أني قد أبلغتكم ما أُرْسلتُ به إليكم، وعلى رأسه توحيد الله تعالى، وعدم الإشراك به وشهادة الله تعالى جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩].

فإن لم تنفعكم الآيات والنذر، وترجعوا عن تكذيبكم؛ فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم بعذابٍ من عنده في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو شهيدٌ على صِدْقِي، وشهيدٌ على تكذيبِكم وإنكارِكم، كما هو الشأن في شهادات الخصوم.

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص١٨٠، والسيوطي (١١٥) و«زاد المسير» (٣/ ١٣) و«تفسير القرطبي» (٦/ ٣٩٩).

ولمَّا كان القرآنُ مشتملًا على كلِّ ما أُمِرَ الرسولُ ﷺ بتبليغه؛ فقد جاء ذِكْرُهُ في الآية من باب عطف الخاص على العام، وأنتم - أيها العرب - أرباب الفصاحة والبلاغة، وقد عجزتم عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه؛ فدل ذلك على أنه من عند الله، أنزله لهداية البشر كافةً ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: وأمرني أن أنذر كلَّ مَن يأتي بعدي، مِنْ كلِّ مَن بلغه القرآن إلى يوم الساعة، فكأنما سَمِعَه من محمدٍ ﷺ، وإن كثرت الوسائط.

وأجهزةُ الإعلام في الوقت الحالي قد بلغت أرجاء الدنيا، والترجمات والمطبوعات وشبكت المعلومات وصلتْ إلى العالم كلِّه بجميع اللغات، فدعوةُ النَّبِيِّ ﷺ قد بلغت الآفاق، وقد صرحتِ الآية بأن النَّبِيَّ ﷺ مُنذرٌ لكل مَن بلَغه هذا القرآن العظيم كائنًا مَن كان.

ويُفْهَمُ منها أن الإنذار عام لكلِّ مَن بلغته الدَّعْوَةُ، وأن كلَّ مَن بلغه القرآن، ولم يؤمن به؛ فهو من أهل النار، وقد جاء الإنذار بعموم الرسالة في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان].

وأما دخول النار لمَن لم يُؤمن بالقرآن؛ فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧] وفي حديث أبي هريرة أن النَّبِيَّ ﷺ قال: **«والذي نفس محمد بيده لا يَسْمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت، ولم يُؤمن بالذي أُرْسِلتُ به، إلا كان من أصحاب النار»**(١).

ومَن لم تبلغه الدَّعْوَةُ لا يكون مخاطَبًا بتعاليم الإسلام، وإثم عدم البلاغ على الذين قَصَّرُوا في وصولِ الدَّعْوَةِ إليه.

ثم أَمَر الله نبيَّه أن يستنكر ما عليه المشركون من كُفْرٍ وإلحادٍ، وأن يُعلن براءته منهم، ومن معبوداتهم، فأمره سبحانه أن يقول للمشركين: إن كنتم قد تردَّيتم في مهاوي الشرك والضلال، وشهدتم بأن مع الله آلهةً أخرى، فأنا بريء منكم، ومن أعمالكم، وفي هذا توبيخٌ لهم على اعتقادهم ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ ثم صارحهم بأنه لا يشهد بشهادتهم، وأنه ثابتٌ على مبدئه ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ ثم أعلن اعترافَه الكاملَ بوحدانيَّةِ

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣).

الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ منفرد بالخلق والتدبير، فهو المستحق للعبادة دون سواه ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان والأصنام والأنداد.

والمعنى: قل - أيها الرسول - للمشركين: إنكم لَتقروُّن أن مع الله معبوداتٍ أخرى تشركونها معه، قل لهم: إني لا أشهد على ما أقررتم به، إنما الله إلهٌ واحدٌ لا شريكَ له، وأنا بريءٌ مِن كلِّ شَريكٍ تعبدونه معه، وقد أَمَرَنَا الإسلامُ بتبليغ الدَّعْوَةِ للعالمين.

قال أنس بن مالك: لمَّا نزلتْ هذه الآية كَتَبَ رسولُ الله ﷺ إلى كسرى وقيصر، وكلِّ جَبَّارٍ يدعوهم إلى الله ﷻ(١).

وفي البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ أن النَّبِيَّ ﷺ قال: **«بلِّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومَن كَذَبَ عليَّ متعمدًا فليتبوأْ مقعده من النَّار»**(٢).

فالحديث يأمر الأمةَ بإبلاغ ما جاء به النَّبِيُّ ﷺ من قرآنٍ وسُنَّةٍ، ولا حرج في الحديث عن بني إسرائيل ببعض البلاغ، فهو ممَّا لا يُصدَّقُ، ولا يُكذَّبُ، كما أخبر النَّبِيُّ ﷺ.

وعن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: **«نضَّر الله امرأ سَمِعَ منَّا شيئًا فبلَّغه كما سَمِعَه، فربَّ مبلَّغ أوعى له من سَامِعٍ»**(٣).

وعن زيد بن ثابت ؓ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«نضَّر الله امرأ سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه غيره، فربَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقهُ منه، وربَّ حاملِ فقه غيرِ فقيهٍ»**(٤).

والآية فيها حَصْرُ التوحيد لله تعالى، وإبطالُ كلِّ معبودٍ سواه؛ ومن هنا فقد استحبَّ العلماءُ، لكلِّ مَن أسلم، أن يأتيَ بالشهادتين كما تضمنتها هذه الآية، ويَبْرَأَ من كلِّ دِينٍ يُخالفُ دِينَ الإسلام.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٦١).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢١٤٠) والتعليق الرغيب (١/ ٦٣) والمشكاة (٢٣٠) وسنن الترمذي (٢٨٠٨) و«صحيح ابن ماجه» برقم (١٨٩) وابن ماجه (٢٣٢).

(٤) «المسند» (٢١٥٩٠)، بإسناد صحيح وأبو داود (٣٦٦٠) وابن ماجه (٤١٠٥) والترمذي (٢٦٥٦) والدارمي (٢٢٩) وابن حبان (٦٨) والطبراني في الكبير (٤٨٩٠) وصححه الألباني في صحيح الترمذي وأبي داود وابن ماجه.

وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله هي التي عبَّر عنها ربعي بن عامر، رسول سعد بن أبي وقاص في القادسية إلى رُستم قائد الفرس، وقد سأله: ما الذي جاء بكم؟ فقال: إن الله ابتعثنا لنخرج مَن شاء مِن عبادة العباد إلى عبادة الله وحدَه، ومِن ضِيقِ الدنيا إلى سَعَةِ الدنيا والآخرة، ومِن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ورستم وقومه لم يعبدوا كسرى بوصفه إلهًا خالقًا للكون، ولكنهم كانوا يعظمونه، فيقومون له ويركعون، وكانوا يُطيعونه في التحليل والتحريم، وهكذا شأن الأحبار والرهبان مع أقوامهم؛ حيث أطاعوهم فيما شَرَعُوه لهم، وهذا المعنى ينطبق على كلِّ من اتبع فيه صِنْف من البشر علماءهم، أو حكامهم، في غير ما شرعه الله تعالى، ويَحْكمُون بين الناس بما لم يشرعه الله تعالى، فالهدف في كلِّ زمان ومكان هو إخراج الناس من اتباع غير الله تعالى؛ في كل حُكْمٍ، أو قولٍ، أو فعل، إلى حكم الله تعالى، وقوله، وما أمرهم به رسولُ الله ﷺ.

قِيَامُ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ وَكَذَّبَ رَسُولَهُ:

أَوَّلًا: مَعْرِفَتِي بِمُحَمَّدٍ أَشَدُّ مِنْ مَعْرِفَتِي بِوَلَدِي

٢٠- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

وإلى جوار شهادة ربِّ العالمين، وهي أعظم شهادةٍ على الإطلاق، لا تحتاج إلى شهادة أخرى تُعضدها، أو تشهد معها على صِدْقِ نُبوَّةِ محمدٍ ﷺ، وعلى صِدْقِ الوَحْيِ الذي جاء به من عند الله، إلى جوار ذلك شهادة الرسول ﷺ، بأن الله تعالى واحدٌ أَحَدٌ، لا شريك له، ولا ولد، وأنه بريءٌ من كُفْرِ الكافرين، وإلحاد الملحدين.

وتُقيم هذه الآيةُ شهادةً ثالثةً؛ هي شهادةُ أهل الكتاب من علماء اليهود والنَّصَارَى في زمن النَّبِي ﷺ وبعده، على صِدْقِه، وصِدْقِ القرآن الذي جاء به من عند الله، وقد كانوا يُخبرون الوثنيين من أهل مكة أنه يُوشك أن يُبعثَ نبيٌّ آخر الزمن، وأنهم أوَّلُ مَن سيؤمن به، ويفتح عليه، وهذا معنى ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل مجيء محمدٍ ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: يقولون نحن أول مَن يفتح عليه ويُؤمن به.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]

وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: اليهود الذين نَزَلَ عليهم التوراة، والنَّصارَى الذين نَزَلَ عليهم الإنجيل، وفيهما البُشْرى بالرسول الخاتم، وذِكْرُ أوصافه ﷺ، وهم يعرفون محمدًا ﷺ بأوصافه وعلاماته في كُتُبِهِمْ، ومنها خاتم النبوة بين كتفيه، وهم ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ وهذا الاستشهاد لأهل مكة.

فالآيةُ مكيَّةٌ تحكي خبرًا عن أهل الكتاب، وتقرِّرُ أنهم كَذَبُوا في قولهم: إنهم لا يعرفون محمدًا ﷺ.

ولمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المدينة، وأسلم عبد الله بن سلام، قال له عمر بن الخطاب ﵁: إن الله ﷻ أنزل على نبيِّه محمدٍ ﷺ بمكة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ فكيف هذه المعرفة؟ قال عبد الله بن سلام: يا عمر، قد عرفتُه حين رأيتُه كما أعرف ابني، ولأنا أشدُّ معرفةً بمحمدٍ ﷺ مني بابني، فقال: وكيف ذاك؟ قال: أشهد أنه رسول الله حقًّا، ولا أدري ما يصنع النساء[1].

أي: أنه غيرُ متحقِّق من صحة نسب ولده، ولكنه متحققٌ من صِدْقِ محمدٍ ﷺ؛ لأن الذي أخبر أنه رسول الله هو ربُّ العالمين.

فكما أن أبناءهم لا يشتبهون عليهم وهم أمامهم، فكذلك محمد ﷺ لا يشتبه بغيره؛ لدقة وصفه في كتبهم، أما الذين أنكروا نبوَّته ﷺ فقد خسروا أنفسهم؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم حين كفروا بمحمدٍ ﷺ، وبما جاء به من عند الله، فأَوْجَبُوا لأنفسهم عذابَ النَّارِ؛ بسبب كُفْرِهم هذا، وتركوا أماكنهم التي كانت معدَّة لهم في الجنة لو آمنوا.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وفوَّتوا عليها ما خُلقوا من أجله، وهو الإيمان والتوحيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم جمعوا بين الكذب على الله، وتكذيب ما ثبت بالبرهان القاطع، وفيه إخبارٌ عمَّن مات منهم على الشرك، وهو يعلم أن القرآن حقٌّ من عند الله، وأنه يشتمل على خيرِ البشر وصلاحهم، فهم يعرفون أنهم على باطلٍ، وأن ما في القرآن حقٌّ وصِدْقٌ.

ومن قال: إن الضمير في ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يعود على القرآن المذكور في قوله تعالى ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ أو يعود على التوحيد المذكور في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ

---

(١) «تفسير الخازن» (٢/ ٩) و«زاد المسير» (٣/ ١٤) و«حاشية الجمل» (٢١/ ١٥).

﴿وَنَجِدُّ﴾ فهو أَوْفَقُ من ناحية عَوْدِ الضمير على أقرب مذكورٍ، ولكن سبب النزول يشير إلى أنه يعود على النَّبِيِّ ﷺ.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن أهل الكتاب لا يشكون في رسالة محمد ﷺ لما عندهم من البشارات والصفات التي لا تنطبق على غيره ﷺ، ولعله الأرجح.

على أن معرفة اليهود والنَّصَارَى بما في كتبهم يتناول هذه المعاني الثلاثة، فهم يعرفون التوحيد، ويعرفون القرآن، ويعرفون محمدًا ﷺ وَفْقَ ما جاء في كُتبهم أشد من معرفتهم لأبنائهم.

وكان المشركون الوثنيون يقدِّرون أهلَ الكتاب، ويَثِقُون بعِلْمِهم، ومنهم من اتبع دينَ أهل الكتاب، وأقلع عن الشرك، مثل: ورقة بن نوفل، ولذلك كانت شهادتهم موثوقةً عندهم إذا أدوها، ولم يكتموها.

والآيةُ تُشير إلى أن الجاحدين لنبوَّةِ محمدٍ ﷺ مُصرُّون على ذلك، حتى ولو شَهِدَ بصِدْقِه ربُّ العالمين، ولو شَهِدَ أيضًا أهلُ الكتاب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠].

ثَانِيًا: أَظْلَم النَّاسِ مَنْ جَحَدَ وَحْدَانِيَّةَ اللهِ وَكَذَّبَ رَسولَه

٢١- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

ثم يصف الله سبحانه حقيقةَ ما يُزاوله الجاحدون لوحدانيَّة الله تعالى بأنه افتراءُ الكذب على الله تعالى، وذلك في اعتدائهم على حقِّ الله تعالى؛ في توحيده، وعبادته وحده، ودعاء غيره معه.

وهم بهذا قد اعتدوا على أنفسهم، فأوْرَدُوها مورد المهالك والخسران والبَوَارِ، واعتدوا على الناس؛ فأفسدوا دِينهم ودنياهم بتعبدهم لغير ربهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحدَ أشد ظلمًا ممَّن كان فيه أحد هذين الوصفين:

أحدهما: أن يَنْسِبُ الشريكَ والولدَ والزوجةَ إلى الله تعالى، أو يُحلِّلُ ما حرَّمه الله، أو يُحرِّم ما أحلَّه الله.

وثانيهما: أن يكون ممَّن كَذَّبَ بهذا القرآن، وهذا معنى ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فكذَّب بما فيه من حُجَجٍ وبراهين، وأدلةٍ واضحةٍ، جاءت على ألسنة رُسُلِ الله، كما كذَّب اليهودُ بمعجزات الأنبياء، والتكذيبُ بآيات القرآن الكريم التي نزلت على محمدٍ ﷺ تدخل في ذلك دخولًا أَوَّليًّا، فكيف بمن اجتمع فيه الأمران معًا، فأشرك بالله وكذب بآيات الله.

وهؤلاء الظالمون لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا، ولا في الآخرة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فلن يفلح الشرك، ولا المشركون، ولا يفلح المفتري ولا المكذِّب، **والافتراء**: هو الكذب المتعمد، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

ثَالِثًا: فِتْنَةُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٢٢- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ[(١)] جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ[(١)] لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ويُصوِّرُ القرآنُ عدمَ فلاح المشركين في يوم الحشر والحساب، حين يتنصَّلُون من شركهم الذي كان في الدنيا، ويُطْلَبُ منهم أن يأتوا بمَن أشركوهم مع الله تعالى من حَجَرٍ، أو صنمٍ، أو إنسٍ، أو جنٍّ، أو مَلَكٍ، أو كَوْكَبٍ، ونحو ذلك في ساحة الموقف؛ ليدفعوا عنهم العذاب.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: نحشر أهل الشرك والتكذيب يوم القيامة، ونسألهم سؤال توبيخ وتقريع عمّن أشركوهم مع الله، أين هم؟

فليحذر المشركون المكذبون بآيات الله تعالى يوم نحشر العابد والمعبود في ساحة العرض؛ لنحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨] والمقصود من حشر الأصنام إظهارُ عدم جَدْوَاها، قال تعالى﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات].

وبعد هذا الحشر في ساحة العرض والحساب يأتي سؤالُ التوبيخ والتقريع عن الشركاء المزعومين ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها تشفع لكم عند ربِّكم؛

---

(١) قرأ يعقوب (ويوم نحشرهم) و(ثم نقول) بياء الغيبة فيهما، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ الباقون بنون العظمة فيهما.

لتدفع عنكم ما أنتم فيه من العذاب، أين هذه الآلهة؟ وقد كانوا في الدنيا يَذبحون لها، وينذرون لها، ويعتقدون فيها النفع والضَّر، كما يفعل بعضُ الناسِ اليوم عن عِلْم أو جَهْلٍ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص] والمراد من هذا السؤال هو الإفصاح لا الإيضاح. قال تعالى:

٢٣- ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ[(١)] إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا[(٢)] مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾

فماذا يكون موقفُ المشركين حين يُطلَبُ منهم إحضار الشركاء مع الله في ساحة العَرْضِ والحساب؟ إنهم يُنكرون أنهم عبدوا غيرَ الله تعالى، ويَحلفون على ذلك ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: إجابتهم، وسُمِّيَتْ فتنة تشبيهًا بالرجل الذي يُفتتن بمحبوبه، ثم تصيبه محنةٌ منه؛ فيتبرأ منه، ويتخلى عنه.

وأصل الفتنة: مأخوذةٌ من الفَتْنِ، وهو إدخال الذهب في النار لِتُعْرف جودته من رداءته، ثم استعُمل في كلِّ ما يشبه الاختبار؛ كالعذاب، والبلاء، والكفر، والمرض، والموت.

والمعنى: ثم لم تكن عاقبةُ كفرهم حين رأوا الحقائق يوم القيامة ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيتبرؤون من شِرْكِهم، ويقسمون كذبًا على ذلك، ومقالتُهم هذه حين يَرَوْا أهل التوحيد قد نَجَوْا، فيحلفون أنهم لم يكونوا مشركين؛ ليلْحقوا بهم، وهنا يَختم الله على ألسنتهم، وتنطق الجوارح بكفرهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء].

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﷺ قال: أتاه رجلٌ فقال يابن عباس: سمعتُ الله يقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ قال: أما قوله ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنةَ إلا أهلُ

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وشعبة بخلف عنه وأبو جعفر وخلف (لم تكُنْ فتنَتَهُمْ) بتاء التأنيث في (تكن) ونصب (فتنة) على أنها خبر كان مقدمًا، وما بعدها اسمها، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص (لم تكن فِتْنَتُهُم) بالتأنيث والرفع، على أن (فتنتهم) اسم تكن، وما بعدها خبرها، والباقون (لم يكُن فتنَتَهم) بالتذكير والنصب، ومعهم شعبة في وجهه الآخر، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الاسم مؤنث مجازيًا.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (واللهِ رَبَّنَا) بنصب الباء على النداء، أو على المدح، وهي جملة معترضة بين القسم وجوابه، والباقون (واللهِ رَبِّنا) بجر الباء، على أنها بدل من لفظ الجلالة أو نعت أو عطف بيان.

الصلاة، فقالوا: تعالَوْا فلْنجْحَد، فيجحدون؛ فيَخْتِم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم، وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثًا، فهل في قلبك الآن شيءٌ؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه. إنهم يظنون أن تبرأهم من الشرك سينجيهم من عذاب الله، كما نَجَّى المؤمنين بفضله ورضوانه.

قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبَهم، ولا يتعاظم عليه ذنبٌ أن يغفرَه، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: إن ربَّنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك، فتعالوا نقول: إنا كنا أهلَ ذُنُوبٍ، ولم نكن مشركين؛ فقال الله تعالى: أما إذا كتموا الشرك فاخْتِمُوا على أفواههم؛ فتنطق أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعندئذٍ يَعرف المشركون أن الله لا يُكتم حديثًا[1]. قال تعالى:

٢٤- ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول الله تعالى لرسوله: تعجب وتأمل موقفَ هؤلاء الذين كَذَبُوا على أنفسهم، بما عاد عليهم بالخسران، فحلفوا كذبًا أنهم لم يُشركوا بالله في الدنيا، وقد غاب عنهم في ساحة الموقف آلهتُهم التي عبدوها من دون الله، وظنوا أنها تَشْفَعُ لهم يوم لقاء الله، فأين هم الآن؟ قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

رَابِعًا: عقوبَة المُعَارِضِينَ لِخَاتَمِ الرُّسلِ فِي الدُّنْيَا

٢٥- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ومن المكذبين بدعوتك قوم يستمعون إليك استماعًا خاليًا من الانتفاع، لأن الله تعالى قد جعل على قلوبهم أغشية وأغطية لئلا يفقهوا كلامه، فصان الله كلامه عن أمثال هؤلاء، وجعل في آذانهم صممًا فلا يستمعون ما ينفعهم.

وهكذا تمضي الآياتُ لتبيِّنَ لنا النتيجةَ الحتميةَ للمعرِضِ عن آياتِ الله، المكذِّبِ لها،

---

(١) «تفسير القرطبي» (٦/ ٤٠١) وهو في «صحيح البخاري».

وتُقرِّرُ أنه لا أَمَلَ في إيمان بعضهم، من أصحاب العقول، الذين يقابلون الدَّعْوَةَ بالإعراض التام؛ فيتظاهرون بالحِلْمِ والإنصاف، ويُخَيِّلون للدَّهْمَاءِ أنهم قادرون على مجادلةِ الرسول ﷺ، وإبطال حجته، ثم ينهوْن الناس عن الإيمان به، وربما يتلو الواحد منهم القرآن محترفًا، ولكنه إلى جوار ذلك لا يُحاول أن يُطبِّقَ، أو أن يَعْرض أقوالَه وأفعالَه على كتاب الله ﷻ، ويُحسِّن من أحواله، ويُغيِّر ممَّا هو عليه إلى ما هو أحسن.

والقرآن الكريم في سورة الأنعام يَذْكُرُ **موقفيْن للمشركين**؛ موقف في الدنيا وموقف في الآخرة:

أما موقف الدنيا: فقد كان المشركون يستمعون إلى القرآن الكريم من رسول الله ﷺ، وهم يعتقدون صِدْقَه داخل نفوسهم، ولكن الجحود والكِبْر يحولان دون الاعتراف به.

وَرَدَ أنه اجتمع أبو سفيان وأبو جهل والوليد والنضر، وأمية وأُبيٌّ ابنا خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والحارث بن عامر، يستمعون إلى القرآن، فقالوا للنضر: يا أبا قتيبة، ما يقول محمدٌ؟ قال: ما أدري ما يقول، إلا أني أراه يُحرك لسانه، ويقول أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية.

وكان النضر كثيرَ الحديث عن القرون الماضية وأخبارها، فقال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقًّا، فقال أبو جهل: كلا، لا نقرُّ بشيءٍ من هذا.

وفي رواية: لَلْموتُ أهون علينا من هذا؛ فأنزل الله الآية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

وكان النضر تاجرًا، يسافر بين مكة وفارس، وتعلَّم أخبارَ الأعاجم، وأساطير الأولين؛ من القصص والأخبار المتعلقة بالأكاسرة وملوك فارس، وعنده من هذه الحكايات الكثير، فقال: هو يحدثكم عن أخبار عاد وثمود، وأنا أحدثكم عن الملوك والأكاسرة، أحدثكم عن ملوك فارس بحديث أحسن منه، فما يقول محمدٌ إلا خرافات، وحكايات قديمة، وتُرَّهات، وليس هذا بوحي من الله تعالى.

وكان النضر يجلس قريبًا من مجلس رسول الله ﷺ، وحوله جَمْعٌ من المشركين، وهو يَصُدُّ الناسَ عن أن يجتمعوا برسول الله ﷺ، ويصرفهم عنه، ويقول لهم: أنا أحدثكم بما هو خير من حديثه، ويحكي لهم أخبار الفرس والأكاسرة من الحكايات القديمة، وكان

يحدث قريشًا؛ فيستحْلون حديثه[١].

وكان النضر شديدَ البغضاء للنبي ﷺ، وهو الذي أَهْدَرَ الرسولُ دمه، فقُتل يوم فتح مكة، ولمَّا قال أبو سفيان: إني لأراه حقًّا، قال له أبو جهل: كلا، فوصف الله حالهم بهذه الآية، وقد نفع الله أبا سفيان بن حرب بكلمته هذه؛ فأسلم ليلة فتح مكة.

والله ﷻ يبيِّنُ ذلك في كتابه؛ فيقول: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من هؤلاء المشركين والمكذِّبين بالقرآن ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أيها الرسول، وأنت تقرأ القرآن ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وأغلفة؛ لئلا يفهموا القرآن.

فمعنى: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ لئلا يدركوا معناه؛ وذلك لأنهم بسبب اتباع أهوائهم جعلنا على قلوبهم أغطية؛ لئلا يفقهوا القرآن، فإدراكهم مُعَطَّلٌ، وفطرتهم مطموسة، فلا يصل القرآن إلى قلوبهم، والإنذار وعدمه يستوي بالنسبة لهم.

﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: وجعلنا الحواس فيهم مُعَطَّلَةً، وأجهزة الاستقبال غير صالحة، وهكذا المسلم الذي لا ينتفع بما يقرأ، ولا يتعظ، ولا يغيِّرُ من أحواله، ويقرأ القرآن دون أن يتدبر، ودون أن يطبق ما فيه في حياته، وكأن أجهزة الاستقبال عنده لا تستقبل، فهو يرى الآياتِ البينات، ولكنه لا يدري، ويقرأ الآيات ولكنه لا يفهم، ولا يتدبر، ولا يعمل، وحواسُّه معطَّلَةٌ، والآية نزلت في المشركين، والمسلم مأجورٌ على كلِّ حالٍ في قراءته للقرآن بفَهْمٍ، وبغير فَهْمٍ.

والوقر: هو الصمم والثقل والغلف الذي ورد فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان].

وَلَهْوُ الحديث: كلُّ ما يلهي من الأخبار، والقصص، والأغاني، وغير ذلك مما يُلْهِي عن كتاب الله ﷻ، وعن العمل الصالح.

وفي الآية دليلٌ على أن الله تعالى يُقلِّب القلوب، فيشرح بعضها للهدى والإيمان فتقْبله، ويجعل بعضها في أكنة؛ فلا تفقه كلامَ الله تعالى، ولا تؤمن به؛ وذلك بسبب

---

(١) ينظر «تفسير الألوسي» (٧/ ١٢٥) والخازن و«زاد المسير» وابن عاشور وغيرهم.

فساد فطرتها، وعدم استعدادها لقبول الهدى، فهي من تربة سبخة لا تقبل ما ينفع، فكأن قلوبهم لا تُدرِك، وآذانهم لا تَسمع، وعيونهم لا تُبصر، فكلٌّ منها لا يؤدي وظيفته.

قال سبحانه في المشركين: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ وهذا غاية الظلم والعناد، فقد علم الله سبحانه قبل أن يخلقهم أنهم كالموتى، لا يستجيبون لها، ولا يُصدِّقون بها، مهما أنزل الله على رسوله من معجزات؛ كانشقاق القمر، ونَبْعِ الماء وشبهه.

ومهما يرَوْا من الدلائل والحجج والبينات، فهم أيضًا لا يؤمنون بها، فلا فَهْمَ عندهم، ولا إنصاف، ومهما أنزل الله من آياتٍ في كتابه فإنهم لا يؤمنون بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة] ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال].

وفي الآية تشبيه الحجُب والموانع المعنوية بالحجُب والموانع الحِسِّيَّةِ، فإن القلب الذي لا يفقه الحديث ولا يتدبره، كالوعاء الذي وُضع عليه غطاءٌ حتى لا يدخُله شيءٌ، وقد أسند الله تلك الحالة التي في قلوبهم إليه سبحانه؛ لأن لهم عقولًا وإدراكًا كسائر البشر، ولكن أهواءهم منعتْهم من اتباع الحق، فكانوا مخاطَبين بالإيمان، مع أن الله تعالى يعلم أنهم لا يؤمنون، كما أن عدم الفهم، وعدم العمل جُعل بمنزلة الصمم.

وعلى هذا، فإن مَن يَسلُك طريقَ الهداية؛ يرشده الله ويهديه، ومَن يقصد طريق الغواية، ويسير في طريقها؛ فإن النُّذُر تأتيه تِبَاعًا، إنذارًا بعد إنذار، فإن تيقَّظ ضميرُه وانكشفت العماية عن قلبه؛ فقد اهتدى وآمن بعد كُفْرٍ، ومَن لم ينتفع بالمواعظ والنذُر المتتابعة؛ فقد وضع الله على قلبه غشاوةً، وجعل في آذانه وقرًا، فأعرض عن الحقِّ مهما وضحت براهينه، ولم يُؤمن بكل ما يرى من آيات.

وهذا معنى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ﴾ يا محمد، بعد معاينة الآيات الدالة على صِدْقِك، ﴿يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ وجحدوا آيات الله تعالى، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي يقوله محمدٌ ﷺ إلا حكايات الأولين، وما سطَّرُوه في كتبهم، وليس بوحي من الله تعالى، وكانوا لا يُميِّزون بين التواريخ، والقصص، والخرافات؛ فنسبوا أخبار القرآن إلى الكذب على ما تعارفوه من اعتقادهم في الأساطير، قال تعالى:

٢٦- ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

أي أن المكذبين لرسول الله ﷺ يجمعون بين الضلال والإضلال، فهم ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويبتعدون بأنفسهم عنه، وهم بهذا لا يضرون إلا أنفسهم.

وهكذا: كان النضر وأمثاله يَنهَوْن الناس عن اتّباع محمدٍ ﷺ وعن الجلوس حوله، وعن الاستماع إليه، ويبتعدون بأنفسهم عنه؛ مخافةَ أن يتأثروا بالقرآن فيستجيبوا له، ومخافةَ أن يُقلِّدَهم غيرُهم من عامة الناس.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن الاستماع إلى القرآن واتباع ما فيه، والاجتماع بمحمدٍ ﷺ ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ويبتعدون بأنفسهم عن الإيمان به، وهم بهذا يُوردون أنفسهم المهالك فيضرونها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ باستمرارهم في الضلال وتضليل الناس.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وهم لا يحسبون أنهم يعملون لهلاكها، فهم قد جَمَعُوا بين مُحاربتهم للحقِّ، وحَمْلِهم غيرهم على محاربته والبعد عنه، وهم بهذا لا يشعرون بعملهم القبيح؛ لانطماس بصيرتهم، وقسوة قلوبهم، ونهيهم غيرهم عن سماع القرآن، وهذا يشير إلى اعترافهم بأن القرآن حقٌّ؛ لأنهم يتخوفون من تأثُّر الناس به، وليس كما يقولون كذبًا: إنه أساطير الأولين ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت].

وقيل أيضًا: إن هذه الآية نزلتْ في أبي طالب، عمِّ النَّبيِّ ﷺ، فقد كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسولَ الله ﷺ، وينأى هو بنفسه؛ فيبتعد عن الإيمان به، وكان النَّبيُّ، عليه الصلاة والسلام، يعلن دعوتَه في حِمَى عمِّه المشرِك.

روَى سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عمَّن سمع ابن عباس ﷺ يقول: نزلتْ في أبي طالب، كان ينهَى الناس عن النَّبيِّ ﷺ أن يُؤذَى، ولا يُصدِّق به[1].

ولمَّا ذهب المشركون إلى أبي طالب وقالوا له: أنت ترى كيف أن ابن أخيك يسفِّه أحلامنا، ويَسبُّ آلهتنا، ونريد أن تعطينا إيَّاه، ونحن نعطيك من خيرة الشباب بدلًا منه،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ وابن جرير عن القاسم بن مُخيْمرة «تفسير الطبري» (١٣٠١٩).

قال أبو طالب: عجبًا لكم، أُعطيكم ابني كي تقتلوه، وأُربِّي لكم ابنكم، ثم قال لهم: لو أن الناقة حنَّت إلى غير مولودها أعطيتُ لكم محمدًا، وأخذ أبو طالب ينشد أبياتًا جميلة من الشعر يقول فيها للنبي ﷺ: إنه سينصره ويحميه ما دام حيًّا لم يواره التراب، وأن محمدًا ﷺ جاء بدين هو خير أديان البريَّة، ويقول له: اصدع بما تؤمر، وأبشرْ وقَرْ عينًا بحمايتي، ثم يقول في أبياته:

وَلَوْلَا أَنِّي أَخَافُ مَسَبَّةَ الْقَوْمِ   وَتَغْيِيرِهِمْ لِي لَآمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ

هكذا يقول أبو طالب لرسول الله ﷺ، وهذا يُشْعِرُ بأن القوم كانوا يُؤمنون من قرارة نفوسهم بأن النَّبِيَّ ﷺ صاحبُ رسالةٍ، وما منعهم من الإيمان به إلا الكِبْر، وما منعهم إلا خوف ذهاب الزعامة منهم ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

خَامِسًا: مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

أما موقف المكذبين في الآخرة، فقد جاء في قوله تعالى:

٢٧- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ[(١)] بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ[(٢)] مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

وتأتي الحسرةُ والندامةُ حين يرى الكُفَّار النَّارَ بأعينهم؛ فيتمنَّوْن العودة إلى الدنيا ولات ساعة مندم، وهذا هو الموقف الثاني للمشركين؛ حيث يكون في يوم القيامة الجزاءُ والعقوبةُ على موقفهم في الدنيا من القرآن، ومن رسول الإسلام ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها المخاطب بعينيك، وتبصر ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ يوم القيامة ﴿عَلَى النَّارِ﴾ ليُوَبَّخُوا ويُقرعوا لرأيت أمرًا عظيمًا، ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنَّوْا أن يُرَدُّوا إلى الدنيا مرة أخرى، وذلك حين عُرضوا على النار، وأشرفوا على الهلاك، وجثَوْا عندها، وشاهدوا ما فيها، ورأوا سلاسلَها، وأغلالَها، وسعيرها، وزفيرها، وشهيقها، ورأوا بأعينهم، تلك الأمور العِظَام، وهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا، وليس بإمكانهم أن يغادروها، أو

---

(١) قرأ حفص وحمزة ويعقوب، بنصب باء (ولا نكذب) ونصب نون (ونكون) على أن الفعل الأول منصوب بأن مضمرة بعد واو المعية في جواب التمني، والثاني معطوف عليه، وقرأ ابن عامر برفع الفعل الأول عطفًا على (نرد) ونصب الفعل الثاني بأن مضمرة بعد واو المعية، وقرأ الباقون برفع الفعلين معًا عطفًا على (نرد) أي: ليتنا نرد ونوفَّقُ للتصديق والإيمان.

يكابروا؛ فيجادلوا ويخاصموا كما كانوا يفعلون في الدنيا.

﴿فَقَالُوا﴾ حين شاهدوا من الهول ما علموا أنه جزاء تكذيبهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا مرة ثانية؛ فنصدق بآيات الله، ونعمل بها ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وهذا اعترافٌ صريحٌ بأن الذي كان ينزل على محمدٍ ﷺ هو آياتُ الله سبحانه، والله جل شأنه قَضَى ألَّا عودة ولا رجعة إلى الدنيا مرة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]

وقال جل شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] هذا هو موقفُ الحسرة والنَّدامة في وقتٍ لا ينفع فيه الندمُ، لقد أمْهَلهم الله ﷻ، وأعطاهم من العمر ما أعطاهم، وأرسل لهم البشير النذير، ولكنهم أعرضوا وظلوا في غفلةٍ حتى جاء الوعد الحقُّ.

لَا مَطْمَعَ لِلْكُفَّارِ فِي الْخَلَاصِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ

٢٨- ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾

في هذه الآية ردَّ الله عليهم قولهم؛ فبيَّن تعالى أنهم كانوا يظهرون ما لا يبطنون، فكانوا يخفون في أنفسهم أنهم كاذبون، فظهر لهم أنه لا مطمع لهم في الخلاص؛ بسبب ما كانوا يخفونه من إنكار التوحيد وتصديق الرُّسُلِ.

وأخبر سبحانه أنهم على فرض لو رجعوا إلى الدنيا مرة ثانية؛ لعادوا إلى تكذيبهم، وأنهم لم يقولوا ذلك إلا حينما استقبلتْهم النَّارُ بلهيبها، وظهرت لهم عقوبة أعمالهم القبيحة، وظهر لهم ما كانوا يُسرونه في الدنيا من المعاصي، والذنوب، والنفاق، والتكذيب، والعناد ﴿بَلْ بَدَا﴾ ظهر ﴿لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: أن الذي كانوا يخفونه في نفوسهم في الدنيا؛ من صِدْقِ ما جاءت به الرُّسُلُ ويظهرون خلافه، ظهر لهم اليوم بارزًا من وجوب الصدق بمحمدٍ ﷺ، وظهر لهم عاقبة الذنوب والموبقات التي ارتكبوها سرًّا، ظهر كل هذا علانية.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وهذا إخبارٌ من الله تعالى عن أمر غَيْبِيٍّ، كيف يكونون يوم لقاء الله ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم: لو عُدنا إلى الدنيا لم نكذِّب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين.

ويجوز أن يكون المعنى: بل ظهر لهم بنُطق جوارحهم ما كانوا يخفونه، ويكتمونه بألستهم؛ من تكذيب الرسول ﷺ، ونحو ذلك، فقد كان الإيمان يخطر ببالهم في الدنيا؛ لِما يرَوْن من دلائله، فيصدُّهم عنه العناد، والحرص على بقاء الزعامة والسيادة فيهم، كما يصدُّهم عنه دخول ضعفاء القوم من العبيد والفقراء الذين أمَرَ اللهُ رسولَه أن يصبِّرَ نفسه معهم، ولا يطردهم عن مجلسه، فيأنفون من الاعتراف بصاحب الرسالة، ويسبق هؤلاء الضعفاء إلى الإيمان، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)﴾ [الحجر].

سَادِسًا: المُشْرِكونَ بِاللهِ، المُكَذِّبونَ لِرَسولِهِ، ينكِرونَ البَعْثَ وَالنُّشورَ:

٢٩- ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)﴾

ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء الكُفَّار الذين وقفوا على النار وتمنَّوْا العودةَ إلى الدنيا، أنهم كانوا في الدنيا يُنكرون البعث والنشور، وأنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا؛ لعادوا إلى سيئ الأقوال والأعمال، فما الحياة في نظرهم إلا ما فيها من شهوات ومتاع، وما علموا أن الدنيا مزرعةٌ للآخرة، وأنهم ما خُلقوا إلا للعبادة في الدنيا، والحساب والجزاء في الآخرة.

وأن هذه الحياة الفانية تمتد طولًا في الزمان؛ لتشمل الحياة الباقية ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] أي: أنها الحياة التي لا تنتهي، ولا يعلم مداها إلا ربُّ العالمين.

وهذه الحياة تمتد أيضًا في المكان، فتوصِّل هذه الأرضُ التي نعيش فوقها إلى أرضٍ أخرى، لا يعلم مساحتها إلا ربُّ العالمين ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وفيها أيضًا نارٌ يُقال لها: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

وهذه الحياة تمتد عُمقًا في العوالم؛ فتشمل ما نراه، وما رآه كلُّ جيلٍ فوق هذه

الأرض؛ ليجتمع الجميع، ما غاب وما شُوهد، ومَن قُبر ومَن لم يُقبَر، في تجمعٍ يشمل الوجود الإنساني كلّه مع بقية العوالم.

وتمتد هذه الحياةُ في حقيقتها إلى مستوًى غير معهودٍ للبشر في مَذَاقِهِ ونعيمه ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

والنار كذلك متجددةٌ في عذابها وتعذيبها ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

والإنسانُ في الآخرةِ لا يخرج منه نجاسة ولا فضلات ولا قاذورات، هذه هي الحياة في التصور الإسلامي، أما الدهريون، منكرو البعث، فكما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ فلا حياة لنا غيرها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ فهم يجزمون ألا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، هذا هو موقفهم في الدنيا، إنكار البعث والنشور والحساب والجزاء، فليس عندهم إلا هذه الحياة، يموتون فيها ويحيَوْن، ولو رُدُّوا إلى الدنيا بعد الموت لقالوه أيضًا، وما تخلَّوْا عن كفرهم ومحاربتهم للأنبياء والمصلحين.

استجواب المعارضين في ساحة العدل الإلهية

٣٠- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

ولما ذَكَرَ سبحانه إنكارَ الكُفَّار للبعث، أَعْقَبَهُ بوصف حالهم حين يُحشرون إلى الله تعالى يومَ البعث الذي أنكروه، وما يُوَجَّهُ إليهم من التوبيخ والتقريع؛ بسبب كفرهم.

وتبيِّن هذه الآية مَشْهَدَ منكري البعث، البائسَ المخزي، حين يُحْبَسون بين يدي الله تعالى؛ لقضائه فيهم يوم القيامة، فيقول سبحانه عمَّن كذَّبوا بلقائه، وهم وقوف بين يديه في ساحة العرض والحساب: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الكافرين ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لرأيت أسوأ حالٍ، وأجْسم هوْل، وهم بين يديه سبحانه، وكانوا قد كذَّبوا بلقائه في الدنيا، وهم الآن في عَرَصَات القيامة، وقد شبَّه القرآن حالهم في الحضور للحساب بحالِ مَن قُبض عليه؛ فوقف بين يدي ربِّه، أليس هذا الموقف الذي أنتم فيه الآن في عَرَصَات القيامة حقًّا؟ وكنتم قد كذَّبتم به في الدنيا!

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ الذي ترونه من العذاب كائنًا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيأتي جوابهم في جملةٍ واحدةٍ ﴿قَالُوٓا۟﴾ في اختصارٍ شديدٍ يُناسب رَهْبَةَ الموقف، وهوْلَ المصير ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنه لحقٌّ، اعترافٌ صريحٌ موثَّقٌ بالقَسَم بما كانوا يُنكرونه بالأمس، ولكنه إيمانٌ لا يَنفع، لأنهم كانوا في الدنيا يَزعمونه باطلًا، قال تعالى ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور].

ثم يأتي الأمرُ الإلهيُّ بالقضاء الأخير ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ تذوقونه متجددًا بقوة إحساس دائم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا العذاب؛ بسبب كفركم وإنكاركم البعث بعد الموت.

التَّقْرِيرُ الْخِتَامِيُّ بَعْدَ إِيدَاعِ الْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ

٣١- ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

أي: أن الذين أنكروا البعث، هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؛ بسبب تكذيبهم بالمصير المحتوم، حين يَلْقَى العبادُ ربَّهم، ويأتون إليه في ساحة العرض والحساب، بعد أن أُمهلوا في الدنيا، وأُنذروا على ألسنة الرُّسُلِ، وهي خَسارة محققةٌ، خسروا فيها دنياهم، فالموتُ لم يتركهم فيما هم فيه من شهوات.

وهم الذين خسروا آخرتهم أيضًا؛ ففاتهم النعيمُ المقيم، وحُرموا الخير كله، وأصبحوا في دَرَكَاتِ الجحيم، وهم أيضًا الذين خسروا الرضى الذي يناله المؤمنون من ربِّهم، وخسروا الغذاء الروحي الذي يَغرس في قلب المؤمن الطمأنينة، والصبر عند البلاء؛ لأن المؤمن يعتقد أن ما عند الله خيرٌ وأبقى، بخلاف الكافر؛ فإن الدنيا هي منتهى آماله.

وهؤلاء الخاسرون يستمرون في تكذيبهم بالحقِّ، وإعراضهم عنه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ وهم على أسوأ حال، فأظهروا غاية الندم، ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ ولكنه ندمٌ لا يَنفع، وتحسُّرفات وقته، إن وقت الندم قد انتهى، ووقت العمل قد انتهى وقد ظلَّ هؤلاءالذين خسروا كلَّ شيءٍ،مكذِّبين بلقاء اللهحتى قامت الساعة،وفاجأهم سوءُ المصير.

وسميت القيامة (ساعة)؛ لأنها تفاجئ الناسَ بغتة، في ساعةٍ لا يعلمها إلا الله، وهي

عَلَمٌ بالغَلَبَةِ على ساعة البعث والحساب، أو سميت ساعة؛ لأن حسابَ الخلائق يوم القيامة يكون في نحو ساعةٍ من نهار.

وحين تقوم الساعة يوم البعث والنشور؛ تتقطع قلوبُهم حسرةً وندامةً على ما ضيَّعُوه في حياتهم الدنيا من العمل لهذا اليوم، وتفريطهم في الأعمال الصالحة، وعدم الإيمان بلقاء الله تعالى، ممَّا استوجب عليهم سخط الله تعالى وعقوبته، وتَزيد حسرتُهم يوم القيامة حين يرون منازلهم التي كانت مُعدةً لهم في الجنة، وقد سَكَنَهَا غيرُهم، وتبَوَّؤُوا هم مَقَاعِدَهم مِنَ النَّارِ.

ثم يُصوِّرُ القرآنُ الكريمُ حال هؤلاء المكذبين بالبعث، والحساب، والجزاء في مشهد القيامة، وهم كالدواب المثقلة بالأحمال، فذنوبهم وخطاياهم التي عملوها في الدنيا تُجسَّد لهم يوم القيامة حِمْلًا ثقيلًا يحملونه على ظهورهم ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ ولا يقدرون على التخلص منها، ولذا فإنهم يخلدون في النار، ويستحقون التأبيد في غضب الجبار.

والظَّهْرُ: هو الذي يحمل الحِمْلَ، وهم يحملون أيضًا أوزار مَن أضلوهم بغيرِ علم، وتسببوا في إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل]. ألا ما أسوأ الأحمالَ الثقيلة التي يحملونها.

جاء في الخبر أن الكافر حين يخرج من قبره يوم القيامة، يُمَثَّل له عمله السيئ في أقبح صورة، وأبشع منظر، وأنتن رائحة، ويقول له: ألا تعرفني؟ فيقول: لا، ثم يقول: أنا عملك السيئ، طالما رَكِبْتَني في الدنيا، واليوم أرْكَبُك كما رَكِبْتَني في الدنيا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾.

وأما المؤمن، فإن عملَه يَلْقاه في أحسنِ صورةٍ، وأجملِ منظرٍ، وأطيبِ رائحةٍ، ويقول له: ألا تعرفني؟ أنا عملك الصالح، طالما رَكِبْتُك في الدنيا، وأنت اليوم تَرْكَبُني، ذلكم قول الله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾[1] [مريم].

---

(١) ينظر الأثر في الطبري (١/ ٣٢٨) عن ابن حميد عن الحكم بن بشير عن عمرو بن قيس، وهو أَثَرٌ مُرسَلٌ موقوف على عمرو بن قيس الملائي، وانظر ابن أبي حاتم (٧٢٢٦، ٧٢٢٨، ٧٢٢٩).

المؤمن يعمل للآخرة والكافر يعمل للدنيا

٣٢- ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ[1] ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[2] ﴿٣٢﴾﴾

في هذه الآية ردَّ الله سبحانه على منكري البعث في قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ مخبرًا عن حالهم؛ بأن ما في هذه الدنيا ظِلٌّ زائلٌ لا بقاءَ له، فهي قصيرةُ العمر، سريعةُ الزوال، بما فيها من متاعٍ، وملذاتٍ، وشهواتٍ، وغرورٍ، وباطلٍ، ولهوٍ، ولعبٍ ينقضي بانقضاء وقته، ولا يَبْقَى له أثرٌ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فهي دار فانيةٌ، منقضيةٌ، تشبه اللعب واللهو إذا انقضَى وقتُه، فعليهم أن يستعدُّوا للحياة الآخرة، ونعيمِها الذي لا يحول ولا يزول.

والمؤمن ينتفع بهذه الحياة الدنيوية؛ فيحصِّلُ فيها من العمل الصالح ما يكون سببًا للسعادة الأخروية. أما الكافر فإن حياته كلَّها وبالٌ عليه، ثم يَحصُلُ له الحسرةُ والندامةُ وقتَ لا ينفع الندمُ.

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ للذين يخشَوْنَ الله تعالى؛ فيتقون عذابه بطاعته، واجتناب معاصيه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيها المشركون المغترُّون بزينة الدنيا؛ فتقدِّمون ما يَبْقَى على ما يَفْنَى؟!.

واللعب: قولٌ أو فعلٌ، ليس له غايةٌ مفيدةٌ، ويكون في سرعة وطيش.

أما **اللهو**: فهو ما ترتاح له النَّفْسُ ممَّا يَشتغِلُ به الإنسانُ، ولا يتعب عقله في الاشتغال به، على ما يجد فيه من لذَّةٍ واستمتاعٍ.

وبَيْنَ اللهو واللعب عمومٌ وخصوصٌ، فيجتمعان في الخِفَّة والطيش، كالطرب واللهو

---

(١) قرأ ابن عامر (ولَدَارُ الآخِرةِ) بلام واحدة هي لام الابتداء، وتخفيف الدال، وخفض الآخرة على الإضافة مع حذف الموصوف؛ أي: ولدار الحياة الآخرة، والباقون (ولَلدَّار الآخرةُ) بلامين؛ لام الابتداء ولام التعريف مع التشديد للإدغام، ورفع تاء الآخرة على أنها صفة للدار، و(خير) خبرها، وكلا القراءتين وَفْقَ الرسم العثماني في المصاحف.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب (أفلا تعقلون) بتاء الخطاب على الالتفات، والباقون (أفلا يعقلون) بياء الغيبة لمناسبة (يتقون).

بالنساء، وينفرد اللعب بلعب الصبيان، وينفرد اللهو بالميسر والصيد.

وفي الآية قَصْرٌ للموصوف على الصفة؛ أي: قصْرُ الحياة الدنيا على اللهو واللعب.

والمراد **بالحياة**: الأعمال التي يُحِبُّ الإنسان الدنيا لأجلها، أما الأمراض، والأحزان، والآلام، والملمَّات، فلا يُلْتَفَتُ إليها، ولا يَعتدُّ بها؛ لأنها ليست ممَّا يَرغب الناس فيها.

قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠] فالحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ لمَن اتخذها فرصةً للتفاخر والتكاثرِ وجَمْع الأموال من حلالٍ أو حرامٍ، ولم يقيموا وزنًا للأعمال الصالحة التي كلَّفهم الله بها.

أما الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا، فإن الدنيا تعتبر وسيلة إلى رضى الله تعالى، الذي يظفرون به يوم القيامة، ولذلك عقَّب الله تعالى بقوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ليُعلمَ أن أعمالَ المتقين في الدنيا ضدُّ اللهو واللعب، فأعمالهم قُرُبَاتٌ إلى الله تعالى؛ من صلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، وحجٍّ، ونذْرٍ، ودعاءٍ، ولمَّا كان مصيرُهم إلى الجنة كانت الآخرة خيرًا لهم من الدنيا. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدركون أيّ الداريْن أحق بالإيثار؟

هذا: والآية تبيّن حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة:

أما **حقيقة الدنيا**، فإنها لعب بالأبدان، ولهو في القلوب، والنفوس لها عاشقة.

أما **حقيقة الآخرة**: فإنها خير في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح والأبدان.

فَإِنَّهمْ لَا يكَذِّبونَكَ

٣٣- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ[١] ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ[٢] وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

ثم يُطيِّبُ الله سبحانه خاطرَ نبيِّه ﷺ ممَّا يُلاقيه من تكذيب قومِه له، وهو الصادق

(١) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من (ليحزنك) مضارع أحزن، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن.

(٢) قرأ نافع والكسائي بإسكان الكاف وتخفيف الذال من (يكذبونك) مضارع أكذب، وقرأ الباقون بفتح الكاف وتشديد الذال مضارع كذب، وهما بمعنى، وقيل: التشديد لمَن كذَّب الرسول، والتخفيف لمَن كذب ما جاء به.

الأمين كما يقرون ويعترفون، والأخبار الواردة تبيِّنُ الأسباب الحقيقية لهذا التكذيب، فتتناول هذه الآية طائفةً من الكُفَّارِ كانوا يعتقدون صِدْقَ محمدٍ ﷺ، وما مَنَعَهم من الإيمان به إلا تفضيل بني هاشم عليهم بالنُّبُوَّةِ:

فقد كان النَّبِي ﷺ يُحيي ليله متهجدًا، يُصلِّي ويقرأ القرآن، وذات ليلة مرَّ به أبو سفيان وأبو جهل والأخنس بن شريق، ولمَّا سمعوا تلاوةَ النَّبِيِّ ﷺ جلس كلٌّ منهم حيث هو في مكان لا يعلمه الآخر، جلسوا يستمعون إلى القرآن طول الليل، حتى أصبح الصبح وانصرفوا، فجمعهم الطريقُ، وسأل بعضُهم بعضًا عن السبب الذي أَتَى به إلى هنا، وتلاوموا.

ثم جاؤوا في الليلة التالية، وكلٌّ منهم لا يعرف مكان الآخر، جاء خُفية، فَفِطْرَتُه تكذِّبه؛ لأنه مِن داخله يصدِّق محمدًا ﷺ، ويصدِّق هذا القرآن، وهو يريد أن يستمع إليه، ولكنه يخشَى القوم، جاء كلٌّ منهم وجلس في مجلسٍ لا يراه الآخر، حتى أصبح النهار، وتفرَّقُوا، وجَمَعَهم الطريق، فَلَامَ بعضُهم بعضًا.

وفي الليلة الثالثة فَعَلُوا مثل ذلك، فتعاهدوا على ألا يأتوا مرة أخرى، ثم تفرَّقوا، فلما أصبح الأخنس حمل عصاه وأتى أبا سفيان، وقال له: يا أبا حنظلة، ما تقول فيما سمعت من محمدٍ؟ قال أبو سفيان: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياءَ أعرفها، وأعرف ما يُراد بها، وسمعتُ أشياءَ لا أعرفها، ولا أعرف ما يُراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفتَ به.

فذهب إلى أبي جهل، ودخل عليه بيتَه، وقال: يا أبا الحكم، ما تقول فيما سمعتَ من محمد؟ قال أبو جهل: تنازَعْنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطْعَمُوا فأطعمنا، وحَمَلوا فحملْنا، وأعطَوْا فأعطينا، حتى إذا تجاثَيْنا على الركب، وكنا كفرسيْ رهان، قالوا: منَّا نبيٌّ يأتيه الوَحْيُ من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدِّقه؛ فقام عنه الأخنس وتركه[١].

هذا هو السببُ الذي جعلهم يكذِّبون محمدًا ﷺ حيث يقول أبو جهل لرسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن إسحاق عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري «سيرة ابن هشام» (١/ ٣١٥) مرسل، وابن إسحاق برقم (٢٣٢).

إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئتَ به[١].

وعن أبي يزيد المدني أن النَّبِيَّ عليه الصلاة والسلام لقي أبا جهل فصافحه، فرآه رجل، فقال له: أتصافح هذا الصبي (يعني: النَّبِي ﷺ) قال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لَنَبِيٌّ، ولكن متى كنا تبعًا لبني عبد مناف[٢].

وروى ابن جرير أنه اجتمع الأخنس وأبو جهل، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا أحدٌ يسمعنا غيري وغيرك، فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمدًا لصادقٌ، وما كذب محمدٌ قَطُّ، ولكن إذا ذهب بنو قصيٍّ باللواء، والسقاية، والحجابة (يعني خدمة البيت)، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش، والله لا نؤمن به أبدًا[٣].

فهذه الروايات تبيِّن أن المكذِّبين برسالة محمدٍ ﷺ يعتقدون في قرارة أنفسهم أنه صادقٌ، وإنما يُكذبونه حفاظًا على تراثهم، وإبقاءً لمناصبهم، وعدم تبعيتهم.

والنَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام كان يَحْزَن، ويكاد يُهلك نفسه؛ لعدم إيمان القوم به وبدعوته، والله سبحانه يُسرِّي عنه، ويقول له: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ أن الذي يقوله المكذبون فيك يحزنك ويسوؤك، ﴿إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ إنا لنعلم إنه ليدخل الحزن إلى قلبك؛ بسبب تكذيبهم لك في الظاهر، ولم نأمرك بما أمرناك به من الصبر، إلا لتحصل لك المنزلة العالية، فلا تظن أن قولهم صادر عن شك في أمرك ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ وهم في قرارة أنفسهم يصدقونك، ويعتقدون أنك نبيٌّ مرسَلٌ، وإنما يكذبونك أمام الناس في الظاهر كبرًا وجُحودًا.

وكان الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف يُكذِّبه في العلانية، ويصدِّقه في السرِّ،

---

(١) أخرجه الحاكم عن علي، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٢/ ٣١٥) وأقره الذهبي، وأخرجه أيضًا الترمذي (٤/ ١٠٣) برقم (٣٠٦٤) وانظر الطبري (٩/ ٢٢١) وابن أبي حاتم (٧٢٣٤).

(٢) مرسل «الدر المنثور» (٣/ ١٠) و«تفسير القرطبي» (٦/ ٤١٦) وابن أبي حاتم (٧٢٣٩).

(٣) أخرجه الطبري من طريق أسباط، عن السدي مرسلًا في «التفسير» (١١/ ٣٣٣) ورواه الترمذي في «السنن» برقم (٤٠٦٤) من طريق معاوية بن هشام عن سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب عن علي ﷺ، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: ناجية بن كعب لم يخرجا له شيئًا.

وإذا خلا مع أهل بيته قال: ما محمد من أهل الكذب، ولا أحسبه إلا صادقًا؛ فأنزل الله الآية[١]، ويقول: نخاف أن تتخطفنا العرب.

ورأى أبو جهل على رأس النَّبِيِّ ﷺ فَحْلًا عظيمًا من الإبل قد همَّ به، وفي هذا دليل نبوته ﷺ، ولكن أبا جهل كَفَرَ مع ذلك.

وأسند الطبري أن جبريل ﷺ وجد النَّبِيَّ ﷺ حزينًا؛ فسأله فقال: «**كذبني هؤلاء**»، فقال: إنهم لا يكذبونك، بل يعلمون أنك صادقٌ[٢].

وكُفْرُ حيي بن أخطب، وأمثاله، ممَّن عرفوا صفاتِ النَّبِيِّ ﷺ في التوراة والإنجيل فيه مغالطةٌ لأنفسهم، يضاف إلى ذلك الحسد، والحرص على بقاء الرئاسة والزعامة، فيتزايد كفرُهم، وعنادُهم، مع عِلْمِهم بصدقه، فاصبر واطمئن ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: أن تكذيبهم لك بسبب جحودهم وإصرارهم على الشرك خوفًا على مكانتهم عند الناس، فهم لظلمهم وعدوانهم يجحدون البراهين الواضحة على صِدْقِك، ويكذِّبون ما جئتَ به، كما قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

والجحود: هو الإنكار مع العلم؛ أي: نَفْيُ ما ثَبَتَ في القلب، أو إثبات ما نفاه القلب، والجحود لآيات الله جحودٌ لما جاء به رسولُ الله ﷺ، وإنكارٌ له؛ لأنه من آيات الله تعالى.

قال النضر بن الحارث لمَّا تشاوَرَتْ قريش في شأنِ الرسول ﷺ قالوا: يا معشر قريش، قد كان محمدٌ فيكم غلامًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، حتى إذا رأيتُم الشيبَ في صُدْغه؛ قلتم: ساحر، وقلتم: كاهن، وقلتم: شاعر، وقلتم: مجنون، والله ما هو بأولئكم.

والظالم: هو الذي يَجْري على خلاف الحقِّ بدون شُبهة، فهو يُنكر الحقَّ مع عِلْمِه بأنه حقٌّ، وكانوا ظالمين؛ لأن دلائلَ صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ بيِّنَةٌ واضحةٌ لا يَمتري فيها إلا معاند مكابر.

وقد نهى الله رسولَه عن الحزن المفرط على تكذيب قومه له في مواضعَ كثيرةٍ من كتابه

---

(١) «زاد المسير» (٣/ ٢٧) عن مقاتل.

(٢) الطبري (٩/ ٢٢١).

ﷺ، قال سبحانه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]

وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء]

وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف].

الله سبحانه يسلّي رسوله ﷺ، ويأمره بالصَّبْرِ على أذى قومِهِ

٣٤- ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي[1] الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وفي هذا عَرْضٌ للأسوة التي ينبغي أن يَقتدي بها محمدٌ ﷺ، وهو يرجو أن يأتيَه مثل ما أَتَى رسل الله من النصر والتمكين، إذا اتبع ما أُمروا به من الصبر على الدَّعْوَة. والآية تشير إلى أن موكب الدَّعْوَة إلى الله تعالى عن طريق رسله الكرام مُوغِلٌ في القدم، ضارب في شعاب الزمن، ماضٍ في طريقه إلى يوم القيامة، ثابتُ الخُطَى، يعترض طريقه المجرمون في كل زمان، ويحاول مقاومته الضالون الغاوون، يصاب الأنبياء والآمرون بالقسط من الناس على مر الزمان بالأذى، فتسيل الدماء، وتتمزق الأشلاء، والموكب ماضٍ في طريقه، لا ينحني ولا يحيد.

فاصبر - أيها الرسول - كما صبر مَن سبقك من الرُّسُل الكرام، فإن سنة الله في الدَّعْوَة إليه واحدة، تنتهي بالنصر في الموعد المحتوم، ولا يُبَطِّئُ النصر عن موعده ما يلقاه أصحاب الدعوات من أذًى، ولا يعجله أيضًا رغبة صاحب الدَّعْوَةِ في سرعة هداية قومه، فلا مبدلَ لأحكام الله وشرائعه، ولا مبدلَ لسننه في الكون، ولا مكذبَ لما أخبر به؛ ومنها هلاك المكذبين، ونصر المرسلين:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]

---

(١) الهمزة في كلمة (نبأ) مرسومة في خط المصحف على ياء هكذا (نبإي) بياء بعد الهمزة لا تنطق في التلاوة، ولهذا الرسم وقف عليها حمزة وهشام بإبدال الهمزة ألفًا، وبتسهيلها مع الرَّوْمِ، وبإبدالها ياء خالصة موافقة للرسم مع السكون الخالص والروم، فهذه أربعة أوجه.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]

وأخبار الأنبياء وأممهم قبلك جاءت في هذا القرآن ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]

فلك فيمَن تقدَّم من الرُّسُلِ أُسوة وقدوة، فاصبر كما صبروا، واظْفَر كما ظفروا ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ما يثبت به فؤادك، ويطمئن إليه قلبك.

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: **«قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل، فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»**(١).

ثم ألزم الله نبيه الحجة؛ فبين أنه لا وجه له إلا الصبر، والمُضي لأمر الله، وعَرَض عليه من الأحوال ما يجعله يسلِّم أنه لا سبيل إلى إيمان قومه إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته، وأن ما هم عليه من الضلال يرجع إلى سوء اختيارهم وفساد طويتهم.

شِدَّةُ الْحِرْصِ وَالْآيَاتُ الْحِسِّيَّةُ لَا يَأْتِيَانِ بِالْإِيمَانِ

٣٥- ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

وإن كان قد شق عليك عدم إيمانهم من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم، فابذل أقصى ما في وسعك لهدايتهم، فإنك لن تستطيع أن تهدى من لم يرد الله هدايته.

لقد قصَّ الله عليك - أيها الرسول - في هذا القرآن من قصص السابقين من الرُّسُلِ ما فيه الكفاية، ولو أجابهم بمعجزة، كالآيات التي نزلت على الأنبياء قبله؛ كناقة صالح، وعصا موسى، فإنهم لا يؤمنون أيضًا.

(١) «صحيح البخاري» بأرقام (٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣).

جاء الحارث بن عامر إلى النَّبي ﷺ في نفر من قريش، فقال: يا محمدُ، ائتنا كما كانت الأنبياء تأتي قومَها بالآيات، فإن فعلتَ آمنا بك؛ فنزلت الآية(١).

والله سبحانه يقول له: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إن كان شقَّ عليك يا محمد عدم إيمانهم بك، وصدهم وإعراضهم عنك ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: إن استطعتَ أن تذهب إلى قرار الأرض عبْر نَفَقٍ أو شَقٍّ فيها، فتعبُرهُ إلى مكان آخر، أو تتخذ لك مصعدًا تصعد فيه فوق السماء، فتأتيهم بآية من تحت أو من فوق، غير ما جئناك به فافعل، وأتِ بهذا البرهان الواضح على صدق نبوتك، فإن ذلك لا يفيدهم شيئا، وهذا قطع لطمعه في هدايتهم.

والله سبحانه يعلِّم رسوله ﷺ، ويبيِّن له في كثير من الآيات أنهم مهما أوتوا من الآيات، فلن يؤمنوا أبدًا؛ لأنه قد سبق في علم الله ذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس]

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء: ٤].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يونس]

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يخلقهم بعقولٍ قابلةٍ للحقِّ لخلقهم بها، ولكنه تعالى جعل على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

ولا تَعَارُضَ بين هذه المشيئة المتعلقة بالخَلْقِ والتكوين، والمشيئة المتعلقة بالأمر والتشريع، كما في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] فلو شاء الله ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ بأمرٍ كونيٍّ من عنده، ولكنه أَمَرَهم بالهدى، وتَرَكَ لهم حريةَ الاختيار، وعلم أنهم لن يختاروا الهداية، وسيختارون الضلالة منهجًا وطريقًا.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا تكن من الجاهلين بما أعلمك الله إيَّاه، حتى لا يشتد حزنك عليهم، فتصل إلى الجزع الشديد، فالجهل ضد

---

(١) أبو صالح عن ابن عباس «زاد المسير» (٢/ ٣٢).

العلم، أو ضد الحِلْم. يا له من توجيه حاسم من ربِّ العالمين إلى النَّبِيِّ الصابر، مِن أولي العزم من الرُّسُلِ. قال تعالى:

٣٦- ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ(١) يُرْجَعُونَ(٢) ﴿٣٦﴾﴾

يقول الله تعالى لنبيه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك ويلبي رسالتك وينقاد لأمرك ونهيك ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم ما ينفعهم، فيسمعون سماع قبول واستجابة، وإلا فمجرد السماع يشترك فيه البر والفاجر، وقد أخبر الله رسولَه ألا يهتم بأمرِ مَن لم يستجيبوا لدعوته، وبيَّن سبحانه أن حِرْصَ الرسول ﷺ على هداية الكُفَّار لا يَنفع؛ لأنهم لا يسمعون سَمَاعَ قَبُولٍ، فهم في عِداد الموتى، ذلك أن الناس فريقان:

١- فريقٌ، أجهزة الاستقبال الفطرية عنده حيَّة؛ فهو يستجيب لدعوة الهدى بمجرد قيام الحجة، ووضوح الدليل.

٢- وفريقٌ، معطل وسائل الفطرة كأنه ميت، لا يسمع ولا يستقبل؛ فهو لا يستجيب، ولا يتأثر مهما قام الدليل، واتضح البرهان.

وهؤلاء الكُفَّارُ، شبههم الله تعالى بالموتى فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وهم الأحياء المؤمنون الذين يستجيبون لدعوتك، ومن الذين يدركون بحواسهم وعقولهم، ويتفكرون، ويتأملون، ولا يُعطِّلون أجهزة الاستقبال فيهم.

أما الموتى، وهم الكُفَّار الذين لا يسمعون سماع تَدَبُّرٍ وقَبُولٍ، فالله يبعثهم ويحشرهم يوم القيامة، وينبئهم بما عملوا، ويحاسبهم، ويجازيهم، وشُبِّهُوا بالموتى لعدم الانتفاع بما يسمعون كالأموات؛ لأن الحياة الحقيقية لا تكون إلا بالإسلام، أو المراد حقيقة الموت، وأن الله يبعثهم من قبورهم أحياء؛ ليوفوا حسابهم وجزاءهم ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فينبئهم بما كانوا يعملون.

لقد صَرَفَ الله أنظارَ القوم إلى آيات الهداية والإيمان في الكون، وهي كثيرة لو نظروا إليها،

---

(١) قرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير من (ثم إليه) مع مدها مدًّا طبيعيًّا، وقصرها الباقون.

(٢) قرأ يعقوب بفتح الياء وكسر الجيم من (يرجعون) بالبناء للفاعل، وقرأ غيره بضم الياء وفتح الجيم بالبناء للمفعول.

وانتفعوا بها، وجاء التعبير بلفظ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ لأن السماع طريق العلم بالنبوة والمعجزات.

فكأن المعنى: إنما يستجيب الذين يسمعون فيعون، والكُفَّار سيبعثهم الله ويردهم إلى عقابه، وهم المعرضون عن الدَّعْوَةِ، فهم مثل الموتى لا يستجيبون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل]

وفَقْدُ السمع قد يكون من صمم، أو بسبب الموت؛ ولذا شبههم بالأموات، الذين لا تُرْجَى منهم استجابة؛ لأنهم موتى القلوب، وهذا من باب التهكم والتحقير من شأنهم.

قال قتادة في معنى الآية: هذا مثل المؤمن، سَمِعَ كتاب الله فانتفع به، وأخذ به وعَقَلَه، فهو حيُّ القلب، حيُّ البصر ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ وهذا مثل الكافر أصم أبكم، لا يُبصر هُدى، ولا ينتفع به[1].

ثم يحكي القرآن الكريم قول المكذبين لخاتم النبيين واقتراحهم نزول الآيات، فقال تعالى:

٣٧- ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ[2] ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وبعد أن وجه الله رسوله إلى عدم جدوى نزول الآيات الحسية لإيمان من كَفَر، وبيَّن أنهم في عِداد الموتى؛ لعدم استجابتهم لداعي الهدى، بيَّن هنا ما يطلبه المشركون من المعجزات الحسية، كالتي نزلتْ على الأنبياء السابقين، وأنهم لم يكتفوا بهذا القرآن معجزةً قائمةً إلى يوم الساعة.

ولم يعتدُّوا أيضًا بكثرة الآيات الخارقة؛ كانشقاق القمر، وتكثير الطعام بين يديه، وتسبيح الحصى في كفيه، وما إلى ذلك؛ عنادًا وجحودًا منهم، كأنه ﷺ لم ينزل عليه شيءٌ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: هلَّا أنزل الله علامةً تدل على صِدْقِ محمدٍ ﷺ من نوع العلامات الخارقة التي نزلت على مَن قبله من الرُّسُلِ تضطرهم إلى الإيمان به؛ كنتْق الجبل، وفلْق البحر، ونزول الملائكة، والعصا، واليد، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

(١) ابن أبي حاتم (٧٢٥٣، ٧٢٦٣) وابن جرير (٩/ ٢٣٠).

(٢) قرأ ابن كثير (أن ينْزِل) بالتخفيف في الزاي وإسكان النون، والباقون بالتشديد في الزاي وفتح النون.

قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء].

وتلبية ما اقترحوه من هذه الآيات ونحوها أمرٌ هيِّنٌ على ربِّ العالمين، وقد أمر الله رسوله أن يجيبَهم بأنه لو شاء لأنزل آية كما اقترحوا، ولكن الله لم يرد ذلك؛ لحكمة يعلمها، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد]

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [العنكبوت].

ولما كان القرآن مشتملًا على العلوم، والمواعظ، والحِكم، والأحكام، وأحوال الأنبياء والأمم، مع كونه ﷺ أميًا، قد قضى شبابَه بين قومه وهم يعلمون أميَّته، وقد جعل الله تعالى آيات القرآن الكريم علامةً دالةً على صِدْقِه ﷺ، ولم يشأ الله تعالى أن يجعل المعجزات الكونية علامةً على صِدْقِ الدَّعْوَة؛ لأنها دعوة قائمةٌ إلى يوم القيامة، والمعجزات الحسية تقتصر رؤيتها على جيلٍ دون جيلٍ، بخلاف القرآن الكريم فهو معجزة الأجيال إلى قيام الساعة، وتحقيق المعجزات التي يطلبها القوم أمر هيِّن، غير مُعجِزٍ لله تعالى.

﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول - مجيبًا قومك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ كما طلبوا، ولكن هل نزول هذه الخوارق ستجعلهم يؤمنون؟ إنّ أكثر الناس لجهلهم يطلبون ما هو شر لهم، ومن ذلك الآيات التي لوجاءتهم لم يؤمنوا بها، ولعاجلهم الله بالعقاب، كما هي سنة الله في خلقه.

إنَّ البشر هم البشر، والله سبحانه يقول عمَّن سبقوهم في طلب الخوارق:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

والأمر الآخر: أن الخوارق المادية ينتهي أثرُها بانتهاء الجيل الذي رآها، والإسلام باقٍ إلى يوم القيامة على مدى الأجيال، فلا بد أن تكون معجزتُه خالدةً مصاحبة له مدى صلاحية الرسالة.

ثم إنهم لا يدركون حكمةَ الله تعالى في عدم تلبية ما يطلبون؛ لأنه لو أُجيب اقتراحهم

ولم يؤمنوا؛ فإن سنة الله في خلقه تقتضي أن يُهلكَهم كما حدث للأمم قبلهم، ولكن الله تعالى أراد إمهالَ هذه الأمة؛ لِيَخْرُجَ من ظهورهم ذريةٌ مؤمنةٌ، فضلًا عن إيمانِ مَن آمن، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لو نزلتِ الآيات ولم يؤمنوا؛ لعاجلهم الله بالعذاب.

أَنْوَاعُ المَخْلُوقَاتِ

٣٨- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ثم إن الله تعالى يُنبه على آياته الموجودة في أنواع المخلوقات؛ ليوقظ في نفوس الكُفَّار دلائلَ الهُدَى، وموجباتِ الإيمان، لو أنهم تدبَّرُوها وعَقَلُوها، فها هي بعض الآيات الكونية المنبثَّةِ في الأرض والجوِّ، المعروضة على البصائر والأبصار، من كل ما يَدبُّ على وجه الأرض، وكلُّ ما يطير في جو السماء -أمم من خَلْقِ الله مماثلةٌ لنا، أوجدها الله سبحانه، وتكفل بأرزاقها.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ﴾ كلُّ ما يَدُبُّ على الأرض، من ذكرٍ وأنثى، ممَّا فيه حياة؛ من حيوان، وحشرات، وهوام، وزواحف، وغيرها، من الحيوانات الأرضية، وكلُّ ما يطير في الجوِّ بجناحيه؛ من الحيوانات الهوائية من كلِّ كائنٍ يطير، وذَكَرَ الجناحين؛ لتوجيه الأنظار إلى بديع صنع الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ [الملك: ١٩] كلُّ نوعٍ من ذلك أمةٌ من الأمم، تستوي مع الإنسان في الخَلْقِ والرزق، ونفاذ المشيئة والقدرة، ويلحق بما يطير في الهواء ما يطير في البحر؛ من الأسماك، والحيتان، وغيرهما، وكلُّ خَلْقِ الله لا يخرج عن هاتين الحالتين.

وخصَّ الأرضَ دون السماء وما فيها من مخلوقات؛ لأن الاحتجاج بالمُشَاهَد أظْهَرُ من غير المُشَاهَد، فكلُّ جنسٍ منها أُمَّةٌ؛ الطير أمة، والدواب أمة، والسباع أمة، والجن أمة، والملائكة أمة، ولكلٍّ منها اسمٌ يُعرَفُ به، وكلُّها تعرف الله وتُوحِّدُه، وتسبح بحمده، وتصلِّي له، وكلُّ جنسٍ منها يألف جنسَه، ويفهم لغته، وكلها أمم أمثالنا في الخَلْقِ، والرزق،

والموت، والبعث بعد الموت للحساب، حتى يقتص الله للجماء من القرناء يوم القيامة.

فليس الإنسانُ وحده في هذا الكون، حتى تكون حياتُه مصادفةً، ليس لها هدفٌ ولا غاية، فشأنه شأنُ هذه الأمم في توحيد الله، وبعثه بعد موته، وحشره للحساب والجزاء. وهذه الأمم أكبر من الخوارق، ومن الآيات التي يطلبونها، فهي لجيلٍ واحدٍ، والآيات القرآنية لكلِّ جيلٍ.

والمقصود من الآية: توجيه العقول والقلوب إلى وجود هذه الخلائق وإحصائها في عِلْمِ الله؛ ولذا فإن الله تعالى قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾

والكتاب: هو اللوح المحفوظ، وهو أمُّ الكتاب.

والمعنى: أن الله تعالى أثبت فيه كلَّ شيء وأحصاه، وأحاط به علمًا، فلم يهمل ولم يُغفل منها شيئًا، صغيرها وكبيرها، بل أثبتها في اللوح المحفوظ تجري عليها الحوادث طِبْق ما جرى به القلم، وهذا أحد **مراتب القضاء والقدر وهي أربع**:

١- علم الله تعالى الشامل لجميع الأشياء. ٢- كتابه المحيط بجميع الموجودات.

٣- مشيئته وقدرته النافذة في كل شيء. ٤- خلقه لجميع المخلوقات حتى أفعال العباد.

ثم إن جميعَ الخلائق محشورةٌ إلى ربها في يوم الفصل والجزاء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: تموتون وتبعثون بعد الموت، وتجمعون في عَرَصَات القيامة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: ٥].

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: **«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقَادَ للشاة الجمَّاء من الشاة القرناء»**[1].

وعنه ﷺ قال في معنى الآية: **«يحشر الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم، والدواب، والطير، وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء»** قال: ثم يقول: **«كوني ترابًا»** قال: **«فلذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾»**[2].

---

(١) «صحيح مسلم» (٤/١٩٩٧) برقم (٢٥٨٢) وابن حبان (٧٣٦٣) والمسند (٧٢٠٤، ٧٩٩٩٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم، والترمذي (٢٤٢٠).

(٢) رواه الحاكم (٢/٣١٦) على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والطبري (١١/٣٤٧) ويشهد له «صحيح مسلم» عن أبي هريرة في الحديث السابق.

وعن أبي ذر ﷺ: أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان، فقال: **«يا أبا ذر، هل تدري فيم تنتطحان؟»** قال: لا، قال: **«لكن الله يدري، وسيقضي بينهما»**[(١)].

وقال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذَكَرَ لَنا منه علمًا[(٢)].

المُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا تُجْدِي فِيهِمْ مَوْعِظَةٌ

٣٩- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ[(٣)] يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ[(٤)] مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

ويُختتم هذا السياق بتأكيد أن المكذبين بآيات الله لا يستجيبون للدعوة، ولا تُجدي فيهم موعظة، لأنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى وفتحوا باب الردي، فبعد أن ذَكَرَ الله من مخلوقاته، وآثار قدرته، ما من شأنه أن يعرف الناس بوحدانية الله، ودلائل صِدْقِ الرسول ﷺ، أَعْقَبَ ذلك ببيان أن المكذبين في ضلال بيِّنٍ بعيد عن طريق الهدى والنور، وعن التأمل والتفكر فيه، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: كذَّبوا بحُجَجِ الله، وأدلة توحيده؛ وهي الدلائل الحسية المبثوثة في هذا الكون؛ وكذبوا برسل الله كأجناس الأمم المختلفة المشار إليها في الآية السابقة.

وكذَّبوا أيضًا بآيات الله المُسَجَّلة في هذا القرآن العظيم؛ فلم ينتفعوا بهذا أو ذاك، لأن حواسهم لا تستقبل، وإدراكهم مُعطَّلٌ فهم ﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الحق ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن النطق به فلا ينطقون إلا بالباطل ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: وهم منغمسون في ظلمات الجهل والكفر، والظلم والعناد والمعاصي، ومَثَلُهُم في جَهْلِهِم، وقلَّة عِلْمِهِم،

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٦٢) و(١٧٣) برقم (٢١٤٣٨) وهو حديث حسن، (محققوه) والطبري (١١/ ٣٤٨) وفي بعض رواته جهالة، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٥٢): رجاله رجال الصحيح، وفيه راوٍ لم يُسمَّ، وأخرجه الطيالسي (٤٨٠) وابن أبي شيبة في مسنديهما.

(٢) «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٠٠) و«تفسير الطبري» (١١/ ٣٤٨).

(٣) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (يشأ يجعله) ألفًا في الوصل والوقف، ويوافقه حمزة عند الوقف، أما همزة (يشأ يضلله) التي قبلها فلا إبدال فيها لأحد حالة الوصل، ويبدلها حمزة وأبو جعفر عند الوقف.

(٤) أبدل قنبل ورويس الصاد سينًا من (صراط) وأشمها صوت الزاي خلف عن حمزة.

وعدم فهمهم، كمثل الأصم والأبكم، ومع ذلك فهو في ظلمات لا يُبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق القويم؟

والأصم: هو الذي لا يسمع، **والأبكم**: هو الذي لا يتكلم، وهم يسمعون، ولكنهم لا يستجيبون، ولا ينتفعون بما يسمعون، وهم يتكلمون، ولكنهم لا ينطقون بالحقِّ، فكأنهم صمٌّ لا يسمعون، وبكمٌ لا يتكلمون؛ لأن مَن لا يقبل سماع الحقِّ وينطق به؛ فهو أصم أبكم، فالكافر كالميت الذي لا يسمع ولا يتكلم، وهو مع هذا حائرٌ وغارقٌ في ظلمات الكفر، والجهل، والضلال، والتردد، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] وقال عن الكُفَّار: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠].

ومن وراء ذلك كله مشيئةُ الله تعالى الذي خلق الإنسان مزودًا بالاستعداد للهُدَى والضلال باختياره وإرادته، وهؤلاء لم يختاروا طريقَ الاستقامة، واختيارهم للضلال لا يخرج عن عِلْمِ الله تعالى، ومشيئته المطلقة ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي: يجعله يسير في طريق هواه، وإيثاره العمى على الهُدَى﴿وَمَن يَشَأْ﴾له الهداية ﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأنه خاف مقامَ ربِّه، ونهى النفس عن الهوى، فالحساب والجزاء يكون على هذا التوجه والاختيار مع وضوح الدلائل والبينات.

وإضلال الله للعبد معناه: تقدير الضلال له، وليس أمره بالضلال؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء، بل هو وَفْق رغبة العبد وميوله.

فِطْرَةُ التَّوْحِيدِ كَامِنَةٌ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ

٤٠- ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ[(١)] إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

قل - أيها الرسول - للمكذبين بالله ورسوله: أخبروني إن نزل بكم كرب، أو حلّت بكم داهية، فمن يدفعها عنكم؟ وهل تدعون آلهتكم وأصنامكم لِكَشْفها عنكم أم تدعون ربكم الذي يجيب المضطر إذا دعاه؟

---

(١) سهل الهمزة الثانية من (أرأيتكم) نافع وأبو جعفر، ولورش وجه آخر هو إبدالها ألفًا مع إشباع المد، وحذفها الكسائي، وسهلها حمزة عند الوقف، وحققها غيرهم ومثلها الآية [٤٧].

وبعد أن خاطب الله سبحانه المشركين بالبراهين الحسِّيَّة، والآيات الكونية، وبيَّن لهم إحاطةَ عِلْمِ الله تعالى وشموله -يخاطب فطرتهم الإنسانية في هذه الآية حال نزول بأس الله بهم، لِمَن يلجؤون؟ ومَن يسألونه ومن يدعونه أن يكشف عنهم ما هم فيه من ضُرٍّ؟ كي يتحرك في نفوسهم هذا الإيمان الكامن، وتتعرى الحقيقة وتتكشف؛ فيقودهم ذلك إلى إظهار الإيمان، والاستجابة إلى فطرة الله تعالى التي أودعها فيهم، وأخذ عليهم الميثاق وهم في أصلاب آبائهم؛ حتى يعرفوا الله في الرخاء كما عرفوه في الشدة. وهذه الآية تذكُر أحوالًا قد تعرض للإنسان؛ فيلجأ فيها إلى الله تعالى، مع استمرارهم في ضلالهم وكُفْرِهم، حتى يأتيَهم العذاب، أو تقوم الساعة.

والدعاء نوعٌ من أنواع العبادة، يتقرب به العبد إلى الله ﷻ، وإن لم يجد العبد إجابةً فوريةً للدعاء، فإن حكمة العليم القدير تكون قد اقتضت.

أن يُؤجل الله له إجابةَ الدعاء إلى وقتٍ لاحق، أو إلى الدار الآخرة.

أو يرفع الله عنه بهذا الدعاء، من الضرِّ والبأس، ما هو في عِلمِ الغيب ولا يعلم به.

أو يرفع الله له به درجات عنده.

والمؤمن من شأنه إن أنعم الله عليه نعمةً أن يحمد الله سبحانه على هذه النعمة ويشكره، ويكون ذلك خيرًا له.

وإن أصابه ضُرٌّ؛ من مرض، أو فقر، أو بأس، أو هزيمة، ونحو ذلك، فإنه يصبر ويأخذ بالأسباب الدنيوية في تحقيق ما يسعى إليه، ويلجأ إلى الله سبحانه، أولًا وآخِرًا، أن يرفع عنه هذا البلاء.

يقول المصطفى ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له»**[1].

فالمؤمن مأجورٌ على كل حال، هذا نوع من البشر هم المؤمنون.

أما الكافر المشرِك إذا وقع في شدَّةٍ، فإن فطرة التوحيد الكامنة في نفسه، التي خلقها الله فيه، وغرسها في جميع الخَلْقِ، هذه الفطرة تظهر من المشرِك الكافر في وقت الشدة و البأس؛ فيلجأ إلى الله وحده، ويدعوه، وينسى شرْكَه الذي يُشركه مع الله جل شأنه، و هذا هو النوع الثاني من البشر.

والقرآن الكريم يبيِّنُ لنا موقف الكُفَّار المشركين حينما يقعون في الشدة والبأس، فهم يلجؤون إلى الله سبحانه، في حالة الشدة والضر، فإذا انكشف عنهم هذا البلاء نسوا ربهم، ورجعوا إلى شركهم وكفرهم.

---

(١) من حديث صهيب في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٩).

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وهناك نوع ثالث من البشر، يغفلون عن ربِّ العزة ﷻ في جميع أحوالهم والعياذ بالله، فترى العبد وهو في حالة الشدة والرخاء، وفي حالة السراء والضراء، إن وقع في شدة، أو مكروه أو ضُرٌّ، فهو يَغفَل عن ربِّه في كلِّ حالٍ؛ والسبب الغفلة،واستحواذ الشيطان عليه، وهو إن أصابه خيرٌ ونعمةٌ لايشكر الله سبحانه بقلبه ولسانه، وأفعاله، وربما ظن أنه أهلٌ لهذه النعمة،جدير بها، مستحق لها دون غيره، أو أنه أوتيها عن عِلْمٍ وخبرة وحنْكَة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ أي: إن نزل بكم في الدنيا قبل الموت لونٌ من ألوان العذاب، كأن يهيج البحر بالسفينة، أو تعصف بهم الرياح، أو تجرف السيول منازلهم، كما نزل بالأمم السابقة من الغرق، أو الصعق، أو الخسف، أو المسخ، أو الريح العاتية، أو الزلازل المدمرة والبراكين، وغير ذلك ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي تُبعثون فيها؛ وهي يوم القيامة، تأتيكم بغتة وفيها العذاب.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ هل هناك أحد غير الله سبحانه تلجؤون إليه في هذا الوقت كي يكشف عنكم هذا الضر؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مُحقين في زعمكم أن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله تنفع أو تضر، وفي هذا دعوةٌ لهم إلى النظر في أن الله تعالى إذا أراد شيئًا بخَلْقِه لا يدفعه عنهم غير الله سبحانه، ثم قرر سبحانه أن الله تعالى هو الذي يدعونه فيكشف ما بهم من ضر، قال تعالى:

٤١- ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

قال سبحانه مؤكدًا أنهم عند الشدائد والكربات لا يلجؤون إلا إلى الله تعالى:

أي: أنكم تدعون الله وحده حتى يكشف عنكم الضر بمشيئته، فلا تلجؤون في حالة الضرورة إلا إلى الله وحده، وتنسون شرككم الذي طرأ عليكم؛ بسبب التقليد الأعمى،

أو بسبب اتباع الآباء والأجداد.

ولا تدعون إلا ربَّكم الذي خلقكم لا غير، وتستغيثون به؛ فيفرج عنكم البلاء الذي نزل بكم إن شاء؛ لأنه القادر على كل شيء، وتتركون حينئذٍ أصنامكم، وأوثانكم، وأولياءكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقيَّد سبحانه إجابةَ الدعاء بالمشيئة؛ رعايةً للمصلحة، وإن كانت الأمورُ كلُّها بمشيئة الله تعالى.

قَسْوَةُ الْقُلُوبِ تُبْعِدُ الْعِبَادَ عَنْ رَبِّهِمْ

٤٢- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ(١) وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

وتمضي الآيات بعد بيان أن المشرك يلجأ إلى الله وحده إذا وقع في شدة، ولا يدعو مَن يشركه مع الله في هذه الحال، وهو ينسى ربَّه في حال الرخاء، فيذكر الله سبحانه مثلًا من الواقع التاريخيِّ للبشرية حين ينزل بهم بأسُ الله تعالى لمَّا كذَّبوا رسلَه، ولم يستجيبوا لهم، ولمَّا لم يتعرفوا على الله تعالى، ولم يتضرعوا إليه.

وهكذا يضرب القرآن الكريم المثل بالأمم السابقة، التي ابتلاها الله سبحانه بألوان من البأساء والضراء، والشدة والرخاء؛ بسبب أن الله تعالى أرسل إليهم رُسُلًا، فدعوهم إلى الإيمان والتوحيد والعبادة، ولكنهم كفروا بهؤلاء الرُّسُلِ، ولم يتعرفوا على الله في الشدة؛ وحينئذٍ استدرجهم الله تعالى استدراجًا، وعاقبهم على سوء فعلهم.

(١) أبدل همزة (بالبأساء) الأولى ألفًا أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، وعند الوقف حمزة، وحققها الآخرون وصلا ووقفا.

وكلُّ نعمة لا تُقرب العبدَ من ربِّه فهي بليَّةٌ، وهذا الخير والنعيم ابتلاءٌ من الله سبحانه، حيث يبتلي الله العبدَ بالغِنَى، كما يبتليه بالفقر، ويبتليه بالصحة، كما يبتليه بالمرض، هذا ابتلاءٌ وهذا ابتلاءٌ، والمطلوب من العبد أن يشكر الله سبحانه في الرخاء، وأن يدعوَه ويلجأ إليه في الشدة، ويصبر على ما أصابه في حالة البأساء والضراء.

فإذا فُتِحتْ عليه أبوابُ الخيرات والأرزاق من حيث لا يحتسب، ومن غير كَدٍّ يُذْكَرُ، ولا تعب، ولا كبير نَصَبٍ؛ فإنه لا يغتر، ولا يتكبر على خَلْقِ الله، ويترفع عليهم، ويظن أن المال خيرٌ من العلم؛ فيفتخر على الناس، ويشمت فيهم، ويقول: انظروا إلى فلان، وانظروا إلى فلان، ولا يشكر الله عليه، وعندئذٍ يأتي عذابُ الله تعالى وانتقامه لهذا النوع من الناس المتكرر على مرِّ العصور.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من القرون السابقة، يدعونهم إلى الإيمان؛ فكفروا بهم، وكذبوهم، وجحدوا بآياتنا، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ ابتليناهم بشدة الفقر، وضيق العيش، وابتليناهم بالأمراض والآلام والمصائب والآفات. **وأَخْذُ الأمم بالعقاب فيه حكمتان:**

إحداهما: زجرهم عن التكذيب.

وثانيهما: إكرام الرُّسُلِ بالتأييد بمرأى من المكذبين.

وفي ذلك إشارةٌ للنبي ﷺ بأن الله ناصره على مَن كذَّبه، وقد فعل الله بهم ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى ربهم، ويتذللون له، ويخضعون لجَنَابِه، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، وإصابة الأقوام بالجوع والمرض ونحوهما، مقدمة للعذاب الأكبر؛ أي: قبل أن يستأصل

الله شأفتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة].

وفي القرآن أمثلةٌ كثيرة على ذلك كما حصل لقوم فرعون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف] لعلهم يرجعون إلى الله ﷻ؛ فيرفع عنهم البلاء، ويفتح عليهم أبواب الخير، ولكن قست قلوبهم، وزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم، والقلب الذي لا تَرُدُّه الشدة إلى الله تعالى قلبٌ تحجَّر؛ فلم يعد يشعر بوخز الضمير، وهنا يأتي العقاب الإلهي كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. قال تعالى:

٤٣- ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

ثم عاتبهم الله سبحانه على ترك الدعاء و ترك التضرع إليه، وأخبر أنهم لم يفعلوا ذلك، والله سبحانه يقول: هلَّا حين أصابهم الضر والشدة رجعوا إلى الله سبحانه، ولجؤوا إليه أن يكشف ما بهم من ضر وشدة، ويتوبوا إلى خالقهم، ولكن بدلًا من ذلك ظهر منهم نقيض ذلك ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تحجَّرتْ؛ فلم تتضرع، ولم تخشع، بل أقاموا على كفرهم وتكذيبهم.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أغواهم الشيطان، وحسَّن لهم أعمالهم السيئة، فظنوا أن ماهم عليه دين الحق، فتمتعوا في باطلهم بعض الوقت، ولعب الشيطان بعقولهم، حيث وَجَدَ من طباعهم عونًا له على نفث مراده فيهم؛ فأغراهم وزَيَّن لهم تلك القساوة، وقد بيَّن الله سبحانه أن أمرين حَالَا بينهم وبين التوبة والتضرع إلى الله تعالى وهما:

١- قسوة القلوب التي صارت كالحجارة أو أشد قسوة.

٢- وتزيين الشيطان لهم أعمالهم السيئة؛ فأوقعهم في الشرك، والكفر، والمعاصي؛ فأصروا على ما هم عليه من الشرك والمعاصي.

كَثْرَةُ النِّعَمِ قَدْ تَكُونُ سَبَبًا فِي الهَلَاكِ

٤٤- ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا[1] عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قال: **«إذا رأيتَ الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب؛ فإنما هو استدراجٌ»** ثم تلا الآية (فلما نسوا)[2].

ثم بيَّن ﷻ أنه قد ابتلاهم بالنعم بعد أن عالجهم بالشدائد فلم يرتدعوا، وشأنُ المؤمن أن يصبر على البلاء فيحتسب ولا يَجْزَع، ويشكر الله على نعمه، ويحمده عليها، وهو محظوظ في كلا الحالتين.

وبعد الوعظ والتذكير، وإعطاء الأمم المكذبة الفرصة بعد الفرصة، يَستدرجهم الله تعالى؛ فيغدق عليهم نعمه، ويفتح لهم أبواب الخير، ومع ذلك لم يشكروا الله تعالى، ولم يحذروا فتنته؛ لأن فطرتهم قد فَسَدَتْ، ولا يُرْجَى صلاحُها، وحينئذٍ ينزل بهم عقابُ الله تعالى فيستأصل شأفتهم؛ لأن حَياتهم لم تعد تصلح للبقاء.

أما الأمم التي كذَّبتْ رسلَها فإنهم لمَّا تركوا العمل بأوامر الله، وأعرضوا عنها؛ استدرجهم الله تعالى بعد أن ابتلاهم؛ فأعطاهم من النعم، والمتاع والسلطان، ما تدفَّق عليهم كالسيول، بلا حواجز ولا قيود، فأبدلهم الله بالبأساء رخاء في العيش، وبالضراء صحة في الجسم؛ استدراجًا منه سبحانه، حتى إذا بطروا، وأُعجبوا بما أعطاهم الله؛ أخذهم بالعذاب فجأة، فإذا هم آيسون من كل خير، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من عظيم عقابه، بما قدم إليهم من البأساء والضراء؛ أي: فلما لم يتعظوا بما ذُكِّروا به من اتباع أوامر الله تعالى، وتَرْك نواهيه؛ فتحنا عليهم الخيرات والأرزاق، تتدفق عليهم من كلِّ طريق، من غير كَدٍّ ولا تعب، ومن حيث لا يتوقعون، استدراجًا لهم، وهذا معنى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي من الدنيا وشهواتها ولذاتها.

وذلك أنهم لمَّا أعرضوا عن الاتعاظ بما ذكَّرهم الله به؛ رَفَعَ عنهم العذاب، وفتح عليهم أبواب الخير؛ فازدادوا كفرًا وطغيانًا، وكانوا أهلا لنزول العذاب بهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) قرأ ابن عامر وابن وردان وابن جماز ورويس بخلف عنهما بتشديد تاء (فتحنا) للتكثير، وقرأ الباقون بالتخفيف، وهو الوجه الثاني لابن جماز ورويس، وهما لغتان.

(٢) حديث حسن بمجموع طرقه، أخرجه الطبراني (١٣/ ٣٣١) برقم (٩١٣، ٩١٤) وفي الأوسط (٦٨، ٩٢) والطبري (١١/ ٣٦١) وقد حسنه العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ١٣٢) والمناوي في «التفسير» (١/ ٩٩) وهو في «المسند» (١٧٣١١) وابن أبي حاتم (٧٢٨٨) والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠) وابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» (٣٢) وفيه ابن لهيعة، قال محققو «المسند»: حديث حسن، فيه رشدين بن سعد وباقي رجاله ثقات، وينظر «السلسلة الصحيحة» (٤١٤).

وقد أناط الله نزولَ الخيرات بالإيمان والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف]

وهكذا الشأن في جميع الأمم، فقد قال تعالى عن اليهود والنَّصارَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

أما الفرح المذموم المصحوب بالبَطَر والاستعلاء فهو سببٌ لنزول العقاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] وهذا بخلاف الفرح المحمود الذي لا يصحبه الأشر والطغيان والتعالي، فهو أمرٌ مطلوبٌ، كما قال تعالى:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ فرح بطر وأشر وتجبر وتعالٍ واحتقار لغيرهم ﴿أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً﴾ أي: أهلكناهم فجأة على غرة من غير ترقب ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ قد انقطع رجاؤهم، فهم آيسون من النجاة، ومن الخلاص، ومن كلِّ خيرٍ. قال تعالى:

٤٥- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: فكانت النتيجة أن استأصل الله هؤلاء القوم وأهلكهم؛ جزاءَ كُفْرِهم بالله وتكذيب رُسُلِه، ولم يُبقِ منهم أحدٌ، فاستأصل شأفتهم، ومحا آثارَهم، ولم يتخلف منهم أحدٌ، بل أهلكهم الله مِن أولهم إلى آخرِهم.

والشكر والثناء لله تعالى على نصرة أوليائه، وهلاك أعدائه، فمن رحمة الله بعباده، ومن نعمه عليهم تطهيرُ الأرض من الظالمين؛ فاستحق سبحانه الحمد والثناء على ذلك، فقد أخذ الله قومَ نوحٍ، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم، مع ما كان لهذه الأمم من حضارات عريقة، وتمكين في الأرض، ورخاء ومتاع، وسلطان وجاه، وذلك وَفْق سُنَّةِ الله تعالى في خَلْقِه حين يستدرج الأمم المتمردة على رسل الله تعالى.

وإذا كان الله سبحانه قد رَفَعَ عذاب الاستئصال عن هذه الأمة، بعد بعثة النَّبيِّ ﷺ، فهناك ألوانٌ من العذاب الدنيوي للأمم المترفة الخارجة على حدود الله وشَرْعِه، يتمثل في صور كثيرة قائمة في هذه الشعوب؛ من العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ

الجنسي، والانحلال الخُلُقِي، وحياة النكد، والقلق، والشقاء التي تُغطي على الإنتاج، والرخاء، والمتاع، وهذا تنبيهٌ من الله سبحانه على سُنته في تدمير الباطل.

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف].

وقد ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تلقينًا من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين؛ كي يحمدوا الله تعالى على هلاك الظالمين المشركين، وعلى نَصْرِ المؤمنين الموحدين، وهذه نعمة من الله تعالى يستحق الحمد عليها، فيكون الله تعالى قد أَثْنَى على نفسه، وعلَّمَنَا كيف نحمده، ونثني عليه، وفي هذا تعجب من إمهال الله لهم، واستدراجه إيَّاهم إلى أَنْ حَقَّ عليهم العذابُ.

فالحمد لله على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين، وفي هذا إكرام لأولياء الله، وإهانة لأعدائه، وتصديق لما جاءت به رسل الله.

صُورَةٌ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

٤٦- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ[1] ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ[2] ﴿٤٦﴾﴾

ثم يذكُر القرآن الكريم صورةً من صور بأس الله تعالى التي إن أصابت أحدًا من خَلْقِه؛ فإنه يقف عاجزًا أمامها تمامًا، لا يستطيع لها ردًّا ولا إصلاحًا، فماذا لو سَلَبَ الله من الإنسان سمعَه فأصبح لا يسمع، أو أخذ بصره فأعماه، أوغطَّى على قلبه فأصبح لا يعرف شيئًا؟ ماذا لو تعطلت هذه الأعضاء فاختل نظام الإنسان، وأصبحت أعضاؤه لا تؤدي وظائفها، ولا ينتفع بها؟ فأيُّ إلهٍ غير الله يَقْدِرُ على ردِّها إليكم؟

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فأصبحتم بلا سمع ولا بصر ولا

(١) قرأ الأصبهاني بضم الهاء من (به انظر) تبعًا لضم ثالث الفعل، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاي من (يصدفون) والباقون بالصاد الخالصة.

عقل، والقلوب يراد بها العقول في كلام العرب؛ لأن القلب يمد العقل بقوة الإدراك، وهذه الثلاثة هي أشرف أعضاء الإنسان وأهمها، وعليها تتوقف مصالحه الدينية والدنيوية، فماذا لو سلبها الله منكم كما أعطاكم إياها؟ فهلَّا شكرتم الله تعالى على نعمه.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك].

وهلَّا استعملتم هذه الجوارح فيما خُلقت لأجله؟ فإذا كان الله تعالى هو المتفرد بخلق هذه الحواس، فإنه سبحانه هو المتفرد بالوحدانية والألوهية، وهو المستحق للعبادة دون سواه وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وهل هناك أحد غير الله، يردُّ عليكم أسماعكم وأبصاركم إذا سلبكم إيَّاها؟ ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ لا أحدَ يستطيع ردَّها إلا خالقها، وماذا لو أن الله تعالى منعكم الانتفاع بها، فختم على سمع الإنسان وقلبه وجعل على بصره غشاوة؟ ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ تأمل - أيها الرسول - كيف ننوع الحجج، ونعدد البراهين الناطقة بوحدانيتنا، وصِدْقِ الرُّسُلِ، وتعجَّبْ من أحوالهم كيف يعرضون عن آيات الله ولا يعملوا بها.

فتصريفُ الآيات: اختلافُ أنواعها؛ مرة ببعض المُشَاهَدات في السموات والأرض، ومرة بدلائل التوحيد في الأنفس، ومرة بأحوال الأمم، وهكذا، والمراد بالآيات في هذه الآية أدلة التوحيد الكونية.

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: أنهم مع ذلك كله يعدلون عنها إلى غيرها، ويعرضون عن التذكير والاعتبار بها، ومعنى ﴿يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون إعراضًا شديدًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]. وهذه صورة أخرى:

٤٧- ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ثم يذْكُر الله تعالى للمشركين به، المكذبين برسله، صورةً أخرى من صور نزول بأس الله بهم مع عدم قدرتهم على دَفْعِ هذا البأس، أو ردِّه عنهم، وذلك إذا وقع العذاب بهم فجأة، ليلًا أو نهارًا، فأهلكهم، فماذا يملكون لدَفْعِه عن أنفسهم؟ وقد ذَكَرَ القرآن الكريم صورًا كثيرة من مصارع الظالمين، وبيَّن آثارَها، وحدَّد معالمها، وهؤلاء المكذبون لخاتم

الرُّسُلِ ﷺ ليسوا بأعز على الله منهم!

أخبروني أيها القوم، ماذا لو أن عقاب الله حلَّ بكم فجأة، دون مقدمات، ولا ظهور علامات لنزوله، أو حلَّ بكم علانية ترَوْنَه بأعينكم في ساعة من ليلٍ أو نهارٍ، فماذا أنتم فاعلون؟ ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ من غير ترقبٍ، على غِرَّةٍ وأنتم لا تشعرون به ليلًا ﴿أَوْ﴾ أتاكم ﴿جَهْرَةً﴾ أي: علانية، وأنتم تنظرونه نهارًا.

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؟ وهم الذين كانوا سببًا لنزول العذاب بهم، لأنهم ظلمة معاندون، والمراد بالقوم الظالمين المخاطبون أنفسهم، والظلم هو الشرك في الآية؛ أي: سواء نزل بكم العذاب بغتة أو جهرة، وأنتم نائمون، أو وأنتم مستيقظون، فإن الهلاك لن يحل إلا بالقوم الظالمين، الذين تجاوزوا حدودَ الله؛ فصرفوا العبادةَ لعباده، وكذَّبُوا رسله، وفي الآية تهديدٌ ووعيدٌ لهم، فاحذروا أن تقيموا على الظلم فإنه الهلاك الأبدي والشقاء السرمدي.

والعذاب الذي يأتي بغتة هو الذي لا تسبقه علامة، والذي يأتي جهرة هو الذي تسبقه علامة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] وقال: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

أما المؤمنون الذين وحَّدُوا الله سبحانه، وصدَّقُوا رسله؛ فإنهم بمنجى من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝١٨﴾ [فصلت] ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام].

وَظِيفَة الرُّسلِ

٤٨- ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ(١) عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

وتُختم هذه المشاهِد ببيان وظيفةِ الرُّسُلِ الذين يطالبهم المكذبون بخوارق العادات، فيذكُر الله سبحانه أن الرُّسُلَ ليس في إمكانهم تلبية هذه الاقتراحات؛ لأنها من عند الله، ومهمتهم هي تبشير مَن أطاع الله بالنعيم المقيم يوم لقائه، وإنذارُ مَن عصى الله تعالى،

(١) قرأ يعقوب بفتح الفاء وعدم التنوين من لفظ (خوف) والباقون بالرفع مع التنوين.

وأقام على كفره بالعذاب الأليم ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ هذه هي مهمتهم، وهذه هي وظيفتهم، فإرسالُ الرُّسُلِ للتبشير والإنذار، وليس من وظائفهم تلبية المقترحات التي تُطلب منهم، ثم إن الناس انقسموا تجاه المبشر به والمنذر به إلى قسمين، فمنهم من آمن ومنهم من كذب:

﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بقلبه من خَلْقِ الله، وصدَّقت جوارحُه هذا الإيمان، وامتثل أَمْرَ ربِّه فآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: عمل صالحًا بقلبه وجوارحه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما سيأتي؛ لأنهم في مَأْمَنٍ من عذاب الله ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مَضَى، فالله تعالى يعفو عمَّا سلف، وإذا كان هذا ثواب المؤمنين، فما عقوبة الكافرين؟ قال تعالى:

٤٩- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وبعد أن طمأن الله سبحانه عبدَه المؤمن على ماضيه، وحاضره، ومستقبله، بيَّن الصنف الثاني من البشر، وهم الذين كذَّبُوا القرآن، وكذَّبوا معجزات الرُّسُلِ، فإن العذاب يُصيبهم؛ بسبب كفرهم، وخروجهم عن طاعة الله تعالى، وحقيقة المس مباشرة الجسم باليد، ويطلق على ما يُصيب المرء من خير أو شَرٍّ.

ولَما كان مِنَ المقترحين على النبي ﷺ نزول الآيات الحسيَّة، مَن قال له: إنما تَدعونا لنتخذك إلها مع الله، أنزل الله تعالى على رسوله:

٥٠- ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ[1] قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

لقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ، إن كان رسولًا حقًا، أن يُنزِّلَ عليهم كنزًا من السماء، أو أن يجعل الصفا والمروة -وهما جبلان- جبلين من ذهبٍ، وأن يدعوَ الله لهم فيوسع عليهم، ويغني فقيرهم، ويُقَوِّي ضعيفهم.

---

(١) وقف يعقوب بهاء السكت بخلف عنه على لفظ (إليَّ) من قوله تعالى: (إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ) وذلك لبيان حركة الحرف الموقوف عليه، ووقف الباقون بتسكين الياء المشددة.

قالوا: وإن كنتَ رسولًا فأَخْبِرنا عمَّا يحدث لنا في المستقبل من الضَّراء، ومن الابتلاء والمحن؛ لكي نتقي ذلك، ونتجنبه، وإن كنت رسولًا فاصْعد إلى السماء، وأْتِ لنا بكتاب في قرطاس؛ أي: مكتوب في ورق ملموس ومحسوس يَشْهَدُ لك، أو يَنْزِل عليك ملَك من السماء يؤيدك.

والله ﷻ يبيِّنُ في هذه الآيات أن مهمة الرُّسُلِ أن يبلغوا أقوامَهم دعوةَ الله، ويبشروهم رضوان الله وجنته إن هم آمنوا واتبعوا هديه، ويخوفوهم من عذاب الله وناره إن هم عصَوْا وأعرضوا عن دعوةِ ربهم، هذه هي مهمةُ الرُّسُلِ.

والرُّسُلُ بشرٌ يُوحَى إليهم، ولا يملكون شيئًا آخر، والرسول محمدٌ ﷺ منهم، ليس بيده خزائن، ولا مفاتيح الخزائن، حتى ينزِّل عليهم كنزًا، أو يصيِّر لهم الجبال ذهبًا، وهو لا يعلم الغيب حتى يخبرهم بالمستقبل، ولا هو بملَك حتى يعمل أعمال الملائكة.

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى نبيَّه أن يعرِّف المشركين بطبيعة الرسول؛ فيقول لهم:

١- إني لا أَدَّعِي أني أَمْلِكُ خزائن السموات والأرض، حتى أتصرف فيها فأحوِّل لكم الجبل ذهبًا، أو أجعل الفقير غنيًّا، أو أرفع من مستوى المعيشة بالنسبة لكم، كما طلبتم مني، وإنما هذا بيد الله وحده، ذلكم قول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي مفاتيح رزقه ورحمته.

٢- ولا أدعي أني أعلم الغيب، حتى أخبركم عن الماضي، وعمَّا يحدث في المستقبل؛ كي تجلبوا المصالح لأنفسكم، وتدفعوا عنها المضار، وهذا معنى ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ فأخبركم بما تريدون كما طلبتم، والله وحده هو عالم الغيب والشهادة، فلا يُظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول، وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده.

٣- ولا أدعي أني ملَك، فالملَك يَقْدِرُ على ما لا يقدر عليه البشر، ويُشاهِد ما لا يشاهدون ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ حتى تكلفوني الصعود إلى السماء، وعدم المشي في الأسواق، وعدم الأكل والشرب، وإنما أنا رسول الله، أتبع ما يُوحَى إليَّ، وأبلغه للناس، وليس بيدي ما تقترحون من الآيات ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فلست نافذ

التصرف، ولا أدّعى شيئًا فوق منزلتي، وإنما أدعو الخلق إلى توحيد الله، وأترسّم ما أمرني به ربي.

فأنا لا أدعي شيئًا من هذه الثلاثة، حتى تجعلوا عدم تلبيتها دليلًا على عدم صدقي، فلا تُلزموني أن أدّعى لنفسي مرتبة فوق مرتبتي.

قل - أيها الرسول- لهؤلاء المكذبين: هل يستوي الكافر الذي عَمِيَ عن آيات الله؛ فلم يؤمن بها، ولم يعمل بمقتضاها، والمؤمن الذي أبصر آيات الله؛ فآمن بها واهتدى بهديها؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الذي لم يستجب للحق، ولم ينتفع به ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ الذي آمن واهتدى؟ واتبع الوَحْي الذي يخرجه من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أنهما لا يستويان، وتتأملوا في آيات الله، وعجائب خَلْقِه؛ لتبصروا الحقَّ فتؤمنوا به.

وهذه الآية نزلت حين قال المشركون للنبي ﷺ: إن كنتَ رسولًا حقًّا فاطلب من ربك أن يوسع علينا، ويغني فقيرنا، وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا، فأخبرهم أن ذلك بيد الله[١].

والمعنى: قل يا محمد لمَن يطلبون منك سَعَةَ الرزق ومعرفة الأحوال: ليس عندي خزائن الرزق فأعطيكم منها ما تريدون، فإن الخزائن بيدِ الله، ولستُ أعلم الغيب حتى أخبركم بما مَضَى، وما يقع في المستقبل، فعِلْمُ ذلك عند الله، ولست ملَكًا فأطلع على ما لم يطلع عليه الناس، وأقدر على ما لم تقدروا عليه. قال تعالى:

٥١- ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

وبعد أن أمر الله نبيه بتوجيه دعوته إلى الناس كافة، أمره على وجه الخصوص أن يجتهد في تبليغ الرسالة إلى كلِّ مَن يتوقع منهم الصلاح والاستجابة، ممَّن تُرجَى هدايتهم مِن عصاة المؤمنين الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وهم الذين يخشون ربهم، ويخافون عقابه.

فقال سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ﴾ أي: عِظْ وخوِّفْ يا محمد بهذا القرآن المؤمنين بالبعث، المصدِّقين بيوم الحساب، وهم الذين يعلمون أنهم

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٢/١٦).

محشورون إلى ربهم، مصدِّقون بوعده ووعيده، وهم ممَّن تعتريهم الرهبة عندما يتذكرون أهوال القيامة؛ لأنهم يعلمون أنه يومٌ لا تنفع فيه خلَّة ولا شفاعة، ويعلمون أنه ليس لهم غير الله وليًّا ينصرهم، ولا شفيعًا يشفع لهم.

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ﴾ يتولى أمرهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم، فيحصل لهم المطلوب ويدفع عنهم المحذور، وهؤلاء هم الذين يخشَوْنَ ربهم، ويخافون سوء الحساب، وهم الذين من خشية ربهم مشفقون، وهم الذين تُرجَى هدايتهم، وتأثرهم بالمواعظ والعِبَر؛ ولذا خُتمتِ الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: رجاء أن يمتثلوا أوامرَ الله تعالى، ويجتنبوا نواهيه؛ فيعملوا في الدنيا أعمالًا تنجيهم من عذاب الله، وتضاعف لهم الأجر والمثوبة، فإن الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابه.

وعلى هذا؛ فالمراد بالذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم كلُّ معترف بالبعث، والمعاد، والحشر، والحساب، من العصاة الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ومعلومٌ أن النَّبِيَّ ﷺ مأمورٌ أن يبلِّغَ دعوته إلى جميع الخَلْقِ، من كلِّ معترف بالحشر، ومنكر له، فينذر مَن اعتقد بصحة يوم البعث، ومَن أنكر ذلك، ومن شَكَّ فيه، والكُفَّارُ ليس لهم يوم القيامة وليٌّ ولا شفيعٌ ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] لا شفيع مطاع ولا غير مطاع، والآية محمولةٌ على كل هذا؛ أي: أن الدَّعْوَة والإنذار لجميع الخَلْقِ، وإن كان العصاة وكلُّ مَن يؤمن بالبعث من أهل الكتاب، هم المعنيون بالدرجة الأُولى، فهم الذين ينتفعون بالوَحْيِ والدَّعْوَةِ، وقيام الحُجَّةِ عليهم تكون آكد؛ لاعترافهم بالبعث والنشور.

قال عكرمة: جاء عتبة وشيبة ابنا ربيعة، ومُطْعِم بن عدي، والحارث بن نوفل، في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر، إلى أبي طالب عمِّ النَّبِي ﷺ فقالوا: يا أبا طالب، لو أن ابن أخيك محمدًا يَطْرُد عنه موالينا وحلفاءنا، فإنهم **عبيدنا وعُتقاؤُنا**، كان ذلك أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إيَّاه، وتصديقنا له؛ فأتى أبو طالب النَّبِي ﷺ فحدثه بالذي كلموه به، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون؟ وإلى ماذا يصيرون؟ فأنزل الله ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فجاء عمر؛ فاعتذر من مقالته[1].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١١/ ٣٧٩).

الإِسْلَام مَعَ مَنْ أَجَابَه وَلَوْ كَانَ مِنْ غَبَرَةِ النَّاسِ

٥٢- ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ[1] وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

جاء في أسباب النزول لهذه الآية ما يأتي:

١- عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء، **لا يجترئون علينا**، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال، ورجلان لست أسمِّيهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه؛ فأنزل ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[2] والنفر الست هم: سعد، وصهيب، وعمار، والمقداد بن الأسود، وخباب، وابن مسعود.

٢- وقال ابن مسعود ﷺ: مرَّ ملأ من قريش بالنَّبِيِّ ﷺ وعنده صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، رضيتَ بهؤلاء بدلًا من قومك؟ أهؤلاء الذين **مَنَّ الله عليهم من بيننا**؟ أنحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك؛ فنزلت الآية[3].

٣- وجاء في بعض الروايات أن هذه الآية لمَّا نزلت كان النَّبِيُّ ﷺ يقعد مع هؤلاء الضعفاء، فإذا انتهى قام من مجلسه وتركهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] قال خباب: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد ذلك، وندنو منه حتى كانت ركبتنا تمس ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم

---

(١) قرأ ابن عامر بضم الغين وإسكان الدال بعدها واو مفتوحة في (بالغدوة) على أن (غدوة) نكرة دخلت عليها لام التعريف، وقرأ الباقون بفتح الغين والدال بعدها ألف (بالغداة) على أن (غداة) اسم لذلك الوقت، ثم دخلت عليها لام التعريف.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٣) والنسائي في التفسير (١٨٣) وفي «السنن الكبرى» (٨٢٢٠) وابن ماجه في الزهد (٤١٢٨) وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٣/ ٣١٩) ورواه ابن جرير (٧/ ١٢٨) وأبو يعلى (٨٢٦) والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٥٣).

(٣) رواه أحمد في «المسند» برقم (٣٩٨٥) وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه: إسناده صحيح وحسنه محققو المسند، ورواه الطبري (١١/ ٣٧٩) والطبراني (١٠٥٢٠) وابن أبي حاتم (٧٣٤٢).

فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم، وقال لنا: «الحمد الله الذي لم يُمتْني حتى أمرني أن أُصبِّر نفسي مع قوم من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات»[1].

٤- وعن أبي سعيد، عن أبي الكنوز، عن خباب بن الأرت قال: فينا نزلتْ، كنا ضعفاء عند النَّبِي ﷺ بالغداة والعشي، فعلَّمَنَا القرآن والخير، وكان يخوفنا بالجنة والنار وما ينفعنا، والموت والبعث، فجاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فقالا: إنا من أشراف قومنا، وإنا نكره أن يرَوْنا معهم، فاطردهم إذا جالسناك، قال: **«نعم»** قالوا: **لا نرضى حتى تكتب بيننا كتابًا**، فأُتي بأديم ودواء؛ فنزلت الآيات، فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة، ثم دعانا فأتيناه، قال: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعدُ فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا، وتركناه حتى يقوم[2].

٥- وقال ابن عباس ﷺ: إن بعض الكُفَّار طلبوا من النَّبِي ﷺ أن يؤخر هؤلاء الضعفاء عن **الصف الأول** في الصلاة، ويقدمهم[3].

٦- وروى البيهقي أن رؤساء قريش قالوا للنبي ﷺ: لو طردت هؤلاء الأعبد وأرواح جِبابهم (جمع جُبَّة) جلَسْنا إليك وحادَثْناك، فقال: **«ما أنا بطارد المؤمنين»**، قالوا: فأقمهم عنا إذا جئنا، **فإذا قمنا فأقعدهم معك** إن شئتَ، فقال: **«نعم»** طمعًا في إيمانهم؛ فأنزل الله الآية.

٧- وقال مجاهد: كان أشراف قريش يأتون النَّبِي ﷺ وعنده بلال، وسلمان، وصهيب، وغيرهم مثل: ابن أم عبد، وعمَّار، وخباب، فإذا أحاطوا به قال أشراف قريش: بلال حبشي، وسلمان فارسي، وصهيب رومي، فلو نحَّاهم لأتيناه؛ فأنزل الله الآية[4].

---

(١) قطعة من حديث سلمان وخباب، وهو في «المسند» (١/ ٤٢٠) والطبري (١١/ ٣٧٦).

(٢) ابن ابي شيبة (١٢/ ٢٠٧) وابن أبي حاتم (٧٣٣١، ٧٣٤٦) والطبراني (٣٦٩٣) عن عبدالرحمن بن سعد بن حنيف و«زاد المسير» (٣/ ٤٤) وانظر «سنن ابن ماجه» برقم (٤١٢٧) قال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٢٧٦): هذا إسناد صحيح، قال ابن كثير (٢/ ٢٦٠): الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة أسلما بعد الهجرة بدهر، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٢٩).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٩٥).

(٤) أخرجه ابن عساكر (٢٤/ ٢٢٥).

وهكذا نَهَى الله نبيَّه عن طَرْدِ ضعفاء المسلمين وفقرائهم عن مجلسه، وأمره أن يصبِّر نفسه معهم، ولا تعْدُ عيناه عنهم إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا، وأَمَرَه بالسلام عليهم، وأن يبشرهم برحمةِ ربهم، ولا يطيع أهل الكفر، ومن أَغْفَلَ الله قلبَهم عن ذِكْرِهِ.

والمراد بالغداة والعشي الصلاة؛ لأنها كانت في مكة مرتين في اليوم، بكرة وعشيًّا.

وكان النَّبِيُّ ﷺ يميل إلى تأليف قلوب الأقوياء للإسلام؛ لينال بهم قوة، إلا أن الله تعالى بيَّن له أن القوة في الإيمان والعمل الصالح، وليست في الأشخاص، وأن هؤلاء الضعفاء يتضرعون إلى ربهم في كلِّ أوقاتهم، ولا يقصدون بعبادتهم غيرَ وجهه تعالى، فكيف يُطْرَدون من مجلس الخير؟!

والله تعالى يخاطب رسوله قائلًا: لا تطردْ عنك ولا عن مجالستك أهل الإخلاص والعبادة من هؤلاء الضعفاء، رغبة في مجالسة غيرهم ولا تبعدهم عن مجلسك؛ لضعفهم وفقرهم، ثم وَصَفَهُم ربنا بأنهم يعبدونه ويدعونه في أول النهار وآخره؛ بالصلاة والذكر والدعاء وأنواع العبادة، فالمراد بقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ إما حقيقة الدعاء، وإما صلاة الصبح والعصر، كما فسرها ابنُ عباس.

والصلاةُ تشمل الدعاء، والذِّكْر، والخشوع، والخضوع، والإنابة، وتلاوة القرآن، وهم بهذه الأعمال الصالحة لا يريدون إلا وجهه الكريم، إنهم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فهم مخلصون لله في عبادتهم، يرجون ثوابه، ويخشون عقابه، وإن كان لهم ظاهرٌ يخالف الباطن؛ فحسابهم على الله، فهو الذي يتولى حسابهم وجزاءهم، ولستَ مسؤولًا عنهم، فمهمتك البلاغ والإنذار، كما أنهم ليسوا مسؤولين عنك، فحسابك وجزاؤك عند ربِّ العالمين، فكل له حسابه، وله عمله الحسن أو القبيح، والكل يلقى جزاءهُ يوم الحساب.

وكان بعض المشركين قد طعن في إخلاص هؤلاء الضعفاء، وقالوا: إنهم يجتمعون عندك؛ لأنهم يجدون مأكلًا وملبسًا.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: لست مسؤولاعن خطاياهم ولم يكلفك الله بأرزاقهم ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ليسوا مسؤلين عنك أي: لا تطرد الضعفاء حرصًا على إيمان الأقوياء، فحسابهم عند وحساب الأقوياء فحسابهم عند الله على الإيمان بك أو على عدم الإيمان بك

وحساب الأقوياء موكولٌ إلى الله تعالى، وعليك البلاغ، فإن أبعدتهم عن مجلسك؛ فإنك تكون من المتجاوزين حدودَ الله، الواضعين للشيء في غير موضعه، وهذا معنى ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه، فألان لهم جانبه، وأحسن معاملتهم، وقربهم منه، وصبّر نفسه معهم.

وهكذا: بقي أقوياء الإيمان، فقراء الجيوب، في مجلس رسول الله ﷺ، وازدادوا حظوة منه وقربًا؛ فكان يعانقهم، ويرحب بهم، ويصبِّر نفسه في الجلوس معهم، فلا يقوم من مجلسه -وهو سيد البشر- إلا بعد أن ينصرف عنه هؤلاء الضعفاء المساكين، وازداد فقراء الإيمان، أغنياء الجيوب، أقوياء الجاه والسلطان بُعْدًا عن مجلس رسول الله ﷺ.

هذا: وقد جعل الله بعض عباده ثريًا وبعضهم فقيرًا، بعضهم شريفًا وبعضهم وضيعًا، وهذا ابتلاء من الله لعباده، فإذا مَنّ الله بالإيمان على الفقير الضعيف، كان ذلك محنة وفتنة للثريِّ الشريف، فإذا لم يكن الغني صادقًا في طلب الحق، كانت هذه المحنة عقبة تردّه عن الإيمان، هذا ما تشير إليه الآية التالية:

فِتْنَةُ الْمَالِ والْجَاهِ وَالنَّسَبِ

٥٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾

ولما قرَّب النَّبِيُّ ﷺ الضعفاء منه، نَفَر المستكبرون المستنكفون؛ فازدادوا كفرًا، وقالوا: لو كان الذي جاء به محمدٌ خيرًا ما سبقنا هؤلاء الفقراء إليه، ولهدانا الله إليه قبلهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١] فليس من المعقول أن يمُنَّ الله عليهم من بيننا، وكانت هذه فتنة بسبب المال والجاه والنسب؛ لأن هؤلاء الأثرياء لم يَزِنُوا الأمور بميزان الله، فلم يدركوا أن ما يترفعون به على الناس لا دخلَ له في قضية الإيمان.

وهذا المعنى هو الذي تقرره هذه الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: أن الله تعالى ابتلى بعضَ عباده ببعض؛ بتباين حظوظهم في الأرزاق والأخلاق، فجعل بعضهم قويًا وبعضهم ضعيفًا، وبعضهم غنيًا وبعضهم فقيرًا، وجعل بعضهم يحتاج إلى بعض، اختيارًا منه سبحانه بما يُحقِّق مصلحةَ العباد؛ ليقول الكافرون من الأغنياء، على وجه السخرية

والاستهزاء: أهؤلاء الضعفاء منَّ الله عليهم بالهداية والإسلام من بيننا، ونحن أصحاب الجاه والمال أدنى منهم في الهداية.

وقد ابتلى الله المؤمنين بالمشركين بما يلقَوْن منهم من الأذى، وابتلى المشركين بالمؤمنين بما لهم من شأنٍ في هذا الدين، وما لهم من قَدْرٍ ومنزلةٍ عند النَّبِي ﷺ.

فمعنى الآية: وكذلك ابتلينا أشراف الكُفَّارِ بضعفاء المؤمنين؛ ليتعجبوا من ذلك في نفوسهم.

وكان غالب مَن اتبع النَّبِيَّ ﷺ في أول البعثة ضعفاءُ الناس من الرجال، والنساء، والعبيد، والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليلٌ، كما سأل هرقل أبا سفيان فقال له: هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرُّسُلِ(١).

فكيف يُظن أن الله تعالى مَنَّ على هؤلاء الضعفاء بمعرفة الحقِّ، ومنَع منه صناديدَ قريش؟ وكان قد حدث مثل هذا بالمدينة.

كما جاء في البخاري وغيره أن الأقرع بن حابس جاء إلى النَّبِي ﷺ فقال: إنما بايعك سُرَّاق الحجيج، مِن أسلم وغِفار ومُزيْنة وجُهينة، فقال له رسول الله ﷺ: **«أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيرًا من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان، أخابوا وخسروا؟»** فقال: نعم، قال: **«فوالذي نفسي بيده إنهم لخير منهم»**(٢).

ومن فتنة بعضهم ببعض فتنةُ الإعجاب والكبرياء، حين ترفَّع الأثرياء عن الدخول فيما دخل فيه الضعفاء والعبيد من تصديق محمدٍ ﷺ؛ استكبارًا عن مساواتهم بهم حيث قالوا ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ قالوا ذلك احتقارا لمن يرونهم دونهم.

ومنها فتنة الضعفاء حين يشاهدون طيب عيش الأثرياء مع إشراكهم بربهم، وهذا كما قال قوم نوح له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: ٢٧] والله ﷻ يقرر أنه أعلم بمكنون عباده وشؤونهم، وأنه يوفق للهداية مَن عَلِم الله منه أنه أهلٌ لها، وسيسلك طريقها ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾؟ بلى، فهو سبحانه أعلم بمَن

(١) القصة في «صحيح البخاري» برقم (٧) من حديث ابن عباس، ومسلم (١٧٧٣) مختصرًا.

(٢) «المسند» (٢٠٤٢٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وفي البخاري (٣٥١٦) ومسلم (٢٥٢٢) والطيالسي (٨٦١) والبغوي (٣٨٥٤).

يشكر نعمته فيهديه للإيمان، وأعلم بمَن يكفر نعمته فلا يجازيه بنعمة الهداية، كما أراد هو لنفسه، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فُقَرَاءُ المُسْلِمِينَ وَرَحْمَةُ اللهِ بِهِمْ

٥٤- ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ(١) مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ (١) غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

والسياق موصولٌ عن فقراء المسلمين، الذين نهى الله تعالى رسولَه أن يبعدهم عن مجلسه، فيأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبدأ هؤلاء الضعفاء بالسلام إذا أقدموا عليه ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون فحيِّهم ورحِّب بهم، وسلِّم عليهم، وبشِّرْهم بما يُنشّط عزائمهم وهممهم، وحُثّهم على كل طريق يوصّل إلى ذلك، ورهِّبهُم من الإقامة على الذنوب، وأمْرهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرة ربهم، وهكذا إذا حضر إلى مجلسك الذين يصدِّقون بالقرآن، وبالآيات الشاهدة على صدقك من القرآن وغيره، ومنهم هؤلاء الضعفاء الذين نزلت فيهم وفي أمثالهم هذه الآيات -فابدأهم بالسلام؛ إكرامًا لهم، وتطيبًا لخاطرهم، وقد تضمنت الآية **كرامتين** لهم:

الأولى: أن يبدأهم النَّبِيُّ ﷺ بالسلام حين يدخل عليهم مزية لهم.

والثانية: بشارتهم برضى الله عنهم، وأنه قد غفر لهم ما يعملون من سوء إذا تابوا وأصلحوا.

والدعاة إلى الله تعالى، بعد رسول الله ﷺ، يكونون على هذا المنهج الإسلامي والأدب العالي.

فالآية عامة في كلِّ مؤمن، وكلِّ داعيةٍ إلى الله تعالى.

قال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله نبيَّه عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام،

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح همزة (أنه) وكسر همزة (فأنه) وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بالفتح فيهما، وقرأ الباقون بالكسر فيهما، فالفتح في الأولى على أنها بدل شيء من شيء، أو على الابتداء والخبر محذوفٌ، والفتح في الثانية على أنها في محل رفع بالابتداء، وكسر الأولى على الاستئناف وكسر الثانية على أنها في صدر جملة وقعت خبرًا لمَن الموصولة، أو جوابًا لها إن كانت شرطية.

ويقول: **«الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام»**(١).

وأسند الطبري أن قومًا من المؤمنين استفتوا النَّبِي ﷺ في ذنوب سلفت منهم؛ فنزلت الآية بسببهم.

وقال الفضيل بن عياض: إن قومًا قالوا للنبي ﷺ: إنا قد أصبنا ذنوبًا فاستغفر لنا، فأعرض عنهم؛ فنزلت الآية(٢).

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبشرهم بما كتبه الله على نفسه من الرحمة والمغفرة لمَن عمل منهم سوءًا بجهالة. وكلُّ مَن عمل ذنبًا أو خطيئة عمدًا أم خطأً؛ فهو بها جاهل لعاقبتها وإيجابها لسخط الله تعالى، وسمي جاهلًا؛ لأنه فَعَل فِعْل السفهاء فنُسب إلى الجهل، فما يذنب الإنسان إلا من جهالة، حتى ولو كان عالمًا بعاقبة هذا الفِعل القبيح المذموم، ولكنه آثر اللذة العاجلة على الثواب الآجل، ولم يصبر على ترك المعصية، فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله عليهم، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة.

ومتى تاب العبد؛ فأقلع عن الذنب، وعمل صالحًا؛ فإنه يكون أهلًا لمغفرة الله تعالى ورحمته ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه تفضلًا منه، وإحسانًا، وامتنانًا، في الحديث عن أبي هريرة أن النَّبِي ﷺ قال: **«إن الله تعالى كتب كتابًا، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»**(٣).

وعن سلمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن لله مئة رحمة؛ فمنها رحمة بها يتراحم الخَلْق، وتسعة وتسعون ليوم القيامة»**(٤).

وعن معاذ بن جبل ﷺ أن النَّبِي ﷺ قال: **«أتدري ما حق الله على العباد؟... أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»** ثم قال: **«أتدري ما حق العباد على الله إذا رآهم فعلوا**

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٤٣٥).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٢٩٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣١٩٤) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٥١) و«المسند» (٢/ ٣١٣) عن أبي هريرة برقم (٩١٥٩).

(٤) «أسباب النزول» للواحدي (١٢٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٣).

ذلك؟... ألا يعذبهم»(١).

وهذا المعنى الذي تقرره الآية يشمل كلَّ مؤمن، ويؤيده ما ورد أن قومًا أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوبًا عظامًا، فما ردَّ عليهم، فانصرفوا؛ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فدعاهم، فقرأها عليهم(٢).

وإلى هذا الحديث استند الطبري والفضيل بن عياض في قولهما السابق.

وعليه فيكون المعنى: إذا جاءَك يا محمد مِن المؤمنين مَن يستفتيك عن التوبة من الذنوب السابقة؛ فأكرمهم بردِّ السلام عليهم، وبشِّرهم برحمة الله الواسعة لهم، وهذا هو المعنى العام للآية، ويدخل فيه دخولًا أوَّليًّا، ما يتضمنه سياق الآيات من الحديث عن ضعفاء المسلمين.

كما أن صيغة الأمر في ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ تتضمن أن يكون هذا السلام ممَّا أُمر الرسول ﷺ بتبليغه لمَن أقبل عليه تائبًا، وكذا بالنسبة للضعفاء الذين نزلتْ فيهم الآيات، والصيغة تحتمل بدؤهم بالسلام عند لقائهم، وعند إقبال الرسول ﷺ عليهم، وتحتمل رده ﷺ للسلام عليهم عند دخولهم عليه.

هذا؛ ومبادئ الإسلام وقيمه السامية رفعتْ أمثال هؤلاء الفقراء الضعفاء إلى مقدمات الصفوف؛ لسبقهم في الإسلام عمَّن دخله بعد ذلك من كبار القوم، كأبي سفيان، وجعلت كبار الصحابة يحرصون على إرضاء الضعفاء وعدم إغضابهم.

في صحيح مسلم وغيره عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان، وصهيب، وبلال، ونفر، فقالوا: والله ما أخذتْ سيوف الله من عدوِّ الله مأْخذها! قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم (يعني: أبا سفيان) فأتى النَّبِيَّ ﷺ (أي: ذهب أبو بكر يسأل رسول الله ﷺ عن قولهم) فقال: **«يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت**

(١) الحديث في الصحيحين عن أنس بن مالك، عند البخاري (١١/ ٣٣٧) برقم (٧٣٧٣) وعند مسلم (١/ ٥٨) برقم (٣٠) وفي «المسند» عن أبي هريرة برقم (٢١٩٩١، ٢٢٠٠٦، ٢٢٠٣٩) (٢/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ماهان، ينظر: ابن جرير (٧/ ١٣٢).

أغضبتهم، لقد أغضبت ربك» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه، أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي[(١)].

أجل! إنها نَقْلَةُ الإسلام التي غيَّرت من شأن هؤلاء فرفعتْهم من سفح الجاهلية إلى قمة الإسلام، فجعلت أمثال أبي بكر وهو مَنْ أعتق بعضهم من الرق، يترضَّى عنهم، ويتلاشى غضبهم، وجعلتهم يتقدمون الصفوف على شيخ قريش وسيدها أبي سفيان، أين هذا من حضارة الناس وحقوق الإنسان في عالم اليوم؟! قال تعالى:

٥٥- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ[(٢)] سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

وبعد أن بيَّنتِ السورة العقيدة الصحيحة، مجردة من كل زخرف أو باطل، وبينت طبيعة الرسالة والرسول ناصعة واضحة، تُعقِّبُ على ذلك بأنه بمثل هذا البيان وهذا التفصيل، وبمثل هذا المنهج وهذه الطريقة في أدلة التوحيد وإبطال الشرك، يوضح الله الحُجَجَ والبراهين التي تدحض كلَّ باطل، ويوضح الأدلة الدالة على كل حقٍّ ينكره أهل الباطل؛ وذلك ليظهر الحقُّ، ويتبين طريق المؤمنين الصالحين المخلصين العاملين بمقتضى التوحيد، ويتضح أيضًا طريق المجرمين المخالفين لرسل الله، فينكشف أمرهم ويستبين طريقهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: بمثل البيان السابق ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي نوضح آيات القرآن، ونبينها، ونميز بين طريق الحق والضلال، والغي والرشاد، ونوضح الأدلة والحجج والبراهين التي لا تدع في الحق ريبة ولا غموضًا، وتجعله واضحًا جليًّا ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ أي: تتبين ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ طريقهم ومنهجهم، واستبانة طريق المجرمين هدفٌ من أهداف التفصيل الرباني للآيات، حتى إذا استبانت واتضحت أمكن اجتنابها والبعد عنها، بخلاف ما إذا كانت ملتبسة مشتبهة فإن هذا البيان لا يحصل.

---

(١) «المسند» (٢٠٦٤٠) بإسناد حسن ورجال ثقات، ومسلم (٢٥٠٤)، والطبراني في الكبير ١٨ (٢٨).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بتاء الخطاب في (ولتستبين) ونصب لام (سبيل) أي: لتوضح، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص ويعقوب بتاء التأنيث في (ولتستبين) ورفع لام (سبيل) على أن الفعل لازمًا بمعنى ظهر، وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر بياء التذكير ورفع لام سبيل.

التَّوْحِيد وَالشِّرْك لَا يَجْتَمِعَانِ

٥٦- ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾

وبعد استبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، تعود الآيات إلى التوحيد وحقيقة الألوهية، وقد كان المشركون يدعون الله تعالى عند الشدائد، ويدعون جماداتٍ ونحوها عند الرخاء، ولا مستند لهم في ذلك إلا التقليد واتباع الهوى، وكانوا يطلبون من النَّبي ﷺ أن يسجد لآلهتهم؛ فيسجدون لإلهه، وأن يوافقهم على دينهم؛ ليوافقوه على دينه.

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يواجه المشركين بحقيقة التوحيد، ويُبيِّنَ لهم أن الشرك والتوحيد لا يجتمعان في قلبٍ واحدٍ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ نهاني ربي أن أعبد الأوثان والأنداد، وسائر ما تشركونه مع الله من: الجن، والملائكة، والناس، والكواكب، وغير ذلك مما تعبدونه من دون الله، وهي لا تملك نفعًا ولا ضرا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فإن هذه العبادة باطلة وليس لكم فيها حجة ولا شبهة إلا اتباع الهوى وهو من أعظم الضلال ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فأنتم تشركون هذه المخلوقات مع الله؛ اتباعًا للهوى، وتقليدًا لمَن سبقكم، وأنا منهيٌّ عن اتباع الهوى، وعبادتنا لله تعالى عن عِلْمٍ وحُجَّةٍ ودليل، لا عن هوًى وتقليدٍ، فإن عبدتُ ما تعبدونه من دون الله؛ أكن قد سلكتُ طريق الضلال، وخرجت عن الصراط المستقيم ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ إن اتبعت أهواءكم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ بوجه من الوجوه فإن مَن يتبع هواه يضل، ولا يهتدي، أما ما أنا عليه من اتباع الحق وإخلاص العمل فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة.

والمعنى: قل - يا محمد - لمَن يكذبون دعوتك: إن الله نهاني وصرفني بفضله، وبما منحني من عقلٍ وفكر عن التوجه لغير الله في عبادتي، ولن أتبع أهواءكم وشهواتكم في الانقياد للباطل، ولو أني ركنتُ إليكم؛ لضللت عن الحقِّ، وخرجت عن طائفة المهتدين، فلا يطمع أحدٌ في استمالتي عن الهدى، أو جنوحي للضلال. قال تعالى:

٥٧- ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ(١) ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

وتأتي ﴿قُلْ﴾ الثانية في هذا المقام لتأمر الرسول ﷺ أن يواجه المشركين المكذبين؛ بأنه على يقينٍ لا يتزعزع، وعلى بصيرة واضحة من شريعة الله تعالى التي أوحاها إليه، وعلى دليلٍ وحجة راسخة في وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة وحده دون سواه ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على بصيرة من شريعة الله، أوحاها إليَّ، وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق، وهذه البينة، التي هي من عند الله، قالها الأنبياء السابقون؛ قالها نوح وصالح وإبراهيم لأقوامهم.

قال نوح وصالح: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨] وقال إبراهيم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام: ٨٠] .

فحقيقة التوحيد تتجلى في قلوب أولياء الله جميعًا، وأنا واحد منهم، ولكنكم أيها المشركون، المكذبون، كذَّبتم بهذه الحقيقة؛ فلم تصدِّقوا بالقرآن، ولا بالمعجزات ، ولا بالبراهين الحسية التي تدل على صحة التوحيد، وصِدْقِ الرسول، وهذا معنى ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: كذبتم أيها المشركون بكل ما جئتُ به من ربي، وطلبتم خوارق العادات، وطلبتم أن ينزل بكم العذاب؛ وكان النَّبِيُّ يخوفهم بنزول العذاب إن لم يؤمنوا، فإن استمررتم على التكذيب فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة:

جاء في أسباب النزول: أن النضر بن الحارث قام عند الكعبة، وقال: اللهم إن كان ما يقوله محمدٌ حقًّا فأتنا بالعذاب؛ فنزلت الآية، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال] وقوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]

فأمر الله رسوله أن يجيبهم بقوله: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ من العذاب .

وكثيرًا ما كانوا يستعجلون نزول العذاب بهم، يقولون ذلك للنبي ﷺ؛ استهزاءً به

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وعاصم وأبو جعفر بضم القاف من بعدها صاد مضمومة من قص الحديث، وقرأ الباقون بسكون القاف بعدها ضاد مكسورة من القضاء؛ أي: يقضي القضاء الحقَّ.

وتكذيبًا له، واستبعادًا لنزول العذاب ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: متى ينزل بنا ما تعدنا به من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥].

وقد أمر الله نبيَّه أن يخبر الكُفَّارَ أن تعجيل العذاب الذي يطلبونه مرجعه إلى الله، إن شاء عجله، وإن شاء أجله، وما حملهم على استعجال العذاب إلا الكفر والتكذيب، ولو أنهم عاينوا العذاب؛ لعلموا أنه عظيمٌ هائلٌ، لا يستعجله إلا جاهلٌ، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨] وقال سبحانه: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت]

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يونس].

ولولا أن الله تعالى حدَّد أجلًا معينًا لنزول العذاب بهم لعجله لهم ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ وقال سبحانه: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨].

وتأخير نزول العذاب بهم لحِكْمَةٍ عظيمة؛ فهو الذي يثيب ويعاقب، ويأمر وينهى، ولذا قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فنزول العذاب بيد الله تعالى، وأنا لا أملكه، وليس في قدرتي إنزاله، وأَمْرُ الله تعالى لا يقدر أحد على تقديمه أو تأخيره، ونزول العذاب يكون بعد أن يقضي الله بين الخلائق، فهو سبحانه (يقض الحق) بسكون القاف وضاد مكسورة، والقراءة الأخرى ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ بقاف مضمومة وصاد مشددة مضمومة؛ أي: حين يقول الله الحق، ويخبر به عباده، ويفصل بين الحق والباطل، والثواب والعقاب ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي: خير من فصَّل وميَّز، فلا يقع في حُكمه جَوْرٌ، ولا ظلم، ولا يقع في قضائه حيف، ولا تجاوز. قال تعالى:

٥٨- ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

أما الآية الثالثة من أسلوب التلقين المبدوء بـ﴿قُلْ﴾ في هذه الآيات، فتؤكد أن نزول العذاب الذي يطلبونه متروكٌ لمشيئة الله تعالى، فلا جدوى من الإلحاح في هذا الأمر،

فوقوع العذاب بهم ليس بيد النَّبِي ﷺ، وقد أمره ربُّه أن يخبرهم بذلك ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فأنزلته بكم، ولكن الأمر من عند الله.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المستحقين للعذاب، والوقت الذي يستحقونه فيه، ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم فيمهلهم ولا يهملهم، وكان النَّبِي يأمل خيرًا فيمَن يخرج من أصلابهم، فإن ملَك الجبال لمَّا عرض عليه ﷺ هلاك المكذبين بأن يُطْبِق عليهم الجبلين؛ اختار النَّبِي ﷺ عدم إهلاكهم، وقال: **«إني لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله، ولا يشرك به شيئًا»**.

وفي الصحيحين عن عائشة ﵂ أنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد، فذكر ﷺ ما لقيه يوم العقبة؛ حين عرض نفسه على ابن عبد ياليل، فلم يجبه، قال: **«فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل ﵇، فناداني فقال: إن الله سمع قول قومك لك، وقد بعث إليك ملَك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم»** قال: **«فناداني ملَك الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد بعثني إليك؛ لتأمرني بما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين»** فقال ﷺ: **«بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا»**[(١)].

والحديث فيه عَرْضٌ من الملَك، بأمر من الله تعالى، لإنزال العذاب بهم، بخلاف الآيات التي يطلبون فيها نزول العذاب بهم على وجه التعنت والاستهزاء.

شمول عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَإِحَاطَته لِكلِّ مَا فِي الْكَوْنِ

٥٩- ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ[(٢)] وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

يتضمن هذا الربع سبعة من أساليب التلقين التي تبدأ بلفظ ﴿قُلْ﴾ وستة من أساليب التقرير التي تبدأ بلفظ ﴿هُوَ﴾ ويتضمن ثلاثة عشر دليلًا على توحيد الخالق جل وعلا؛

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (٣٢٣١) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٩٥) بتصرف.

(٢) وقف يعقوب بهاء السكت على (إلا هو) والباقون بدونها.

لتقوية ذلك في نفوس المؤمنين، ولغرس العقيدة الصحيحة في نفوس المشركين.

يبدأ هذا الربع من السورة بقوله سبحانه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: أن ما غاب عن العبد من السعادة، والشقاء، وخواتيم الأعمال، والأرزاق، والآجال، والثواب والعقاب، وخزائن الغيب ومفاتيحها، كلُّ ذلك عِلْمُه عند ربِّ العالمين سبحانه.

وقد وصف الله المؤمنين في كتابه بأنهم يؤمنون بالغيب، وفي مقدمته الإيمان بوجود الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحشر، وحساب، وثواب، وعقاب، والإيمان بالرُّسُلِ والكتب، والإيمان بالقدر خيره وشره، وعِلْمُ الله تعالى شاملٌ محيطٌ، لا يخرج عنه شيءٌ في السماء، ولا في الأرض، ولا في البر، ولا في البحر، ولا في جوف الأرض، ولا طباق الجو، ولا في الزمان، ولا المكان، من حيٍّ، أو ميت، أو رطب، أو يابس، فهو سبحانه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات والأشجار والحصى والرمال والتراب، ويعلم ما في البحار، من حيواناتها ومعادنها وصيدها، وما يشتمل عليه ماؤها، فعلم الله تعالى شامل للغيوب كلها، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين.

والآية الأخيرة من سورة لقمان مع الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ يبيِّنان أن رؤوس الغيب خمسة، لا يعلمها إلا الله سبحانه، وهي تعمُّ جميعَ الأشياء التي لم توجد بعد.

عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾»[1].

قال ابن مسعود ﷺ: أوتي نبيُّكم عِلْمَ كل شيء إلا مفاتيح الغيب الخميس[2].

---

(١) البخاري (٨/ ٢٩١) برقم (١٠٣٩، ٤٦٢٧، ٤٦٩٧، ٧٣٧٩) و«المسند» عن ابن عمر (٧/٧) برقم (٤٧٦٦، ٥١٣٣، ٦٠٤٣) و «صحيح ابن حبان» (١/ ٦٩) وابن حاتم (٧٣٦٧).

(٢) الطبري (١١/ ٤٠١) و«المسند» (٥/ ٢٤١) قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «المسند»: إسناده صحيح ورقمه (٤٢٥٣) وأفاد محققو المسند أنه: صحيح لغيره، لأن فيه محمد بن سلمة، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وهو في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦٣) قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح وأخرجه الحميدي (١٢٤).

وسئل أحد الصحابة عن العلم بوقت الكسوف قبل ظهوره، فأنكر عليهم، وقال: إنما الغيب خمس، وتلا الآية، وما عدا ذلك فهو غيب، يعلمه قومٌ، ويجهله قومٌ.

والغيب: كل ما غاب عن علم الناس، ولا سبيل لهم إلى معرفته، وهو يشمل الأعيان المغيَّبة كالملائكة والجن، ويشمل الأعراض الخفية، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن].

والمِفتاح: هو الآلة التي يُفتَح بها المغلق حسًّا أو عقلًا.

روى ابن ماجة وأبو حاتم البستي في صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من الناس مفاتيحَ للخير مغاليقَ للشر، وإن من الناس مفاتيحَ للشر مغاليقَ للخير، فطوبى لمَن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويلٌ لمَن جعل الله مفاتيح الشر على يديه»**[١].

وهذه هي أُمَّاتُ علم الغيب الخمس كما جاءت في آية سورة لقمان:

(أ) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ متى تقوم القيامة؟ في أيِّ عام، وفي أي شهر، وفي أي يوم، وفي أية لحظة؟ علم ذلك عند ربِّ العالمين، والتكهن بذلك بناء على مقدمات وأحوال تحدث في الأمة تخرُّصٌ، وإفك، وقول بالباطل.

(ب) ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي: ويعلم متى ينزل المطر، وحساب الأرصاد الجوية، والحسابات الفلكية قد تخطئ وقد تصيب، فهي وإن كانت مبنيَّة على حسابات عِلمية دقيقة، لكن العلم الحقيقي عند ربِّ العالمين، فقد توافق وقد لا توافق.

(ج) ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: وهو وحده يعلم ما في الأرحام، يعلم ما تغيض الأرحام وما تزداد، ويعلم كون الجنين ذكرًا أو أنثى، يعلم سبحانه ذلك قبل التلقيح، وعند تلقيح البويضة، وقبل تكوين الجنين، أما معرفة كون الذكر والأنثى بعد بضعة أيام من تكوين الجنين، ورؤية ذلك عن طريق الصورة أو الأشعة، فليس هذا من قبيل الغيب؛ لأنه صار أمرًا موجودًا في بطن الأم يمكن تصويره ومعرفته بعد بضعة أيام من الحمل.

(د) ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من الخير والشر، ومن الرزق والأجل، ومن

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٣٧) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٩٤) و«السلسلة الصحيحة» (١٣٣٢) وفي «ظلال الجنة» (٢٩٧/ ٢٩٩) بإسناد حسن.

النصر والهزيمة، وغير ذلك.

(هـ) ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

ثم فصَّل الله تعالى ما أجمل من مفاتيح الغيب في الآية التي معنا فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وهذا تنبيهٌ على أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، فجميع ما في الأرض إما في بر، وإما في بحر، والله وحده يعلم ما فيه من عجائب وغرائب، يعلم العلم المحيط الشامل بهذا الكون، سمائه وأرضه، بره وبحره.

ولا يقتصر عِلْمُ الله سبحانه على الكائنات الحية، بل الله جل شأنه يعلم حركة الجمادات وغيرها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وهذا يمثل حركة الموت والفناء، فهو سبحانه يعلم الورقة التي تسقط أو تبقى، من نبات أو شجر، على سطح الأرض، يحيط بها عِلْمُ ربِّ العالمين قبل الوقوع.

ويعلم أيضًا الحبة المخبوءة في جوف الأرض، وما يعتريها من تقلبات ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ من حبوب الزروع والثمار وحبوب البذور التي يبذرها الخلق، وبذور النبات البري، ويعلم الرطب واليابس، فهو سبحانه يعلم ما في ظلمات الأرض، وما في جوفها، وما هو أدنى من الورقة أو الحبة، وكل ذلك ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، قد حواها واشتمل عليها.

والإنسان قد يضع حبةً في الأرض يتعهدها، ويرقب إنباتها، ولكن علم الله سبحانه أوسع من ذلك، فهو جل شأنه يعلم الحبة التي يضعها الإنسان، وهي مخبوءة في ظلمات الأرض، ويعلم مراحل ظهورها للمخلوق على وجه الأرض، ويعلم الحبة التي لا يضعها الإنسان، وهي موجودة في باطن الأرض، وفي ظلمات طبقاتها، يعلمها رب العالمين وحده، ويعلم الرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعًا، وهو يمثل الحياة والموت لكلِّ كائنٍ حيٍّ.

وكلُّ ما في هذا الكون يحيط به عِلْمُ رب العالمين، واللوح المحفوظ مكتوبٌ فيه ما كان وما يكون إلى يوم الساعة، وقد كُتبت أحوال الخَلْقِ في اللوح المحفوظ؛ لتقف الملائكة على نفاذ عِلْمِه سبحانه، ومن ثم يقابلونه يوم القيامة بما يحدث في صحيفة كلِّ إنسان؛ فيجدون المطابقة بينهما.

وذِكْرُ الله تعالى للحبة والورقة تنبيهٌ على دقة الحساب يوم القيامة، وبعد أن جف القلم بما هو كائن، فعلم الله تعالى محيطٌ بالكليات والجزئيات، وعلم الغيب مردُّه إلى الله وحده، ومَن أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمدٍ.

وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة ﵂ قالت: مَن زعم أن رسول الله ﷺ يُخبر بما يكون في غدٍ؛ فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].[1]

قال أبو حيان: وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات:

بدأ أوَّلًا بأمر معقول لا ندركه نحن بالحس؛ وهو مفاتيح الغيب.

ثم ثنى بأمر ندرك كثيرًا منه بالحس؛ وهو البر والبحر.

ثم ثلَّث بجزأين لطيفين؛ أحدهما: علوي، وهو سقوط الورقة من علو، وثانيهما: سفلي، وهو اختفاء حبة في بطن الأرض؛ فدل ذلك على أنه تعالى عالمٌ بالكليات والجزئيات. قال تعالى:

٦٠- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ومن عِلْمِ الله الشامل بمفاتح الغيب عِلْمُه بما يجري في جَنَبات الكون؛ أي: أن حياةَ البشر كلَّها في قبضة الله تعالى، وفي علمه، وقدرته، وتدبيره، حال صحوها ومنامها، وموتها وبعثها، وحشرها وحسابها ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]

فعِلْمُ الله سبحانه يحيط بكم في الليل والنهار، وهو يعلم الحركات والسكنات حين تنام، وحين تُقبض الأنفاس في الوفاة الصغرى، وهي صورة من صورة الوفاة الكبرى.

والله سبحانه يعلم أحوالَك كلَّها، يعلمها وأنت نائم، ساكن هادئ، ويعلمها حين تُبعث

---

(١) الحديث بدون الآية في الصحيحين وهو في الترمذي مطولًا (٣٢٧٦) وصحيح الترمذي (٢٤٥٣) وأوله عن مسروق قال: كنت متكئًا عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم الفرية على الله..) وذكرت رؤية النبي ﷺ لربه، وكتمان شيء من الوحي، وعِلْم ما في غد)

في النهار، وحيث تُرد الروح إلى الحواس إذا ذهب النوم، ويعلمها وأنت في سكونك وحركتك تتقلب بقدرة الله وتدبيره ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد].

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: يقبض أرواحكم عند النوم بما يشبه قبضها عند الموت، ثم يبعثكم بالنهار ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ويعلم حركاتِكم بالنهار، حين تتحركون لكسب أرزاقكم، وكسب الخير والشر، والحسنات والسيئات، وسائر أعمالكم ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ ثم يحييكم في النهار بعد نومكم بالليل، فيعيد أرواحَكم إلى أجسادكم باليقظة من النوم، بما يشبه الإحياء بعد الموت؛ حتى يستوفي كلٌّ منا أجله المحتوم في وقته المحدد.

﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو القدْر المقرر له في الدنيا بانتهاء أجله، وهو أَجَلُ الحياة ثم إلى الله معادكم بعد الموت؛ ببعثكم أحياء من قبوركم، وهذا هو الأجل الآخر، ويكون بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ الكلُّ يموت ويعود إلى الله سبحانه، ثم يخبركم بأعمالكم في الدنيا، ويجازيكم عليها ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يخبركم ربُّ العالمين بما قدمتموه في دنياكم من خيرٍ أو شرٍّ، وهذا مثل مضروب للبعث من القبور.

مِنْ مَظَاهِرِ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ (الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ)

٦١- ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ[١] رُسُلُنَا[٢] وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي: أن الله تعالى فوق عباده فوقية مطلقة من كلِّ وجه، فوقية تليق بجلاله، وهو سبحانه المدبِّر أَمْرَ عباده، المتصرف فيه، إليه يعود أَمْرُهم في حياتهم، وبعد موتهم، وهم في قبضته في الدنيا والآخرة، والله سبحانه هو القوي القاهر فوق عباده، له الرقابة الدائمة

(١) قرأ حمزة (توفاه) بألف بعد الفاء ممالة، وهو فعل ماضٍ حُذِفَتْ منه تاء التأنيث؛ لكون فاعله مجازي التأنيث، ويجوز أن يكون فعلًا مضارعًا، وأصله (تتوفاه) فحُذف إحدى التاءين، وقرأ الباقون (توفته) بتاء ساكنة مكان الألف على أنه فعل ماضٍ فاعله مؤنثٌ مجازيٌّ.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا) والباقون بضمها.

عليهم، وإليه المصير المحتوم الذي لا مفرَّ منه، ولا مهرب.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيئته العامة، فلا يملكون من الأمر شيئًا ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه سبحانه، تخضع له رِقَابُ الجبابرة، وهم تحت سلطانه وقهره، الكلُّ في قبضة الله سبحانه، خاضع لجلاله وعظمته، وتحت تصرفه في الدنيا والآخرة، ومِن قَهْرِ الله تعالى لمخلوقاته، أنه سبحانه قَهَرَ العدم بالوجود والتكوين، وقَهَرَ الوجود بالفناء، وجعل لكل شيءٍ ضدًا، فيقهر النور بالظلمة، والظلمة بالنور، والنهار بالليل، والليل بالنهار.

قال الفخر الرازي: وتقدير هذا القهر من وجوه:

الأول: أنه سبحانه قهار للعدم بالتكوين والإيجاد.

الثاني: أنه سبحانه قهار للوجود بالفناء، فهو الذي يجعل العدم موجودًا، والموجود معدومًا، وهذا غاية القهر للكائنات.

الثالث: أنه تعالى قهار لكل ضدٌّ بضده، فيقهر النور بالظلمة، ويقهر الظلمة بالنور، ويقهر الليل بالنهار، والنهار بالليل، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] والإنسانُ يريد ألا ينام، فيغلبه النوم ويقهره، ويريد ألا يموت، فيقهره الموت، ومن ذلك قولهم: سبحان مَن قَهَرَ العباد بالموت.

ومع هذا القهر الإلهي، فقد وكَّل الله بالعباد حفظة من الملائكة لحفظ عباده، ولحفظ أعمالهم، وإحصائها من خير أو شرٍّ، وهم مُوكَّلُون بكتابة حسناتكم، وسيئاتكم، وأقوالكم، وأفعالكم، وأرزاقكم، وآجالكم، وأعمالكم، ويحفظونكم من الشرور.

قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد]

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، يجتمعون في صلاة الفجر والعصر، ثم يَعرُجُ الذين باتوا فيكم،**

فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»[١].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف].

وورد أن كلَّ إنسان معه ملكان، ملَك عن يمينه يكتب الحسنات، وملَك عن شماله يكتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين: اصبر لعله يتوب منها، فإن لم يتب كتبها، وهما يسجلان عليه أقواله كما يسجلان أفعاله، قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق] وهؤلاء الحفظة يحفظون عليه عمله، ورزقه، وأجله، فإذا وفَّى ذلك قبض إلى ربِّه.

ومن الملائكة، مَن هم موكلون بقبض أرواح العباد، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ انتهى عمره من الدنيا ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ والرُّسُلُ هم أعوان مَلَكِ الموت، يعالجون خروج الروح من أطراف الإنسان، ومن بنانه، وأصابع رجليه، ويديه، وسائر جسده، حتى إذا بلغت الحلقوم انتزعها مَلَكُ الموت من الملائكة، وأخذها بنفسه، وهم لا يفرطون في هذه الروح، بل يحفظونها ويضعونها في موضعها، إن كانت من الأبرار ففي عليين، وإن كانت من الفجار -والعياذ بالله- ففي سجين، فلا يقصِّرون فيما أُمروا به، ولا يضيعونه، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة].

قال مجاهد: جُعِلَت الأرض لملَك الموت مثل الطست، يتناول من حيث شاء، وجعلت له أعوان، يتوفون الأنفس، ثم يقبضها منهم[٢].

وقال قتادة: إن ملك الموت له رسل، فيَلي -أي يتولى- قبضها -أى الأرواح- الرُّسُل، ثم يدفعونها إلى ملك الموت[٣].

---

(١) «المسند» (١٠٣٠٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري (٥٥٥، ٣٢٢٣) ومسلم (٦٣٢)، ومالك في الموطأ (١/ ١٧٠) والبغوي (٣٨٠) والنسائي (١/ ٢٤٠) وابن حبان (١٧٣٧) وأبو يعلى (٦٣٣٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٢٠٩) والطبري (٩/ ٢٩٢) وأبو الشيخ (٤٣٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٦).

(٣) عبد الرزاق (١/ ٢٠٩) والطبري (٩/ ٢٩٢) وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٥٥).

وجاء في حديث أبي هريرة ﷺ أن المحتضِر للموت تأتيه الملائكة، فإن كان رجلًا صالحًا؛ قالت: اخرجي أيتها النفس الطيبة وأبشري بروح وريحان، وربٌّ غير غضبان، ثم يعرج بها إلى السماء، ويقال لها مثل ذلك، وإن كان الرجل رجل سوء، تقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، وأبشري بحميم وغسَّاق، وآخر من شكله أزواج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيقال لها: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة، ارجعي ذميمة، فإن أبواب السماء لن تفتح لك، ثم ترجع إلى القبر[1].

وليس المراد الرجل وحده في الحديث، بل المراد الإنسان، سواء أكان رجلًا أو امرأة، أما بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من خير وشر، فقد قال تعالى عنها:

٦٢- ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾

ثم صرَّح سبحانه بمصير الخَلْقِ جميعًا، وعودتهم إلى الله تعالى؛ حيث يرجع العباد بعد البعث إلى ربهم وخالقهم، صاحب المُلْك والتصرف فيهم، فيحاسبهم على ما قدمت أيديهم ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ﴾ فهو الذي تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، ثم ردّوا إليه ليتولّى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما قدمت أيديهم ويعاقبهم على الشرور والآثام، الجميع يرجعون إلى ربِّ العالمين؛ فيقضي بينهم بالعدل، لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشغله حساب عن حساب، وحسابُ الله تعالى لخَلْقِه صادرٌ عن عِلْمِه بهم، فلا يحتاج إلى إعداد ولا تكلُّف.

وقد ورد أنه سبحانه يحاسب العباد في مقدار حلب شاة، وهو مقدار نصف يوم.

ولمَّا كان بعض الناس يوالي غير الله سبحانه، بيَّن هنا أن الله مولاهم الحق، فهو الذي خلقهم، وإليه يعودون، أما ما كانوا يوالونه في الدنيا من آلهة مزعومة، أو من غير المؤمنين، فقد كانت وِلاية باطلة، وهو سبحانه ﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ لكمال علمه وحفظه، وما أثبته في اللوح المحفوظ، وما أثبتته الملائكة في صحف الأعمال.

---

(١) ينظر نص الحديث في «مسند أحمد» (١١/ ٤١٣) وهو برقم (٨٧٥٤) بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ﷺ، وقال: صحيح، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط الشيخين (٢٥٠٩٠) وفي «مسند أبي هريرة» برقم (٨٧٦٩) وأخرجه البيهقي في «عذاب القبر» (٣٠). وابن ماجه (٤٢٦٢) والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢) وابن حبان (٣٠١٤) والطبراني في الأوسط (٧٤٦).

وهذه الآيات الثلاث أقامت البراهين على كمال قدرة الله تعالى، ونَفَاذِ إرادته، ومحاسبته لعباده يوم القيامة على ما قدموا وأخروا.

مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ:

٦٣- ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم[١] مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً[٢] لَّئِنْ أَنجَىٰنَا[٣] مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾

ثم تدعو هذه الآية المشركين بالله تعالى إلى تحكيم فطرتهم في توحيد الخالق سبحانه وإفراده بالعبادة، فالهول والكرب يصيبهم في الدنيا، وساعتها يلجؤون إلى الله وحده، فلماذا ينسونه بعد كشف الضر عنهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾ [يونس]

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل].

وظلمة البر: ما اجتمع فيه ظلمة الليل وظلمة السحاب؛ فيحصل الخوف الشديد؛ لعدم الاهتداء إلى الطريق.

وظلمة البحر: ما اجتمع فيه ظلمة الليل وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائجة؛ فيحصل الخوف من الغرق.

والتضرع: المبالغة في الضراعة إلى الله تعالى مع الذل والخضوع.

وعند اجتماع هذه الأسباب الموجِبة للخوف لا يلجأ الإنسان إلا إلى الله تعالى،

---

(١) قرأ يعقوب (مَن يُنْجيكُمْ) بإسكان النون وتخفيف الجيم مضارع (أنجى)، والباقون (من يُنَجّيكُم) بفتح النون وتشديد الجيم مضارع (نجّى).

(٢) قرأ شعبة (وخِفْيَة) بكسر الخاء، والباقون (وخُفْية) بضم الخاء.

(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف (لئن أنجانا) بألف بعد الجيم من غير ياء ولا تاء بلفظ الغيب، والباقون (لئن أنجَيْتَنَا) بياء بعد الجيم بعدها تاء مفتوحة على الخطاب حكاية لدعائهم.

وينقطع رجاؤه عن كلِّ ما سواه؛ فيدعو ربه ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: سرًّا وجهرًا من لسانه وقلبه، ظاهرًا وباطنًا، مخلصًا له الدعاء، وبهذا يظهرُ أصلُ الفطرة في الإنسان، وأكثر الناس يلجؤون إلى الله تعالى عند الخوف والشدة، فإذا أمنوا وذهب ما بهم من ضُرٍّ؛ رجعوا إلى عادتهم التي كانوا عليها.

والمعنى: قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين: مَن ينقذكم من الشدة في لحظات الضيق وساعات اليأس وهي كثيرة؟ أليس هو الله الذي تدعونه متذللين له في الشدائد وتقولون: لئن أنجانا من هذه المخاوف؛ لنكونن من الشاكرين بعبادته وحده دون سواه؟

والله سبحانه يقول للمشركين وللمنافقين ولضعاف الإيمان: إلى مَن تلجؤون حين يصيبكم الضر، وتضيق بكم السُّبُل، وتخافون الوقوع في المهالك؟ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء] أي: وأنتم في حالة الشدة والكرب لا تدعون إلا الله، وتنسون شرككم وتلجؤون إلى الله وحده.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ حين تحيط بكم ألوانُ الشدائد والأهوال في البر والبحر ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: أنكم لا تلجؤون إلا إلى الله وحده حين يمسكم الضر، وتقعون في الشدة؛ حيث تدعونه سرًّا وجهرًا، ببكاء وضراعة، وخشية وخوف من الله سبحانه، وتقولون: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الشدة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ المعترفين بنعمته وأوَّلُ مقتضيات الشكر توحيدُ الباري سبحانه، وإفراده بجميع أنواع العبادة. قال تعالى:

٦٤- ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم[1] مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ثم يأمر الله رسوله أن يذكِّرَ أهل الشرك بأن الله وحده هو الذي يُنقذهم من كلِّ شدة، ومن كل ضيق، ومن كل غم، ثم أنتم - أيها الجاحدون - تشركون بالله بعد ذلك، وتنسوْن نعمة الله عليكم، فأي برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك وصحة التوحيد؟!!

قل لهم - يا محمد -: الله سبحانه هو الذي ينجيكم من هذه الظلمات، ومن كل كرب، ولكنكم لا تستقيمون على الإيمان، وإنما تعودون إلى شرككم بعد أن ينجيكم الله

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان ويعقوب (قل الله يُنْجِيكُمْ) بإسكان النون وتخفيف الجيم مضارع (أنجى)، والباقون (قل الله يُنجِّيكُمْ) بفتح النون وتشديد الجيم مضارع (نجَّى).

من الشدة، فأنتم تتعرفون على الله في الشدة، وتنسونه في الرخاء.

أَلْوَانٌ مِنْ عِقَابِ اللهِ لِلأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ (الْخَسْف وَالزَّلَازِل وَالاخْتِلَاف)

٦٥- ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ(١) عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ(٢) بَعْضٍ(٣) ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

وفي هذه الآية نوعٌ من بأس الله وعقابه لهذه الأمة حال الإقامة على المعاصي، وهو عقاب مستمر يتكرر، وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ لكل مَن أشرك بالله تعالى، وتذكيرٌ بقدرة الله سبحانه؛ حتى يخشَوْا بأسه في السراء والضراء، والسر والعلانية، فالله سبحانه هو القادر على أن يُعذِّبَ هذه الأمة عذاب استئصال؛ بأن يبيدها ويهلكها، كما فعل بالأمم السابقة؛ كقوم لوط، وقوم صالح، وقوم هود، فيرسل عليهم الرجفة، أو الصاعقة، أو الصيحة، أو حجارة ترميهم من سجيل، أو يخسف بهم الأرض، كقارون، ولكنه جل شأنه أراد لهذه الأمة البقاء، وأراد لرسالة محمدٍ ﷺ أن تبقى إلى يوم الساعة.

فالأمم التي دُمرت، وأُهلكت عن بكرة أبيها، انتهت فيها مدة الرسالة، ولم يرد الله لها بقاءها إلى يوم الساعة، أما أمة محمدٍ ﷺ فهي باقية، ورسالتها قائمة إلى يوم الساعة؛ ولذلك فإن الله سبحانه لم يعذب هذه الأمة عذاب استئصال لسببين:

أحدهما: وجود الرسالة الخاتمة فيهم. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.
أي: وما كان الله ليبيدهم ويهلكهم وأنت فيهم -أيها النبي- برسالتك القائمة إلى يوم القيامة.

وثانيهما: كثرة الاستغفار ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فالاستغفار، وكثرة التضرع، والرجوع إلى الله سبحانه من أسباب رفع العذاب عن الأمة.

---

(١) قرأ الأزرق عن ورش بترقيق الراء وتفخيمها من لفظ (القادر)، والباقون بالتفخيم.

(٢) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال الهمزة ألفًا من لفظ (بأس) ومعهما حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وقنبل وابن ذكوان بخلف عنهما بكسر التنوين وصلًا من (بعض انظر)، والباقون بالضم، ومعهم قنبل وابن ذكوان في الوجه الآخر.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما فعل بقوم نوح في الطوفان، وقوم لوط، وأصحاب الفيل الذين رُجموا بحجارة من سجيل، وكالصيحة، أو الصاعقة، أو الريح التي نزلت بقوم صالح، وبقوم هود، وما أشبه ذلك.

﴿أَوْ﴾ يبعث عليكم عذابًا ﴿مِّن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ بالخسف، والرجفة، والزلازل، والبراكين، كما فعل بقارون، وقوم شعيب ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١].

لمَّا نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال النبي ﷺ: **«أعوذ بوجهك»** قال الله سبحانه: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال عليه الصلاة والسلام: **«أعوذ بوجهك»** قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي: يجعلكم فرقًا مختلفة الأهواء، ويبثُّ فيكم الفتن، والجدال، والخصام، والصراع، والنزاع، والاختلاف، والتفرق، وهذا البأس يصيب الله به الأمة كلما انحرفت عن منهج الله، فهو عذابٌ بطيءٌ؛ ولذا قال عليه الصلاة والسلام: **«هذه أهون»**.

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه سأل ربه ثلاثة أشياء؛ فأعطاه اثنين، ومنعه واحدًا، سأله أن يرفع عن أمته عذابًا يأتيها من فوقها؛ فأعطاه الله ذلك، وسأله أن يرفع عن أمته عذابًا يأتيها من تحتها؛ فأعطاه الله ذلك[1].

فالعذاب الذي يأتي للإنسان من فوق أو من تحت لا قِبَلَ له بردِّه؛ لأن قوته قاهرة فوق طاقته، وهو عذاب غلاب ليس باستطاعتك أن تدفعه.

أما العذاب الذي يأتيك من يمينك، أو من يسارك، أو من أمامك، أو من خلفك، فإنك تستطيع أن تدفعه وأن ترده، بخلاف العذابُ الذي يأتي من فوق أو من تحت فإنه يخسف بالعتاة والجبابرة وكبار الرؤوس، مهما أوتوا من أسلحة، أو ذخائر، فليس بأيديهم أن يمنعوا هذا العذاب ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي: يقاتل بعضكم بعضًا، ويُعادي بعضكم بعضًا.

عن زيد بن أسلم قال: لمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: **«لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف»** قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك

---

(١) يأتي نص الحديثين قريبًا.

رسول الله؟ قال: «نعم» فقال بعض الناس: لا يكون هذا أبدًا أن يقتل بعضنا بعضًا ونحن مسلمون؛ فنزلت ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾[١].

قال تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [الملك].

قال ابن عباس: يبث فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقًا[٢].

وقال البيضاوي: يخلطكم فرقًا متحزبين على أهواء شتى؛ فينشب القتال بينكم[٣].

هذا، وسياق هذه الآية، مع ما قبلها وما بعدها، يشير إلى أن الخطاب فيها موجهٌ للمشركين في هذه الأمة، خشيةَ أن تصيب مَن بجوارهم من المسلمين؛ فيعمهم الله بعقاب، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وكما جاء في الحديث: قالوا: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[٤].

وقد أذاق الله المشركين بأسَ المسلمين في غزوات وحروب كثيرة؛ ولذا قال النبي ﷺ عن الثالثة: «**هذه أهون**» أو «**أيسر**»؛ أي: أن القتل إذا حلَّ بالمشركين فسيلحق المسلمين منه أذًى كثيرٌ، ولكنه أهون وأيسر من عذاب الاستئصال، والقضاء على هذا الدين.

ويصح أن يكون المعنى: أن النبي ﷺ استعاذَ أن يقع مثلُ ذلك بين المسلمين[٥].

---

(١) «تفسير الطبري» (٧/ ١٤٣) و«أسباب النزول» للسيوطي (١١٧) و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٧) وابن أبي حاتم (٧٤١٨) وبعض الحديث في «المسند» (٢٠٣٦) عن ابن عباس، بإسناد صحيح على شرط البخاري، وجاء أيضًا عن ابن مسعود (٣٨١٥) وابن عمر (٥٥٧٨) وغيرهم. وفي «البخاري» برقم (٤٤٠٣) عن ابن عمر، وفي مسلم (٦٦) وروايات كتب الحديث إلى (رقاب بعض) والزائد على ذلك من كتب التفسير وأسباب النزول.

(٢) «زاد المسير» (٣/ ٥٩).

(٣) «تفسير البيضاوي» ص١٧٣ .

(٤) من حديث زينب بنت جحش ﵂ في «البخاري» (٣٣٤٦، ٣٥٩٨) ومسلم (٢٨٨٠).

(٥) ينظر: «تفسير ابن عاشور» (٧/ ٢٨٤).

قال سبحانه: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ كيف ننوع الحجج الواضحة لأهل الشرك ونأتي بها على أوجه كثيرة لعلهم يفهمون فيتعظوا ويعتبروا.

هذا، وقد ذكر الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية الحديثَ الذي سأل فيه النبي ﷺ ربَّه أن يرفع عن أمته أنواعَ العذاب الثلاثة التي تضمنتها الآية، فأعطاه الله اثنين ومنعه الثالث، واستقصى ؒ طرق الحديث الأربعة والعشرين، ونحن نُورد منها بعض ما صحت به الرواية:

١- عن جابر بن عبد الله ؓ قال: لمَّا نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: **«أعوذ بوجهك»**.

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: **«أعوذ بوجهك»**.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: **«هذا أهون»** أو قال: **«هذا أيسر»**[1].

٢- وعن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية؛ فدخل فصلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه ﷻ طويلًا، قال: **«سألت ربي ثلاثًا: سألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»**[2].

٣- عن جابر بن عتيك قال: جاءنا عبد الله بن عمر في بني معاوية -قرية من قرى الأنصار-، فقال لي: هل تدري أين صلى رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا؟ فقلت: نعم، فأشرت إلى ناحيةٍ منه، فقال: هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن فيه؟ فقلت: نعم، قال: فأخبِرْني بهم،

---

(١) البخاري في التفسير برقم (٤٦٢٨) وفي الاعتصام (٧٣١٣) وفي التوحيد (٧٤٠٦) والترمذي في التفسير (٣٠٦٥) وقال: حسن صحيح، وابن حبان في فضل الأمة (٧١٧٦) والنسائي في التفسير (١٨٤) وفي «السنن الكبرى» (١١١٦٤) والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٢) حديث صحيح، رجاله كلهم ثقات، وهو في «المسند» (١/ ١٧٥) برقم (١٥١٦، ١٥٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات، وفي مسلم في الفتن (٤/ ٢٢١٦) برقم (٢٨٩٠) وابن خزيمة (١٢١٧) وابن حبان (٧٢٣٧) وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٢٠) والبزار (١١٢٥) والبغوي (٤٠٤١).

فقلت: دعا أن لا يَظْهَرَ عليهم عدوًّا من غيرهم، ولا يهلكهم بالسنين، فأُعطيهما، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم، فَمُنِعها، قال: صدقت، فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة[1].

٤- قال خباب بن الأرت: راقبت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها، حتى كان مع الفجر، فسلم من صلاته، قلت: يا رسول الله، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليتَ مثلها، فقال رسول الله ﷺ: **«أجل، إنها صلاة رَغَب ورَهَب، سألت ربي ﷻ فيها ثلاث خصال؛ فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة؛ سألت ربي ﷻ ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا؛ فأعطانيها، وسألت ربي ﷻ ألا يظهر علينا عدوًّا من غيرنا؛ فأعطانيها، وسألت ربي ﷻ أن لا يلبسنا شيعًا؛ فمنعنيها»**[2].

٥- وعن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقَها ومغاربها، وإن مُلْك أمتي سيبلغ ما زُوِيَ لي منها، وإني أعطيت الكَنْزَيْنِ الأبيضَ والأحمرَ، وإني سألت ربي ألا يهلك أمتي بسَنَةٍ بعامة، وألا يسلط عليهم عدوًّا فيهلكهم بعامة، وألا يلبسهم شيعًا، وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد، وإني قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة، وألا أسلط عليهم عدوًّا مِنْ سواهم فيهلكم بعامة، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، وبعضهم يقتل بعضًا، وبعضهم يسبي بعضًا»** وقال: قال النبي ﷺ: **«إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة**

---

(١) «مسند أحمد» (٥/ ٤٤٥) برقم (٢٣٧٤٩) و«المستدرك» (٤/ ٥١٧) قال محققو «المسند»: حديث صحيح، وقال ابن كثير: ليس في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٢١): رجاله ثقات، وله شاهد في صحيح مسلم (٢٨٩٠) ومن حديث سعد بن أبي وقاص في المسند (١٥١٦) وأخرج رواية ابن عمر ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢١٤٠) وفي الموطأ من رواية يحيى الليثي (١/ ٢١٦) وأبي مصعب الزهري (٦٢٤) وهو عند الحاكم (٤/ ٥١٧).

(٢) رجاله رجال الشيخين، وهو في «المسند» (٥/ ١٠٨) برقم (٢١٠٥٣، ٢١٠٥٥) بإسناد صحيح، (محققوه) والطبراني (٣٦٢١) والترمذي (٤/ ٤٠٩) باب (١٤) برقم (٢١٧٥) من حديث الزهري، و«صحيح سنن الترمذي» (١٧٦٧) وفي «سنن النسائي» (٣/ ٢١٦) برقم (١٦٣٧) و«صحيح ابن حبان» (٩/ ١٨٠) والنسائي في «السنن الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٣/ ١١٥).

المضلِّين، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة»[١].

٦- في حديث ابن مسعود وابن عمرو وغيرهما: **«ليكونن في هذه الأمة قذف وخسف ومسخ»**[٢].

٧- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»**[٣].

قال أبي بن كعب في هذه الآية: هن أربع، وكلهن عذاب، فجاءت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، فأُلبِسُوا شيعًا، وذاق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان، وهما لابد واقعتان؛ يعني: الخسف والرجم[٤].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لأمة محمد، فأعفاهم منه ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ ما كان بينهم من الفتن والاختلاف، زاد غيره: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٢١٠) والطبري (٩/ ٣٠٣٣) وقال ابن كثير: ليس في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوي وهو في «المسند» (٤/ ١٢٣) برقم (٢٢٣٩٥) و(٢٢٤٥٢) وإسناده صحيح على شرط مسلم (محققوه) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٢١): رجال أحمد رجال الصحيح، وبنحوه عن ثوبان في مسلم (٤/ ٢٢١٥) برقم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢) مختصرًا والطيالسي (٩٩١) والترمذي (٢١٧٦).

(٢) جاء هذا الحديث عن سبعة عشر صحابيًا، وهو في «المسند» (٢/ ١٦٣) برقم (٦٥٢١) عن عبد الله بن عمرو، حسن لغيره (محققوه) وأبي داود (٤٢٥٢) والترمذي (٢١٧٦) وابن ماجه (٣٩٥٢) وصحيح ابن ماجه (٣٢٨٣) والبزار (٣٨٧) وابن حبان (٦٧١٤) والحاكم (٤/ ٤٤٩) والسلسلة الصحيحة (٤/ ٣٩٤) والروض النضير (١٠٠٤).

(٣) حديث حسن كما في «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٤) والترمذي (٢٦٤٠) وابن ماجه (٣٩٩١) والحاكم (١/ ١٢٨) ومن حديث عوف بن مالك في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٤٩٢) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٢٦).

(٤) ينظر: «المسند» (٥/ ١٣٤) برقم (٢١٢٢٧) قال محققو «المسند»: إسناده ضعيف لضعف أبي جعفر الرازي، وهو في الطبري (١١/ ٤٢٢) وأخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١) ثم قال: رواه أحمد ورواته ثقات، وقال هو والحافظ ابن حجر: إن أُبيَّ بن كعب لم يدرك زمن الفتنة؛ أي: سنة خمس وعشرين بعد وفاة الرسول ﷺ، وكأنه أكمل من رواية أبي العالية المذكورة، وهو عند ابن أبي شيبة (١٥/ ١٨٠) والضياء المقدسي في «المختارة» (١١٤٩) وغيرهم.

يعني: ما كان من القتل بعد وفاة رسول الله ﷺ.

قلت: والآية ماضيةٌ إلى يوم القيامة، وسُنَّةُ الله في خَلْقه لا تتخلف، والواقع المعاصر يوضح الآية ويفسرها.

وهكذا، فالتفرق الدائم داءٌ وبيل، تصاب به الأمة كلما تهيأت أسبابه، ولم تتحصن منه بما ينبغي، كما يصاب الفرد بالمرض إذا أهمل الوقاية، أو قصَّر في العلاج.

وَتَفَرُّقُ الأمة ليس دائمًا في كل الأزمنة والأمكنة إلى يوم القيامة، بل يأتي على طريق التنبيه والإيقاظ من الغفلة للتمسك بمثل قول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]

فالتفرق عقوبةٌ، ترتفع عن الأمة كلما أخذت في الاعتصام بحبل الله، وهذا التمسك يبدو جليًّا عندما تكون الأمة في مواجهة عدوٍّ لها، كما يحدث حاليا من الوقوف صفًّا واحدًا تجاه اليهود، وإن اعترى ذلك شيء من المداراة أو المصالح تفاديًا للضرر الأكبر. قال تعالى:

٦٦- ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ[1] ﴿٦٦﴾﴾

ثم يأمر الله رسوله أن يصارح المكذبين بسوء مصيرهم إذا استمروا في ضلالهم ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ أي: وكذب بهذا القرآن الذي جئتهم به، الكفار من قومك، وهو الكتاب الصادق، فكل ما جاء به حقٌّ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٥٧] أي: وكذبتم بهذا القرآن.

ويصح أن يعود الضمير على العذاب الذي توعَّدهم به رسول الله ﷺ، ولم يؤمنوا، قل لهم: لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، إنما أنا مبلِّغٌ عن ربي، وقد نصحتُ لكم، ولكن لا تحبون الناصحين، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. قال تعالى:

٦٧- ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

ثم يُختم هذا السياق بهذا التهديد ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ لكلِّ خبر من أخبار القرآن موعدٌ

(١) عدّ لفظ (بوكيل) آية، الكوفي، وأسقطها غيره من العدد.

وغاية يتحقق فيه، ونهاية ينتهي إليها، يعرف عندها الصدق من الكذب، ولكل خبر وقت يستقر فيه وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيها الكفار عاقبتكم في الدنيا وفي الآخرة عند حلول العذاب بكم، وتعلمون كذلك صِدْقَ رسول الله ﷺ، وصِدْقَ ما جاء به هذا الكتاب العزيز، فالباطل يزول، والحقُّ يثبت، وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أي: إنما عليَّ البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمَن تبعني فقد سعد في الدنيا والآخرة، ومَن خالفني فقد شقي في دنياه وأخراه.

وجوب الإِعْرَاضِ عَنْ مَجَالِسِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالإِسْلَامِ وَنُصْحِهِمْ

٦٨- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ[1] ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾

وبعد تبليغ الدعوة للناس، فإذا وَجد المسلم في مجلس مَّا مَن يَكْفُر أو يستهزئ بشيء من القرآن أو يسخر منه؛ أو يتكلم بما يخالف الحق، فيعرض عنه أو يقدح فيه، أو يزعم عدم صلاحيته للزمان والمكان، فعليه أن يقاطع هذا المجلس بعد أن يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، فالخطاب في الآية موجهٌ إلى كل مسلم، لا سيما الدعاة إلى الله تعالى، وعلة هذا النهي هي الطعن في الإسلام، وسماع الخوض فيه.

قال ابن جريج: كان المشركون يجلسون إلى النبي ﷺ، يحبون أن يسمعوا منه، فإذا سمعوا استهزؤوا؛ فنزلت الآية، فكان ﷺ بعد ذلك إذا استهزؤوا قام؛ فحذروا وقالوا: لا تستهزئوا فيقوم[2].

وقال سعيد بن جبير: لمَّا هاجر المسلمون إلى المدينة جعل المنافقون يجالسونهم، فإذا سمعوا القرآن خاضوا واستهزؤوا كفعل المشركين بمكة، فقال المسلمون: لا حرج علينا،

---

(١) قرأ ابن عامر (يُنَسِّيَنَّكَ) بفتح النون وتشديد السين مضارع (نَسّىٰ)، والباقون (يُنْسِيَنَّكَ) بإسكان النون وتخفيف السين مضارع (أنسى)، وهما لغتان، والمفعول الثاني محذوف؛ أي: ما أمرت به من ترك مجالسة الخائضين في آياته فلا تقعد معهم بعد التذكر.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣١٧).

قد رخَّص الله لنا في مجالستهم، وما علينا من خوضهم؛ فنزلت بالمدينة[١].

والمعنى: إذا رأيتَ مَن يتكلم بالباطل في القرآن؛ فابتعد عنه حتى ينتقل إلى حديث آخر، فإن نسيت وقعدت معهم ثم تذكرتَ فلا تجلس بعد تذكُّرك، فقد يجلس الإنسان مع مَن يسخرون بشيء من أحكام الإسلام، كتطبيق الحدود مثلًا، أو فيما يتعلق بأحكام المرأة، كحجابها وميراثها، وغير ذلك مما جاء به القرآن، أو جاء به رسول الله ﷺ، وقد يُبتلى الإنسان ببعض مَن لا فقه عندهم مِن عوام المسلمين، الذين يتأثرون بمخالطتهم غير المسلمين، فيقع على ألسنتهم شيء من هذا الاستخفاف والاستهزاء، أو التكذيب بطريقة ما، فالجِدُّ والهزل في هذه الحالة يستويان.

وقد قال الله سبحانه عمَّن اعتذروا بعد خوضهم في شأن الصحابة والرسول ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة] ثم قال لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة] فسمَّاهم كفرة؛ لأن هذا مُخرِجٌ من الملة.

إذا رأيت - أيها المسلم - مجلسًا، فيه هذا اللغو من الكلام، أو الخوض في مسائل الشريعة، أو التكذيب والاستهزاء بشيءٍ ممَّا جاء به الإسلام، أو الاستخفاف برسول الله ﷺ، أو بسنته؛ فخالطْهم للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولردعهم وردهم وتفهيمهم الصواب، فهذا أمر واجب يُلزمك به الإسلام.

فإن جلست معهم ولم تستطع ردعهم، وليس هناك من سلطة أو هيئة في هذه الديار، كهيئة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تَرْدع فِعْلَ هؤلاء، وتقف إلى جوارك، فأنت، في هذه الحالة، مُطالَب بمقاطعة مثل هذه المجالس، وعدم الجلوس معهم بعد نهيهم، وبعد وعظهم وتذكيرهم، مع تكرار ومعاودة الموعظة، وعدم مجاملتهم في ذلك.

فالمسلم مُطالَبٌ بمقاطعة مثل هذه المجالس، والإعراض عنها حتى يخوضوا في حديث غيره، فإن حدث لك ذلك وجلستَ معهم ساهيًا أو نسيانًا؛ فعليك، إذا تذكرتَ، أن تقوم فورًا من مجلسك.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٩٠).

وهذه آية مكية من سورة الأنعام، ولها آية مماثلة من سورة النساء مدنية، وآية سورة النساء متأخرة عن هذه الآية، وقد فصَّلت آية النساء هذا الخوض وبيَّنته في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء] فوضَّحت أن الخوض يكون بالكفر والاستهزاء ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾.

فعليك ترك المجلس في هذه الحالة حتى ينتقلوا إلى حديث آخر.

وهكذا: فإن أنساك الشيطان أن تُعرض عنهم، وجلستَ معهم ناسيًا أو غافلًا، ثم تذكرت الإعراض عنهم، والنهي عن مجالستهم؛ فانصرف عن مجلسهم، ولا تقعد معهم ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ﴾ أي: بعد تذكر النهي عن الجلوس، فلا تجلس ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالخوض في آيات الله؛ أي: إذا جلست ساهيًا أو ناسيًا فلا تقعد معهم بعد أن تتذكر، وبعد أن تُذكِّرَهم بخطر ما هم عليه.

لَا تَبِعَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا دَاموا قَدْ نَصَحوا وأَعْرَضوا عَنْ مَجْلِسِ الْخَائِضِينَ

٦٩- ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾

وهذا النهي والتحريم لمن جلس مع الخائضين، إذا شاركهم أو سكت عنهم ولم ينكر، فإن استعمل تقوى الله تعالى، فنهاهم عن الشر وأمرهم بالخير، فلا إثم عليه ولا حرج.

وفي وقت نزول الآية السابقة كان المشركون متواجدون في المسجد الحرام، وهم يخوضون في رسول الله ﷺ، ويخوضون في القرآن، وفي الرسالة، فقال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام، ونطوف بالبيت العتيق، وهم يخوضون فيه؟ وفي رواية، قال المسلمون: إنا نخاف الإثم حين نتركهم، ولا ننهاهم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

أي: وما على المؤمنين الذين يخافون الله، ولا يهزؤون بالإسلام، ولا بشيء ممَّا جاء به رسول الإسلام، وأدوا واجبهم؛ فأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وقاموا بواجبهم تجاه هؤلاء، فليس عليهم شيءٌ بعد ذلك، ولكن عليهم أن يذكِّروهم، وأن يعظوهم ويزْجُروهم ويمنعوهم؛ ليمسكوا عن هذا الكلام الباطل، لعلهم يتقون الله تعالى، ويُقلعون

(١) رواه البغوي في «تفسيره» عن ابن عباس.

عمَّا هم فيه من الخوض في دين الله، فإذا لم يمتنعوا فليس عليكم شيء بعد ذلك.

ومن الأحكام التي تؤخذ من هذه الآية والتي قبلها

(أ) وجوب الإعراض عن مجالسة المستهزئين بآيات الله، أو برسل الله، سواء أكانوا مؤمنين أو كفارًا؛ لأن القعود معهم مع عدم إظهار الكراهية لهم فيه إقرارٌ ومشاركةٌ لهم، ورضى بهذا الكفر وهذا الاستهزاء.

(ب) يجوز مجالسة الكفار، ما لم يخوضوا بالباطل في الإسلام، وما لم يتأثر المسلم بشركهم، أو كفرهم، أو بدعتهم، بأن كان ممَّن لا يملك حُجَّةً يدفع بها الباطل.

(ج) ويؤخذ من الآية أيضًا أن الإنسان غير مُكَلَّفٍ حال نسيانه. وفي الحديث: «**إن الله وضع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استُكْرِهُوا عليه**»[1].

(د) الخطاب في الآية للنبي ﷺ؛ لأنه المبلِّغُ عن الله تعالى، والمقصود هو الأمة.

مُجَانَبَةُ أَهْلِ الْبَاطِلِ:

٧٠- ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا[2] وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ثم يكلف الله سبحانه المؤمنين أن يهجروا مجالس الذين يسخرون ويستهزئون بالإسلام وأهله، ويتخذون من ذلك مادةً للهو واللعب والمزاح.

وكان المشركون إذا سمعوا القرآن يلعبون ويلهون، ويحثُّ بعضهم بعضًا على إحداث اللغو، والضوضاء؛ للتشويش عليه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت].

قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي: اترك - يا محمد - هؤلاء

---

(١) صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤) عن ابن عباس وفي المشكاة (٦٢٨٤) وفي «إرواء الغليل» (٨٢) وفي الروض (٤٠٤)، وهو في «معجم الطبراني»، ورواه ابن ماجه برقم (٢٠٤٥).

(٢) قرأ خلف عن حمزة بالإدغام من غير غنة في (لعبًا ولهوًا وغرتهم)، والباقون بالإدغام مع الغنة.

المشركين وأضرابَهم، ممَّن جعل الإسلامَ دينَ لعبٍ ولهو، مستهزئًا بآيات الله ﷻ، اتركهم وأَعْرِضْ عنهم، ولا تبالِ بكفرهم واستهزائهم، وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم؛ بأن الله تعالى كافيك إيَّاهم، كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر] والسبب في سخريتهم أنهم اغتروا بما هم فيه، اغتروا بدنياهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخرفها وزينتها.

ومن صور الاستهزاء أن يتحدث الإنسان باستخفاف وسخرية عن الأمور الغيبية، كالحديث عن الملائكة والجن، وعن اليوم الآخر، وما فيه من بعث، ونشور، ونحو ذلك حديثَ استهزاء وإنكار، أو يسخر من الصلاة، أو الزكاة، أو الحج وأعماله وشعائره، أو يتحدث بسخرية عن حجاب المرأة، وعن خُلق الحياء، والعفة في الإسلام، أو يسخر من الميراث بالنسبة للمرأة، أو من تعدد الزوجات.

أو يسخر من الأحكام، والحدود الشرعية، ويصفها بأنها لا تلائم العصر في نظره، أو يهزأ بأحاديث رسول الله ﷺ، ويذكر أنها بحرٌ عميقٌ، لا يُعرَف منها الصحيح، والضعيف، والموضوع، فتترك كلها، أو يسخر من علماء الإسلام، ويهزأ بهم، وبدعوتهم، ويحقِّرهم، ويقلِّل من شأنهم وهكذا.

وكلُّ مَن لا يجعل لهذا الدين وقاره واحترامه في عقيدته، وعبادته، وخُلُقه، وسلوكه، وشريعته، وحدوده، فهو هازئٌ لاعبٌ به. وينطبق هذا على مَن لم يدخل في الإسلام، وعلى مَن دخل فيه، ثم ارتدَّ، من باب أَوْلَى، أو اتخذ من الإسلام وقايةً لنفسه وماله؛ وهم المنافقون.

فكلُّ مَن خاض في آيات الله يُهجر ويُترك مجلسُه، مؤمنًا كان أو كافرًا أو مبتدعًا.

وقد قال بعض المبتدعة لأبي عمران النخعي: اسمع مني كلمة؛ فأعرض عنه، وقال: ولا نصف كلمة.

قال تعالى ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم].

وقال أبو أيوب السجستاني: مَن أحب صاحب بدعة؛ أحبط الله عمله، وأخرج الإسلام من قلبه، ومَن زوج كريمته من مُبتدع؛ فقد قطع رحمها.

ومثل ذلك مَن تعدَّى على خصائص الألوهية؛ فشرَّع للناس ما لم يشرِّعه ربُّ العالمين.

وفي إضافة الدين إلى الذين استهزؤوا به في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾ إشارة إلى أن الإسلام دينُ الخَلْقِ جميعًا؛ بمعنى: أنهم مطالبون بالدخول فيه، ولا دينَ لهم غيره. وليس المراد ترك إنذارهم وتخويفهم من عاقبة استهزائهم، وإنما المراد ترك معاشرتهم وملاطفتهم.

ومعنى اتخاذهم الدين لعبًا ولهوًا: أنهم اتخذوا ما هو لعب ولهو، كعبادة الأصنام وغيرها دينًا لهم، وكانوا يتخذون أعيادهم الدينية لعبًا ولهوًا.

قال ابن عباس: جعل الله لكل قوم عيدًا يعظمونه، ويصلون فيه، ويعمرونه بذكر الله، ثم إن المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعبًا ولهوًا، أما المسلمون فإنهم اتخذوا دينهم كما شرعه الله[١].

ثم قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي بهذا القرآن ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾ أي لئلا تُبسل نفس، أيْ تُحبس وتُرهن ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ ذكِّرهم قبل اقتحام العبد للذنوب وتجرُّئه على علّام الغيوب، واستمراره على ذلك.

والمعنى: ذكِّر- أيها الرسول -بهذا القرآن، وبهذا الدين، وعِظْ به أمتك من المشركين وغيرهم؛ لترتدع وتنزجر وتكف عن فعلها، قبل أن تحيط بها ذنوبها ثم لا ينفعها أحد من الخلق، كي لا تُرتهن نفس يوم القيامة بذنوبها وكُفرها بربها.

ذكِّر بالقرآن هذه الأمة؛ مخافةَ أن تُحبس نفس في جهنم، وتُحرم من الثواب، وتفضح على رؤوس الأشهاد؛ بسبب ما كسبت من الخطايا والآثام، فبالقرآن والعمل بما فيه يَسْلَمُ الناس من المهالك، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾ [المدثر].

وهذه النفس الهالكة التي لم تنتفع بالقرآن، وسخرت منه، واستهزأت به ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ لا قريب ولا صديق، ولا يتولّاها من دون الله أحد.

أي: ليس لها غير الله ناصر ينصرها، ويدفع عنها العذاب، وليس لها شافع يشفع عنده، ولا يمكنها أن تفدي نفسها من العذاب، ولو قدمت كنوز الدنيا.

وهذا معنى ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي: وإن تفدي نفسها بكل فداء ولو بملىء الأرض

---

(١) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (٨/ ٦٥).

ذهبًا ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي: لا يقبل منها هذا الفداء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقد بيَّنتِ الآية أن وجوه الخلاص الثلاثة التي تنفع في الدنيا (وهي الولي والشفيع والفدية) لا تنفع في الآخرة، وليس هناك ما يدفع عذاب الله تعالى عمَّن مات على كفره.

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى اللاعبين اللاهين بالقرآن الموصوفين بما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟﴾ أي أُهلكوا وأيسوا من الخير ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ وهم الذين ارتُهِنُوا بذنوبهم، وأُسلموا إلى العذاب؛ بسبب ما اكتسبوا ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لهم في جهنم شرابٌ شديدُ الحرارة، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء كما قال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ [الغاشية]

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]

وقال جل شأنه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ لَّا يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧].

وإلى جوار ذلك فإن عذابهم موجع مؤلم؛ بسبب كفرهم بالله تعالى، وبرسوله محمدٍ ﷺ، وعدم دخولهم في دين الإسلام، وهذا معنى ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

ويُؤخذ من الآية أن الرسول ﷺ -وكلَّ مَن يدعو إلى الله بعده- مأمورٌ بتذكير أمثال هؤلاء، وتخويفهم من عذاب الله تعالى.

وفي الآية أن مخالطة الفسقة أو الظالمين؛ بقَصْدِ الموعظة، والتذكير، وتصحيح انحرافهم، وفساد آرائهم -أمرٌ مباح، أما السكوت عمَّا بدر منهم -وإن كان من باب التقية- فهو إقرارٌ بالباطل، ومشاركةٌ فيه، وتلبيسٌ على الناس.

الْعَوْدَة إِلَى الْكفرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ ضَلَالٌ مبِينٌ

٧١- ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى

ٱسۡتَهۡوَتۡهُ(١) ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ(٢) لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ(٣) قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

وتستنكر هذه الآية العودةَ إلى الشرك، والرِّدة عن الدين، بعد هدى الله تعالى، وتبيِّنُ أن الأمر لله وحده، وأن الرسول مبلِّغٌ عن ربِّه فحسب.

قال السدي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دينَ محمدٍ؛ فأنزل الله تعالى الآية.

﴿قُلۡ﴾ أيها الرسول الكريم، لهؤلاء المشركين الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان و نحوها: ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾؟ هذا وصف يدخل فيه كل ما عُبد من دون الله، أي: أنعبد من دون الله تعالى ما لا ينفع ولا يضر؛ من أوثان، أوأصنام، أو ملائكة، أو جن، أو إنس، أو حجر، أو شجر؟ فالكلُّ يستوي في عدم النفع أو الضر ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي نرجع إلى الكفر بعد هداية الله لنا للإسلام؟ وننقلب بعد الهدى إلى الضلال، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم إلى الطريق التي تُفضي إلى العذاب الأليم، ففي هذه الحالة نكون شبه مَن فسد عقله باستهواء الشياطين له، وسيطرتها عليه، فضلَّ وتاه عن الطريق.

فَمَثَلُ الذي يكفر بعد إيمان، كمثل رجلٍ كان يمشي مع قوم على الطريق، فضلَّ الطريق، فحيَّرته الشياطين، واستهوته في الأرض، فأخذوا يدعونه، ويقولون له: ائتنا، فإنا على الطريق؛ فأبى أن يأتيَهم، فهذا مَثَلُ مَن عرف الإسلام، ثم رجع عنه.

وهذه الآية تسوق صورةً فريدةً للشرك والمشركين، وتُيئِّسهم من ارتداد بعض المسلمين عن الإسلام، فقد كان المشركون يحاولون ارتداد بعض قرابتهم عن الإسلام، والآية تدعو

(١) قرأ حمزة (استهوته) بألف ممالة بعد الواو على تذكير الفعل (استهواه)، وقرأ الباقون بتاء ساكنة بعد الواو غير ألف، على تأنيث الفعل، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل جمع تكسير.

(٢) رقق الأزرق عن ورش راء (حيران)، وفخمها غيره.

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، بإبدال همزة (ائتنا) ألفًا عند الوصل بما قبلها، ومثله حمزة عند الوقف، فإذا وقف القارئ على (الهدى) اضطرارًا أو اختيارًا، فإن جميع القراء يبتدؤون بهمزة وصل مكسورة، وإبدال همزة (ائتنا) ياء مدِّية، وهكذا كل همزة وصل وقع بعدها همزة قطع ساكنة.

المؤمنين إلى أن يزدادوا إيمانًا على إيمانهم.

أخرج الطبري، بسند حسن، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﷺ قال في معنى الآية: هذا مَثَلٌ ضربه الله للآلهة ومَن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثل رجل ضلَّ عن الطريق تائهًا ضالًّا، إذ ناداه منادٍ: يا فلان ابن فلان، هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه: إلى الهُدَى يا فلان، هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول؛ انطلق به حتى يُلقيه في الهلكة، وإن أجاب مَن يدعوه إلى الهُدَى؛ اهتدى إلى الطريق[1].

ثم ساق القرآنُ صورةً دقيقةً للضلال والحيرة التي تناسب مَن يشرك بالله تعالى بعد التوحيد، فشبهته بحال الذي فسد عقله باستهواءٍ من الشياطين والجن؛ فتاه في الأرض بعد أن كان عارفًا بمسالكها، وترك رفاقه العقلاء يدعونه إلى موافقتهم، ولكن الشياطين قد سَحَرَتْه، وخطفتْ عقله؛ فركب رأسه، وصار كالمجنون الذي لا ينتصح.

وهذا معنى: ﴿كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَٰطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ أي: وهذا الذي ضلَّ الطريق له رفقاء عقلاء مؤمنون، يدعونه إلى الطريق الصحيح الذي هم عليه؛ ليسير معهم في الطريق السليم، ولكنه يأبى، فهو حيران لا يدري أين يذهب ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ وهذه الحيرة تنتاب مَن يشرك بالله تعالى بعد التوحيد، ومَن يتوزع قلبُه بين آلهة شتى، ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال، فهو مخلوق تعيس يعيش في التِّيه والعذاب النفسي.

ثم أمر الله رسوله أن يردَّ على المشركين بما يلجمهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي: أن هذا الطريق الذي أوضحه الله لعباده، هو الذي بعث به محمدًا ﷺ، وهو بحقٍّ طريق الهدى والنور والاستقامة، وليس ما عليه المشركون من الضلال والعمى، فلا هدى إلا هدى الله، فعليكم باتباعه، واحذروا طرق الغواية والشيطان والهوى.

فقل لهم يا محمد: إن الهدى هدى الله، وقل لهم: أُمرنا أن نسلم، ونخلص العبادة لله وحده لا شريك له، فهو ربُّ كلِّ شيء ومليكه، وبهذا أمرنا ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ بأن ننقاد لتوحيده ونُسْلم لأوامره ونواهيه وندخل تحت رق عبوديته قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]

وقال سبحانه: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

---

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ٤٥٢).

الاستعداد ليوم الحشر قبل النفخ في الصور

٧٢- ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢)﴾

وبعد أن أمر الله عباده بتوحيده، وعدم الإشراك به، أمرهم بأداء التكاليف الشرعية، وأوَّلُ التكاليف، بعد إخلاص التوحيد، هو أداء الصلاة كاملة بأركانها وشروطها، فقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ **والتقوى**: جماع كل خير، وهي تشتمل على جميع الأوامر والنواهي، ومردُّ الخلائق إلى الله جميعًا، فيحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم وأقوالكم خيرها وشرها. قال تعالى:

٧٣- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ[(١)] قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)﴾

والله الذي يجمعكم في يوم الحشر للحساب والجزاء، هو خالق هذا الكون بما فيه، ولم يخلقه عبثًا، وإنما خلقه لهدفٍ وغايةٍ؛ هي توحيد الله سبحانه وعبادته، ومجازاة الخَلْق في اليوم الآخِر بما عملوه في الدنيا ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: أنه تعالى أنشأ خَلْقَ السموات والأرض بالحقِّ، وأنه يعيد خلقهما بالحقِّ، وخَلْقهما يدل على وحدانية الله سبحانه، وكمال قوته وقدرته، فاتقوا الله الذي إليه تحشرون، واتقوا الله خالق هذا الكون.

واتقوا الله حين تبعثون من قبوركم، وتقومون للحساب والجزاء، واتقوا عقابه وبطشه يوم تَخرجون من قبوركم بكلمة ﴿كُن﴾ فإن أمره بين الكاف والنون، وإذا قال الله للشيء كن فإنه يكون، فهي كلمة حقٍّ وصدقٍ، وهو كائن لا محالة، ذلكم قول الله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ أي: أن قوله سبحانه هو القول الحق الكامل؛ لأن أقوال الخَلْقِ فيها كثير من الحقِّ، وفيها شيءٌ من الباطل، وكل ما يدل على مراد الله تعالى في يوم الحشر فهو أمرٌ تكويني.

قيل: إن﴿كُن﴾ في الآية تعود على خلق السموات والأرض؛ أي: واذكر يوم قال

---

(١) قوله تعالى (كن فيكون) أسقطها الكوفي من العدد وعدّها غيره.

للسموات والأرض ﴿كُن﴾.

وقيل: تعود إلى يوم القيامة؛ أي: يوم يقول للخَلْقِ: موتوا فيموتوا، وقوموا للحساب فيقوموا.

ولعل الأَوْلَى أنها تعود على يوم القيامة؛ عطفًا على قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ فهو أقرب مذكور، ثم اعطف عليه الحشر، وَالْخلق، ثم البعث، على ما سبق بيانه، وما لا يحتاج إلى تقدير أَوْلَى ممَّا يحتاج إليه.

هذا، وملوك الدنيا لاوجود لنفوذهم ولاجاههم في يوم القيامة، فليس هنا شبهة مُلْك لملِك من ملوك الأرض، فالمُلْك كلُّه لله الواحد القهار، لا منازعَ له فيه ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ﴾ والله تعالى له المُلك وحده في الدنيا والآخرة، ولكن الله تعالى يقول لنا: إن ملوك الدنيا قد زال مُلْكُهم، وما كانوا يدَّعونه فيها من مُلْكٍ فهو فان وزائل ، قد زال وذهب أثره، وانقطعت الأملاك فلا يبقى ملك إلا للواحد القهار كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وكما قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤]

وقال سبحانه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ [الفرقان] ومن ملَك الآخرة فمُلْكُه للدنيا من باب أَوْلَى.

ويوم النفخ في الصور هو يوم القيامة، وهي النفخة الثانية التي فيها عودة الأرواح إلى الأجساد.

والصور: بوق مجوَّف، ويُسمَّى قرنًا بلغة أهل اليمن، وهو الذي يَنْفُخ فيه إسرافيل نفختين؛ نفخة الصعق، وهو موت جميع الخلائق، ونفخة الفزع، ويطوِّلها إلى البعث، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر].

ونفخة البعث هي نفخة الفزع الواردة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٨٧] بمعنى: أنها تبدأ بالفزع من القبور أو البرزخ، وتنتهي بالبعث والنشور.

١- ولذا جاء في بعض الأحاديث أنها نفخات ثلاث، منها حديث طويل عن أبي هريرة ﷺ، وفيه أن النبي ﷺ قال وهو في طائفة من أصحابه: «**إن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فِيه، شاخصًا بصره**

إلى العرش، ينظر متى يُؤمر» قلت: يا رسول الله، وما الصور؟ قال: **«القرن»** قال أبوهريرة: يا رسول الله، مَن استثنى الله ﷻ حين يقول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؟ قال: **«أولئك الشهداء، وإنما يَصِلُ الفزعُ إلى غير الأحياء»**[(١)].

٢- وفي الحديث، أن الله تعالى يبدل الأرض غير الأرض والسموات، فمَن كان في بطن الأرض فهو في بطنها، ومَن كان على ظهرها كان عليها، ثم يُنزل الله عليهم ماء من تحت العرش، ثم يأمر السماء أن تمطر فتمطر أربعين يومًا، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعًا، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت؛ فتنبت كنبات البقل، ثم يأمر الله الأرواح فتدخل في الأجساد، ثم تنشق الأرض عن الخَلْق، وأول مَن تنشق الأرض عنه محمد ﷺ، وعندما تُنشر الصحف يقول الله تعالى: يا معشر الجن والإنس، إنما هي أعمالكم وصُحفكم تُقرأ عليكم، فمَن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ثم يقضي الله بين الخلائق، وأول ما يقضى فيه من حقوق العباد الدماء والمظالم، ثم تكون شفاعة محمدٍ ﷺ، ويدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وإذا وقع أهل النار في النار، وقع فيها خَلْق أَوْبقتهم أعمالهم، فمنهم مَن تأخذه النار إلى قدميه لا تجاوز ذلك، ومنهم مَن تأخذه إلى أنصاف ساقيه، ومنهم مَن تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم مَن تأخذه إلى حِقْوَيه، ومنهم مَن تأخذ جسده كلَّه، ثم تكون شفاعة الله تعالى؛ فيخرج من النار مَن كان في قلبه شيء من الإيمان[(٢)].

وعلى هذا، فالذين استثناهم الله تعالى من الفزع عند النفخ في الصور كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ هم الشهداء، كما في حديث الطبراني السابق؛ لأنهم أحياء لا يصل الفزع إليهم[(٣)].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن طرْف صاحب الصور مُذْ وُكِّل به مستعد، ينظر نحو العرش؛ مخافةَ أن يُؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عينيه كوكبان دُرِّيَّان»**[(٤)].

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٤١) وينظر تفسير ابن كثير (٦/ ٢١٦).

(٢) ينظر الحديث بطوله في «الأحاديث الطوال» للطبراني برقم (٣٦) وينظر صحيح مسلم (٢٩٤٠) عن عبدالله ابن عمرو.

(٣) ينظر الطبراني في «الكبير» (٢٥/ ٢٦٦).

(٤) أخرجه الحاكم وصححه (٤/ ٥٥٨) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٧٨).

٤- وعن أبي هريرة مرفوعًا: «**ما بين النفختين أربعون**» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يومًا؟ قال: أَبَيْتُ، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أَبَيْتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، «**ثم ينزل الله من السماء ماءً، فينبتون كما ينبت البقل، قال: وليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبْلَى إلا عَظْمًا واحدًا وهو عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يُرَكَّب الخلق يوم القيامة**»[1].

ومعنى **أبيت**: امتنعتُ عن تعيين المدة؛ لأن ذلك ليس عندي، بل بتوقيف من رسول الله ﷺ، والدليل على أن الصُّورَ هو القرن ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصور؛ فقال: «**هو قرن يُنفخ فيه**»[2].

وإسرافيل -منذ بعثة النبي ﷺ- قد التقم القرن، وحنى جبهته في انتظار الأمر بالنفخ في الصور.

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أَنْعَمُ وقد التقم صاحبُ القرنِ القرنَ، وحنى جبهتَه، وأصغى سمعهَ، ينتظر أن يُؤمر فينفخ**» وكأن ذلك ثَقُلَ على أصحاب النبي ﷺ؛ فقالوا: كيف نفعل يا رسول الله، وكيف نقول؟ فقال: «**قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا**»[3].

والصور من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها.

وبعد أن أخبر سبحانه عمَّا يكون في يوم الحشر أَتْبَعَه بما يدلُّ على أن الله تعالى يُحاسب يوم القيامة، على كلِّ جَليلٍ ودقيقٍ، فهو سبحانه يعلم ما ظهر وما بطن، ويعلم ما غاب عن حواسكم، وما تشاهدونه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأمور في مواضعها، وله الحكمة التامة والنعمة السابغة، والعلم المحيط، وهو ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾

---

(١) البخاري (٨/ ٤٢٤) برقم (٤٨١٤، ٤٩٣٥) ومسلم (٤/ ٢٢٧٠) برقم (٢٩٥٥).

(٢) «المسند» (١٠/ ١٠) برقم (٦٥٠٧، ٦٨٠٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) والترمذي (٣/ ٢٩٥) برقم (٣٢٤٤) وحسّنه، وأبو داود (٤/ ٣٢٦) برقم (٤٧٤٢) والحاكم (٢/ ٢٣٦) وصححه ووافقه الذهبي، والنسائي في الكبرى (١١٣١٢).

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٦٢٠) في صحيح سننه برقم (١٩٨٠) وابن ماجه (٢/ ١٤٢٨) وأحمد في المسند (٣/ ٧) برقم (١١٠٣٩، ١١٦٩٦) صحيح لغيره، وفيه عطيه العوفي، ضعيف، وبقية رجاله ثقات، رجال الشيخين (محققوه) وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٧٩) والحاكم (٤/ ٥٥٩) والبيهقي في «الشعب» (٣٥٢) وعبد بن حميد (٨٨٦) منتخب، والحميدي (٧٥٤).

بأمور خَلْقه، فهو سبحانه يبدأ ويعيد، ومنه المنشأ، وإليه المصير، وهو وحده الذي يجب على العباد الانقياد لشرعه، والتسليم لحُكْمِه، والتطلع إلى رضوانه ومغفرته.

محَاجَّة الْخَصْمِ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي حِوَارِ إِبْرَاهِيمَ لِقَوْمِهِ

٧٤- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ(١) أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ(٢) أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

ثم نبه الله تعالى محمدًا ﷺ على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في مُحاجته قومه؛ للتوصل إلى وحدانية الله تعالى التي جاء بها إبراهيمُ ومحمدٌ عليهما السلام، وجميعُ الطوائف والملل معترفةٌ بفضل خليل الرحمن.

يقول الله تعالى: واذكر - يامحمد - لقومك، قصة إبراهيم عليه السلام مثنيًا عليه حال دعوته قومه إلى التوحيد ونهيه لهم عن الشرك، حين قال لأبيه: أتتخذ آلهة أصنامًا لا تنفع ولا تضر، وليس لها من الأمر شيء، إني أراك وقومك حين عبدتهم من دون الله في ضلال بيّن.

وهذا المقطع من السورة يتناول عقيدة التوحيد في فِقْرَاتٍ متصلة، ويَذكُر موكب الإيمان الذي يحمله رسلُ الله الكرام، من نوح بعد آدم إلى محمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويُعدد من أسماء هؤلاء الرسل الذين حملوا مشعل الهداية إلى أقوامهم، ثمانية عشر رسولًا بأسمائهم وأعيانهم في هذا المقطع من السورة.

مع إبراهيم وأبيه: ويبدأ هذا المقطع بحوار إبراهيم خليل الرحمن -فهو أبو الأنبياء، وهو أبو المسلمين- مع أبيه وقومه حول التوحيد والشرك، فالتوحيد هو أصل الأصول، وهو دعوة جميع الرسل ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ وآزر: هو الاسم الصحيح لوالد إبراهيم بالنص الصريح في القرآن الكريم، لا يحتاج إلى تأويل، فالله سبحانه يقول: أبوه آزر، ولا يحتاج الأمر إلى أن نقول: إنه اسم لعمِّه، أو نحو ذلك.

وقد جاء هذا الاسم الصحيح الصريح أيضًا في سُنَّةِ رسول الله ﷺ في صحيح

---

(١) قرأ يعقوب بضم الراء من (آزر) على أنه منادى حذف منه حرف النداء، وقرأ الباقون بفتحها وهو بدل من (أبيه) وهو مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة للعلمية والعجمة.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء من (إني أراك) وصلًا، والباقون بإسكانها.

البخاري: يلْقَى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذبح مُتلطِّخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار(١).

وليس من عادة القرآن التعرض لأسماء غير الأنبياء، ولم يُذكر اسم آزر إلا في هذه الآية.

وعن الضحاك: أن آزر اسم أبي إبراهيم بلغة الفرس.

وقال مجاهد: آزر اسم الصنم الذي كان يعبده أبو إبراهيم؛ فَلُقِّبَ به.

وفي معجم ياقوت: أن آزر ناحية بين سوق الأهواز ورامهرمز.

وفي كتب بني إسرائيل: أن اسم أبي إبراهيم تارح - بالحاء -.

ففي الفصل الحادي عشر من سِفْرِ التكوين في التوراة أن بلد تارح (أور الكَلْدانيِّين) وفيه أن تارح خرج هو وابنه إبراهيم من بلده (أورْ الكَلْدَانيين) قاصدين أرض كنعان، وأنهما مرًّا في طريقهما ببلد حاران وأقاما هناك، ومات تارح في حاران.

وفيه أيضًا: أن إبراهيم نُبئ في حاران في حياة أبيه، ولعل أهل حاران لَقَّبُوهُ آزر؛ لأنه جاء إليهم من الناحية المسماة بهذا الاسم(٢).

وهكذا جاء اسمه في القرآن والسنة، فيسميه النبي عليه الصلاة والسلام آزر.

وآزر في التوراة وعند المؤرخين والنسَّابين يسمى تارخ بالخاء أو الحاء، وربما يكون لآزر اسمان كيعقوب وإسرائيل، فهما اسمان لنبيٍّ واحدٍ، ومحمد وأحمد اسمان لنبي واحد، أو يكون له اسم؛ هو آزر، ولقب هو تارخ، أو العكس، ولا يمنع وجود هذا وذاك، واسم أمه (مثانى)، واسم زوجته (سارة) أم إسحاق، واسم سريته (هاجر) أم إسماعيل.

ووالد إبراهيم كان نجارًا يصنع الأصنام وَيَنْحِتُها بيده، وكان يعطيها لابنه إبراهيم وهو

(١) ينظر البخاري برقم (٣٣٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٨/ ٣١١).

صغير ليسوِّقَها، فكان يمشي بها في الأسواق يروِّجها ويقول: مَن يشتري ما يضره ولا ينفعه، فلا يجد أحدًا يشتري منه، ثم في نهاية الأمر يأخذها ويغمس رؤوسها في الماء، ويقول لها: اشربي؛ تهكمًا واستهزاءً وسخريةً(١).

كان قوم إبراهيم من (كوثي) في أرض العراق، وهي قرية في سواد الكوفة، وولد إبراهيم على الصحيح ببابل من أرض العراق، وبابل كانت أرضَ الحضارة، وهي المسيطرة على العراق، وكان بها النمروذ الملِك الطاغية الجبار، الذي ادَّعَى الألوهية.

وحِوارُ إبراهيم مع أبيه آزر في دعوته إلى الله تعالى تتولى ذكرَه سورة مريم [٤١-٤٨] وسورة الشعراء [٦٩-٨٩].

وحوار إبراهيم مع النمروذ تتناوله سورة البقرة [٢٥٨].

وحوار إبراهيم مع عبدة الكواكب السيارة والنجوم تتناوله هذه السورة [٧٤-٨١] وسورة الأنبياء [٥١-٧٣] والصافات [٨٣-٩٨].

وقوم إبراهيم، منهم مَن كان يعبد الأصنام والأوثان، ومنهم مَن كان يعبد الكواكب السبعة، وأشهرها الزهرة، والمشترى، والقمر، والشمس وسائر الكواكب السيارة، كانوا يعبدونها من دون الله، كلُّ قرية تعبد كوكبًا، أو تعبد وثنًا، وتعتقد أن هذا هو الإله الذي يحميها.

قال إبراهيم لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا﴾ تعبدها من دون الله الذي خلقك ورزقك.

والأصنام: جمع صنم؛ وهي تمثال يُصنع من خشبٍ، أو من حجارة، أو حديد، أو ذهب، أو فضة على صورة إنسان، والوثن أعظم من الصنم، قال إبراهيم لأبيه: إني أراك وقومك في عبادتكم لهذه الأصنام في ضلال عن طريق الحقِّ واضح البيان.

إن فطرة إبراهيم تَنطق على لسانه، وتُنكر ما يعبده القوم من الأصنام والكواكب والنجوم، فالإله الذي يخلق ويرزق وينفع ويضر لا يكون صنمًا من حجرٍ، ولا وثنًا من خشبٍ، فعبادتها إذن ضلالٌ بيِّنٌ، وإبراهيم يواجه أباه بهذه الحقيقة؛ لأن العقيدة فوق رابطة الأبوة والبنوة، والنصيحةُ في الدين ليست من العقوق.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣١١).

حِوَار خَلِيلِ الرَّحمٰنِ مَعَ أَبِيهِ

٧٥- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾

وقد استحق إبراهيمُ بصفاء فطرته أن يكشف الله له عن الأسرار الكامنة في هذا الكون، ودلائل التوحيد في هذا الوجود؛ قيل: إن الله تعالى فرَج لإبراهيم السموات والأرض حتى رأى ببصره الملكوت الأعلى، والملكوت الأسفل[1]، فالرؤية يجوز أن تكون بصرية، وأن تكون علمية.

وكما أَطْلَعَ الله تعالى إبراهيم على ملكوت السموات والأرض، أطلع محمدًا ﷺ عليهما كذلك، فقد جاء في حديث المنام الطويل عن معاذ بن جبل ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«أتاني ربي في أحسن صورة، فقال: يا محمد، قلت: لبيك وسعديك، قال: فيم يختصم الملأ قال: الأعلى؟ فقلت: لا أدري يا رب، فوضع كفيه بين كتفيَّ، فوجدتُ بَرْدَها بين ثديي، حتى تجلّى لي ما في السموات وما في الأرض، ثم تلا هذه الآية...»**[2].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: وكما هدينا إبراهيم إلى الحقِّ في أمر العبادة، وأريناه بعين البصيرة ما عليه قومه من الضلال، نريه ما تحتوي عليه السموات والأرض من مُلك عظيم، وقدرة باهرة.

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١]

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]

وقال أيضًا: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سبأ: ٩]

---

(١) «البحر المحيط» (٤/ ١٦٥).

(٢) في «المسند» (٥/ ٢٤٣) برقم (١٦٦٢١) بإسناد ضعيف لاضطر به وانقطاعه، (محققوه) وهو حديث طويل وبرقم (٣٤٨) عن ابن عباس، و«سنن الترمذي» برقم (٣٢٣٣) عن ابن عباس، وأفاد أن بين أبي قلابة وبين ابن عباس رَجُلًا، وأخرجه عنه عبد بن حميد (٦٨٢) وابن خزيمة في التوحيد (٣٢٠) وابن أبي عاصم في السنة (٤٦٩).

وغير ذلك من الآيات الكثيرة[١].

ولكي يكونَ إبراهيم من الراسخين في اليقين، وقوة الإيمان، وزيادة الطمأنينة أراه الله أدلةَ التوحيد القاطعة بنظره الثاقب، وبصيرته النافذة ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ واليقين يحصل عادة عن طريق التأمل، وزوال الشبهة، وكثرة الأدلة تسبب حصول اليقين، **والموقن**: هو العالِمُ علمًا لا يقبل الشَّك.

الاِسْتِدْرَاج الأَوَّل

٧٦- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

وقد استعمل إبراهيمُ هذا النظر الثاقب من التأمل في هذا الكون، فأمره ربُّه أن يُنْكِر على قومه عبادة الأوثان، وأن يأخذ بأيديهم عن طريق التدرج إلى اليقين الحقِّ، والتوحيد الخالص، وكان ذلك بعد أن شرَّف الله إبراهيم بالنبوة، وأكرمه بالرسالة، في أصح القولين.

وقد أراد إبراهيم عليه السلام أن يستدرج قومَه، ويعرِّفهم بجهلهم وخطئهم في عبادة النجوم، عن طريق الإنكار، والمناظرة، وقيام الحجة عليهم، وإلزامهم بها، بعد استنتاجها منهم؛ لإلزامهم بالتوحيد ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: ستره بظلامه وتغشاه بظلمته، أراد إبراهيم عن طريق الحوار والمناظرة وإعمال الفكر استدراج القوم، وأخذ الحجة من أفواههم؛ كي يأخذ بأيديهم إلى التوحيد، فقال لهم على سبيل الفرض، وهو يتنزل إلى مستواهم، وكان يجلس بين قومه في مجلس يتحدثون ويتسامرون في ليلة من الليالي، وقد رأى في الأفق بعد أن أظلم الليل ﴿كَوْكَبًا﴾ نجمًا ساطعًا.

قيل: هو الزهرة أو المشترى، والكوكب من ملكوت السموات؛ أي: رأى كوكبًا شديد الضوء ﴿قَالَ﴾ لهم مستدرجًا ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على وجه التنزل مع الخصم، أي إن هذا الكوكب هو ربي فهلمّ ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وكانوا يعبدون الكواكب، فقال لهم: هذا هو الإله الذي تعبدونه، وكان قد رآه مشرقًا من المشرق، وبعد فترة قليلة غاب وغرب

---

(١) هل هذه الرؤية كانت بعين البصر أو بعين البصيرة؟ الظاهر -والله أعلم- أنها كانت بعين البصيرة، وقد ذكر بعض المفسرين أنها كانت بالبصر؛ كابن جرير والخازن وغيرهما، وهناك أدلة مرفوعة رواها ابن مردويه عن علي ومعاذ لم يصح منها شيء، ونسب ذلك إلى بعض التابعين؛ كابن مجاهد وعطاء وغيرهما.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ غاب الكوكب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ هذا لا يصلح أن يكون إلٰها؛ لأن الإله لا يغيب، لا أحب عبادة الإله الذي يتغير ويتنقل من حال إلى حال، ومن مكان إلى مكان؛ لأن الإله الحقَّ دائمٌ؛ لتدبير أَمْرِ عباده، لا يغيب ولا يبتعد، وفي هذا تهيئةٌ لنفوس القوم، وتوطئةٌ لمعرفة الإله الحقِّ.

الاِسْتِدْرَاج الثَّانِي

٧٧- ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾

وفي ليلة أخرى -وهو يخوض التَّجْرِبة مرة ثانية مع القوم- رأى القمر أكثر ضوءًا من الزهرة أو المشترى؛ فقال لهم مستدرجًا: هذا الذي تعبدونه هو ربي، وبعد فترة قليلة أفل؛ أي: غاب ﴿قَالَ﴾ إبراهيم في صورة المنْتصر إلى هداية ربه: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي﴾ إلى الصواب في توحيده، ويُثَبِّتْني على الهدى؛ ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن سواء السبيل بعبادة غير الله تعالى، فهو يندد بهم، وهم على ضلال، ويطلب الهداية من ربِّه، ويريد أن يتوصل إليه عن طريق الحجة، والإقناع، والنظر، والاستدلال.

الاِسْتِدْرَاج الثَّالِث

٧٨- ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾

هذه هي المرة الثالثة، رأى فيها إبراهيم الشمس وهي أكبر من القمر وأعظم، وقد امتد شعاعها، بحيث لا يستطيع الإنسان أن ينظر إليها نظرةً واضحةً، ويحدِّق بها البصر، فلما رأى الشمس طالعةً، ونورها أكبر، قال إبراهيم: هذا ربي، وهذا قول مَن يُنْصِف خَصْمَه وهو يعلم أنّه مبطل، فيحكي قوله غير متعصب لمذهبه، قال: هذا أكبر من الكوكب والقمر، ولكن لم تلبث الشمس أن غابت، فلما غابت قال: يا قوم، إني بريء مما تشركون من عبادة الأجرام المتغيرة، والنجوم التي تعبدونها من دون الله.

وهذا هو النفي الذي يتضمنه شرط كلمة التوحيد، (لا إله) أي: لا يوجد إلهٌ يُعبد بحقٍّ، وهذه براءة ممَّا تُشركون، ثم يأتي الإثبات وهو شرط كلمة التوحيد الثاني (إلا الله)، هذا الاثبات يأتي في قول إبراهيم كما حَكَى عنه ربُّه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ

مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف].

هذا، وقد سلك إبراهيم في الحالات الثلاث، أحكمَ الطرق في الاستدلال على وحدانية الله تعالى، فترقَّى بهم من الأدنى إلى الأعلى، مع التعريض بضلالهم؛ ليأخذ بأيديهم إلى النتيجة المطلوبة عن طريق الإقناع.

فقد عرَّض بضلالهم في الجولة الثانية، وكان ذلك أقوى وأصرح من قوله في الجولة الأولى: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ ثم صرح بالبراءة من شركهم في الجولة الثالثة.

واحتجَّ إبراهيم بالأفول دون البزوغ؛ لأن الأفول متعددُ الدلالة، فهو انتقال مع الاحتجاب، ومَن أَفَلَ يزول سلطانُه وقت الأفول، أما البزوغ فليس كذلك[١].

قال أبو حيان: لمَّا أَوْضَح لهم أن هذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون ربًّا ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ، فرأى القمر أول طلوعه، ثم لمَّا غاب ارتقب الشمس؛ إذ كانت أنور من القمر وأضوأ وأكبر جرمًا، وأعم نفعًا، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم[٢].

وقد كان إبراهيم مناظرًا لقومه، مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة، وأشدهن إضاءة الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فلما انتفتِ الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[٣].

وهذه الآيات تقتضي أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الكواكب، وأنهم كانوا على دين الصابئة، وقد كان هذا الدين شائعًا لدى الكلدانيين حيث نشأ إبراهيم ﷺ، وكانوا يعبدون صور الكواكب، أو تماثيل لها على حسب تخيلاتهم وأساطيرهم، كما كان عليه قدماء اليونان[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير الألوسي» (٢/ ٤١).
(٢) «البحر المحيط» (٤/ ١٦٧).
(٣) ينظر «تفسير ابن كثير» للآية.
(٤) «تفسير التحرير والتنوير» (٨/ ٣٠٠).

نَتِيجَةُ الْحِوَارِ

قال إبراهيم في النهاية:

٧٩- ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾

وبعد أن أثبت إبراهيم بالدليل القطعي أن هذه النجوم ليست آلهة، ولا تصلح لذلك، وجد أن الفرصة قد سنحت للتبرؤ من شركهم، وإظهار التوحيد، فختم أسلوب الترقِّي في الاستدلال على وحدانية الله تعالى بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أي: إني صرَفتُ عبادتي، وقصرتُ توحيدي، وتوجهتُ بوجهي للذي أبدع وخلق هذا الكون بما فيه ومَن فيه، مائلًا عن الشرك الذي تشركونه من دون الله، فأقبلت على ربي وأُعرضت عمّن سواه، فتبرأ من الشرك وأذعن للتوحيد ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل.

ومن السنة أن نستفتح الصلاة بهذه الآية بعد تكبيرة الإحرام؛ فقد صح عن عليٍّ ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا استفتح الصلاة كبَّر، ثم قال: «﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾» الحديث[1].

والحنيفي: هو المائل عن طريق الضلال إلى طريق الاستقامة.

وقد وصف الله سبحانه إبراهيمَ ﷺ بهذا الوصف كثيرًا في القرآن الكريم؛ منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)﴾ [الأنعام].

وفي الحديث القدسي عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «**وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فَاجْتَالَتْهُم عن**

---

(١) «المسند» (٧٢٩، ٨٠٣، ٨٠٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح، وهو حديث طويل، وأخرجه مسلم (٧٧١) وأبو داود (٧٦٠) والترمذي (٣٤٢١، ٣٤٢٣) والنسائي (٨٩٦) وابن ماجه مختصرًا (١٠٥٤) وابن خزيمة (٤٦٣) وعبدالرزاق (٢٥٦٧) وغيرهم.

دينهم...»[١].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل مولود يولد على الفطرة**» الحديث[٢].

وقال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وإبراهيم ﷺ هو أَوْلَى الناس بالفطرة السليمة بعد رسول الله ﷺ.

ولذا: فقد كان مناظرًا لقومه؛ ليبين لهم بطلان ما هم عليه من ضلال في عبادتهم لغير الله تعالى.

مُحَاجَّةُ مَنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ الْهُدَىٰ

٨٠- ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى[٣] فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ[٤] وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

ولمَّا أبطل إبراهيم عبادة آلهتهم وأظهر التوحيد؛ خاصمه قومه وجادلوه، فقال: أتجادلونني في توحيد الله بالعبادة، وقد وفقني إلى معرفة الحقِّ، قالوا: إننا نعبد هذه الآلهة منذ آبائنا الأقدمين، ورثناها كابرًا عن كابر، وأبًا عن جَدٍّ، فنحن نعبدها؛ لتقربنا إلى الله، وتشفع لنا عنده، ونحن نخاف عليك أن تمسك هذه الآلهة بسوء، قال إبراهيم: أتراجعونني في الحجة على توحيد الله، وقد دللتكم عن طريق الحوار والمناظرة حتى وصلتُ بكم إلى هذه النتيجة، وأنا لا أخاف ما تشركون به، فإنها لن تضرني ولن تمنع عني من النفع شيئًا.

---

(١) «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار (٤/٢١٩٧) برقم (٢٨٦٥) و«المسند» (٤/١٦٢) من حديث طويل برقم (١٧٤٨٤) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٠٧٠) والطيالسي (١٠٧٩) والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٣٨٥، ٦٥٩٩، ٦٦٠٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٨) بلفظ (ما من مولود إلا) وانظر (٢٦٥٩).

(٣) قرأ نافع وابن ذكوان وهشام بخلف عنه وأبو جعفر (أَتُحَاجُوني) بتخفيف النون، والباقون بتشديد النون على الأصل، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٤) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا في (وقد هدان)، ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

ثم استثنى إبراهيم ما يشاء الله به من ضر فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ﴾ فيصيبني بمكروه، وقد أحاط علمُه بجميع الأشياء، وهو أعلم بإلحاق النفع أو الضر بمَن يشاء من عباده، والمعنى: أتُعرضون - أيها الغافلون - عن التأمل والتدبر بعد أن أوضحتُ لكم - بما لا يقبل الشك- أن الله وحده هو المستحق للعبادة دون سواه، وأن معبوداتكم باطلة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، ويمضي إبراهيم عليه السلام في محاجة قومه فيقول:

٨١- ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ(١) بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

فإن كنتم تخوفونني بآلهتكم فأنا لا أرهبها، وإنها لن تضرني إلا أن يشاء ربي، وقد كان قومُه يخوفونه من بطش آلهتهم به، كما قال قوم هود له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ﴾ [هود: ٥٤]

قيل: قالوا لإبراهيم: خَفْ أن تصيبك آلهتنا ببَرَصٍ أو داءٍ؛ لإيذائك لها، فقال: لا قدرةَ لها على ذلك، وعدم خوفي من آلهتكم أقل عجبًا من عدم خوفكم من الله تعالى.

وكيف أخاف من هذه الآلهة التي تزعمون أنها تضرني وهي لا تملك شيئًا؟ كيف أخاف أوثانكم، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا؟ وليس لكم حجة على عبادتها إلا مجرد إتباع الهوى ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ [النجم: ٢٣] فأيٌّ من فريق الشرك أو فريق التوحيد أحقُّ بالأمن من عذاب الله، إن كنتم تعلموا ما أقول فأخبروني؟

الْأَمْن قَرِين الْإِيمَانِ

٨٢- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه مَن هو الفريق الأحق بالأمن، من المخاوف والعذاب والشقاء والبلاء، فبين تعالى أنهم المؤمنون غير الظالمين لأنفسهم، فإذا لم يظلموا أنفسهم بظلم مطلقا، لا

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يُنْزِلْ) بإسكان النون وتخفيف الزاي مضارع (أنزل)، والباقون بفتح النون وتخفيف الزاي مضارع (نزَّل).

بشرك ولا بمعاصي حصل لهم الأمن التام والهداية التامة، وإذا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، ولم يحصل لهم كمالهما، ومفهوم الآية أن من لم يحصل له الأمران، لم يحصل له أمن ولا هداية.

والظلم هنا معناه الشرك، ولمَّا نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة، وقالوا: وأينا لم يَظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس كما تظنون، إنما ذلك كما قال لقمان لابنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**»[1].

أيْ: إذا كان الأمن من عذاب الله يتحقق فقط، لمَن لا يظلم نفسه، فكيف يكون حالنا وكلٌّ منَّا قد ظلم نفسه؟ فبين النبي عليه الصلاة والسلام أن المراد بالظلم هو الشرك الذي قاله لقمان لابنه ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

أي: إن الشرك بالله أعظم الظلم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. والأمن والهداية من أكبر نعم الله على خلقه.

عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نشر المصحف يقرؤه، فدخل ذات يوم، فقرأ سورة الأنعام، فأتى على هذه الآية فعظمت عليه، فلبس رداءه وذهب إلى أُبي بن كعب وقال: يا أبا المنذر، وسأله عنها، فقال له: إنه الشرك يا أمير المؤمنين، فسري عن عمر[2].

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن زمر، عن بكر بن سوادة قال: حمل رجل من العدو على المسلمين، فقتل رجلًا، ثم حمل فقتل آخر، ثم حمل فقتل آخر، ثم قال: أينفعني الإسلام بعد هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فضرب فرسه، فدخل فيهم، ثم حمل على أصحابه، فقتل رجلًا، ثم آخر، ثم قُتِل، قال: فيرون أن هذه الآية نزلتْ فيه[3].

وممَّا يدل على أن المراد بالظلم في الآية هو الشرك أن سياق الآيات في نفي الشركاء والأنداد

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (٢٤٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧) والطيالسي (٢٧٠) والنسائي في الكبرى (١١١٦٥) و«المسند» (١/ ٣٧٨) برقم (٣٥٨٩، ٤٠٣١، ٤٢٤٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين ومسلم (١٢٤) والترمذي (٣٠٦٧) وابن حبان (٢٥٣) وأبو يعلى (٥١٥٩) وكلهم عن ابن مسعود.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣١٥) وقد أخرجه الحاكم (٣/ ٣٠٥) عن سعيد أن عمر.

(٣) «تفسير الطبري» (٧/ ١٦٧) و«أسباب النزول» للسيوطي ص١١٧ .

عن الله تعالى، وليس فيها ذكر للطاعات والعبادات؛ فوجب حَمْلُ الظلم على الشرك[١].

فالأمن والأمان والاستقرار في الدنيا والآخرة إنما هو للمؤمنين بالله حقًّا غير المشركين به، وحين يأتي الشرك بالله في الأمة يكون الدمار والخراب والهزائم والنكبات والنكسات.

والآية فيها فَصْلُ القضاء بين مَن يستحق الأمن، ومَن لا يستحقه، تعقيبًا على المشركين من قوم إبراهيم.

فدلت الآية على أن مَن صدَّق بالله ربًّا، وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، ولم يخلط إيمانه بالشرك؛ له الطمأنينة والسلامة في دنياه وأخراه، وهو الموَفِّق إلى طريق الحقِّ.

مَوْكِب الرِّسَالَاتِ

٨٣- ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ[٢] مَّن نَّشَآءُ ۗ[٣] إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

في هذه الآية ذُكِر اسم إبراهيم عليه السلام وحده، وفي الآيات الثلاث القصار التي بعدها ذُكر اسم سبعة عشر رسولًا من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومَن يحفظ هذه الآيات الثلاث يحفظ أسماء ثمانية عشر رسولًا من رسل الله، ويبقى سبعة تتمة الخمسة والعشرين رسولًا ونبيًّا الذين ذُكروا بأسمائهم في القرآن الكريم، بما فيهم آدم عليه السلام على أن آدم عليه السلام رسولٌ، أُرسل إلى أبنائه وعشيرته وقومه الذين كان فيهم.

ويزداد على هؤلاء الثمانية عشر (آدم ومحمد) أولهم وآخرهم، واثنان في العرب أُرسلوا من غير بني إسرائيل هما (هود وصالح) ثم (شعيب وذو الكفل وإدريس)، فهؤلاء خمسة وعشرون نبيًّا ورسولًا ذُكروا بأسمائهم في القرآن الكريم، ويجب الإيمان بهم تفصيلًا، ثم الإيمان إجمالًا بأن لله تعالى رسلًا وأنبياء كثيرين لا يعلمهم إلا الله.

---

(١) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (٤/ ٨٢).

(٢) نوَّن التاء من (درجات) عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، على أنه منصوب على الظرفية، و(من) مفعول؛ أي: نرفع من نشاء مراتب ومنازل، أو على أنه مفعول ثانٍ مقدم؛ أي: نعطي من نشاء درجات، وقرأ الباقون بغير تنوين على الإضافة، ودرجات مفعول به لنرفع.

(٣) سهل الهمزة الثانية من (نشاء إن) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر، وأبدلوها واوًا خالصة، والباقون بتحقيقها.

فِـي تِـلْـكَ حُـجَّـتُنَا ثَـمَـانِـيَـةٌ مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمْ
إِدْرِيسَ هُود شُعَيْب صَالِح وَكَذا ذُو الْكِفْلِ آدَمَ بِالْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا

وجاء ذكر السبعة عشر رسولًا في هذه السطرين ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

ومعنى هذه الآيات الأربع: وتلك الحجة التي حاجَّ بها إبراهيم قومَه، واستدل بها على بطلان عبادة الأوثان والكواكب هي حجتنا التي وفَّقناه لها حتى انقطعتْ حُجتهم، نرفع مراتب مَن نشاء من عبادنا في الدنيا بالنبوة والعلم والحكمة والعقل والفضيلة، وفي الآخرة بالثواب على العمل الصالح والدرجات العلا، إن ربك حكيم في جميع أفعاله، عليمٌ بأحوال خَلْقِه.

ومِن نعم الله على إبراهيم:

أولًا: أن الله تعالى آتاه الحجة في توحيد الله، وهداه ووفقه إليها.

ثانيًا: أن الله تعالى خصه بالرفعة والدرجات العلا، وجعله أمة وحده.

ثالثًا: أن الله تعالى جعله عزيزًا في الدنيا، صالحًا في الآخرة، يُثني عليه الأولون والآخرون، وجعل الأنبياء في نسله إلى يوم القيامة. قال تعالى:

٨٤- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

وقد منَّ الله على إبراهيم حيث هداه إلى إفحام خَصْمِه بالحجج القاطعة؛ لإبطال الشرك وإظهار التوحيد، ومنَّ الله عليه فرفع درجته في عليين، وأبقَى النبوة في ذريته إلى يوم الدين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧، والحديد: ٢٦] فقد رزقه الله إسحاق، ابنه من صلبه، ويعقوب حفيده، ابن إسحاق.

قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]

وقال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)﴾ [مريم]

والضمير في ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ يحتمل أن يعود إلى نوح لأنه أقرب مذكور، ولأن لوطًا ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه، وهذا أولى من حمل الضمير إلى إبراهيم، نظرًا لأن السياق في مدحه وثنائه، وقد وفقهم الله تعالى وهداهم إلى طريق الحقِّ والصواب، كما وفق نوحًا عليه السلام للحقِّ والصواب، ومنَّ عليه بالهداية والنبوة قبلهم.

وكذلك هدى الله من ذرية نوحٍ، داودَ وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، عليهم الصلاة والسلام، للحق والصواب ومنَّ عليهم بالنبوة والرسالة.

وكما جزى الله هؤلاء الأنبياء على توحيدهم ودعوتهم وصَبْرِهم على أقوالهم يجزي كلَّ محسنٍ، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨].

٨٥- ﴿وَزَكَرِيَّا[1] وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥)﴾

أي: وهدى الله كذلك كُلًّا من زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وكلُّ هؤلاء الأنبياء من الصالحين.

٨٦- ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ[2] وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)﴾

أي: وهدينا كذلك إسماعيل واليسع ويونس ولوطًا، وكلُّ هؤلاء الرسل فضلناهم على عالمي زمانهم، ودرجات الفضائل أربع، ذكرها الله تعالى في قوله ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٧٠]

وهؤلاء أهل الدرجة العليا، النبوة والرسالة.

وينسب (عيسى) إلى ذرية إبراهيم، أو نوح من ناحية أمه؛ لأن أولاد البنات يدخلون في ذرية الرجال.

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف (وزكريا) بحذف الهمزة، والباقون (وزكرياءَ) بإثبات الهمزة.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (واللَّيْسَعَ) بلام مشددة مفتوحة بعدها ياء ساكنة، على أن الأصل (لَيْسع) كضيغم، فدخلت عليه (أل) ثم أدغمت اللام في اللام، والباقون (والْيَسَعَ) بلام خفيفة ساكنة بعدها ياء مفتوحة.

وقد قال النبي ﷺ عن الحسن بن علي فيما يرويه أبوبكرة قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر، وحسنٌ معه، وهو يُقبل على الناس مرة وعليه مرة ويقول: «**إن ابني هذا سيِّدٌ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**»[١].

فسماه النبي ﷺ ابنًا، وفيه دليلُ دخول أبناء البنات في الذرية.

ولوط ابن أخي إبراهيم، وليس من ذريته، وقد يقال هذا من باب التغليب في حالة عود الضمير في ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ على إبراهيم، والصحيح أنه يعود إلى أقرب مذكور وهو نوح، ويكون لوط من ذريته، وهؤلاء الأنبياء الثمانية عشر ذُكروا من غير ترتيب أفضلية ولا زمان، والواو لا تقتضي الترتيب.

من لطائف ترتيب الرسل: وقد التمس بعض المفسرين لطائف لهذا الترتيب[٢] فقالوا ما معناه:

(أ) ذُكر أوْلَادُ نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ لأنهم أصول الأنبياء، وإليهم ترجع أنسابهم جميعًا.

(ب) ثم ذُكر داود وسليمان بعدهم؛ لِمَا منَّ الله عليهما به من المُلك بعد النبوة.

(ج) وجاء ذُكر أيوب بعدهم؛ لصبره على البلاء والمحن والشدائد.

(د) وذُكر (يوسف) بعدهم؛ لأن الله جمع له بين الأمرين جميعًا: المُلك والصبر على البلاء.

(هـ) ثم جاء ذِكْرُ موسى وهارون؛ لكثرة المعجزات والبراهين التي خصهما الله بها.

(و) ثم جاء ذِكْرُ زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، ووصفهم الله بالصالحين؛ لِمَا اشتهروا به من الزهد في الدنيا والإعراض عنها.

(ز) ثم ذُكر بعدهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط، وهم ممَّن لم يبقَ لهم أتباع ولا شريعة.

وهذا تعريف يسير بهؤلاء الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

---

(١) «صحيح البخاري» عن أبي بكرة (٥/٣٠٦) برقم (٢٧٠٤) و(٣٧٤٦) و(٧١٠٩) وأبو داود (٥/٤٨) برقم (٤٦٦٢) والترمذي (٥/ ٦٨٥) برقم (٣٧٧٣) والمسند (٢٠٤٧٣) و(٢٠٣٩٢) وهذا لفظه، و(٢٠٤٤٨) حديث صحيح، وإسناده صحيح على شرط البخاري.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» والخازن و«حاشية الجمل على الجلالين» وغيرها.

ترجمة يسيرة للرسل الكرام:

١- نوح بن لامك، جده إدريس، أول الرسل.

٢- إبراهيم بن آزر، أبو الأنبياء، وُلِد في سواد العراق، زمن النمروذ .

٣- إسحاق بن إبراهيم، من زوجته سارَّة، أصغر من أخيه إسماعيل بثلاثة عشر عامًا.

٤- يعقوب بن إسحاق، حفيد إبراهيم، وُلِد في حياته، وتزوج في حياته، يُكْنَى إسرائيل؛ أي: عبد الله.

٥- داود بن يسّي ابن سبط يهوذا، ولد في بيت لحم سنة ١٠٨٥ ق.م تقريبًا، آتاه الله النبوة والملك، وأنزل عليه الزبور، وهو الذي قتل جالوت، ومات في أورشليم سنة ١٠١٥ ق.م.

٦- سليمان بن داود، كان مَلِكًا نبيًّا كأبيه، ولد في أورشليم سنة ١٠٤٣ ق.م تقريبًا، وتوفي سنة ٩٧٥ ق.م.

٧- أيوب بن أموص بن عيصو، من ذرية إسحاق، كان يسكن أرض حَوران بالشام، قال الطبراني: كان عمره ٩٣ سنة.

٨- يوسف بن يعقوب، حفيد إبراهيم، ولد قبل عيسى بألفي عام تقريبًا.

٩- موسى بن عمران بن يصهر بن لاوي، من ذرية يعقوب، ولد في القرن الرابع عشر ق.م.

١٠- هارون أخو موسى، شقيقه، أو لِأُمِّه، أكبر من موسى بسنة، ومات قبيل موسى بزمن يسير.

١١- زكريا بن أزن بن بركنا، يصل نسبه إلى سليمان، كفل مريم بنت عمران، أم عيسى، وكان زوجَ خالتها، وهو قريبُ العهد به.

١٢- يحيى بن زكريا، وابن خالة عيسى.

١٣- عيسى ابن مريم بنت عمران، من ذرية إبراهيم ونوح، وجاء نسبه في الآية إلى أخواله.

١٤- إلياس بن نَسَّىٰ بن فنحاص، جده هارون أخي موسى من سبط لاوي، ويعرف عند الإسرائيليين باسم إيليا، كان يسكن في جِلعاد بشرق الأردن ومنه بعلبك، وكان قومه

يعبدون صنم بعل، ويقال له: إلياس التشبي، قيل: إنه كان في زمن أخاب ملك بني إسرائيل عام ٩١٨ ق.م.

١٥- إسماعيل، الابن الأكبر لإبراهيم، أمه هاجر، ومن ذريته محمدٌ ﷺ.

١٦- اليسع بن أخطوب بن العجوز، واسمه بالعبرية (اليشع)، دفن بالسامرة عام ٨٤٠ ق.م تقريبًا.

١٧- يونس بن متَّى، واسمه بالعبرية يونان بن أمتاي، وُلِد في فلسطين، وأُرْسِل إلى أهل نينوى من بلاد أشور في العراق، في القرن الثامن ق.م، وخرج من قومه مغاضبًا إلى يافا، فركب سفينة الفينيقيين متوجهًا إلى غربي صور على البحر الأحمر.

١٨- لوط بن هاران أخي إبراهيم، ولد في أُور الْكَلْدانيين بالعراق، وهاجر مع عمه إبراهيم إلى فلسطين، وافترق عنه بسبب خلاف بين الرعاة، أُرْسِل إلى أهل سدوم شرق الأردن.

أما بقية الأنبياء الذين ذُكروا في القرآن فهم:

١٩- إدريس وهو أخنوخ بن متوشلح، جد نوح عليه السلام، ذُكر مرتين في القرآن، نزل عليه ثلاثون صحيفة، أول مَن خط بالقلم، وحاك الثياب، وعرف الطب.

٢٠- ذو الكفل أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو ابن أيوب عليه السلام، وقد بُعِثَ بعده، واسمه في الأصل بِشْر، وقد تكفل بالطاعات فوفَّى، وتكفَّل بالعدل بين الناس فوفى.

٢١- هود بن عبد الله بن رباح بن سام بن نوح، أُرسل إلى قوم عاد بالأحقاف، من العرب البائدة عام ٢٠٠٠ ق.م تقريبًا.

٢٢- صالح بن عبيد بن آسف بن ثمود، أُرسل إلى قوم ثمود في الحِجْر بين الحجاز والشام، كان في القرن الخامس قبل الميلاد.

٢٣- شعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم عليه السلام، خطيب الأنبياء، أُرسل إلى أهل مدين الممتدة من خليج العقبة إلى سيناء، قيل: وهم أصحاب الأيكة، وكان في أرض معان قريبًا من بحيرة لوط.

٢٤- آدم أبو البشر عليه السلام، كان نبيًّا، واختُلف في رسالته.

٢٥- محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، خاتم الأنبياء، أُرسل إلى الثقلين: الجن والإنس إلى قيام الساعة. قال تعالى:

٨٧- ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ[1] مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ أي: وكذلك وفَّقنا للحقِّ مَن شئنا هدايته من آباء هؤلاء الرسل. و(من) للتبعيض؛ لأن بعضهم كان كافرًا ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ وذرية بعضهم كان كافرًا كابن نوح ﴿وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ وفقناهم وهديناهم ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ أي: اخترناهم واصطفيناهم؛ لتبليغ رسالتنا ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أرشدناهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق لا عِوَجَ فيه؛ وهو توحيد الله، وتنزيهه عن الشرك. قال تعالى:

الشِّرْك وَالْكفْر يهَدِّدَانِ مَقَامَ الرِّسَالَةِ:

٨٨- ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

ذلك الهدى إلى صراط مستقيم هو توفيق الله، يُوفِّقُ الله مَن يشاء من عباده، ومنهم الصفوة المختارة من البشر، ولو أشرك أحدٌ من أنبياء الله ورسله -على سبيل الفرض، وعلى علو شأنهم ومنزلتهم- كان نصيبه الإحباط وبطلان عمله؛ لأن الله تعالى لا يقبل مع الشرك عملًا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]

وقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فكيف بغيرهم؟ والشرك محبط للعمل موجب للخلود في النار. قال تعالى:

٨٩- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ[2] فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾

هؤلاء الرسل الذين سميناهم، هم الذين أُنزل عليهم الكتاب والحكم والنبوة، والنبوة هي الأشرف، ولكنها أُخرت لكون الكتاب والحكم يدلان عليها، والحكم يعني الملك، ويعني الحكمة والفَهْم والعلم بطرق الخير، والكتب كصحف إبراهيم، وتوراة موسى،

(١) قرأ قنبل ورويس بالسين في (صراط)، وأشم الصاد صوت الزاي خلف عن حمزة، والباقون بالصاد الخالصة.
(٢) قرأ نافع (والنبوءة)، والباقون (والنبوة).

وإنجيل عيسى، وزبور داود، وآتيناهم فَهْمَ هذه الكتب.

وقد نصَّ القرآن على أن إبراهيم كانت له صحف، فقال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى] أما إنجيل عيسى، فهو كلامُه الذي دوَّنه الحواريون بعده، وكان لسليمان الأمثال والأناشيد، وكان لإدريس صحف، وكان لشيث بن آدم، صحف، وكان ليحيى كتاب، قال الله تعالى عنه: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]

وإيتاء الرسل هذه الثلاث: ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ على التوزيع، فمنهم مَن أُوتِيَ جميعها، وهم الرسل، وكذا الأنبياء الذين آتاهم الله المُلك كداود وسليمان، ومنهم مَن أوتي بعضها، وهم الأنبياء غير الرسل.

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بهذه الثلاث (الكتاب والحكم والنبوة) ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: المعاصرون للتنزيل ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أي: فإن يجحد بآيات القرآن كفار قومك؛ فقد وكلنا بها قومًا هم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار من أمة محمدٍ ﷺ، الذين حملوا مِشْعَلَ الإيمان وموكب الهدى والنور، ويدخل معهم كلُّ مَن سار على نهجهم في كلِّ زمان ومكان، ممَّن ليسوا بها بكافرين في وقت من الأوقات، وإنما هم مستمرون على الإيمان بك، والتصديق برسالتك، وفي هذا إشارةٌ إلى أن الله تعالى سينصر دينه، ويُعْلِي كلمته.

الأَمْر بِاقْتِفَاءِ أَثَرِ الأَنْبِيَاءِ

٩٠- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ[1] قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾

وبعد أن قصَّ الله تعالى على نبيه ثمانية عشر نبيًّا، أمره أن يقتدي بهم؛ وأن يسير خلفهم، ويتبع ملتهم، أي: أن هؤلاء الأنبياء هم الذين وفقهم الله تعالى لدينه الحقِّ، فاتَّبع - أيها الرسول - هُداهم، واسلُك سبيلَهم في أصول العقيدة والأخلاق والصبر على الأذى وما إلى ذلك.

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بحذف هاء (اقتده) وصلًا، وأثبتها مكسورة مع القصر ابن عامر بخلف وابن ذكوان، وأثبتها ساكنة وصلًا ووقفًا بقيةُ القراء، ولم يختلفوا في إثباتها وقفًا على الأصل.

وقد اهتدى ﷺ بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين.

وقل -أيها الرسول- للمشركين: لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجرًا ولا عوضا، فما الإسلام إلا دعوة وتذكير، وهنا **مسألتان:**

المسألة الأولى: أن في أمْرِ الله تعالى لنبيه محمدٍ ﷺ، أن يقتدي بمَن سبقه من الرسل -دليلٌ على أن الله تعالى قد جَمَعَ له هُدَى الأولين، وأكمل له الفضائل، كما جمع له كلَّ فضيلة اختص بها كل واحد منهم، ويشمل ذلك الاقتداء بهم في أصول الشرائع، وتزكية النفس، وحسن الخُلُق.

أما الفروع والأحكام الجزئية في الشرائع الإلهية السابقة ممَّا لم يرد فيها نسخٌ، فإن للفقهاء فيها **أربعة أقوال:**

١- فقد قال المالكية والحنفية وبعض الشافعية: إن شَرْعَ مَن قبلنا شرعٌ لنا، واحتجوا بحكم القصاص في السن بالسن، فإنه من شريعة التوراة، وبأن مَن نسي الصلاة فليصلِّها إذا ذَكَرَها أخذًا من خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

قلت: ووجود هذين الدليلين في القرآن - وهما: حكم القصاص، ومن نسى الصلاة - كافٍ في كونهما شرعًا لنا؛ لأن القرآن متضمِّنٌ لهما، وليس لوجودهما في التوراة.

٢- وقال أكثر الشافعية والظاهرية: إن شرع من قبلنا ليس شرعًا لنا، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

٣- قيل: إنما يلزم الاقتداء بشرع إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [النحل: ١٢٣].

٤- وقيل: لا يلزم إلا اتباع شريعة عيسى؛ لأنها آخر الشرائع قبل الرسالة الخاتمة، وقد نَسَخَتْ ما قبلها[1].

المسألة الثانية: أنه ما مِن نبي إلا واجه قومَه بأنه لا يَطْلُبُ منفعةً لنفسه على تبليغ

(١) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٨/٣٥٨).

الرسالة، ولا يسألهم على تبليغ الدعوة أجرًا، وأن الناصح إذا كان له مطمع من وراء نصيحته؛ فإن هذه النصيحة لا تنفع ولا تجدي، وهكذا قال نوح لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٢٩]

وقال هود لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾ [هود: ٥١]

وقال شعيب لقومه: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود: ٨٨].

وأَمَرَ الله سبحانه محمدًا ﷺ أن يقول لقومه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣] أي: إلا أن توادوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم، فلا تتعرضوا لي بأذًى، وما هذا القرآن إلا ذكرى للعالمين، يتذكرون به ما ينفعهم، فيعملوا به، وما يضرهم فيتركونه، ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وصفاته، ويتذكرون به الطرق الموصلة إلى الجنة، والمبعدة لهم عن النار.

إِنْكَار الرِّسَالَاتِ وَعَوَاقِبِهَا الْوَخِيمَة

٩١- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ[1] تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾

وبعد ذِكْرِ موكب الرسالات التي جاءت؛ لإقامة التوحيد وإبطال الشرك، تعود الآيات إلى الحديث عن المشركين الذين ينكرون الرسالات والنبوات، فيقولون: إن الله تعالى لم يُرسل رسولًا من البشر، ولم يُنزِّل كتابًا على أحدٍ من خَلْقه، مع أن اليهود كانوا يخالطون المشركين في الجزيرة، ولم ينكر المشركون على اليهود أنهم أهلُ كتاب أنزله الله على موسى عليه السلام.

فكفار قريش كانوا مختلطين باليهود، وقد سمعوا منهم أن موسى جاءهم بالتوراة، وبالمعجزات الباهرات، فلم ينكروا ذلك، وإنما أنكر كفار قريش نبوَّة محمدٍ ﷺ؛ وعلى هذا فإن كفار قريش واليهود كانوا ينكرون نبوَّة محمد ﷺ.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيب في الأفعال الثلاثة (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرًا) على أنها مسندة للكفار، وقرأ الباقون بتاء الخطاب؛ أي: قيل لهم ذلك.

ولذا: فإن الله تعالى يُشنِّع على كل من نفى الرسالة، وزعم أن الله تعالى ما أنزل على بشر من شيء، ففي هذا قدح في حكمته تعالى، وادّعاء أن الله تعالى قد أهمل عباده، فلم يأمرهم ولم ينْهَهُم، وفيه نفى لأعظم منة امتنّ الله بها عباده وهي نعمة الرسالة.

والآية التي نحن بصددها تخاطب كلَّ مَن أنكر رسالةَ النبي ﷺ،قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما عظموه حقَّ تعظيمه، وما عرفوه حقَّ معرفته؛ إذ أنكروا أن يكون الله تعالى قد أنزل على أحد من البشر شيئًا من وَحْيِهِ، ولو أنهم عرفوا فضل الله تعالى على خلْقِهِ، ورحمته بهم في إرسال الرسل، وإنزال الكتب لهداية الخَلْق والبعد بهم عن النار؛ ما أنكروا رسالات الله تعالى وكتبه، وعلى رأسهم رسالة خاتَم النبيِّين ﷺ، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس].

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمَن لم يؤمن برسالتك: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾ يستضاء به، وهداية لبني إسرائيل؟ ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ مَن الذي أنزل التوراة التي جاء بها موسى إلى قومه نورًا للناس وهداية لهم؟

والجميل في هذا الردِّ أن من أنزل الله عليه القرآن لا يأتي ذكره هنا، وإنما يستشهد بكتاب موسى وما أودع الله فيه من نور وهداية؛ ذلكم لأن الإسلام يُؤمن بجميع الرسل وجميع الكتب.

وبعد أن وبَّخت الآية المشركين على إنكارهم نبوَّة محمدٍ ﷺ وكتابه، وبيَّنت أنهم يعرفون رسالة موسى ﷺ من خلال اليهود الموجودين بينهم، توجهت الآية إلى اليهود - المجاورين للمشركين بالمدينة والمخالطين لهم في التجارة وغيرها- لتنكر عليهم تحريفَهم للتوراة، فقالت: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ أي: كتاب التوراة المُنزَّل على موسى ﴿قَرَاطِيسَ﴾ أي: أوراق وصحائف؛ بمعنى أنهم يكتبون التوراة في أوراق مفرقة مقطعة يتلاعبون بها، فيظهرون بعضها، ويكتمون كثيرًا منها.

وممَّا كتموه الإخبار عن صِفَةِ محمدٍ ﷺ، وآية الرجم، وغير ذلك، ثم خاطبتِ الآيةُ غير المسلمين، وهم أمة الدعوة المكلَّفة بالدخول في الإسلام من البعثة النبوية إلى قيام الساعة، بأن الله تعالى قد علَّمهم في القرآن الذي أنزله على رسوله محمدٍ ﷺ ما لم يسبق للأمم أن عَلِمتْه، فقال تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فقد حوى القرآن خَبَرَ مَن قبلكم ومَن بعدكم، وما يكون بعد موتكم، وهو ما لم تعلموه أنتم ولا آباؤكم، وكان الأجدر بكم أن تشكروا فَضْلَ الله عليكم، ولا تنكروا الوحي والرسالة.

وفي آخر الآية يأتي الجواب على التساؤل الذي في أولها؛ وهو ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فيلقن الله تعالى رسوله الجواب بأن يقول لهم: الله الذي أنزل التوراة على موسى، هو الذي أنزل القرآن على محمدٍ، وهذا معنى ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو الذي أنزل التوراة والإنجيل، ثم اتركهم في حديثهم الباطل يخوضون ويلعبون، وهذا معنى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم، بعد إقامة الحجة عليهم، وإعذارهم وإنذارهم، حيث لم يبقَ عليك - أيها الرسول الكريم - شيءٌ من أمرهم.

هذا، ونظرًا لأن مشركي مكة كانوا يخالطون بعض اليهود فيها، وكلًّا منهما كان ينكر رسالة النبي ﷺ فإن الآية خاطبت الجميع.

ولعل ذِكْرَ اليهود في هذه الآية هو الذي جعل بعض المفسرين يقول: إن هذه الآية مدنية، لا سيما وأن بعض أسباب النزول لها يَنُصُّ على اليهود.

وكما أسلفتُ فإن هذا لا يعني أن الآية مدنية؛ لوجود العَلاقة والجوار بين أهل مكة واليهود، والعلم عند الله.

ومن أسباب النزول التي وردت في الآية:

١- أنها نزلت في مشركي قريش، قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[1].

وكان المشركون يستبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا

---

(١) رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد، ورجحه ابن كثير، وقال: هو الأصح؛ لأن الآية مكية، انظر ابن أبي حاتم (٧٥٩٢).

أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢]

وقال: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص].

واليهود لم ينكروا إنزال الكتب من السماء في الجملة، ولكنهم أنكروا رسالة محمدٍ ﷺ؛ وبالتالي أنكروا القرآن الذي نزل عليه عنادًا ولَجَاجًا.

٢- قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وابن عباس: جاء رجل من اليهود -يقال له: مالك بن الصيف- يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: **«أنشُدك الله الذي أنزل التوراة على موسى، أمَا تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟»** وكان مالك حبرًا سمينًا؛ فغضب، وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال أصحابه الذين معه: ويحك، ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء؛ فأنزل الله الآية[(١)].

قال البغوي: إن مالك بن الصيف لمَّا سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه، وقالوا: أليس الله أنزل التوراة على موسى؟ فلمَ قلت: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾؟ فقال مالك بن الصيف: أغضبني محمدٌ فقلت ذلك، فقالوا له: وأنت إذا غضبتَ تقول على الله غير الحقِّ؟ فنزعوه عن أن يكون حبرًا لهم، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف[(٢)].

وقال السدي: إن فنحاص اليهودي هو الذي قال هذه المقالة[(٣)].

قلت: ولا مانع من أن يكون كلٌّ منهما قال المقالةَ نفسَها.

٣- قال ابن عباس في رواية الوالبي: قالت اليهود: يا محمد ﷺ، أنزل الله عليك كتابًا؟ قال: **«نعم»** قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابًا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى﴾[(٤)].

٤- قال محمد بن كعب القرظي: أَمَرَ الله محمدًا أن يسأل أهل الكتاب عن أمره،

(١) ابن جرير (١٣٩٣١٩) وابن أبي حاتم (٧٥٩٧).

(٢) ينظر عند تفسير الآية: تفسير البغوي و«زاد المسير»، و«تفسير الخازن» وغيرهم.

(٣) ابن أبي حاتم (٧٥٩٤).

(٤) الطبري (٩/ ٣٩٦) وابن أبي حاتم (٧٥٨٦، ٧٥٩٦) و«تفسير القرطبي» (٧/ ٣٦١).

وكيف يجدونه في كتبهم، فحملهم حَسَدُ محمدٍ ﷺ أن كفروا بكتاب الله ورسوله وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فأنزل الله الآية[١].

ويُفْهَمُ من جملة أسباب النزول هذه أنه لمَّا قامتِ الحجة على المشركين في أن هذا القرآن ليس بدعًا ممَّا نزل على الرسل، توغَّل المشركون في المكابرة والجحود فقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ متجاهلين بذلك ما كانوا يقولونه عن إبراهيم، وما يعلمونه عن موسى، وبعد أن ذَكَرَ الله تعالى عددًا من الأنبياء والرسل، وما جاؤوا به من شرائع الهدى والنور، جاءت هذه الآية كالنتيجة لِمَا قبلها؛ لإبطال ما قالوه إفكًا وزُورًا على رسل الله، فأنكروا ما هو معلوم بالتواتر في أجيال البشر.

وقد حَكَى الله تعالى عنهم مِثْلَ ذلك في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١] وجاءت هذه الآية؛ لإبطال حجج المشركين؛ تعزيزًا لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ ولذلك فقد أَمَرَ الله نبيه أن يذكِّر المشركين بأمر لا يستطيعون إنكاره؛ لأنه متواتر في بلاد العرب، وهو رسالة موسى عليه السلام، حيث قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ فقد جاء موسى بالتوراة، وهي متداولة بين اليهود الذين كانوا يترددون على مكة في التجارة وغيرها.

وقد جاء خطاب اليهود في الآية على طريقة الإدماج؛ أي: الخروج من خطاب إلى غيره؛ تعريضًا بهم، وإسماعًا لهم، على طريقة: إياك أعني، واسمعي يا جارة.

وقراءة الياء في الأفعال الثلاثة ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ وما بعدها، يشير إلى أن الخطاب في الآية للمشركين الذين سألوا اليهود عن نبوة محمدٍ ﷺ في التوراة، فقرؤوها لهم، وأظهروا ما فيها من التمسك بتعظيم يوم السبت، وأخفوا ما فيها من صفة محمدٍ ﷺ، ويُرجِّح هذا المعنى أن سورة الأنعام نزلت في آخر مدة إقامة النبي ﷺ بمكة، حيث بدأت مداخلة اليهود للمشركين في مقاومة الدعوة بمكة حين بلغت المدينة[٢]. قال تعالى:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٥٦) و«الدر المنثور» (٦/ ١٢٧) عن أبي الشيخ.

(٢) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٧/ ٣٦١).

٩٢- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ[1] أُمَّ ٱلْقُرَىٰ[2] وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وبعد أن أقام الله سبحانه الحُجَّةَ على المشركين المنكرين للوحي والرسالة برسالة موسى عليه السلام، والتوراة التي نزلت عليه، ثَنَّى بالقرآن، فأَمَرَ رسولَه ﷺ أن يقول لهم على وجه التبكيت: الله الذي أنزل التوراة على موسى هو الذي أنزل القرآن على محمدٍ ﷺ.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ وهو القرآن ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير النفع والخير والبركة؛ لاشتماله على منافع الدنيا والدين، يبشر المؤمنين، وينذر الكافرين ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو كتاب يصدِّقُ جميعَ الكتب التي نزلتْ قبله على رسل الله، ويشهد لها، ويوافق ما فيها من التوحيد، والتنزيه لله تعالى، والبشارة والنذارة، ويصدِّق ما في هذه الكتب من الوعد بمجيء محمدٍ ﷺ، وما فيها من أصول الدين وشرائعه ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وهي مكة، وما حولها من ديار العرب، ومن ثم إلى سائر البلدان.

وقد سميت أم القرى:

١- لأن الأرض دحيت من تحتها، كما قال ابن عباس.

٢- أو لأن الناس يؤمونها من جميع أرجاء الأرض في الصلاة، فهم يتجهون إليها وهي قبلتهم.

٣- أو لأنها ذات الشأن الأعظم على البلاد جميعًا.

٤- أو لأنها أول بيت وضع مَعْبَدًا للناس في الأرض.

والقرية في القرآن تعني العاصمة والمدينة الكبرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: ولتنذر أم القرى، والعالم كلَّه مِن حولها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

---

(١) قرأ شعبة بياء الغيبة في (ولتنذر) والضمير للقرآن، وقرأ الباقون بتاء الخطاب، والمخاطَب هو النبي ﷺ.

(٢) أمال الألف التي بعد الراء في لفظ (القرى) أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف العاشر وابن ذكوان بخلف عنه، وقلَّلها بين الفتح والإمالة الأزرق عن وَرْش قولًا واحدًا، وفتحها الآخرون.

وقال جل شأنه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان].

وقال ﷻ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فليس المراد بمَن حولها بلاد العرب فحسب، بل المراد العالم أجمع، بمقتضى هذه الأدلة.

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: «..**وكان النبي يُبعَثُ إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: والذين يصدِّقون بالحياة الآخرة، وما فيها من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء وثواب وعقاب، يصدِّقون بأن هذا القرآن كلامُ الله نزل على محمدٍ ﷺ، ومَن كان كذلك رَغِبَ فيما عند الله من ثوابٍ، واتقى ما عنده من عقاب، وحافظ على فرائض الله وحدوده.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: ومن شأنهم أنهم يداومون على أداء الصلاة في أوقاتها، فالصلاة هي رأسُ العبادات، ومَن داوم عليها حَافَظَ على جميع العبادات، وخُصت الصلاة بالذكر؛ لأنها أشرفُ العبادات وأعظمها.

حَال منكِري الْوَحْي عِنْدَ خروجِ الرُّوحِ

٩٣- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ[2] أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

وبعد أن أبطل القرآن مزاعم الكفار والملحدين في إنكار الوحي والرسالة، أتبع ذلك ببيان عاقبة الذين يفترون على الله الكذب؛ فشرَّعوا لأنفسهم ما لم يرضَ به الله، أو استخفوا بالقرآن؛ فزعموا أنهم يأتون بمثله، أو ادَّعَوْا أن الوحي يمكن أن ينزل عليهم كما نزل على محمدٍ ﷺ، فلا أحد أعظم ظلمًا ولا أكبر جرمًا ممن نسب إلى الله قولًا أو حكما هو منه

(١) الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٣٣٥) وانظر (٤٣٨، ٣١٢٢) و«صحيح مسلم» برقم (٥٢١) من حديث طويل.

(٢) ضم الهاء من (أيديهم) يعقوب، وكسرها الباقون.

بريء، ومن ذلك من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وفي استطاعته أن يأتي بمثله.

ويصور القرآن حال هذا الصنف من البشر وهم عند النزع الأخير، وعند الوقوف بين يدي ربِّ العالمين للحساب والجزاء، وهؤلاء جميعًا ممَّن لا يؤمنون باليوم الآخر ممَّن ذكرتْهم الآية السابقة.

والآيةُ تشير إلى عموم مَن ادَّعَوُا النبوة في حياة النبي ﷺ وبعده، وتشير إلى كلِّ مَن يعارض القرآن في كلِّ زمان ومكان، فيزعم أن بإمكانه أن يقول مثل القرآن، فكلُّ ذلك من افتراء الكذب على الله.

ومما جاء في أسباب النزول

١- أن النضر بن الحارث قال على وجه الاستهزاء: أنا أعارض القرآن، وقال كلامًا يأتي ذكره.

٢- وقال بعض المشركين عن القرآن: إنه قول شاعر، وسأنزل مثله.

٣- وكان مسيلمة الكذاب يقول سجعًا، ويتكهن، ويدَّعِي النبوة، ويقول: إن الله أَوْحَى إليه.

٤- وقال عكرمة: نزل أول هذه الآية في مسيلمة، وآخرها في عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

٥- وعن السُّدي أن قوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ نزلتْ في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الغامدي، كان من كُتَّاب الوحي للنبي ﷺ، وكان أخًا لعثمان بن عفان من الرضاعة، فلمَّا نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] وأملاها عليه النبي ﷺ ليكتبها؛ عجب عبد الله من تفصيل خَلْقِ الإنسان؛ فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، وكان قوله هذا موافقًا للوحي في ختام الآية، فقال له النبي ﷺ: **«اكتبها، هكذا أنزلت عليَّ»** وعندئذ توهم عبد الله أن النبي ﷺ أمره أن يكتب قولَه، فارتدَّ عن الإسلام، ولَحِقَ بمكة، وقال: لئن كان محمدٌ صادقًا فقد أُوحي إليَّ كما أُوحي إليه، وإن كان كاذبًا فقد قلتُ كما قال[1].

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي ص١٨٥، والسيوطي ص١١٨، و«تفسير الطبري» (٧/ ١٨١) وابن عطية (٢/ ٣٢٢) و«زاد المسير» (٣/ ٨٢) والحاكم (٣/ ٤٥) وابن أبي حاتم (٧٦٢٤، ٧٦٢٦).

ولعل المقصود أن الآية نزلتْ في عموم مَن ادَّعى النبوة، وكذا مَن ادعى معارضة القرآن؛ لأن ادعاء مسيلمة والأسود العنسي للنبوة كان بعد الهجرة، وكذا قصة عبد الله بن أبي سرح، وسورة الأنعام مكيَّة، وعلى القول بأن هذه الآية مدنيَّة فلا إشكال.

والحديث موصولٌ عن المشركين المنكرين للوحي والرسالة:

١- فيبين سبحانه أنه لا أحد أشد ظلمًا، وأعظم جرمًا ممَّن افترى على الله قولًا كذبًا؛ فادَّعى أن الله تعالى لم يبعث أحدًا من البشر رسولًا إلى الناس.

٢- أو ادَّعى أن الله أوحى إليه ولم يُوحَ إليه شيء.

٣- أو ادَّعى أنه قادرٌ على أن يُنزِّلَ مثل هذا القرآن.

فهذه ثلاث دعاوى كاذبة، والقرآن الكريم يندد بقوم ادَّعَوْا النبوة في عهد النبي ﷺ وبعده، فقد ادعى النبوة مسيلمة الكذاب في بني حنيفة باليمامة، وكذا زوجته سجاح، وهي امرأة ادعت النبوة، وكذا الأسود العنسي في اليمن، وكان ثلاثتهم في وقت الرسول ﷺ.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه يدعي النبوة ثلاثة وثلاثون شخصًا، وقد تحقق هذا، ومنهم غلام أحمد القادياني وغيرُه، وهؤلاء جميعًا يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن الله لم يبعث أحدًا من البشر، أو ادعى النبوة لنفسه، أو نسب الشريك والولد إلى الله تعالى، أو كذّب القرآن ورسول االإسلام، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

ومن هؤلاء الذين ادعوا النبوة، مَن نظموا سجعًا إلى أقوامهم، يزعمون أنه قرآن، وكان النضر بن الحارث يعارض القرآن ويقول: (والزارعات زرعا) (والحاصدات حصدا) (والطاحنات طحنا) (والعاجنات عجنا) (والخابزات خبزا)، قال تعالى عن الكفار المكذبين بآيات الله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال].

قال قتادة: نزلتْ هذه الآية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في مسيلمة الكذاب، ادَّعى النبوة باليمامة، وتَبِعَهُ بنو حنيفة.

وكان مسيلمة قد أرسل إلى النبي ﷺ رسولين، فقال لهما رسول الله ﷺ: **«أتشهدان أن**

مسيلمة نبيٌّ؟» قالا: نعم، فقال لهما النبي ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتُل لضربتُ أعناقكما»(١).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا نائم أُتيتُ بخزائن الأرض، فوُضع في كفِّي سواران من ذهب، فكبُرا عليَّ؛ فأوحى الله إليَّ أن أنفخَهما، فنفختُهما؛ فذهبا، فأوَّلتُهما الكذَّابيْنِ اللذيْن أنا بينهما، صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة»(٢).

وقد قَتَل وحشي - قاتل حمزة - مسيلمة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان وحشي يقول: قتلتُ خيرَ الناس، وقتلتُ شرَّ الناس.

أما الأسود العنسي فادعى النبوة باليمن في آخر عهد النبي ﷺ، وقد قتله فيروز الديلمي قبل موت النبي ﷺ بيومين، فكان يقول: «فاز فيروز».

وعلى القول بأن الآية مكية تكون من باب الإخبار بالغيب، أما على القول بأنها مدنية فلا إشكال.

ثم يأخذ القرآن في بيان حال الكفار وقت الاحتضار مبينًا عقوبةَ الظالمين عند الموت، وجزاء عدم اعترافهم بآيات الله يوم لقائه، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وادعاء النبوة، وظلموها بالكفر بما أنزل الله على رسوله، لو تراهم ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ حين الاحتضار، عند سكرات الموت وخروج الروح، لرأيت أمرًا عظيمًا ومشهدًا مفزعًا.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ إليهم بالعذاب والإهانة، يضربون وجوههم وأدبارهم، وباسطوا أيديهم بإخراج الروح، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال]

وعندئذٍ يُقال لهم توبيخًا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أنقذوا أنفسكم وأخرجوها ممَّا هي فيه ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الذل والهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ بادعاء

(١) الطبري (٩/ ٤٠٦) وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٥٧) عن الحسن، وهو في مسند أحمد برقم (١٥٩٨٩) عن نعيم بن مسعود وهو حديث صحيح بطرقه وشاهده، (محققوه) وأخرجه أبوداود (٢٧٦١) والحاكم (٢/ ١٤٢) والبيهقي في السنن (٩/ ٢١١) وفي الدلائل (٥/ ٣٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٦٢١، ٤٣٧٤، ٤٣٧٨، ٧٠٣٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٧٤) وهذا لفظه.

النبوة، وتكذيب الرسل، وعدم الانقياد لهم ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تتفكرون فيها، ولا تؤمنون بها، وفي هذا اليوم تنقطع أعمال العبد كلها إلا من العمل الصالح والعمل السيء، وهما مادة الآخرة، حيث ينشأ عنهما السعادة أو الشقاء، فهي التي تنفع أو تضر.

هَيئَة الكَافِر فِي أَرض المَحشَر

٩٤- ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ[1] وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

ثم أخبر ﷻ عن حال الكافرين يوم القيامة، كيف يحشرون، وصوَّر حالهم عندما يُعرضون للحساب، وماذا يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ يوم البعث والنشور تاركين ما جمعْتموه وراءكم في الدنيا من مال ومتاع، وليس معكم ما أشركتموهم مع الله في عبادته، جئتمونا ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ في الآخرة يوم القيامة للحساب والجزاء، فرادى حفاة عراة، مجردين من كلِّ شيء؛ من المنْزِل، ومن المال، ومن الولد، ومن الجاه، ومن أهل الشرك الذين أشركتموهم مع الله ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: كما أوجدناكم في الدنيا أوَّلَ مرة.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ من كلِّ ما كنتم تتباهون به ممَّا خولكم الله إيَّاه؛ من المال والأهل والولد والمنصب والجاه، تركتموه وراء ظهوركم في الدنيا ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ أي: الآلهة التي كنتم تزعمون أنها تقربكم وتشفع لكم عند الله، وتقولون: إنها تقربكم إلى الله زُلْفَى من ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ إنهم لا وجود لهم في ساحة المحشر، لقد ضلوا عنهم، وغابوا عن أعينهم؛ وتقطعت الأوصال والأسباب بينهم، فلم يجدوهم.

وعندئذٍ يناديهم الله تعالى على رؤوس الخلائق قائلًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] ويقال لهم يوم القيامة: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الشعراء]

---

(١) قرأ نافع وحفص والكسائي وأبو جعفر بنصب النون من (بينكم) على أنها ظرف لتقطع، والفاعل ضمير يعود على الاتصال؛ أي: تقطع الاتصال بينكم، وقرأ الباقون بالرفع على التوسع في الظرف وإسناد الفعل إليه مجازًا، أو على أن (بين) اسم وليس ظرفًا.

﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ [القصص: ٦٤].

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ من حبال المودة، وتقطع ما بينكم من الوصل، وتبرأ بعضكم من بعض، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]

لقد زال ما كنتم تفترونه من أن آلهتكم شركاء لله في العبادة ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ أي: غابت عنكم هذه الآلهة، فلا وجود لها، وظهر أنكم خاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم، وذهب عنكم ما زينه الشيطان لكم من السعادة والنجاة، وتبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون.

قال عكرمة: لمَّا تزوَّج عمر أم كلثوم بنت عليٍّ، اجتمع إليه أصحابه؛ فباركوا له ودعَوْا له، فقال: لقد تزوجتُها وما بي حاجة إلى النساء، ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إن كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي، فأحببتُ أن يكون بيني وبين رسول الله ﷺ نسبٌ»**[1].

١- وفي الصحيحين عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يأيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلًا** ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ **الحديث»**[2] [الأنبياء: ١٠٤].

٢- وفي الصحيحين عن عائشة ﷺ قالتْ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«يحشر الناس حفاة عراة غرلا»** قالت عائشة: فقلت: الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض، قال: **«الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»**[3].

٣- وعن عائشة أيضًا أنها قرأت ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ فقالت: يا رسول الله، واسوأتاه، إن الرجال والنساء يحشرون جميعًا ينظر بعضهم سوْأة بعض؟ فقال

(١) أخرجه عبد الرزاق برقم (١٠٣٥٤).

(٢) مطلع حديث ابن عباس، في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٠) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٩، ٣٤٤٧، ٤٦٢٥).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٢٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٥٩) واللفظ له.

رسول الله ﷺ: «﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ لا ينظر الرجال إلى النساء، ولا النساء إلى الرجال، شُغِلَ بعضهم عن بعض»[١].

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يقول العبد: مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس»**[٢].

٥- وفي لفظ مُطَرِّف عن أبيه قال: أتيتُ النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: **«يقول ابن آدم، مالي مالي، وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدقتَ فأمضيتَ»**[٣].

٦- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقَى عمله»**[٤].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨].

خَمْسَة أَدِلَّةٍ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: أَحْوَالُ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ

٩٥- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ[٥] وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ[٦]﴾

وبعد الحديث عن التوحيد والوحي والرسالة أَرْدَفَ سبحانه بذِكْرِ خمسة من الدلائل على كمال قدرة الله تعالى، تنبيهًا على أن المقصود الأعظم هو معرفة الله تعالى، مبدِعِ

---

(١) ابن أبي حاتم (٧٦٣٩) والحاكم (٤/ ٥٦٥) ويشهد له الحديث السابق.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٩).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٠) و«صحيح البخاري» برقم (٦٥١٤).

(٥) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف (الميِّت) معًا بتشديد الياء، والباقون (الْميْت) بإسكانها.

(٦) أبدل الهمزة واوًا من (تؤفكون) ورش وأبو عمرو، بخلف عنه، وأبو جعفر، ووقفًا حمزة، والباقون بإثبات الهمزة ساكنة.

الأشياء وخالقِها، المستحق للعبادة دون سواه، فالله تعالى هو الذي يشق جميع الحب عن جميع النبات الذي يكون منه، ويشق النوى عن جميع الأشجار الكائنة منه.

ومن شأن سورة الأنعام أنها تُعرِّفُ العبد بربِّه، وتجعل الكافر يؤمن بالله تعالى بمقتضى الأدلة العقلية الساطعة التي أوردتْها السورة، وتجعل المؤمن يزداد إيمانًا، والمرتاب يمتلئ يقينًا.

والآيات الخمس الأُول، من هذا الربع المبارك، تمتلئ بالبراهين والأدلة العقلية والنقلية الساطعة على وجود الخالق جل شأنه، فالله سبحانه يرينا، في كلِّ لحظة من لحظات هذه الحياة، آيةً دالةً على قدرته وتوحيده ووجوده سبحانه، فهو جل شأنه الذي يُخرج النبتة من الحبة، وهو الذي يخرج النخلة من النواة، والشجرة من البذرة، وتنشق الأرض وتنفلق الحبة في كلِّ لحظة من لحظات هذا الوجود عن كائن حيٍّ يسبح بحمد الله، هو الساق الذي يكون في الهواء.

وتنشق الحبة أيضًا عن جذر يمتد في الأرض، ويمد الله كلًّا منهما بمقوِّمات الحياة من الماء والهواء؛ فيخرج النبات الأخضر من الحب اليابس، ويخرج الشجر الأخضر من النوى اليابس، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس]

وفي ذلك أكبر دِلالة على قدرة الله التي لا تُحد، وعلى أنه المستحق للعبادة دون سواه.

ومن قدرة الله تعالى، أن النواة لها شق من أعلاها يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء، ولها شق من أسفلها يخرج منه الجذور الضاربة في الأرض، مع أن جرم الأرض صَلْب كثيف، لا تنفذ فيه المسلة القوية، ولا يغوص فيه السكين الحاد، ومع ذلك فإن هذه الأرض يخرج منها ورق الشجر والنبات وعروقهما، وهما من الدقة واللطافة بحيث لو فركهما الإنسان بين أصابعه؛ لصارت كالماء، فكيف تولدت الشجرة الصاعدة في الهواء؟ وكيف خرجت الأوراق الضعيفة من باطن الأرض الصلبة؟ إلا بتدبير العزيز العليم[1]، فسبحان الخلاق العظيم.

---

(١) انظر «تفسير الفخر الرازي» (٨/ ٩٧).

وفي كلِّ لحظة تخرج ذرات ميتة من الكائن الحي؛ من الإنسان أو الحيوان أو النبات، والعكس صحيح، خلايا حية يُخرجها الله سبحانه من ذرات ميتة.

وهو جل شأنه يَخلق من المؤمن كافرًا، ومن الكافر مؤمنًا، ويَخلق الإنسان من منيٍّ يُمنى، ويُخرج الفضلات من الإنسان والحيوان ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ ولا بد لذلك من الإيمان بوجود الخالق سبحانه، والذين يبحثون عن سرِّ هذا الكون، وعن سر هذا الوجود بعيدًا عن الله سبحانه؛ ضلوا وأضلوا، ووصلوا إلى طريق مسدود، وفي فلْق الحب والنوى، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي دليلٌ على أن الله تعالى قادرٌ على إحياء الخَلْق بعد موتهم، وقادرٌ على مجازاتهم على أعمالهم، يوم البعث والحساب فكيف تُصرفون عن عبادة الله تعالى إلى عبادة غيره مما لا يملك لكم ضرا ولا نفعًا؟! ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

الدَّلِيل الثَّانِي: الْأَحْوَال الْفَلَكِيَّة

٩٦- ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ[1] اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

والله وحده هو الذي يَخلق الموجودات، وهو الذي يربي الكائنات، هو سبحانه هيأ لعباده ما يحتاجون إليه من الأقوات والمساكن والظلمة والنور، وما يترتب عليهما من المنافع، فهو جل شأنه ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ كاشف ظلمة الليل بنور النهار، يشق النور من الظلام، ويجعل الصبح يضيء من الليل، والظلمة عدمٌ، والنور إيجادٌ، والإيجاد هو مظهر القدرة، ومناطُ المنَّة والنعمة، وفلْق ظلمة الإصباح نعمةٌ على الناس؛ كي ينتفعوا بحياتهم ومكاسبهم، وخَلْقُ الأشياء المتضادة دليلٌ على كمال قدرة الله وعظيم سلطانه، وهو سبحانه ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ وهو سبحانه جاعل الليل سكنًا، سباتًا وراحة للعباد، ومستقرًّا لراحة الأبدان، ينامون فيه، ويقومون لربهم ويتهجدون، وفيه تسكن الأنعام إلى مأواها

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف (وَجَعَل الليلَ) على أن (جعل) فعل ماضٍ و(الليل) مفعول به منصوب، والباقون (وجاعِلُ اللَّيلِ) على أن (جاعل) اسم فاعل مضاف إلى مفعوله وهو (الليل) المخفوضة في محل نصب.

والطيور إلى أوكارها، والحشرات إلى جحورها، فتأخذ نصيبها من الراحة.

يقول صهيب الرومي ﷺ عندما عاتبتْه امرأتُه على كثرة سهره: إن الليل سكن إلا لصهيب، إن صهيبًا إذا ذَكَرَ الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومُه.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي: وجعل الشمس والقمر يجريان في فلكيهما بحساب متعينٍ مقدَّرٍ، لا يتغير ولا يضطرب في هذه الدور الفلكية للشمس والقمر والليل والنهار حتى ينتهي إلى أقصى منازلهما، حيث تُتِمُّ الشمس دورتها في سنة، ويُتم القمر دورته في شهر، وبذلك تنتظم مصالحُ العباد والبلاد فتعرف الأزمنة والأوقات وتنضبط أحوال العباد ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

إنه نظامٌ محكَمٌ دقيقٌ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨] ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس].

وهو سبحانه المقدِّرُ لكلِّ شيءٍ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فهو سبحانه عزيزٌ في سلطانه، عليمٌ بمصالح خَلْقِه وتدبير شؤونهم.

الدَّلِيل الثَّالِث: الْكَوَاكِب النَّيِّرَة

٩٧- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

أي: أن الكواكب التي في الفضاء يهتدي بها ساكنو القفار، وراكبو البحار، وهكذا يمتن الله على عباده بأن خَلَقَ لهم النجوم؛ ليهتدوا بها إذا ضلوا الطريق، ويعرفوا بها القِبْلَة، فيستدلون على ما يريدون في النهار بحركة الشمس، وفي الليل بحركة الكواكب، ومن النجوم ما يُرى ولا يسير عن محلِّه، ومنها ما هو مستمر في السير يعرف به الجهات والأوقات.

وفيها تذكيرٌ بوحدانية الله تعالى، وبالنعمة الحاصلة من سير النجوم، وكونها هداية للناس في ظلمات البر والبحر، حيث لا يرى الشمس ولا القمر، فمن مظاهر قدرة الله سبحانه، وأدلة وجوده، خَلْقُ هذه الكواكب والنجوم لمهمات ثلاثة، كما بينها جلَّ شأنه في قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]

فهي زينةٌ في السماء الدنيا، وهي رجوم وشهب يُرجم بها الشياطين، وهي علامات يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويَعْلَمُ ذلك الذين يتعدون عن المدن المضيئة ليلًا، قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل].

وقد خُتمتْ هذه الآية بقوله تعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ لأن الاهتداء بالنجوم في الظلمات الحسية، وفي ظلمات العقل والضمير، يحتاج إلى علم بمسالكها ودورانها ومداراتها؛ فيستدلون بذلك على معرفة الخلاق العليم.

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس]

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١﴾ [القصص].

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: خَلْقُ الْإِنْسَانِ

٩٨- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ[1] وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾

والله تعالى ابتدأ خَلْقكم أيها الناس من آدم عليه السلام، وحواء مخلوقة منه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء: ١] .

وكذا عيسى عليه السلام؛ لأنه من مريم، وهي من بنات آدم، وقد خَلَق الله آدم من طينٍ، وخلقكم من سلالة من ماء مَهين، وجعل لكم مستقرًّا تستقرون فيه، هو أرحام النساء، ومستودعًا تُحفظون فيه، هو أصلاب الرجال؛ ذلك لأن النطفة لا تبقَى في صلب الأب بمقدار ما يبقى الجنين في بطن أمه.

ولكم في نهاية الدنيا مستودعٌ في القبر، ومستقرٌّ إما في الجنة أو النار، على وجه

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح (فمستقِر) بكسر القاف، على أنه اسم فاعل مبتدأ، والخبر محذوف؛ أي: فمنكم مستقِرٌّ في رحم أمه، ومنكم مستودع في صلب أبيه، وقرأ الباقون بفتح القاف، على أنه اسم مكان؛ أي: فلكم مكان تستقرون فيه.

الخلود والتأبيد ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي آدم عليه السلام ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: أن النطفة مستودعة في صلب الرجل زمنًا يسيرًا، مستقرة في رحم المرأة زمنًا أطول، فالإنسان مستودَعٌ في ظهر أبيه، ثم ينتقل إلى رَحِمِ أمه فيستقر فيه زمنًا، ثم ينتقل إلى القبر، ثم ينتقل إلى المحشر، ثم ينتقل إلى الجنة أو النار، فيستقر في أحدهما استقرارًا دائمًا، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤] وقال: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقد وضح الله ذلك وبيَّنه للناس؛ كي يتأملوا صُنْعَ الله في خَلْقِه ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ بيَّنا الحجج، وميَّزْنا الأدلة وأحكمناها لقوم يُدركون صُنْعَ الله في هذا الإنسان؛ فيتعظون ويعتبرون.

الدَّلِيل الْخَامِس: أَصْنَاف النَّبَاتِ وَالثِّمَارِ

٩٩- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ(١) انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ(٢) إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

وهو سبحانه الذي أنزل من السحاب ماءَ المطر الْمُتَكَوِّن في طبقات الجو العليا، عند تصاعد البخار الأرضيِّ إليها؛ فيصير البخار كثيفًا، يكوِّن السحاب، ثم يتحول إلى ماء، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] فالسماء اسمٌ لأعلى طبقات الجوِّ حيث تتكون الأنهار.

فأخرجنا بسبب ذلك أصنافَ النبات والثمار المختلفة، وكل ما يأكله الإنسان والحيوان كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] وكلُّ ما علا الإنسان فهو سماء.

ونزول الماء من السحاب جاء في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وقنبل وابن ذكوان بخلف عنهما بكسر تنوين (متشابه انظر) حالة الوصل، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين، وقرأ الباقون بضمه، وهو الوجه الثاني لقنبل وابن ذكوان.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الثاء والميم من (ثمره)، وقرأ الباقون بفتحهما، والأول جمع، والثاني اسم جنس.

تَشۡرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة]

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٢]

وقوله جل شأنه: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقد أخرج الله بهذا الماء أصنافَ النبات المختلفة؛ فمنه ما هو زَرْعٌ له ساق ليِّنة كالقصب، ومنه ما هو شجر له ساق غليظة كالنخل، ومنه ما هو ملتصق بالأرض، كالخيار والقثاء والبطيخ، وهكذا ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ منه ما له ساق، ومنه ما لا ساق له، ومِن النبات الذي لا ساق له نبات أخضر رطب، كأنواع الخضراوات، قال الله تعالى عنه: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرًا﴾ أي: أوراقًا وأغصانًا خضراء، ويُخرج الله من هذا النبات الخَضِر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ كالبُرِّ والأرز والفول والذرة والشعير وسائر الحبوب، وهذه مَشَاهِدُ تراها الأعين في جَنَبَاتِ الأرض، وتتأملها العقول، وتتدبرها القلوب، فترى بدائع صُنْعِ الله تعالى.

وهو سبحانه الذي يُنزل ماءَ المطر من السماء؛ فينبُت به هذا الزرع عودًا أخضر، يَخرُج من النبتة تنفلق من الحبة؛ فيخرج منها جميع الزروع الخضرة الرطبة، ثم يكون هذا الأخضر سنابلَ، حبًّا متراكبًا كهيئة السنبلة في القمح، متراكمًا بعضه فوق بعض، وكذا الشعير والأرز والذرة وغير ذلك من الغذاء الأول للإنسان، كما يُخرج بالماء غذاءَ كلِّ شيءٍ من الأنعام والبهائم والطير والوحش.

ثم يعقبه في الآية الغذاء الثاني والأهم للإنسان؛ وهو التمر ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ﴾ جاء ذِكْرُه بعد الزرع؛ لأهميته كغذاء هام للإنسان يخرج ﴿مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي: يخلق سبحانه من النخيل، الرطَب والبسر والبلح بأنواعه، وأول ما يبدو منه ويظهر للناس يُسمَّى طلعًا، فإذا كَبُرَ سُمي عذقًا، ثم يكون قنوًا، ومنه ما يكون قريبًا متدلِّيًا، ومنه ما يكون بعيدًا مرتفعًا، قنوان قريبة من الإنسان دانية، وقنوان بعيدة ليست في متناول يد الإنسان.

والقنو: هو العرجون الذي فيه الشماريخ، ويخلق سبحانه من الماء حدائقَ وبساتين فيها مختلَفُ الفواكه والثمار ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنۡ أَعۡنَابٍ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ وقد بيَّن الله ﷻ أن هذه الفواكه منها ما هو متشابهٌ في شجره وورقه، وفي لونه وطعمه ورائحته، ومنها ما هو غير متشابه،

مع أنها جميعًا تشرب ماء واحدًا ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤] فهو متشابهٌ ومتماثلٌ في الورق واللون والطعم، وغير متشابه.

والله سبحانه يلفت الأنظار إلى ما يَخرج من هذا النبات وهذا الشجر، كيف ينمو ويثمر ويزدهر، انظروا إليه في بدايته، كيف يكبر وينمو ويصير أخضر، ثم ينضج ثم يصفر ثم يذبُل ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي: نضجه بعد ظهوره.

ثم أمر الله عباده أن يتأملوا في بديع صنعه فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالإيمان هو الذي يفتح القلب، وينير البصيرة، ويُوقظ استجابةَ الفطرة في الإنسان.

وقد ذكرتِ الآية أربعةَ أنواع من الشجر بعد الزروع، وقدمتِ الأهم والأكثر نفعًا على غيره، فالزروع غذاءٌ، والغذاء مقدَّمٌ على الفاكهة، والتمْر يجري مجرَى الغذاء، ثم أعقبه بالعنب؛ لأنه من أشرف الفواكه، ثم الزيتون؛ لِمَا فيه من البركة، وأعقبه بالرمان؛ لِمَا فيه من المنافع.

وفي الآية أدلةٌ عقليةٌ على البعث والنشور، كما يحيي الله الأرض بعد موتها.

الشِّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ وَ مَكَانٍ

١٠٠- ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟[1] لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

أي: ومع هذه البراهين والأدلة القاطعة على وحدانية الخالق سبحانه، فإن الإنسان يستدل عقلًا على أن لهذا الكون خالقًا مدبرًا، ومع هذا، فهناك مَن يُشرك مع الله غيرَه في الجاهلية الماضية، وفي العصر الحاضر، فيسألُ غيرَ الله، ويذبح لغير الله، وينذر لغير الله، ويطلب العون والمدد من غير الله، ويعتقد النفع والضَّرَّ في غير الله، وعن هؤلاء وأولئك جميعًا.

يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ ويراد بالجن في الآية الملائكة، وتسميتهم جنًّا من باب المجاز؛ لاستتارهم عن الأعين كالجن، أو يراد بهم الشياطين، أو يراد إبليس؛

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بتشديد الراء من (وخرقوا) للتكثير، والباقون بالتخفيف، وهما لغتان بمعنى الاختلاق، يقال: خلَق الإفك وخرقه واختلقه وافتراه، وكلُّه من باب الكذب.

أي: وجعلوا لله شركاء مِن خَلْقِه هم الجن والملائكة، وليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، ومع هذا فقد جعلوهم شركاء لله في الخلق والتدبير وهو الذي خلقهم، ومع ذلك فقد ﴿وَخَرَقُوا لَهُۥ﴾ أي أن المشركين افتروا على الله الكذب فنسبوا له ﴿بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وقد كان المشركون يعترفون بأن الله تعالى خالقُ الجن، ولكنهم كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به، ويزينونه لهم، وقد نهانا الله عن ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]

وقوله: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس]

وقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء].

والآية تتحدث عن شرك العرب، حيث كان دينُهم في الجاهلية خليطًا من عبادة الأصنام والكواكب والملائكة والشياطين والنار؛ وذلك لأن العرب -لجهلهم- كانوا يُقلدون الأمم المجاورة لهم، والبلاد التي يرحلون إليها في تجارتهم وغيرها؛ فأخذوا عن الصابئة، وعن المجوس، وعن اليهود والنصارى، وغيرهم، وكانوا ينسبون تصرفاتهم إلى الجن، وأنهم يأتون بالخَبَر من السماء فيُلْقونه إلى الكهان، وأن الشاعر له شيطان يُوحِي إليه بالشعر، وأن الملائكة بناتُ الله من أمات سَرَوات الجن.

وقد كان كثير من العرب يعبدون الجن والملائكة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ].

والذين زعموا أن الملائكة بنات الله هم قبائل: قريش وجهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح، ومن العرب من عَبَدَ الشيطان، وزعم أنه إلهُ الشر، وأن الله إلهُ الخير.

والمعنى: إنهم أطاعوا الجن فيما سوَّلتْ لهم من شركهم بالله تعالى، وكفار العرب كانوا يقولون: الملائكة بنات الله.

والجن: كل ما استتر عن العين، وهذا يصْدقُ على الشياطين وعلى الملائكة، ومن الزنادقة مَن قال: إن إبليس خالقُ الظلمة والسباع والحيات والعقارب، والله سبحانه خالق النور والإنسان والأنعام والدواب، فهم قد عبدوا الجن ذواتهم، مع أنهم لم يرَوْهم ولم يعرفوهم، أو أن الجن قد زينوا لهم عبادة الأصنام والأوثان.

والله سبحانه قد خَلَقَ الجن، وخلق الملائكة، وخلق الكواكب، وخلق عيسى، وخلق عزيرًا، والمشركون قد نسبوا لله البنين والبنات؛ فقالت النصارى: عيسى ابن الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩] وقد كذَبُوا في كلِّ ما قالوا، وفي كل ما اعتقدوا، فالله جل شأنه هو المستقل بالخَلْقِ وحده، وهو المستحق للعبادة دون سواه.

١٠١ - ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

أي: وهو جل شأنه خالقُ الكون ومبدعه ومحكم صُنعه على غير مثال سَبَقَ، فكيف يكون له ولد ولم تكن له زوجة؟! وكيف يكون له ولد وهو الغني عن خَلْقِه وكلهم محتاجون إليه؟ والولد يكون شبيهًا بوالده، والله تعالى مُنزَّهٌ عن المِثْل والشبيه والنظير، والوالد يحتاج إلى ولده، والله تعالى غَنِيٌّ عن خَلْقِه، وهو خالق هذا الكون بما فيه؟ والكلُّ مخلوقٌ لله ﷻ، ولا يخفَى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

والغرض من الآية الردُّ على مَن نسب الولد إلى الله تعالى من **وجهين**:

أحدهما: أن الولد لا يكون إلا من جنسٍ والده، والله تعالى منزه عن الأجناس؛ لأنه مبدعها، فلا يصح أن يكون له ولد.

ثانيهما: أن الله تعالى خلق السموات والأرض، ومَن كان كذلك فهو غنيٌّ عن الولد، وعن كلِّ شيءٍ[1].

قال الزمخشري: وفي هذه الآية إبطال أن يكون لله ولدٌ من **ثلاثة أوجه**:

الأول: أنه مبتدع السموات والأرض، وهي أجسام عظيمة، وخالق الأجسام لا يكون

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢/ ١٨).

جسمًا حتى يكون والدًا.

الثاني: أن الولادة لا تكون إلا لمَن كان له زوجة، والله تعالى ليس له صاحبة.

الثالث: أنه ما من شيءٍ إلا وهو سبحانه خالقه، ومَن كان كذلك كان غنيًّا عن كلِّ شيءٍ، والولدُ إنما يَطْلُبُه المحتاج[١].

وقد ختم الله الآية ببيان أنه جل شأنه عالمٌ بكل شيء، ولو كان له ولدٌ لاتَّصف بصفاته، ومنها العلم بكل شيء، وهذا مَنْفِيٌّ عن غير الله تعالى بالإجماع.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كما قال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [االملك: ١٤] وقال ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] قال تعالى:

١٠٢- ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

ذلكم الموصوف بكل ما سبق هو الله المتفرد بالخَلْقِ، المتفرد بالمُلْكِ، المتفرد بالرِّزْقِ، المتفرد بالعبادة، المدبر لشؤون خَلْقه، فأخلصوا له العبادة، فهو سبحانه الخالق لكل شيء، وغيرُه مخلوقٌ، ومَن كان كذلك فهو المستحق للعبادة وحده.

والمعنى: ذلكم المبدع للسموات والأرض، الخالق لكل شيء، العليم بكل شيء هو الله، وهو سبحانه الرقيب على عباده، الحفيظ عليهم، المدبر أمرَهم، المتولي لجميع شؤونهم، الإله المعبود، الذي خلق الخلق ليعرفوه فيعبدوه وهم جميعًا تحت وكالته وتدبيره وتصريفه.

رُؤْيَةُ اللهِ تَعَالَى فِي الآخِرَةِ

١٠٣- ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

وهو سبحانه محيطٌ بمخلوقاته، يعلمها ويراها، ويعلم حقيقتها، ولكن عقول العباد لا تحيط بربهم جل شأنه، ولا يعرفون كنهه وحقيقته سبحانه، ولا تحيط أبصارهم بالله جل شأنه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لعظمته وجلاله وكماله، بمعنى: لا تحيط به ولا تراه الأبصار في الدنيا، ولا تدرك كنهه

(١) «تفسير الكشاف» (٢/ ٥٢).

وحقيقته ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ يحيط بها؛ لشمول عِلْمِه لكلِّ ما خفي أو ظهر، وكل ما ظهر وما بطن ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ بأوليائه الرؤوف بهم ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بدقائق الأمور وغوامضها.

وممَّا عليه أهل السنة أن عدم الإدراك لا ينافي الرؤية، فالإدراك يكون بالعقل، والرؤية تكون بالبصر، وعقول الناس محدودة، وأبصارهم محدودة، فعقولهم وأبصارهم لا تدرك الخالق جل شأنه، وهو سبحانه يدرك عقول المخلوقات وأبصارهم ويراهم ويحيط بهم ﷻ.

وأهل السنة على أن المؤمنين يرَوْن ربهم يوم القيامة بأبصارهم، ولكنهم لا يحيطون به، فهم يرَوْنَه رؤية ثابتة عند جمهور أهل العلم.

وقد جاء عن جَمْعٍ من الصحابة أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة في العَرَصَات، وفي روضات الجنة، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم، وقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة].

أما الكفار فإنهم محجوبون عن رؤية الله تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين] أي: لا يرون الله ﷻ يوم القيامة.

والرؤية تكون للمؤمنين خاصة، كما بيَّن النبي ﷺ فيما ثَبَتَ وتواتر من الأحاديث؛ من ذلك ما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: «**إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ** ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾»[1] [ق: ٣٨].

٢- وعن أبي هريرة ﷺ أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**هل تضامون في القمر ليلة البدر؟**» قالوا: لا، يا رسول الله، قال: «**هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟**» قالوا: لا، يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «**فإنكم ترونه كذلك**»[2].

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٥٤، ٨٠٦، ٧٤٣٤) عن أبي هريرة و«صحيح مسلم» (٦٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٣٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٩٥٦) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٧٨) والترمذي (٢٦٩٥) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٧٢) وفي «الطحاوية» (٥٧٦).

٣- وفي حديث عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال لجابر: **«وكَلَّمَ أباك كِفَاحًا»**[١].

أي: مواجهة بغير حجاب.

٤- وفي حديث أبي موسى الأشعري ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور** -أو النار- **لو كشفه لأحرقتْ سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خَلْقِه»**[٢].

وفي الآية تنويهٌ بالأجسام المتحيزة المحصورة التي تحدها الأبصار، فإن هذا من شأن المخلوقين، ومن ذلك: الجن والملائكة والكواكب، وكل ما عُبد من دون الله، فإن الأبصار تدركها وتحيط بها، وبذلك ينتفي كونها آلهة تُعبد من دون الله.

وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن الشرك بالله تعالى.

ولو لم تكن رؤيةُ الله تعالى ممكنةً لما علَّقها الله تعالى لموسى على استقرار الجبل في قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] فاستقرار الجبل جائزٌ، والمعلَّقُ على الجائز جائزٌ.

قال الإمام مالك: لو لم يرَ المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يُعيِّر الكفار بالحجاب في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين].

وقال: لم يُرَ الله في الدنيا؛ لأنه باقٍ، ولا يُرَى الباقي بالفاني، فإذا كانوا في الآخرة ورزقوا أبصارًا باقية، رأوْا الباقي بالباقي[٣].

ولو لم تكن الرؤية ممكنةً لما تمدَّح الله بها بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لأن المعدوم لا يصح التمدح به.

---

(١) ينظر كشف الأستار للبزار (٢٧٠٦) والحاكم (٣/ ٢٠٣) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٩٨) وابن أبي عاصم (٦٠٣) وسنده ضعيف.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٧٩) والمسند (١٩٦٣٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن ماجه (١٩٥) وابن أبي عاصم في السنة وأبو يعلى (٧٢٦٣) والطبراني في الأوسط (١٥٣٥).

(٣) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٧/ ٤١٥).

فالآيةُ دالةٌ على جواز الرؤية، خلافًا للمعتزلة الذين ينفون الرؤية في الدنيا والآخرة، والإدراك غير الرؤية؛ لأن الإدراك هو الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته عن طريق العقل، ولا يلزم من نَفْيِ الإدراك نَفْيُ الرؤية.

والرؤية: هي المعاينة للشيء من غير إحاطة به، وهذا عن طريق البصر، والإحاطة تكون بالشيء المحدود معلوم الجهات، والله تعالى مُنزَّهٌ عن الحد والجهة.

وقد نفت عائشة ﵂ حصول الرؤية في الدنيا، وخالفها ابن عباس ﵄ في ذلك، فلا فرقَ عنده بين الإدراك والرؤية.

فالحاصل أن رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين أمرٌ ثابت، تواترت به الآيات والأحاديث في الصحاح والمسانيد والسنن.

أما الرؤية في الدنيا فهي غير ممكنة الحدوث، فلم تحدث لموسى ﵇ في طور سيناء، ولم تحدُث لمحمد ﷺ ليلة المعراج، كما عليه جمهور أهل العلم، وبه قال ابن مسعود وعائشة وأبو هريرة ﵃ أخذًا من عموم الآية التي معنا، وقد كلَّم الله جابرًا كفاحًا، والرؤية في كل هذا تكون من غير إحاطة، ولا حدود.

عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي دَعْوَتِهِ وَالنَّتَائِج عِنْدَ اللهِ

١٠٤- ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾

قل يا محمد، لمَن لم يؤمن بك ولا برسالتك: قد جاءتكم حجج وبراهين واضحة من ربكم، تُبصرون بها الهدى من الضلال، والحقَّ من الباطل، في هذا القرآن العظيم، وفيما جاء به النبي ﷺ من السنة النبوية، فمَن اهتدى بها؛ فنَفْعُ ذلك يعود عليه، ومَن لم يبصر الهدى مع ظهور الدلائل؛ فعليه وبالُ ذلك، ومهمة النبي ﷺ هي البلاغ، وليس عليه إحصاء أعمالكم وحفظها، فوظيفة النبي ﷺ تقف عند الآثار، وعند البلاغ، وعند التبشير والإنذار.

ومَن عمي عن طريق الهدى؛ فضرره عائد عليه، ولا عذرَ لكم في الاستمرار على الضلال، فإن ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٦]

وقال سبحانه: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

١٠٥- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ[(١)] وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

وكما بيَّنا في هذا القرآن البراهينَ الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد، نبيِّن للمشركين كلَّ ما جهلوه، حيث يقولون كذبًا: إن محمدًا تعلَّم هذا من أهل الكتاب ودرَسه عليهم، مع أنهم يعلمون أن محمدًا ﷺ كان أميًّا، ولم يجلس إلى مُعلِّم قَطُّ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت] وقال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس].

ثم إن المسافة بعيدة بين نزول القرآن وبين نزول ما سبقه من الكتب، والبَوْنُ شاسعٌ بين ما أتى به محمدٌ ﷺ من القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبين الأناجيل التي كُتبت بعد عيسى عليه السلام بعشرات السنين، أما العهد القديم فهو مزيجٌ من التفسير والتحريف بعد حرق التوراة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان].

وبتفصيل هذه الحجج، وتصريفها، يتبين الحقُّ لمَن يُقبلون عليه ويتبعونه، وهم المؤمنون بالله ورسوله، ولا ينتفع بها مَن سلك طريق الضلال، فالله سبحانه يفصِّلُ هذه الآيات ويوضحها ويبينها؛ كي يؤمن بها المؤمنون الذين شرح الله صدورهم للإيمان، أما الكفار فهم يقولون للنبي ﷺ إنه دَرَسَ؛ أي: تعلَّم وتلقَّى هذا على غيره، كما نَسَبَ ذلك المشركون لرسول الله ﷺ فقالوا: إنه تعلم ذلك من حدَّاد رُومي، كان يجلس إليه في مكة، والله سبحانه يقول: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارسْتَ) بألف بعد الدال وسكون السين وفتح التاء؛ أي: دارسْتَ غيرك هذا الذي جئتنا به، وقرأ ابن عامر ويعقوب (دَرَسَتْ) بدون ألف مع فتح السين وسكون التاء؛ بمعنى قدِمَت وبَلِيَت، ومضَتْ عليها دهورٌ، وكانت من أساطير الأولين فأحييتها أنت وجئت بها، وقرأ الباقون (درسْتَ) بدون ألف، مع سكون السين وفتح التاء؛ أي: حفظتَ وأتقنتَ بالدرس أخبار الأولين.

لقد زعم المشركون أن النبي ﷺ إنما تعلَّم هذا القرآن بالدرس والتعليم من أهل الكتاب، وزعموا أنه تعلَّمه من غلامين يقال لهما: جبر ويسار، وكانا غلامين نصرانيين بمكة، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

ومعنى ﴿يُؤْثَرُ﴾ يرويه محمدٌ عن غيره في زعمهم الباطل.

فمعنى ﴿دَرَسْتَ﴾ فقهتَ وقرأتَ وتعلمتَ على اليهود؛ أي: دارسْتَ غيرَك في الكتب القديمة، فقرأتَ عليهم وقرؤوا عليك، وأن هذه الكتب قد ترددت على أسماعهم حتى بليَتْ.

والمعنى: إنا نصرف الآيات ونبينها تبيينًا من شأنه أن يَصْدُر من العالِم الذي دَرَسَ العلم، فيقول المكذبون: درسْتَ هذا وتلقيتَه من العلماء والكتب؛ لإعراضهم عن النظر الصحيح الموصِّل إلى أن مثل هذا لا يكون إلا عن طريق الوحي.

والدراسة: هي القراءة بتمهل للحفظ أو الفهم، كما قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] ومن ذلك سُمِّي مكان مدارسة العلم المدرسة، والمكان الذي يتعلم فيه اليهود كان يُسمَّى المِدْراس.

ثم إن الله تعالى يوضح هذا القرآن، ويبينه لأهل العلم والمعرفة، وهذا التصريف في آيات القرآن حَصَل منه هدًى للموفَّقِين، ومكابرة للمخذولين، كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٥]

وقال أيضًا: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [المدثر: ٣١]

وقال جل شأنه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٤٤] وهكذا. قال تعالى:

١٠٦- ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

ثم يقول الله تعالى لرسوله: اتبع هذا القرآن الذي أنزلتُه عليك واقتفِ أثرَه، واستمر في تبليغ الدعوة للناس، متبعًا ما أوحاه الله إليك من آيات وهدايات، معرضًا عن الذين

يفترون على الله الكذب، واعمل بما فيه من الأوامر والنواهي، وبلِّغْهُ للناس، وأعظَمُ ما أوحيتُه إليك هو توحيد الله تعالى ونفيُ الشرك، وهو الحقُّ الذي لا مريةَ فيه، فبلِّغْ ذلك ولا تبال بقول المشركين: إنك درست، فما هو إلا جحود وعناد وادعاء باطل.

وفي الآية أمران مضمونهما الاقتصار على تبليغ الوحي، والإعراض عن أذى المكذبين، وعدم الاشتغال بهم، وليس المراد الإعراض عن دعوة المشركين، ولكن المراد الإعراض عن قولهم وأذاهم مع الاستمرار في دعوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: ٦٣]. قال تعالى:

١٠٧- ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧﴾

ثم إن الله تعالى يوجه نبيه ﷺ إلى الاهتمام بالدعوة، وألا يعبأ بهؤلاء المكذبين، وألا يعلِّق عليهم أملًا كبيرًا، وأن يتفرغ أكثر للمقبلين على الله تعالى المستجيبين لدعوته، فإن له حِكْمَةً في إضلالهم، ولو شاء لهداهم أجمعين ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ أي: لو أراد الله ألا يشركوا به لفعل، ولكنه سبحانه تركهم لسوء اختيارهم واتباعهم أهواءهم المنحرفة.

﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾ أي: لستَ رقيبًا عليهم - أيها الرسول - تُحصي أعمالهم، إنما أنت مبلِّغ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ فلستَ موكلًا عنهم، ولا قيِّمًا عليهم.

وفي الآية تلطُّفٌ مع الرسول ﷺ، وإزالةٌ لِمَا يلقاه من الغم والكدر من استمرارهم على الكفر، وعدم تأثير القرآن والنذُر فيهم، فذكَّر الله رسوله بأنه قادرٌ على أن يحوِّل قلوبهم؛ فتَقْبل الهدى، ولكنه سبحانه أراد أن يحصُل الإيمان للناس بالأسباب المعتادة في الإرشاد والاهتداء؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، ويُظهر مراتب الناس واختلافهم في الخير والشر اختلافًا ناشئًا من استعدادهم وميولهم ورغباتهم وَفْق النشأة والقبول، فإيمان الناس لا يحصل بخوارق العادات ولا بتبديل العقول، ففي الآية تطمينٌ لقلب الرسول ﷺ، وتذكيرٌ له بحقائق الأمور.

وليس في الآية عُذْرٌ لأهل الشرك ولا لأمثالهم، وقد ردَّ الله عليهم في مثل قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٢٠﴾ [الزخرف] وأَمَرَ رسوله بالتذكير والموعظة في قوله: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾ [الغاشية]

وبيَّن سبحانه أن مهمة الرسول هي البلاغ، وعلى الله الحساب ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

النَّهْيُ عَنْ سَبِّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ

١٠٨- ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا[1] بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم[2] بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

والله تعالى أمَرَ نبيَّه أن يُعرض عن أذى المشركين، بأدبٍ جَمٍّ، وترفُّعٍ يليق بالمؤمن، ونهاه أن يسب آلهة المشركين؛ مخافةَ أن يتجرؤوا على الله تعالى؛ فيسبوه من باب التعامل بالمِثْلِ؛ ذلك لأنهم لا يعلمون جلال الله سبحانه، ولا عظيم مقامه.

وسب آلهة المشركين كان أمرا جائزا، ولكنه لما كان سببًا يؤدي إلى سب المشركين لرب العالمين، نهى الله سبحانه عن ذلك، والله تعالى يجب تنزيهه عن كل عيب ونقص وذم وسب وقدح، وإذا سب المسلمون آلهة المشركين، ردوا عليهم بسب ربِّ العالمين، فيكون المسلم متسببا في سب ربه سبحانه، فيبوء بالإثم، كما نُهي المسلم أن يسب أبا الرجل فيسب أباه، أو يسب أمه فيسب أمه، فيكون سببًا في سب أبيه أو أمه بهذه الطريقة.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تسبوا أوثان المشركين وأصنامهم - سدًّا للذريعة- حتى لا يترتب على ذلك سبُّهم لله تعالى عدوانًا وتجاوزًا عن الحقِّ، وجهلًا منهم بحقِّ الله تعالى وقَدْرِه ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأنه إذا ترتب على المصلحة مفسدةٌ أكبر كان الترك أَوْلَى ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: كما حسَّنا لهؤلاء عملهم السيئ؛ عقوبة لهم على سوء اختيارهم، حسَّنا لكل أمة أعمالها السيئة، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] وتزيين العمل السيئ للكافر أثرٌ من آثار سوء اختياره، ولا جَبْرَ في ذلك ولا إكراه؛ حيث إن الإيمان والكفر ينشآن عن

(١) قرأ يعقوب بضم العين والدال وتشديد الواو من (عدوا)، والباقون بفتح العين وإسكان الدال وتخفيف الواو، يقال: عدا عَدْوًا وعُدُوًّا وعدوانًا، وهو منصوب على المصدر، أو مفعول لأجله.

(٢) وقف حمزة بتسهيل الهمزة بين بين وبإبدالها ياء خالصة من (فينبئهم).

اختيار العبد، وتأتي مهمة الرسل والكتب؛ لترشد إلى الإيمان، وتنهى عن الكفر.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ أي: أن المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، الجميع معادهم ومصيرهم المحتوم إلى الله تعالى بعد البعث والنشور ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبرهم بأعمالهم في الدنيا، ويحاسبهم ويجازيهم عليها في الآخرة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

ومما ورد في سبب نزول الآية:

١- قال ابن عباس: لمَّا نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون: يا محمد، لتنتهينَّ عن سبِّ آلهتنا، أو لنهْجُوَنَّ ربَّك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم؛ فيسبون الله عدوًا بغير علم[١].

٢- وقال قتادة: كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار، فيردون ذلك عليهم؛ فنهاهم الله عن ذلك[٢].

٣- وقال السُّدِّي ما ملخصه: إن وفدًا من قريش ذهب إلى أبي طالب، وهو في مرض الموت، وطلبوا منه أن ينهى ابن أخيه عن سبِّ آلهتهم؛ لأنهم يستحيون من قَتْلِه بعد موته، فدعا أبو طالب رسولَ الله ﷺ، وطلب منه الكف عن ذِكْرِ آلهتهم، فقال ﷺ: **«أرأيتم لو فعلتُ تعطوني كلمة، تملكون بها العرب وتدينون بها العجم»** قال أبو جهل: نعم وأبيك، ونعطيك عشرة أمثالها، فما هي؟ قال: **«قولوا: لا إله إلا الله»** فقاموا ونفروا، قال أبو طالب: قل غيرَها يابن أخي، قال: **«يا عم: ما أنا بالذي أقول غيرها، ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلتُ غيرها»** فقالوا: لتكفنَّ عن شتم آلهتنا، أو لنشتمنَّك ولنشتمنَّ مَن يأمُرك؛ فأنزل الله الآية[٣].

٤- وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أن المشركين قالوا: يا محمدُ، لَتنْتهينَّ عن سبِّ آلهتنا، أو لنهجونَّ ربَّك؛ فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم.

٥- وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ أن رسول الله ﷺ قال: **«ملعون مَن سبَّ والديه»** قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: **«يسبُّ أبا الرجل؛**

---

(١) الطبري (٩/ ٤٨٠) وابن أبي حاتم (٧٧٦٠).

(٢) «تفسير الطبري» (١٢/ ٣٤) بتصرف، وعبد الرزاق (١/ ٢١٥) وابن أبي حاتم (٧٧٦٣).

(٣) ابن أبي حاتم (٧٧٦٢).

فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[١].

فلا تسبوا آلهة المشركين -أيها المسلمون - حتى لا يسبوا إلهكم جهلًا وعدوانًا، معاملةً لكم بالمثل، فمتى خاف المسلم من سبِّ الكافر لله تعالى، أو لرسوله ﷺ، أو لكتابه، لم يجزْ له أن يسب آلهتهم ولا دينهم؛ لأن ذلك يؤدي إلى مفسدة أعظم، وهذا أصلٌ في سدِّ الذرائع.

قال الحاكم: وقد نُهُوا عن سب الأصنام **لوجهين:**

الأول: أنها جماد لا ذنب لها.

الثاني: أن ذلك يؤدي إلى سبِّ الله تعالى، والذي يجب علينا هو بغض للأصنام ، وبيان أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تستحق العبادة.

قال عليٌّ ﷺ -يوم صفين-: لا تسبوهم، ولكن اذكروا قبيح أفعالهم[٢].

على أن سب آلهة المشركين لا يترتب عليه مصلحة دينية؛ لأن مقصودَ الدعوة هو إبطالُ عبادتها، وبيان استحالة أن تكون شركاء لله تعالى، فهذا هو الذي يتميز به المحِقُّ من المبطل، وليس بالسب وفُحش القول، فإن ذلك في مقدور كلِّ إنسان، فهو مفسدة وليس فيه شبهة مصلحة، كما لو أدَّى تغيير المنكر إلى مفسدةٍ أكبر.

والمشركون يُنكرون أن الله تعالى يأمر محمدًا ﷺ بذم آلهتهم؛ لأنهم يزعمون أن آلهتهم مقربةٌ عند الله تعالى، وإنما يزعمون أن شيطانًا يأمر النبي ﷺ بسبِّ آلهتهم، وذلك كقول امرأة منهم للنبي ﷺ لمَّا فتر عنه الوحي في أول البعثة: ما أرى شيطانه إلا ودَّعه. وكان الدهريون ينكرون وجود الله تعالى، ومثلهم الشيوعيون والملحدون وعُبَّادُ البقر والوثن في كل عصر ومصر.

وقد أمر الله موسى أن يقول لفرعون قولًا لينًا، ولم يكنْ رسولُ الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا وفي الآية دليل على أن الوسائل الجائزة، تكون محرمة إذا كانت تفضي إلى الشر.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٩٠) و«صحيح البخاري» برقم (٥٩٧٣).

(٢) «تفسير القاسمي» (٦/ ٢٤٦٣).

خَوَارِق الْعَادَاتِ لَا تَأْتِي بِالْإِيمَانِ

١٠٩- ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ[١] أَنَّهَآ[٢] إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ[٣] ﴿١٠٩﴾﴾

ثم ذَكَرَ القرآن ما كان يتعنَّته المشركون المكذبون من طلب خوارق العادات؛ فقد ورد أنه لمَّا نزل قول الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء: ٤] أقسموا بالله أنه لو نزلت عليهم آية لآمنوا؛ فنزلت هذه الآية[٤].

وعن محمد بن كعب القرظي أن قريشًا قالوا للنبي ﷺ: إن موسى كان معه عصا يضرب بها الحَجَر؛ فينفجر منه اثنتا عشرة عينًا، وكان عيسى يُحيي الموتى، وكان لقوم ثمود ناقة، وقد أخبرْتنا بذلك، فأتِ لنا بمثل هذه الآيات حتى نصدِّقك، فقال لهم: **«أيُّ شيء تحبون أن آتيكم به؟»** قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبًا، وأقسموا على أنه لو فعل ذلك ليتَّبعنَّه أجمعين، فقام رسول الله ﷺ يدعو ربه، فجاءه جبريل وقال: إن شئت أصبح الصفا ذهبًا، فإن لم يصدِّقوا؛ ليعذبنَّهم الله، وإن شئتَ فاتركهم حتى يتوب تائبُهم، فقال ﷺ: **«بل يتوب تائبهم»** وأنزل الله الآية[٥].

والمعنى: وأقسموا بالله على أنهم يؤمنون برسول الله ﷺ إن جاء لهم بآية تصدقه بمثل

---

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان الراء واختلاس حركتها من (وما يشعرْكم)، وللدوري وجه ثالث هو الضمة الكاملة كبقية القراء.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وشعبة بخلف عنه، بفتح همزة (أنها) بمعنى لعلها، وهي في قراءة أُبيّ لعلها، ذكر ذلك أبو عبيد وغيره، ولعل تأتي في مثل هذا الموضع كثيرًا، كما قال تعالى: (وما يدريك لعل الساعة قريب) [الشورى: ١٧] وقال: (وما يدريك لعله يزكى) [عبس: ٣] وقال الكسائي والفراء: (أن) وما بعدها مفعول يشعركم على أن لا زائدة لتأكيد المعنى كما قال تعالى: (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) [الأنبياء: ٩٥] وقرأ الباقون بكسر الهمزة على الاستئناف؛ إخبارًا بعدم إيمانهم.

(٣) قرأ ابن عامر وحمزة بتاء الخطاب للمشركين في (لا يؤمنون)، والباقون بياء الغيبة للمؤمنين.

(٤) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٣٣).

(٥) حديث مرسل في «تفسير الطبري» (١٢/ ٣٨) وله شواهد من وجوه أخرى كما قال ابن كثير (٣/ ٣٠٩).

ما جاءت به الرسل أقوامهم من الآيات، فدعا النبي عليه الصلاة والسلام ربَّه أن يُنزِّلَ عليه آيةً، فقال جبريل للنبي ﷺ: قل لهم: ماذا تطلبون؟ قالوا: نريد جبل الصفا يكون ذهبًا، أو تأتي لنا بالملائكة نكلمهم وتَشْهَدُ لك، أو تبعث لنا موتى من أهلنا سابقين، يكلموننا ويشهدون أنك على حقٍّ، قال جبريل ﷺ للنبي عليه الصلاة والسلام، يقول الله تعالى لك: إن شئتَ فعلت، فجعلتُ لك الصفا ذهبًا كما تريد، وأنزلتُ عليك الملائكة، وأحييتُ لهم الموتى يكلمونهم.

ولكن سُنة الله في خَلْقِه جرت أن كلَّ قومٍ يطلبون مثل ذلك من نبيِّهم، ويؤيده الله تعالى بما اقترحوا، ثم يكذبونه، يُنزِّلُ الله عليهم عذاب إبادة يستأصلهم بها، مثل: الصاعقة والصيحة والرجفة التي نزلت بقوم صالح وقوم هود وقوم لوط وغيرهم، فأبادهم الله تعالى، قال جبريل للنبي ﷺ: إن شئت فعلت، وإن شئت تركتهم حتى يتوبَ منهم مَن يتوب، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**بل أتركهم حتى يتوب منهم مَن يتوب**»[1].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال] وهذه نعمة من الله سبحانه، تشمل الكافر أيضًا؛ حيث إن هذه الأرض لم تنطبق عليهم، ولم تُدمَّرْ فوقهم، فبقي الكافر عليها برحمة رسالة النبي ﷺ على وجه هذه الأرض.

لقد أنزل الله سبحانه هذه الآية وفيها ردٌّ حاسم، وبيان لطبيعة المكذبين ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: أقسم هؤلاء المشركون بأيمانٍ مؤكَّدَةٍ: لئن جاءنا محمدٌ بعلامة خارقة لَنُصَدِّقنَّ ما جاء به، وهذا معنى ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: معجزة خارقة ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ ويصدقون أنك رسول الله.

﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن الآيات الخارقة التي تطلبونها إنما هي من عند الله، فهو القادر على الإتيان بها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أي: وما يدريكم - أيها المؤمنون - ما سبق في عِلْمِ الله من ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وما يعلمكم أن هذه المعجزات إذا جاءت لا يصدِّقُ بها المشركون؟ فعِلْمُ ذلك عند الله وحده، وقد سبق

---

(١) تنظر هذه الزيادات في «المسند» (١/٢٥٨) والنسائي في «السنن الكبرى» والحاكم (٢/٣٦٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، و«دلائل النبوة» ص٢٥٢، وكلهم عن ابن عباس، وذكره الواحدي في سبب النزول ص١٨٨، وهو في «تفسير ابن كثير» (٢/٣١٦).

في علم الله أنهم لا يصدقون وأنتم لا تشعرون.

والمعنى: أن الله تعالى يعلم أن المعجزات التي اقترحوها إذا تحققت لا يؤمنون بها، وأنتم لا تدرون ذلك، وكان المؤمنون يطمعون في إيمان المشركين، ويتمنون مجيء هذه الآيات؛ ظنًّا منهم أن المشركين سيدخلون في الإسلام إذا جاءهم النبي ﷺ بما طلبوه من الآيات.

فالضمير في ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ يعود على المؤمنين، وهو الأرجح.

ومَن قال: إنه يعود على المشركين؛ يكون المعنى:

وما يدريكم لعل الله يأتي بها ولا يؤمن بها المشركون، والله تعالى لا يأتي بالآيات، لإصرارهم على الكفر ولعلمه تعالى أنها إذا جاءت لا يؤمنون، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

و﴿لَا﴾ من قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ زائدة لتأكيد المعنى؛ أي: وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ [الأنبياء] أي: وحرام على أهل قرية مهلَكَةٍ رجوعهم.

ويصح أن تكون الواو عاطفة؛ ويكون المعنى: أمُشْعِرٌ يشعركم بعدم إيمانهم، أو تكون الواو للحال؛ بمعنى: والحال أن القرآن والاستقراء أشعركم بعدم إيمانهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس].

وسورة يونسَ نزلت قبل سورة الأنعام، فلا تطمعوا أيها المؤمنون في إيمانهم، ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ.

هذا: وطلب المكذبين للخوارق، إنما هو بقصد ردّ ما جاء به النبي ﷺ من باب التعنت الذي لا يلزم إجابته، وليس بقصد طلب الهدى والرشاد، فإن الله تعالى قد أيد رسوله بالآيات البينات، وبمجرد التأمل فيها لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به النبي ﷺ، وإجابة هذه الخوارق يوجب التعجيل بالعقوبة إن لم يؤمنوا، والنبي ﷺ لا يملكها بل هي بأمر الله، ومع ذلك فإن مجيئها لا يعني إيمانهم ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فليس معلومًا أنهم إذا جاءتهم الآيات التي طلبوها يؤمنون و يصدقون بل الغالب أنهم لا يؤمنون، وقد سبق علم الله بذلك ولكنهم لا يعلمون. قال تعالى:

١١٠- ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ أنه مُطَّلِعٌ على حقيقة أمرهم، يعلم خفاياهم، وما تحتوي عليه قلوبهم، وما تكنه أفئدتهم، فهو سبحانه يعلم أنهم لن يستجيبوا، ولن يؤمنوا، ولو نزلتْ عليهم الآيات المقتَرَحة، والذي منعهم من الإيمان بها هو الذي منعهم من الإيمان أول مرة؛ وهو الجحود والكفر والعناد والطغيان، والقلوب المقفلة عن الحقِّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] وقال سبحانه: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

فالإيمان والكفر، والهدى والضلال، لا يتوقف أمرُهما على البراهين، إنما يتوقف على قَبول الحقِّ أو رفضه، وصحة القلب وآفته، فنحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم؛ ونعلم أنهم لا يؤمنون بالآية التي تأتيهم كما لم يؤمنوا بالقرآن من قبل، والله سبحانه يعلم أن قلوب هؤلاء القوم هي العائق، وليس العائق نزولَ الآيات، إنما العائق هو المرض الذي في قلوبهم، وهو الذي منعهم من الإيمان الأول.

فالله تعالى يعلم أنهم لن يؤمنوا بالآيات التي طلبوها إذا جاءتهم، وأنتم - أيها المسلمون - لا تدرون بذلك، ولذلك فإنكم تطمعون في إيمانهم، وهذا على قراءة فتح همزة (أنها) أما على قراءة الكسر؛ فيكون المعنى: وما يشعركم أنَّا نُقلِّب أفئدتهم عن إدراك الحقِّ فلا يفقهونه، ونُقلِّبُ أبصارهم عن إظهاره فلا يبصرونه، كشأنهم في عدم إيمانهم بالقرآن الذي نَزَلَ عليهم أول مرة، وبما جاء على لسان الرسول ﷺ، قبل أن يقترحوا الآيات الباطلة.

ولذلك فنحن نتركهم مترددين متحيرين، لا يعرفون لهم طريقًا يهتدون إليه، فقد حُرموا الانتفاع بحواسهم، ولم ينتفعوا بها؛ لأنهم كابروا وعاندوا؛ فلم يؤمنوا بالقرآن أول ما تحداهم به النبي ﷺ، والأفئدة بمعنى العقول، وهي محل الدواعي والصوارف، فإذا لاح للقلب بارقُ الدليل، وجَّه الحواس إلى الانتفاع بمقتضاه؛ ولذلك قُدمت الأفئدة على الأبصار في الآية. قال تعالى:

١١١- ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ[1] ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا[2] مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

ثم أخبر سبحانه أنه لو أتاهم بجميعِ ما اقترحوه؛ من إنزال الملائكة وإحياء الموتى وغيرهما ما آمنوا إلا بمشيئة الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ كما طلبوا، وزدنا على ما طلبوا، ولم نقتصر عليه ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: بعثنا لهم الموتى، وحشرناهم فكلموهم ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ من السباع والطيور والدواب والهوام، حشرناهم وجمعناهم أمامهم ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧].

ومشيئةُ الله هذه لا تعني إجبارهم على الضلال، إنما تعني أن الله سبحانه خَلَقَ خَلْقًا متميزًا عن الملائكة وعن الحيوانات، فالملائكة يطيعون الله سبحانه، وليس لهم خيارٌ، والحيوان ليس عنده عقل، فهو لا يُثاب ولا يُعاقب، والإنسان مخلوقٌ وسط، ليس بملَك مجبرٍ على الطاعة، وليس بحيوان ليس عنده عقل، ولم يرسَل إليه رسل، ولم تنزل عليه كتب.

إنما الإنسان مخلوقٌ متميز، له حرية الاختيار، خَلَقَه الله مستعدًا لهذا وذاك، مائلًا إلى الفطرة والتوحيد، فإن انحرف عنها واختار الضلال فإن مصيرَه يكون إلى النار؛ لأنه اختار هذا بعقله مع إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومع تحذير الله ﷻ له عن الكفر والضلال، وكل ذلك في إطار مشيئة الله جل شأنه.

فالله تعالى يعلم ما يَجري، وما يكون في هذا الكون سلفًا وخلفًا، وعِلْمُه جل شأنه أحاط بكل شيء، وبكل حركة تجري في هذا الكون، وأكثر هؤلاء القوم يجهلون ما جئتَ

---

(١) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم وصلًا من (إليهم الملائكة)، وضمهما حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر وصلًا أيضًا، والباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلًا.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بكسر القاف وفتح الباء من (قبلا) بمعنى مقابلة؛ أي: معاينة، ونصبه على الحال، وقيل: بمعنى ناحية وجهة ونصبه على الظرف، وقرأ الباقون بضم القاف والباء جمع قبيل ونصبه على الحال، وقيل: بمعنى جماعة جماعة وصنفًا صنفًا؛ أي: حشرنا عليهم كلَّ شيء فوجًا فوجًا، ونوعًا نوعًا من سائر المخلوقات.

به - أيها الرسول - من عند الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ وإلى الله المرجع الأخير.

ورد عن ابن عباس ﷺ أن المستهزئين وهم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، والحارث بن حنظلة، أَتَوْا رسول الله ﷺ في رهط من أهل مكة فقالوا: أرِنَا الملائكة يشهدون لك، أو ابعث لنا بعضَ موتانا فنسألهم: أحقٌّ ما تقول؟

وقال بعض المشركين: لا نؤمن لك حتى يُحشر قُصيٌّ فيخبرنا بصدقك، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلًا؛ فنزلت الآية في الردِّ عليهم(١).

وقد حكى الله عنهم ذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢].

وقد ذكرتِ الآية ثلاثة خوارق للعادات من مقترحاتهم، ثم أشارت إلى مجموع ما سألوه في قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: بعثنا لهم كلَّ ما سألوه وغيرَه من جنس خوارق العادات والآيات؛ أي: لو أجبناهم إلى كل ما سألوه، وزدنا عليه بأن جمعنا لهم جميع الخلائق فشاهدوهم وعاينوهم، لو فعلنا كل ذلك ما استقام لهم إيمانٌ، ولا تحركت فيهم مشاعرُ؛ لفساد فطرتهم، وانطماس بصيرتهم، والذي ينقصهم هو القلب الحي، الذي يتأثر فيخالط الإيمان شغافه، ولو كانت المعجزات التي يطلبونها تنفعهم لكفتهم معجزة القرآن، ووضُح لهم الحقُّ الذي يدعو إليه محمدٌ ﷺ، ولكنهم مكابرون معاندون، يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله تعالى، وليس بخوارق العادات التي يطلبونها، استهزاءً، ويتعللون بها.

وإسناد الجهل إلى أكثرهم؛ لإخراج القليل منهم ممَّن آمن بعد نزول هذه الآية، قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان].

هذا: وبداية هذا الجزء (ولو أننا) متعلق بما قبله من ناحية المعنى، فلا تبدأ به التلاوة، أيها القارئ، والأولى البدء بالآية التي بعده، أو بآيتين قبله.

---

(١) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٨/ ٥) و«تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٣٥).

أَعْدَاءُ الرُّسُلِ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ

١١٢- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ[1] عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾

ثم أعلم الله رسوله ﷺ بأنه ما من نبي قبله إلاوله أعداء يخالفونه، وهو ابتلاء عام، فاصبر كما صبروا، ولا تحزن على ماينالك منهم ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

هذا، والآيات السابقة كانت تتحدث عن المشركين المكذبين الذين يقترحون الآيات، وهم أعداءٌ لرسول الله ﷺ، والله ﷻ يقول لرسوله ﷺ: لا تحزن، فهذه سنة الله في خلقه، وما من نبي بعثه الله إلا وله أعداء من الإنس والجن يتعاونون عليه، ويتآمرون على إجهاض دعوته، وهكذا جعل الله لرسوله أعداء من المشركين، فلا تأسف ولا تحزن فلست بدعًا من الرسل ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ سبقك ﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

عن أبي أمامة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الجن والإنس»** قال: يا نبي الله، وهل للإنس شياطين؟ قال: **«نعم، شياطين الإنس والجن يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا»**[2].

قال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد عليَّ من شيطان الجن، وذلك أني إذا تعوذْتُ بالله ذهب شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني؛ فيجرني إلى المعاصي.

---

(١) قرأ نافع بالهمز بدل الياء في (نبي) فيكون من قبيل المد المتصل، وقرأ الباقون بالياء المشددة (نبيّ).

(٢) أحمد (٥/ ٢٦٥) برقم (٢٢٢٨٨) وقد حسنه الألباني في «الترغيب» (١/ ١٤٥) وهو في الطبراني الكبير (٧٨٧١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١١٨): وفيه علي بن زيد، فيه كلام، وقد أورده ابن كثير من طرق متعددة عند تفسير الآية، ومنها رواية ابن أبي حاتم (٧٧٨٦) وقال: فهذه طرق ومجموعها يفيد قوته وصحته، وقال محققو «المسند»: إسناده ضعيف جدًا، وقد ورد هذا الحديث عن أبي ذر في «المسند» برقم (٢١٥٤٦) بإسناد ضعيف أيضًا، وأخرجه ابن حبان (٦١٩٠) والحاكم (٢/ ٢٦٢) والطبراني في الأوسط (٤٠٥).

فشيطان الجن إذا ذكرتَ الله خنس وتغلَّبْتَ عليه؛ لأنك لا تراه، أما شيطان الإنس فمهما ذكرتَ الله عليه فإنه ماثلٌ أمام عينيك، يأخذك من يديك إلى المعصية، ويجرك إليها، وهكذا ﴿يُوحِي﴾ أي يزيّن ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي يدعوه إلى الباطل فيزخرفه له حتى يجعله في أحسن صورة، ويجعل له الحق باطلًا والباطل حقا، ليخدعه ويغريه بطريقة خفية دقيقة، فهو لا يضله ولا يهديه، إنما يوسوس إليه ويزين له العمل، والشياطين هم مردة الإنس ومردة الجن، والشياطين من الجن يزينون إلى شياطين الإنس، ويحسِّنون لهم العمل السيئ، وشياطين الجن والإنس يوحي بعضهم إلى بعض بزخرف القول وتزيينه ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ فكل هذا يتم وَفْق مشيئة الله تعالى.

والمعنى: وكما ابتليناك يا محمد بأعدائك من المشركين، ابتلينا جميع الأنبياء قبلك بأعداء من مردة قومهم، وأعداء من مردة الجن، فالشيطان هو كل عاتٍ متمردٍ من الإنس والجن، قالوا: وشياطين الإنس أشد تمردًا من شياطين الجن؛ لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح، وأعياه ذلك، استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه، وكل من شياطين الإنس والجن يُناجِي بعضهم بعضًا، ويلقي إليه بالقول الذي زينه بالباطل ليغريه به، ويضله عن سبيل الله؛ بمعنى: أن شياطين الجن يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم، ويغرونهم بها إغراء.

ومعلوم أن الجن مخلوق من مارج من نار، وهو مزوَّدٌ بقدرة تجعله يحيا في باطن الأرض وخارجها، ويتشكل بأشكال مختلفة، وهو يملك من الحركة والسرعة ما لا يملكه الإنسان، ومنهم الصالحون ومنهم المردة، وإبليس أبو الشياطين، وهم مسلطون على بني آدم؛ لإغوائهم بالإيحاء إليهم، فإذا ذُكِرَ الله خنس، وليس له قدرة على الوسوسة إلى المخلصين من المؤمنين، ويمكن للمؤمن أن يتحصن منه ومن وسوسته بالأذكار المعروفة وقوة الاتصال بالله تعالى.

والجن يحشرون مع الإنس يوم القيامة، ويحاسبون ويجازون بالجنة والنار، ولو شاء الله لمنع الشياطين من إغواء الإنس وإلقاء الوسوسة في قلوبهم، ولو شاء الله لحال بين أنبيائه وبين نصب العداء لهم، ولكنه ابتلاء من الله، ورفْع لدرجاتهم؛ ليجزل الثواب لهم على صبرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]

وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ حين نزل عليه الوحي: لم يأتِ أحد بمثل ما جئتَ به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا[١].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: اترك هؤلاء المكذبين، وما يفترونه من كذب وزور، اتركهم وما يزينه لهم إبليس من الكفر والمعاصي، واصبر على أقوالهم وأفعالهم، ولا تترك دعوتهم إلى الحق، وتوكل على الله، وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم؛ بمعنى: أنه سبحانه من ورائهم فيجازيهم بما عملوا. قال تعالى:

١١٣- ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ[٢] ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾

قال سبحانه في هذه الآية عطفًا على ما قبلها: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: ولتميل إلى هذا الزخرف والإيحاء، وإلى هذا التزيين من شياطين الإنس والجن غير المؤمنين، أما المؤمنون فإنهم لا يتأثرون به، إنما تصغى إليه ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لأن من لم يؤمن بالآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب، يمشي وراء أهوائه وشهواته، ولا يتبع إلا زخرف القول وباطله، فإذا مال العبد إلى القول المزخرف، صار عقيدة راسخة، وصفة لازمة له، ثم ينتج عنه اقتراف الأعمال والأقوال السيئة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ أي: وليرضوا هذا الفعل الخبيث الذي مالت إليه نفوسهم، فالكفار هم الذين يميلون إلى هذا الباطل من القول المزخرف، ويعملون به ويقبلونه ويحبُّونه ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي: لكي يكتسبوا من الأعمال السيئة ما هم مكتسبون، وكلٌّ مجزيٌّ بعمله يوم لقاء الله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٢) برقم (٣، ٢٣٩٢، ٤٩٥٥، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢) ومسلم (١/ ١٣٩) برقم (١٦٠) من حديث طويل عن عائشة ﵂.

(٢) وقف حمزة على (أفئدة) بنقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة؛ فيصير النطق بفاء مكسورة بعدها دال.

الحُكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ فِي صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ

١١٤- ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ(١) مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

ثم لقن الله رسوله الجواب على المشركين؛ ليخاطبهم بأنه لا يطلب حَكَمًا بينه وبينهم غير الله تعالى، وكان المشركون قد دعوا النبي ﷺ إلى التحاكم في شأن نبوته، وأن القرآن منزَّلٌ من عند الله، وكان أهل مكة مخالطين لليهود في ترددهم عليهم بالتجارات وغيرها، وما منع أهل الكتاب من الاعتراف بالنبي ﷺ إلا الحسد والعناد والخوف على زوال الجاه والسلطان.

قال أبو حيان: قال مشركو قريش لرسول الله ﷺ: اجعل بيننا حَكَمًا إن شئت من أحبار اليهود أو النصارى؛ ليخبرنا عنك بما في كتبهم من أمرك؛ فنزلت الآية(٢).

والمعنى: قل يا محمد لمَن يُكذِّبُ برسالتك: أأميل إلى زخارف الشياطين؛ فأطلب معبودًا سوى الله؛ ليحكم بيني وبينكم، ويميِّز المحِقَّ من المبطِل؟!!

وهل أتقيد بغير أوامر الله ونواهيه؟ فإن غير الله تعالى محكوم عليه لا حاكم.

فلم يطلب الرسول ﷺ حَكَمًا بينه وبينهم غير الله تعالى، وأنكر عليهم التحاكم إلى غير الله سبحانه، مع أن حكم الله ظاهرٌ في الكتب المنزلة، يجدون صِدْقَه عندهم فيها، وهذا أمر معلوم لا شك فيه، فلا تشك فيه أيها المسلم.

وسورة الأنعام سميت كذلك؛ لذِكْرِ ما يتعلق بالحلال والحرام في ذبح الأنعام.

والسورة تقدم لذلك باستنكار أن يكون الحُكْمُ لغير الله تعالى، وبيان أنه لا يجوز لأحد أن يطلب حَكَمًا في أي شأن من شؤون الحياة من غير كتاب الله وسنة رسوله.

وقضية الحُكْمِ بما أنزل الله تعالى قضيةٌ قديمة متجددة، اهتم بها الإسلام واعتنى بها في مواضع شتى من كتاب الله ﷻ، اهتم بها في بدء الدعوة قبل الهجرة وهو يخاطب

---

(١) قرأ ابن عامر وحفص بفتح النون وتشديد الزاي من (منزل)، والباقون بإسكان النون وتخفيف الزاي.

(٢) «البحر المحيط» (٤/ ٢٠٦).

المشركين، قبل أن تقوم للإسلام دولة، واهتم بها في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ، بعد أن قامت للإسلام دولة.

والحُكْمُ بما أنزل الله سبحانه لا يقتصر على إقامة الحدود بين الناس، وإنما يشمل جميع مناحي الحياة؛ يشمل: المجال الإعلامي، والمجال التربوي، والمجال السلوكي، والعبادة، والعقيدة، وغير ذلك من نُظُمِ الحياة ومنهجها، كما أمر الله سبحانه.

وقد نفى الله ﷻ الإيمان عمَّن لا يرضى ولا يسلِّم بحكم الله ورسوله، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

وسورة الأنعام، نزلت بمكة تخاطب المشركين، وترسي قواعد العقيدة قبل أن يكون للإسلام دولة، وتبين أن الحكم بما أنزل الله يشمل كلَّ صغيرة وكبيرة، بدءًا من العقيدة، وانتهاء بالذبيحة التي يذبحها الإنسان ويأكل منها، أو لا يأكل.

وتُقَدِّم سورة الأنعام صورة لهذا الحكم؛ لبيان أن المسلم لا يرضى ولا يقبل حكمًا غير حُكْم الله ورسوله، وأنه إذا قبل حكمًا غير حكم الله ورسوله؛ فإن ذلك يدخله في دائرة الشرك بالله ﷻ.

ولما قال المشركون للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَمًا من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى، فيخبرونا عنك بما في كتبهم[1]؛ أمر الله تعالى رسوله أن يجيبهم بهذا الجواب: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أغير الله إلهي وإلهكم أطلب قاضيًا يحكم بيني وبينكم؟ وهل ألتمس حكمًا آخر غير القرآن، الذي أنزله الله على نبيه؟ وهو سبحانه لم يترك شيئًا غامضًا، ولم يترك شيئًا بدون تفصيل، فقد بيَّن الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والحلال والحرام، والصغيرة والكبيرة، فسبحانه من حكيم خبير ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ موضحًا فيه الحلال والحرام والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، فلا بيان فوق بيانه، ولا برهان فوق برهانه، وأحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين من واقع البشارات، ومن واقع

(١) «تفسير الألوسي» (٨/٨).

الأدلة التي في كتبهم أنك رسول الله حقًّا، وأن هذا القرآن أنزله الله سبحانه على رسوله ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ وقد تواطأت الأخبار على ذلك.

ثم إن عدم اعتراف اليهود والنصارى بأن هذا القرآن منزل من عند الله سببه الحسد ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي: فلا تكونن من الشاكين في أن بني إسرائيل يعلمون أن هذا القرآن منزل من عند الله.

ولا تكونن -أيها المخاطَب- من الشاكين في أن القرآن من عند الله، وما شك رسول الله ﷺ في شيء ممَّا أنزله الله عليه، كما قال تعالى ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤﴾ [يونس] قال ﷺ: «**لا أشك ولا أسأل**»[1].

وهذا شرطٌ، والشرط لا يقتضي الوقوع، وأهل الكتاب في قرارة أنفسهم يوقنون أن القرآن منزل عند الله، ولكنه العناد والجحود. قال تعالى.

١١٥- ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ[2] رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾

ثم بيَّن سبحانه أن هذا الكتاب كاملٌ في الأزَلِ، ليس فيه نقص ولا تحريف ولا تبديل ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وهي القرآن ﴿صِدۡقٗا﴾ في الأخبار والأقوال ﴿وَعَدۡلٗاۚ﴾ في الأحكام، والأوامر والنواهي، فكلام الله ﷻ هو الصدق، وأحكامه هي العدل، وخبر الله هو الصادق، وحُكْمُ الله هو العادل ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ ولا تغيير لأحكامه ﷻ، فهي مصونة عن التحريف والتبديل إلى يوم القيامة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: والله ﷻ هو الغني عن خَلْقِه، السميع لِمَا يقال، على اختلاف اللغات وكثرة الحاجات، العليم بظواهر الأمور وبواطنها وماضيها ومستقبلها.

---

(١) سنده صحيح، إلى قتادة كما في «تفسير الطبري» عند تفسير الآية (٩٤) من سورة يونس، وهو حديث مرسل أخرجه عبد الرزاق (١/ ٢٩٨) والطبري (٢/ ٢٨٨).

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (كلمت) بغير ألف بعد الميم على التوحيد، والمراد الجنس، وقرأ الباقون (كلمات) بإثبات ألف بعد الميم على الجمع؛ لأن كلمات الله متنوعة أمرًا ونهيًا ووعدًا ووعيدًا، وهي مرسومة بالتاء في جميع المصاحف، فمَن قرأها بالجمع وَقَفَ عليها بالتاء، ومَن قرأها بالإفراد منهم مَن وقف بالهاء؛ وهما الكسائي ويعقوب، ومنهم مَن وقف بالتاء؛ وهم عاصم وحمزة وخلف.

وقد أطلق القرآن لفظ (كلمات) على الكتب المنزلة من عند الله، كما قال تعالى:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ورحمة الله بعباده تشمل العصاة وغيرهم، والله سبحانه قادرٌ على أن يهلكهم ويبيدهم ويستأصلهم، وإنما يتركهم يتنعمون في هذه الحياة، وهو القادر على إهلاكهم وعلى أن يستخلف قومًا غيرهم رحمةً منه سبحانه.

وقد ورد التحصن والتعوذ بكلمات الله التامة في كثير من الأحاديث؛ منها:

١- ما جاء عن ابن عباس ﷺ قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين:

«أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامَّة»

ثم يقول: **«كان أبوكم إبراهيم يُعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق»**[١].

٢- وعن خولة بنت حكيم ﷺ أنها سمعتْ رسول الله ﷺ يقول: **«من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خَلَق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»**[٢].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لقيتُ من عقرب لدغتْني البارحة، قال: **«أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك»**[٣].

رَوَاج الْبَاطِلِ لَا يَجْعَله حَقًّا

١١٦- ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾

---

(١) البخاري (٣٣٧١) وأبو داود (٤٧٣٧) وهذا لفظه، وهو في صحيح أبي داود (٣٩٦٣) وصحيح ابن ماجه (٣٥٢٥)، والترمذي (٢٠٦٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٨٤٤) وابن ماجه (٣٥٢٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٠١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٠٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٢١، ١٠٤٢٨) والبيهقي (٣٦٥، ٤٠٢) والمسند (٢٧١٢٠، ٢٧٣١٠) حديث صحيح والدارمي (٢٦٨٠).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٧٠٨) والترمذي (٢٤٣٧) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٧) وابن ماجه (٣٥٤٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٣٩٤، ١٠٣٩٧).

وإذا كان قول الله هو الحق، وحُكْمه هو العدل؛ فامضِ - يا رسولنا - لِمَا أُمرت به، وبلِّغ رسالة ربِّك، فإن ما يقرره البشر -مهما بلغت كثرتهم- لا يقين فيه، وهو مبني على التكهن، وغالبًا ما يقود إلى الضلال، ولو فُرض أنك أطعتهم أضلوك عن سبيل الله، فإن المؤمنين قلةٌ، وأهل الضلال كثرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات]

وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف]

وقال ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

قال ابن عاشور: والظاهر أن المشركين لما آيسوا من ارتداد المسلمين، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١] أخذوا يُلْقون الشبه والشكوك على المسلمين في أحكام دينهم، كما أشار إليه قوله تعالى بعد الآية السابقة: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[١] [الأنعام: ١٢١].

عن ابن عباس ﷺ قال: أتى أناس النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[٢].

ونحو ذلك مما قاله المشركون، وهم يجادلون النبي ﷺ والمؤمنين حين قالوا لهم: الشاة التي ماتت من نفسها، مَن أماتها؟ قال لهم: **«الله هو الذي أماتها؟»** قالوا: كيف لا تأكلونها وأنتم تدَّعون أنكم تعبدون الله ﷻ، كيف لا تأكلون ما قتل الله -وهي الشاة التي أماتها الله سبحانه- وتأكلون ما قتلتم بأنفسكم، وما ذبحتموه بأيديكم، وما ذَبحت الكلاب والسباع المعلمة؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ على سبيل الفرض والاحتمال، والمراد: مُعظَمُ سكان الكرة الأرضية ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يصرفوك عن طريق الحق ومنهج الصدق؛ وسبب هذه الأكثرية أن الهدى يحتاج إلى عقول سليمة ونفوس فاضلة، تقدِّمُ الحق على الضلال والخير على الشر.

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٨/ ٢٣).

(٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وهو برقم (٣٢٧٧) وأخرجه أبو داود أيضًا في كتاب الأضاحي، باب ذبائح أهل الكتاب برقم (٢٨١٩) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٢٤٤٥) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٥٤).

وهذا لا يتوافر إلا لدى بعض الناس، وأكثر أهل الأرض ضالون، وأكثر أهل الأرض هم أهل الشرك والكفر الذين استحبوا العمى على الهدى، فإن أكثرهم قد انحرفوا في شرائعهم وأعمالهم وعلومهم.

ولذا: فإنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لطريق الحق على ضلاله.

ثم بيَّن سبحانه أنّ سبب الضلال هو الهوى واتباع الظن فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وليسوا على بصيرة في دينهم، بل يُقلِّدُون أسلافهم ويتبعون ظنونهم الكاذبة، وهذا الحكم القطعي بضلال أكثر أهل الأرض، تؤيده تواريخُ الأمم كلها، ومن ذلك أن أهل الكتاب تركوا هداية أنبيائهم وضلوا ضلالًا بعيدًا، وكذلك الأمم الوثنية فهم أبعد ما يكون عن هداية الرسل، وهذا إعلام من الله لرسوله، وهو النبي الأمي الذي لا يعلم إلا شيئًا قليلًا من شؤون الأمم المجاورة لبلاد العرب خاصة[1]. قال تعالى:

١١٧- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

ثم يؤكد الله سبحانه مضمون الآية السابقة، ويقرر ما فيها؛ بأنه جل شأنه لا تخفَى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو أعلم بمَن ضلَّ عن طريق الحق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فخرج عن طريق الرشاد واتبع هواه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: وهو سبحانه أعلم منكم ومنهم بمَن كان على استقامة وسداد، وكلٌّ ميسرٌ لما خُلِقَ له، لا يخفَى عليه منهم أحدٌ، فأخبر سبحانه أنه أعلم بالضال والمهتدي، وأنه يجازي كلًّا بما يستحق، فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا أوامره ونواهيه، لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

وفي الآية بيانُ أن هُدى الإسلام هو الهدَى، وأن الضالين لا حظَّ لهم في ذلك؛ لأنهم لم يأخذوا بمنهج الله ورسوله، وعِلْمُ الناس بالضالين والمهتدين عِلْمٌ قاصر؛ لأنهم يعرفون أحوال بعض الناس، ويجهلون الكثير منهم، أما عِلْمُ الله تعالى فهو محيطٌ بالكون كلِّه من أقصى الدنيا إلى أقصاها، لا يعزب عن علمه شيء ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان].

---

(١) ينظر: «تفسير المنار» (٧/ ١٦).

قَضِيَّةُ الذَّبَائِحِ وَرَبْطُهَا بِالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ

١١٨- ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

وبعد هذا التمهيد ببيان أن أكثر أهل الأرض يتبعون الظن في أحكامهم، وأكثرهم يخطئ الطريق ويضل عن الهدى، تأتي قضية ذَبْحِ الأنعام وربطها بالإيمان والكفر، وفيها الجواب عن قول المشركين للمسلمين: أتأكلون ممَّا قتلتم،ولا تأكلون مما قتل ربُّكم؟فيأمر سبحانه بأكل ما ذُكِرَ اسم الله عليه من الذبائح والمطعومات، ويشترط لذلك التصديق ببراهين الله الواضحة والإيمان بها.

فالآية تخاطب المؤمنين، ولا قصد فيها سوى ترك التسمية عمدًا أو سهوًا.

قال عطاء: هذه الآية أَمْرٌ بذكر اسم الله تعالى على الطعام والشراب والذبح وكل مطعوم إن كان المؤمنون آخذين بحكم الله[1].

قال سبحانه: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: كلوا ممَّا ذبحتم بأيديكم، وذكرتم عليه اسم الله سبحانه، من بهيمة الأنعام وغيرها مما أحله الله لكم.

ومفهوم المخالفة في الآية: ولا تأكلوا ممَّا لم يُذْكَر عليه اسم الله عند ذبحه، كما يفعل الكفار في أكل الميتة ونحوها، فعلامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية بذكر اسم الله تعالى على الذبائح.

جاء في **أسباب النزول** أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: أخبِرْنا عن الشاة إذا ماتت، مَن قتلَها؟ فقال: «**الله قتلها**» قالوا: فتزعُم أن ما قتلْتَ أنت وأصحابك حلال، وما قتل الصقْر أو الكلاب حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله تعالى ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾[2].

وقال عكرمة: إن المجوس من أهل فارس -لما أنزل الله تحريم الميتة- كتبوا إلى مشركي قريش، وكانوا أولياءهم في الجاهلية، وكانت بينهم مكاتبة: إن محمدًا وأصحابه،

---

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٣٨).

(٢) الواحدي في «أسباب النزول» وهو في «الدر المنثور» (٣/ ٤٢) وقد أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك.

يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال، وما ذبح الله فهو حرام، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

فأَمَرَ سبحانه بأكل ما ذُكِرَ اسم الله عليه، وترك ما لم يُذْكَر اسم الله عليه، مما مات حتف أنفه، أو ذكر عليه اسم مع اسم الله تعالى، أو ذُبِحَ لغيره سبحانه، ولا ينبغي مخالفة المشركين في ذلك، فإن هذا من تخرصاتهم، وممَّا تُوحي به الشياطين إليهم، وكان شعارُ أهل الشرك ذكر اسم غير الله على معظم الذبائح، والأمر في الآية للإباحة.

وترك التسمية، سهوًا، يدخل في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وفي الحديث عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[2].

وجمهور أهل العلم على أن الذبيحة إذا لم يُذكر عليها اسم الله عند ذبحها عمدًا؛ فهي ذبيحة محرمة، لا يحل أكلها، وكذا ما ذبح على النصب، وما ذبح على غير اسم الله؛ فإنه لا يحل، ولا يجوز أكله.

وإذا ذبحها مسلم وترك البسملة سهوًا؛ فإن ذلك لا يضر عند جمهور أهل العلم.

وبعض الفقهاء يقول: إن الذبيحة إذا لم يذكر عليها اسم الله، عمدًا أو سهوًا، ولو كان الذابح لها مسلمًا؛ فإنها لا تحل أخذًا من ظاهر الآية.

وبعضهم قال: إن التسمية مستحبة، فتركها عمدًا أو نسيانًا لا يضر.

واللحوم المستوردة ممَّا يدخل في هذه الآية؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥] فذبائح اليهود والنصارى تحل لنا؛ لأن أصل ديانتهم صحيحة، قبل التحريف للتوراة والإنجيل.

---

(١) «تفسير الطبري» (٨/ ١٣) و«زاد المسير» (٣/ ١١٤) وقد أخرجه أبو داود في ناسخه كما في «الدر المنثور» (٦/ ١٨٦).

(٢) روي هذا الحديث من طرق متعددة عند ابن ماجه في «السنن» وهو عن ابن عباس برقم (٢٠٤٥) ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٣٥٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٥٢) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤) ومشكاة المصابيح (٦٢٨٤) والروض النضير (٤٠٤) وإرواء الغليل (٨٢).

ولا تَعَارُضَ بين حلِّ طعام أهل الكتاب، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه؛ لأن أهل الكتاب يُوحِّدُون الله ﷻ في الأصل، قبل ما انتهوا إليه من الشرك والكفر، وهم يعترفون بالله ربًّا.

في صحيح البخاري عن عائشة ﵂ قالت: قلت يا رسول الله، إن هناك أقوامًا حديثو عهد بشرك، يأتوننا بلحم، فما ندري، أيذكرون اسم الله عليها أم لا؟ قال: **«اذكروا أنتم اسم الله، وكلوا»**[١].

فلو كانت التسمية شرطًا في الإباحة؛ لكان الشك في وجودها مانعًا من أكلها، كالشك في أصل الذبيحة.

وأما الذبائح التي ترد من جهات إلحادية أو شيوعية كافرة لا تؤمن بأن لهذا الكون ربًّا، فإنها ذبائح لا تحل، ولا يجوز أكلها، والذبائح التي يُعلم من مصدر أكيد أنها صُعقت، ولم يذكر عليها اسم الله ﷻ، أو ماتت بكيفية ما، إذا عُلم هذا من طريق قطعي لا يحل أكلها، ولو كان الذابح لها مسلمًا. قال تعالى:

١١٩- ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ[٢] لَكُم مَّا حَرَّمَ[١] عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ[٣] إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ[٤] بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

ثم يتساءل القرآن الكريم منكرًا على مَن تردد في أكل ما أحله الله من الطعام؛ لأنه لم يتعود ذلك من قبل فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأيُّ شيء يمنعكم - أيها المسلمون - من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه؟ وقد جعله الله حلالًا، وبيَّن ما

(١) البخاري (٧٣٩٨) وانظر (٥٠٥٧).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (فُصِّل لكم ما حُرِّمَ) بضم الفاء والحاء وكسر الصاد والراء على البناء للمفعول، وقرأ نافع وحفص وأبو جعفر ويعقوب (فَصَّل لكم ما حَرَّمَ) بفتح الفاء والصاد من (فصل) وفتح الحاء والراء من (حرم) على البناء للفاعل، وقرأ الباقون وهم شعبة وحمزة وخلف والكسائي العاشر (فَصَّلَ لكم ما حُرِّمَ) ببناء الأول للفاعل، وبناء الثاني للمفعول.

(٣) قرأ ابن وردان بخلف عنه بكسر الطاء من (اضطررتم إليه)، والباقون بضمها، وهو الوجه الثاني لابن وردان.

(٤) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الياء من (ليضلون) مضارع (أضل)، والمفعول محذوف؛ أي: يضلون غيرهم، وقرأ الباقون بفتح الياء، مضارع (ضل) أي: ضل نفسه وأضل غيره.

حرم عليكم، وقد فصَّل لكم ذلك في القرآن، وأزال عنكم اللبس والشك، وهو ما فصلته آية سورة المائدة في قوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة].

هذه العشر المحرمات من الذبائح هي الموضَّحَةُ في هذه الآية، وذلك وَفْق علم الله تعالى، وسورة المائدة قبل سورة الأنعام في ترتيب المصحف؛ لأن سورة المائدة مدنية، وسورة الأنعام مكية، وكما قال سبحانه في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام]

وفي تحريم ذلك من الأضرار الصحية والطبية ما لا يتسع له المقام.

وممَّا ورد في سبب **نزول** هذه الآية: أن المسلمين كانوا يتحرجون من أَكْلِ الطيبات تقشُّفًا وتزهُّدًا، ومن ذلك أكل اللحم، ولَمَّا حرَّم الله الميتة، وقال المشركون: أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله؟ أنزل الله هذه الآية؛ ليُبطل قياس المشركين، ويبيِّن الفَرْقَ بين الميتة التي حُبس فيها الدم ولم يذكر عليها اسم الله، وبين المذكَّى الذي ذبح بطريقة شرعية فسال منه الدم، وذكر عليه اسم الله، وهو فارقٌ كبيرٌ.

ثم شرع سبحانه في بيان حالة الضرورة فقال: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ فمَن اضطر لسدِّ مجاعته؛ خوفًا من موت يأتيه، أو ضرر بالغ محقق يلحق به، فلا حرج ولا إثم عليه في تناول ما يرفع عنها الضرر، ويسد الرمق، دون زيادة على ذلك، كما قال تعالى:
﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ثم يبين سبحانه أن هؤلاء المشركين جُهَلاء في استحلالهم ما حرم الله، وأنهم يشرِّعون لأنفسهم بمقتضى أهوائهم بغير علم ولا اتباع شرع، منهم عمرو بن لُحي، فهو أول من بحَر البحيرة، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وأباح الميتة، وغيَّر دين إبراهيم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ فيحلون الحرام ويحرمون الحلال، فلا تستمعوا إلى الشبهات التي يثيرها الكفار ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الذين تجاوزا الحد، وسوف يحاسبهم ويجازيهم، وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم.

وقد دلت الآية، على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، ما لم يرد الشرع بتحريمه، وقد فصّل الله الحرام وبيّنه، وما سكت عنه الشرع فهو حلال أيضًا. قال تعالى.

١٢٠- ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

ثم يحذِّرُ سبحانه من مغبة هذا الإثم، الذي يفترونه، بتحريم ما أحل الله، وينهاهم عن الأكل ممَّا لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح، ممَّا ذبح على أسماء آلهتهم، أو الميتة ونحوها، ويأمرهم أن يتركوا جميع المعاصي سرَّها وعلانيتها؛ لأن الذين يكسبون المعاصي سيعاقبهم ربهم؛ بسبب ما عملوه من المعاصي.

وهذه الآية عامة في تحريم المعاصي والآثام صغيرها وكبيرها، ما ظهر منها وما بطن، وما قلّ منها أو كثُر، من أعمال القلوب أو أعمال الجوارح، ما كان منها سرًّا أو جهرًا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف]. ويستوي في ذلك ما يتعلق بحقوق الله تعالى وما يتعلق بحقوق العباد.

ومن المعاصي القلبية: الكبر والعجب والرياء والخيلاء.

ولمَّا سئل النبي ﷺ عن الإثم قال: **«الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»**[1].

وفي ختام الآية بيَّن سبحانه عاقبة المرتكبين للآثام والأعمال القبيحة، وأن ربهم سيحاسبهم على ما اجترحوا من سيئات، ويجازيهم بما يستحقون، قال تعالى:

١٢١- ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ[2] وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

---

(١) والسائل هو النواس بن سمعان، كما في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٣).

(٢) وصل ابن كثير الهاء من (عليه) بحرف مد، فيمدها مدًّا طبيعيًّا.

١- ثم نهى سبحانه المسلمين أن يأكلوا من الذبائح التي ذُبحت للأوثان أو للجن أو أصحاب القبور ونحو ذلك.

٢- وكلُّ ما لم يُذكر عليها اسم الله، كالميتة والمنخنقة.

٣- ويدخل في ذلك متروك التسمية عمداً مما ذبح لله،كالضحايا أو الهدايا، وما كان للأكل منها، وبيَّن جل شأنه أن الأكل منها خروجٌ عن طاعة الله تعالى، فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وهذا نهي عام عن أكل الميتة ونحوها، وعن أكل ما تُركت التسمية عليه من الذبائح، وعن كلِّ ما ذُبَحَ لغير الله.

قال عكرمة: كتبتْ فارس إلى قريش: إن محمدًا وأصحابه لا يأكلون ما ذبحه الله، ويأكلون ما ذبحوا لأنفسهم، فكتب المشركون إلى أصحاب النبي ﷺ بذلك، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيءٌ؛ فنزلت الآية[1] وقد ذكر هذا السبب في الآية ١١٨.

وهذه مقولة فاسدة لا تستند إلى حجة ولا دليل ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]

والمراد بالفسق، خصوص ما أُهِلَّ به لغير الله، كما جاء ذلك مفسرًا به في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥] فهو مجمل مفصل به

وقد أفادت الآية النهي والتحذير من أكْل ما ذُكِرَ غير اسم الله عليه.

كما نهت عن أكل ما لم يُذكر عليه اسَم الله قصدًا وتجنُّبًا لذكره عليه، وهذه مسألة مختلف فيها بين الفقهاء على **أقوال ثلاثة**:

الأول: أن المسلم إن نسي التسمية على الذبح تؤكل ذبيحته، وإن تعمد تَرْكَ التسمية عليها قصْدًا أو تجنبًا لم تُؤكل.

ومن هذا القبيل تَرْكُ التسمية على الذبائح التي تذْبح للجن، وهي ذبائح محرمة؛ لأنها ذُبحت لغير الله، وتركت التسمية عليها؛ لأن الجن تنفُر من اسم الله، ويُفعل هذا خوفا من الجن في بعض بلاد المسلمين، ودليلُ هذا القولِ ظاهرُ الآية، وتقييده بالنسيان إعمالًا لقاعدة رفع الحرج عن الناس، والجاهل كالناسي.

الثاني: أن المسلم إذا ترك التسمية كسلًا وتثاقُلًا، وليس استخفافًا ولا تجنُّبًا ولا

---

(١) «زاد المسير» (٢/ ١١٤) و«تفسير الخازن» (٢/ ٤٩) وابن كثير (٢/ ٣٢٩) وهو في «المعجم الكبير» للطبراني (١١/ ٢٤١).

سهوًا؛ ففي ذلك روايتان:

إحداهما: أنه يجوز أكل الذبيحة مع الإثم على تعمد تركها تثاقُلًا، ومعلوم أن ترك التسمية استخفافًا أشد إثمًا.

وثانيهما: أنه لا يجوز أكلها.

وتعمُّدُ ترك التسمية إرضاء للجن أو غيره- حُكْمُه حكم التسمية لغير الله، وهؤلاء حملوا الآية على الذبح لغير الله، واستدلوا بحديث مرسل يقول: «**ذبيحة المسلم حلال ذَكَر اسم الله أو لم يذْكُر**»[١].

الثالث: أن الذبيحة التي لم يذكر عليها اسم الله لا يجوز أكلها، سواء تُركت التسمية عمدًا أو سهوًا، ودليلهم هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤] وأحاديث، منها حديث عائشة ﷺ «**إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك**»[٢].

وحديث رافع بن خديج أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه**»[٣]، فقالوا: إن التسمية لا بد منها لذلك.

ثم بيَّن سبحانه أن مردة الجن يُلقون إلى أوليائهم من شياطين الإنس بالشبهات حول تحريم أكل الميتة ونحوها، فيأمرونهم أن يقولوا للمسلمين في جدالهم معهم: إنكم بعدم أكلكم الميتة لا تأكلون ما قتله الله، بينما تأكلون ما تذبحون بأيديكم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾، بغير علم.

ثم بيَّن سبحانه أن من اتبع غير دين الله فقد أشرك بالله، فإن أطعتموهم - أيها المسلمون - في تحليل الميتة ونحوها، وساعدتموهم على باطلهم، واستحلال الحرام -فأنتم وهم في الشرك سواء ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في تحليل الحرام، وتحريم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأنكم

---

(١) مراسيل أبي داود برقم (٣٧٨) و«سنن النسائي الكبرى» (٩/ ٢٤٠) ويشهد له حديث الدارقطني برقم (٤/ ٢٩٥).

(٢) ينظر الحديث في «البخاري» برقم (١٧٥) ومواضع أخرى كثيرة منها (٢٠٥٤، ٧٣٩٧) ومسلم (١٩٢٩).

(٣) ينظر الحديث في «البخاري» (٢٤٨٨) ومواضع كثيرة منها (٥٥٤٣، ٥٥٤٤) ومسلم (١٩٦٨) وغير ذلك.

اتخذتموهم أولياء من دون الله، وفيه دليلٌ على أن مَن حرَّم شيئًا ممَّا أحله الله، أو حرم شيئًا أحله الله فقد أشرك بالله؛ لأنه اتخذ حاكمًا غير الله، وعَدَلَ به عن أَمْرِ الله وشرعه.

وهذا هو ما جاء في حديث عدي بن حاتم حين بيَّن له النبي ﷺ أن طاعة الأحبار والرهبان في التحليل والتحريم بغير ما شرع الله هي عبادة لهم، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

١٢٢- ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا[1] فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

هذا مثل للإيمان والكفر، بعد أن أمر الله المؤمنين بترك ظاهر الإثم وباطنه، ونهَى الكافرين أن يَضِلوا في أنفسهم، أو يُضِلوا غيرَهم، فضرب مثلاً للفريقين شبَّه فيه المؤمنين بالأحياء، وشبَّه الكافرين بالأموات، وبيَّن أنهم في جهل وحيرة وظلمات لا يمكنهم الخروج ممَّا هم فيه.

فالآية تخاطب أهل الشرك، وتبين أن المؤمن في نظر الإسلام هو الحي، والكافر هو الميت؛ لأن الكفر انقطاع عن الحياة الأزلية الأبدية، والإسلام اتصالٌ بها، يقول سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ كافرًا أعمى البصيرة ضالًّا في ظلمات الجهل والمعاصي ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بالإسلام، وأنقذناه بالقرآن ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ هو الإسلام والقرآن أي نور العلم والإيمان والطاعة ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ مهتديا متبصرا لأن الإسلام يخرجه من الظلمات إلى النور ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ باقيًا على كفره، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ يتخبط في الظلمات، أفيستوي هذا بمن هو في الضلال والجهالة والعمى والكفر والمعاصي فلا يَعْرِف له مَنْفَذًا ولا مخرجًا، قد التبست عليه الطرق وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك والمعاصي، فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ويزينها في قلوبهم حتى استحسنوها ورأوها حقا، والآية عامة في كل مؤمن وكافر.

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر (مَيِّتًا) بتشديد الياء مع كسرها، والباقون (مَيْتًا) بتخفيف الياء مع سكونها.

وفي **سبب النزول** أقوال؛ منها:

١- أن النبي ﷺ دعا ربه قائلًا: **«اللهم أعزَّ الإسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب، وعمْرو بن هشام -أبو جهل-»** فأحيا الله سبحانه قلب عمر بن الخطاب بالإيمان، أحياه من كفره، ومن ضلاله، وأدخله في الإسلام، وبقي أبو جهل في كفره وفي ظلماته، فهل يستوي عمر بن الخطاب مع أبي جهل[١]؟

أو هل يستوي حمزة بن عبد المطلب حين أسلم مع أبي جهل في كفره؟ وهل يستوي عمار بن ياسر حين أسلم مع مَن بقي في ضلاله؟ أو هل يستوي رسول الله ﷺ مع أئمة الكفر؟ وهكذا ترد الآية.

٢- قال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وأبا جهل، وذلك أن أبا جهل رمَى رسول الله ﷺ بفَرْثٍ، وحمزة لم يؤمن بعد، فأُخبَر حمزة بما فعل أبو جهل، وهو راجع من قَنْصه وبيده قَوْس، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس، وهو يتضرع إليه ويقول: يا أبا يعلى، أما ترى ما جاء به؟ سفَّه عقولنا، وسبَّ آلهتنا، وخالف آباءنا، قال حمزة: ومَن أسْفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله، أشهد أن لا إله إلا الله، لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله؛ فأنزل الله الآية[٢].

٣- وعن زيد بن أسلم والضحاك قالا في قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ قالا: عمر بن الخطاب ﷺ ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ قالا: أبو جهل بن هشام[٣].

وإذا كانتِ الآية قد نزلتْ في حمزة وأبي جهل، أو عمر وأبي جهل، أو عمار بن ياسر، أو غيرهم، فإنها عامة في كلِّ مؤمن هداه الله للإيمان ونوَّر قلبه وبصيرته، وكل كافر بَقِيَ على ضلاله مُؤْثِرًا الكفر على الإيمان، ويدخل في ذلك دخولًا أوَّليًّا أصحاب السبب الخاص لنزول الآية.

---

(١) ينظر حديث ابن عمر في «صحيح سنن الترمذي» (٢٩٠٧) والترمذي (٣٦٨١) وقال حديث حسن صحيح غريب و«المسند» (٥٦٩٦) وابن أبي حاتم (٧٨٥٤) وابن حبان (٦٨٨١) والحاكم (٣/ ٨٣).

(٢) «أسباب النزول» للواحدي ص١٨٩، والسيوطي (١٢١) و«زاد المسير» (٣/ ١١٦).

(٣) «تفسير الطبري» (٨/ ١٧) وابن أبي حاتم (٧٨٥٢، ٧٨٦٣).

ومعناها: أوَمن كان ميتًا في الضلالة، هالكًا حائرًا في ظلمات الكفر، فأحيينا قلبَه بالإيمان، وهديناه له، ووفقناه لاتباع رسل الله؛ فأصبح يعيش في أنوار الهداية، كمَن مثلُه في الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، لا يهتدي إلى منقذ، ولا مخلِّص له مما هو فيه؟ لا يستويان.

وقد نَفَى القرآن الكريم المساواة بين أهل الهدى وأهل الضلال في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة]

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ [الرعد: ١٦]

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ [فاطر]

وقوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك].

ثم بيَّن سبحانه أن بقاء الكافر على كفره؛ سببه أن الشيطان قد زيَّن لهم أعمالهم، وحسَّنها في أعينهم وكان خذلان الكافر وتزيين سوء عمله له وفقًا لهواه واختياره، فلذلك رضوا بماهم عليه من الشر والقبائح.

أي: وكما خذلْتُ هذا الكافر الذي يجادلكم - أيها المؤمنون -؛ فزينتُ له سوء عمله، فرآه حسنًا، زينتُ للجاحدين أعمالهم السيئة؛ ليستوجِبُوا بذلك العذاب، وكان ذلك بناءً على فساد فطرتهم واختيارهم طريق الضلال.

رُؤُوسُ الْكُفْرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ

١٢٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَاۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أنه كما جعل في مكة صناديد من الكفار، فإنه جعل في كل قرية وكلِّ مدينة في العالم أكابر ورؤساء وقادة من المجرمين يدعون إلى الكفر والضلال؛ لأنهم أقدر على المكر والخديعة وتزيين الباطل من غيرهم.

والقرية في القرآن: هي العاصمة، وهي المدينة الكبرى، وسميت مكة قرية وأم القرى،

والمراد العاصمة الكبرى للإسلام.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ أي: وضعنا فيها من السنن الكونية، ومن خَلْق أسباب الشر والخير في كل مجتمع، جعلنا فيها ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ والمراد: الأكابر من الكفار ومن المجرمين في كل زمان ومكان ممَّن يتزعمون الحيل للصد عن سبيل الله، وهذا معنى ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾ أي: بدعوة الناس إلى الضلال وبالخديعة ومحاربة الرسل وأتباعهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣١]

قال تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: ما يحيق هذا المكر إلا بهم، فوبالُه عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وما يدري هؤلاء أنهم يحملون أوزار غيرهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا موجود في كل زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ]

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف]

فلا تيأس أيها الداعية إلى الله؛ بسبب ما يلحق بك من أذًى، لا سيما من زعماء الإلحاد وأئمة الضلال، فإن هذا شأن الناس قديمًا وحديثًا، وكبراؤهم وزعماؤهم هم أشد الناس عداوةً للرسل والدعاة والمصلحين. قال تعالى:

١٢٤- ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ[1] سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

ثم كشف سبحانه عن كِبْرِ المشركين، وبيَّن أن الذي منعهم من الإسلام هو حرصهم

(١) قرأ ابن كثير وحفص (رسالتَه) بغير ألف بعد اللام ونصب التاء على الإفراد، والباقون (رسالَاتِه) بإثبات الألف وكسر التاء على الجمع.

على الاحتفاظ لأنفسهم بامتياز ذاتيٍّ، وألا يكونوا من أتباع محمدٍ ﷺ.

قال الوليد بن المغيرة للنبي ﷺ: لو كانت النبوة حقًّا لكنتُ أَوْلَى بها منك؛ لأني أكبر منك سنًّا، وأكثر منك مالًا؛ فأنزل الله الآية، وهذا كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف] ويريدون بالقريتين مكة والطائف، وبالرجلين سيد قريش، وسيد ثقيف، أبا جهل، وعروة بن مسعود الثقفي.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١)﴾ [الفرقان]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)﴾ [الأنبياء].

وقال أبو جهل: زاحمْنا بنو عبد مناف في الشرف، حتى صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يُوحَى إليه، والله لا نؤمن به، ولا نتبعه أبدًا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فأنزل الله الآية[1]، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ أي: إذا تُليت عليهم آية من آيات القرآن تدعوهم إلى الإيمان، لم يقتنعوا بمعجزة القرآن، وطلبوا معجزاتٍ أخرى حسية؛ كمعجزة موسى وعيسى وصالح، كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ [العنكبوت].

والسبب في ذلك هو جهلهم بما يناسب حال الأمم وحال الرسل من المعجزات؛ ولذا جاء الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ما من نبي من الأنبياء إلا أُعطي من الآيات ما مِثْلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحيًا أوحاه الله إليَّ وأرجو أن أكون أكثرهم تبعًا يوم القيامة»**[2].

---

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (٢/ ٨٦).

(٢) البخاري (٤٩٨١، ٧٢٧٤) ومسلم (١٥٢) و«المسند» (٨٤٩١، ٩٨٢٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٩٧٧) والبغوي (٣٦١٥) والبيهقي (٩/ ٤).

وعن اعتراض الكفار على خاتم الرسل ﷺ يقول تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ [المدثر] وعلى هذا فيكون المراد بقولهم: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: حتى يأتينا وحي كالذي نزل على محمدٍ، وكانوا غير معترفين بالوحي المنزَّل عليه، فكانوا يتهكمون به، وينسبون محمدًا ﷺ إلى الجنون.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر].

وقد أفادتِ الآية بأن الرسالة لا تُنال بالأماني ولا بالتشهي، ولكن الله تعالى يعلم مَنْ يَصْلُحُ لها ومَن لا يَصلح، فإن النفوس متفاوتة في قبول الفيض الإلهي والاستعداد له، بالقرب من طبيعة الملائكة والبعد عن الرذائل الحيوانية، والله تعالى يخلق الرسل مزوَّدين بطاقات مناسبة لمراد الله تعالى من رسله، مهيئين للاصطفاء وتَلَقِّي الوحي من الله سبحانه.

ومعنى ﴿قَالُوا﴾ أي: قال بعض كبرائهم لبعض: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ أي: لن نصدق بنبوة محمدٍ ﷺ ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: حتى يعطينا الله من المعجزات والنبوة مثل ما أعطى الله رسله السابقين، أو تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما قال الله تعالى على لسانهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] قال تعالى في الرد عليهم مخبرًا أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلا أن يكونوا من النبيين والمرسلين: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فهو سبحانه أعلم بمَن يستحقها فيشرفه بها؛ ليحمل رسالته ويبلغها للناس، وهو أعلم بالمعجزة المناسبة لكلِّ رسول ولكل أمة، فالرسالة المؤقتة غير الرسالة الدائمة.

وقد اعترف رئيس كفار مكة بأن محمدًا ﷺ من أشرف القوم نسبًا، كما جاء في حديث هرقل حين سأل أبا سفيان: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه»**[1].

---

(١) البخاري (٦/٥٦٦) برقم (٣٥٥٧).

وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**[١].

ثم يأتي التهديد والوعيد بالعذاب الشديد لهؤلاء الطغاة بالذل والهوان والصغار في الدنيا والآخرة ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: سيصيبهم ذل وهوان في الدنيا ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ يوم القيامة؛ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ بسبب عتوهم وتكبرهم؛ لأنهم تمردوا على رسل الله وكذبوهم، وهذا أمرٌ مقدَّرٌ عند الله تعالى، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمران أن رسول الله ﷺ قال: **«ينصب لكلِّ غادرٍ لواءٌ عند استه يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان»**[٢].

والحِكْمَةُ في هذا أن الغدر كان خفيًّا في الدنيا فينشر يوم القيامة.

عَلَامَة الإيمَانِ وَعَلَامَة الكفْرِ

١٢٥ - ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا[٣] حَرَجًا[٤] كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ[٥] فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

---

(١) مسلم (٤/ ١٧٨٢) برقم (٢٢٧٦) وهذا لفظه، و«المسند» (٢/ ٣٧٣) برقم (١٦٩٨٦)، بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٦١) والترمذي (٣٦٠٦) وأبو يعلى (٧٤٨٥) والبغوي في شرح السنة (٣٦١٣).

(٢) البخاري في الفتن (١٣/ ٦٨) برقم (٣١٨٨، ٦١٧٨، ٦٩٦٦، ٧١١١) ومسلم في الجهاد (٣/ ١٣٥٩) برقم (١٧٣٥) من حديث عبد الله بن عمر.

(٣) قرأ ابن كثير (ضَيْقًا) بسكون الياء، والباقون (ضَيِّقًا) بتشديد الياء، وهما لغتان، وقيل: التشديد في الأجرام والتخفيف في المعاني.

(٤) قرأ نافع وشعبة وأبو جعفر بكسر الراء من (حَرِجًا)، والباقون بفتحها (حَرَجًا) وهما بمعنى واحد، وقيل: المفتوح مصدر والمكسور اسم فاعل، وقيل: المكسور: أضيق الضيق.

(٥) قرأ ابن كثير (يَصْعَدُ) بإسكان الصاد وتخفيف العين، مضارع صعد بمعنى ارتفع، وقرأ شعبة بتشديد الصاد وألف بعدها وتخفيف العين وأصلها يتصاعد، أي: يتعاطى الصعود ويتكلّفه وأدغمت التاء في الصاد (يَصَّاعَدُ)، والباقون (يَصَّعَّدُ) بفتح الصاد مشدودة وحذف الألف وتشديد العين، مضارع (تصعَّد) أي: تكلف الصعود.

ثم بيَّن سبحانه علامة السعداء والأشقياء ،وبيّن حال المستعد للهدى والمستعد للضلال، ووصف الحالتين داخل القلوب والنفوس،وما علامة الإيمان وعلامة الكفرفي هذه الآية.

والمراد **بالهدى**: خَلْقُ الإيمان وإيجاده في قلب العبد.

والمراد **بشرح الصدر**: تسهيل الإيمان وتحبيبه وإعداد القلب لقبوله وتحصيله.

والآية نص على أن الله تعالى يريد هدى المؤمن وضلال الكافر، بالإرادة القديمة الأزلية، فمن يشأ الله أن يوفقه لقبول الحق يشرح صدره للتوحيد والإيمان، ومن يشأ أن يضله يجعل صدره شديد الانقباض عن قبول الهدى كحال من يصَّعد في طبقات الجو العليا، فيصاب بضيق شديد في التنفس، وكما يجعل الله صدر الكافر شديد الضيق والانقباض، يجعل العذاب على غير المؤمن ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ حيث يتسع القلب وينفتح، ويقبل الهدى والنور، فيتلذذ به ولا يستثقل، وينشرح لها صدره، ويشكرك على أنك أسديت إليه نصيحة، أما غير هذا النوع من الناس فإنه يَضل ويتبرَّم ويضيق صدره، ولا يقبل منك نصيحة ولا هداية.

وقيل: إن الهدى نور يقذفه الله سبحانه في قلب العبد، فينفتح له الصدر ويتسع، ويقبل الإرشاد والإيمان، وعلامة هذا النور الذي يقذفه الله في القلب: الإنابة إلى دار الخلود بالإقبال والرغبة فيما عند الله ﷻ، والإكثار من العمل الصالح، والتجافي عن دار الغرور بالزهد في الدنيا، وعدم الركون إليها، وعدم الاهتمام بها، والاستعداد للموت قبل النزول، أي: قبل أن ينزل به الموت، فإنه يستعد للدار الآخرة، هذا علامة الهدى والإيمان الذي يقذفه الله سبحانه في قلب العبد.

﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ أي: يجعل صدره ضيقًا منغلقًا لا يقبل هدى، قد انغمس في الشهوات والشبهات، فلا ينشرح قلبه لفعل الخير، لأنه قد سد على نفسه باب الرحمة والإحسان، فهو لا يقبل أمرًا بمعروف ولا نهيًا عن منكر، وهو كمن يكلَّف الصعود إلى جبل، أو إلى أعلى فيصعب عليه، أو كمن يكلف شيئًا شاقًّا وعملًا كبيرًا يشق عليه، وكأنه ارتفع إلى مكان عالٍ: فانقطع عنه الهواء أو قلَّ ، فنفْسُه تتحشرج، وكأن روحه ستخرج، ويضيق به النفَس، ويقلُّ عنه

الهواء، فيكاد يختنق ويموت، وهذه حقيقة علمية ثابتة من إعجاز القرآن الكريم، أخبر بها الله ﷻ في هذه الآية وقد تحدث عنها كثير من أهل العلم.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر].

وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل]

عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ قالوا: يا رسول الله، وكيف يشرح صدره؟ قال: **«يدخل فيه النور فينفسح»**، قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: **«التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل أن ينزل»**[١].

وقال ابن مسعود: إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوْه سيئًا فهو عند الله سيئًا[٢].

والقلب الضيق الحرج: هو الذي ليس للخير فيه منفذ، فلا يصل إليه شيء من الخير. ولما كان القلب محلًا للعلوم والاعتقاد، وصفه الله تعالى بالانشراح والضيق، بحيث

---

(١) روي من عدة طرق مرسلة ومتصلة، وهو في الطبري (١٢/ ١٠٠) وفي «سلسلة الأحاديث الضعيفة» للألباني برقم (٩٦٥) وهو في «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢١٠) عن أبي جعفر، و«تفسير الطبري» (١٢/ ٩٨) والبيهقي في «الزهد الكبير» برقم (٩٧٤) من طريق زيد بن أبي أنيسة، وفي «شعب الإيمان» برقم (١٠٥٥٢) وعند الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣١١) والصواب في هذا الأثر أنه مرسل.

(٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن (٣٦٠٠)، لأن فيه عاصم بن أبي النجود وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن عياش فمن رجال البخاري (محققوه) وأخرجه بنحوه أبو داود الطيالسي (٢٤٦) والطبراني في الكبير (٨٥٨٣) والبغوي في شرح السنة (١٠٥).

يقبل ما أودعه الله فيه من الإيمان أو الكفر، وفق توجُّه فطرة العبد واستعدادها إلى الهدى أو الضلال ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كذلك يجعل الله العذاب في الآخرة على الذين لا يؤمنون؛ لأن المرض قد رسخ في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة].

هذا: والهداية لفظ مشترك له **ثلاثة معانٍ**:

المعنى الأول: أنه بمعنى الدعوة إلى الخير وقبول الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

المعنى الثاني: إرشاد المؤمنين إلى العمل المفضي إلى دخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد].

المعنى الثالث: خلق الهدى وإيجاده في قلب العبد، كقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. إلا أن هذا الإيمان الذي يخلقه الله في قلب العبد يكون وفق ميوله وتوجُّهه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقد علم الله منهم ذلك في الأزَل فقدَّره عليهم.

ورد أن جماعة من الصحابة قرؤوا أمام عمر ﷺ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرِجًا﴾ بكسر الراء، فقال عمر: يا فتى، لرجل من كنانة، ما الحرِجة فيكم؟ قال: الحرِجة فينا: الشجرة تكون بين الأشجار التي لاتصل إليها راعيةٌ ولا وحشيةٌ، فقال عمر: كذلك قلب المنافق، لا يصل إليه شيء من الخير[1]. قال تعالى:

١٢٦- ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ[2] رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

---

(١) «تفسير الألوسي» (٨/ ٢) وقد أخرجه ابن أبي حاتم (٧٨٢٢، ٧٨٧٤، ٧٨٧٧) وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ والطبري عن أبي الصَّلْت الثقفي.

(٢) قرأ قنبل ورويس بالسين في (صراط)، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة.

ويختم هذا السياق ببيان أن هذا الدين، الذي شرعه الله لنبيه، هو الطريق الموصل إلى رضى الله وجنته كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وهذا الصراط قد بينت أحكامهوفُصلت شرائعه، ومُيز الخير فيه من الشر، ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فينتفعون بعلمهم وقد أعد الله لهم الجزاء العظيم والأجر الكبير.

وهذه الأدلة والبراهين قد وضحها الله تعالى لأهل العقول الراجحة؛ ليعملوا بها وينالوا السعادة في الدنيا والآخرة، ووُصف القرآن بأنه صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، والذكر الحكيم. قال تعالى:

١٢٧- ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

لفظ السلام له معنيان:

أحدهما: أنه اسم من أسماء الله الحسنى.

وثانيهما: أنه مصدر بمعنى السلامة، وقد أضاف الله سبحانه الجنة -دار السلام- إلى نفسه؛ لأنها من ملكه وخلقه، ووصف الجنة بأنها دار السلام؛ لأن أهلها يَسْلَمُون فيها من العذاب الذي يناله أهل النار، وليس فيها من الهموم والمنغصات ما يكدِّر، وهؤلاء الذين ينتفعون بالموعظة لهم يوم القيامة عند ربهم دار السلامة والأمان من كل مكروه، وهي الجنة يطمئنون فيها، ويَسْلَمون من الآفات والنقائص، ولا يلقون فيها شيئًا يكرهونه، وهو سبحانه ناصرهم وحافظهم ومؤيدهم جزاء لهم على أعمالهم الصالحة.

وكلمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لها **معانٍ ثلاثة**:

الأول: بمعنى أن الجنة معَدة ومهيأة لأصحابها، كقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البينة: ٨].

الثاني: أن هذه العندية، تُشعر بالقرب من الله تعالى في الشرف والمكانة والرتبة، كما قال تعالى عن الملائكة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف]. وكما في الحديث: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[1].

---

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (٢/ ٩٠) والحديث في البخاري برقم (٧٤٠٥) ومسلم برقم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة.

والذين لهم دار السلام هم مَنْ ذَكَرهم الله في الآية قبلها بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

الثالث: أن ثوابهم عند ربهم دار حلول وإقامة، يسْلَمون فيها من كل مكروه بسبب أعمالهم الصالحة، والله مولاهم ومتولي أمورهم والكافرون لا مولى لهم.

هذا: والمعنى يقتضى أن هذه الآية ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ تتبع ما قبلها.

والأولى لمن أراد أن يبدأ التلاوة يبدؤها بالآية التالية.

مَصِيرُ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ (وَالاسْتِجْوَابُ الأَوَّلُ)

١٢٨- ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[١] جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

وتستطرد الآيات في قضية الإيمان والكفر، فتبيِّن مصير شياطين الإنس والجن، بعد بيان مصير من استقام على منهج الله تعالى، ولَمَّا ذكر سبحانه أن البشر فريقان: مهتد وضال، وأن منهم من شرح الله صدره وأنار قلبه، فآمن واهتدى. ومنهم من اتبع الهوى، وسار في ركب الشيطان فضلَّ وغوى- ذكر هنا أنه سيحْشُر الخلائق جميعًا يوم القيامة للحساب والجزاء؛ لينال كل من الفريقين جزاء ما قدَّم في دنياه.

وبعد أن ذكر سبحانه ثواب (الذين يتذكرون) بأن لهم دار السلام عند ربهم، بيَّن هنا جزاء (الذين لا يتذكرون) ممن لا يؤمنون بالآخرة، فبيَّن أن النار مثواهم خالدين فيها، وهم الذين ماتوا على الشرك والكفر بسبب طاعتهم للشياطين حتى وافاهم الموت، ثم يُحشر الضالون والمضلون من الثَّقلَيْن.

في حديث أبي ثعلبة الخُشنيِّ أن رسول الله ﷺ قال: **«الجن على ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلُّون ويظعنون»**[٢].

(١) قرأ حفص وروح (يَحْشرهُم) بالياء والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على (ربهم)، وقرأ الباقون (نَحْشُرُهم) بنون العظمة على الالتفات.

(٢) «صحيح الجامع» (٣١٠٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٢٧) والحاكم (٢/ ٤٥٦) والطبراني (٥٧٣) والحكيم الترمذي (١/ ٢٠٦) وغيرهم.

ويبدأ توجيه الخطاب في الآية إلى الجن؛ لأنهم الأصل في إضلال أتباعهم من الإنس، وهم السبب في صدهم عن سبيل الله ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: اذكر - يا محمد - يوم يحشر الله الكفار وأولياءهم من شياطين الجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره فيقال للجن الذين أضلوا الإنس: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ من إغواء ﴿ٱلْإِنسِ﴾ وإضلالهم وصدهم عن سبيل الله، أي: أضللتم كثيرًا منهم بسبب إغوائكم لهم وقبولهم منكم الإيحاء والوسوسة، فكانوا مطيعين لكم، فكيف أقدمتم على محارمي وتجرأتم على معاندة رسلي وسعيتم في صد عباد الله عن سبيلي، فاليوم حقت عليكم لعنتي وسنزيدكم من العذاب بسبب كفركم وإضلالكم غيركم، وليس لكم عذر تعتذرون به ولا ملجأ تلجؤون إليه.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾ من كفار الإنس ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع بعضنا من بعض، وتمتع كل منهم بصاحبه وكان الإغواء متبادلًا، فانتفع الجن بطاعة الإنس لهم فيما يُغْوُونهم به من الضلال، واستمتع الإنس بالشهوات والملذات التي زينوها لهم، وكان الجن يفتخر على الإنس بتخويفهم والتعوذ منهم، وظل هذا الانتفاع بيننا قائمًا طيلة الحياة حتى وصل الموت إلينا فافعل بنا ما تشاء واحكم فينا بما تريد، ولهذا حكم الله فيهم بحكمه العادل فقال ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

وهكذا بيَّن الله ﷻ أنه سيحشر الخلق جميعًا يوم القيامة، ومنهم الإنس والجن، وسيوجه سبحانه هذا الاستجواب إلى الجن، ويقول لهم: قد استكثرتم أيها الجن من إغواء الإنس ومن إضلالهم، ومن تزيين الشهوات والشبهات والمفاسد لهم، فيقول أتباع الشياطين من الإنس:

لقد انتفع الإنس بالجن فدلُّوهم على الشهوات، وزينوا لهم المعاصي وحسَّنوها في أعينهم، فوقعوا فيها، وانتفع الجن بالإنس بما كانوا يُلْقُونه إليهم من الأراجيف والسحْر والكهانة وكانوا لهم قادة ومتبوعين يسمعون كلامهم، ويستجيبون لوسوستهم ولإيحاءاتهم وإشاراتهم.

قال الحسن: وما استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أَمَرت، وعملت الإنس.

ومن ذلك أن الرجل كان إذا نزل في بيت جديد أو في واد، يستعيذ بكبير شياطين الجن في هذا المكان من سفهاء قومهم أن يَضرُّوهم، فيقول الجن: سُدنا الإنس، أي: صرنا أسيادًا لهم يستعيذون بنا، ويستجيرون بنا.

قال ابن جريج: كان الرجل في الجاهلية ينزل في الأرض فيقول: (أعوذ بكبير هذا الوادي) وفي هذا استمتاع للجن؛ لأنهم شعروا في أنفسهم أنهم قادة ورؤساء ومتبوعون للإنس، وظلوا على ذلك في الدنيا حتى جاءهم الموت، وجاءهم البعث والحساب والنشور فاعتذروا إلى الله تعالى يوم القيامة بأنهم ظلوا على هذا الاستمتاع حتى جاءهم الموت، وهذا معنى ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ هذا هو المصير المحتوم لشياطين الإنس والجن من الكفرة والملحدين، النار هي مصيركم يوم القيامة أيها الإنس والجن معًا.

وفي ذلك يقول أهل العلم: هل الجن المؤمن سيُنعَّمون في الآخرة، فيأكلون ويشربون ويعيشون أبدًا كالإنس، أم أن مصيرهم بعد البعث والحساب والجزاء كمصير الدواب والبهائم، ثم يقول الله تعالى لهم: كونوا ترابًا فيكونوا ترابًا.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وعدم الخلود في النار المستثنى في الآية يكون للعصاة من الموحدين.

وهذه المشيئة لبيان أن الله سبحانه لا يُسأل عما يفعل، وأنه جلَّ شأنه حر التصرف في خلقه، وأنه إن أدخل المؤمنين الجنة فبمحض كرمه وفضله، ولا يستدرك أحد على الله سبحانه.

والإنس الذين كانت لهم معاصٍ في الدنيا، قد استهوتهم الشياطين فأضلوهم وارتكبوا بعض المخالفات الشرعية، وهم في الأصل مسلمون موحدون، ولكنهم ماتوا على ما دون الشرك من الذنوب، هؤلاء يدخلون تحت هذه المشيئة، فهم معذبون بمقدار ذنوبهم التي ارتكبوها، ثم يصيرون إلى الجنة.

وأما الكفار الذين ماتوا على الكفر والشرك فهم خالدون مخلدون في النار أبدًا والعياذ بالله.

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ خطاب للنبي ﷺ وأمته، وليس مما يقال يوم القيامة، والمستثنى هو مَنْ شملته رحمة الله بعدم الخلود في نار جهنم من عصاة الموحدين، وما يمكن أن يؤمن في الدنيا عند

توفيق الله تعالى لهم أن يدخلوا في الإسلام، فلا يخلدون في النار، وهذا معنى قول ابن عباس ﷺ: استثنى الله قومًا سبق في علمه أنهم يسلمون.

فهذا الاستثناء خطاب موجه إلى الأحياء الذين يسمعون التهديد الذي في الآية، على وجه الإعذار والإنذار لهم؛ كي يُسْلِموا، فهي جملة معترضة بين ما يقال للمشركين يوم الحشر، وما خوطب به النبي ﷺ[1].

ويشير هذا الاستثناء إلى تمام قدرة الله تعالى وكمال مشيئته، كأنه تعالى يقول: ولو شئتُ لأبطلتُ ذلك، ويُعَضِّدُه أن الله تعالى ذكر هذا الاستثناء أيضًا بالنسبة لأهل الجنة في سورة هود، الآيات: [١٠٦- ١٠٨]، بالنسبة للذين شقوا والذين سعدوا.

وذلك أن مردَّ الأمور كلها إلى مشيئة الله تعالى، فخلود أهل النار في نار جهنم، وخلود أهل الجنة في النعيم، إنما هو بمحض إرادة الله ومشيئته، ولو شاء غير ذلك لفعل.

وجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ في نهاية الآية توضح هذا المعنى وتقرره، فكما أن علمه - سبحانه - أحاط بكل شيء، فإن حكمته شملت كل شيء، قال تعالى:

١٢٩- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أي: وكما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض، سلَّطنا شياطين الجن على كفار الإنس، فأضلوهم وأغْووهم، وكذلك نسلط الظالمين من الإنس بعضهم على بعض في الدنيا، بسبب ما يرتكبون من المعاصي، فينتقم الله من المنافقين بالمنافقين، ومن الظالمين بالظالمين، أي: يجعل بعض الظالمين أولياء لبعض، بحكم ما بينهم من تشابه وتطابق واتفاق في التوجه والميول، فيقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف]. فنسلط ظلمة الجن على ظَلَمة الإنس.

وهذه سنة الله في خلقه أن تولى كل ظالم ظالمًا مثله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]

وعن ابن مسعود مرفوعًا: «**من أعان ظالمًا سلطه الله عليه**»[2].

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٨/ ٧١) و«تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٤٦).

(٢) رجاله ثقات، وفيه عاصم بن أبي النجود متكلم في روايته للحديث، والأثر في «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور (٤/ ١٥٣).

وورد عنه بلفظ: «**من أعان قومًا على ظلم، فهو كالبعير المتردِّي، فهو يُنزَع بذنبه**»[(١)].

ثم يتبع بعضهم بعضًا في دخول النار يوم القيامة، وهذا تعقيب على الضالين والمضلين من شياطين الإنس والجن.

وفي الآية تهديد ووعيد لمن لم يقلع عن الظلم، وهكذا الرعية إذا كانت ظالمة سلط الله عليها حاكمًا جائرًا، فإذا أرادوا أن يتخلصوا منه فليتركوا الظلم، فإذا صلح العباد أصلح الله رُعاتهم وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا وُلاة ظلم واعتساف.

وقد جعل الله تعالى كلا الفريقين ظالمًا؛ لأن الذي يتولى قومًا يصير منهم، كما قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

ومصير الظالم ومن رَكَن إليه واحد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]. والآية تشمل كل ظالم.

وقد تأوَّل عبد الله بن الزبير معنى الآية لمَّا بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل الأشدق عمرو بن سعيد، وكان الأشدق قد خرج على عبد الملك، فصعد ابن الزبير المنبر وقال: ألا إن ابن الزرقاء[(٢)] قد قتل لطيم الشيطان[(٣)] ثم قرأ الآية[(٤)].

ويكون معنى الآية على هذا: نجعل بعض الظالمين ولاة على بعض، فنسلطهم عليهم.

---

(١) أخرجه البيهقي (٧٦٧٧) و«المسند» (٤٢٩٢) إسناده حسن، من أجل سماك بن حرب، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) والحاكم بنحوه.

(٢) ابن الزرقاء، هو عبد الملك بن مروان، كان يلقب بذلك لزُرقة عينيه.

(٣) أصيب عمرو بن سعيد باعوجاج في شدقه، فلقبوه بالأشدق، وقالوا: لطمه الشيطان.

(٤) انظر: تفسير «التحرير والتنوير» (٨/ ٧٤).

الاستجواب الثاني للإنس والجن

١٣٠- ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ[(١)] لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾

ثم يأتي الاستجواب الثاني يوم الحشر في هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة؛ حيث يوجه الله سبحانه هذا الاستجواب للجن والإنس ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ والخطاب موجه إلى المشركين من الجن والإنس معًا ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ الواضحات البينات، بما فيها من الخير والشر، والهدى والضلال، أي: يخبرونكم الأخبار الدالة على وحدانية الله تعالى وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وأخبار الرسل والأمم وما حل بهم، وكذا الثواب والعقاب والنعيم والعذاب، وأسماء الله تعالى وصفاته.

ومقصود الآية: إعلام المشركين والمكذبين برسل الله وهم في الدنيا بأنهم مأمورون بالتوحيد والدخول في الإسلام، وأن من يضلونهم في الدنيا من شياطين الإنس والجن غير مفلتين من عقاب الله لهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان].

ثم بيَّن تعالى أن وظيفة الرسل هي الإنذار بالنسبة إلى الكفار فقال: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أي يُعْلمونكم أن الفوز والنجاة يوم لقاء الله تعالى إنما هو بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وأن الشقاء والخسران في تضيع ذلك.

وقد اقتصرت الآية على ذكر الإنذار دون التبشير؛ لأن المخاطبين في الآية مُمحَّضين للشر، فكان إخبار الرسل لهم بلقائهم يوم الحشر والنشر مقصورًا على الجانب الخاص بهم؛ لأن يوم القيامة يتضمن خيرًا لأهل الخير، وشرًّا لأهل الشر.

وقد جاء جانب الإنذار في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل].

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت].

---

(١) قرأ الأزرق عن ورش بترقيق الراء من (وينذرونكم). وفخمها الباقون.

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

يقول الله سبحانه لهم: لقد أرسلت لكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وبيَّنت لكم الهدى من الضلال، والخير من الشر، وأتتكم الرسل فأنذروكم وبشَّروكم وخوَّفوكم ورغَّبوكم ورهَّبوكم.

فيا أيها المشركون من الجن والإنس، ألم يأتكم رسل من أقوامكم يخبرونكم بآياتي الواضحة، المشتملة على الأمر والنهي، والخير والشر، ويخوفونكم عذاب الله يوم القيامة؟ قالوا: شهدنا بأن الرسل قد بلَّغتْنا فكذَّبناهم، وخُدع المشركون بزينة الدنيا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا جاحدين لرسل الله.

وهنا قضية: هل يوجد من الجن رسل؟ كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ تعرفونهم وتسمعونهم، والذي عليه أهل العلم في أصح القولين: أن الرسل من الإنس فقط، وأن الله تعالى لم يرسل من الجن رسلًا، فتكون الآية من باب التغليب كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن]. حيث إن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحرين معًا، وإنما يخرجان من المِلح دون العذب.

ورسل الله جميعًا من لدن آدم أو نوح، إلى عيسى عليه السلام كانوا يرسَلون إلى الإنس فقط، ومحمد ﷺ أرسله الله تعالى إلى الإنس والجن معًا، وجميع الرسل من الإنس.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

والخطاب في الآية للإنس والجن معًا، ولعل المراد برسل الجن هؤلاء الدعاة الذين سماهم القرآن الكريم نذُر، أي: أنهم حين سمعوا القرآن يتلوه المصطفى ﷺ ويقرؤه عليهم، رجعوا إلى قومهم ينذرونهم، ويبلِّغونهم دعوة الله إليهم كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن].

فهؤلاء كانوا رسلًا إلى قومهم حين سمعوا القرآن يُتلَى من رسول الله ﷺ.

وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا

لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف].

وقد سماهم القرآن منذرين؛ لأنهم يخوفونهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا، والنص القرآني يشير في ظاهره إلى الرسل المنذرين من الإنس والدعاة من الجن.

إلى كفرة الإنس والجن فيقّررهم يوم القيامة الله تعالى قد أرسل رسلًا ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ بالتقصير، وأقررنا بالكفر، وفي هذا حكاية لقولهم واعترافهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بما فيها من الشهوات والملذات، فرضوا بها واطمأنوا إليها، فأعرضوا عن لقاء ربهم، ويوم القيامة يشهدون على أنفسهم بالشرك والكفر، فقامت عليهم حجة الله، وعلموا عدل الله فيهم، وحُكْمه عليهم بالعذاب.

وفي القرآن آيات أخرى في مواطن مختلفة بالنسبة للكفار يوم القيامة، منها قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

فيوم القيامة يوم طويل تختلف مواقفه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. والاستجواب في هذا اليوم، وكذا الأسئلة الموجهة إلى الخلق فيه تستغرق حالات متعددة.

ومن الكفار من لا يسأل عن ذنبه، بل يُطرح في النار طرحًا من غير سؤال.
كما أن من المؤمنين من يدخل الجنة بغير حساب، ولا يُسأل عن شيء.

وهناك ما دون هذه الدرجة، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر].

وقال سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف].

قال سعيد بن جبير: قال رجل لابن عباس: إني أجد أشياء تختلف عليَّ، قال الله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]. وقال: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فقد كتموا، فقال ابن عباس: إن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نَقُلْ: ما كنا مشركين، فيختم الله على أفواههم، فتنطق أيديهم. وهكذا يوجه السؤال إلى الكفار فَيُنْكِرُون، ثم يعترفون بأنهم كانوا كافرين، وذلك حين يرون النعيم الذي أعده الله

لعباده المتقين الصالحين، فينكرون أنهم كانوا في الدنيا كفارًا أو مشركين.

كما قال سبحانه على لسانهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

يقول الله سبحانه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام]. يقولون هذا كذبًا، والله يعلم حقيقتهم، وعندما ينطق اللسان بذلك يَخْتِم الله عليه، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

والجوارح تنطق، وحين تشهد الجوارح والأعضاء على كفرهم ينطق لسانهم مرة ثانية كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾ وهذا ذم لهم على سوء فعلهم، فإنهم قد اغتروا بالدنيا وأعرضوا عن الآخرة، فكان عاقبة ذلك أنهم استسلموا للعذاب، واضطروا للشهادة على أنفسهم بالكفر.

وفي هذا تحذير للسامعين والتالين لآي الذكر الحكيم إلى قيام الساعة.

وإعادة ذكر الشهادة على أنفسهم؛ لبيان خطأ رأيهم وذم فعلهم.

لَا يؤَاخَذ أَحَدٌ بِذَنْبِهِ إِلَّا بَعْدَ إِعْذَارِهِ وَإِنْذَارِهِ

١٣١- ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾

أي أن الله تعالى لا يعذب قومًا ظالمين، قبل أن يرشدهم ويحذرهم ويقيم الحجة عليهم، وقد اقتضت حكمة الله تعالى ألا يؤاخذ أحدًا بذنب إلا بعد إعذاره وإنذاره بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وألا يهلك أمة من الأمم الظالمة إلا بعد إنذارها؛ فالله سبحانه لا يظلم أحدًا، ولا يعذب نفسًا قبل أن يرسل إليها رسولًا ينذرها ويبشرها ويبين لها الخير من الشر والهدى من الضلال، والله تعالى لم يترك خلقه للفطرة التي من شأنها أن تهديهم إلى التوحيد، ولكنه سبحانه يرسل إليهم رسلًا، وينزل عليهم كتبًا؛ ليبين لهم طريق السعادة والشقاء كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦].

فليس هناك عقابٌ لأحد لم تبلغه الدعوة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال جلَّ شأنه عن أهل النار: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ [الملك: ٨، ٩].

والله تعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد تنبيهه وتذكيره ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. ولئلا يقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ [المائدة: ١٩].

وليس من شأن الله تعالى أن يُهلك أهل المدُن وغيرها من أجل ظلم فعلوه، قبل أن يَنهاهم ويرشدهم بواسطة الرسل والكتب.

وفي الآية تنبيه لجدوى إرسال الرسل؛ كي يتدارك المكذبون أنفسهم قبل يوم الحشر، فيؤمنوا قبل فوات الأوان؛ حتى لا ينزل العذاب بهم إذا أعرضوا عن دعوة الرسل فيقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]. وقبل ندمهم على سوء المصير ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك: ١٠]. ومقتضى عدل الله ورحمته أن يهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

١٣٢- ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ[1] ١٣٢﴾

ثم أخبر سبحانه أن الناس في الآخرة على درجات من التفاضل والعذاب، ولكل من أهل الجنة وأهل النار درجات، فالجنة درجات، درجة فوق درجة، وهي جنات ثمانٍ، لكل عبد من عباده مقام معلوم عند رب العالمين.

والنار دركات، بعضها دون بعض ولذلك قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة: ١١]. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾ [النساء].

وكما أن كلًّا من المؤمنين والكافرين، في الدنيا درجات في الطاعة والذنوب، فإنهم يكونون كذلك في الآخرة على قدر أعمالهم، وما ربك بغافل عما يعمل العباد، بل هو سبحانه عالم بأعمالهم يحصيها عليهم، ولا يغيب عنه شيء منها، ويحاسبهم على ما

---

(١) قرأ ابن عامر (تعملون) بتاء الخطاب؛ لمناسبة (رسل منكم)، والباقون (يعملون) بياء الغيبة؛ لمناسبة (مما عملوا).

قدمت أيديهم على حسب تفاوت أعمالهم، فينجي الله المؤمنين وينزل العذاب بالكافرين في الدنيا، وفي الآخرة يصيرون إلى النعيم، أو الجحيم على تفاوت دركاتهم ومراتبهم ودرجاتهم فيها.

في الصحيحين عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أنزل الله بقوم عذابًا أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعِثوا على أعمالهم»**[(١)].

وفي الصحيحين من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردْم يأجوج ومأجوج هكذا - عقد تسعين - أي: عقد إصبعين بعلامة تسعين في الحساب قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثُر الخبث»**[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ

١٣٣- ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

أي أن الله سبحانه لم يترك العباد هملًا، ومن رحمته بهم أن أرسل إليهم رسلًا، وأنزل عليهم كتبًا، وهو غني عن طاعة المطيعين، لا تضره المعصية، ولا تنفعه الطاعة ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. . .»[(٣)].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن خلقه جميعًا، لا يفتقر إلى غيره، وهم فقراء إليه، وهو سبحانه ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ الواسعة، ومن رحمته سبحانه، أنه لم يؤاخذ الكفرة باستئصالهم وإبادتهم

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧١٠٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٧٩).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠).

(٣) من حديث طويل عن أبي ذر في «المسند» (٢١٣٦٧، ٢١٤٢٠) حديث صحيح، وفي مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥).

في الدنيا، وإنما أمهلهم إلى الآخرة، وأخَّر عنهم العذاب لعلهم يتوبون، فرحمته سبحانه تتجلى في الإبقاء على الجيل الظالم مع القدرة على إهلاكه ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

وإمهاله إياكم؛ لأنه رحيم بخلقه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالإهلاك والإبادة ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ فلو أراد لأهلككم بعذاب الاستئصال، وأوجد قومًا غيركم يخلُفونكم، ويعملون بطاعته ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي كما أوجدكم من أصلاب قوم غيركم من نسل قوم نوح، ومن نسل آدم، ومن نسل إبراهيم، وغيرهم، فكما أذهب القرون الأولى، وأتى بمن بعدهم يفعل بكم مثلهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء].

والله الغني وأنتم الفقراء ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ لَا وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [فاطر].

فإذا عرفتم أنكم لابد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل غيركم، وترتحلوا عنها كما ارتحل مَنْ قبلكم، فلماذا رَكَنْتُم إليها، ونسيتم أنها دار ممرّ لا دار مقرّ، وأن أمامكم دار جمعت كل نعيم، وسلمت من كل آفة ونقص، وهي الدار التي يسعى إليها الأولون والآخرون، ويتنافس فيها المتنافسون، ففيها لذة الأرواح ونعيم الأبدان والقلوب، والقرب من علّام الغيوب، فما أعلى همة مَنْ تعلق بدار الكرامة، وما أبخس شأن من رضى بالدون فاختار صفقة المغبون. ووعد الله حق لا يتخلف:

١٣٤- ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَـَٔاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

قال سبحانه ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من مجيء البعث والحساب والنشور ﴿لَـَٔاتٍ﴾ أي: هو حق وصدق وواقع لا محالة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فأنتم لن تفلتوا من قبضة الله سبحانه، ولن تُعجزوا الله ﷻ، بل سيدرككم الموت وتحاسبون وتجزوْن بأعمالكم، فإن نواصيكم بيد الله، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه.

جاء في الأثر: «**يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذي نفسي بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين**»(١). قال تعالى:

١٣٥- ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ(٢) إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ(٣) لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

ثم أمر الله رسوله أن ينادي المكذبين به، ويتوعدهم بعذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا، قل يا محمد لجميع الكفرة: اثبتوا على ما أنتم عليه، وابذلوا أقصى ما في وسعكم، ولا تتغيروا عما أنتم عليه من الكفر، فإني ثابت على الإسلام، وسوف تعلمون، حين يحل بكم العذاب، أيُّنا على حق ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ابقوا أيها الكفرة على كفركم، فإني نذير لكم، ولست مبالٍ بكم، إن كفرتم، فلا مطمع لي في اتباعكم ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ وثابت على إسلامي وإيماني ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يوم القيامة وقت حلول النعمة بالمؤمنين ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: من تكون له العاقبة الحسنة أنا أم أنتم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين تجاوزوا حدود الله، وأشركوا معه غيره، فلا يظفروا بمطلوبهم بسبب ظلمهم، وإن تمتعوا في الدنيا بما تمتعوا به ﴿إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]

وفي هذا وعيد وتهديد لهم، ومثله قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (١٥٠٦٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٩١).

(٢) قرأ شعبة (مَكَانَاتِكم) بألف بعد النون على الجمع، لمطابقة المضاف إليه، والباقون (مكانَتِكُمْ) بغير ألف على الإفراد، لإرادة الجنس.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (من يكونُ) بياء التذكير والباقون (من تكُونُ) بتاء التأنيث؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

أَرْبَعُ صُوَرٍ مِنْ رَوَاسِبِ الْجَاهِلِيَّةِ:

الصُّورَةُ الأُولَى: جَعْلُ شَيْءٍ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالزُّرُوعِ لِغَيْرِ اللهِ

١٣٦- ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ[1] وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

ولأن سورة الأنعام تُرسي قواعد العقيدة الصحيحة، فهي تطهِّر المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية، وهذا بدء بيان التشريعات الباطلة في السورة،ومنها الذبح والنذر لغير الله تعالى،وجعْلُ شيء من الزروع والثماروالمواشي لغير الله سبحانه،فقد كان المشركون في الجاهلية يجعلون من زرعهم وثمارهم وأنعامهم وسائرأموالهم نصيبًا لله ونصيبًا للأصنام، فما كان لله أنفقوه على الضيوف والمساكين،وما كان للأصنام أنفقوه عليها وعلى خِدْمتها، وهم يحرصون على حفظ نصيب الأصنام أكثر من حرصهم على نصيب الله سبحانه،وفي هذا تنبيه على ضلالهم والحذر منهم ومن أمثالهم إلى قيام الساعة.

في سبب النزول: وسبب نزول هذه الآية أن العرب كانت تجعل من زرعها وثمارها وأنعامها جزءًا لله وجزءًا للأصنام، وكانوا يهتمون بنصيب الأصنام أكثر من اهتمامهم بنصيب الله تعالى اعتقادًا منهم أن الأصنام أفقر من الله سبحانه، فيجعلون للآلهة ما تحمله الريح وما تجرُّه المياه، ونحو ذلك.

في البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «**من سره أن يعلم جهل العرب، وما كانوا عليه من ضلال وجهل قبل الإسلام، فليقرأ ما بعد الثلاثين والمائة من سورة الأنعام**»[2].

---

(١) قرأ الكسائي بضم الزاي من (بِزُعْمِهِم) في الكلمتين وهي لغة بني أسد، والباقون (بِزَعْمِهِم) بفتح الزاي فيهما وهي لغة أهل الحجاز.

(٢) البخاري (٣٥٢٤).

فإن هذه الآيات تصور مزاعم أهل الجاهلية، وتحريمهم لِمَا أحل الله، وتشريعهم لأنفسهم ما لم يَشْرَعه الله سبحانه، وليس هذا خاصًا بالعرب، وإنما وُجد أدهى منه وأمرُّ عند الإغريق قديمًا، وعند الرومان، وعند الفرس، ولا يزال أمثاله موجودًا في مناطق من العالم، وإن اختلف الشكل والصورة في كل الأقوال والأفعال من النذر والذبح للأضرحة والأوثان بما لم يأذن به الله، فالقرآن في كل زمان ومكان، يعالج أخطاء البشر إلى يوم الساعة، ومنه هذا الضلال الذي صوّرتْه الآيات، ومثله في بعض بلاد العالم،وهي **أربع صور رئيسة**:

الصورة الأولى: أنهم يجعلون مما خلقه الله تعالى لهم ورزَقهم إياه، من الحرث، وما يخرج من الأرض، ومن الأنعام (الإبل والبقر والغنم)- **نصيبًا لله**، وهذا النصيب يُصرف في وجوه الصدقات على الفقراء والمساكين وعلى الضيوف، وهو حق الله تعالى.

ونصيبًا آخر يجعلونه للآلهة، وهذا النصيب يُصرف على السدنة وخدم الآلهة، فكانوا يقولون: هذا حق الله، وهذا حق الآلهة ويفْصلون حق الله من حق الأصنام، ثم يُبيحون للأصنام أن تأخذ حق الله، ولا يبيحون لله أن يأخذ حق الأصنام.

قال ابن إسحاق: إن خوْلان كان له صنم اسمه (عَمُّ أنَس) يقسّمون له من أنعامهم وحروثهم قَسْمًا بينه وبين الله، فما دخل في حق (عمِّ أنَس) من حق الله الذي سمَّوه له، تركوه للصنم، وما دخل في حق الله من حق (عمِّ أنَس) ردُّوه عليه.. وفيهم نزلت الآية.

وأخرج الطبري، بسند حسن، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: جعلوا لله من ثمراتهم ومالهم نصيبًا، وللشيطان والأوثان نصيبًا، فإن سقط من ثمرة ما جعلوه لله، في نصيب الشيطان، تركوه، وإن سقط، مما جعلوه للشيطان، في نصيب الله، الْتقطوه وحفظوه وردُّوه إلى نصيب الشيطان، وإن انفجر، من سقْي، ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن انفجر، من سقْي، ما جعلوه للشيطان، في نصيب الله سدُّوه، فهذا ما جعلوا من الحرث وسقْي الماء، وأما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[1] [المائدة: ١٠٣].

(١) البيهقي في «السنن» (١٠/ ١٠) وابن أبي حاتم (٧٩١١).

هذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: خلَق وأنشأ وبث في الأرض ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ الزروع والأشجار والثمار ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿نَصِيبًا﴾ قسمة وحظًّا ﴿فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ بكذبهم وادعائهم.

والزعم: هو الاعتقاد الفاسد، وهو الكذب.

أما النصيب الآخر فهو المذكور في قوله تعالى حكاية عنهم:

﴿وَهَـٰذَا﴾ أي: النصيب الآخر ﴿لِشُرَكَآئِنَا﴾ وهي الآلهة، سموها شركاء لله؛ لأنها تُساهم في الخير والشر بزعمهم، ثم يَجُورُون على نصيب الله سبحانه، ويقولون: لو شاء الله لأزكى الذي له، ولا يجُورُون على نصيب الآلهة.

فمثلًا: إذا نفذ حق الآلهة، فإنهم يأخذون من حق الله، ولا يكون العكس، ويقولون: إنهم أحوج من الله تعالى.

وإذا جاءت الريح فحملت من الزرع الذي هو من حق الله ووضعتْه عند حق الآلهة، فإنهم لا يردُّونه، وإن حملتْ من حق الآلهة ووضعتْه عند حق الله يردُّونه.

وهذا التفصيل في القسمة بيَّنه ربنا في قوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا هو القسم الأول.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ وهذا هو القسم الثاني.

يقول الله سبحانه ذامًّا لهم: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس حكم القوم حكمهم، وبئست القسمة قسمتهم، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم].

والمشركون بهذا قد جمعوا بين **ثلاثة محاذير**:

أولها: أنهم يمْتنون على الله تعالى في جعلهم نصيبًا له.

ثانيها: اعتقادهم أن ذلك تبرع منهم.

وثالثها: حكمهم الجائر، في جعلهم حصة من الحرث والأنعام لله، وحصة لشركائهم، وأن ما يصل من نصيب الله للشركاء لا يهتمون به، وما يصل من نصيب الشركاء لله ردّوه على الشركاء، فما أسوأ هذا الحكم، وما أظلمه!!.

الصُّورَة الثَّانِيَة: قَتْل الأَوْلَادِ

١٣٧- ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ(١) لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ(١) أَوْلَٰدِهِمْ(١) شُرَكَآؤُهُمْ(١) لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

وكما زينت الشياطين للمشركين أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار، فهذه الرذيلة ترجع إلى تصرفاتهم في ذرياتهم، والرذيلة السابقة ترجع إلى تصرفاتهم في أموالهم.

وإن قبيلة ربيعة ومضر من العرب كانوا يقتلون الذكور خوف الفقر، وخوف السبي في الحروب، وكانوا يقتلون الإناث خوف العار، والشياطين تزين لهم ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير].

وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

وكانوا يفعلون ذلك بالبنات من شدة الغيرة عليهن؛ حتى لا يُفعل بهن ما يُفعل بالنساء، ويروْن أن ذلك من العار.

فعن أبي عبيدة أن تميمًا منعت النعمان بن المنذر الإتاوة، فوجَّه إليها أخاه الريان بن المنذر، فاستاق النعم وسبى الذراري، فوفدت إليه بنو تميم، فأنابوا وأسلموا، وسألوه النساء، فقال النعمان: كل امرأة اختارت أباها رُدَّت إليه، وإن اختارت الذي صارت إليه بالسبي، تُركت عليه، فكلهن اختارت أباها إلا ابنة قيس بن عاصم اختارت صاحبها: عمرو بن المشمرج، فنذر قيس ألَّا تولد له ابنة إلا قتلها، فكل من وأد ابْنته يتعلَّل بأنه فعل ذلك أنفَة،

---

(١) قرأ ابن عامر بالبناء للمجهول في (زُيِّن) ورفع (قتلُ) على أنه نائب فاعل، ونصب (أولادَهم) مفعول للمصدر وهو (قتلُ) وخفض (شركائِهم) من إضافة المصدر إلى فاعله، وقرأ الباقون ببناء (زَيَّن) للمعلوم، ونصب (قتلَ) مفعول به، وخفض (أولادِهم) على الإضافة إلى المصدر، ورفع (شركاؤهم) فاعل (زين) والمعنى: زين لكثير من المشركين شركاؤهم أن قتلوا أولادهم تقربًا لآلهتهم، أو بالوأد خوف العار أو الفقر. والفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف سائغ في لغة العرب.

وقد أكذبَهُم الله في قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] [الأنعام: ١٤٠].

وذكر البخاري أن أسماء بنت أبي بكر قالت: كان زيد بن عمرو بن نفيل يُحْيي الموؤودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها.

وكان صعصعة بن معاوية بن مجاشع -جد الفرزدق- يفدي الموؤودة، مثل زيد بن عمرو.

كما كان الرجل منهم ينذر للآلهة، إن رزقه الله عشرة من الأولاد ليذبحنَّ أحدهم، ومن ذلك نذْر عبد المطلب، وكان قد نذَر إن رزقه الله عشرة من الأولاد يَحْمُونه ليذبحنَّ للآلهة أحدهم، وقد رزقه الله عشرة من الأولاد، وعزم على ذبح مَن خرجت عليه القرعة، وهو عبد الله والد النبي ﷺ، وكان قد استقسم بالأزلام عند هُبَل، وكان هُبَل في جوف الكعبة، فخرج السهم على عبد الله؛ فأخذه ليذبحه بين صنمي إساف ونائلة، فقالت له قريش: لا تذبحه حتى تعذر فيه، فإن كان له فداء فديناه، وأشاروا عليه باستفتاء عرَّافة في خيبر، فركبوا إليها وسألوها، فقالت لهم: قرِّبوا عشرًا من الإبل، فإن قبلت وإلا زيدوا عليها عشرًا، فلم يزل عبد المطلب يزيد ويضرب القداح حتى بلغت مائة، فخرج السهم عليها فنحرها. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾ والمراد بالشركاء الشياطين.

وكان الكنعانيون يقربون صبيانهم إلى الصنم، وسُمُّوا شركاء؛ لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من معصية الله وقتل الأولاد، فأشركوهم مع الله في الطاعة، فهم الذين زينوا لهم قتل الأولاد ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: يخلطوا عليهم دين إبراهيم وإسماعيل، فيضلوا ويهلكوا ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ فلا شيء يحدث إلا بمشيئة الله، ولو شاء الله لمنعهم من هذه الأفعال القبيحة، ومنعهم من الكذب على الله، ولو شاء الله ألا يفعل الشركاء ذلك التَّزيُّن وغيره لما فعلوه ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فإن الله سيحكم بينك وبينهم، وقد خلق الله خلقًا للجنة، وخلقًا للنار، وجعل إليهم عقولًا وأرسل إليهم رسلًا، وفي هذا استدراج وإمهال لهم، فلا تبال بهم ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا الله شيئًا.

ومعنى الآية: ومثل هذا التزين زين الشياطين لجمع من المشركين قتل أولادهم مخافة الفقر أو العارليورطو الآباء ويخلطوا عليهم دينهم فلم يفرقوا بين الحق والباطل ولو شاء الله ما فعلوا ذلك أبدا فذرهم وما يختلقون من الكذب[2].

---

(١) عن «تفسير التحرير والتنوير» (٨/ ١٠٠).

(٢) تفسير المدينة المنورة ٥٧٦/١.

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ: حَجْرُ التَّصَرُّفِ فِي الْمَوَاشِي وَالزُّرُوعِ

١٣٨- ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ[1] وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

هذه الآية تُعدِّد ما شرعه العرب في الجاهلية لأنفسهم من الحرث والأنعام، فقد حرَّموا نوعين منها على أنفسهم، وضيَّقوا في استعمال النوع الثالث؛ وذلك أنهم كانوا يقسمون المواشي والزروع ثلاثة أقسام، وهذه الأقسام تبيِّن أنواع حجر التصرف في هذه الأموال، وتعيِّن مصارفها؛ حيث جعلوها:

١- قسم لا يؤكل لحمه ولا زرعه، ولا ينتفع به إلا بإذن خاص للرجال وحدهم من سدنة الآلهة وهذا معنى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي: محجورة ممنوعة على غير سدنة الأصنام، والوافدين عليها ﴿لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ أي: أن من يريدون إطعامه منها أطعموه، ومن يريدون منعه منعوه.

وكل هذا لا مستند لهم فيه ولا حجة إنما هو بزعمهم الفاسد.

٢- وقسم من الإبل لا يحل ركوبها ولا الحمل عليها، وهو الحامي الذي حمى ظهره، وهذا معنى: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ لا تؤكل، ولا يحمل عليها شيء، ولا يذهبون عليها إلى الحج أو غيره؛ كالبحيرة، والسائبة وهي التي صارت للآلهة، وينسبون هذه الأفعال إلى الله تعالى، وهم كذبة فجار.

٣- وقسم ثالث: لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام، أو اسم الجن، ويزعمون أن ذلك قربان، وهذا معنى: ﴿وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ إنما يذبحونها على اسم الآلهة، ثم عقب الله على ذلك بقوله: ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ أي: أنهم يزعمون كذبًا أن الله تعالى أمرهم بهذا، وهو اختلاق وكذب على الله قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس].

(١) قرأ الكسائي (بزُعْمِهِم) بضم الزاي، والباقون بكسرها.

ثم ختمت الآية بهذا التهديد: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ على الله الكذب وفيه تهديد ووعيد لهم، لأنهم يحرمون ما أحل الله. **هذا:**

١- والبحيرة هي التي تلد خمسة أبطن، آخرها ذكر، وكانوا يَشُقُّون أُذُنها ويتركونها لآلهتهم، ولا تُنحر إلا إذا ماتت، فيحل أكلها للرجال دون النساء.

٢- والسائبة: اسم للناقة التي يتركها صاحبها؛ لأنها نجتْ في الحرب، أو نُذرت للأصنام، فكانت تُسيَّب للسدنة وأبناء السبيل، ينتفعون بدرِّها، فإذا ماتت أكلها الرجال دون النساء.

٣- والوصيلة: اسم للناقة التي تلد أنثى ثم أنثى، فهي قد واصلت في نسلها بين عدة إناث.

٤- والحام: اسم للفحل الذي لقَّح ولد ولده، فيقولوا: حمى ظهره، فلا يركب ويترك حتى يموت.

الصُّورَة الرَّابِعَة: حكْم مَا فِي بطونِ الأَنْعَامِ

١٣٩- ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً[1] فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

هذه الآية تتضمن حالة من أحوال التحريم وهي أن ما في بطون الأنعام البحائر والسوائب من الأجنة، إذا نزل حيًّا جعلوه للذكور، أي: ذبحوه للرجال فقط ولا يقربه النساء، وإن نزل ميتًا جعلوه للرجال والنساء معًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل].

وقال ابن عباس ﷺ: إن نزل الجنين أنثى يبقُّوه حيًّا ولا يذبحونه، وإن نزل ذكرًا ذبحوه

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن هشام (وإن تكن ميتةٌ) بتأنيث (يكن) ورفع (ميتةٌ) مع سكون الياء، وقرأ أبو جعفر (وإن تكُنْ ميّتةٌ) بتأنيث (يكن) ورفع (ميتة) مع تشديد الياء، وقرأ ابن كثير وهشام في وجهه الثاني (وإن يَكُن ميتةٌ) بتذكير (يكن) ورفع (ميتة)، وقرأ شعبة (وإن تكن ميتةً) بتأنيث (يكن) ونصب (ميتة)، والباقون (وإن يَكُن ميتةً) بتذكير (يكن) ونصب (ميتة) وتأنيث (يكن) باعتبار اللفظ وتذكيرها باعتبار المعنى؛ لأن (ميتة) مؤنث مجازي، فهذه خمس قراءات، ومن نصب ميتة فعلى أنها خبر كان الناقصة، ومن رفعها على أن كان تامة، ويجوز أن تكون (ميتة) اسم كان، وخبرها محذوف، أي: وإن تكن هناك ميتة.

للرجال دون النساء، وإن نزل المولود ميتًا اشترك فيه الذكور والنساء، وهذا معنى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: ما في بطون الأنعام المحرمة؛ كالبحائر، والسوائب من الأجنة إذا نزلت حية فإنها تكون ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي: يباح أكلها للذكور فقط ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ أي: لا تحل للنساء المتزوجات؛ لأنهم كانوا يتشاءمون من أكلهن للحوم أجنة الأنعام التي حَجَروها على أنفسهم، أو حرموا ظهورها أن يركبوها؛ خشية أن تصاب المرأة بالعقم، أو سوء المعاشرة مع الأزواج، أو النشوز والفراق، ونحو ذلك من أوهام أهل الجاهلية، أو لأن أجنة الأنعام مقدسة عندهم، فلا تحل للنساء؛ لأن المرأة موصوفة لديهم بالنجاسة والخيانة لأجل الحيض، ولذلك فإنهم لا يأكلون معها وهي حائض.

وتفسير ﴿أَزْوَٰجِنَا﴾ بالنساء المتزوجات، هو مقتضى ظاهر الآية، وقاس بعضهم الأيامى من النساء على المتزوجات، فهو للنساء جميعًا، وحمله آخرون على عموم الإناث.

وكان من عادة العرب أن يشرب ألبان البحيرة والسائبة، الرجالُ دون الإناث، فقال بعضهم: إن ما في بطون الأنعام يشمل الألبان.

وما ورد عن ابن عباس في ذلك -مما سبق ذكره- محمول على أن ما في البطون يشمل الألبان؛ لأنها تابعة للأجنة وناشئة عن ولادتها[1].

ثم بيَّن سبحانه أن ما في بطون الأنعام المحرمة إن نزل ميتًا جاز أكله للرجال والنساء، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكُن﴾ المولود ﴿مَّيْتَةً فَهُمْ﴾ أي: الرجال والنساء فيه ﴿شُرَكَآءُ﴾ قال سبحانه متوعدًا لهم بالعذاب على تحريمهم ما أحل الله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: كذبهم على الله، وتشريعهم لأنفسهم ما لم يأذن به الله، وجعلهم الحلال حرامًا فناقضوا شرع الله وخالفوه ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ في شؤون خلقه ﴿عَلِيمٌ﴾ بتدبير أمورهم، لا تخفي عليه خافية.

الْوَعِيد الشَّدِيد لِمَنْ قَتَلوا أَبْنَاءَهمْ وَحَرَّموا مَا أَحَلَّ الله

١٤٠- ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟[1] أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ[2] ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

قال عكرمة: نزلت هذه الآية فيمن كان يئد البنات، من مُضَر وربيعة، كان الرجل يشترط على امرأته أنك تئدين جارية وتستحيين أخرى، فإذا كانت الجارية التي تُوأَدُ، غدا من عند أهله أو راح، وقال: أَنْتِ عليَّ كأمي إن رجعتُ إليكِ ولم تئديها، فترسل إلى نِسْوتها، فيحفرْن لها حفرة، فيتداولْنها بينهن، فإذا بَصُرْن به مُقْبلًا دسسْنها في حُفْرتها وسوَّيْن عليها التراب[3].

قال قتادة: هذا صنع أهل الجاهلية، كان أحدكم يقتل ابنته مخافة السِّباء والفاقة ويغذو كلبه، وفي قوله: ﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال: جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلةً وحاميًا تحكُّمًا من الشيطان في أموالهم، وحرَّموا من مواشيهم وحروثهم، فكان ذلك من الشيطان افتراء على الله[4].

فهاتان صورتان من رواسب الجاهلية تضمنتهما الآية: قتل الذرية، وتحريم ما أحله الله.

وقد تضمنت هذه الآية التشنيع بقبح أفعالهم، والتعجب من سوء حالهم في وأدهم للبنات، وتحريمهم للحرث والأنعام، قد خسروا وضلوا في الدنيا والآخرة، الذين قتلوا أولادهم بسبب تشريعهم لأنفسهم، وتحريمهم ما أحل الله لهم، سفاهة وجهلًا بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم، وكان وأد البنات في قبيلتي ربيعة ومضر، ومنهم من كان يفعله خوف الفقر، ومنهم من كان يفعله خوف السبي أو العار. ولم يكن جمهور العرب يفعلونه.

إنها خسارة مطلقة، وخسارة فادحة في الدنيا قبل الآخرة، لمن قتلوا أولادهم أو وأدوا بناتهم، فقد فقدوهم في الدنيا، وسوف يعذبون على ذلك في الآخرة، لقد خسروا دينهم

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر (قَتَّلُوا) بتشديد التاء، والباقون بتخفيفها.

(٢) أدغم الدال في الضاد من (قد ضلوا) ورش وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف العاشر والباقون بالإظهار.

(٣) أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٨).

(٤) ابن أبي حاتم (٧٩٤٣، ٧٩٤٦).

وأولادهم وعقولهم، وكان الرجل منهم يُغَذِّي كلبه، ويئد ابنته مخافة السبي والعار، ويقول لأمها: أنت عليَّ كظهر أمي إن رجعتُ ولم تئديها، فتتخذ لها في الأرض شقًّا، فإذا رأته دسَّتْها في التراب، لقد أراد هؤلاء أن يتخلصوا من أضرار محتملة في الدنيا؛ كالفقر، والعار، فأوقعوا أنفسهم في أضرار محققة في الدنيا والآخرة، لقد عطلوا نعمة النسل، وأتوا على فوائده، ومنها حفظ النوع الإنساني وإعمار العالم، واعتدوا على حق الحياة الذي لا يملكه الأب، فخسروا بذلك دنياهم وأخراهم.

وفعلوا ذلك كذبا وافتراء على الله، وهم بذلك قد ضلوا ضلالًا بعيدا ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمور دينهم.

ذكر القرطبي في تفسيره أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغْتمًا بين يدي رسول الله ﷺ فقال له الرسول: ما لك محزونًا؟ قال: يا رسول الله، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فوُلدتْ لي بنت، فتشفَّعتْ إليَّ امرأتي أن أتركها، فتركتُها حتى كبُرت، وأدركتْ وصارت من أجمل النساء، فخطبوها، فدخلتْني الحميَّة، ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب لزيارة أقربائي فابْعثيها معي، فسُرَّت بذلك، وزيَّنتْها بالحليِّ والثياب، وأخذتْ عليَّ المواثيق بألَّا أخونها، فذهبتُ بها إلى رأس بئر، فنظرتُ في البئر، ففطنت الجارية بأني أريد أن ألقيها فيه، فالْتزمتْني وجعلتْ تبكي، فرحمتُها، ثم نظرتُ في البئر فدخلتْ عليَّ الحميَّة حتى غلبني الشيطان فألقيتُها في البئر منكوسة، ومكثتُ هناك حتى انقطع صوتها، فرجعتُ، فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقال: **«لو أُمِرْتُ أن أعاقب أحدًا بما فعل في الجاهلية لعاقبتُك»**[1] فالحمد لله على نعمة الإسلام، وتبًّا لمؤتمرات ولجان حقوق تقول: إن المرأة مهضومة الحق في الإسلام.

هلك هؤلاء، وهلك أيضًا من حرَّموا على أنفسهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وبَعُدُوا عن الحق والهدى؛ لأن التحليل والتحريم من حق الله وحده، وليس لأحد من خلقه، ولم يكونوا بما شرعوه لأنفسهم من أهل الهدى والرشاد؛ حيث وقعوا في المفاسد العظيمة، وحرموا أنفسهم وغيرهم من الانتفاع ببعض ما رزقهم الله فأخطؤوا الطريق وأبعدهم الله بذنوبهم.

---

(١) «تفسير القرطبي» (٧/ ٩٧).

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الزُّرُوعِ وَالأَنْعَامِ

١٤١- ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ[(١)] وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ[(٢)] إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ[(٣)] ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

بعد أن بيَّن الله سبحانه في الآيات السابقة جهل العرب قبل الإسلام في تحريم بعض ما أحله الله لهم، مما لا يزال مثله موجودًا في بعض بلاد العالم قديمه وحديثه، بيَّن القرآن الكريم في هذه الآية، جهلهم في تحريمهم بعض الزروع والثمار على أنفسهم، وقد أحلها الله لهم، وبيَّن بعد ذلك تحريمهم لبعض الذبائح، وجعلها لآلهتهم من أصنامهم، على نحو ما يتقرب به بعض الناس اليوم في بعض بلاد المسلمين من الذبح عند قبر عبد من عباد الله الصالحين، أو النذر له، أو تخصيص شيء من الزرع أو الثمر إلى صاحب هذا القبر، أو إلى شيخ الطريقة ونحو ذلك، وكل ذلك لون من ألوان الشرك بالله تعالى.

والله، سبحانه، قد خلق هذه الزروع، وهذه الثمار، وأنبتها من الأرض، كما خلق الأنعام (الإبل والبقر والغنم) لنفع الإنسان، وليس كما يتصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة.

وهو سبحانه الذي يملك حق التحليل والتحريم، فلا يجوز لأحد أن يحرِّم ما أحل الله، ولا أن يحل ما حرم الله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أي: أبدع واخترع بساتين وحدائق وزروع وثمار.

والمعروشة هي المرفوعة عن وجه الأرض، ومن ذلك العريش الذي بُني للنبي ﷺ يوم بدر، هذه الجنات خلقها الله سبحانه للإنسان، ومنها ما يحتاج إلى الأعمدة والحوائط بصنع الإنسان، كشجر العنب، ومنها ما لا يحتاج إلى ذلك، فتنْمو الأشجار وحدها وترتفع، ومنها ما يفترش الأرض، ومنها ما له ساق طويل أو قصير، ومنها ما يثمر،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير (أكْلُهُ) بإسكان الكاف، والباقون بضمها.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (ثُمُرِه) بضم الثاء والميم، جمع ثمرة كخشبة وخُشُب، والباقون بفتحهما اسم جنس شجرة وشجر.

(٣) قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم ويعقوب (حَصَادِه) بفتح الحاء، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

ومنها ما لا يثمر، خلق الله كل ذلك للإنسان، وأنعم عليه بها و﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ من الثمر والتمر والحبوب الذي يحتاجه الإنسان، والمراد كل ما يُقتات ويدَّخر، والتمر غذاء رئيس، وهو في أهميته كالحبوب التي يكون منها الخبز ونحوه.

وخلق سبحانه الفاكهة على مختلف ألوانها وأشكالها ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ في الشكل والمنظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في ثمره وطعمه وذوقه.

وفي هذه الآية امتنان من الله تعالى بما أنعم به على خلقه من الزروع والثمار التي أساء المشركون استخدامها.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام]. وفيها امتنان على خلقه بأن الله هو الصانع المتفرد بالخلق، وختم كلًّا من الآيتين بما يناسب السياق.

ثم توجَّه سبحانه بالخطاب إلى المؤمنين فقال: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ هو أمر إباحة أي: أباح الله لكم أن تأكلوا من ثمره ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ حيث أحل لكم أن تأكلوا منه إذا صار صالحًا للأكل، ولذَّ وطاب، وفي هذا **أدلة على وحدانية الله تعالى**، منها:

١- أن المتغيرات لا بد لها من مُغيِّر، وهو الله سبحانه.

٢- أن الله تعالى لو شاء لم يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه لا يلزم أن يكون جميل المنظر، طيب الطعم، سهل الجني.

٣- وأنّ هذا الماء الذي من شأنه الرسوب في الأرض، يصعد بقدرة الله تعالى من أسفل الشجرة إلى أعلاها فينشأ الورق والثمر واللون الزاهر[1].

ثم أدوا حق الله منه: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ أي: يوم قَطْعه وجُذاذه، وهو حق

---

(١) يُنظَر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٩٩).

الفقير والضعيف والقريب والجار، وسماه الله حقًّا في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج].

وهذه الجملة ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ هي الموجبة لزكاة الزروع والثمار من كل ما يقتات ويدَّخر، وأنه لا حول لها، عند جمهور الفقهاء، وفي عموم الزروع والثمار بما فيها الخضراوات عند أبي حنيفة، أي: أخرجوا الزكاة منه يوم حصاده، وحصاد الزرع بمنزلة حَوَلَان الحَوْل، وهو الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء.

وهذه الآية مكية؛ لأن سورة الأنعام نزلت بمكة.

والزكاة فرضت، بصورة مجملة، في مكة قبل الهجرة، وجاء ذكرها في آيات كثيرة نزلت بمكة منها سور: المزمل، والبينة، وفصلت، وغيرها، ثم فصَّل النبي ﷺ في المدينة أنصبة الزكاة وحدودها ومقاديرها، فبيَّن عليه الصلاة والسلام أن الذي يجب فيه الزكاة من الزروع والثمار هو ما بلغ ثلاث مئة صاع، وأن مقدار الزكاة فيما سقت السماء والعيون أي: فيما سُقي بالمطر دون تكلفة ودون جَهد ولا مشقة يخرج منه العشر، وفيما سقي بالنضح والآلة وجَهد الإنسان يخرج منه نصف العشر، كما في الحديث عن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«فيما سقت السماء والعيون العُشْرُ، وفيما سُقي بالنضح نصف العُشْرِ»**[1].

وفي الزروع والثمار حق سوى الزكاة، كما أن في المال حقًّا سوى الزكاة، وقد كان الواحد من أهل المدينة في عهد رسول الله ﷺ إذا غرس نخلًا، وقطع العذْق أو القنْو علَّقه في جانب المسجد يأكل منه المحتاج والمسكين، وما يتساقط ويتناثر من الزروع والثمار يتركه للمسلمين.

وقد حدث أن ثابت بن قيس بن شماس قطع في يوم واحد خمس مئة نخلة، ثم قال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمتُه، فأطعم حتى أمسى، حتى وزَّع ثمار نخيله، ولم يبق عنده في المساء ثمرة واحدة.

(١) «صحيح البخاري» (١٤٨٣) وفي صحيح برقم (١٤٦٤).

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ: «**أَمَر من كُل جادٍّ**[1] **بعشرة أوسق من التمر، بقنوٍ يعلَّق في المسجد للمساكين**»[2].

وقد ذم الله أصحاب الجنة، في سورة القلم، وهم الذين حَرَمُوا المساكين من ثمر حديقتهم، وقد عاقبهم الله تعالى بأن أصبحت حديقتهم سوداء محترقة، لا زرع فيها ولا ثمر.

والله ﷻ ينهى عن الإسراف في كل شيء فيقول: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أي: ولا تسرفوا في إخراج الصدقة أو الزكاة؛ حتى يبقى لأولادكم وأهليكم شيء فأخرجوا حق الله، وأخرجوا ما تطيب به أنفسكم من الصدقة فوق ذلك، وابدؤوا بأهليكم وعيالكم.

قال أبوالعالية: كانوا يعطون شيئًا عند الحصاد، ثم تباروْا وأسرفوا فنزلت الآية.

وفي حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال «**كلوا واشربوا والبسوا، وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة**»[3].

ولا تسرفوا أيضًا في الأكل والشرب، ولا تتجاوزوا حد الاعتدال في كل شيء، ولا تجعلوا شيئًا من ذلك للآلهة، ولا للأصنام ولا للقبور، ولا للصالحين ولا لمشايخ الطرق، فالمعنيان محتملان ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ لأن الإفراط في تناول الملذات يفضي إلى استنزاف المال وطلب تحصيله من وجوه غير مشروعة. قال تعالى:

١٤٢- ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ[4] ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

---

(١) أي: من كل مجدود، وهو المجذوذ المقطوع من النخل، يتصدق من كل عشرة أوسق بقنْوٍ يعلَّق في المسجد للفقراء.

(٢) «المسند» (٣/ ٣٥٩) برقم (١٤٨٦٦) بإسناد حسن، من أجل محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) و«سنن أبي داود» برقم (١٦٦٢)، وأبي يعلى (٢٠٣٨) وابن حبان (٣٢٨٩) وابن خزيمة (٢٤٦٩).

(٣) رواه البخاري معلَّقا كما في فتح الباري (١٠/ ٢٥٢) وقد وصله ابن أبي الدنيا برقم (٥١) في كتاب الشكر وهو في «المسند» (٦٦٩٥، ٦٧٠٨) بإسناد حسن وابن أبي شيبة (٨/ ٤٠٥) وابن ماجه (٣٦٠٥).

(٤) قرأ ابن كثير بخلف عن البزي، وابن عامر وحفص والكسائي وأبو جعفر ويعقوب (خُطُوَات) بضم الطاء، والباقون بإسكانها وهو الوجه الثاني للبزي.

تحدثت هذه الآية عن الإبل التي حرمها أهل الجاهلية على أنفسهم، فبيَّنت أن الله تعالى قد خلق للناس صغار الإبل وكبارها، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً﴾ أي: خلق الله لكم الإبل ذات القوائم العالية التي تحمل المتاع لكبرها وارتفاعها.

كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النحل].

ومنها تأكلون، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ [غافر]. أي: وتحملون عليها أثقالكم.

وخلق لكم الفرْش، وهي الإبل الصغيرة ﴿وَفَرْشًا﴾ وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه.

وقيل: هي الغنم والبقر التي لا تحمل المتاع؛ لصغرها وقربها من الأرض، قال تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢﴾ [يس].

وقال أيضًا: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل: ٦٦]. وبعضها تحملون عليه وتركبون، وبعضها لا تصلح للحمل ولا للركوب.

وعلى هذا فالحمولة: ما تركبون، والفرش: ما تأكلون وما تحلبون من الإبل والبقر والغنم ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: كلوا مما أحله الله لكم من الأنعام والزروع والثمار؛ فالله سبحانه لم يحرِّم منها شيئًا عليكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ في تحريم ما أحل الله كما فعل المشركون ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

قال تعالى مبيِّنا أصناف الأنعام الثمانية؛ وبدأ بالغنم:

١٤٣- ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ[(١)] ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ[(٢)] حَرَّمَ أَمِ

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بخلف عن هشام ويعقوب (ومن المَعَزِ) بفتح العين، والباقون بإسكانها وهو الوجه الثاني لهشام، وهما لغتان.

(٢) (ءالذكرين) معًا، اجتمع في هذه الكلمة همزة الاستفهام وهي الأولى وهمزة الوصل، وهي الثانية، ولجميع القراء في همزة الوصل وجهان: أحدهما: إبدالها ألفًا خالصًا مع المد ست حركات وثانيهما: تسهيلها بينها وبين الألف، ولا يقرأ بالتسهيل على قصر المد المنفصل مع توسط المد المتصل.

ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي(١) بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

فصَّلت هاتان الآيتان أنواع الأنعام، فبيَّنت أنها ثمانية، أربعة ذكور وأربع إناث؛ كلها مخلوقة لله تعالى لنفع الإنسان، منها الحمولة والفرش، وليس منها: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، والله تعالى لم يحرِّم شيئًا منها، ولا من أولادها، وكلها لبني آدم: أكلًا، وركوبًا، وحمولة، وحلبًا، وغير ذلك من المنافع.

وقد ذكرت هذه الآية أربعة من الثمانية، وفي الآية التالية الأربعة الأخرى ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ يطلق الزوج على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه بزواجه منه، أي: خلق لكم من الأنعام ثمانية أصناف، ثم فسَّرها بقوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى: الكبش والنعجة، وهي الغنم، والضأن: هو ما كان به صوف ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى: التيس والعنز، والمعز: هو ذوات الشعر من الغنم، ثم أمر الله رسوله أن يجادل المشركين ويبطل مزاعمهم.

﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول - لهؤلاء الذين حرموا على أنفسهم ما أحل الله، قل لهم على وجه الزجر والتوبيخ ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ من الضأن والمعز ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ حرَّم منهما ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: أم حرَّم الأجنة التي في بطونها، وهي لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى، فيلزمكم تحريم جميع الذكور والإناث، وأنتم لم تلتزموا بشيء من هذا التقسيم، فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة التي حصرت الأقسام الممكنة فإلى أي شيء تذهبون؟! وفي هذا تقرير وتوبيخ لهم؛ لأن الله تعالى لم يحرم شيئًا منها.

وأول من دخل في هذه الآية: عمرو بن لحيٍّ، الذي سيَّب السائبة، ووصل الوصيلة(٢).

﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ أخبروني بيقين، في قولكم ودعواكم، فإن التشريع لا يكون عن ظن، وبيِّنوا لي على وجه التأكيد، ماذا حرمتم على أنفسكم من هذه الأصناف الأربعة المذكورة في الآية ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أن الله حرمها عليكم، وهم لا يقولون بشيء منها.

---

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم ما قبل الواو من (نبئوني) وصلًا ووقفًا، وقف عليها حمزة، بالحذف، والتسهيل بين بين، وإبدالها ياء مضمومة.

(٢) جاء ذلك في حديث صحيح عن عائشة ﷺ أخرجه البخاري برقم (٣٥٢١، ٤٦٢٣، ٤٦٢٤) ومسلم (٩٠١، ٢٨٥٦) وفيه أنه يجر أمعاءه في النار؛ لأنه أول من غيَّر دين الأنبياء.

قل لهم: هل حرم الله عليكم الذكرين من الغنم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا في ذلك، لأنهم لا يحرمون كل ذكر من الضأن، والمعز.

وقل لهم: هل حرم عليكم الأنثيين من الغنم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضًا؛ لأنهم لا يحرمون كل أنثى من ولد الضأن، والمعز.

ثم قل لهم: هل حرم الله عليكم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن، والمعز من الحمل؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا؛ لأنهم لا يحرمون كل حمْل منها، فأخبروني، إذًا، عن صحة قولكم فيما نسبتموه إلى ربكم، ثم قال تعالى في الإبل والبقر:

١٤٤- ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ[1] إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

وفي هذه الآية ذكر للإبل والبقر، بمثل ما في الآية السابقة بشأن الضأن والمعز:

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى، فهذه الأصناف الأربعة بقية الثمانية، فأي منها حرم الله عليكم الذكور، أم الإناث؟ ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أم الأجنة التي في بطون الإناث منها ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟ وكانوا يحرمون الذكور تارة، والإناث تارة، وما في بطونها من الأجنة تارة، أم كنتم، أيها المشركون، حاضرين حين حرم الله هذه الأنعام، فشاهدتموه وسمعتموه، وأنتم لا تقرون بالنبوة ولا بالوحي! فكيف تثبتون هذا دون مستند ولا حجة؟! وذلك أن ما حرمتموه إما أن يكون أمرًا تعبُّديًا، وإما أن يكون أمرًا معلَّلًا، وقد بطل كونه معلَّلًا بالذكورة أو الأنوثة أو الأجنة؛ لأن العلة غير مطردة في الذكور أو الإناث؛ لأنكم حرمتم بعضًا وحلَّلتم بعضًا، ويبطل كونها أمرًا تعبديًا؛ لأنها لم تؤخذ عن الله ورسله؛ فالله تعالى لم يوصِ أحدًا من رسله بهذا، ولهذا أنكر الله عليهم ما فعلوه وبين أنه لا حيلة لهم في الخروج عما ذُكر إلا في اتباع شرع الله، وذلك في قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ فلا أحد أشد

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، بتسهيل الهمزة الثانية بين بين من (شهداء إذ)، والباقون بتحقيقها.

ظلمًا ممن كذب على الله، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرمه؛ ليضل الناس ويصدهم عن سبيل الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لا أحد أشد ظلمًا من هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب، وهم درجات:

١- فمنهم كبار المشركين الذين وضعوا عبادة الأصنام كعمرو بن لُحي، وهم أظلم الظالمين.

٢- ومنهم الذين جعلوا من أموالهم شيئًا لبيوت الأصنام وسدنتها، وهم المفترون على الله الكذب.

٣- ومنهم من اتبع هؤلاء فشاركوهم وقلَّدوهم في الضلال، وهؤلاء متبعون لأهل الضلال، وكان الواجب عليهم اتباع الرسل، ولكنهم صدقوا الكذبة ونصروهم.

والله تعالى لا يوفق للرشد من تجاوز حده، فكذب على ربه، وأضل الناس بغير علم ولا بصيرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يقولون: هذه أنعام، وحرث حجر، ويقولون: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا، ويحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

فلما جاء الإسلام، وثبتت الأحكام جادلوا النبي ﷺ في ذلك، وكان خطيبهم مالك بن عوف الجشمي فقال: يا محمد، بلغنا أنك تحرم أشياء مما كان آباؤنا يفعلونه، فقال ﷺ: خلَق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها، فمن أين جاء هذا التحريم؟ فسكت مالك بن عوف، ولم يتكلم.

وعمرو بن لحيٍّ هو أول من بحر البحيرة، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، وغيَّر دين إبراهيم، ويدخل في هذا كل من أدخل في دين الله ما ليس منه، فابتدع شيئًا ونسبه إلى الله تعالى[١].

---

(١) يُنظَر: «تفسير البغوي» و«الخازن» للآية.

التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الوَحْي

١٤٥- ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ[1] مَيْتَةً[2] أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ[3] ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

بيَّن الله ﷻ أن التحليل والتحريم لا يكون إلا عن طريق الوحي، فالله سبحانه هو خالق الزروع والأنعام، وما أحله فهو الحلال، وما حرمه فهو الحرام، فلله وحده حق التشريع فيما خلق وفيما رزق، والأصل في الأشياء الحل إلا ما ورد الشرع بتحريمه، وكان المشركون قد تساءلوا بعد أن ذم الله ما حرموه على أنفسهم وقالوا: فما المحَرَّمُ إذن؟ فأنزل الله تعالى على رسوله يخبرهم ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ قل لهم: يا محمد إني لا أجد فيما أوحاه الله إليَّ في الكتاب والسنة شيئًا محرمًا على من يأكله مما تذكرون أنه محرم من الأنعام، إلا هذه المحرمات الأربع التي ثبتت بالنص القاطع، وهي: الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما ذبح على غير اسم الله:

١- فكل دابة ماتت من غير تذكية شرعية فهي حرام.

٢-وكل دم سائل مراق فهو حرام.

٣-وكل لحم خنزير أو شحمه أو مشتقاته فهو حرام رجس نجس.

٤- وكل ما كانت ذكاته خروجًا على طاعة الله تعالى، كالذي يذبح على غير اسم الله فهو حرام كذلك.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أي: جاريًا سائلًا، أما

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (يكون) بالتذكير، وقرأ الباقون بالتأنيث.

(٢) قرأ ابن عامر برفع (مَيْتةٌ) مع سكون الياء، وقرأ أبو جعفر برفعها أيضًا، ولكن مع تشديد الياء، وقرأ الباقون بالنصب مع سكون الياء ونصب (ميتةً) على أنها خبر (يكون) واسمها ضمير يعود على (محرمًا) وأنث الفعل لتأنيث الخبر، ورفع (ميتة) على أن كان تامة، بمعنى توجد ميتة.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر النون وصلًا من (فمن اضطر)، وقرأ أبو جعفر بضم النون وكسر الطاء، وقرأ الباقون مثل أبي جعفر ولكن بضم الطاء.

الدم المختلط باللحم والخارج من مرق اللحم، وكل ما شاكل هذا فهو حلال معفوٌّ عنه، كما حرم الإسلام لحم الخنزير وشحْمه ومشتقاته، فقال تعالى عطفًا على التحريم: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ أي: نجس محرم، تعافه الطباع السليمة، ويضر الأبدان، وهو خبيث مستقذر ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ فكل ما ذُبح على غير اسم الله تعالى فهو فسق وخروج على طاعته، ومن ذلك ما يذبح على النصب، وما ذُبح للجن، أو ذُبح لأصحاب القبور، والإهلال هو رفع الصوت بالبسملة عند الذبح في التذكية الشرعية.

وقد كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء، ويستحلون أشياء فنزلت هذه الآية.

قال عمرو بن دينار: قلت لجابر بن زيد: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمُر الأهلية زمن خيبر، فقال: قد كان يقول ذلك الحكَم بن عبد الغفار عندنا بالبصرة عن رسول الله ﷺ، ولكن أبى ذلك الحبر ابن عباس، وقرأ هذه الآية[1].

وعن عكرمة أن رجلًا جاء إلى ابن عباس، فقال له: آكل الطحال؟ قال: نعم، قال: إن عامَّتَها دم! قال: إنما حرم الله الدم المسفوح[2].

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة] ونظير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل]

فآية الأنعام آية مكية، وكذا آية النحل، وقد جاءت بصيغة الخبر موافقة لآية البقرة المدنية، وآية المائدة توضح وتفصل آيات سور: البقرة، والأنعام، والنحل.

وتلحق بالميْتة: المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، فهي في حكم الميتة، ولم يكن في الشريعة وقت نزول السور المكية شيء محرم غير ما ذُكِر فيها من المحرمات الأربع. وهذه الآية ليس فيها حصر للمحرمات، وإنما هي تردُّ على مزاعم المشركين.

وقد جاء في السنة تحريم لحوم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير:

---

(١) البخاري (٥٥٢٩) وأبو داود (٣٨٠٨)

(٢) ابن أبي شيبة (٨/ ٦٨) وابن أبي حاتم (٨٠٠٩) والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٧)

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المعنى:

١- ففي الحديث عن المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لُقَطَةُ معاهَد إلا أن يستغني عنها صاحبها. . الحديث»**[1].

٢- وعن ابن عباس: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير[2].

٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية[3].

٤- وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ: نهى عن أكل الهرِّ وأكل ثمنه[4].

واستثنى الشارع الحكيم من الميتة: السمك والجراد، ومن الدم: الكبد والطحال.

٥- وفي الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم، الحية والغراب الأبقع، والفأرة والكلب العقور والحُدَيَّا»**[5].

٦- وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ: **«أمر بقتل الوزغ»**[6].

ونهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَد كما

---

(١) «المسند» (١٧/٧٤) برقم (١٧١٧٤) إسناده صحيح ورجاله ثقات (محققوه) رواه أبو داود برقم (٤٦٠٤) والترمذي بنحوه وقال: حديث حسن غريب. ورواه ابن حبان برقم (١٢) وفي مسند الشاميين برقم (١٠٦١) وصححه الألباني في صفة الصلاة ص١٧١.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٩٣٤) وأبو داود (٣٨٠٥) والنسائي (٤٣٥٩) وابن ماجه (٣٢٣٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٢١٧، ٤٢١٨، ٤٢١٩) ومسلم (٥٦١) والنسائي (٤٣٤٧، ٨٣٤٨).

(٤) صحيح «سنن أبي داود» (٢٩٧١) بلفظ (نهى عن ثمن الهرة) وهو في السنن (٣٤٨٠)، والترمذي (١٢٨٠) وابن ماجه (٣٢٥٠).

(٥) من حديث عائشة في «صحيح مسلم» برقم (١١٩٨) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣١٤) وصحيح سنن ابن ماجه (٢٥٠٥) وفي ابن ماجه (٣٠٨٧).

(٦) وجاء أيضًا عن أم شريك، يُنظَر: البخاري (٣٣٠٧، ٣٣٥٩) ومسلم (٢٢٣٧).

في حديث ابن عباس ﷺ[١].

٧- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ جاءه جاءٍ فقال: أُكِلت الحمُر، ثم جاء جاءٍ فقال: أُفنيت الحمُر، فأمر مناديًا، فنادى في الناس: إن الله ورسوله ينهيانِكم عن لحوم الحمر الأهلية؛ فإنها رجس، فأُكفئت القدور وإنها لتفور باللحم[٢].

٨- وعن ابن عمر ﷺ قال: من يأكل الغراب؟وقد سماه رسول الله: «**فاسقًا**»؟ والله ما هو من الطيبات[٣].

٩- وعن عبد الرحمن بن أبي عمَّار قال: قلت لجابر: الضَّبُع، أصيدها ؟ قال: نعم، قلتُ: آكلها؟ قال: نعم، قلت: أشيء سمعتَ من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم[٤].

١٠- وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل عن الضب فقال: «**لستُ آكله ولا أُحرِّمه**»[٥].

فهذا كله حرام لا يجوز أكله، وما عدا ذلك فمرجعه إلى الغالب من عادات العرب.

١١- عن ابن عباس ﷺ قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرًا، فبعث الله نبيه، وأنزل كتابه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وتلا: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية[٦].

١٢- وعن ابن عباس أيضًا ﷺ قال: ماتت شاة لسوْدة بنت زَمْعة، فقالت: يا رسول

---

(١) من حديث ابن عباس في «المسند» (٣٠٦٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأبي داود (٥٢٦٧) وابن ماجه (٣٢٢٤) وابن حبان (٥٦٤٦)، ومصنف عبدالرزاق (٨٤١٥) وعبد بن حميد (٦٥٠) والدارمي (١٩٩٩).

(٢) البخاري (٢٩٩١، ٤١٩٨، ٥٥٢٨) ومسلم (١٩٤٠) وابن أبي شيبة (٨/ ٧٤).

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٢٨) وابن ماجه (٣٢٤٨) وهو في السلسلة الصحيحة (١٨٢٥).

(٤) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٢٠) وأبو داود (٣٨٠١) والترمذي (٨٥١، ١٧٩١) والنسائي (٤٣٥٧، ٤٣٥٨). وإرواء الغليل (١٠٥٠) بتصحيح الألباني.

(٥) الموطأ (٢/ ٩٦٨) و«شفاء العي» للشافعي (٦١١) وابن أبي شيبة (٨/ ٧٨) والبخاري (٥٥٣٦) ومسلم (١٩٤٣) والترمذي (١٧٩٠) والنسائي (٤٣٢٥) وابن ماجه (٣٢٤٢)، وصحيح ابن ماجه (٦٢٤).

(٦) صححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرك» (٤/ ١١٥) وهو في «سنن أبي داود» برقم (٣٨٠٠) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٣٢٢٥) وهو عند ابن أبي حاتم (٨٠٠٠)

الله، ماتت فلانة -تعني الشاة- قال: «**فلِمَ لا أخذتم مَسْكها؟**» قالت: نأخذ مَسْك شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «**إنما قال الله:** ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ وإنكم لا تَطْعَمُونه، أي تدْبُغوه فتنتفعوا به، فأرسلتْ، فسلَختْ مَسْكها فدبغتْه، فاتخذتْ منه قِرْبة حتى تخرقت عندها»[1].

١٣ - وعن ابن عباس ﷺ قال: وجد النبي ﷺ شاة ميتة أعطتها مولاة لميمونة من الصدقة، فقال ﷺ: «**هلَّا انتفعتم بجلدها؟**» قالوا: إنها ميتة! قال: «**إنما حُرِّم أكلها**»[2].

هذا: وقد قيل: إن هذه الآية نزلت قبل تحريم ما زاد عليها من السنة، فهذا الحصر الوارد في الآية لا ينافي ما جاءت به السنة بعد ذلك، لأنه لم يكن محرما وقت نزول الآية.

وقيل: إن الآية مشتملة على سائر المحرمات بعضها صريحًا، وبعضها يؤخذ من المعنى ومن عموم العلة.

فمن اضطر إلى الأكل من هذه المحرمات بسبب شدة الجوع، أو ضرورة قاهرة ألجأته إلى الأكل من هذه المحرمات، فليأكل ما يسد الرمق من غير تلذذ بأكله، ولا تجاوز لحد الضرورة التي تقيم الأود، وتحفظ على المرء حياته فلا حرج عليه ولا إثم ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ له ﴿رَّحِيمٌ﴾ به.

هذا ما حرمه على المسلمين، فماذا حرم على اليهود؟

تَحْرِيم الحَلَالِ عقوبَةً لِليَهودِ

١٤٦- ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

لقد كذَّب الله اليهود في قولهم: إن الله لم يحرم علينا شيئًا، وإنما حرمنا على أنفسنا ما

---

(١) «المسند» (١/ ٣٢٧) برقم (٣٠٢٦) حديث صحيح ورجال ثقات، والبخاري برقم (٦٦٨٦) والنسائي (٧/ ١٧٣) برقم (٤٢٥١) والطبراني برقم (١١٧٦٥، ١١٧٦٦) وابن أبي حاتم (٨٠٠٣، ٨٠٠٥) وأبو يعلى (٢٣٣٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٤٩٢، ٢٢٢١، ٥٥٣١، ٥٥٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (٣٦٣، ٣٦٥).

حرَّمه إسرائيل على نفسه، فأخبر الله سبحانه في هذه الآية بتحريم الشحوم، وكل ما كان له ظفر من الحيوان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ أي: أن الله تعالى حرم على اليهود كل ذي ظفر من الحيوان، أي: كل حيوان قَدمُه غير مشقوقة؛ وذلك كالإبل، والنعام، والأوز، والبط، وكل ذي حافر من الدواب، والظفر هو الحافر، والمراد به ما ليس بمنفرج الأصابع من الدواب، وحرم عليهم كذلك كل ذي مخلب من الطير، ثم قال سبحانه:

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: أن الله تعالى حرم على اليهود شحوم البقر والغنم، وهي شحم البطن الذي على الكرش والكلى، واستثنى الله تعالى من تلك الشحوم **ثلاثة أماكن**:

الأول منها: هو الشحم الذي على الظهر والجنب ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ من الشحم فإنه غير محرم على اليهود.

والثاني: الشحم الملتف بالأمعاء ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وهي المباعر والمصارين، والمراد: الشحم الملتصق بهما.

والثالث: الشحم المختلط بعظم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ كشحم الألية فإنه مختلط بالعصعص، والشحم الذي يكون في الجنب والرأس والعين، فكله حلال على اليهود. وهذه الحرمة خاصة باليهود، عقوبة لهم، فلا تحرمُ على المسلمين، ولو ذبحها اليهود؛ لأنه تحريم مؤقت إلى مجيء الشريعة الخالدة.

في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «.. **قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها، جَمَلُوه، ثم باعوه وأكلوا ثمنه**»[1]. ومعنى (جملوه) أي: أذابوه.

والمعنى: أن الله تعالى لما حرم عليهم أكل الشحوم حرم عليهم ثمنها فاستحلوا ما حرَّم الله وباعوها.

---

(١) رواه الجماعة: البخاري (٤/ ٤٢٤) برقم (٢٢٣٦، ٤٢٩٦، ٤٦٣٣) ومسلم (٣/ ١٢٠٧) برقم (١٥٨١) وأبو داود (٣/ ٧٥٦) برقم (٣٤٨٦) والترمذي (٣/ ٥٨٢) برقم (١٢٩٧) والنسائي (٧/ ٣٠٩) وابن ماجه (٢/ ٧٣٢) برقم (٢١٦٧) وأوله «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة».

ثم بيَّن ﷻ أن هذا التحريم كان عقوبة لهم بسبب بغيهم وظلمهم، وهو قتل الأنبياء، وأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرنا به عنهم، من تحريم بعض الطيبات عليهم، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه وأنهم حرموه على أنفسهم لتحريم إسرائيل له على نفسه، والذي حرمه يعقوب على نفسه، هو لحوم الإبل وألبانها بسبب نذر نذره، أو مصلحة بدنية لا تتعداه إلى ذريته، قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وقد أجملت آية سورة النساء ما حرمه الله على اليهود بسبب ظلمهم وجرمهم في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

فسبب هذا التحريم خاص باليهود، ويعقوب لم يحرم على نفسه شيئًا .

وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ كان قاعدا خلف المقام، فرفع بصره إلى السماء فقال: **«لعن الله اليهود -ثلاثًا-، إن الله حرم عَليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، إن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه»**[1].

١٤٧- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ[2] عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

ثم لقَّن الله رسوله الجواب في تحريم كل ذي ظفر وبعض الشحوم، وهذا شأن اليهود في التكذيب، فقد كذبوا ما حرمه الله عليهم من اللحوم، وقالوا: إن ما حرمه إسرائيل فنحن نحرمه، كما قال السدِّي.

قال تعالى في الرد عليهم: فإن كذَّبك -يا محمد- اليهودُ فيما أخبرتهم به مما حرمه الله

---

(١) يُنظَر «صحيح البخاري» برقم (٢٢٢٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٨٣) عن أبي هريرة وأبي داود برقم (٣٤٨٨) من حديث خالد الحذاء وصحيح «سنن أبي داود» (٢٩٧٨) وأحمد (١/ ٢٤٧) برقم (٢٢٢١، ٢٦٧٨) وابن مردويه وابن عبد البر في «التمهيد» (٩/ ٤٤).

(٢) أبدل همزة (بأسه) أبو عمر ويخلف عنه وأبو جعفر، وكذا حمزة عند الوقف.

عليهم، وقالوا: لم يحرم علينا شيء، وإنما حرمنا ما حرم يعقوب على نفسه، فقل لهم متعجبًا ومذكرًا لهم برحمة الله وعذابه: ربكم جلَّ وعلا ذو رحمة واسعة تشمل المحسن والمسيء، والمؤمن وغير المؤمن، ومن مظاهر رحمته جلَّ وعلا أنه لم يعجِّل لكم العقوبة في الدنيا؛ لأن بعضكم قد يتوب.

ومن رحمته سبحانه إمهال الكافر في هذه الدنيا، وعدم التعجيل بأخذه قبل أن يأتي أجله ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي فإن كذبك اليهود، فاستمرْ في دعوتك بالترغيب والترهيب، وأخبرهم ببأس الله وانتقامه.

﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ ولا تغتروا بسعة رحمة الله؛ فإن له بأسًا وانتقامًا وبقدْر ما يطمع العصاة في رحمة الله تعالى بقدْر ما يجب عليهم أن يرهبوا بأس الله تعالى؛ فإن عقاب الله تعالى وعذابه إذا نزل بمن كذَّب أنبياء الله وكفر بما جاؤوا به، وكذا نقمته ممن اجترح السيئات واكتسب الذنوب، ليس في وسع أحد أن يرده، أو يدفعه.

وفي الآية ترغيب في رحمة الله تعالى، وترهيب من مخالفة أمره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال سبحانه: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

وقال أيضًا: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: إن عقاب الله تعالى لا يمنعه مانع إذا نزل بهم بسبب استمرارهم في العناد والتكذيب، فاحذروا عقاب الله، ولا تأمنوا مكره.

وفي هذا تهديد ووعيد لهم، وتحذير من الكفر والطغيان والبغي والعدوان؛ حتى يعتبروا ويعودوا إلى الحق.

العِبَادُ مُخَيَّرُونَ وَلَيْسُوا مُسَيَّرِينَ

١٤٨- ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن المشركين سيحتجُّون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله، بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله تعالى حجة في دفع اللوم عنهم، فبيّن سبحانه أنه لا حجة للمشركين في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ وذلك أنه عندما يضيق الخناق على اليهود الذين يحرمون ما أحل الله، وعندما يضيق الخناق على أهل الشرك والضلال وتلزمهم الحجة، يُلْقُون باللائمة على غيرهم، فيقولون: إنهم مجبَرون لا مخيَّرون، ولو شاء الله لألهمنا الإيمان، وحال بيننا وبين الكفر والشرك، فلو شاء الله لنا الهداية لاهتدينا، ولو أراد الله ألا نشرك به شيئًا نحن وآباؤنا الفعل، ولو أراد الله ألا نحُرِّم شيئاً، ما فعلنا ذلك، وهذه شبهة قديمة متجددة: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ وهذا كلام باطل، كما يقول بعضهم: هذه إرادة الله وهذه مشيئته، والمكلف من خلق الله لا يعرف مشيئة الله ولا إرادته، وهو مكلف بتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي، والله تعالى قادر على هداية الناس جميعًا، ولكنه سبحانه خلق لذلك خلقًا آخر هم الملائكة، فلسنا نسخة مكررة منهم، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ولم يشأ الله سبحانه أن يجعلنا كالبهائم بلا عقول، ولا تكليف، ولا قدرة لنا على اختيار الهدى والضلال، وإنما جعل الله الإنسان خلقًا متميزًا بعقله وشهوته، وإرادته وقدرته على اختيار طريق الحق أو الضلال، فإن اختار طريق الهدى فهو من السعداء، وإن اختار طريق الضلال فهو من الأشقياء.

والله سبحانه لم يتركنا لعقولنا فحسب، بل أرسل لنا الرسل وأنزل علينا الكتب، وبيَّن الخير والشر، فعلى المكلف أن يأتمر بما أمره الله، وينتهي عما نهى الله، ولا يُلْقي بالتَّبعة على غيره إذا ضل الطريق، وينسبها إلى إرادة الله التي لا يعرفها، وعلى المؤمن أن يعتقد أنه لا يقع في مُلْك الله إلا ما يريد؛ لأن الله تعالى لا يخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو سبحانه يعلم ما هو كائن وما سيكون وما كان، فليس للمشركين عذر في ترك الإيمان، وليس لهم حجة فيما فعلوه؛ لأن الله تعالى لم يأمر بكل ما أراده، وعلى العبد أن يتَّبع أمْره سبحانه، وليس له أن يتعلق بمشيئته تعالى؛ فإن مشيئته، سبحانه، ليست عذرًا

لأحد في مخالفته لأمر الله تعالى ونهيه، فالله تعالى يشاء الكفر من الكافر، ولكنه لم يأمره به، ونهاه عنه،وأوامر الله تعالى ونواهيه معلومة على وجه القطع، ولا يصح ترك ما هو قطعي إلى الحدْس والظن الذي يظنونه؛فإن مشيئة الله تعالى غيب ولا سبيل إلى معرفتها.

وهذه الآية من معجزات القرآن،فهي تُخبر بأمر غيبي، هو أن المشركين سيقولون ذلك

ثم إن الله، تعالى، يرد عليهم مقولتهم الكاذبة في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: أن هذه الشبهة قد أثارها مَنْ قبلهم، وكذبوا بها رسل الله، واستمروا على ذلك حتى ذاقوا بأس الله ونقمته.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف].

وبمثل هذا التكذيب كذَّب مَنْ قبلهم ممن انغمس في الضلال من خلق الله، وفي هذا إشارة إلى أنهم لم يعتذروا عن ارتكاب القبائح، وإنما أرادوا الاحتجاج على أن ما فعلوه من تحريم الحرث والزرع، حق مشروع مَرْضِيٌّ عند الله تعالى، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ [النحل: ٣٥].

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف].

ولا شك أن كل شيء بمشيئة الله، وهذا لا يعني أن كل ما تعلقت به المشيئة هو أمر مشروع ومرضيٌّ عنه؛ فالله تعالى لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧].

ثم إن الله تعالى يطالبهم بإقامة الدليل على مزاعمهم في قوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ﴾ وفي هذا توبيخ لهم، وإنكار عليهم، أي: هل عندكم فيما أشركتموه مع

الله، وما حرمتموه من الحرث والأنعام، وما زعمتموه من أن الله تعالى قد شاء لكم الكفر ورضيه منكم وأحبه لكم، هل عندكم من علم صحيح ودليل واضح فتظهروه لنا؟ وقد بيَّنا لكم خطأ قولكم وتناقضَ فِعْلكم المبني على الخَرص والظن ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فلا تكْذِبوا على الله، ولا تتقوَّلوا عليه بالباطل، وإذن فليس لكم حجة فيما زعمتم؛ لأنه تخمين بلا علم ولا يقين ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تتوهمون وتكذبون على الله بلا حجة ولا مستند. قال تعالى:

١٤٩- ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

ومادامت حجتكم قد انقطعت؛ لأنها تقوم على الظن والتخمين وسوء التأويل؛ فإن لله تعالى الحجة البالغة على عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولا حجة لمن عصى الله تعالى أو أشرك به؛ لأن حجة الله الواضحة تقطع كل ظن وتخمين، والله تعالى لا يعجزه شيء ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكنه سبحانه لم يشأ أن يوفق الجميع لطريق الاستقامة، ولو شاء الله إيمان الكافر لفعل، ولكنه سبحانه لا يسأل عما يفعل.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

ولكنه سبحانه ترك لخلقه حرية الاختيار وتوعّد الخارجين عن طاعته بنار تُحيط بهم، وماء يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

والمعنى: قل، يا أيها الرسول، للذين بَنَوْا قواعد دينهم على أدنى درجات الظن والتخمين: لله وحده الحجة الواضحة، التي بلغت أعلى درجات العلم واليقين، فلا عذر لهم في شركهم بالله تعالى، ولو شاء، سبحانه، لصرف اختيارهم إلى طريق الحق، ولكن الله تعالى جعل في طبيعة البشر الاستعداد للخير والشر، ووهبهم العقل، وأرسل لهم الرسل لتنمية استعدادهم للخير، وعلى هذا فهم معاقبون على اختيارهم طريق الضلال،

ومأجورون على اختيارهم طريق الهدى، وسنة الله تعالى قد اقتضت أن من يفتح عينيه يبصر النور، ومن يفتح قلبه يرَ دلائل الإيمان ويهتدِ بها، ومن يحجب قلبه عنها يضل، فلا جبْر على طاعة الله، ولا قسْر على معصيته ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل]. ومما سبق يتبيّن أن الاحتجاج بالقضاء والقدر، لو كانت حجة صحيحة لدفعت عنهم العقاب ولما استحقوا العذاب، فعُلم أنها حجة فاسدة من عدة أوجه:

١- لو كانت حجة صحيحة لم تحُل بهم العقوبة.

٢- لابد أن تكون الحجة مستندة إلى العلم والبرهان لا إلى الظن والتخمين.

٣- الحجة البالغة هي التي تتفق عليها الرسل والكتب والعقول الصحيحة، وما خالف ذلك يكون باطلًا.

٤- لو كلف الله أحدا فوق طاقته لكان الاحتجاج بالقضاء والقدر ظلم محض، وحاشا لله.

٥- خلَق الله الخلق مختارين لا مجبرين، فلا يحتج على أفعالهم بالقضاء والقدر.

٦- لو أساء إلى الإنسان أحد، ثم احتج بأن هذا قضاء وقدر، ما قبل منه ولا رَضى حُجته.

٧- إن المكذبين ليس مقصودهم الاحتجاج بالقضاء والقدر، وإنما المقصود دفع الحق ورده.

تَحْرِيم مَا أَحَلَّ الله يَفْتَقِر إِلَى الدَّلِيلِ وَالبَيِّنَةِ

١٥٠- ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١٥٠﴾.

وفي نهاية هذه الآيات التي تنعى على المشركين تحريمهم على أنفسهم ما أحله الله لهم من الحرث والأنعام، يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يطلب منهم إقامة الدليل وإحضار الشهود الذين يشهدون أن الله تعالى حرَّم عليهم ما حرَّموه على أنفسهم من الحرث والأنعام، فهي مواجهة للمشركين في قضية الإشهاد على التشريع، كما واجههم في موقف الإشهاد على قضية الألوهية في أوائل السورة في قوله تعالى:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

وهنا يقول سبحانه: ﴿قُلْ﴾ لمن حرم ما أحل الله ونسب ذلك إلى الله ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أحضروا شهداءكم ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَآ﴾ والمقصود بذلك تبكيتهم وإلزامهم الحجة، وبيان أنه لا يوجد عندهم علم نافع، ولا دليل صحيح يظهرونه، على ما شرَّعوه لأنفسهم، ولا شاهد عدل يشهد لهم بذلك.

ولو فُرض أنهم شهدوا على أنفسهم كذبًا وزورًا فلا تصدقهم، وتجنَّب شهادتهم، وقد أمره الله بذلك؛ ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر، وألَّا يسلِّم لهم بما شهدوا به، ولا يصدقهم؛ لأنه إذا سلَّم بشهادتهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم، وهذا معنى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾؛ لأنهم كاذبون في شهادتهم. فهم إما أنهم لا يُحْضِرُون أحدًا يشهد لهم، فتكون دعواهم باطلة لخلوها من الشهود والبرهان، وإما أنهم يُحضرُون أحدا يشهد لهم، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم، ولهذا نهى الله رسوله عن هذه الشهادة.

أي: ولا توافق أهواء الذين حكَّموا أهواءهم، وجمعوا بين الكفر والكذب، فكذَّبوا بآيات الله الكونية التي تشهد بأنه سبحانه الخالق الرازق، وكذَّبوا أيضًا بآيات الله في هذا القرآن، وهي دلائل صريحة وحاسمة في وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، وأن له، وحده، حق التشريع والتحليل والتحريم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ فقد جمعوا بين التكذيب بآيات الله الكونية والقرآنية، وبين عدم الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر وحساب وجزاء، وهم في النهاية يشركون بربهم، ويعبدون معه غيره، فيعدلون به عبادة غيره ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

وقد وصف الله المشركين في الآية بوصفين:

أحدهما: الكذب واتباع الهوى.

وثانيهما: الكفر باليوم الآخر، والعدول عن عبادته سبحانه إلى عبادة غيره.

وقد ختم الله هذه الآيات بالجملة التي ختم بها أول آية في السورة ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

ومادام الله سبحانه لم يُحرِّم على خلقه ما حرَّمه المشركون على أنفسهم من الزروع والثمار والأنعام، في جعلهم لله نصيبًا، وللآلهة نصيبًا، وفي تحريمها على الإناث دون الذكور، وفي تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فماذا حرَّم ربنا علينا؟ الجواب في الآيات الثلاث الآتية.

الوَصَايَا العَشْر

١٥١- ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾

في الآيات الثلاث التالية بيان ما حرَّم ربنا علينا، وأمْرٌ من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ أن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرمه ربهم عليهم، وهي عشر محرمات، أو عشر وصايا؛ لأن في آخر كل منها ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ وهذه الوصايا على **أربعة أقسام**:

الأول: إصلاح العقيدة، وقد جاء ذلك في أول وصية منها.

الثاني: أربع وصايا لإصلاح الحالة الاجتماعية العامة بين الناس، جاءت كلها في الآية الأولى.

الثالث: أربع وصايا لحفظ نظام التعامل بين الناس، جاءت كلها في الآية الثانية.

الرابع: وصية جامعة لسبيل الهدى واتباع الحق، والتحرز من طرق الضلال، جاءت في الآية الثالثة.

وهذه المحرمات العشر، أو الوصايا العشر، جاء بها الإسلام في القرآن، كما جاءت على ألسنة الرسل جميعًا، جاء بها موسى في التوراة، وجاء بها عيسى في الإنجيل، بل وجاءت في الديانات الأرضية كالبوذية، وقال عنها بعض المشركين: لو لم تكن هذه الوصايا دينًا، لكانت في الناس خُلُقًا حسنًا، وهي آيات مكية نزلت في صدر الدعوة، وكان لها أثر فعال في إقبال كثير من المشركين على الإسلام. ومما ورد في فضلها من الأحاديث ما جاء:

١- عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أيكم يبايعني على ثلاث؟ ثم تلا رسول الله ﷺ**: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات، فمن وفَّى فأجره على الله، ومن انتقص منهم شيئًا فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخر إلى الآخرة، فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه» [(١)].

(١) البخاري في الحدود (٦٧٨٤) ورقم(١٨) من حديث الزهري وفي مواضع كثيرة، منها: (٣٩٩، ٣٨٩٢، ٧٤٦٨) ومسلم في الحدود (١٧٠٩) والترمذي في الحدود (١٤٣٩) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٧/ ١٤٢) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

٢- وعن ابن مسعود ﷺ قال: من سره أن يقرأ صحيفة رسول الله التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

٣- وروى البيهقي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج إلى مِنَى، وأنا وأبو بكر معه، فوقف رسول الله ﷺ على منازل القوم ومَضَارِبهم، فسلَّم عليهم، وردُّوا عليه السلام، وكان في القوم مَفْروق بنُ عمرو، وهانئُ بنُ قبيصة، والمثَنَّى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروقٌ أغلب القوم لسانًا، وأفصحهم بيانًا، فالتفت إلى رسول الله ﷺ، وقال له:

إلام تدعونا يا أخا قريش؟ فقال النبي ﷺ: **«أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تؤْوُوني وتنصروني وتمنعوني؛ حتى أؤدي حق الله الذي أمرني به، فإن قريشًا تظاهرت على أمر الله، وكذَّبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد»**.

فقال له مفروقٌ: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث.

قال مفروقٌ: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية فقال له مفروق: دعَوْتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، وقد أُفِكَ قوم كذَّبوك، وظاهروا عليك.

وقال هانئ بن قبيصة: قد سمعتُ مقالتك، واستحسنتُ قولك يا أخا قريش، ويعجبني ما تكلمت به، فبشرهم الرسول -إن آمنوا- بأرض فارس وأنهار كسرى. فقال له النعمان: اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب].

ثم نهض رسول الله ﷺ قابضًا على يد أبي بكر[٢].

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٦٤) والحاكم (٢/ ٣١٧) وقال الذهبي: صحيح، وفيه داود الأزدى وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أبو نعيم (٢١٤) والبيهقي (٢/ ٤٢٢) كلاهما في «الدلائل».

أما نصوص هذه الوصايا العشر في التوراة:

فأولها: أنا الرب إلهك الذي أَخْرَجك من أرض مصر، من بيت العبودية، لا يكُنَنَّ لك إلهٌ غيري.

ومنها: أكْرِمْ أباك وأمك؛ ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، ولا تشتهِ بنت قريبك، ولا تشتهِ امرأة قريبك، ولا عَبْدَه، ولا أَمَتَه، ولا ثَوْرَه، ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك.

وقد أقسم كعب الأحبار على أن ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أول آية في التوراة، فلعله أراد هذه الوصايا التي عُني بها اليهود عناية عظيمة.

وقد كتبها أهل الزبور في آخر زبورهم، وأهل الإنجيل في أول إنجيلهم، وهي مكتوبة في لَوْحَيْن[1].

وتأتي هذه الوصايا في مقابلة أوهام أهل الجاهلية، في تحريم ما أحل الله من الزروع والثمار والأنعام؛ لتأخذ بيد المسلم إلى قوام هذا الدين، وارتباط العبد بربه وبأسرته ومجتمعه وبالإنسانية جمعاء، وفيها إشارة إلى أن الحقائق الأولى التي قامت عليها السورة، وأولها قضية التوحيد ثم الوحي والرسالة، أصبحت واضحة، لا مفر منها، فالله يأمر، والرسول يبلِّغ، ونحن نتلَقَّى ونعمل.

وقد جاء خمسٌ من هذه الوصايا بصيغة الأمر، وخمسٌ منها بصيغة النهي، والأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده، والعكس صحيح.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ قل يا أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين حللوا وحرموا حسب أهوائهم: تعالوا لأبيِّن لكم ما حرمه ربكم عليكم، ولأتلو على مسامعكم ما أمركم به وما نهاكم عنه، فإن استجبتم وأطعتم سعدتم في دنياكم وأخراكم:

الوَصِيَّةُ الأُولَى : ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾

توحيد الله تعالى، وعدم الإشراك به، هو العقيدة الحقة والقاعدة الأساس، قبل الدخول في التكاليف الشرعية والفرائض والأحكام.

والشرك بالله هو المحرم الأول، والمنكر الأول، والظلم الأعظم، والجرم الأكبر،

(١) عن «فتح القدير» للشوكاني (٢/ ١٨٤).

وهو الذنب الذي لا يغفر إذا مات العبد عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. ومن مات على غير الشرك من الذنوب، فأمره إلى الله، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وهذا هو شرك العقيدة، والشرك الأكبر.

وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: يابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطايا، أتيتك بقرابها مغفرة، ما لم تشرك بي شيئًا، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك**»[١].

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة**»[٢].

والحديث يشير إلى أن أصحاب الكبائر لا يخلدون في النار، وأن ارتكاب الكبائر لا يسلُب اسم الإيمان عن العبد بصفة دائمة، وأن غير الموحدين لا يدخلون الجنة. وجاء في الحديث: «**أن أعظم الذنوب عند الله تعالى أن تجعل لله ندًّا وقد خلقك**»[٣].

ومن هذا القبيل ما يعتقده النصارى في نسبة الولد إلى الله تعالى، أو القول بالتثليث.

ومن شرك العقيدة ما يفعله بعض المتصوفة من الاعتقاد في عبد من عباد الله -حيٍّ، أو ميت- ليرفع له عملًا إلى الله تعالى، أو يتوسط له عنده سبحانه، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. ومن ذلك أن يعتقد العبد النفع والضر من غير الله سبحانه.

ومع أن الله تعالى أقرب إلى عبده من حبل الوريد فإن بعض الناس إذا قيل له: اعبد الله وحده لا يقبل، ولا يستريح إلا إذا أشرك معه غيره ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ

---

(١) أصله في «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠٦٨) برقم (٢٦٨٧) بمعناه و«سنن الترمذي» برقم (٢٤٩٥) وقال: هذا حديث حسن، و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٥٧) ومسند أحمد (٢١٣١١) مختصرًا وبأطول منه في (٢١٣٦٠) و(٢١٣٦٨) وهو حديث حسن، والطيالسي (٤٦٤) والبزار في مسنده (٣٩٨٨).

(٢) «صحيح مسلم» (١/ ٩٤) برقم (٩٢) والبخاري (٣/ ١١٠) برقم (١٢٣٨، ٤٤٩٧، ٦٦٨٣) وأحمد برقم (٣٦٢٥، ٤٠٣٨)

(٣) يُنظَر نصه في «البخاري» (٨/ ١٦٣) برقم (٤٤٧٧، ٦٨١١) ومسلم (١/ ٩٠) برقم (٨٦)

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات]. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر].

ومن أنواع الشرك: شرك العبادة، بمعنى أن يتوجه العبد بعبادته لغير الله تعالى، والعبادة أنواع كثيرة، فمنها: الخوف، والرجاء، والذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، ونحو ذلك.

فمن صرف شيئًا، من هذه العبادات ونحوها، لغير الله تعالى فقد أشرك بالله شركًا أكبر ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

ومن أنواع الشرك: الشرك في التشريع والحكم، بأن يتلقى العبد شرعًا أو حكمًا من غير الله تعالى، فيعتقد أنه أنسب وأصلح للبشر من شرع الله تعالى فيحكم به، أو يحكِّمه بين الناس، ويرى أن شرع الله تعالى غير مناسب لهذا الزمن ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

والعبد لا يكون مؤمنا إلا إذا رضي وسلَّم، واقتنع بحكم الله تعالى، ورأى أنه يصلح لكل زمان ومكان ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

الوَصِيَّةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

والإحسان إلى الوالدين يكون بالقول الكريم والفعل الجميل، ولين الجانب، وقضاء الحوائج، وعدم إهانتهما بقول أو فعل أو همز أو لمز، وهو ضد العقوق.

وجاء في القرآن الكريم الإحسان إليهما مقرونًا بتوحيد الله سبحانه، كما جاء عقوقهما مقرونًا بالإشراك بالله سبحانه، فبرُّ الوالدين في المرتبة الثانية بعد التوحيد، وعقوق الوالدين هو الذنب الثاني بعد الشرك، وحق الوالدين هو الحق الثاني بعد حق الله سبحانه، وللوالدين الفضل الثاني على الولد بعد فضل الله سبحانه؛ فهما السبب المباشر في وجود العبد في هذه الحياة.

جاء هذا الأمر مقررًا في القرآن الكريم في سبعة مواضع، وقد أمر الإسلام ببر الوالدين وإن كانا غير مسلمين، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥].

أمر الإسلام ببر الوالدين وإن كانا ظالمين، ففي الأثر: (عليك ببرهما وإن ظلما) فالآباء يجتهدون في تربية الأبناء، وقد يخطئون، فهم بشر، قد يسيء الأب التربية، قد يقصر في حق ابنه، قد يورِّث، أو يهب، أو يوصي لبعض أبنائه دون بعض أو لغيرهم، قد يفضل الوالد بعض الأبناء على بعض، وفي هذا ونحوه لا ينبغي للابن أن ينتقم لنفسه من أبيه، أو يحاسبه في الكِبَر، أو يعدِّد مساوئه وينسى حسناته، وإنما يجب عليه البر والطاعة، والإحسان في جميع الأحوال، وحساب والده على الله.

عن ابن مسعود ﷺ قال: **«سألت رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أيُّ؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أيُّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله»**(١).

وقد جاءت الوصية بالوالدين بصيغة الأمر الواجب فعله، ولم تأت بصيغة النهي الذي هو لمجرد الترك.

وصح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي ذر ﷺ أنه قال: **«رغم أنف من أدرك أبويه، أحدهما أو كلاهما، ثم لم يدخل الجنة»**(٢) ثلاث مرات.

وقد أمَّن النبي ﷺ ثلاث مرات، على أن من أدرك أبويه، أحدهما أو كلاهما، ولم يحسن إليهما، ويكون بر هما سبب في دخوله الجنة، أنه مبعد ومطرود من رحمة الله تعالى.

والإحسان إلى الوالدين يمتد إلى ما بعد موتهما، بالدعاء والاستغفار لهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما، وإنفاذ وصيتهما في طاعة الله والرسول.

وقد أوصى الله الأبناء بالآباء، ولم يوصِ الآباء بالأبناء؛ لأن الله سبحانه يعلم أن حنوَّ الوالد على ولده أمر فطري غريزي في الإنسان، لا يحتاج إلى وصية.

الوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾

---

(١) البخاري (٢/ ٩) برقم (٥٢٧، ٢٧٨٢، ٥٩٧٠، ٧٥٣٤) ومسلم (١/ ٨٨) برقم (٨٥) والترمذي (١/ ٣٢٥) والنسائي (١/ ٢٩٢) وأحمد (١/ ٤٠٩) وغيرهم.

(٢) يُنظَر «صحيح البخاري» برقم (٥٨٢٧) و«صحيح مسلم» برقم (٩٤) عن أبي ذر.

أي: لا تقتلوا أولادكم من ذكور وإناث، خوف فقر حاصل نزل بكم؛ أو خوف فقر متوقع، كما كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن الله تعالى يرزقكم وإياهم -والولد يشمل الذكر والأنثى- ومما لا شك فيه أن الحياة حق للصغار كما هي حق للكبار، ومن الظلم البيِّن: التخلُّص من الأبناء، خوفًا من فقر موجود حاصل، كما في هذه الآية، أو خوفًا من فقر متوقع في المستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا ترزقون أنفسكم، ولذا فإن الآية التي هنا قَدَّمتْ رزق الآباء على رزق الأبناء، أي: أن رزق الأبناء يتْبع رزق الآباء، أما آية الإسراء فقدَّمتْ رزق الأبناء على رزق الآباء، بمعنى أن الرزق حاصل بالأصالة بالنسبة للأبناء، ويرزقكم الله أيها الآباء تبعًا لهم، ، وهذا في حالة الخوف المستقبلي من الفقر؛ ليكف الآباء عن التفكير في المستقبل، فإن الله تعالى قد ضمن رزق الأبناء ابتداء، ضمانًا مستقلًّا ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

لقد نجحت الصهيونية العالمية في برنامجها الذي تضمنتْهُ بروتوكولات حكماء صهيون في إشغال مجتمعاتنا بالكرة والفن، كما نجحت في القضاء على الطاقة البشرية، أو التقليل منها، حين غرست في أذهان شعوبنا وحُكَّامنا ما يسمى بتحديد النسل، أو تنظيمه، وأقامت مؤتمرات السكان والأسرة العالمية، فأصبح بعض المسؤولين يرددون التحذير من كثرة النسل والتخوف منه، كأنه القائم على أرزاق العباد، وأن كاهله سوف يكون ثقيلًا لا يتحمل عبء هذا النسل المتدفق، وهذا بعينه ما كانت الجاهلية تفعله من قتل الأولاد خوف الفقر.

وبنظرة فاحصة في واقع العالم اليوم ومقارنته بما هو عليه في الماضي، يجد الإنسان ما يُكَذِّبُ هذه الدعاوى، ويبيِّن أنها سراب لا أساس لها، لقد كان الناس في الماضي يشكون الجوع، والناس اليوم يشكون التخمة، ويقيمون المصحَّات العالمية لتخفيف الوزن وتقليل السمنة.

كان الرجل فيما مضى يصاب بالصرع من الجوع، ويضع أحد الناس رجله فوقه حتى يفيق، وقد أُغمي على أبي هريرة ﷺ فوضع أحدهم رجله عليه، فقال أبو هريرة: يظنون أن بي جنونًا، ووالله ما بي جنون، ولكنه الجوع، وكانت الأشهر الثلاثة تمر على بيوت رسول الله ﷺ وهي يومئذ تسعة، ولا يوقد فيها نار، أي تحت قِدْرٍ فيه إدام، والناس اليوم تعيش

حياة الترف والكماليات التي تملأ كل بيت، وكانت في الماضي لا تجد الضروريات.

وكل أسرة تبدأ صغيرة فقيرة، وحين تكبر الأسرة، وتكثر الذرية، تكثر الخيرات والأرزاق وهذا واقع مشاهد، لا يمكن تكذيبه.

الأراضي الشاسعة التي تملكها بلد واحدة من بلاد المسلمين كالسودان مثلًا، تكفي، حال استصلاحها واستثمارها، للدول العربية مجتمعة.

الطاقات الاقتصادية التي تُبدَّد في الكرة والفن والتدخين والمخدرات ونحو ذلك، تكفي مجتمعات كاملة بدون موارد ولا عمل !!

أقر النبي ﷺ مسألة العزل، وهذه مسألة تُقدَّر بقدْرها، فإن كانت حياة المرأة أو صحتها تتعارض مع الحمل، أو كانت تحمل بصفة متوالية، أو لا تلد إلا ولادة قيصرية، ونحو ذلك من الأضرار البدنية المحققة، فلها أن تعزل أو تفعل ما هو بمعناه، مدة مؤقتة، كما بيَّن الله سبحانه أن مدة الرضاع الكاملة حوْلان كاملان لمن أراد أن يتم الرضاعة، وفي هذه المدة تنظيم للنسل، وفَصْل لما بين الحمْلين.

الوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾

الفواحش: كل ما فَحُش وقَبُح من كبائر الذنوب، وتطلق الفاحشة في القرآن على خصوص الزنى، والفواحش تشمل جميع المحرمات والمنهيات، وكان الناس فيما مضى يستقبحون الزنى علانية، ولا يرون به بأسًا إن كان سرًّا، وهذا ما تقرره القوانين الوضعية، في بعض بلاد المسلمين، في وقتنا الحاضر، فإن وقع الزنى علانية، فالعقوبة تعزيرية يسيرة، تقدر بغرامة مالية تساوي نحو ربع ريال سعودي؛ لأنه خدَش الحياء العام، أما إن كان الزنى بالتراضي فلا اعتراض لأحد عليهما.

وقد حرم الإسلام سر الزنى وعلانيته، بل حرم مقدماته، وكل ما ظهر منه وما بطن، خوفًا من الله تعالى، وتعظيمًا لأمره ونهيه، فلا تقربوه، ولا تقربوا كل ما كان ظاهرًا من كبائر الآثام وما كان خفيًّا منها، فكل قول أو فِعْل، تستقبحه العقول، فاحشة يجب البعد عنها.

والمجتمع الذي يتجنب الفواحش مجتمع طاهر نظيف، أما المجتمع الذي يسوي بين

القبيح والحسن، ويقوم على الإباحية التي لا تفرق بين ما يجب فعله وما يجب تركه فمصيره إلى التعاسة والمهانة.

والقرآن الكريم حين نهى عن هذه الفاحشة نهى عن كل طريق أو وسيلة توصِّل إليها، فلم يقل: لا تزنوا، بل قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]. فالنهي عن قربان الفواحش، أبلغ من النهي عن مجرد فعلها، لأنه يشمل المقدمات والوسائل الموصلة إليها، وذلك لأن الوسائل تأخذ حكم المقاصد.

فالمحرمات التي لا يميل إليها الإنسان بشهوته: النهي فيها يكون عن نفس الفعل، وليس عن الاقتراب منه، ومن ذلك الوصايا السابقة، وهي الإشراك بالله، وقتل الأولاد، وقتل النفس؛ إذ ربما يفعلها وهو كاره.

أما المحرمات التي يميل الإنسان إليها بشهوته، فإن النهي فيها يكون عن مجرد الاقتراب منها؛ ولذا: فقد حرَّم الإسلام: النظرة الثانية، والخلوة، والتزين، والتهتك، وسفر المرأة بدون مَحْرم، كما حرَّم الإسلام التكسُّر والخضوع بالقول، والتبرج والسفور، والإثارة والإغراء، والتعطر، وكل وسيلة تكون سببًا لارتكاب هذه الفاحشة:

وهذه جملة من الأحاديث في تحريم الفواحش:

١- عن أبي وائل، عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أغْيَرُ من الله تعالى، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيء أحب إليه المدحُ من الله، ولذلك مدح نفسه**»، قلت: سمعته من عبد الله؟ قال: نعم، قلت: ورفَعه؟ قال: نعم[1].

٢- قال سعد بن عبادة: لو رأيتُ مع امرأتي رجلًا لضربته بالسيف غيرَ مُصْفَح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟! فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[2].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، إنا نغار، قال: «**والله إني لأغار،**

(١) البخاري (٨/ ٢٩٥) برقم (٣٦٣٧، ٤٦٣٢) ومسلم (٤/ ٢١١٣) برقم (٢٧٦٠) والترمذي (٥/ ٥٤٢).
(٢) أصله عند مسلم (٤/ ٢١١٤) برقم (١٤٩٩) والبخاري برقم (٦٨٤٦).

والله أغير مني، ومن غيرته نهى عن الفواحش»[1].

وفي الحديث إثبات صفة الغيرة لله تعالى على وجه يليق بجلاله، وليست كغيرة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وأعظم الزنى، الزنى بزوجة الجار، فهو مستأمن على جاره:

٤- عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك»**، قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَم معك»**، قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تزاني حليلة جارك، ثم تلا رسول الله ﷺ**: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾»[2].

ومما ورد في تحريم الفواحش قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقوله في وصف المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

وقوله أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى].

٥- أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال: كانوا في الجاهلية لا يروْن بالزنى بأسًا في السر، ويستقبحونه في العلانية، فحرم الله الزنى في السر والعلانية.

٦- وعن سلمة بن قيس الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: **«ألا إنما هي أربع لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا»** فما أنا بأشح عليهن مني إذا سمعتهن من رسول الله ﷺ[3].

---

(١) «المسند» (٢/ ٣٢٦) برقم (٨٣٢١) حديث صحيح قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٣٢٨): فيه كامل أبو العلاء، وفيه كلام لا يضر، وهو ثقة، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرج مسلم بنحوه (١٤٩٨) وله شاهد صحيح في المسند من حديث عبد الله بن مسعود (٣٦١٦) وقد سبق.

(٢) البخاري (٨/ ١٦٣) برقم (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١، ٧٥٣٢) ومسلم (١/ ٩٠) برقم (٨٦) وأبو داود (٢/ ٧٣٣) والترمذي (٥/ ٣٣٦) والنسائي (٨/ ٨٩).

(٣) «المسند» (١٨٩٩٠) والنسائي في «الكبرى» (١١٣٧٣) والطبراني (٦٣١٦، ٦٣١٧) والحاكم (٤/ ٣٥١) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

الوَصِيَّةُ الخَامِسَةُ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾

أي لا تقتلوا النفس المسلمة، من ذكر وأنثى، صغيرة وكبيرة، برٌّ وفاجر، وكذا نفس الكافر المعصومة بالعهد والميثاق، إلا بالحق، وهذا الحق جاء ذكره في هذا الحديث بأنه أحد أمور ثلاثة:

١- فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسو الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**(١).

فقد حدد الحديث أسبابًا ثلاثة يُستحل بها قتل المسلم وهي: الزنى بعد إحصان، والقصاص، والردة، فلا يجوز الاعتداء على حرمة المسلم إلا بهذا الحق، فمن قتل يُقتَل، ومن ارتد عن دينه يُستتاب، ثم يُقتَل إن بقي على ردته، ومن زنى، وهو متزوج قبل ذلك، يُرجم حتى الموت:

٢- عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن عثمان بن عفان ﷺ أشرف عليهم، فسمعهم وهم يذكرون القتل، فقال: إنهم ليتواعدونني بالقتل؟ فلِمَ يقتلونني؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلاث: رجل زنى وهو محصن فرُجم، أو رجل قتل نفسًا بغير نفس، أو رجل ارتدَّ بعد إسلامه»**، فوالله ما زنيتُ في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلتُ نفسًا مسلمة، ولا ارتددتُ منذ أسلمت(٢).

وكما حرم الإسلام الاعتداء على دم المسلم، حرم الاعتداء على دم الذمِّي والمعاهد المستأمن في بلاد المسلمين وهو داخل في الآية ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ﴾ فهو صاحب نفس غير محاربة.

٣- وقد جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو ﷺ: **«من قتل معاهدًا لم يَرح رائحة**

---

(١) أخرجه الشيخان: البخاري برقم (٦٨٧٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٧٦).

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٢٥٣٣) والترمذي (٢١٥٨) و«المسند» (١/ ٦٣) برقم (٤٣٧، ٤٥٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢/ ٧٧)، وأخرجه أبو داود (٤٥٠٢) والحاكم (٤/ ٣٥٠) وصححه ووافقه الذهبي.

الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا»[١].

٤- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من قتل معاهِدًا له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا»**[٢].

وقتل النفس من جملة الفواحش، وإنما أفردها الله تعالى بالذكر تعظيمًا لأمر القتل، وأنه من أعظم الفواحش والكبائر.

ولذا فقد جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: **«لزوالُ الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»**[٣].

هذا: وقد تضمنت الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث **خمس وصايا** هي:

١- عدم الإشراك بالله تعالى. ٢- والإحسان إلى الوالدين.

٣- والنهي عن قتل الذرية خوف الفقر. ٤- والنهي عن إتيان الفواحش علنًا وسرًّا.

٥- والنهي عن قتل النفس بغير حق.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله وصيته ثم تحفظونها وتقومون بها، فهو الذي نهاكم عنها، وعهد إليكم باجتنابها، وأمركم ووصاكم بما فيها، لعلكم تعقلون أوامره ونواهيه، والعاقل لا يقع في مثل هذه المحرمات. قال تعالى:

١٥٢- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[٤] ﴿١٥٢﴾﴾

---

(١) رواه البخاري في الجزية (٦/ ٢٦٩) برقم (٣١٦٦، ٦٩١٤) والنسائي (٨/ ٢٥) من حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث.

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه (٢/ ٨٩٦) برقم (٢٦٨٧) والترمذي (٥/ ٢٠) برقم (١٤٠٣) وقال: حسن صحيح، وهو في صحيح «سنن ابن ماجه» (٢١٧٦) و«السلسلة الصحيحة» (٢٣٥٦).

(٣) أخرجه النسائي (٣٩٩٨) والنحاس ص٣٤٧ وهو في صحيح «سنن النسائي» (٣٧٢١).

(٤) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال من (تذَكرون) على حذف إحدى التائين؛ لأن الأصل تتذكرون، وقرأ الباقون بإدغام التاء في الذال وتشديدها.

وتضمنت الآية الثانية **أربع وصايا** هي:

١- النهي عن أكل مال اليتيم. ٢- وفاء الكيل والميزان.

٣- العدل في القول. ٤- الوفاء بالعهد.

وكلها قواعد للتعامل وتبادل الثقة بين الناس.

الوَصِيَّةُ السَّادِسَةُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

ينهى سبحانه الأوصياء على مال الأيتام ألا يقربوه إلا في حالة الإصلاح لهم والانتفاع به بالتجارة فيه واستثماره، وعدم أخذ المقابل على ذلك.

وهذا معنى ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وأحسن الحالات تنمية مال اليتيم وعدم الإضرار به، وذلك حتى يصل الصغير إلى سن البلوغ، فإذا بلغ سن الرشد فسلِّموا له ماله.

وفي هذا دليل على أن اليتيم قبل بلوغه الأشد، محجور عليه، وأن وليّه يتصرف في ماله بما يصلحه ولا يضره، وهذا الحجر ينتهي ببلوغ الأشد.

وقد بيَّنت سورة النساء وجوب إعطاء اليتامى أموالهم، وعدم استبدال الحلال بالحرام، بضم أموالهم إلى أموال الوصي أو الولي، ففي هذا ظلم كبير، قال تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء].

وعلى الوصي أن يتبيَّن حال اليتيم عند بلوغه سن الرشد، فإن كان ممن يحسن استعمال أمواله ردَّها عليه كما قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦].

وبلوغ سن الرشد يكون بالبلوغ، وصحة العقل، وأهلية التصرف، والقوة التي يخرج بها عن سن الصبا، وهو غير بلوغ الأَشُدِّ، الذي هو تمام الأربعين من العمر؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥].

وينبغي على الوصي أن يترفع عن أخذ الأجر على إدارته لمال اليتيم، فإن كان غنيًّا فلا يأخذ شيئًا، وإن كان فقيرًا فليأخذ شيئًا يسيرًا بما هو متعارف عليه ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

والإسلام يحرص على حفظ مال اليتيم وتنميته وإصلاحه، وعلى الوصي أن يخاف الله تعالى في نفسه؛ فإنه قد يموت غدًا، وتُيتَّم أطفالُه، وتدور الدائرة عليه ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء].

إنه يأكل في الدنيا نارًا في بطنه، ويوم القيامة يعذب في نار جهنم.

ولما أنزل الله هذه الآية، وأنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ انطلق مَنْ كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فربما فسد شيء من مال اليتيم نتيجة ذلك، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. فخلطوا طعامهم بطعامهم[(١)].

الوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ : ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾

هذا أمر بالاعتدال في الأخذ والإعطاء بالعدل والوفاء التام، وبيان أن إيفاء الكيل والميزان خير لفاعله، وأحسن عاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾ [الإسراء]. ويجب حفظ المال فيما هو أشد من التطفيف من باب أولى، أوفوا الكيل والميزان بالعدل الذي يكون به تمام الوفاء من غير زيادة ولا نقصان.

والإسلام يربط بين العقيدة والمعاملات التجارية، ولا يفْصل بين العقيدة والعبادة، والشرائع والمعاملات، والتجارة بالبيع والشراء، فكلها من مقومات هذا الدين.

جاء في الأثر موقوفًا على ابن عباس ﷺ أنه قال لأصحاب الكيل والميزان: إنكم وُلِّيتم أمرًا هلكتْ فيه الأمم السالفة قبلكم[(٢)].

---

(١) رواه أبو داود في «السنن» (٣/ ٢٩١) برقم (٢٨٧١) وهو عند النسائي (٦/ ٢٥٦) وفي الكبرى (٦٤٩٦) والحاكم (٢/ ٢٧٨) وصححه ووافقه الذهبي، وانظر تفسير الطبري (٢/ ٣٧١) وحسّن إسناده الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٤٩٥).

(٢) «جامع الترمذي» بإسناد صحيح (٣/ ٥١٢) برقم (١٢١٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٥٢٨٨).

فتطفيف الكيل والميزان من كبائر الذنوب، وقد أرسل الله تعالى لمكافحة هذه الرذيلة رسولًا من رسل الله، كان قومه يطففون الكيل والميزان، فأمرهم أوَّلًا بالقاعدة الأساس التي أرسل الله بها كل رسول ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].

ثم أمرهم بالوفاء بالكيل والميزان ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥].

وقد توعدهم الله بالويل والعذاب فقال ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين].

فهم يستوفون حقهم كاملًا، ويبخسون حقوق الناس، ولا يصلح المجتمع إلا بإقامة العدل بين الناس، والتسوية بينهم في الحقوق والواجبات، وعدم غمط أحدهم للآخر.

ولأن الكيل والميزان لا يمكن تحري الدقة فيه، فقد يزيد شيئًا مًّا، أو ينقص شيئًا مًّا مع حسن النية، وعدم القصد في الزيادة أو النقصان، فعلى المرء أن يبذل جهده في تحرِّي الدقة، والوفاء بالكيل والميزان، فإن حدث نقص يسير، أو زيادة فيهما، فقد فعل الإنسان ما بوُسعه ولا حرج عليه إن شاء الله بعد ذلك.

والله تعالى لم يكلف المعطي أن يعطي فوق الحق، ولم يكلف الآخذ أن يأخذ حقه ناقصًا ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا نكلفكم تمام القسط في الكيل والميزان بالحبة والذرَّة، ولكن نكلفكم ما يغلب على ظنكم أنه عدل ووفاء.

فمن حرص على الوفاء بالكيل والميزان، ثم حصل منه تقصير دون قصد ولا تفريط، فإن الله عفو غفور، ويستدل بهذا على أن الله تعالى لا يكلف أحدًا فوق طاقته، ولا حرج عليه بعد بذل الجهد فيما أُمر به أو نُهى عنه.

الوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾

أي: وإذا قلتم قولًا تحكمون به بين الناس، وتَفْصِلُون بينهم، فتحرّوا العدل في قولكم، دون ميل عن الحق في خبر أو شهادة، أو حُكم أو شفاعة، أو جَرح أو تعديل، ولو كان الذي يتعلق القول به أقرب الناس إليكم؛ كالوالدين، والأبناء، فلا تتعصبوا لهم، ولا تميلوا عن الحق، بل سوُّوا بين الناس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ

﴿وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [النساء: ١٣٥]. فالكذب وقول الزور من كبائر الذنوب، وقد خصصت الآية العدل في القول، مع أنه مطلوب في الأقوال والأفعال؛ لأن أكثر ما يكون فيه العدل أقوالٌ: كالشهادة، والقضاء، والصلح بين الناس، والمدح والثناء، والخبر والمشورة، والجرح والتعديل، وهكذا.

وليس من خُلُق المسلم أن يترك قول الحق بسبب بُغض أو كُره لأحد أو جماعة من الناس ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين في لحظه ولفظه.

الوَصِيَّةُ التَّاسِعَةُ : ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾

أوفوا بما عاهدتم الله عليه فالتزمتم به، وأوفوا بما عاهدتم الناس عليه فالتزمتم به، وأول عهد بين العبد وربه: أن يعبده ولا يشرك به شيئًا ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [يس].

وهو الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم وهم في أصلاب آبائهم ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وهو الميثاق الذي أخذه الله على أولي العلم من الناس أن يبينوه للناس ولا يكتموه ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وهو الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وهكذا كل أمة أخذ الله عليها العهد بتوحيده وعدم الإشراك به، ومن ذلك الوفاء بما ألزم الإنسان به نفسه كالنذر، فإنه يجب الوفاء به ويحرم نقضه، والإخلال به.

أما العهود التي بين الناس فهي كثيرة لا تحصى، ومنها الوفاء بالعقود، والوعود والعهود، والديون والتعامل التجاري، والمواثيق الدولية، وغير ذلك مما يجب الوفاء به.

والله سبحانه سيسأل عباده يوم القيامة عن الوفاء بالعهود، كما قال تعالى:

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

هذه الأحكام والشرائع، التي تليت عليكم في هذه الآية، وصاكم بها ربكم رجاء أن تتذكروا عاقبة أمركم ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أن هذه الوصايا الأربع من المحامد التي تعرفونها، ويجب عليكم القيام بها، وهذا تذكير لكم فقد يقع في هذه الشهوات من لا يتذكر.

الوَصِيَّةُ العَاشِرَةُ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾

١٥٣- ﴿وَأَنَّ[1] هَٰذَا صِرَٰطِى[2] مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ[3] بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

ومما وصاكم الله به: أن هذا الإسلام هو طريق الله المستقيم الموصل إلى دار كرامته، فاتبعوه، لتنالوا الفوز والفلاح، ولا تسلكوا سبل الضلال، فتفرقكم وتبعدكم عن سبيل الله المستقيم، فدين الله الذي ارتضاه لعباده دين قويم لا عوج فيه، فاسلكوا طريقه جملة وتفصيلًا، واحذروا الطرق المختلفة والأهواء المتباينة فتضلوا كما ضل اليهود والنصارى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ وهي الأديان الباطلة والبدع والضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: أن هذه السُّبل تُضلكم عن طريق الحق وتفرقكم يمينًا وشمالًا عن طريقه المستقيم، وهو دين الإسلام، الذي ارتضاه لكم.

وقد أفرد الصراط لأن طريق الحق واحد، وجمع ﴿ٱلسُّبُلَ﴾ المخالفة له؛ لأنها كثيرة متشعبة ومتعددة، فإذا ضللتم عن الصراط المستقيم فليس أمامكم إلا طرق توصل إلى الجحيم.

قال ابن مسعود ﷺ: خطَّ رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**»، وخطَّ على يمينه وشماله خطوطًا، ثم قال: «**وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان**

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الهمزة وتشديد النون من (وإنَّ هذا) على الاستئناف، و(هذا) اسم إن، و(صراطي) خبرها، وقرأ ابن عامر ويعقوب بفتح الهمزة وتخفيف النون، على أنْ (أنْ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، و(هذا) مبتدأ، و(صراطي) خبر، والجملة خبر (أن)، وقرأ الباقون بفتح الهمزة وتشديد النون على تقدير اللام، أي: ولأن هذا، و(هذا) اسم (أن) و(صراطي) خبرها.

(٢) قرأ رويس وقنبل بخلف عنه بالسين في (صراطي)، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة، وهو الوجه الثاني لقنبل.

(٣) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد الراء من (فتفرّق)، والباقون بتخفيفها، وهو الوجه الثاني للبزي.

يدعو إليه، ثم قرأ الآية»[(١)].

وقال ابن مسعود أيضًا: إن الله جعل طريقًا -صراطًا مستقيمًا- طرفه محمد ﷺ ونهايته الجنة، وتتشعب منه طرق، فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار[(٢)].

وفي الآية أمر للمؤمنين بالوحدة والجماعة، ونهي لهم عن الاختلاف والفرقة، وإخبار لهم بأن هلاك مَن كان قبلهم كان بسبب الخلاف والخصام في دين الله، واتباع الشهوات والشبهات، وقد نهى الله جميع الرسل عن ذلك في قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

والمسلم يطلب ذلك من ربه في صلواته ودعواته في اليوم الواحد عدة مرات قائلًا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة]. وبذلك أمر الله رسوله والأمة من بعده: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

وهذه هي مهمة رسول الله ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وصراط الله هو الموصل إلى النجاح والفلاح وسبيل رسل الله ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١٢٦].

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: **«ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعًا ولا تفرقوا، وداعٍ يدعو**

---

(١) «المسند» (١/ ٤٦٥) برقم (٤١٤٢، ٤٤٣٧) بإسناد حسن من أجل عاصم بن أبي النجود وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) والبخاري (١١/ ٢٢٥) برقم (٦٤١٧) مع اختلاف في اللفظ، والترمذي (٤/ ٦٣٥) والنسائي برقم (١٩٤) وابن ماجه (٢/ ١٤١٤) والحاكم (٢/ ٣١٨) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١١٧٤) و«تفسير الطبري» (١٢/ ٢٣) والدارمي في مسنده (١/ ٦٧) وابن حبان في صحيحه برقم (٧) وحسنه الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ١٣) برقم (٢٨٥٩) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٢٣٣) والبزار (١٧١٨) والحاكم (٢/ ٣١٨).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٦٤) وقد أخرجه عبد الرزاق (١/ ٢٢٣) والطبري (٩/ ٦٧١) وابن مردويه.

من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق (الصراط): واعظ الله في قلب كل مسلم»[1].

وصراط الله، هو الحق الواضح المعتدل باتباع منهج الله تعالى، والذي وصاكم الله به؛ لتتقوا عذابه بفعل الأوامر واجتناب النواهي ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الله، فإن فعل الفضائل لا بد له من تقوى الله، وهكذا فإن هذه الوصايا العشر وضعت أساس العقيدة السليمة، وحفظت المجتمع من التصدع، وحفظت الأعراض والأموال، وبنت الأسرة على البر والرحمة والتعاون، وربطت كل ذلك بتقوى الله تعالى.

كِتَاب موسَى وَكِتَاب محَمَّدٍ (عليهما الصلاة والسلام)

١٥٤- ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

وهذا المنهج والصراط، الذي أمر الله عباده أن يسلكوه ويتبعوه، هو الذي من أجله أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، والكتاب الذي يحتوي على الشرائع والأحكام قبل الكتاب الأخير -القرآن الكريم- هو كتاب موسى (التوراة)؛ لأن فيه أقرب شريعة للإسلام، وهو كتاب يقرر هذه الوصايا، ويحققها ويمهد لما بعده من الكتب -الإنجيل والقرآن- ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة.

و ﴿ثُمَّ﴾ لا تقتضي الترتيب الزمني، وإنما هي لعطف معنى على معنى، وترتيب الأخبار، لأن زمن موسى متقدم على زمن محمد ﷺ أي: لقد بينت لكم في هذه الوصايا ما فيه صلاحكم، ثم أخبرتكم بأنا آتينا موسى الكتاب هدى ونورًا.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٨٢) برقم (١٧٦٣٤) حديث صحيح بإسناد حسن من أجل الحسن بن سوار وباقي رجاله ثقات (محققوه) والترمذي (٥/ ١٤٤) و«صحيح الترمذي» برقم (٢٢٩٥) وابن أبي عاصم في السنة (١٩) والطبري في التفسير (١٨٧).

والمعنى: قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين: إن الله تعالى هو الذي أنزل التوراة على موسى قبل نزول القرآن على محمد، أنزلها ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: تمامًا لنعمته على المحسنين من قومه، دون المسيئين منهم.

فقد آتينا موسى الكتاب تفضّلا على المحسنين من أهل ملته، وإتمامًا للنعمة عليهم، فإن مَنْ أحسن في الدنيا، تمَّم الله له ذلك في الآخرة.

أي: تمامًا للنعمة على المحسن؛ لإحسانه في الطاعة والعبادة، وتبليغ الدعوة إلى قومه، فهو إحسان من الله تعالى إلى موسى، ومَنْ أحسن من قومه بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من أمور دينهم ودنياهم، ففي التوراة تبيان لبني إسرائيل من العقائد والعبادات، والشرائع والأحكام، والأخلاق والمعاملات والفضائل، والحلال والحرام ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة والجهالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم من الله تعالى، ودلالة على الطريق المستقيم ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: رجاء أن يصدقوا بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء، ويعملوا لذلك.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

قال الطبري: آتينا موسى الكتاب تمامًا لنعمتنا عليه في قيامه بأمرنا ونَهْيِنا؛ فإن إيتاء موسى الكتاب نعمة من الله تعالى عليه، ومنَّة عظيمة عليه؛ لِمَا سلف منه من صالح العمل، وحُسْن الطاعة[١].

وليس المقصود من هذه الآية مجرد ذكر أن الله تعالى أعطى موسى التوراة، وإنما المقصود هو التمهيد للآية التالية ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾؛ ليرتب عليها ما بعدها ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾

وقد أشارت الآيات إلى وجود هذه الوصايا في التوراة، أي وفوق هذه الوصايا فقد أنزلت لكم كتابًا مباركًا، جمعتُ فيه ما نزل على موسى في التوراة، وهي أعظم كتب الأنبياء قبل

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ٢٣٦).

القرآن، الذي هو مصدق لها ومهيمن عليها، فإن اتبعتموه واتقيتم الله تعالى، رحمناكم، ولا معذرة لكم عند الله أن تقولوا لو أنزل علينا كتاب لكنا أفضل اهتداء من أهل الكتابين قبلنا وفي هذا رد على من قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، وبيان لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقد كان بنو إسرائيل مؤمنين بلقاء الله تعالى، وما يكون من البعث والحساب والجزاء، ثم مضتْ عليهم أزمنة طويلة، جاوَرُوا فيها الوثنيين الفراعنة، فتأثروا بهم في فساد العقيدة والأخلاق، ونسوا لقاء الله، وأصبح حالهم كحال من لا يؤمن بلقاء الله، فأراد الله إصلاحهم ببعثة موسى ﷺ؛ ليرجعوا إلى ما كان عليه سلفهم الصالح من مراقبة الله وخشية لقائه، وفي هذا تعريض لهذه الأمة فقد أرسل الله محمدًا ﷺ ليردَّها إلى الهدى، والإيمان بلقاء الله تعالى، كما كانوا على ملة إبراهيم والدين الصحيح بعد أن ضلوا عنه؛ كي يلْقَوْا ربهم وهو راض عنهم[1].

إِقَامَةُ الحُجَّةِ وَقَطْعُ الأَعْذَارِ بِنُزُولِ القُرْآنِ

١٥٥- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

أي: وهذا القرآن الكريم الملتحم بالتوراة وشريعتها، هو الذي ختم الله به الكتب السماوية، وختم برسالة محمد ﷺ جميع الرسالات ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فيه خير كثير، ونفع كبير يشتمل على الفوائد الدينية والدنيوية، وتُستمد منه سائر العلوم وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا دعا إليه، ورغب فيه، وما من شر إلا حذر منه ونهى عنه ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ بامتثال الأوامر واجتناب النواهي والعمل بما فيه، فاجعلوه إمامًا لكم، واتبعوا حلاله وحرامه، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ الله، واحذروا مخالفة أمره واتباع غيره ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: رجاء أن يرحمكم الله، فتنجوا من عذابه، وتظفروا بثوابه.

---

(١) تفسير «التحرير والتنوير» (٨/ ١٧٧).

نُزُولُ الْقُرْآنِ يُسْقِطُ عُذْرَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ

وقد أنزل الله عليكم هذا القرآن لقطع الأعذار يوم لقاء الله، وإقامة الحجة عليكم، قال تعالى:

١٥٦- ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾

لقد بطلت حجة المشركين، وسقطت معذرتهم بتنزيل هذا الكتاب المبارك، فقد قطع الله حجتهم بإنزال القرآن على محمد ﷺ؛ لئلا يقولوا يوم القيامة: إنما أرسل موسى وعيسى إلى قومهما، ونحن لا علم لنا بكتبهم ولا بلغتهم، فنحن في غفلة عن دراستهما، ولو نزل علينا كتاب بِلُغَتنا، يكلِّفنا ويحذِّرنا، لكُنَّا أهدى من أهل الكتاب، فهذا كتاب أنزل عليهم بلسانهم، على رجل منهم، فيه هدى ونور ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ أي لئلا تقولوا ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يعني: التوراة، والزبور، والإنجيل ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ هم اليهود والنصارى، وقد كنا غير عالمين بقراءة كتبهم، وكنا ساهين عنها، وهذا معنى: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: ولم يكن لنا علم بها؛ لأنها بلغتهم، وفي هذا قطع لعذرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه].

وكما قطع الله عذر العرب ببعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، فقد قطع عذر أهل الكتاب كذلك في عدم إيمانهم بخاتم الرسل ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة].

وكان المكذبون برسول الله ﷺ قد أقسموا الأيمان المغلظة: إن جاءهم نذير من عند الله فإنهم سيكونون أهدى من غيرهم من الأمم، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ لم يزدهم ذلك إلا نفورًا وإعراضًا عن الحق ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر].

نزول الْقرآنِ يسقِط الْعذرَ بِعَدِمِ وصولِ أَصْلِ الْهِدَايَةِ لِغَيْرِ الْمسْلِمِينَ

١٥٧ - ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ[1] ﴿١٥٧﴾﴾

وأنزلنا عليك القرآن يا محمد؛ لئلا يقول الكفار من قومك: لو أنا أُنزِل علينا كتاب من السماء، كما أُنزِل على اليهود والنصارى، لكُنَّا أكثر استقامة على طريق الحق وأسرع استجابة منهم، وهذا معنى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا: قاتل الله اليهود والنصارى، كيف كذَّبوا أنبياءهم، فوالله لو جاءنا نذير وكتاب لكنا أهدى منهم.

وقد قطع الله حجتهم وعذرهم بنزول هذا القرآن بلغتهم ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قرآن عظيم على لسان محمد ﷺ فيه الحلال والحرام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ جاءكم هذا الكتاب بلسان عربي مبين، حجة واضحة من ربكم، وإرشادًا إلى طريق الحق، ورحمة لهذه الأمة، وهدى ونورًا، وموعظة وشفاء لما في الصدور، فيه سعادة الدنيا والآخرة.

وإزاء تحقيق مطلبهم، بإنزال هذا القرآن على نبيه ﷺ ماذا كان موقف كفار العرب، ومن على شاكلتهم ممن لا يؤمنون بالنبي الخاتم والكتاب الأخير؟ فهذا هو القرآن الكريم نزل بلغتكم، وفيه قيام الحجة عليكم، لقد أنزلنا عليكم كتابًا فيه ذكركم، وجاءكم فيه من البيان، ما يزيل الهاجس الذي في نفوسكم، ويدفع عنكم ما تستشعرونه من الانحطاط عن أهل الكتاب.

ثم أخبر القرآن الكريم بأنه لا أحد أظلم من الذين كذبوا بآيات الله، وأنكروا رسالة خاتم الأنبياء، فزجُّوا بأنفسهم في النار ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد: ١]. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فأعرض عنها ولم يؤمن بها ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أنه أعرض عنها ونآى بجانبه، و صدَّ الناس عن اتباعها، فهم يبتعدون عن هذا

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاي من (يصدفون)، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة ومعهم رويس في الوجه الثاني وهما لغتان.

الدين، وينهون غيرهم عن الإيمان به، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]. فلا يوجد أحد أشد ظلمًا وعدوانًا ممن كذَّب بحجج الله تعالى فأعرض عنها، ومنع الناس من الإيمان بها، فهؤلاء المعرضون سنعاقبهم ونعذبهم عذابًا شديدًا في نار جهنم بسبب إعراضهم عن دين الله، وصدِّ الناس عنه، ثم هددهم الله تعالى وتوعدهم بقوله: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ أي: يُعرِضون ويصدون غيرهم ﴿عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ فهم يستحقون أسوأ العذاب وأشده بسبب ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم غيرهم.

وفي هذه الآيات الأربع دليل على أن القرآن أعظم الكتب وآخرها، وفيه الهداية التامة، والهيمنة ما قبله من الكتب، ولا يلزم معه فكر ولا فلسفة ولا كتب أخرى.

الوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ أَقَامَ عَلَى الكُفْرِ حَتَّى المَوْتِ

١٥٨- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ(١) ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

ثم هدد الله المقيمين على الكفر إلى الموت، بأشد أنواع العذاب، بعد أن توعَّد الذين يُعرضون عن آياته، واتباع رسله، بسوء العذاب يوم القيامة، في قوله تعالى في آخر الآية السابقة: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ وكأن سائلًا سأل: متى يكون هذا الجزاء؟ والجواب: أنهم ماذا ينتظرون بعد آيات الله التي نزلت عليهم في كتابه، وما أيَّد الله به رسوله من معجزات، إنهم لا ينتظرون إلا حلول العذاب بهم، وأن يحل بهم ما لا ينتظرونه، ولا يعملون له حسابًا، وهو: إتيان ملائكة العذاب لقبض أرواحهم، أو مجيء الله تعالى للفصل بينهم، أو ظهور علامات الساعة، وهي مقدمات البعث والنشور.

والمعنى: هل ينتظر الذين استمروا على ظلمهم وعنادهم، إلا تأتيهم مقدمات العذاب، أو مقدمات الآخرة، بأن تأتي الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتي ربك لفصل القضاء، أو

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بياء التذكير في (تأتيهم الملائكة) والباقون بتاء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث مجازيٌّ وأبدل ورش وأبو عمرو يخلف عنه وأبو جعفر الهمزة ألفًا.

تأتي بعض علامات الساعة، فعندئذ لا تُقبل توبة ولا ينفع إيمان، وفي هذا تهديد ووعيد لهم، وفيه تذكير لهم بأن الانتظار والتريث عن الإيمان عاقبته وخيمة؛ لأن صاحبه مهدد بما يمنع التدارك، وما يعقب ذلك من الحسرة والندامة، أو الموت والحساب.

وقد قسَّمت الآية الناس إلى قسمين: نفس مؤمنة، ونفس كافرة:

فالنفس الكافرة لا ينفعها إيمانها عند ظهور علامات الساعة، وقَفْلُ باب التوبة.

أما **النفس المؤمنة** التي اقتصرت على الإيمان، وفرَّطت في جميع أعمال الخير، فلا ينفعها اكتساب أعمال الخير، وإضافة شيء من العمل الصالح إلى رصيدها السابق.

فلا تنتفع نفس غير مؤمنة بإيمانها وتوبتها في ذلك اليوم، ولا ينفع اكتساب الخير لمن قصَّر في كسبه قبل ذلك.

فلا إيمان لمن لم يؤمن قبل ذلك اليوم، ولا طاعة لمن يطيع من المؤمنين في ذلك اليوم.

وقد اقتصرت الآية على ما يكون عند قيام الساعة من أحداث، فماذا ينتظر المكذبون بالرسالة، المنكرون للقرآن، الصادُّون عن سبيل الله، المعرضون عن الإيمان بالله ورسوله؟ وهذا الاستفهام معناه النفي، أي: أنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءتهم إحدى آيات ثلاث، ويكون ذلك في وقت لا ينفع فيه الإيمان، وهذه الآيات الثلاث هي:

١- أن يأتيهم ملك الموت وأعوانه؛ ليقبض أرواحهم، ويوافيهم الأجل المحتوم.

٢- أو يأتي ربك -يا محمد- للفصل بين عباده يوم القيامة والقضاء بينهم، ومجيء الله تعالى يكون على صفة تليق بجلاله، ولا نعلمها، وهو سبحانه منزه عن مشابهة المخلوقين.

٣- أو يأتي بعض علامات الساعة وأشراطها الدالة على قيامها، وهي طلوع الشمس من مغربها.

فحين يكون ذلك لا ينفع نفسًا إيمانها، إن لم تكن آمنت قبل طلوع الشمس؛ لأن الإيمان عند الغرغرة، وعند ظهور علامات الساعة لا ينفع صاحبه، كحال فرعون لمَّا آمن عند الغرق؛ وذلك لأن مجيء علامات الساعة يُذهب التكليف، فلا ينفع العمل الصالح لشخص لم يسبق له العمل قبل ظهور أشراط الساعة لبطلان التكليف في هذا الوقت، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ

﴿يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر].

وذلك كالكافر الذي أسلم عند رؤيته لأشراط الساعة، وكذلك من أحدث توبة في هذا الوقت، فإن توبته مردودة عليه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي: كسبت عملًا صالحًا لم تكن عاملة به قبل ذلك.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [محمد].

وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة].

والحكمة في ذلك أن الإيمان لا ينفع، إلا إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد، فإذا ظهرت أمارات الساعة كان الإيمان عن شهادة وإضطرار، كإيمان فرعون حين أشرف على الهلاك، والإنسان يكتسب الخير بإيمانه، فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.

﴿قُلِ﴾ لهم -أيها الرسول- ﴿ٱنتَظِرُوٓا﴾ مجيء إحدى هذه الآيات الثلاث، وانتظروا قيام الساعة وأماراتها؛ لتعلموا المحق من المبطل، والمسيء من المحسن ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ذلك.

وجمهور أهل العلم على أن المراد ببعض آيات ربك هو طلوع الشمس من مغربها؛ لأنها أول آيات الساعة ظهورًا، **والأحاديث في ذلك كثيرة:**

١ - عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها»** ثم قرأ هذه الآية[1].

٢- وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاث إذا خرجْن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من**

---

(١) البخاري برقم (٤٦٣٥، ٤٦٣٦، ٦٥٠٦) ومسلم (١/١٣٧) برقم (١٥٧) وأبو داود (٤/٤٩٢) برقم (٤٣١٢) وأحمد (٢/٢٣١) برقم (٧١٦١، ٨١٣٨، ٨٨٥٠) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١١٧٧) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٦٨).

قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»[(١)].

٣- وفي الحديث عن أبي هريرة أيضًا: **«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت آمن الناس كلهم، وذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾»** [الأنعام: ١٥٨][(٢)].

٤- وعن أبي ذر، جُندُب بن جُنادة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تدري أين تذهب الشمس إذا غابت؟»** قلت: لا أدري، قال: **«إنها تنتهي دون العرش، ثم تخر ساجدة، ثم تقوم حتى يقال لها: ارجعي، فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل»**[(٣)].

٥- وعن حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: **«لا تقوم الساعة حتى تروْا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونارًا تخرج من قعر عدن تسوق -أو: تحشُر- الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»**[(٤)].

٦- وجاء في الأثر: أن علامة طلوع الشمس من مغربها أن ليلتها تطول بمقدار ليلتين، والنجوم تقف مكانها، والليل يطول، فيفرغ الناس ولا يصبحون، فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذا طلعت من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا، ولا ينفعهم إيمانهم[(٥)].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٨) و«تفسير ابن جرير» (١٢/ ٢٦٥) و«المسند»(٢/ ٤٤٥) برقم (٩٧٥٢)بإسناد و«سنن الترمذي» برقم (٣٠٧٢) وابن أبي شيبة (١٥/ ١٧٨)، وأبو يعلى (٦١٧٠).

(٢) مسلم (١٥٧) والبخاري (٤٦٣٥) وابن حبان (٦٨٣٨) وابن جرير (١٢/ ٢٥٥).

(٣) البخاري (٨/ ٥٤١) برقم (٤٨٠٣) ومسلم (١/ ١٣٨) برقم (١٥٩) والنسائي في «التفسير» برقم (٤٤٦).

(٤) «المسند» (٤/ ٧) برقم (١٦١٤١، ١٦١٤٣، ١٦١٤٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) و«صحيح مسلم» (٤/ ٢٢٢٥) برقم (٢٩٠١) وأبو داود (٤/ ٤٩١) برقم (٤٣١١) والترمذي (٤/ ٤٧٧) برقم (٢١٨٣) والنسائي «في الكبرى» (١١٣٨٠، ١١٤٨٢) وابن ماجه (٢/ ١٣٤١).

(٥) رواه ابن مردويه عن حذيفة كما في «الدر المنثور» (٣/ ٥٧) وفي «اللآلئ المصنوعة» للسيوطي (١/ ٣١) والبداية والنهاية (١٩/ ٢٦١).

٧- وجاءت آثار تفيد أن أول أشراط الساعة: طلوع الشمس من مغربها[١].

٨- وفي حديث أبي سعيد الخدري أن المراد ببعض آيات ربك في الآية قال: **«طلوع الشمس من مغربها»**[٢].

٩- وفي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ لما بلغه أن مروان قال: إن أول آيات الساعة خروج الدجال، فقال: قد حفظتُ من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعدُ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة ضحًى، فأيتهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها»**.

ثم قال: وأظن أولها خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وذكر أنها كلما غربت سجدَتْ تحت العرش، واستأذنت في الرجوع فيؤذن لها، فإذا جاء وقت طلوعها من الغرب، استأذنت في الرجوع إلى مشرقها، فلم يؤذن لها -ثلاث مرات- ثم يقال لها: من مكانك فاطلعي، فتطلع على الناس من مغربها، ثم قرأ عبد الله الآية: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾[٣] الآية.

١٠ - وعن أبي ذر ﷺ قال: كنت رِدْفَ النبي ﷺ على حمار وعليه برذَعةٌ وقطيفةٌ، وذاك عند غروب الشمس، فقال: **«يا أبا ذر، أتدري أين تغيب هذه؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنها تغرب في عين حامية، تنطلق حتى تخرَّ لربها ساجدةً تحت العرش، فإذا حان خروجها أذن لها فتخرج فتطلُع، فإذا أراد أن يُطلعها من حيث تغرب حبسها، فتقول: ياربِّ،**

---

(١) كما رواه الخطيب البغدادي في تاريخه (٢/ ١٥٦) و«المسند» (٣/ ٣١) برقم (٦٥٣١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، و«سنن الترمذي» برقم (٣٠٧١) وابن ماجه (٤٠٦٩) والطيالسي (٢٢٤٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥/ ١٧٩) والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩) رُوي مرفوعًا وموقوفًا على أبي سعيد الخدري، ويشهد له الحديث بعد الآتي.

(٢) «المسند» (١١٢٦٦، ١١٩٣٨) صحيح لغيره، وأبو يعلى (١٣٥٣) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤٥٥) وعبد بن حميد في «المنتخب» (٩٠٠) وابن أبي حاتم (٨١٤١) وابن أبي شيبة (١٥/ ١٧٩) والطبراني في «الأوسط» (٢٠٢٣).

(٣) يُنظَر الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٤١) و«سنن أبي داود» برقم (٤٣١٠) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٦٩) و«المسند» (٦٨٨١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وعبدالرزاق (٢٠٨١٠) وابن أبي شيبة (١٥/ ٦٧) وعبد بن حميد في «المنتخب» (٣٦٦).

إنّ سَيْرِي بعيد، فيقول لها: اطلُعي من حيث غربت، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل»[١]. ولعل طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات السماوية.

وخروج الدابة هو أول الآيات الأرضية، وكلاهما أمر غير مألوف للبشر، وهذا بخلاف خروج الدجال، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج؛ فإن هذه الثلاثة أمور مألوفة للبشر؛ لأن مشاهدتهم ومخاطبتهم ليس غريبًا، وإذا طلعت الشمس من مغربها قُفل باب التوبة، فيجب على العباد أن يبادروا بالتوبة قبل أن يُقفل بابها.

١١- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدخان، ودابة الأرض، وخُوَيصةَ أحَدِكُم، وأمر العامة» قال قتادة: خويصة أحدكم**: الموت، **وأمر العامة**: أمر الساعة[٢].

١٢- وباب التوبة مفتوح على مصراعيه كما جاء عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»**[٣].

١٣- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»**[٤].

- وأخرج الإمام أحمد عن السعدي أن الهجرة لها معنيان:

أحدهما: هجر السيئات.

---

(١) مسلم (١٥٩) وأبو داود (٤٠٠٢) والترمذي (٢١٨٦، ٣٢٢٧) والنسائي «في الكبرى» (١١١٧٦) وابن أبي حاتم (٨١٤٣) وانظر في المسند (٢١٣٥٢).

(٢) «المسند» (٨٣٠٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم، (محققوه) وأخرجه ابن حبان (٦٧٩٠) ومسلم (٢٩٤٧) والحاكم (٤/ ٥١٦)

(٣) مسلم (٢٧٥٩) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٨١) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٨٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٩٩) وأبو الشيخ في «العظمة» (١٢٨) والمسند (١٩٥٢٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأخرجه الطيالسي (٤٩٠).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٣) و«المسند» (٢/ ٢٧٥) برقم (٧٧١١) وإسناده صحيح على شرط الشيخين و«تفسير الطبري» (١٢/ ٢٥٦) وعبد الرزاق (١/ ٢٢١)، في التفسير، وابن عدي في الكامل (٣/ ١٤١٢).

والأخرى: الهجرة إلى الله ورسوله.

وأن الهجرة لا تنقطع ما دام باب التوبة مفتوحًا، وأن التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها طُبع على كل قلب بما فيه، وكُفي الناس العمل[(١)].

١٤- وفي حديث معاوية بن أبي سفيان أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»[(٢)].

١٥- وعن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلت: ابتغاء العلم،... قال زر: فما برح يحدثني حتى حدثني أن الله جعل بالمغرب بابًا عرضه مسيرة سبعين عامًا للتوبة، لا يُغلَق ما لم تطلع الشمس من مغربها، وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾[(٣)].

أخرج الطبري بسند حسن عن السُّدِّي قال في معنى الآية: كسبتْ في تصديقها خيرًا، أي: عملًا صالحًا، فهؤلاء أهل القبلة، فإن كانت مُصَدِّقة ولم تعمل قبل ذلك خيرًا، فعملت بعد أن رأت الآية، لم يُقبل منها، وإن عملت قبل الآية خيرًا، ثم عملت بعد الآية خيرًا قُبِل منها.

وقد بيَّن سبحانه أن الملائكة يأتون صفوفًا يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر].

وبيَّن سبحانه أن الله تعالى يأتي في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة، وهذا من صفات الله

---

(١) يُنظَر: «المسند» (١/ ١٩٢) برقم (١٦٧١) قال محققوه: إسناده حسن قال ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٣٧٥) هذا الحديث حسن الإسناد، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٥١)- رجال أحمد ثقات والبيهقي (٧٢١٥) وله شواهد صحيحة.

(٢) «المسند» (١٦٩٠٦) وأبو داود (٢٤٧٩) وصحيح «سنن أبي داود» (٢١٦٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧١١) وهو حديث حسن لغيره، وأخرجه الدارمي (٢/ ٢٣٩) وأبو يعلى (٧٣٧١) والطبراني في الكبير ١٩ (٩٠٧).

(٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، «سنن الترمذي» برقم (٣٥٣٦) وعبد الرزاق في تفسيره برقم (٨٧٧) والنسائي في تفسيره برقم (١٩٨) وفي «الكبرى» (١١١٧٨) وابن ماجه في «السنن» برقم (٤٠٧٠) وابن خزيمة في صحيحه برقم (١٩٣) وابن حبان في صحيحه برقم (١٣٢١) و«تفسير الطبري» برقم (١٤٢٠٦) و«المسند» (١٨٠٩٥، ١٨١٠٠) صحيح لغيره وإسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود وبقية رجاله ثقات (محققوه) والطيالسي (١٢٦٤).

تعالى التي نؤمن بها كما وردت. ونؤمن أن الله تعالى ليس كمثله شيء، ونؤمن بمجيء الله تعالى يوم القيامة للفصل بين خلقه.

وعندما تأتي بعض آيات ربك بطلوع الشمس من مغربها، لا تنتفع النفس الكافرة بإيمانها في ذلك الوقت؛ لأن باب التوبة قد قُفِل، ولا يقبل الله عملًا صالحًا ممن لم يكن قد عمله من قبل.

قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

التَّفَرُّقُ فِي الدِّينِ يُنَافِي الإِيمَانَ

١٥٩ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ[1] دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾

في هذه الآية أمر بالاجتماع والائتلاف، ونهي عن التفرق والاختلاف في الدين، وفي مسائله الأصولية والفروعية، وفيها وعيد لمن فرّق دينه أو فارقه، فجعله فرقًا ومذاهب شتى، كل حزب بما لديهم فرحون، وهؤلاء ليس لهم نصيب في الإسلام، فقد أمر الله رسوله ان يتبرأ منهم ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ لأنهم خالفوك وعاندوك، وسوف يُردّون إلى ربهم فيجازيهم بأعمالهم.

ثم بيَّن سبحانه أحوال الفرق الضالة، بوجه عام، ممن يدخل تحت مسمى الإسلام ولكلمة (الإسلام) معنى عام هو توحيد الله تعالى وإسلام الوجه له، وبهذا أرسل الله جميع الرسل، وأنزل من أجله جميع الكتب، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فالدين الواحد: هو الإسلام، والعقيدة الواحدة: هي التوحيد، وكل رسول جاء يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٦١]. وليس هناك خلاف بين الرسل في العقائد.

أما الشرائع والتكاليف الشرعية، فقد جاءت بالتدرج على لسان كل رسول، بما يناسب

---

(١) قرأ حمزة والكسائي (فارقوا) بألف بعد الفاء وتخفيف الراء من المفارقة وهي الترك؛ لأن من آمن ببعض وكفر ببعض فقد ترك الدين القيم، وقرأ الباقون (فرقوا) بدون ألف بعد الفاء وتخفيف الراء من التفريق.

أمته في طور تاريخها، فشرعت الصلاة في هيئة القيام فقط في بعض الأمم، وكذا الركوع، أو السجود، وشرع الصيام ليوم واحد كيوم عاشوراء، أو الامتناع عن نوع معين من الطعام وهكذا، حتى اكتمل نضوج البشرية في آخر رسالة، فكان التشريع الأخير الذي يناسب الأمة كلها إلى قيام الساعة، وبهذا المعنى حملت دعوة محمد ﷺ هذا الاسم وهو (الإسلام)، وبعد أن اكتمل الدين على مدى الأجيال ورسالات الرسل، وبلغ أشده في الرسالة الخاتمة، كان هذا المعنى الخاص لكلمة (الإسلام) بإطلاقه على دين محمد ﷺ.

ومن هنا جاء اتفاق رسالات الرسل كلها في مجال العقيدة على الحنيفية السمحة دين إبراهيم، مع اختلاف في بعض الشرائع بين الرسالات.

وإلى هذا المعنى يشير قول النبي ﷺ في حديث أبي هريرة: **«نحن معاشر الأنبياء أولاد علّات ديننا واحد»**(١)

والعَلّات بفتح العين وتشديد اللام: هم الأخوة لأب من أمّات شتى، ومعنى **الحديث**: أن أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة.

ويشير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ إلا أن اليهود والنصارى فرقوا هذا الدين الواحد وفارقوه، فآمنوا ببعض الرسل، وكفروا ببعض، فقد كفر اليهود بعيسى ومحمد، وكفر النصارى بمحمد، وبهذا فرقوا بين الوحي النازل على هؤلاء الرسل، فآمنوا بنزوله على بعضهم دون بعض، وشايع بعضهم بعضًا في هذا الكفر، وهذا التفريق بين الرسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء].

وجبريل الذي نزل على موسى هو نفسه الذي نزل على عيسى ومحمد، فلماذا نؤمن به هنا، ونكفر به هناك؟

والتوحيد الذي جاء به الوحي من عند الله، وهو أصل الرسالات جميعًا: اختلف فيه اليهود والنصارى، ففرقوه وفارقوه، فقال بعض اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن

---

(١) البخاري (٦/ ٤٧٧) برقم (٣٤٤٢، ٣٤٤٣) ومسلم (٤/ ١٨٣٧) برقم (٢٣٦٥) وأبو داود (٥/ ٥٥).

الله، فأدخلوا الشرك على التوحيد، وفارقوا دين الله الواحد وباينوه، وجعلوه فرقًا متناحرة، فالنصارى فرق: (كاثوليك، وأرثوذكس، وبروتستانت) وغيرهم، واليهود فرق.

والله سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ: أنت بريء من هؤلاء الذين اختلفوا في دين الله، وخرجوا عن التوحيد، وشايع بعضهم بعضًا في ذلك، وإلى هذا المعنى يشير قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البينة].

والبينة التي جاءتهم هي رسالة محمد ﷺ التي كفروا بها، وكانوا قبل مجيئه يقولون: نحن أول من سيؤمن بالنبي الخاتم، ويقرر الله سبحانه هذا المعنى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. لا تختلفوا في هذا التوحيد الذي جاءت به كل الرسل؛ لأن التفرق في أصول الدين ينافي وحدته، وتفريق أصوله بعد اجتماعها كمن فرَّق بين الصلاة والزكاة، كما قال أبو بكر ﷺ: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

أما التفريق في استنباط الأحكام، كالاختلاف في الفروع الفقهية والاختلاف في الأصول الفقهية؛ كالفرق بين الفرض، والواجب، فهو مما كلف الله به العلماء، وجعل للمصيب أجرين، وللمخطئ أجرًا بعد استفراغ الجهد والطاقة.

وسياق الآيات يدل على أن المراد بالآية التي نحن بصددها هم: اليهود، والنصارى؛ لأن في الآيات قبلها ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]. أي: وحَّد الله وأطاعه، وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]. وهم اليهود والنصارى الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا وفرقًا وطوائف ومذاهب، وآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، وجعلوا من التوحيد أبوة وبنوة وتثليثًا، والله تعالى يحذرنا في هذه الآية أن نكون مثلهم؛ فالإسلام يجمع ولا يفرق، ويوحِّد ولا يشكك، ويؤمن بكل الرسل، ويأمر بالتعاون على البرِّ والتقوى، والاعتصام بحبل الله تعالى أمة واحدة.

وكل مسلم في شتى بقاع الأرض، يؤمن بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وبالقرآن كتابًا، وبالكعبة قبلة، فهو أحد أبناء الإسلام، وواحد من أفراد هذه الأمة، ولا يمنع من ذلك أن يكون بعضهم مرتكبًا لبعض الذنوب صغيرها أو كبيرها، أو أن يكون

خارجًا على الصواب في بعض الفروع؛ فإن هذا لا يخرجه عن دائرة الإسلام.

ويوضح هذا المعنى القراءة المتواترة الثانية التي في الآية وهي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: باينوه وتركوه، وانصرفوا عنه فأعرضوا عنه بالكلية؛ لأن من فرَّق دينه فارقه.

والدين دين الله، وقد أُسنِد الدين إليهم في الآية؛ لأن الله تعالى قد ألزمهم به، فهو دين الناس جميعًا بهذا المعنى، وهذا ينطبق على كل من ترك دين محمد ﷺ من لدن بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يشمل أهل الكتاب وغيرهم من المشركين والوثنيين والمسلمين، ويشمل كل من فارق دين الله وخالفه من جميع أهل الملل والنِّحَل والأهواء والضلالات والبدع.

والله تعالى قد برَّأ رسوله مما هم عليه من تفرق واختلاف وضلالات، فصاروا فرقًا وأحزابًا.

والله تعالى يقول لرسوله: اترك هؤلاء وأولئك؛ فإن حكمهم إلى الله، فسوف يرجعون إليه ويخبرهم يوم القيامة بما عملوا، فيجازي من تاب منهم وأناب بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ اتركهم وشأنهم، وتبرأ منهم ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فسوف يرجعون إليه ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ويجازيهم عليه:

آثار وأحاديث في المعنى:

١- قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى[١].

٢- وجاء في الحديث عن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في الآية: «**هم أصحاب البدع**»[٢].

٣- وقال أبو الأحوص وأم سلمة: الآية في أهل البدع والأهواء والفتن ومن جرى مجراهم من أمة محمد ﷺ[٣].

٤- وعن ابن عباس ﷺ أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث النبي ﷺ فتفرقوا، فلما بُعث محمد ﷺ أنزل الله الآية[٤].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ٢٦٩).

(٢) قاله الهيثمي في «مجمع الزاوئد» (٧/ ٢٢) رواه الطبراني في «الصغير» (١/ ٣٣٨) وإسناده جيد.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٦٧).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٧).

٥- وقال أبو هريرة ﷺ في هذه الآية: هم أهل الضلالة من هذه الأمة[١].
وهم أهل البدع، وأهل الشبهات من هذه الأمة.

٦- وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودِّع، فما تَعْهَد إلينا؟ فقال: **«أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد حبشي، فإن من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسَّكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»**[٢].

٧- وعن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«تفرقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»**[٣].

وعلى هذا فالآية عامة، ويدخل فيها اليهود والنصارى دخولًا أوَّليًّا، وفيها حض لهذه الأمة على الائتلاف وعدم الاختلاف، والآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له، فقد بعث الله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على جميع الأديان بلا اختلاف ولا تفرق، ويندرج في هذه الآية أصحاب الفرق الباطلة والمذاهب الفاسدة في كل زمان ومكان؛ كالقاديانية، والبهائية، والباطنية.

---

(١) «تفسير البغوي» و«الخازن» للآية.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة (٧/ ١١) برقم (٤٦٠٧) والترمذي في العلم (٧/ ٤٣٧) عقب الحديث (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح وهو في المسند (١٧١٤٤، ١٧١٤٢) حديث صحيح ورجال ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن ماجه (٤٣) والحاكم (١/ ٩٦) وابن أبي عاصم في السنة (٣٣).

(٣) ورد هذا الحديث من طرق كثيرة بألفاظ مختلفة. فقد أخرجه أبو داود في السنة (٧/ ٣) برقم (٤٥٩٦) والترمذي في الإيمان (٧/ ٣٩٧) برقم (٢٦٤٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن برقم (٣٩٩١) وابن حبان برقم (١٨٣٤) في الموارد والدارمي في السير (٢/ ٢٤١) والحاكم وصححه على شرط مسلم، وابن ماجه في المقدمة برقم (٤٢) والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٠٥). والحديث إسناده حسن كما جاء في تحقيق مسند أحمد عن أبي هريرة برقم (٨٣٩٦).

فَضْل اللَّهِ وَعَدْله فِي الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ

١٦٠- ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ[1] أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[2]﴾

وبعد أن أنذر الله تعالى المؤمنين، وحذَّرهم من التقاعس عن اكتساب الخير، بشر مَن يكتسبون الصالحات بمضاعفة الحسنات، وبمناسبة الحساب والجزاء الذي خُتمت به الآية السابقة، قرر ﷻ في هذه الآية ما كتبه ربنا على نفسه من الرحمة في حساب عباده، فبيّن صفة الجزاء في أقل تضعيف لها، وأن من جاء بالحسنة القولية أو الفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى أو حق خلقه، فجعل لمن جاء بالحسنة، مِنْ كُلِّ عمل صالح، له عند الله عشر أمثالها، شريطة أن يكون مؤمنًا؛ إذ لا يوجد مع الكُفْر حسنة، ومن جاء بالسيئة فلا يُجزَى إلا مثلها؛ إذ لا يظلم ربك أحدًا، ولا يُبخس أحدٌ حقه.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: من لقي ربه بحسنة من الأعمال الصالحة ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي: يجازى على الحسنة الواحدة عشر حسنات مع المضاعفة، ومن لقي ربه بسيئة من السيئات فلا يعاقب إلا بمثلها دون مضاعفة.

والزيادة في الحسنات من باب الفضل، والمعاملة في السيئات بالمثل من باب العدل ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فيجازي من تاب وأحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته، وأن من أتى بسيئة فإن العقوبة لا تضاعف عليه، وإنما يجازَى بمثلها، وهذا من تمام عدل الله تعالى الذي لا يظلم مثقال ذرة.

وهذه الآية عامة في جميع الحسنات والسيئات، وعامة لجميع الأمة، أي: أن الله تعالى يضاعف ثواب الحسنة بعشرة مضمونة، وبعدها يزيد ما يشاء لمن يشاء، والتوحيد يوجب الجنة، والشرك يوجب النار ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون من جزائهم شيئًا.

وقد جاءت **الأحاديث مطابقة لما في هذه الآية**، وهذه جملة منها:

١- عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: أُخبر رسول الله ﷺ أني أقول: والله لأصُومنَّ

---

(١) قرأ يعقوب بتنوين (عشرٌ) ورفع (أمثالُها) صفة لعشر، والباقون بغير تنوين (عشر) وخفض (أمثالِها) على الإضافة.

(٢) غلظ الأزرق لام (لا يظلمون) الثانية، ورققها بقية القراء.

النهار، ولأقومنَّ الليل ما عشتُ، فقلت له: قد قلتُه بأبي أنت وأمي، قال: **«فإنك لا تستطيع ذلك»**، قال: **«فصُم وأفطر، وقُم ونَم، وصُم من الشهر ثلاثة أيام؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر»** الحديث[1].

٢- وعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من صام رمضان، ثم أتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدهر»**[2].

وذلك لأن الحسنة بعشر أمثالها، وشهر رمضان ثلاثون يومًا يضاف إليه ستة من شوال مضروبة في عشر، فهي حسنات بعدد أيام السنة.

٣- وعن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها»**، قال: قلت: يا رسول الله، أمن الحسنات: لا إله إلا الله؟ قال: **«هي أفضل الحسنات»**[3].

٤- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: قال الله ﷻ، -وقوله الحق-: **«إذا همَّ عبدي بحسنة، فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر حسنات، وإذا همَّ بسيئة فلا تكتبوها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، فإن تركها -وربما قال: لم يعمل بها- فاكتبوها له حسنة»**، ثم قرأ ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾[4].

٥- وعن ابن عباس ﷺ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن ربكم رحيم، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له**

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٩٧٦، ٣٤١٨) و«صحيح مسلم» برقم (١١٥٩) والنسائي (٢٣٩٢) وفي «الكبرى» (٢٧٠٠) وابن حبان (٣٦٥٨، ٣٦٦٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١١٦٤).

(٣) «المسند» (٥/ ١٦٩) برقم (٢١٤٨٧،٢١٥٣٦) حسن لغيره، وفي كتاب الزهد (٢٧) و«تفسير الطبري» (٨/ ٨١) وابن أبي حاتم برقم (١٢١٥) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٧) والبيهقي (١/ ١٨٢) قال الألباني: وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات، غير أشياخ شِمْر فلم يُسمُّوا، ثم ساقه عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر، وقال: وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات، رجال مسلم، وهو في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٧٣) و انظر سنن الترمذي (٣٣٨٣) وابن ماجه (٣٨٠٠)

(٤) قال أبو عيس: هذا حديث حسن صحيح، «سنن الترمذي» برقم (٣٠٧٣) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤٥٧) وأصله عند مسلم برقم (٢٠٣، ٢٠٦) وعند البخاري برقم (٦٤٩١)

عشرًا إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله ﷻ، ولا يهلك على الله إلا هالك»(١).

٦- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها، لم يكتب عليه شيء، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة»(٢).

٧- وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله ﷻ: «من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر، ومن عمل قُراب الأرض خطيئة، ثم لقيني لا يشرك بي شيئًا جعلتُ له مثلها مغفرة، ومن اقترب إليَّ شبرًا اقتربتُ إليه ذراعًا، ومن اقترب إليَّ ذراعًا اقتربتُ إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»(٣).

٨- وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حَضَرها بِلَغْوٍ فهو حظُّه منها، ورجل حضرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه وإن شاء منَعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت، ولم يتخطَّ رقبة مسلم، ولم يؤذِ أحدًا، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾»(٤).

٩- وعن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام

---

(١) «المسند» (١/ ٢٧٩) برقم (٢٨٢٧، ٣٤٠٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وانظر (٢٠٠١،٢٥١٩) وهو عند البخاري (١١: ٣٢٣) برقم (٦٤٩١) ومسلم (١/ ١١٧) برقم (١٣١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٧٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٢١) وفي شعب الإيمان (٣٣٣).

(٢) رواه أبو يعلى على شرط مسلم (٦/ ١٧٠) ط أولى، ورقمه (٣٤٥١، ٣٤٩٩) ورواه مسلم في حديث الإسراء (١/ ١٤٧) برقم (١٦٢) من حديث طويل، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٥) رجاله رجال الصحيح

(٣) «المسند» (٥/ ١٥٣) برقم (٢١٣٦٠، ٢١٤٨٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٨٧) وابن ماجه (٢٨٢١) والبيهقي في «الشعب» (١٠٤٣) والبزار في مسنده (٣٩٨٨) والطيالسي (٤٦٤) والبغوي (١٢٥٣).

(٤) «سنن أبي داود» برقم (١١١٣) و«صحيح ابن خزيمة» برقم (١٨١٣) وصححه أحمد شاكر في تحقيق «المسند» برقم (٦٧٠١، ٧٠٠٢) وابن أبي حاتم (٨١٦٧)، وحسّن إسناده محققو المسند.

الدهر كله» هذا لفظ أحمد[١].

وزاد الترمذي: **«فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾** اليوم بعشرة أيام»، وقال: هذا حديث حسن[٢].

وعن مضاعفة الحسنات من عشر إلى سبع مئة حسنة إلى أضعاف كثيرة يقول سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة].

ورأس الحسنات كلمة التوحيد، ورأس السيئات الشرك بالله تعالى، ومضاعفة أجر الحسنة يزيد في المضاعفة على إيمان العبد وإخلاصه فيه.

قال ابن كثير: واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام:

١- تارة يتركها لله، فهذا تُكتَب له حسنة، على كفِّه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونيَّة، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: **«فإنما تركها من جرَّائي»** أي: من أجلي.

٢- وتارة يتركها نسيانًا وذهولًا عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينوِ خيرًا، ولا فعل شرًّا.

٣- وتارة يتركها عجزًا وكسلًا بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا يتنزل منزلة فاعلها.

كما جاء في الصحيحين: **«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»**[٣].

---

(١) «المسند» (٥/ ١٤٥) برقم (٢١٣٠١) صحيح لغيره، بإسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، (محققوه) و«سنن النسائي» (٤/ ٢١٩) و«سنن ابن ماجه» برقم (١٧٠٨) والترمذي (٧٦٢) والبغوي (١٨٠١) ومسند البزار (٣٩٠٤).

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٧٦٦). و صححه الألباني في صحيح الترمذي (٦٠٩) وإرواء الغليل (٤/ ١٠٢) وإسناده على شرط الشيخين.

(٣) رواه البخاري برقم (٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣) ومسلم (٤/ ٢٢١٣) برقم (٢٨٨٨) وأبو داود (٤/ ٤٦٢) من حديث أبي بكرة.

أَرْبَع آيَاتٍ جَامِعَةٍ لِأصولِ العَقِيدَةِ وَالعِبَادَةِ

١٦١- ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ[١] إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ[٢] دِينًا قِيَمًا[٣] مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ[٤] حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

وقد خُتمت سورة الأنعام بخمس آيات جامعة لوجوه الخير، مناسبة لمبادئ الدعوة وإعلانها وتبليغها للناس، مؤذنة بختام السورة، وإنهاء المحاجة مع المعارضين، وتشتمل هذه الآيات على ثلاث تلقينات: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ وهي تشير إلى وحدة الدين، وإخلاص العبادة، ونقاء التوحيد، وعدالة الجزاء، وهذه التلقينات الثلاث مكملة لأربع وأربعين قولًا تلقينيًا أُمر الرسول ﷺ بترديدها خلال السورة كلها، وهي تشير إلى النبي الخاتم الذي محّض دعوته ونُصحه وعبادته لله تعالى، وبلغ شأنًا لم يبلغه أحد قبله ولا بعده:

والتلقين الأول من هذه التلقينات الثلاث الأخيرة يتناول جانب العقيدة من الهداية إلى الطريق القويم والدين القيم، ملة إبراهيم.

والتلقين الثاني يتناول جانب العبادة: الصلاة، والنسك، والمحيا، والممات.

والتلقين الثالث يتناول نتيجة الاختبار الدنيوي في الدار الآخرة، ومهمة الإنسان في هذه الحياة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وقل لغيرهم ممن أُرسلتَ إليهم، وبلِّغهم أمر الله تعالى لرسوله ﷺ أن يعلن عن شريعته إلى العالمين، وينبه الناس إلى عدم صلاحية غيرها، ويصف شريعته بالحُسْنِ والفضل والاستقامة، ويبيِّن أن إعراض المكذبين عن رسالته لا يزلزله عن الحق.

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ربيَ إلى) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٢) هذه الكلمة (مستقيم) أسقطها الكوفي من العدد، وعدّها غيره.

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بكسر القاف وفتح الياء من (قِيَمًا)، والباقون بفتح القاف وتشديد الياء مصدر قيِّم على وزن فِعَل.

(٤) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهام) بفتح الهاء وألف بعدها، وقرأ الباقون (إبراهيم) بكسر الهاء وياء بعدها ومعهم ابن ذكوان في الوجه الثاني.

قل لهم جميعًا: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أرشدني ربي إلى الطريق المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن والنهي عن كل قبيح، وهو الدين الأقوم الموصل إلى جنته ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ كاملًا لم يسبق أحد إلى مثله، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، وهو دين ثابت لا يتغير ولا ينسخ، دين مستقيم، لا اعوجاج فيه ولا زيغ، يقوم بأمور الدنيا والآخرة، ويُصلِح المعاش والمعاد، وهو دين إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، خليل الرحمن، وهو الدين المائل عن كل دين غير مستقيم من شرائع اليهود والنصارى والمشركين ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾ هو دين التوحيد الخالص الذي جاء به إبراهيم مائلًا عن الضلالة إلى الاستقامة، وعن الشرك إلى إفراد الله تعالى بالعبادة ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ مع الله غيره.

وفي هذا رد على الذين يزعمون أنهم على دين إبراهيم وهم يشركون بالله غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]. وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨].

وقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾ إلى أن قال: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٣].

وفي هذا بيان أن هذا الدين جاء بأصول شريعة إبراهيم وهي: التوحيد، ومسايرة الفطرة، والشكر، والسماحة، وإعلان الحق.

عن ابن عباس ﷺ أنه قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»[١].

وكان النبي ﷺ إذا أصبح قال: «**أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة إبراهيم حنيفًا، وما كان من المشركين**»[٢].

---

(١) رواه البخاري تعليقا (١/ ٩٣) في الإيمان، باب الدين يسير، وحسّن إسناده الحافظ في الفتح، وهو في «المسند» (١/ ٢٣٦) برقم (٢١٠٧) قال محققوه: صحيح لغيره، وفيه ابن إسحاق، متكلم فيه، وله شاهد قوي من حديث عائشة مرفوعًا (إني أرسلت بحنيفية) المسند (٦/ ١١٦) وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٨٧) وعبد بن حميد (٥٦٩).

(٢) حديث حسن، عن ابن أبزى، عن أبيه، رواه ابن مردويه، وهو في «المسند» (٣/ ٣٠٦) برقم (١٥٣٦٠، ١٥٣٦٣) إسناده صحيح على شرط الشيخين، والدارمي (٢/ ٢٩٢) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ص٣٤ حديث (٣) وفي الكبرى (٩٨٣١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١١٦): رجاله رجال الصحيح.

ثم خصص سبحانه من عموم ما سبق أشرف العبادات فقال:

١٦٢، ١٦٣ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ[1] وَمَمَاتِي[2] لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا[3] أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾

أمر الله تعالى رسوله أن يعلن للناس أن صلاته وطاعته وذبيحته وتصرفه مدة حياته، وكذا حاله وإخلاصه وإيمانه عند مماته، كل ذلك لله وحده، طلبًا لمرضاته وابتغاء وجهه، وفي هذا أمر للمؤمنين بالتأسي والاقتداء برسول الله ﷺ؛ كي يلتزموا بذلك في جميع أقوالهم وأفعالهم، كما أن أفعال العبد وأقواله في حياته ومماته كلها بيد الله تعالى.

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول، للخلق جميعًا ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: عبادتي وذبيحتي، وكل ما يقربني إلى ربي من حج وعمرة ومناسك، ودعاء وعبادة، ونذر وذبح.

والصلاة فيها تقرب إلى الله تعالى بالقلب واللسان والجوارح.

والذبح فيه بذل ما تحبه النفس من المال إلى من هو أحب إليه منه وهو الله سبحانه.

ولذا خص الصلاة والذبح بالذكر دون غيرهما من العبادات.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: حياتي كلها وموتي أيضًا، وكل ما أوتيته في حياتي من العمل الصالح، وما أموت عليه من الإيمان والإخلاص والثبات على الحق، كل هذا خالصٌ ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فحياتي كلها في طاعته سبحانه، ومماتي ورجوعي إليه يوم لقائه للحساب والجزاء، له وحده، وليست للأصنام، ولا للأموات، ولا للجن، ولا لغير ذلك مما يتوجه به بعض المشركين لغير الله تعالى، وعلى غير اسمه.

وكان المشركون يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ بمخالفتهم في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)﴾ [الكوثر].

---

(١) قرأ نافع بخلف عن ورش وأبو جعفر بإسكان ياء الإضافة مع المد ست حركات لاجتماع الساكنين (ومَحْيَايْ)، والباقون بفتح ياء الإضافة مع عدم المد، ومعهم الوجه الثاني لورش.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ومماتي)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر (وأنا أول) بإثبات ألف (أنا) وصلًا ووقفًا فهو مد منفصل عندهم، والباقون بحذف ألف (أنا) وصلًا وإثباتها وقفًا.

وتفسير النسك في هذه الآية بالذبيحة يناسب ما في هذه السورة من الجدل حول الأنعام، ولا يمنع أن يراد به جميع الطاعات والعبادات، ويكون من عطف العام على الخاص.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: ضحّى رسول الله ﷺ في يوم عيد بكبشين، وقال حين ذبحهما: **«وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»**[١].

من أدعية الاستفتاح:

١- وعن علي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا كبرَّ استفتح، ثم قال: **«وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، وأعترف بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك»**[٢].

والمسلم حين يقول: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يحكي لفظ القرآن الكريم الذي يخاطب الرسول ﷺ وهو أول مسلمي هذه الأمة.

٢- ومن أدعية استفتاح الصلاة: **«اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد»**[٣].

---

(١) أبو داود (٣/ ٢٣١) وابن ماجه (٢/ ١٠٤٢) بإسناد فيه مقال برقم (٣١٢١) وانظر صحيح مسلم عن أنس (١٩٦٦)

(٢) من حديث علي بن أبي طالب ومحمد بن سلمة وهو في «صحيح مسلم» (١/ ٥٣٤) برقم (٧٧١) وأبي داود (١٠/ ٤٨١) وغيرهم مختصرًا من حديث ابن عمر برقم (٦٠١) في «صحيح مسلم» ومطولًا من حديث علي.

(٣) من حديث أبي هريرة في «البخاري» برقم (٧٤٤) ومسلم برقم (٥٩٨) وأبي داود والنسائي، كما في «جامع الأصول»، رقم (٢١٤٦).

٣- ومنها: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك**»[١].

وجميع الأنبياء، قبل محمد ﷺ، كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصل الإسلام: عبادة الله وحده لا شريك له، ورسل الله جميعًا جاؤوا بشرائع خاصة تناسب حال أممهم، وكل شريعة منها نُسخت بما بعدها، إلى أن جاءت شريعة محمد ﷺ فنَسخت ما قبلها من شرائع إلى قيام الساعة، ولأن الرسالات متفقة في الأصول، وعلى رأسها عقيدة التوحيد، ومتنوعة في الشريعة، فقد شبههم النبي ﷺ بالإخوة من أب واحد وأمَّهات شتى، كما جاء في الحديث: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلَّات، ديننا واحد**»[٢].

وهذه الآية تتضمن إخلاص العبادة لله وحده، وهذا فرْع عن التوحيد، ولذلك سُمِّي الرياء: الشرك الأصغر، وكان المشركون يزعمون أن النبي ﷺ يرائي بصلاته عند الكعبة فقالوا: ألا تنظرون إلى هذا المرائي، أيكم يقوم إلى جَزور بني فلان، فيعمد إلى فرْثها وسَلَاها، فإذا سجد وضعه بين كتفيه؟»[٣].

فأمر الله رسوله أن يقول لهم: إن صلاتي التي أتوجه بها إلى ربي، وعبادتي وَتَقَرُّبِي إليه، وذبائح الحج والعمرة والأضاحي وغيرها، وكل ما أعمله في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح لله تعالى، وأنا متجرد تجرُّدًا كاملًا لخالقي ورازقي بكل خالجة في قلبي، وكل حركة في حياتي.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وهو سبحانه ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في ألوهيته، ولا في ربوبيته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا

---

(١) أخرجه الترمذي عن عائشة برقم (٢٤٣) وأبو داود (٧٧٦) والنسائي (٨٩٩) وابن ماجه (٨٠٦) بأسانيد ضعيفة ويُنظَر «جامع الأصول» برقم (٢١٥٢) ويُنظَر حديث (٢١٥١) وهو في «صحيح مسلم» برقم (٣٩٩) عن عمر بن الخطاب موقوفًا عليه وهو الأصح.

(٢) من حديث أبي هريرة في «البخاري» برقم (٣٤٤٢، ٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥).

(٣) تفسير «التحرير والتنوير» (٨/ ٣٠١).

أشرك في عبادته أحدًا من خلقه، ولا في شيء من أفعالي وأقوالي، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداعًا مني، بل إن الله تعالى أمرني به ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ وبهذا الدين الخالص، والتوحيد الثابت أمرني ربي ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أنا أول من أسلم من هذه الأمة؛ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته، وأنا أول من أقر وانقاد لله من هذه الأمة، وغير النبي ﷺ من المسلمين وليس أولهم.

التَّجَرُّد الْكَامِل للهِ تَعَالَى

١٦٤ - ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

وبعد هذا التجرد الكامل لله تعالى في المحيا والممات، في كل حركة، وكل نفَس، وفي كل خالجة وكل خاطرة، يأتي الرجوع إلى ضلال الكافرين، ويأتي توجُّه النبي ﷺ إلى كل من كفر بالله تعالى وعبد غيره أن يقول له: أغير الله أطلب إلهًا، وهو خالق كل شيء ومالكه ومدبره، أيحسن ويليق بي أن أتخذ ربًّا وخالقا غير الله تعالى، وجميع الخلق منقادون لله تعالى، داخلون تحت ربوبيته، فتعيّن عليَّ وعلى غيري عدم التعلُّق بأحد غير الله تعالى، فهو خالقه ورازقه ومدبر أمره، ومحييه ومميته.

وكان الكفار قد قالوا للنبي ﷺ: ارجع إلى ديننا واعبد آلهتنا، ونحن نتكفل لك بكل تَبِعَةٍ تتوقعها في دنياك وآخرتك[1] فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فهل يصح أن أتخذ ربًّا غير الله الذي خلق كل شيء قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. وقال سبحانه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

والاستفهام للإنكار وكلمة ﴿رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تنتظم هذه الكون بما فيه، فتشمل كل حادث، وكل كائن، وتشمل كل مخلوق، يعلمه الإنسان أو يجهله.

أغير الله أطلب ربًّا، وهو سبحانه يعلم سري ونجواي، ويحاسبني على ما أكتسب من طاعة أو معصية؟

---

(١) ذكره ابن عطية عن النقاش (٢/ ٣٧١).

أغير الله أبغي ربًا، وهذا الكون، كله في قبضته، وإليه مرجعكم جميعًا فيجازيكم على أعمالكم؟

أغير الله أبغي ربًا، وهو سبحانه يحفظني ويكلؤني، ويدبر أمري؟ ولما كان سبحانه رب كل شيء ومليكه فلا حق لغيره في أن يعبده الخلائق.

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير أو شر ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فلا يعمل الإنسان عملًا سيئًا إلا كان إثمه عليه.

ولا تحمِل نفسٌ آثمة إثمَ نفس أخرى، بل كلٌّ عليه وزر نفسه، وإن تسبَّب أحد في ضلال غيره، فإن عليه وزر التسبُّب، من غير أن ينقص من وزر المكتسب للعمل السيء شيء ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هذا إخبار عما يقع يوم القيامة وعن حكم الله وتعالى وعدله، وأن النفوس تُجْزَى بأعمالها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر كما قال تعالى:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]. لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وكسبها لا يتعداها إلى غيرها، ولا تغني نفس عن نفس شيئًا.

قال ابن عباس: كان الوليد بن المغيرة يقول: اتبعوا سبيلي، أحمل عنكم أوزاركم، فردَّ الله عليه بهذه الآية.

فإثم الجاني على نفسه لا على غيره، ولا يؤاخَذ أحد بذنب غيره ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. وكل نفس مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [المدثر].

والخلائق كلها ترجع إلى الله ﷻ في يوم المعاد، فيخبرهم بما اختلفوا فيه في الدنيا من أمر الدين، ويجازيهم على ما قدمت أيديهم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا مما جعلكم فرقًا وأحزابًا ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [سبأ: ٢٦]. فيحاسبنا على ما قدمت أيدينا فيسمعهم الداعي بدون واسطة الرسل، وليس بينهم وبين الله حجاب.

نَتِيجَةُ الاسْتِخْلَافِ فِي الأَرْضِ

١٦٥- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

وختمت السورة بهذه الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلكم تخلُفون مَن سبقكم في عمارة الأرض، من الأمم والقرون الماضية، فأوْرثكم أرضهم؛ وسخر لكم جميع ما فيها لتخلُفوهم فيها وتعمِّروها بعدهم، وتُحقِّقوا ما خُلقتم لأجله، وهو طاعة الله تعالى وعبادته؛ وذلك لأن محمدا ﷺ هو خاتم الأنبياء وهو آخرهم، وأمته آخر الأمم، فهي خلَف بعد سلف.

وهذه الأمة ورثت الأمة التي قبلها، وهي أمة يخلُف بعضها بعضًا في عمارة الأرض فهذا الجيل يخلُف الجيل الذي قبله، ثم يأتي الجيل الذي بعده ليرث الوارث، وفي نهاية الأمر يرث الله الأرض ومن عليها.

جاء في الحديث: توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله، وفي رواية: أنتم آخرها وأكرمها على الله(١).

قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وكما أن هذه الأمة خلَفت الأمم قبلها، فإن الإنس خلَف الجن، كما قال تعالى:

﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يعمرها ويسكنها ويعبد الله فيها.

ولكي تسير عجلة الحياة، فإن الله تعالى قد فاوت بين خلقه، ولم يجعلهم متساوين في كل شيء، قال تعالى:

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: خالف بين أحوال العباد، فجعل بعضهم فوق

---

(١) رواه الحسن بن أبي الحسن عن النبي ﷺ كما في «تفسير ابن عطية» (٢/ ٣٧٠). وهو في سنن الترمذي (٣٠١) عن بهز بن حكيم بلفظ (إنكم تتمون سبعين أمه) وقال: هذا حديث حسن، وفي سنن ابن ماجه (٤٢٨٨) (إنكم وفيتم سبعين أمة) تبحسين الألباني له، من حديث معاوية بن حيدة القشيري، وفي المسند عن بهز عن أبيه عن جده (٢٠٠٢٩) بلفظ (ألا إنكم توفون سبعين أمة) بإسناد حسن.

بعض في الرزق والنسب والعقل والقوة والفضل، هذا غني وهذا فقير، هذا حسن وهذا دونه، هذا عالم وهذا جاهل، هذا حاكم وهذا محكوم، هذا رئيس وهذا مرؤوس، هذا صحيح وهذا مريض، وهكذا ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء].

وهذا التفاضل للابتلاء والتحميص ورفع الدرجات.

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾.

أي: ليعاملكم معاملة المختبر، وهو سبحانه أعلم بأحوال عباده؛ ليبلوكم فيما أعطاكم من نعمة، فيظهَر للناس الشاكر من غيره، والكل مبتلى، فالغني مبتلى بغناه، والفقير مبتلى بفقره، وصاحب المنصب والجاه مبتلى بما هو فيه، والصحيح مبتلى بصحته، والمريض مبتلى بمرضه وهكذا.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها؛ لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»**(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن كفر به وعصاه وكذب بآياته، فحساب الله وعقابه سريع لمن خالف رسله، وكل آت قريب ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ لمن آمن به وعمل صالحًا، وتاب وأناب، وابتعد عن الموبقات، رحيم به، والغفور الرحيم: اسمان كريمان من أسماء الله الحسنى.

وبهذا الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، تختم سورة الأنعام، فالله تعالى يدعو عباده تارة بالترغيب في الجنة لمن أطاعه، وتارة بالترهيب من النار لمن خالف أمره.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بالجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد، خلق الله مئة**

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٤٢) كتاب الرقائق.

رحمة، فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسعة وتسعون رحمة»[1].

وكما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝﴾ [الحجر].

وفي الآية حث على التوبة لكل من أذنب، وفيها اقتران الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [المائدة].

والله تعالى يرغِّب عباده في طاعته فيعدهم بالجنة ويصفها لهم، ويرهِّبهم من النار وأنكالها وعذابها وأهوال يوم القيامة؛ ليبتعدوا عن معاصيه، وفي هذا جمع بين الخوف والرجاء.

وسرعة العقاب إما في الدنيا بتعجيل الأخذ، أو في الآخرة؛ لأن كل آت قريب.

والخطاب في هذه الآية موجه إلى الذين أُمر الرسول ﷺ أن يقول لهم: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾؛ كي يذكِّرهم بما يصيرون إليه بعد إنذاره لهم، حثًّا لهم على تدارك ما فات، وتذكيرًا لهم بالنظر في عواقب الأمور، وبما أنعم الله عليهم بأن جعلهم خلائف لمن سبقهم في هذه الأرض؛ كي يشكروا الله تعالى على تلك النعمة، ويجتهدوا في زيادة الفضل والترقي في الدرجات العلا، وينبغي عدم التردد في ذلك؛ فإن الله تعالى سريع العقاب لمن عصاه، غفور رحيم لأهل المغفرة والرحمة، وهذا يستدعي سرعة الإقلاع عما هم فيه من ضلال وسرعة الإقبال على الله تعالى.

وهذا هو موضوع السورة، حيث عالجت قضية العقيدة علاجًا قويًّا حكيمًا من بدايتها إلى نهايتها، وطوَّفت بالنفس البشرية في الكون كله؛ لترشدها إلى وجوب توحيد الخالق سبحانه.

وكشفت السورة عن مواطن الشرك ومظاهره لتدمغه وتدحضه، وتخلص البشرية من أمراضه وأدرانه، فهي سورة جديرة باحتفاء الملائكة بها حين نزلت على سيد الخلق ﷺ من الملأ الأعلى هداية للناس وشفاء لما في الصدور، وموعظة وذكرى لمن ألقى السمع وهو شهيد.

تم تفسير (**سورة الأنعام**) ولله الحمد والمنة

---

(١) «المسند» (٢/٢٨٤) برقم (٨٤١٥، ٩١٦٤، ١٠٢٨٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه) ومسلم (٤/٢١٠٩) برقم (٢٧٥٢) والترمذي (٥/٥٤٩) برقم (٣٥٤٢). وابن حبان (٣٤٥) وأبو يعلى (٦٥٠٩).

فهرس الموضوعات

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة